رفيق شامي

سرّ الخطاط الدفين

ترجمة: خالد الجبيلي

خطوط الكتاب: عصمت أميرالاي

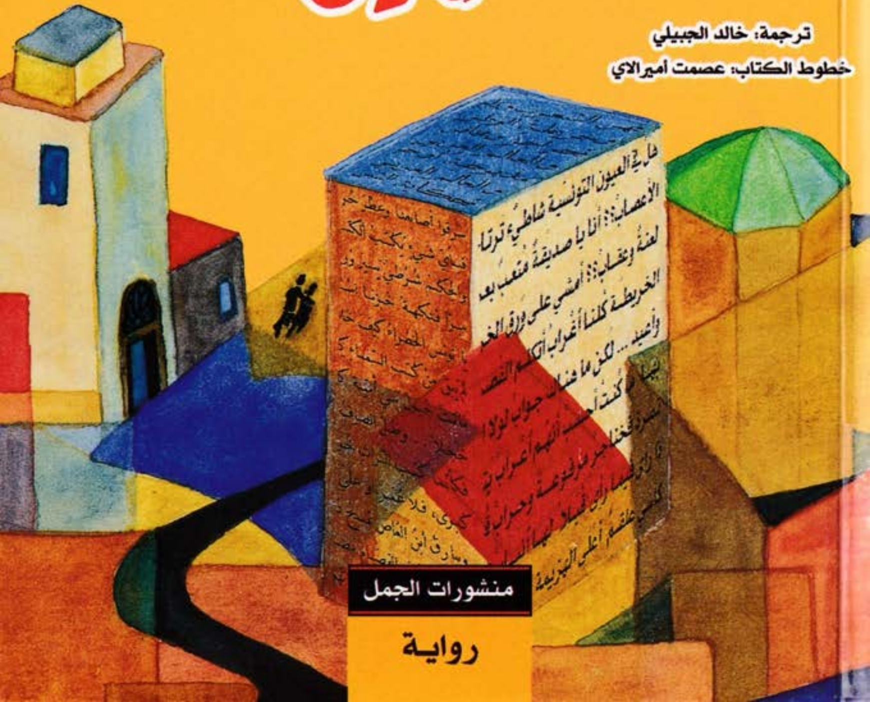

منشورات الجمل

رواية

سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

رفيق شامي: سرّ الخطاط الدفين، رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

ولد **رفيق شامي** (اسمه الحقيقي سهيل فاضل) في دمشق عام ١٩٤٦. درس الرياضيات والفيزياء والكيمياء كي يعمل معلماً في المدارس، غير أنه ترك البلاد عام ١٩٧١ إلى ألمانيا حيث أكمل دراسته في الكيمياء وحاز على الدكتوراه عام ١٩٧٩ وعمل لعدّة سنوات في اختصاصه. صدر كتابه الأول بالألمانية عام ١٩٧٨ وتفرّغ للعمل الأدبي منذ ١٩٨٢. مُنح عشرات الجوائز تقديراً لأعماله في ألمانيا وفي خارجها، ويعتبر اليوم واحداً من أنجح الكتّاب في ألمانيا، وهو عضو في أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة منذ عام ٢٠٠٢. تُرجمت أعماله إلى ٣٢ لغة. صدر له باللغة العربية: **التقرير السري عن الشاعر غوته** (٢٠٠٥)؛ **يدٌ ملأى بالنجوم** (٢٠٠٨)؛ **حكواتي الليل** (٢٠١٠)؛ **قرعة جرس لكائن جميل** (٢٠١٢)؛ **الجانب المظلم للحب** (٢٠١٥)؛ **صوفيا أو بداية كلّ الحكايات** (٢٠٢١).

رفيق شامي: **سرّ الخطاط الدفين**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: خالد الجبيلي
خطوط الكتاب: عصمت أميرالاي
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، الشارقة – بغداد ٢٠٢٣
ص.ب: ٧٣١١١ – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

Rafik Schami: *Das Geheimnis des Kalligraphen*, Roman
© Carl Hanser Verlag München 2008

© *Al-Kamel Verlag* 2023
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

رفيق شامي

سر الخطاط الدفين

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

خطوط الكتاب: عصمت أميرالاي

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات الجمل

مأساة خطاط دمشقي عشق موسيقى العين

لا أستطيع وصف فرحي بصدور هذا الكتاب في لغة ثقافتي العربية. فلقد صدر عام ٢٠٠٨ باللغة الألمانية وتصدّر قائمة أفضل المبيعات لأشهر. ففي نظري، لهذا الكتاب أهمية في لغتنا العربية أكثر بكثير من أهميته بلغات أخرى. والآن تحوّل حلمي إلى حقيقة.

إلى جانب هذه الرواية أصدرت منشورات الجمل عام ٢٠١٢ كتابي «قرعة جرس لكائن جميل» وبذلك يكتمل تعبير حبي للغتنا العربية وحروفها.

علاقتي بالخط العربي لها قصة.

ولدتُ لأم وأب من قرية معلولا الآرامية الجميلة ولغتي الأم هي اللغة الآرامية. لكني ولدت وعشت في دمشق وتعلّمت العربية في الحارة مع الأطفال والجيرة ثم في مدرسة «الكلية البطريركية للروم الكاثوليك» وهناك تعلمت العربية والفرنسية من الصف الأول واعتباراً من الصف السادس الإنكليزية.

أحببت الخط العربي وبعد فترة امتلكت خطاً واضحاً وجميلاً أنجزت به كل وظائفي.

كان والدي يحبّ الخط العربي والقراءة وكلما عاد من مخبزه جلس أمام كتابه وشرب الشاي وهو يقرأ بلذة غريبة. حتى ملامح وجهه ازدادت لطفاً وانفراجاً. وفي أحد الأيام أتى إلى البيت وقال

لي إن أحد أساتذتي مدح خطي ونشاطي في المدرسة، لذلك نصحني والدي أن أتعلم التخطيط «لأن الخط العربي يهذّب النفس». هذه الجملة لن أنساها طوال حياتي. وأضاف أن أحد زبائنه خطاط شهير في منطقة البحصة وقد تكلم معه والخطاط يحتاج إلى شابٍّ يساعده. بدأت العطلة الصيفية بعد أسبوع. ذهبتُ إلى منطقة البحصة وتفاجأت بسوق كامل للخطاطين (اليوم تعتبر منطقة البحصة سوق الإلكترونيات) وسألت عن محله وبالفعل كان الخطاط شهيراً. بدأت بالعمل في محله المؤلَّف من مكتب صغير لاستقبال الزبائن وواجهة فيها معرض دائم للوحاته، وفي صدر المكتب باب يؤدي للمشغل الكبير حيث عمل عدة رجال كمساعدين ينجزون اللوحات التجارية وعناوين الكتب وزخارف لبيوت الأغنياء وللجوامع. وأما المعلّم فهو الذي يصمّم ويضع الخطوط الأولى التي يتمم حرفيو مشغله العمل بها.

أما أنا فلقد أوكل إليَّ تنظيف المكتب والمشغل وتحضير الشاي وإيصال اللوحات للزبائن وشراء مستلزمات التخطيط، خاصة مكونات الحبر، التي يكتبها المعلم على ورقة صغيرة ويسمّي لي المحل ومكانه. وكنت في أوقات فراغي الكثيرة أتابع بفضول عمل الحرفيين الدقيق، وكان أغلبهم لطيف المعشر. وهنا في المشغل بدأت بتعلم الخط والتدريب اليومي على أوراق مهملة وبإرشاد الحرفي «أبو موسى» وهو كهل لطيف وفقير جداً وله عشرة أطفال. وعندما حدّثت أمي عنه صارت ترسل له بين الفترة والفترة مرطباناً مليئاً بمُرَبَّى المشمش أو السفرجل أو الخوخ مع جملة «هذا للأولاد، وصحة وهناء لهم». وما زلت أذكر صورة وجهه الضاحك عند استلامه الهدية.

وهو أول من ذكر لي أن العين تتمتع بالخط العربي كتمتع الأذن

بالموسيقى. . . لأن الكتابة العربية تتميز بصفة اتصال حروفها وهذا أهّلها أن تكتسب العديد من الأشكال الهندسية وإمكانية مد وتشابك الحروف لتحوّل مقولة ما أو نصّاً عادياً إلى لوحة فنية أخّاذة وموسيقى تطرب لها العيون.

تعلمت الكثير في هذا المشغل ولم يهتم المعلم بي إطلاقاً بل كان يعاملني كعبد أجير، أُحضِر له يومياً كل ما يطلبه من السوق وعند الظهر مطبقية الأكل من زوجته ليوفر الأجر الزهيد الذي يطلبه رجل تخصص في إيصال المطبقيات على دراجة خاصة للتجار والحرفيين يومياً عند الظهر.

مارست هذا التدريب لمدة شهر في كل صيف قبل سفرنا إلى قرية معلولا للاستجمام بهوائها المنعش فالقرية تتوج جبلاً على ارتفاع ١٥٠٠ م. ثلاث سنوات تعلمت فيها أهم مبادئ الخط وأنواعه. وصرت منذ تلك الفترة وحتى اليوم أقرأ كل ما يقع في يدي عن الخط والحروف العربية.

لم أتمكن رغم اجتهادي أن أُنتج خطاً رائعاً بل ظلت خطوطي وإن خلت من الأخطاء متوسطة الجمال. لماذا؟ لست أدري لأن كلمة «الموهبة» التي تُستعمَل لتفسير قدرة أو عدم قدرة شخص ما على تأدية فن ما أو تعلّم لغة، علوم أو حتى رياضة لا يمكن وصفها الا كمحاولة يائسة لتفسير ما لا يُفَسَّر.

ازداد اهتمامي بالخط بدل أن ينقص وصرت أقرأ المزيد من الأبحاث أثناء دراستي الجامعية في دمشق، لكن في هذه المرحلة بالضبط اكتشفتُ نقاط ضعف الحروف العربية في مسايرة العصر. دراستي للكيمياء والفيزياء والرياضيات وعلم النبات كما وقراءة كتب الفلسفة والاقتصاد بيّنت لي أن الحروف العربية تحتاج إلى إصلاح ليس في شكلها فهي من أجمل الخطوط في العالم لكن في حاجتها

الماسّة إلى عدة حروف لكي نستطيع كتابة أي اسم من دون أن نكتبه خطأً أو أن نضطر لفتح قوس وكتابته بالحروف اللاتينية.

لكن لتبيين ضرورة الإصلاح وبؤس فكر معارضيه دعونا نلقي نظرة على تطور الكتابة العربية.

نشأة وتطور الكتابة العربية

الخط العربي أحد أهم أسس الثقافة العربية وأكثرها جمالاً. وككل الثقافات احتاجت الثقافة العربية إلى لغة مكتوبة تثبت ما وصلت إليه وتحميه من الضياع وتساعد على ضبط التجارة والمعرفة وعلى تعميق الحوار لتتقدم الثقافة عبره. لأن الكتابة تنتصر على كل الحدود الزمنية والجغرافية بينما يقتصر تأثير الحوار الشفهي إن لم يدوَّن على محيطه المباشر المحدود.

لا توجد أي دلائل على ادعاء المتشددين الإسلامويين أن العربية هبطت من السماء لأنها لغة اللّه التي تكلم بها مع آدم. إن هذا التمجيد الغبي للّغة يهين القدرة الإلهية ويهين كل شعوب الأرض ويعارض كل الوثائق التاريخية التي تبين بالتفصيل وبوضوحٍ ومنطقٍ تطوُّرَ اللغة والكتابة العربية عبر العصور. حتى أن أهم تطور لِلغتنا ألا وهو تنقيط الحروف وتدقيقها إلى درجة منع الالتباس تم في القرن الهجري الأول (ما يقارب الفترة ٦٢٢ - ٧١٧ ميلادية) خاصة لحماية القرآن من تحريف وأخطاء أخرى والتي سادت قبل إدخال النقط وأقلق العلماء والفقهاء والخلفاء.

ما هو أصل الحروف العربية؟

اختراع الكتابة أمر حديث (حوالي ٤٠٠٠ سنة ق.م.) مقارنة بملايين السنين التي قضاها البشر من دون كتابة، وقد خدمت الكتابة المجتمعات التي ازداد تعقيدها وتطلبات حياتها وحساباتها مثلاً في

التجارة كما وممارسة الدين التي ظهرت عند شعوب عديدة وأنتجت حاجة ماسّة إلى تدوين الكلمات.

وهناك في مجتمعات السومريين في منطقة العراق بدأت الكتابة المسمارية برسم الأشكال بشكل مبسط وهي من أقدم طرق الكتابة وكانت تنقش فوق ألواح الطين والحجر والشمع والمعادن وغيرها. أول هذه المخطوطات اللوحية ترجع لسنة ٣٠٠٠ ق.م. وظلت هذه الكتابة سائدة حتى القرن الأول ميلادي.

رُسمت العلامات الكتابية على الألواح بقلم مدبّب الرأس يتم تحريكه على الطين الطري لرسم الشيء المادي المراد التعبير عنه على شكل مسامير ترصف بعناية حسب الشكل الذي تمثله. وسمّيت العلامات المدوّنة على هذه الألواح بالعلامات التصويرية لأنها تصور بشكل تقريبي الأشياء المادية. وتطورت فيما بعد إلى أشكال رمزية وفي خطوة ثالثة صعبة حاولت الكتابة المسمارية أن تعبّر عن أصوات. ولزمها لكل ذلك مئات وآلاف الرموز، ولذلك ظلت اللغة حكراً على قلّة من التجار والموظفين والكهنة.

وكذلك وفي هذا الاتجاه تطورت اللغة الصينية (حوالي ١٥٠٠ ق. م.) والهيروغليفية (حوالي ٣٠٠٠ ق. م.)، والتي استعملت آلاف الصور للتعبير عن أشكال أو حروف تبدأ بها أسماء هذه الأشكال كقدم أو طائر أو ريشة. . .إلخ.

لكن أهم تطور على الإطلاق قام به الفينيقيون وهم سكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط (اليوم سوريا ولبنان وفلسطين إلخ) إذ تخلوا عن رمز الأشياء ووضعوا رموزاً (حروفاً) للأصوات وبالتالي استطاعوا بعبقرية لا مثيل لها أن يعبّروا عبر وصلها ببعضها عن كل ما يحتاجن إليه بأقل من ثلاثين حرفاً.

ومنها تفرعت أبجديات العالم كالآرامية والعربية والعبرية واليونانية واللاتينية إلخ.

هناك عدة فرضيات حول مصدر الحروف العربية وأهمها ما يؤكده كثير من علماء اللغة أن الخط العربي مشتقّ من الخط النبطي (ولديه ٢٢ حرفاً) وهذا بدوره ينحدر من الكتابة الآرامية. والأنباط قبائل عربية نزحت من الجزيرة العربية إلى فلسطين وجنوب بلاد الشام وبقيت عاصمتهم البتراء (اليوم في الاردن) مزدهرة خمسة قرون لعبت فيها دور المركز التجاري الأعظم أهمية للقوافل بين سبأ (في اليمن) وبلاد البحر الأبيض المتوسط.

وقد أكد الفقيه اللغوي العراقي جواد علي (١٩٠٧-١٩٨٧) أن أغلب الحروف العربية تشبه حروف الخط النبطي ويبرر العلماء ذلك بنقوش نبطية (مثلاً على قبر الشاعر الكبير امرئ القيس). وفي هذه المرحلة كان الخط النبطي يكتب بحروف متصلة ببعضها كما الحال في لغتنا.

أعاقت الحياة البدوية تقدُّم الكتابة. ولهذا بدأ الخط العربي بالتطور السريع مع سرعة نشوء وتوسع الدولة العربية خاصة في المدن مثل دمشق والقاهرة وبغداد والكوفة وبصرة. وزاد التنافس من دفع الخط العربي إلى الأمام وكان تأثير العراق وبلاد الشام أكثر وقعاً من تأثير المراكز الأخرى في الدولة العربية.

كانت للقرآن قوة الدفع الأساسية في تقدّم الخط العربي بعد تجميع آياته بشكل تام ونسخه على عهد الخليفة عثمان بن عفان وبيد أمهر الكتّاب مثل زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. كانت المصاحف هذه من دون تنقيط الحروف. نسخت هذه الأصول في أغلب مدن الدولة العربية.

بعد توسع الدولة واحتوائها لشعوب عديدة غير عربية ازدادت

مشكلة التصحيف (الخطأ في القراءة مثلاً في كلمة بيت إن كانت الكلمة من دون نقط فقد تقرأ بنت، بيت، تبن، تبت، ثبت، نبت، بين، تين، نتن، يثب، يبث. . .إلخ) واللحن (الخطأ في إعراب الكلمة مثلاً بين فاعل ومفعول به) وخشي الفقهاء والخلفاء من تزايد اللحن والتصحيف حتى بين العرب مما يؤدي إلى تحريف القرآن. وكان علي بن أبي طالب أول من أدرك هذا الخطر ويقال إن أبا الأسود الدؤلي حاول بإضافة التشكيل لإعراب الكلمات كضم وفتح وكسر وتنوين على شكل نقط ملونة تقليل اللحن لكنه لم يعالج مشكلة التصحيف الأكثر خطراً.

لكن التطور الثوري الذي مثّل فعلاً قفزة تاريخية إلى الأمام حصل بالتنقيط. سنة إدخال النقط غير معروفة بدقة لكن هذا الإصلاح الجذري تم في عهد خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥) وقد قام بذلك نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمُر العدواني وكلاهما عاش آنذاك في بغداد وأغلب الظن أن العالمين اللغويين تأثرا في هذا السلوك اللغوي بجيرانهم من السريان، والذين كانوا يكتبون بحروفٍ سريانية منقطة. وإلى جانب ذلك رتّبا معاً الحروف العربية بالطريقة الشائعة حتى يومنا لتحل محل ترتيب أبجد هوز. . .

ويسمّى الحرف المنقوط «المعجم» وغير المنقوط «المهمل». ويبلغ عدد الحروف المعجمة أكثر من نصف الحروف العربية: ب - ت - ث - ج - خ - ذ - ز - ش - ض - ظ - غ - ف - ق - ن - ي.

هذه النقط قضت نهائياً على التصحيف وزادت من وضوح الكتابة. وقد احتفظ العرب بجملة تعبّر عن تقديرهم لهذا العمل العبقري فصار تعبير: «وضع النقاط على الحروف» يعني الدقة المتناهية وأن الكلام لا شك ولا لبس فيه.

بعد إدخال النقط على الحروف أضاف العلامة الكبير الخليل بن أحمد الفراهيدي إصلاحات مهمة وهي الفتحة والكسرة والضمة والشدة والسكون التي لا تزال تستعمل بشكلها حتى يومنا. وهذ أدى بدوره إلى القضاء على اللحن.

هذا الانفتاح الرائع أمام ضرورة الإصلاح الذي ساد في القرن الهجري الأول والثاني اختفى تدريجياً وحلّ محله انغلاق لاعقلاني أمام كل إصلاح. حتى ولو كرر المصلحون أن القرآن لا يمسّه أي تغيير لأن الحروف العربية ستظل كما هي لكن يلزمها إضافة عدد قليل من الحروف لتواكب العصر. ولنأخذ مثالاً بسيطاً. لا تتضمّن الحروف العربية ما يقابل لفظ الحروف اللاتينية والفارسية وغيرها والتي تلفظ (P, O, E ,W) وهذه الحروف هي الأكثر استعمالاً في الطب والهندسة والاقتصاد والفلسفة والكومبيوتر والإنترنت... إلخ.

وقد قامت شعوب مسلمة ليست أقل إيماناً من بني يعرب بإصلاحات لكي تناسب الحروف لغتهم بنطقياتها المختلفة عن العربية وهي كثيرة، وهذا بعض منها: اللغة البلوشية (ينتشر متحدثو هذه اللغة في كل من إيران وباكستان وأفغانستان)، لغة الهاوسا في أفريقيا (٥٠ مليوناً)، اللغة الكشميرية (يتحدث بها مسلمو كشمير حوالي ١٠ ملايين)، اللغة السندية في باكستان والهند (٥٠ مليوناً)، اللغة الجاوية لجزيرة جاوا الإندونيسية (٩٨ مليوناً)، اللغة الأوردية (حوالي ٨٨ مليوناً وهي لغة باكستان الرسمية وفي خمس ولايات هندية)، اللغة الطاجيكية (وتنتشر في عدّة مناطق من أفغانستان والصين وأوزبكستان وإيران)، اللغة الكردية بلهجة الكرمانجية واللهجة الكردية السورانية وهي منتشرة بين أكراد إيران ونصف أكراد العراق تقريباً (حوالي ٥ ملايين)، اللغة السولونية (ويتحدث بها شعب السولو في الفيليبين)، اللغة الفارسية (١١٢ مليوناً في إيران

وطاجكستان وأفغانستان وأوزبكستان)، اللغة البنجابية (٨٨ مليوناً في الهند وباكستان). كما واللغة التركية العثمانية حتى عهد كمال أتاتورك. فهل كل هذه الشعوب المسلمة كافرة إذا زادت بعض الحروف على قائمة حروف الهجاء العربية لكي تتماشى مع متطلبات ثقافتها.

وهنا أكرر ما قلته في كتابي «قرعة جرس لكائن جميل» علينا أن نقوم بسرعة بالإصلاح الضروري لنتمكن من كتابة أي بحث علمي دون خطأ أو فتح أقواس وكتابة الاسم العلمي باللاتيني. وأكرر: كل هذه الإصلاحات لا تمسّ القرآن ولا حتى فاصلة أو نقطة فيه إنما تجعلنا قادرين على اللحاق بالتطور الثقافي والعلمي قبل أن يفوت الأوان.

أثناء قيامي بدراسات طويلة كانت فيما بعد أرضية ثابتة وأساساً لكتابي «قرعة جرس لكائن جميل» تصورت في إحدى الليالي وكنت قد أنجزت نصف الكتاب تقريباً وعلماً مني بمصير الخطاط العبقري ابن مقلة الذي أراد إصلاح الحروف العربية ما الذي سيجري لخطاط عبقري في دمشق (وفي أي مدينة عربية أخرى) لو حاول تطوير وإصلاح حروف الهجاء العربية في محيط محافظ تنشط فيه مجموعة سرية لا تعرف الرحمة... توقفت عن متابعة العمل بالكتاب حتى انتهيت بعد سنين من رواية «سر الخطاط الدفين».

اخترت أبطال الرواية ممّن عرفتهم في دمشق وبعناية لتزداد مصداقيتهم... فليس من الصحيح أن من يملك عبقرية ما أن يكون كريم النفس والمعشر لأنه ساعتها سيصبح قدّيساً ولا شأن لي ولا لكتبي بالقدّيسين بل بأناس بشر مع كل هفواتهم. وهنا أتوقف عن وصف الرواية لكي لا أفشي بأسرارها وأُضعِف إثارتها التي تبدأ من أول صفحة.

ولقد أنجزت مع الرواية آنذاك كتيبي الصغير في مديح الخط العربي كموسيقى خالدة للعين وعن مهندس اللغة العبقري أبا علي محمد بن علي بن مقلة الذي هندس حروفنا ومأساته... لأنه إلى جانب عبقريته ظل إنساناً بكل نواحي ضعفه والتصق بثلاثة خلفاء بدل أن يبتعد عنهم كالعبقريان أبي عُثْمان البَصَرِيّ المعروف بالجَاحِظ وأبي حيّان التوحيدي اللذين فضّلا الفقر على الاقتراب من الخلفاء...

هذا الكتيب أهدته دار النشر الألمانية بطبعة تجاوزت ١٥٠,٠٠٠ نسخة لتعريف القراء بجمال الخط العربي، وضُمَّ الكتيب فيما بعد إلى نهاية الرواية في الطبعات الألمانية والإنكليزية.

تمتعت في العمل بهذا الكتاب وبمرافقة ترجمته للعربية سطراً بسطر. هنا خضت تجربة إيجابية جميلة مع مترجم الكتاب خالد الجبيلي، فهو إنسان قدير، دمث الأخلاق وموضع ثقة. هكذا كان في الكتب الماضية وهكذا هو اليوم.

أشكر في نهاية هذه المقدمة زوجتي الفنانة روت ليب التي صمّمت كل أغلفة كتبي وزادت من إقبال القراء عليها وصديقي عصمت أميرالاي الخطاط الرائع، ومترجم هذا الكتاب خالد الجبيلي، وأخيراً وليس آخراً ناشري خالد المعالي لجرأته، فهؤلاء مكّنوا هذا الكتاب من الظهور للعلن.

رفيق شامي

الإشاعة
أو كيف تبدأ
القصص في دمشق

كانت مدينة دمشق القديمة لا تزال ترقد تحت عباءة الشفق الرمادية قبل بزوغ الفجر، عندما بدأت إشاعة يصعب تصديقها تتسلل إلى طاولات مطاعم الوجبات الخفيفة الصغيرة، وتلوكها ألسنة الزبائن الذين وصلوا إلى المخابز في وقت مبكر. فقد بدأ يتردد على تلك الألسنة أن نورا الجميلة، زوجة الخطاط المشهور والغني الذي يحظى باحترام كبير، حميد فارسي، قد هربت.

كان شهر نيسان من سنة ١٩٥٧ قائظاً بشكل غير معهود في دمشق، وكانت شوارع المدينة القديمة لا تزال مشبعة بهواء الليل في هذه الساعة المبكرة من الصباح، تعبق فيها رائحة أزهار الياسمين التي أزهرت في باحات البيوت، وروائح التوابل والخشب الرطب. كان الشارع المستقيم لا يزال يرقد في الظلام، وكانت الأضواء الوحيدة في الشارع تلك المنبعثة من المخابز والمطاعم الصغيرة.

وسرعان ما ترددت أصداء أصوات المؤذنين الذين انطلق الواحد تلو الآخر وملأت السماء. وما إن أشرقت الشمس وراء البوابة الشرقية المؤدية إلى الشارع المستقيم، واختفى آخر خيط رمادي من السماء الزرقاء، حتى سمع جميع الجزارين وبائعي الخضراوات وباعة أكشاك الطعام بقصّة هروب نورا. كانت روائح الزيت والخشب المتفحّم وروث الأحصنة تملأ المكان.

عندما اقتربت الساعة من الثامنة صباحاً، بدأت رائحة مسحوق الغسيل والكمون - وهنا وهناك - رائحة قلي الفلافل تنتشر في أرجاء الشارع المستقيم، بعد أن فتح الحلاقون والحلوانيون والنجارون أبواب محلاتهم، ورشّوا الرصيف أمام محلاتهم بالماء. في تلك اللحظات، انتشر الخبر بأن نورا هي ابنة رجل الدين المعروف، رامي عربي.

عندما بدأ الصيادلة ومصلحو الساعات وبائعو الأشياء القديمة يفتحون أبواب محلاتهم في وقت متأخر لأن حركة البيع لم تنشط بعد كثيراً، كانت الشائعة قد وصلت إلى باب شرقي بعد أن أخذت أبعاداً وأشكالاً جديدة وكبيرة لا يمكنها عبور الباب، فارتطمت بالقوس الحجري وتهشمت إلى ألف قطعة وقطعة وتناثرت شظاياها، وبدأت تجري كالفئران، كأنها مذعورة من الضوء في الأزقة وتتسلل إلى البيوت.

فقد تردد على ألسنة الشامتين أن نورا هربت لأن زوجها يرسل لها رسائل مليئة بعبارات العشق، وتوقف مروّجو الشائعات الدمشقيون المتمرّسون عند هذا الحد، بعد أن أدركوا أنهم استدرجوا فضول الذين يستمعون إليهم إلى الفخ. «ماذا؟» سأل الأشخاص الذين يستمعون إليهم ساخطين، «امرأة تهرب من زوجها لأنه يكتب لها رسائل غرامية ويبثّها مكنونات عشقه؟»

«ليس عشقه هو، ليس عشقه هو»، ردّ مروّجو الفضائح بهدوء المنتصرين، «إنما طلب منه زير النساء نصري قباني الذي أراد إغواء المرأة الحسناء بالرسائل أن يكتبها له زوجها. فمع أن هذا الأحمق يتبختر كالديك، فإنه لا يستطيع أن يكتب أي شيء بنفسه، غير اسمه».

كان نصري قباني زير نساء معروف في أنحاء المدينة. فقد ورث من أبيه أكثر من عشرة بيوت وبساتين كبيرة بالقرب من المدينة.

وبخلاف شقيقيه، صلاح ومحمد، المتدينين اللذين بذلا كل ما بوسعهما لزيادة ثروتهما، فقد كانا زوجين مخلصين، بينما كان نصري ينام في أي مكان يستطيع أن ينام فيه، وله أربع زوجات يعشن في أربعة بيوت، ينجب أربعة أطفال كلّ سنة، فضلاً عن أنه يزور ثلاث عاهرات في المدينة.

عندما حلّت الظهيرة، وجرفت الحرارة اللاهبة كلّ الروائح إلى خارج الشارع المستقيم، ولم يعد طول ظلّ المارة القلائل في الشارع يزيد على ثلاثين سنتمتراً، سمع سكان الأحياء التي يقطن فيها المسيحيون واليهود والمسلمون قصة هروب نورا. فقد كان منزل الخطاط الجميل يقع بالقرب من القوس الروماني والكنيسة المريمية الأرثوذكسية حيث تتلاقى الأحياء المختلفة معاً.

«يمرض عدد كبير من الرجال من احتساء مشروب العرق أو من تعاطي الحشيش، ويموت آخرون من شهيتهم النهمة للطعام. أما نصري، فهو مريض بعشق النساء الذي يشبه الإصابة بنزلة برد أو مرض السل، إما أن تصاب به أو لا تصاب». قالت القابلة هدى التي ساعدت على جلب جميع أولاده إلى هذا العالم، والتي تعرف أسرار زوجاته الأربع. وضعت فنجان قهوتها الأملس على الطاولة ببطء، كما لو أنها هي من أصيب بهذا المرض الخطير. هزّت جاراتها الخمس رؤوسهن، وحبسن أنفاسهن.

«وهل ينتقل هذا المرض بالعدوى؟» سألتها امرأة بدينة تظاهرت بأن سؤالها جدي. فهزّت القابلة رأسها وضحكت النسوة الأخريات، لكن بتحفّظ، ليبدين أنهن شعرن بالحرج من هذا السؤال.

مدفوعاً بقوة إدمانه على حبّ النساء، كان نصري يغازل النساء جميعاً: من سيّدات المجتمع الراقيات إلى الفلاحات والعجائز

والمراهقات وحتى العاهرات. ونُقل عن أصغر زوجاته، ألماز، ذات الستة عشر ربيعاً، أنها قالت ذات مرة، «لا يستطيع نصري أن يرى ثقباً ولا يُدخل قضيبه فيه، ولن أُفاجأ إذا عاد ذات يوم إلى البيت وعلى قضيبه سرب من النحل».

ومثل هذا النوع من الرجال، فقد كان قلب نصري يعتصر ألماً إذا صدّته امرأة. عندما عرف أن نورا لا تريد أن تعرف منه ولا عنه شيئاً، كاد يجنّ هياماً بها. قيل إنه لم يلمس عاهرة منذ شهور، وقالت زوجته ألماز للقابلة هدى، «كان مغرماً بها إلى درجة أنه لم يعد ينام معي، وعندما يستلقي بجانبي، كنت أعرف أنه يفكّر في امرأة أخرى، لكنّي لم أعرف من هي تلك المرأة حتى هربت».

ثم بدأ الخطاط يكتب له رسائل غرامية تذيب قلباً قُدّ من حجر، لكن نورا المغرورة بنفسها اعتبرت ذلك قمة الصفاقة. وعندما أعطت هذه الرسائل لأبيها، رجل الدين الصوفي الرزين، الهادئ، لم يصدّق في البداية، وشكّ في أن شخصاً شريراً يحاول أن يدمّر حياة الخطاط الزوجية، لكن الأدلة كانت دامغة. «فلم يكن خطّ الخطاط الذي لا لبس فيه فقط»، قالت القابلة، «وإنما تصف تلك الرسائل جمال نورا بدقة متناهية، وتورد تفاصيل لا يعرفها أحد إلّا هي وزوجها وأمّها»، ثم خفضت القابلة صوتها فبدأت النسوة الأخريات يتنفّسن بصعوبة، وأضافت كما لو أنها قرأت الرسائل بنفسها، «فهم الوحيدون الذين يعرفون شكل ثدييها وبطنها وساقيها، والمكان الذي توجد فيه وحمة صغيرة». وأضافت جارة أخرى، «لكن الخطاط قال إنه لم يعرف إطلاقاً إلى من سيبعث نصري التيس هذه الرسائل، فعندما يصف الشعراء جمال فتاة غريبة لا يعرفونها شخصياً، فإنهم يذكرون أوصاف امرأة جميلة يعرفونها».

«يا له من شيء فظيع»، انتقلت هذه التنهيدة من فم إلى فم، طوال الأيام القليلة التالية، كأنه لا يوجد موضوع آخر في دمشق كلّها يمكن أن يتحدّثوا عنه غير هذا الموضوع، ويضيف آخرون عندما لا يوجد أطفال بالقرب منهم، «إنه سيعيش في هذا العار بينما تستلقي زوجته تحت نصري الذي يقفز من فراش إلى آخر».

«إنها لن تستلقي تحته. فقد هربت وتركتهما كليهما. هذا هو الجزء الغريب من القصة»، كانت الألسنة الخبيثة تقول ذلك بدهاء خبراء، فصحة حقيقة هروب نورا لا تنهي القصة إنما تموّه بصحتها كذب خيال مخترعي الإشاعات. فالشائعات التي تُعرف بدايتها ونهايتها لا تعيش طويلاً في دمشق، إلّا أنه توجد لقصة هروب نورا الجميلة بداية غريبة لكنها لا تملك نهاية. لذلك انتشرت بين الرجال من مقهى إلى مقهى، وبين النساء من مجموعة إلى مجموعة اللاتي يجتمعن في باحات بيوتهن، وكلّما انتقلت إلى لسان آخر، يضاف إليها شيء جديد.

رُويت حكايات ماجنة أغوى فيها نصري قباني الخطاط كي يصل إلى زوجته، وعن المبالغ المالية التي دفعها له ليكتب له هذه الرسائل. وقيل إن نصري أعطى الخطاط وزنها ذهباً لقاء كتابتها، ونُقل عن النمّامين قولهم: «هذا ما حدا الخطاط الجشع إلى أن يكتب الرسائل الغرامية تلك بحروف كبيرة تاركاً هامشاً عريضاً»، وأضافوا، «فقد كتب خمس صفحات ما يمكن كتابته في صفحة واحدة».

ربما سهّل كل ذلك على نورا الشابة أن تتخذ قرارها، إلّا أن نواة واحدة من الحقيقة لا تزال مخفيّة عن أعين الجميع، واسم تلك النواة هو «العشق».

في نيسان ١٩٥٦، كانت قصة حبّ لاهبة قد بدأت منذ سنة. فقد وصلت نورا آنذاك إلى نهاية زقاق مسدود، وفجأة اخترق الحبّ

الجدران الشاهقة أمامها وكشف لها مفترق طريق الحظ، وكان على نورا أن تتصرّف.

لكن بما أن الحقيقة ليست بسيطة مثل ثمرة مشمش، ففيها نواة ثانية، لم يعرف أحد، حتى نورا، شيئاً عنها، والنواة الثانية لهذه القصّة هي *سرّ الخطاط الدفين*.

النواة الأولى للحقيقة

أدين بدين الحبّ أنّى توجّهت
ركائبه فالحبّ ديني وإيماني

ابن عربي (١١٦٥-١٢٤٠) عالم صوفي

1

مكتبة
t.me/soramnqraa

جُرَّ بائع الحبوب إلى خارج دكانه مصحوباً بصيحات بعض الشبان. كان البائع يحاول يائساً أن يتشبّث بطرف الباب، لكن أفراد الغوغاء الصاخبين أخذوا يضربونه على أصابعه وذراعيه حتى سحبوه إلى خارج الدكان وضربوه، لكن من دون عنف. بدا الأمر كما لو أنه مجرد لعبة. كان الشبان يضحكون ويرددون أغنية سخيفة يشكرون فيها اللّه، وفي الوقت نفسه يطلقون عبارات بذيئة عن ضحيتهم، كلمات أغنية بذيئة مقفّاة يرددها الأميّون.

«ساعدوني»، صاح الرجل، وعندما لم يهبّ أحد لمساعدته، بدأ صوته يرتعش من الخوف.

مثل الدبابير، تطاير أطفال صغار في أسمال بالية وتحلّقوا حول الشبان الذين يحيطون بالرجل وأغلقوا الدائرة حوله بإحكام. لم يتوقف الأطفال عن الصياح وهم يحاولون في الوقت نفسه أن يضعوا أيديهم على الرجل، يقعون على الأرض، ثم ينهضون، ويبصقون إلى مسافة بعيدة محدثين صوتاً عالياً كما يفعل الكبار، ويتبعون القطيع الهائج.

بعد جفاف دام عامين كاملين، هطلت الأمطار في هذا اليوم من شهر آذار ١٩٤٢، بلا توقف لأكثر من أسبوع. عندها تنفس سكان المدينة الصعداء وشعروا بالطمأنينة، وأصبح بوسعهم أن يخلدوا إلى

النوم بهدوء مرة أخرى. لقد حطّت على صدر مدينة دمشق مشكلات كبيرة مثل كابوس. ففي مطلع شهر أيلول في أول سنة للجفاف، وصلت أسراب القطاة التي تنذر بوقوع كارثة مشؤومة، تبحث عن الغذاء والماء في جنائن واحة دمشق الخضراء. ومنذ زمن سحيق، يعرف الجميع أن الجفاف قادم عندما تظهر هذه الطيور القادمة من البادية التي يبلغ حجمها حجم طائر الحمام بريشها الرملي المرقّط. جاء الطائر في خريف عام ١٩٤١. وكان يأتي دائماً منذراً بالجفاف والجوع، لذلك كره المزارعون هذا الطير.

ما إن شوهدت أول قطاة، حتى رفع تجار الجملة أسعار القمح والعدس، والحمص، والسكر، والفاصوليا.

ومنذ شهر كانون الأول، بدأ الأئمة يصلّون في المساجد، وبدأ مئات الأطفال والشبان يصحبهم أساتذتهم يترددون على بيوت العبادة زرافات ووحداناً.

بدا أن السماء قد ابتلعت كلّ الغيوم، وأصبح لونها أزرق مترباً. وراحت بذور الذرة تنتظر في التربة الجافة، تتوق إلى قطرة ماء، أما البذور التي نتشت قليلاً - وظهرت فيها براعم خضراء رفيعة بدقة شعر طفل - فقد ماتت في حرارة الصيف القائظة التي استمرت حتى نهاية تشرين الأول. وبدأ المزارعون القادمون من القرى المحيطة بدمشق يقبلون أي عمل في دمشق من أجل قطعة خبز، وكان هؤلاء المساكين ممتنّين لذلك لأنهم يعرفون أن المزارعين الأكثر جوعاً منهم والقادمين من المناطق الجنوبية التي ضربها الجفاف سيأتون ويقبلون أجوراً أدنى.

كان الشيخ رامي عربي، والد نورا، منهكاً تماماً منذ شهر تشرين الأول، لأنه، بالإضافة إلى أنه يؤم الصلوات الخمس كلّ يوم في مسجده الصغير، بدأ يقود مجموعات الرجال في صلاة

الاستسقاء يرددون ابتهالات دينية طوال الليل حتى بزوغ الفجر يتضرعون إلى اللّه لكي ينظر إليهم بعين الرأفة والعطف، وأن يرسل لهم المطر. ولم يتمكن من الحصول على قسط من الراحة خلال النهار أيضاً، لأن أعداداً كبيرة من طلاب وتلاميذ المدارس يأتون بين أوقات الصلوات الخمس للمشاركة في التضرع إلى اللّه وإنشاد الابتهالات الدينية الحزينة إلى أن يحنّ اللّه عليهم، ويلين قلبه تجاههم. وكانت تلك الأناشيد والابتهالات تُسيل دموع البسطاء، لكن الشيخ رامي عربي كان يحتقر هذه الأناشيد لأنها تشي بالخرافات التي تهيمن على الناس مثل تعويذة سحرية. ومع أن أولئك الرجال لا ينتمون إلى طبقة الفقراء الأميين، وإنما هم رجال محترمون، فقد كانوا يؤمنون بأن الأعمدة الحجرية في المسجد القريب تبكي تعاطفاً مع الصلوات التي يؤديها الشيخ حسين كفتارو، وهو شيخ نصف متعلم، يضع عمامة كبيرة ويرخي لحية طويلة ليغطي ثقوب معرفته.

كان رامي عربي يعلم تماماً أن الأعمدة الحجرية لا تبكي، لكن البخار المنبعث من أنفاس المصلين في الهواء البارد يتكاثف فوقها، لكنه أحجم عن قول ذلك لهم، لأنه كان مضطراً لأن يتعايش مع هذه الخرافات حتى لا يفقد الأميّون الذين يصلّون في مسجده إيمانهم، كما قال لزوجته.

في اليوم الأول من شهر آذار، هطلت أول قطرة ماء. إذ هرع صبي إلى المسجد صارخاً ومبشراً بفرح بينما كان مئات الأطفال يبتهلون إلى اللّه. عندما علت صيحته لاذ الجميع بالصمت. عندما حلّ صمت مطبق على المكان، خاف الصبي، لكنه قال بصوت خافت خجول: «بدأت السماء تُمطر»، فسرت موجة من الارتياح في المسجد، وبدأت صلوات الشكر تنبعث من كل ركن من أركان

المسجد «*اللّه أكبر*». وكما لو أن نعمة اللّه لامست أعينهم، أجهش عدد من الرجال المسنين في البكاء بحرقة.

كانت السماء تمطر فعلاً خارج المسجد، في البدء قطرات خفيفة، ثم تحوّلت إلى سيول، فوثبت الأرض المكسوة بالتراب ببهجة كبيرة، ثم تشرّبت ماء المطر، وارتدت حلة داكنة. وبعد بضعة أيام، أصبحت شوارع دمشق المعبّدة خالية من التراب، وكست الحقول الصفراء خارج المدينة طبقة رقيقة من اللون الأخضر الباهت.

تنفّس الفقراء الصعداء من جديد، وعاد المزارعون إلى بيوتهم وقراهم وحقولهم.

لم يسرّ المطر الشيخ رامي، لأن مسجده أصبح خاوياً من المصلين، ما عدا حفنة من المسنين، ولم يعد أحد غير هؤلاء يهتم بالصلاة في مسجده، فقال ساخراً بمرارة: «إنهم يعاملون اللّه كما لو كان نادلاً في مطعم، يطلبون منه المطر، وعندما يستجيب لدعائهم، يولونه ظهورهم».

بدأ هطول المطر يخفّ شيئاً فشيئاً، وبدأت ريح دافئة تجرف قطرات المطر الناعمة على وجوه الشبان الذين أخذوا يتراقصون حول الرجل في وسط الطريق، وأمسكوا أيدي بعضهم وشكلوا دائرة مغلقة حوله، وراحوا يدورون حوله. ثم طار قميصه من فوق رأسه، وكما لو كان ثعباناً أو عنكبوتاً، كان الراقصون الأصغر سناً خارج دائرة الشبان يدوسون فوقه، ويمزقون ثيابه حتى أصبحت خرقاً.

توقف الرجل عن مقاومتهم، لأن اللكمات التي كانت تنهال عليه شوّشت صوابه. تحركت شفتاه لكن لم ينبعث منهما أي صوت، ثم طارت نظارته ذات العدستين السميكتين في الهواء وسقطت في بركة ماء صغيرة بقرب الرصيف.

أطلق الشاب الذي لم يعد ينشد تلك الابتهالات بصوت أجش شتائم بأعلى صوته، ورفع الآخرون أيديهم إلى السماء، وراحوا ينشدون كما لو دخلوا في حالة نشوة واختلطت الابتهالات بالشتائم: «اللّه سمع لنا... اللّه استجاب لدعواتنا وبدنا نكسر *راس يللي يعادينا*».

بدا أن الرجل لم يعد يرى أحداً عندما زاغت عيناه محاولاً أن يثبتهما على شيء محدد. حدّق لبرهة في وجه نورا التي كانت آنذاك في السادسة أو السابعة من عمرها، كانت واقفة تحت المظلة الكبيرة الملونة لمحل الحلواني عند مدخل شارع بيتها تتقي المطر. في تلك اللحظة، كانت قد بدأت تستمتع بتناول المصاصة الحمراء التي اشترتها للتو من الحلواني إلياس بقرش واحد. لكن المشهد الذي تبدّى أمامها عقد لسانها، فقد راح الشبان يمزقون بنطال ضحيتهم، ولم يهبّ أحد من المارة لنجدته. تهاوى الرجل على الأرض، شاحب الوجه متشنجاً، كما لو أنه يعرف ما الذي سيحدث لاحقاً. بدا أنه لم يعد يشعر بالألم عندما ركله الشبان، فلم يعد يصرخ أو يتوسل إليهم أن يتوقفوا عن ضربه، وإنما راح يتلمس الأرض بين أرجل الراقصين النحيفة حوله كأنه يبحث عن نظارته.

«إنها في بركة الماء»، قالت له نورا بصوت منخفض وأشارت بإصبعها إلى النظارة وكأنها تساعده.

عندما حاول رجل مسنّ يرتدي معطفاً رمادياً يعمل أجيراً في أحد المحلات الاقتراب منه، أبعده بفظاظة رجل يرتدي ثياباً تقليدية أنيقة: حذاء مفتوح من الخلف، وشروال أسود فضفاض، وقميص أبيض، وصدرية ملونة، وحزام حريري أحمر عريض حول خصره، وألقى على كتفيه كوفية مطوية ملونة بالأبيض والأسود، ويضع على رأسه حطّة، وبيده عكاز من الخيزران. كان رجلاً في الثلاثين من

عمره تقريباً، تكسو جسمه عضلات، حليق الذقن له شارب أسود كبير دهن طرفيه بالشمع، يُطلق عليه الدمشقيون «*قبضاي*»، وهو رجل قوي لا يهاب شيئاً، يفتعل مشكلات في أحيان كثيرة، ويكسب رزقه من القيام بأعمال غير نظيفة كالابتزاز أو إهانة شخص بالنيابة عن شخص غني يريد أن تبقى يداه نظيفتين. وبدا أن هذا القبضاي موافق على ما يفعله أولئك الشبان. «دع الأطفال يتسلّون بهذا الكافر الذي يسرق الخبز من أفواههم»، صاح موبخاً، وأمسك الرجل ذا المعطف الرمادي من رقبته، وبيده اليسرى قرّب الخيزرانة من ردفيه، وراح يدفعه إلى دكانه وهو يضحك، وضحك الأشخاص المتجمهرون، رجالاً ونساء، على الرجل الذي بدأ يطلب الرأفة مثل تلميذ صغير.

جثم السارق المزعوم على أرض الشارع عارياً وراح يبكي. ابتعد الشبان ولم يتوقفوا عن الغناء والرقص تحت رذاذ المطر. عاد صبي صغير شاحب له وجه نحيف مليء بالندوب وهو يجري وركل الضحية الجاثم على الأرض ركلة أخيرة على ظهره، ثم جرى وهو يصيح مبتهجاً، ذراعاه ممدودتان على جانبيه مثل جناحي طائرة، وعاد إلى رفاقه.

«نورا، عودي إلى البيت». سمعت إلياس الذي كان يراقب المشهد من واجهة محله يقول لها بصوت لطيف، «فهذا مشهد يجب ألّا تراه الفتيات الصغيرات».

قفزت نورا قفزة قصيرة لكنها لم تبتعد. راحت تنظر إلى الرجل العاري وهو يعتدل في جلسته ببطء، ينظر حوله، ثم أمسك قطعة من بنطاله الغامق الممزق ليستر بها عورته. التقط متسول النظارة التي ظلت سليمة مع أنها قُذفت بعيداً، وأعطاها للرجل العاري الذي نهض واقفاً وسار عائداً إلى محله دون أن يلتفت إلى المتسول.

كانت أم نورا تشرب القهوة في تلك الساعة في غرفة الجلوس مع جارتها، ولم تتأثر عندما حكت لها ابنتها ما جرى وهي تلهث. قلبت جارتهم البدينة، بديعة، التي تزور أمها كلّ يوم، فنجان قهوتها ووضعته على الطاولة الصغيرة، وندت منها ضحكة عالية.

«يستحق هذا الكافر عديم القلب الذي يعبد الصليب ما جرى له لأنه رفع الأسعار»، قالت أمّ نورا هامسة. لكن نورا صُدمت عندما سمعت ذلك.

ثم حكت لهم بديعة، بمتعة كبيرة، ما أخبرها زوجها به، أن مجموعة من الشبان بجانب المسجد الأموي جرّوا تاجراً يهودياً عارياً إلى الشارع المستقيم، وكالوا له الشتائم والإهانات وأوسعوه ضرباً وكان يصيح صيحات تشبه العواء.

عاد والد نورا إلى البيت في وقت متأخر من المساء، كان شاحب الوجه. سمعته نورا يتجادل طويلاً مع أمّها حول الشبان الذين اعتدوا على التاجر المسكين ودعاهم كفاراً عديمي التربية والأصل. ثم هدأ بعد أن تناول طعام العشاء.

بعد عدة سنوات، قالت نورا لنفسها لو كان هناك مفترق طرق في الطريق إلى والديها، لقررت في تلك الليلة أن تذهب في الطريق المتجه نحو أبيها. وظلت علاقتها مع أمّها باردة طوال الوقت.

بعد مضي يوم على تلك الحادثة، تساءلت نورا بعد أن تذكّرت شتيمة أمها للتاجر بأنه عديم القلب.. .كيف يستطيع الرجل ذو النظارات أن يعيش من دون قلب. كانت السماء صافية، وأسطول من السحب الصغيرة تبحر في محيط السماء. انسلّت نورا من باب بيتهم المفتوح وسارت في الزقاق إلى الشارع الرئيسي، ثم انعطفت يساراً، ومرت من أمام مخزن الحبوب الكبير الذي يوجد فيه مكتب على جانبه، نوافذه كبيرة تطلّ على الشارع، وبجانبه مستودع كبير يحمل

حمّالون أكياس خيش مليئة بالحبوب إلى داخله، ثم يقومون بوزنها وإغلاقها بإحكام.

كأن شيئاً لم يحدث. جلس الرجل وراء طاولة مكتب مليء بالأوراق، يرتدي ثياباً غامقة أنيقة، يكتب في دفتر كبير. رفع رأسه لحظة ونظر من النافذة. أشاحت نورا وجهها على الفور، وجرت إلى محل البوظة. أخذت نفساً عميقاً وانعطفت عند ناصية الشارع. بدأت نورا تتحاشى النظر إلى الرجل عندما تمرّ من أمامه كي لا يعرفها.

بعد سنوات عديدة، لم تبارح صورة الرجل الراقد عارياً في الشارع مخيّلة نورا وظلت تلازمها في أحلامها، فتستيقظ مجفلة.

«يوسف عفلق - جميع *أنواع الحبوب*، قمح، شعير، ذرة *صفراء*» قرأت فيما بعد الكلمات المكتوبة في لوحة معلّقة فوق مدخل المخزن عندما أصبح باستطاعتها أن تقرأ. ثم اكتشفت أن الرجل مسيحي. لم تكن أمّها تكرهه لشخصه، لكنها عرفت أن أمّها تعتبر أن كل شخص غير مسلم كافر.

كان بائع الحلوى إلياس ذو الشعر الأحمر مسيحياً أيضاً. كان يضحك مع نورا ويمازحها دائماً، وكان الشخص الوحيد في حياتها الذي يناديها «أميرة». سألته ذات يوم لماذا لم يأت لزيارتها قط لأنها تأمل أن يزورها ذات يوم يحمل بيده كيساً كبيراً مليئاً بالحلوى الملونة، فأجابها إلياس بضحكة.

وكان هناك مسيحي آخر يعمل في محل البوظة اسمه ريمون. كان شخصاً غريب الأطوار، فعندما لا يأتيه زبائن، يُنزل آلة العود المعلّق على الحائط، ويبدأ يعزف ويغني إلى أن يمتلئ المحل من عشاق موسيقاه، ثم يسأل، «من يريد بوظة؟»

هكذا عرفت نورا أن أمّها لا تحبّ المسيحيين لأنهم أناس غريبو الأطوار ويبيعون مأكولات شهية. وأمها لا تحبّ الحلويات. كانت

أمّها نحيفة مثل قضيب سكة الحديد، لا تضحك إلّا نادراً، ولا تأكل إلّا عندما تشعر بالجوع.

كرر والد نورا قوله لأمّها في أحيان كثيرة، بنبرة فيها شيء من التأنيب، بأنه لن يعود لها ظلّ بعد فترة قصيرة. كان جسدها جذاباً وجميلاً في صورها القديمة، حتى بديعة، جارتهم البدينة، قالت لها إنها تخشى أنه إذا هبّت نسمة على أمّ نورا فإنها ستطير في الهواء الى الهند.

في نهاية الفصل الدراسي في الصف التاسع، سمعت نورا من أبيها أن يوسف تاجر الحبوب قد توفي، وكانت القصة التي تدور على ألسنة الناس أنه قال قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة إنه غاب عن الوعي للحظة عندما كان الشبان يعذبونه، وإنه رأى في تلك اللحظة، كما لو كان ذلك يجري في فيلم، أن ابنته ماري وابنه ميشيل سيعتنقان الإسلام.

لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجد، لأنه قبل وفاته بفترة قصيرة، أصبح الرجل العجوز يهذي. فقد رفض قرار ابنته ماري من أن تتزوج شاباً مسلماً بعد علاقة غرامية لاهبة، لكن زواجهما انتهى نهاية حزينة.

وغضب من ابنه الوحيد ميشيل لفترة طويلة قبل وفاته، لأن ميشيل لم يشأ أن يدير مخزن الحبوب، وقرر أن يصبح سياسياً. وقد تحققت رؤية يوسف، لأنه بعد خمسين سنة، قبل وفاته بفترة قصيرة، اعتنق ميشيل، الذي أصبح سياسياً عجوزاً محبطاً وغاضباً في المنفى العراقي، الإسلام بأمر من صدام حسين، ودُفن في تلك المدينة باسم: أحمد عفلق. لكن هذه قصة أخرى.

يقع زقاق الأيوبي في حيّ الميدان القديم جنوب غربي المدينة

القديمة، لكنه خارج سور المدينة. كان يعبق برائحة اليانسون، لكن نورا كانت ترى أنه زقاق مملّ. فهو زقاق قصير توجد فيه أربعة بيوت فقط، يقع بيت نورا في آخر الزقاق المسدود. وكان جدار مخزن اليانسون الذي لا توجد له نوافذ يقع على الجانب الأيمن من الزقاق.

بيت بديعة هو أول بيت على الجانب الأيسر من الزقاق تسكن مع زوجها طويل القامة وبشع الوجه، يشبه خزانة ثياب قديمة متداعية. وبديعة هذه صارت مع الأيام صديقة أمّ نورا الوحيدة، وكانت نورا تعرف أبناء وبنات بديعة التسعة الأكبر منها سناً الذين يحيّونها بلطف، وكانوا يسيرون بسرعة وخفة كأنهم ظلال لا يتركون أثراً وراءهم. كانت بشرى، ابنة بديعة، الوحيدة التي ظلت عالقة في ذكريات نورا أثناء طفولتها لأنها أحبّت نورا كثيراً وكانت تقبّلها كلما رأتها، وصارت غالباً تناديها «حبيبتي». كانت تفوح من بشرى رائحة أزهار غريبة، لذلك أحبت نورا دائماً أن تضمها إلى صدرها.

وسكن في البيت الثاني رجل وامرأة ثريان، متقدّمان في العمر، ليس لهما أبناء، ولم يرغبا التواصل مع بقية سكان الزقاق.

وفي البيت المجاور لبيت نورا، تسكن عائلة مسيحية كبيرة لم تكلّمهم أمّها قط. لكن والدها كان يبادل رجال تلك الأسرة تحيات ودية عندما يلتقي بهم في الزقاق، بينما كانت أمّها تتمتم بشيء يبدو كأنها تعويذة سحرية لتحميها من تعويذة يمكن أن يلقيها عليها أحد هؤلاء الأعداء.

لاحظت نورا أنه يوجد سبعة أو ثمانية صبية في بيت جيرانهم المسيحيين ولا توجد بينهم فتاة واحدة. كان الصبية يلعبون بالكرة والدحل والحصى، ويتسكعون أحياناً طوال النهار مثل جراء مفعمة بالحيوية.

كانت نورا تقف أمام باب بيت والديها تراقبهم، متأهبة دائماً لأن تغلق الباب عندما يقترب أحد الصبية منها. وعندما يراها صبيّان منهم، الأكبر سنّاً والأطول قامة من الآخرين، يُبديان لها حركات وإيماءات توحي بأنهما يريدان معانقتها وتقبيلها، فتهرع نورا على الفور إلى داخل البيت وتراقبهما من ثقب المفتاح الكبير وهما يضحكان، فيخفق قلبها بسرعة، ولا تجرؤ على مغادرة البيت طوال النهار.

في بعض الأحيان، كان الصبيّان يسيئان الأدب مع نورا. فعندما تكون عائدة إلى البيت من دكان البوظة أو الحلواني، يبرز لها الصبيّان فجأة ويقفان أمامها ويسدّان طريقها كأنهما جدار، ويطلبان منها أن تُطعمهما من البوظة أو المصاصة التي تلعقها، ويهددانها بأنهما لن يدعاها تمر قبل أن تفعل ما يطلبان منها، وعندما تبدأ تبكي يختفيان بسرعة.

في أحد الأيام، رأى إلياس ذلك وهو يكنس أمام دكانه، فهرع لنجدة نورا وأخذ يلوّح بمكنسته الكبيرة للصبيين ووبّخهما. وقال لنورا بصوت عال ليسمعه الصبيّان، «إذا تجرأ أحد منهما أن يعترض طريقك مرة أخرى، تعالي وأخبريني على الفور، فهذه المكنسة مشتاقة لتأكل من مؤخرتيهما». منذ ذلك الحين، بدأ الصبيّان يبتعدان عن طريقها كلما صادفاها.

لكن أحد الأشقاء لم يستسلم، وكان يهمس لها أحياناً، «كم أنت جميلة. أريد أن أتزوجك الآن».

كان بديناً ذا بشرة بيضاء، وله خدّان أحمران، وكان أصغر من نورا. أما الصبيّان الأكبر سنّاً اللذان كانا يلقيان عليها نظرات غرامية، فكانا يضحكان عليه ويسخران منه.

«أيها الغبي، إنها مسلمة».

عندما قال الصبي يائساً، «سأصبح أنا مسلم أيضاً»، تلقّى صفعة مدوية على خدّه من أحد إخوته. كان اسم الصبي البدين موريس واسم الآخر جرجس. اسمان مضحكان قالت نورا لنفسها وحزنت على الصبي البدين الذي بدأ يجأر ويبكي بصوت عالٍ.

«ولِمَ لا؟» صاح بتحدٍّ، «سأصبح مسلماً إذا أردت، وأنا أحبّ محمد أكثر مما أحبك». فصفعه الصبي الآخر مرة أخرى وركله بقدمه بقوة، فلم يتوقف موريس عن البكاء ولم يرفع عينيه عن بيت نورا كأنه يأمل أن يهبّ أحد لنجدته من ذلك البيت.

بعد قليل سمعت نورا صوت امرأة تنادي موريس من داخل البيت، فدخل بخطوات بطيئة مطأطأ الرأس. ثم سمعت نورا أمّه تصرخ فيه وهو يتوسل إليها تحت الصفعات.

بعد ذلك اليوم، لم يعد موريس يذكر شيئاً عن الزواج. وبدأ يتفادى أن تلتقي عيناه بعينَي نورا كما لو أن ذلك سيجعله مريضاً. في أحد الأيام، كان جالساً أمام مدخل بيته يبكي، وعندما رأى نورا التفت إلى الحائط وراح يبكي بصوت خافت. توقفت نورا التي رأت أذنيه الكبيرتين الحمراوين، وأدركت أن أحداً ضربه. فأشفقت عليه. عندما اقتربت منه ولمست كتفه بلطف، توقف موريس عن البكاء فجأة، والتفت إليها وبدت ابتسامة على وجهه المبلل بالدموع والمخاط الذي ملأ خدّيه ومسحه بكمّه.

«نورا»، همس مندهشاً.

احمرّ وجهها خجلاً وجرت إلى البيت. بدأ قلبها يخفق بقوة. أعطت أمّها كيس البصل الذي اشترته من بائع الخضراوات عمر.

«هل قال لك بائع الخضراوات شيئاً؟» سألتها أمّها.

«لا»، قالت نورا والتفتت إلى باب البيت لترى ما الذي يفعله موريس.

«يبدو أنك قلقة. هل تصرفتِ تصرفاً غير لائق؟» سألتها أمّها.

فأجابتها نورا، «لا».

فقالت أمّها، «تعالي. يمكنني أن أقرأ ما الذي فعلته من وجهك». بدا الخوف على وجه نورا الذي راحت أمّها تتفحصه كما لو كانت تقرأه، ثم قالت: «يمكنك أن تذهبي الآن. لم تفعلي شيئاً سيئاً».

لسنوات طويلة، ظلت نورا تظن أن باستطاعة أمّها أن تقرأ في وجهها أي ذنب ترتكبه، لذلك، كلما التقت بالفتى البدين، كانت تعود وتنظر في المرآة لترى إن كان ذلك سيظهر على وجهها، ولكي تكون في مأمن، تفرك وجهها بلوح صابون مصنوع من زيت الزيتون وتغسله بعناية.

كانت أمّها امرأة غريبة الأطوار، كأنها تتحمل مسؤولية العالم بأسره. ففي أحد الأيام، أخذها أبوها وأمّها إلى حفلة رقص المولوية. لم تشعر نورا بالسعادة كما شعرت في ذلك المساء، وبدا أبوها كأنه يحلّق فوق الأرض من الفرح أيضاً. فقد كان أحد الدراويش يدور وعيناه مغمضتان، بينما يدور الآخرون حوله مثل الكواكب التي تدور حول الشمس. لكن كل ما رأته أمّها آنذاك بقعة حبر على ثوب أحد الدراويش الراقصين.

أثناء الأعياد الدينية، كان أبوها والمسلمون الآخرون في الشارع يزيّنون بيوتهم ومحلاتهم بأقمشة ملونة، وتتدلّى البسط والسجاجيد من النوافذ ومن الشرفات، وتوضع أصص أزهار أمام البيوت، وتعبر الشوارع مواكب تغني وترقص. وكانت تجري خلال ذلك مبارزات

بعصي الخيزران، بينما يقيم آخرون عروضاً بالألعاب النارية، ويرشّون من النوافذ ماء الورد على المارة.

أما المسيحيون، فإنهم يحتفلون بأعيادهم بهدوء، من دون أقمشة ملونة أو مواكب تسير في الشوارع. لاحظت نورا هذا الفرق في فترة مبكرة. ففي هذه المناسبات، تدقّ أجراس الكنيسة بصوت أعلى من صوتهم المعتاد قليلاً. هذا كلّ شيء. فكنت ترى المسيحيين يرتدون أفضل ثيابهم، لكن لم تكن تُنصب في أحيائهم مراجيح أو قلابات ضخمة، أو يعلقون رايات وأعلام ملونة.

وتأتي أعياد المسيحيين أيضاً في نفس الوقت في كلّ سنة، إذ يأتي عيد الميلاد في أواخر كانون الأول، وعيد الفصح في الربيع، وأحد العنصرة في بداية الصيف. أما شهر رمضان عند المسلمين، فهو يتنقل على مدار السنة. فإذا صادف قدومه في منتصف الصيف، يصعب تحمّله، وكان على نورا ألّا تتناول حتى كسرة خبز أو تشرب رشفة ماء واحدة من الصباح حتى المساء، حتى لو بلغت درجة الحرارة ٤٠ مئوية في الظلّ. كان موريس يشفق عليها، ويهمس لها ويقول إنه صائم أيضاً ليشعر بمعاناتها.

لم تنس نورا ذلك اليوم عندما سبّب لها موريس شيئاً من الارتباك بسبب حبّه لها. كانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها، وقد حلّ رمضان في تلك السنة في شهر آب. كانت صائمة، وكان الصيام في تلك السنة شاقاً. وفجأة سمع الجيران صوت المؤذن يعلن حلول المغرب، فبدأوا يأكلون، لكن أمّ نورا قالت: «لا يمكن أن يحدث ذلك، لأن والدك لم يعد إلى البيت بعد، ولم نسمع صوت مدفع الإفطار».

بعد نصف ساعة، سُمع صوت المؤذن يدعو إلى صلاة المغرب، وسُمع صوت طلقات المدفع في السماء. قال أبوها الذي عاد إلى

البيت منذ قليل لقد أفطر الناس في وقت أبكر من الوقت المحدد اليوم بسبب أذان غير صحيح. عرفت نورا على الفور من فعل ذلك. بعد زهاء ساعة، دقّ شرطيان على باب بيت الأسرة المسيحية، وسُمعت أصوات صياح موريس ورأت بخيالها دموعه.

من بين جميع الأعياد والعطلات، أحبّت نورا اليوم السابع والعشرين من رمضان أكثر من كلّ الأيام الأخرى، لأن والدها قال إن أبواب السماء تُفتح في ذلك اليوم، ويسمع اللّه أمنيات البشر ورغباتهم. وتتذكّر نورا أن القلق يبدأ ينتابها قبل ذلك اليوم بعدة أيام، وتسأل نفسها ما الذي يمكن أن تطلبه من اللّه.

لكن اللّه لم يمنحها قط أي أمنية طلبتها منه في تلك الليلة.

شعرت بأن اللّه لا يحبّها. لكن موريس البدين قال لها إن اللّه يحبّ الفتيات الجميلات، لكنه لا يستطيع أن يسمع أصواتهن، وقال إنه يعرف سبب ذلك، «لأن البالغين يصلّون ويبتهلون بأصوات عالية في تلك الليلة فيصاب اللّه بالصداع، وتغلق السماء أبوابها حتى قبل أن يسمع أمنية طفل واحد».

كان والدها قد جمع عدداً من أصدقائه وأقربائه معاً في باحة البيت في تلك الليلة، وطلبوا كلّهم من اللّه بصوت عال أن يغفر لهم ذنوبهم ويمنحهم الصحة الجيدة والسعادة. نظرت نورا إلى الرجال المجتمعين في فناء البيت وعرفت أن موريس مصيب في كلامه. فصاحت فجأة بأعلى صوتها وسط أدعية الرجال، «عزيزي اللّه، أرجو أن تُنزل لي دلواً مليئاً بالبوظة بالفانيليا والفستق الحلبي». فضحك الجميع، وعلى الرغم من محاولاتهم المتكررة، لم يتمكنوا من مواصلة أدعيتهم، لأنهم ما إن يفعلوا ذلك، حتى ينفجر أحدهم في الضحك.

كانت أمّ نورا الوحيدة التي تخشى عقاب اللّه، وكانت الوحيدة

التي أصابها إسهال في اليوم التالي. كانت تنوح وتسأل اللّه لماذا يعاقبها من بين جميع الناس، مع أنها لا تضحك إلّا نادراً؟ وكانت تؤمن إيماناً شديداً بالخرافات، فلا تقلّم أظافرها في الليل حتى لا تأتي الأرواح الشريرة وتعاقبها وتريها كوابيس، ولا تدلق ماء ساخناً في المغسلة من دون أن تقول «بسم اللّه الرحمن الرحيم» بصوت عال أولاً لتتأكد من أن الأرواح التي تحبّ أن تعيش في أنابيب الماء المعتمة لن تحترق وتعاقبها على ما اقترفته يداها.

منذ ذلك الحين، لم يعد يُسمح لنورا مشاركة الكبار في الدعاء في ليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان، وكان عليها أن تمكث في غرفتها وتتمنّى ما تريده من اللّه همساً. وفي أحيان كثيرة، كانت تستلقي في سريرها وتنظر من النافذة إلى السماء المظلمة المرصعة بالنجوم.

عندما كانت صغيرة، لاحظت أن والدها ينتابه حزن غريب أثناء تلك الأعياد. هو الرجل الذي تمنح كلمته قلباً سعيداً لمئات الرجال في المسجد، والذي يلقي عليه جميع أصحاب المحلات في الشارع الرئيسي التحية باحترام شديد ولطف عندما يمرّ أمامهم - حتى أنهم يتوقفون عن أحاديثهم أحياناً ليطلبوا مشورته - لم يكن والدها القوي يشعر بالسعادة بعد انتهاء صلاة العيد كلّ سنة، يجلس على الأريكة، يحني كتفيه ويبكي مثل طفل. لم تعرف نورا قط سبب ذلك.

2

بعد ولادة سلمان العسيرة في إحدى ليالي شباط الباردة في عام ١٩٣٧ ، لاحق سوء الحظ خطاه بإخلاص أكثر مما تبعه ظلّه لسنوات طويلة. عندما ولد، كانت القابلة حليمة مستعجلة. فقد أيقظتها فايزة، زوجة شرطي المرور كميل، المفعمة بالنشاط والحيوية، في الليل لتذهب إلى بيت صديقتها مريم. وصلت القابلة إلى الشقّة الصغيرة مكدرة المزاج. وبدلاً من أن تشجّع مريم، الشابة النحيفة ذات العشرين ربيعاً، الراقدة على مرتبة وسخة وقد جاءها الطَّلْق لولادة أول طفل لها، وبّختها وطلبت منها ألّا تحدث كلّ هذا الضجيج كأن مريم اصطنعت ألمها. وكما لو أن الشيطان كان عازماً على إظهار كلّ حقده وكراهيته، جاءت أولغا، الخادمة العجوز التي تعمل عند عائلة فرح الغنية. رسمت صديقة مريم فايزة، وهي امرأة ضئيلة الحجم، لكنها قوية، شارة الصليب لأنها تخشى دائماً من عين أولغا المليئة بالحسد.

يقع بيت عائلة فرح الجميل وراء الجدار العالي الذي يفصل الباحة الترابية المليئة ببيوت وأكواخ صغيرة بائسة تُعرف باسم «حوش الرحمة» حيث يعيش أناس قدموا من شتى المناطق وتقطعت بهم السبل في دمشق. كان «حوش الرحمة» في الماضي أرضاً واسعة فيها منزل فخم وحديقة كبيرة، فضلاً عن مساحة واسعة من الأرض فيها

ورش وإسطبلات ومخازن حبوب ومساكن لأكثر من ثلاثين خادماً يعملون في حقول سيّدهم وإسطبلاته وبيته. بعد وفاة السيّد فرح وزوجته اللذين لم ينجبا أطفالاً، ورث ابن أخيه، منصور فرح، تاجر التوابل الثري، البيت والحديقة، وورث أقارب آخرون الحقول العديدة والخيول الأصيلة، وتُركت الباحة ومساكنها العديدة للكنيسة الكاثوليكية شريطة أن يقيم فيها المسيحيون المعدمون، حتى «لا يحتاج مسيحي أن ينام بدون سقف فوق رأسه يحميه في دمشق»، كما أوضحت الوصية بجلاء. وقبل مضي سنة، كان تاجر التوابل الثري قد بنى جداراً عالياً جداً لا يمكن تسلقه، وعزل بذلك بيته وحديقته عن البيوت الأخرى التي أصبحت الآن ملاذاً لعدد من الأشخاص الفقراء الذين كانت رؤيتهم تثير غثيانه.

كانت الكنيسة الكاثوليكية سعيدة بهذه الباحة الكبيرة وسط الحيّ المسيحي، لكنها لم تُبدِ استعداداً لأن تنفق قرشاً واحداً لإصلاحها وترميمها، فبدأت البيوت تتداعى أكثر وأكثر، رمّمها السكان بقدر استطاعتهم بوضع ألواح معدنية وطوب من الطين والورق المقوى والخشب.

وبذلوا جهداً كبيراً لستر فقرهم بعض الشيء بوضع أصص من الأزهار الملونة، لكن وجه الفقر القبيح ظلّ يحدّق من كل زاوية.

وعلى الرغم من أن «حوش الرحمة» يقع في زقاق العبارة، بالقرب من باب شرقي في المدينة القديمة، فقد ظلّ معزولاً طوال تلك السنوات كأنه جزيرة يعيش فيها الأشقياء والملعونون. واقتلع السكان الفقراء في شتاء قارس البوابة الخشبية واستخدموها حطباً للتدفئة، قطعة بعد قطعة، حتى لم يبق فيها إلّا القنطرة الحجرية المفتوحة. ولم يأت أحد من سكان الشارع مرة ليزور أحداً من الفقراء داخل «حوش الرحمة»، فظلّ سكانه لسنوات عديدة، غرباء

عن أهل الحيّ. كان «حوش الرحمة» أشبه بقرية صغيرة منعزلة اقتلعتها عاصفة من مكانها القديم على أطراف الصحراء وجلبتها إلى المدينة مع سكانها وترابها وكلابها الضامرة.

ساعد أحد أبناء عمومة والد سلمان على الحصول على غرفة كبيرة في كوخ بغرفتين، هنا عندما قدم إلى دمشق من قرية «خبب» المسيحية في جنوب سوريا بحثاً عن عمل. أقام أبوه في إحدى غرف الكوخ حتى وفاة الأرملة العجوز فأراد أن يأخذ الغرفة الصغيرة الثانية واستطاع أن يفعل ذلك بعد أن دخل في عراك بالأيدي مع منافسيه الذين حاولوا أن ينتقلوا إلى الغرفة حتى قبل أن تُنقل جثة السيّدة العجوز التي كانت تعيش فيها إلى المقبرة. وروى كلّ واحد من أولئك المنافسين قصة اختلقها بفجاجة ليثبت أن أمنية المرأة العجوز الوحيدة وهي على فراش الموت أن تترك له الغرفة، حتى ترقد روحها بسلام. فقد ادّعى عدد منهم أن المرحومة تمتّ بصلة قرابة بعيدة به، بينما زعم آخرون أنها كانت مدينة لهم بمبلغ من النقود، لكن بإلقاء نظرة على أيدي هؤلاء الكاذبين يتبين أنه لم تكن لديهم أموال طوال حياتهم يمكنهم إقراضها. وعندما تأكد الناس أن جميع القصص التي يروونها ليست سوى أكاذيب، وبدأت أصواتهم تعلو أكثر، حُسم الأمر باستخدام القوة البدنية، ولم يستطع أحد منهم أن يهزم والد سلمان الذي ألقى جميع منافسيه أرضاً وأرسلهم إلى زوجاتهم بخفّي حنين.

«ثم أقام والدك باباً على الجدار بين الغرفتين، فأصبح عندكم شقّة مؤلفة من غرفتين»، قالت سارة لسلمان بعد عدة سنوات. كانت ابنة فايزة تعرف كل شيء. «سارة العلّامة»، هكذا كانوا يسمون سارة التي تكبر سلمان بثلاث سنوات، وأطول منه قليلاً.

كانت سارة بالفعل فتاة ذكية. وقد اكتشف سلمان بالصدفة أنها

تجيد الرقص أكثر من أي فتاة أخرى. كان في الثامنة أو التاسعة من عمره عندما رآها ترقص في بيتها، ذهب آنذاك لعندها ليسألها إن كانت تريد أن تلعب معه. تسمّر أمام باب البيت المفتوح وهو يراقبها. كانت منهمكة في الرقص فلم تلاحظ وجوده.

عندما رأته أخيراً ابتسمت له خجلة. منذ ذاك اليوم صارت سارة ترقص أمامه عندما تراه حزيناً فينسى حزنه.

في أحد الأيام، سار سلمان وسارة في الطريق الطويل الذي يدعى «الشارع المستقيم»، حيث اشترت مصاصة بالقروش الخمسة التي لديها، وسمحت لسلمان أن يلعق منها شريطة ألّا يقضم منها شيئاً.

كانا يقفان عند مدخل زقاقهما، يلعقان المصاصة ويراقبان العربات والحمالين والأحصنة والحمير والمتسولين والبائعين المتجولين الذين ملأوا الشارع المستقيم في هذا الوقت من النهار. وعندما لم يبق منها شيء سوى العود الخشبي الملون واللسانان الحمراوان في فميهما، قررا أن يعودا إلى البيت. في تلك اللحظة، اعترض صبي ضخم طريقهما، وقال لسارة: «اليوم سأحصل بالتأكيد على قبلة»، متجاهلاً وجود سلمان.

«إيع»، قالت سارة بقرف.

«لن تحصل على شيء»، صاح سلمان ووقف بين سارة والصبي العملاق.

«ابتعد عن طريقي يا صرصور، وإلّا أوسعتك ضرباً» قال الصبي ودفع سلمان جانباً وأمسك بذراع سارة، لكن سلمان قفز فوق ظهره وعضّ كتفه اليمنى، فصرخ الصبي من شدة الألم، ودفع سلمان إلى الحائط، وصاحت سارة حتى لاحظ أحد المارة ما الذي يجري، فأسلم الصبي الكبير ساقيه للريح واختفى بين جموع الناس.

عندما بدأ الدم يسيل من مؤخرة رأس سلمان، أُخذ فوراً إلى الصيدلاني يوسف الذي تقع صيدليته عند مفترق طريق القشلة. هز يوسف الصيدلي رأسه بأسف مفعم بالغضب وضمّد رأس سلمان ولم يطلب أجراً لقاء علاجه له. عندما غادر سلمان الصيدلية، نظرت سارة إليه نظرة مفعمة بالحنان، وأمسكت بيده وعادا معاً إلى البيت.

عندما افترقا، قالت له سارة، «يمكنك أن تقضم قطعة من المصاصة غداً». ما كان يفضّله سلمان حقاً هو أن ترقص سارة أمامه قليلاً، لكنه خجل أن يقول لها ذلك.

لنعد الآن إلى ولادة سلمان العسيرة والخادمة العجوز أولغا التي ظهرت كما لو أن الشيطان قد استدعاها. فقد هرعت وهي ترتدي الروب دو شامبر وتنتعل خفّيها، وتوسلت إلى القابلة لأن تذهب إلى بيت سيّدتها التي انفجر كيس ماء الرأس لديها للتو. كانت القابلة، وهي امرأة جميلة لم تترك الأربعون عاماً من حياتها أي أثر على مظهرها النضر البراق، تقوم على رعاية زوجة تاجر التوابل المرهفة الحسّ والمريضة منذ شهور. وكانت تتقاضى في كلّ زيارة مبلغاً أكبر مما يمكن أن تدفعه لها عشر أسر فقيرة. لم تشأ أولغا أن تخذل سيّدتها في أشدّ لحظة خطر تداهمها، وقالت بلا خجل وبصوت عال عندما لم تستجب القابلة فوراً لندائها، إن البشر ناكرون للجميل، واستدارت وابتعدت وهي تدمدم أشياء عن الرعاع والجحود. فأرسلت فايزة تعويذتين سحريتين وراء المرأة العجوز لتزيل أي أثر لسوء الحظ الذي يخلّفه بعض الناس وراءهم.

وكما لو أن لكلام الخادمة العجوز تأثيراً أكبر من أي صلاة، فقدت القابلة صوابها وصبرها، وعكّر نومها المتقطع مزاجها، وبداية طلقين في وقت واحد. فكرهت العمل في «حوش الرحمة».

أما فيكتور، زوج أولغا، البستاني الذي يعمل عند عائلة فرح، فقد كان يعطي القابلة كيساً مليئاً بالفواكه والخضراوات كلما جاءت إلى المنزل. كان كلّ شيء ينمو بوفرة في حديقة منزل عائلة فرح الغنية، لكن أفراد عائلة فرح كانوا يحبّون تناول اللحوم، وكانوا يقدّمون اللحوم والخضراوات والفواكه لضيوفهم.

أشيع أن البستاني الأسمر النحيف على علاقة مع القابلة التي أصبحت أرملة وهي في سن مبكرة. لم يكن يبدو في الستين من عمره، بينما شاخت زوجته أولغا من الإرهاق، وكان كل ما تريد أن تفعله في السرير في الليل هو أن تخلد إلى النوم. كان هناك قسم صغير في الحديقة على شكل بيت صغير للنباتات الغريبة له باب يفضي إلى الشارع مباشرة، حيث يلتقي البستاني بعشيقاته الكثيرات. ويقال إنه يقدّم لهن فاكهة برازيلية تضرم فيهن رغبة جامحة. لكن القابلة أحبّت البستاني لأنه الرجل الوحيد الذي كان يُضحكها.

في صباح ذلك اليوم البارد، عندما رأت القابلة أن الشابة الفقيرة لا تزال في مرحلة المخاض، غادرت الشقة الصغيرة لتذهب إلى بيت عائلة فرح. حاولت فايزة أن توقفها عند بوابة «حوش الرحمة». «مريم تملك تسعة أرواح مثل القطط، لذلك لن تموت بسهولة»، قالت القابلة كأنها تريد أن تريح ضميرها، لأن المرأة المستلقية على الفراش كانت في حالة يرثى لها، مثل جميع الأشياء حولها.

تركت فايزة القابلة تذهب، وعقدت شعرها الأسود الطويل في شكل ذيل حصان، وتبعتها بعينيها حتى انعطفت باتجاه كنيسة القديس بولص. كانت عائلة فرح تسكن في أول بيت من جهة اليمين.

بدأ النهار يطرد جحافل الظلام، لكن مصابيح الشارع المغبّرة في حارة العبارة كانت لا تزال مضاءة. تنشقت فايزة النسائم العليلة، وعادت إلى صديقتها مريم.

كانت ولادة عسيرة.

عندما عادت القابلة إلى بيت مريم حوالي الساعة الثامنة، كان سلمان مقمطاً في مناشف قديمة. بدأت القابلة تدمدم وفاحت منها رائحة كحول قوية. بدأت تصف ببهجة المولودة التي أنجبتها عائلة فرح، طفلة صغيرة جميلة، ونظرت إلى سلمان وأمّه، ونعقت في أذن فايزة، «كما قلت لك، القطط لا تموت بسهولة، أليس كذلك؟» ثم خرجت وهي تترنح.

في اليوم التالي، تلقّى جميع سكان حارة العبارة طبقاً خزفياً صغيراً مليئاً باللوز المغطّى بالسكر الوردي اللون (الملبّس). وترددت على الألسنة الدعوات والتهاني لعائلة فرح بمناسبة ولادة ابنتهم فيكتوريا. وقيل إن القابلة هي التي اقترحت هذا الاسم عندما لم يتفق الوالدان على اسم مناسب لها. وظلت الفتاة تُعرف باسم «فيكتوريا ملبّس» لسنوات عديدة. ولم يوزّع والدها ملبّساً عندما ولد شقيقاها جورج وإدوارد، بسبب الأقاويل التي انتشرت في الزقاق عن وجود علاقة بين زوجته وأخيه الأصغر. فمنذ ولادتهما، بدا الصبيّان يشبهان عمهما إلى درجة كبيرة، الصائغ المتهتك، وكان الطفلان كلاهما أحولين مثله. كان هناك سبب قوي يدعو الأشخاص الأشرار إلى الثرثرة.

لكن كل ذلك حدث لاحقاً.

عندما جاء سلمان إلى هذا العالم، لم تمت أمّه، لكنها مرضت مرضاً شديداً، وعندما تماثلت إلى الشفاء من الحمّى بعد أسابيع، كان يُخشى أنها فقدت صوابها. فكانت تعوي مثل كلب ولم تتوقف عن البكاء. ولم تهدأ وتتوقف عن النحيب إلّا عندما يكون طفلها بجانبها. تصيح مبتهجة: «سلمان، سلمان، إنه سلمان»، وهي تقصد

أن الصبي سليم ويتمتع بصحة جيدة - فبدأ الناس يطلقون على الطفل اسم «سلمان».

كان أبوه رجلاً فقيراً يعمل أجيراً في محل حدادة، كره سلمان لأنه اعتقد أنه هو الطفل الذي جعل زوجته تفقد عقلها بسبب ولادته المشؤومة. بعد فترة، بدأ يكثر من الشراب. وكان مشروب العرق الرخيص يجعله سيء المزاج، بعكس كامل، زوج فايزة، شرطي المرور الذي كان يغني بنشاز لكن بسعادة كلّ ليلة عندما يسكر، وزعم أنه يفقد كيلوغراماً من وزنه كلّما شرب كأساً من العرق. وقال إنه يصبح خفيفاً خالي البال كالعندليب بعد أن يجرع عدة كؤوس.

وكانت تغمر زوجته فايزة السعادة عندما تسمعه يغني - بنشاز لكن بحماسة وشغف - وتشاركه الغناء في بعض الأحيان. وعندما كان سلمان يسمعهما يغنيان، يخطر له أن الملائكة ترعى خنازير وتغني معها.

وكان بائع الخضراوات اليهودي شمعون يشرب العرق كثيراً أيضاً، كان يردد أنه ليس سكيراً محترفاً، وإنما هو سليل سيزيف، فلم يكن يحتمل أن يرى كأس نبيذ ملأى، فيشرب ويشرب، وعندما تفرغ الكأس، كانت رؤية الكأس فارغة تصيبه بالاكتئاب. كان شمعون يسكن في أول بيت على الجانب الأيمن من «حوش الرحمة» حيث تفضي حارة العبارة إلى حارة اليهود، وكان بإمكانه أن يرى بوضوح شقّة سلمان من شرفته في الطابق الأول.

كان شمعون يشرب كلّ ليلة حتى يغيب عن الوعي، وعندما يسكر يضحك طوال الوقت ويحكي نكاتاً بذيئة، مع أنه يبدو رصيناً وعابساً قليل الكلام عندما يكون صاحياً، وكان كثير من الجيران يعتقدون أن شمعون يصلّي طوال اليوم لأن ضميره يعذبه لما يفعله في الليل.

حوّل مشروب العرق والد سلمان إلى حيوان لا يتوقف عن لعنه وشتمه وضرب أمّه إلى أن يهرع أحد الجيران ويهدّئ من حدّة غضب الرجل، وعندما يهدأ، يحملونه إلى فراشه. تعلّم سلمان منذ كان صغيراً أن يصلّي للعذراء مريم حتى يسمع أحد الجيران ما يجري ويهرع لنجدته، وكانت سارة تقول له أنْ لا فائدة ترجى من القديسين الآخرين عندما تكون بحاجة إليهم.

ومثل سلمان، كانت سارة نحيفة كالعصا، لكنها ورثت وجه أبيها الجميل وقوة أمّها وسلاطة لسانها.

وعلى قدر ما تسعفه ذاكرته، تعودت سارة على عقص شعرها في شكل ذيل حصان - وظلت تفعل ذلك حتى عندما كبرت، وأصبحت امرأة ناضجة - تترك أذنيها الصغيرتين الجميلتين مكشوفتين. وطالما حسدها سلمان على هاتين الأذنين الجميلتين. كانت سارة تحبّ الكتب وتقرأها بنهم كلما أتيحت لها الفرصة، وسرعان ما بدأ سلمان يقدّر معلوماتها ومعرفتها.

ذات مرة، سخر سلمان منها ومن مريم العذراء، فأفلتت على الفور صرصورها الجميل الذي ربطته بخيط حريري خفيف وطار الصرصور عالياً. كان الخيط الذي يربط به سلمان ساق الحشرة يقع دائماً على الأرض وساق الحشرة الصغيرة الميتة عالقة فيه، بينما يطير صرصور سارة بعيداً بخيطها الرفيع، وترجو الفتاة النحيلة العذراء مريم بأن تحمي ساقَي الصرصور، فيعود إليها سالماً مع الخيط كلما أرادت ذلك، وتطعمه أوراق التوت الطازجة ثم تضعه في علبة ثقاب، وترفع رأسها عالياً تشكر العذراء، وتعود إلى شقتها التي يفصلها عن شقة سلمان كوخ خشبي.

كانت سارة أيضاً هي التي أخبرته عن الرجال الذين يترددون على بيت سميرة عندما يكون زوجها يوسف، العامل في محطة

بنزين، غائباً عن البيت الذي يقع في الطرف الآخر من حوش المتقاعدين، بين فرن الخبّاز بركات وقنّ الدجاج.

عندما سأل سارة لماذا يأتي الرجال لزيارة سميرة لا لزيارة زوجها، ضحكت وقالت: «يا غبي، لأن لديها شقاً في الجزء السفلي من جسمها، ولدى الرجال إبرة يرتقون بها ذلك الشقّ، وكلما فُتح الشقّ من جديد يأتي الرجل التالي ليخيطه».

عندما سألها، «لكن لماذا لا يرتق زوجها يوسف الشقّ بنفسه؟»

أجابته سارة: «لأنه لا توجد لديه خيطان كافية».

وشرحت لسلمان أيضاً لماذا يستشيط أبوه غضباً عندما يشرب العرق. فذات يوم أحد، عندما بدأ أبوه يرغي ويزبد، واستطاع شمعون والرجال الآخرون أن يجرّوه إلى فراشه أخيراً، جلست سارة مع سلمان. مسّدت يده حتى توقف عن البكاء، ثم مسحت أنفه.

«يقبع في قلب والدك دبّ» قالت له بصوت خافت، ونقرت على صدره، «إنه يعيش هنا، وعندما يشرب كثيراً يفقد الحيوان صوابه، وأبوك ليس إلّا غطاءه الخارجي».

«الغطاء الخارجي؟»

«نعم، كما لو أنك ألقيت عليك ملاءة ورحت ترقص وتغني. فيرى الناس الملاءة، لكن هذا ليس إلّا غطاءك الخارجي، وأنت الشخص الذي يرقص ويغني في الداخل».

«وماذا يقبع في قلب والدك؟»

«يوجد في قلبه غراب، لكنه غراب يظن أنه عندليب، لذلك فهو يغني بنشاز، ويوجد في قلب شمعون قرد، فلا تراه يحكي نكاتاً إلّا عندما يسكر».

«وماذا عني؟ ماذا يوجد في قلبي؟»

وضعت سارة أذنها على صدره، وقالت: «أستطيع أن أسمع صوت عصفور ينقر بحذر، وهو دائم الخوف».

«وماذا يوجد في قلبك؟»

«ملاك حارس لصبي صغير. سأعطيك ثلاثة تخمينات لتعرف من هو ذلك الصبي الصغير»، قالت بصوت خافت وجرت لأنها سمعت أمّها تناديها.

في المساء، عندما استلقى بجانب أمّه، حدّثها عن الدبّ. دُهشت أمّه وهزّت رأسها، وقالت: «إنه دبّ خطير»، وغطّت في النوم.

تماثلت أمّ سلمان للشفاء من مرضها بعد سنتين من ولادة سلمان، لكن زوجها لم يتوقف عن شرب العرق. ولم تجرؤ نساء الحيّ على الاقتراب منه، لأنه قوي كالثور، ولم يكن بإمكان أحد أن يهدّئ من حدة غضبه إلّا الرجال. أثناء ذلك، كان سلمان يحاول أن يحمي رأس أمّه بجسده، لكن عبثاً. فعندما يستشيط غضباً، يلقي بسلمان إلى زاوية الغرفة، ويضرب أمّه كالمجنون.

منذ بدأ سلمان يصلّي لمريم العذراء، صار أحد الجيران يهبّ دائماً لنجدته، لكن مريم العذراء لم تؤثر يوماً على الجيران، وإنما كان الرجال يهرعون لأن سلمان يصرخ بأعلى صوته ما إن يرفع أبوه يده. قالت سارة إن صراخه كان عالياً جداً إلى درجة أنه يقطع التيار الكهربائي في بيتهم المجاور.

كانت أمّ سلمان تشعر بالامتنان له لأنه يحدث تلك الجلبة، فما إن يصل زوجها السكير وهو يترنح إلى مدخل البيت حتى تهمس له، «غرّد أيها الطائر الصغير، هيا غرّد» فيبدأ سلمان يصرخ بصوت عالٍ، حتى أن والده لا يجرؤ أحياناً على الدخول إلى البيت. حتى بعد مضي سنوات، ظلّ سلمان يتذكّر مدى سعادة أمّه بقضاء يوم من دون

أن تُضرب فيه مرة واحدة، وعندما يحدث ذلك، تنظر إلى سلمان بسعادة وترتسم ابتسامة في عينيها المستديرتين، وتقبّله وتمسّد وجهه، ثم تستلقي في ركنهما لتنام على المرتبة الرثة.

عندما كان سلمان يسمع وقع خطوات أبيه في الليل، يحمل أمّه مثل طفلة صغيرة إلى الغرفة الأخرى، ثم يسمع والده وهو يعتذر من أمّه ويقول لها إنه غبي، ويضحك ضحكة بلهاء، ثم تطلق أمّه تأوهات هادئة وسعيدة، مثل كلبة راضية.

وعلى قدر ما تسعفه ذاكرته، عاش سلمان وأمّه تحت رحمة مزاج أبيه المتأرجح بين الحار والبارد حتى يوم أحد ربيعي، عندما شرب والده بعد أن خرج من الكنيسة في خمارة حتى سكر وفي المساء ضرب أمّه، فهرع جارهم شمعون لمساعدتها، وهدّأ من روع والد سلمان، وأخذه أخيراً إلى الفراش. ثم دخل شمعون بهدوء إلى الغرفة الأصغر واستند إلى الحائط منهكاً، وسأل أمّ سلمان، «هل تعلمين أن بيت الحائك المتوفى بجانب كنيسة القديس بولص لا يزال فارغاً منذ ستة أشهر؟»

مثل جميع جاراتها، عرفت أمّ سلمان ذلك، وتأتأت، «طبعاً».

«إذاً، ماذا تنتظرين؟» سألها بائع الخضراوات، وغادر بسرعة قبل أن يضطر إلى الاستماع إلى جميع الأسئلة التي تدور في رأس أمّ سلمان.

«هيا بنا نذهب قبل أن يستيقظ»، حثّ سلمان أمّه على أن يذهبا قبل أن يعرف أبوه إلى أين.

نظرت حواليها، ثم نهضت وأخذت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. نظرت إلى سلمان بعينين قلقتين وقالت وقد اغرورقت الدموع في عينيها، «نعم، لنذهب».

في الخارج، هبّت ريح شديدة البرودة على «حوش الرحمة»، وغطت سماءَ المدينة سحبٌ رمادية داكنة منخفضة. وضعت أمّ سلمان كنزتين عليه، الواحدة فوق الأخرى، وألقت معطفاً قديماً حول كتفيها. كان جاراهما مارون وبركات يصلحان أنبوب مزراب. ألقيا نظرة سريعة عليهما ولم يعرفا ما الذي سيفعلانه، لكن سميرة التي تقيم في الجانب الآخر من الفناء والتي كانت منهمكة اليوم بالطهي والغسيل وتستمع إلى المذياع، ارتابت بشيء ما.

«دفاتري المدرسية»، صاح سلمان قلقاً عندما وصلا إلى البوابة. بدا أن أمّه لم تسمع. بصمت، أمسكته بيده وسارا بعيداً.

بدا الزقاق مقفراً يكاد يخلو من المارة في عصر ذلك اليوم البارد، وسرعان ما وصلا إلى البيت الصغير. فتحت أمّ سلمان الباب الذي لم يكن مقفلاً، وهبّت العتمة والهواء العفن الرطب لاستقبالهما.

شعر بخوف أمّه لأنه أحسّ بقبضتها القوية على يديه حتى آلمته. كان بيتاً غريباً. كان الباب يفضي إلى دهليز طويل معتم، ثم إلى باحة داخلية صغيرة جداً مكشوفة. غرف الطابق الأرضي متهالكة، والنوافذ والأبواب متداعية. وهناك درج مظلم يصعد إلى الطابق الأول حيث كان الحائك يسكن ويعمل حتى وفاته.

تبع سلمان أمّه بحذر.

كانت الغرفة كبيرة لكنها رثة، تتناثر فيها الأوساخ، بالإضافة إلى قطع أثاث محطمة وجرائد وبقايا طعام.

جلست أمّ سلمان على الأرض واستندت إلى الحائط تحت النافذة التي أصبح زجاجها معتماً من السخام والغبار، تعلوها خيوط عنكبوت، يتسلل منها ضوء رمادي خافت. بدأت تبكي. بكت وبكت حتى بدت الغرفة أكثر رطوبة من قبل.

«عندما كنت فتاة، كنت أحلم دائماً. . .»، قالت، لكنها سرعان ما صمتت، كما لو أن خيبات الأمل في حياتها قد أغرقت آخر الكلمات في فمها، ولم تتوقف عن البكاء بصمت.

«أين انتهى بي الحال؟ كنت أريد. . .»، قالت، محاولة مرة أخرى، لكن هذه الفكرة ماتت على شفتيها أيضاً. من بعيد، سُمع صوت هدير الرعد كأنها حجارة ثقيلة تتدحرج فوق سقف من الصفيح المتموج. قبل غروب الشمس بقليل، برز شعاع ضوء الشمس من خلال فجوة ضيقة بين البيوت. لكن كما لو أن البؤس لم يدعه يمرّ، اختفى على الفور.

ثنت أمّ سلمان ركبتيها وأسندت رأسها عليهما وابتسمت له، وقالت: «ألستُ غبية؟ يجب أن أضحك معك، لأُدخل البهجة إلى نفسك. . . لكن كلّ ما أفعله هو أنني أبكي».

في الخارج هبّت ريح قوية، واقتلعت مزراباً من الجدار وصارت تلطم به الجدار بقوة، ثم بدأ المطر يهطل من جديد.

أراد أن يسألها إن كان بإمكانه أن يفعل شيئاً لمساعدتها، لكنها عادت تبكي بعد أن مدّت يدها ومسّدت شعره.

سرعان ما غطّ في النوم على مرتبة تفوح منها رائحة زيت زنخ. عندما استيقظ، كان الظلام دامساً والمطر يهطل بغزارة في الخارج. همس بقلق «ماما» عندما ظن أنها تجلس بعيداً عنه.

«أنا هنا، لا تقلق»، همست من وراء دموعها.

استوى جالساً وأسند رأسه على حجرها وراح يغني لها بصوت ناعم الأغاني التي تعلّمها منها.

شعر بالجوع لكنه لم يقل لها ذلك، لأنه خشي أن يتملكها اليأس. لم ينس سلمان قط ذلك الجوع طوال حياته، وعندما يريد أن

يصف شيئاً، يأخذ وقتاً طويلاً جداً، كان يقول إنه كان «أطول من يوم جوعي».

«سأنظّف النافذة غداً»، قالت أمّه وضحكت فجأة، لكنه لم يفهم قصدها.

سألها، «ألا توجد شمعة هنا؟»

فقالت، «نعم، يجب أن نفكّر في ذلك أيضاً»، كما لو أن شيئاً قد خطر في بالها فجأة، «هل ذاكرتك قوية؟»

أومأ برأسه في العتمة كما لو أنها رأته، وواصلت، «إذاً فلنلعب. سنحضر غداً خرقاً قديمة».

فهم قصدها. «سنجلب خرقاً قديمة وشمعتين».

وأضافت، «سنجلب خرقاً وشمعتين وعلبة ثقاب». عندما انتصف الليل، بينما كان مستلقياً بين ذراعيها، مرهقاً إلى درجة أنه لم يعد قادراً على إبقاء عينيه مفتوحتين، ابتسمت وقالت ضاحكة، «إذا كنّا سنجلب كلّ هذه الأشياء غداً، فإننا سنحتاج إلى شاحنة.»

كان قطرات المطر تضرب زجاج النافذة، واقترب سلمان من أمه كثيراً. كانت تفوح منها رائحة بصل، لأنها أعدّت لأبيه حساء البصل في ذلك اليوم.

وسرعان ما غطّ في النوم.

3

دأبت أمّ نورا على معاملة زوجها كأنه صبي أخرق لا يشعر بالأمان، لكنها كانت ترتعد أمامه عندما يتعلق الأمر بنورا. وبدا أنها تخاف منه أكثر مما تخاف ابنتها الصغيرة منه، ولم تجرؤ طوال حياتها أن تجيب على أي سؤال تسأله نورا من دون أن تقول: «إذا وافق أبوكِ».

هكذا كان الحال عندما خرجت نورا مع خالها فريد، أخي أمّها غير الشقيق، لآخر مرة. كان رجلاً وسيماً وأنيقاً للغاية. لكن نورا لم تكتشف أن خالها فريد كان مفلساً في تلك الأيام إلّا بعد سنوات، لأنه لم يسع المرء أن يدرك ذلك من مجرد النظر إليه. فقد أشهرت محلات الأقمشة الثلاثة التي أعطاها له والده إفلاسها في فترة زمنية قصيرة جداً. وقد أنحى فريد باللائمة على أبيه لأنه كان يتدخل في كل شاردة وواردة في عمله بأفكاره العتيقة التي لا تتماشى مع روح العصر وادعى أنها هي التي أفشلته. فحرمه أبوه، المهايني الكبير، من الميراث. لكن ذلك لم يغيّر شيئاً من طباع فريد المتفائلة وظل يتبع أهواءه.

وبما أنه تلقّى تعليمه في أفضل المدارس، وامتلك موهبة في اللغة والخطّ الجميل، مارس مهنة غير عادية، وهي مهنة «العرضحالجي» الذي يكتب عقوداً وعرائض وتظلمات للناس. ففي

خمسينات القرن الماضي، كان أكثر من نصف سكان دمشق البالغين أميين، لا يجيدون القراءة والكتابة، لكن الدولة الحديثة قررت أن تجري جميع المعاملات الحكومية بطريقة رسمية تشبهاً بأوروبا، وطلب موظّفو الحكومة البيروقراطيّون أن يُقدَّم أي طلب، مهما كان بسيطاً، كتابة ليتمكنوا من دراسة الالتماس المكتوب وفق الأصول المرعية، وإعادته إلى المواطن الذي أرسله وقد امتلأ بالطوابع والأختام والملاحظات والرموز الحكومية. كانت الدولة تأمل من كلّ ذلك أن تحظى بقدر من التقدير بين السكان الذين تجعلهم جذورهم البدوية ينحون دائماً إلى الفوضى وعدم احترام القوانين.

انتشرت كتابة هذه العرائض والالتماسات والطلبات حتى أصبحت موضوعاً يتندّر به سكان دمشق. «إذا كان جارك موظفاً في الحكومة، فلا تقل له صباح الخير، وإنما قدّم له طلباً ممهوراً بالأختام لتقول له ذلك، وقد يردّ عليك بعد ذلك أو لا يردّ».

وقيل أيضاً إن البيروقراطية ضرورية حتى يتمكّن موظفو الدولة من العمل بطريقة فعالة وحديثة. فإذا سمحت للسوريين الثرثارين أن يقدّموا عرائض شفهياً، فإن كلّ عريضة ستتحول إلى قصة طويلة لا نهاية لها مليئة بالزخارف والإضافات التي يتداخل بعضها ببعض، عندها لا يستطيع الموظف أن ينجز شيئاً من عمله، بالإضافة إلى أنه يصعب التصديق على الكلمة المنطوقة شفهياً بطابع وختم رسمي.

ومصطلح عرضحالجي يتألف من مقطعين: «عرض حال» بمعنى شكوى أو شرح حالة ما، مأخوذة من اللغة التركية وتُستعمل لنسبة شخص الى مهنة معينة مثل قهوجي، وبوسطجي، وقندرجي (إسكافي).

كان أولئك «العرضحالجيون» يجلسون أمام طاولات صغيرة عند

مداخل الهيئات والإدارات الحكومية تحت مظلاتهم الشمسية التي بهت لونها، يكتبون العرائض والالتماسات والطلبات وغيرها من الأوراق الرسمية. وبما أن الشرطة لم تسمح لهم إلّا بكرسي واحد وطاولة واحدة لكلّ عرضحالجي، كان زبائنهم يضطرون لأن يقفوا ويحكوا له القصة فيبدأ بكتابتها على الفور. في ذلك الوقت كان كل شيء يُكتب بخط اليد، وكان العرضحالجي يكتب مبدياً حركات مبالغ فيها بيده، ليبرز للزبون الجهد الذي يبذله في كتابة الالتماس.

وكلّما كانت ذاكرة العرضحالجي أقوى، كان أكثر مرونة، لأن العرائض التي تقدّم إلى المحكمة غير العرائض التي تقدّم إلى وزارة المالية التي تختلف أيضاً عن العرائض التي تقدّم إلى دائرة تسجيل الإقامة. وكان لدى العرضحالجيين أكثر من خمسين نسخة جاهزة، وكان بإمكانهم أن ينتقلوا مع كراسيهم وطاولاتهم القابلة للطي من مدخل إحدى الدوائر الحكومية إلى أخرى، وذلك بحسب اليوم والفصل.

دأب الخال فريد على الجلوس تحت مظلة شمسية حمراء خارج محكمة الأحوال الشخصية. وبما أن فريد كان أنيقاً أكثر من زملائه الآخرين، فقد استطاع أن يجذب الكثير من الزبائن، لأنهم يعتقدون أن القضاة والمحامين يعاملونه معاملة أفضل، ولم يكن الخال فريد يرغب في أن يقول لهم شيئاً يغيّر ما يعتقدون به.

لم يكن العرضحالجي يكتب العرائض فقط، وإنما ينصح زبائنه أيضاً بأفضل مكان يقدّمون فيه طلباتهم، والمبلغ المطلوب لكي تمهر الحكومة ختمها عليه. فقد كانوا يريحون اليائسين ويشدّون من عزيمة المحتجين، ويشجعون ذوي القلوب الضعيفة، وينصحون المتفائلين بتعديل أفكارهم المتفائلة جداً لتُحدث التأثير المطلوب.

لو لم يسيطر الكسل على الخال فريد، لكتب كتاباً ضخماً مليئاً

بالقصص المحزنة والمضحكة التي سمعها من زبائنه وهو يكتب التماساتهم، لكنه لم يفعل ذلك.

لم يكن الخال فريد يكتب عرائض والتماسات فقط، وإنما كان يكتب رسائل من جميع الأنواع، وفي أحيان كثيرة رسائل إلى المهاجرين. ما كان على الزبون إلّا أن يخبره اسم المهاجر والبلد الذي هاجر إليه، حتى يحصل على رسالة طويلة يؤلفها من بنات أفكاره. وكما اكتشفت نورا لاحقاً، فإن تلك الرسائل فارغة المحتوى، لا تقول شيئاً، ويمكن تلخيصها في سطر واحد. فالرسائل الموجهة إلى المهاجرين، يمكن تلخيصها عادة بعبارة: يرجى أن ترسل لنا نقوداً، لكنها تتوارى وراء أنشودة من المديح، ذربة اللسان، مليئة بتعابير وجمل مبالغ فيها تتحدث عن الشوق واللوعة لرؤية متلقي الرسالة مرة أخرى، ووعود بالمودة المخلصة، وتأكيدات أقسم عليها بحب الوطن وحليب أمّ المرسل. أي شيء يحفّز الغدد المسيلة للدموع كان شيئاً مرغوباً فيه. لكن الرسائل القليلة التي سُمح لنورا أن تقرأها فيما بعد، صدمتها بأنها رسائل سخيفة. ولم يتحدّث الخال فريد عن هذه الرسائل طوال حياته، لأنه يعتبرها سرّه الدفين.

أما الذين يملكون مبلغاً أكبر من المال، فكانوا يحددون موعداً مع الخال فريد ليزورهم في البيت حيث يملون عليه ما يريدون كتابته أو تقديمه من عرائض وطلبات ويكتبه فريد بدقة. بالطبع، كان ذلك يكلّف مبلغاً أكبر، لكن الرسائل تُكتب بأسلوب أنيق وجميل وأكثر ذكاءً.

أما الدمشقيون الأغنى، فلم يذهبوا إلى العرضحالجي، وإنما إلى خطاط يكتب لهم رسائلهم بخطّ جميل مزدانة بزخارف على أطراف الرسالة، تكون لديه عادة كتب يستمد منها الأقوال المأثورة والحكم المناسبة ليكتبها لزبائنه. وبخلاف الرسائل التي تُكتب

بالجملة التي يكتبها العرضحالجيون في الشارع، تميّزت هذه الرسائل بجمال مميّز ومؤثر.

حوّل الخطاطون كتابة الرسائل البسيطة إلى شعائر مليئة بالأسرار. فقد كانوا يكتبون الرسائل الموجهة إلى الأزواج أو إلى الزوجات بقلم نحاسي، والرسائل الموجهة إلى الأصدقاء والعشاق بقلم فضي، والرسائل الموجهة إلى أشخاص مهمّين بقلم ذهبي، والرسائل الموجهة إلى عروس موعودة بريشة مصنوعة من منقار طائر اللقلق، أما الرسائل الموجهة إلى الأعداء والخصوم فتكتب بقلم مقطوع من غصين شجرة رمان لأن أغصان الرمان معروفة بمرونتها وتصلح لأن تكون عصا لضرب التلاميذ وتأديبهم.

كان الخال فريد يحبّ أمّ نورا، أخته غير الشقيقة، ويزورها كلما استطاع حتى توفي في حادث سيارة بعد أن تزوجت نورا بسنتين. ولم تكتشف نورا إلّا لاحقاً أن كراهية أمها وخالها لأبيهما، مهايني العجوز، هي أساس الصلة العاطفية التي تربطهما.

كانت نورا تحبّ خالها لأنه يضحك كثيراً وكريم جداً، لكنها لم تقل ذلك لأبيها قط لأنه يحتقر خالها ويصفه «بأنه طبل ملون»، ويقول إن الرسائل والعرائض التي يكتبها تشبهه تماماً: ملونة وصاخبة وفارغة.

في أحد الأيام، جاء الخال فريد لزيارتهم في الصباح. كان يرتدي ثياباً أنيقة باستمرار، ينتعل حذاء من الجلد الأحمر الناعم يصدر صوتاً عندما يمشي. كان ذلك دلالة على التميّز في ذلك الوقت، لأن الأحذية الجيدة فقط هي التي تصدر صريراً. عندما فتحت نورا الباب، رأت حماراً ضخماً أبيض، ربطه خالها بحلقة بجانب باب البيت.

«هل تريدين يا صغيرتي أن تركبي هذا الحمار الجميل معي؟»

فوجئت نورا حتى أنها لم تكد تستطيع أن تغلق فمها. قال الخال فريد لأمّها إنه سيزور زبوناً يسكن في مكان قريب ليكتب له عرائض هامة، وقال إن الرجل سيدفع له مبلغاً سخياً، وخطر بباله أن يأخذ نورا معه حتى ترتاح منها أمها لفترة من الوقت، فأعجبتها الفكرة، وقالت بابتسامة عارفة: «عندها ستتوقف عن إتلاف عينيها بقراءة الكتب، لكن يجب أن تعود إلى البيت قبل أذان الظهيرة، لأن أباها المحترم يأتي في ذلك الوقت على الغداء».

أمسك الخال بيدَي نورا وحملها على ظهر الحمار. أحست أن قلبها قد هبط إلى ركبتيها، وتشبّثت بخوف بالحلقة التي برزت أمامها من السرج الذي تكسوه سجادة.

اعتاد الدمشقيون على رؤية حمير الأجرة في شوارع المدينة، وكان أحد الأكشاك العديدة التي تؤجّر الحمير يقع في الشارع الرئيسي، غير بعيد عن بيت نورا. لم تملك آنذاك إلّا قلة قليلة من العائلات الغنية سيارات، وبالإضافة إلى الترام، لم يتوفر لسكان المدينة سوى حافلتين أو ثلاث حافلات، وبضع عربات تجرّها أحصنة لنقل الركاب إلى دمشق والمناطق المجاورة لها، لكن ذلك لم يكن كافياً.

كان ذيل الحمار المستأجر يُدهن بلون أحمر فاقع حتى يراه الناس من مسافة بعيدة. وكقاعدة عامة، يعيد المستأجر الحمار عندما يُنهي عمله، وإذا لم يرغب الزبون أن يعيد الحمار بنفسه، يرسل صاحب الحمار صبياً صغيراً معه يركض بجانب الرجل ويوصله إلى بيته، ثم يعيد الصبي الحمار إلى الكشك. سار الخال فريد ونورا في الشارع الرئيسي قليلاً ثم انعطفا إلى أحد الأزقة. ابتلعتهما متاهة من البيوت البسيطة الواطئة المبنية من الطين. ثم توقف الخال فريد أمام منزل جميل مبني من الحجارة عند نهاية أحد الأزقة، وربط الحمار

بعمود الإنارة بجانب مدخل البيت، وقرع الباب. فتح رجل لطيف الباب وتحدّث مع الخال فريد قليلاً، ثم دعاهما للدخول إلى باحة بيته الجميلة، وهرع ليُدخل الحمار أيضاً. طلب الخال فريد أن يُبقي الحمار خارج البيت، لكن الرجل أصرّ على إدخاله، وربط الحمار بجذع شجرة توت، ووضع أمامه بعض قشور بطيخ وأوراق ذرة طازجة.

ثم قدّموا عصير الليمون لنورا التي وقفت بعد قليل بجانب الحمار مع أبناء الرجل الذين أخذوا يربّتون عليه ويطعمونه. كانوا أكثر الأطفال غرابة رأتهم في حياتها، فقد تقاسموا معها البسكويت والمشمش مع أنها لم تقدم لهم شيئاً، ولم يزعجوها للحظة واحدة، وأرادت أن تبقى معهم.

جلس الخال فريد في العليّة المظللة وراح يكتب ما يمليه عليه الرجل. كانا يتوقفان أحياناً قليلاً ليفكّر الخال فريد في ما سيكتبه، ثم احتسى العم قهوة مع مضيفه وتسامرا حتى سمع فريد صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة، فأسرع عائداً مع نورا إلى البيت.

«هل لاحظتِ كم هي سعيدة هذه العائلة؟» سألها خالها عندما كانا عائدين إلى البيت، فهزّت نورا رأسها.

«الرجل نحات بارع. إنه لا يجوع، لكنه لا يوفّر شيئاً مما يكسبه، ويعيش مثل ملك. لماذا؟»

لم تعرف.

فقال لها: «لا نقود أبي ولا كتب أبيك تستطيع أن تجعل الناس سعداء»، وأضاف، «فالسعادة تقبع في القلب».

كررت، «السعادة تقبع في القلب».

عندما وصلت نورا إلى البيت، وبّخها أبوها هي وأمّها، مع أن

خالها اعتذر على تأخره بتهذيب لوالد نورا أمام البيت، وغادر بسرعة.

لماذا غضب أبوها هكذا؟ أغلقت نورا أذنيها كي لا تسمعه.

لم تشأ أن تأكل أيضاً، وذهبت إلى غرفتها واستلقت على الأريكة.

ظلّ خالها يزور أمّها، لكنها لم تعد تسمح لنورا أن تذهب معه لزيارة أي زبون.

4

مكتبة
t.me/soramnqraa

في خريف عام ١٩٤٥، عندما أصبح سلمان في الثامنة وسبعة شهورٍ من عمره، عبر لأول مرة بوابة مدرسة القديس نيقولاوس الواطئة المخصصة للأطفال المسيحيين الفقراء. لم يرغب سلمان في الذهاب إلى المدرسة. ومع أنه تعلم القراءة والكتابة، فلم يكن ذلك كافياً. علّمته سارة القراءة والكتابة. وطلبت منه أن يناديها «الآنسة المعلّمة» عندما كانت تعلّمه ألغاز الحروف والأرقام. وعندما كان يحفظ دروسه جيداً ويجيب على أسئلتها بذكاء، تقبّله على خديه أو على عينيه أو جبينه، وعندما يبدي ذكاء شديداً، تقبّله على شفتيه، أما عندما يخطئ، فكانت تهزّ رأسها وسبابتها أمام أنفه، وعندما يبدي قلة أدب أو تأففاً من الدرس، تشدّه من شحمة أذنه برفق، أو تنقر على رأسه بمفاصل أصابعها، وتقول: «هذه فراشة جاءت لتحذّرك بألّا تتواقح على معلمتك أو تسرح بأفكارك بعيداً».

لم يرغب سلمان في الذهاب إلى المدرسة، لكن القسّ يعقوب أقنع أباه بأن التعليم سيجعل منه طفلاً كاثوليكياً جيداً، وقال له: «وإلّا فإن تناول أول قربان مقدس له سيكون في خطر»، ثرثرة الكاهن عن القربان المقدس لم تهم والد سلمان لكنه أدرك أن الكوخ الذي يعيش فيه بفضل الكنيسة الكاثوليكية سيصبح في خطر أيضاً.

عندما وضع سلمان قدمه داخل باحة المدرسة المظلمة في بداية

تشرين الأول، مات الضوء على بابها. فقد زكمت رائحة عفن وبول أنفه ورأى جرذاً كبيراً يجري خائفاً أمام ثلاثة تلاميذ يبحث عن مخبأ حتى وجده أخيراً وقفز من نافذة محطمة الى القبو المظلم.

سيظل سلمان طوال عمره يتذكّر الشهور الأولى من جحيم المدرسة لأن المعلّمين كانوا يضربونه بقسوة ضرباً وبدون رحمة، وكان معظم التلاميذ يعيّرونه بأنه نحيف وأذناه كبيرتان، وبدأوا يلقّبونه «*الفيل الهزيل*». ولم يردع المعلّمون التلاميذ عندما يسخرون منه ويضحكون عليه.

في أحد الأيام، كان على التلاميذ أن يتعلّموا الأفعال المستخدمة للحركة. وعندما سأل المعلم، «الكائنات البشرية؟» أجاب التلاميذ بصوت مرتفع: «تمشي». والسمك يسبح، والطيور تطير، كان جميع التلاميذ يعرفون ذلك. أما عندما جاء دور الثعابين، بدأ جميع التلاميذ يتكلمون في وقت واحد، حتى اتفقوا على أن «الثعابين تتلوّى»، وكان كلّ ما يعرفه معظمهم عن العقارب هو أنها تلدغ. فقال لهم المعلم: «العقارب تخربش».

«إذاً وماذا عن سلمان؟» سأل المعلّم، فابتسم التلاميذ بخبث وجرّبوا جميع الحركات التي يمكن أن تخطر ببالهم، لكن المعلم لم يكن راضياً. أطرق سلمان عينيه إلى الأرض واحمرّت أذناه.

«إنه يبحر في الهواء بأذنيه الكبيرتين»، قال المعلّم وهو يجأر ضاحكاً، فشاركه جميع تلاميذ الصف في الضحك، ما عدا تلميذاً واحداً وهو بنيامين الذي يجلس بجانب سلمان. «إنه عجوز أصلع»، همس لصديقه المحبط، فضحك سلمان لأن صلعة كبيرة تكسو رأس المعلّم. «وصلعته هي الشيء المضيء الوحيد في هذا الخرفان»، أضاف بنيامين وكاد سلمان يُغشى عليه من الضحك ففرح الأستاذ العجوز ظاناً أن مرحه السادي هو الذي أضحك سلمان.

بدأ سلمان يكره المدرسة وأحس بأنه سيموت اختناقاً لو بقي فيها، لكن بنيامين أراه باباً إلى الحرية. كان بنيامين فتى طويل القامة، له أكبر أنف رآه سلمان في حياته، ومع أنه بلغ الثانية عشرة من عمره، فلم يتناول أول قربان مقدس بعد وقد رسب في الصف الأول مرتين. كان والده صاحب الكشك الصغير عند تقاطع الشارع بجانب الكنيسة الكاثوليكية، يقلي أقراص فلافل كثيرة كلّ يوم، فتعلق رائحة الزيت الزنخ القوية في ثياب بنيامين. ومثل سلمان، لم يشأ أبوه أن يرسله إلى المدرسة، ولم يكن سيرسله أيضاً لو لم يؤلّب الأب يعقوب، القسّ الجديد المتعصب في الكنيسة الكاثوليكية، سكان الحيّ عليه، وأشاع أنه يشكّ في إيمانه المسيحي ونظافة يديه. حدث كلّ ذلك بهدوء إلى درجة أن والد بنيامين لم يشعر بما حدث إلّا بعد شهر عندما بدأ يتساءل عن سبب انصراف عدد كبير من زبائنه عنه وذهابهم ليشتروا الفلافل من ذلك المنافق جورج الذي، على الرغم من أن طعم أقراص الفلافل التي يبيعها تشبه رائحة جوارب قديمة، فإن جدران دكانه مليئة بالصلبان وصور القديسين كما لو كان مكاناً يؤمه الحجاج.

في أحد الأيام، بعد أن ضرب المشرف سلمان في باحة المدرسة، أفضى إليه بنيامين بسرّ عظيم، وقال له هامساً: «لا يلاحظ المعلمون في هذه المدرسة التي نسيها الرب من يحضر ومن يغيب، ولا يتفقدون التلاميذ إلّا يوم الأحد قبل أن يذهبوا إلى الكنيسة. حتى أنهم لا يلاحظون غالباً في أي صفّ هم، ولا يكتشفون أنهم تلاميذ الصف الثاني أو الصف الرابع إلّا في نهاية الدرس».

كان سلمان يخاف أن يهرب من المدرسة لأن غابرييل، ابن الخياطة، قال له إن الذين يهربون من المدرسة، يُحبسون يوماً كاملاً في القبو وتقضم الفئران والجرذان الجائعة آذانهم التي تُفرك بدهن

زنخ. وضحك ضحكة خبيثة، وأضاف، «ستكون أذناك الكبيرتان وجبة لذيذة لتلك الجرذان».

فقال له بنيامين إن غابرييل «فأرة مذعورة». قبل عيد الميلاد ببضعة أيام، علّمه بنيامين كيف يتغيّب عن المدرسة طوال أربعة أيام دون أن يلاحظ غيابه أحد. تملكت سلمان الشجاعة الكافية ليقدم على هذه الخطوة. وفي يوم بارد لكنه مشمس من أيام كانون الثاني، أمضى الصبيّان بضع ساعات ممتعة وهما يتجوّلان في الأسواق، يتسليان بتناول لقيمات من الحلوى عندما لا يراهم أصحاب المحلات.

لم يلاحظ أحد في البيت شيئاً، فبدأ سلمان يغيب عن المدرسة فترات أطول. أما في أيام الأحد، فكان يصطّف في رتل، نظيفاً، ممشط الشعر، يمدّ يديه وقد قلّم أظافره لتفتيشها. ولم يعد يُضرب إلّا نادراً بتلك العصا الخشبية العريضة التي تهوي عادة على الأيدي الوسخة.

«بعد مناولتي الأولى سأترك المدرسة»، قال له بنيامين «وإلّا فإن مؤخرتي ستمتلئ بالجروح والندوب كما قال أبي، وسيبقى رأسي فارغاً. يجب أن أعمل لإعالة إخوتي وأخواتي التسعة».

فقال سلمان: « أريد أن أذهب إلى مدرسة سارة». ظنّ بنيامين أنها مدرسة راقية، ولم يسأله شيئاً.

كان جرجي ابن إبراهيم، عامل البناء الذي يبلغ طوله مترَين وعرضه متراً، التلميذ الوحيد الذي يحسده سلمان وبنيامين.

في أحد الأيام، ضرب المعلّم قدسي جرجي لأنه تسلل إلى غرفة المدرسين وتناول سندويشتَي المعلّم قدسي عندما كان «يخوض معركة فردية مع قوى ظلام قلوب تلامذته». كان يردد هذه العبارة

لتلاميذ الصفوف كلها، فأطلق عليه المعلّمون الآخرون، ساخرين لقب، «أستاذ قوى الظلام».

كان إبراهيم، والد جرجي، يرمم الجدار الخارجي لمنزل عائلة الصحناوي الغنية الذي يقع قبالة الزقاق المفضي إلى المدرسة. لم يكن مزاج إبراهيم رائقاً في ذلك اليوم، لأن رائحة كريهة ملأت المكان. فقد فتح هناك رجلان ببطء أنبوبَ مجارٍ مسدوداً. وشأن جميع عمال البلدية، امتلكا موهبة التلكؤ والتباطؤ في عملهما، فأخرجا كتلة سوداء كريهة الرائحة في منتصف النهار، ووضعاها بجانب الطريق، ثم ذهبا ليشربا القهوة في المقهى المجاور.

فجأة هرعت فتاتان إلى عامل البناء وقالتا له وهما تلهثان إنهما شاهدتا معلماً مسلحاً بقضيب خيزران يهوي به بلا شفقة على ابنه جرجي، وشتم والديه وقال إنهما ليسا مسيحيين، بل يعبدان الأصنام والشيطان، وإن المعلّم طلب من ابن إبراهيم أن يكرر هذه العبارة، فردّدها جرجي وهو يبكي.

أُعجب عامل البناء بالطريقة التي تحدّثت بها الفتاتان، الواحدة تلو الأخرى، وأخبرتاه بتفصيل دقيق ومقنع عمّا حدث على الرغم من اضطرابهما ولهاثهما، حسدهما إبراهيم لأن ابنه جرجي لا يستطيع أن يفعل كما فعلت الفتاتان، بل يتلعثم لأقل خوف أو اضطراب.

أغمض عينيه للحظة، ورأى مطراً خفيفاً يهطل ذا إبر حارقة في سماء مظلمة. سار أمام الفتاتين إلى المدرسة التي لا تبعد سوى مئة متر، وعندما وصل إلى البوابة الخشبية الواطئة الملصق عليها صورة القديس نيقولاوس الشهيرة - وهو ينقذ الأطفال من برميل الحوض الملحي - لم تكن الفتاتان ترافقانه فقط، وإنما الحلاق أيضاً الذي لم يملأ صالونه في ذلك الوقت من النهار سوى الذباب، ولم يمارس عملاً سوى تفتيل طرفي شاربيه المطليين بالشمع للمرة الألف،

بالإضافة إلى راتق السجاد الذي كان يعمل خارج محله في يوم كهذا، وعاملَي البلدية، وبائع الخضراوات، واثنين من المارة غريبين عن المنطقة لا يعرفان ما الذي يجري، لكنهما كانا متأكدين من أنهما سيعرفان بعد قليل، وقد تحقق لهما ذلك.

ركل إبراهيم الباب الخشبي، وأطلق صيحة تشبه صيحة طرزان، ووصل إلى وسط باحة المدرسة الصغيرة وهو ينفث غضباً. «أين ابن القحبة؟ نحن لا نعبد الأوثان. نحن كاثوليك أتقياء». خرج مدير المدرسة، وهو رجل ضئيل الحجم مربوع القامة، يضع نظارات، وله صلعة تغطيها باروكة مضحكة من الشعر المستعار، من مكتبه، وحتى قبل أن يتمكن من أن يعبّر عن سخطه من الكلمات البذيئة التي قالها إبراهيم، فوجئ بصفعة سُمع صداها على وجهه في كافة الصفوف لأن صمتاً رهيباً خيّم على تلاميذ المدرسة وأساتذتها على الفور، جعلته يترنح إلى الوراء عدة أمتار ثم هوى على الأرض وطارت باروكته خلفه، فخاف عامل البناء لأنه ظنّ أن فروة رأس المدير قد سُلخت وطارت من رأسه، كما شاهد في أحد أفلام الكاوبوي.

بدأ المدير يولول فركله إبراهيم في بطنه، وأمسك قدمه اليمنى وظل يركله، كما لو كان يدفع قطناً مندوفاً إلى داخل كيس خيش.

أخذ المدير يتوسل إليه بأن يترك قدمه، وقال إنه لا يشك قط بأن إبراهيم رجل مسيحي تقي، وقال له إن ضرسه يؤلمه.

«أين هو ذلك البندوق الذي ضرب جرجي؟»

خرج التلاميذ من صفوفهم بعد أن أوقفت هذه الجلبة دروسهم.

«الأستاذ قدسي مختبئ في دورة المياه»، قال أحد التلاميذ المتحمسين لعامل البناء إبراهيم الذي رأى ابنه للتو شاحب الوجه يبتسم له محرجاً، وقال: «إنه يختبئ هناك». اندفع إبراهيم نحو دورة المياه تتبعه مجموعة من التلاميذ. كان صوت لكمات عديدة أول ما

سُمع في باحة المدرسة، ثم تلاه صوت المعلّم قدسي وهو يتوسل ويقول بصوت مرتفع: «إنك مسيحي صالح... نعم، إنك شخص طيب، كاثوليكي تقي... لا، جرجي فتى جيد، وأنا...» ثم ساد صمت.

عاد إبراهيم إلى باحة المدرسة وهو يتصبب عرقاً وصاح، «سيكون هذا جزاء كلّ من تسوّل له نفسه أن يلمس جرجي أو يقول إننا لسنا كاثوليكيين مؤمنين».

منذ ذلك اليوم، تُرك جرجي وشأنه، لكن كان هذا أحد الأسباب التي جعلت سلمان يحسد جرجي: أما السبب الآخر، فهو أن الصبي الشاحب الذي كان أبوه فقيراً جداً، مثل أبيه، يحمل في جيبه نقوداً دائماً، يشتري بها أطعمة لذيذة من كشك المدرسة أثناء الاستراحة، يلعق ويأكل ويستمتع بجميع أصناف الحلوى الزاهية الألوان، ولا يُطعم أحداً. أما والد سلمان، فلا يعطيه قرشاً واحداً، حتى عندما يكون سكراناً.

وأما الجيران الفقراء فقد كانوا يكافئون سلمان عندما يقدّم لهم مساعدة بفواكه طازجة أو مجففة في أحسن الأحوال. وكان شمعون، بائع الخضراوات، الشخص الوحيد الذي يعطيه بعض النقود لقاء أي خدمة يقدمها له سلمان، لأنه يحتاج إلى خدمات سلمان عندما تزداد الطلبات عليه فلا يستطيع أن يوصلها بنفسه. بالطبع لم يكن شمعون يدفع له كثيراً، لكن سلمان كان يحصل دائماً على إكراميات كثيرة من الزبائن. لذلك كان سلمان يريد أن يساعد بائع الخضراوات عندما يطلب منه ذلك.

كان سلمان يمضي يوماً كاملاً عندما يقام عرس أو مناسبة معينة، ويكسب بضعة قروش لقاء توصيل سلال مليئة بالفاكهة والخضراوات، وعندما يتوقف ليرتاح قليلاً في الدكان، يجلس على صندوق

الخضراوات الفارغ ويراقب شمعون وهو يبيع بضائعه ويقدّم نصائحه مجاناً.

كان شمعون طاهياً ماهراً بعكس زوجته، المرأة الشاحبة، ضئيلة الحجم، التي ماتت مؤخراً من نزيف في المعدة. لم تأكل طوال حياتها سوى كميات قليلة جداً من الطعام، والتي كانت تتنقل في بيتهما من غرفة إلى أخرى معكرة المزاج. في إحدى المرات، قال شمعون الذي يحبّها كثيراً، إن زوجته تبحث عن شيء فقدته، لكنها لم تبح لأحد قط ما هو ذلك الشيء. لكنها تبحث عنه طوال النهار منذ توفيت أمّها، وعندما تأوي إلى الفراش في الليل، كانت تصمم على أن تواصل بحثها عندما تستيقظ في صباح اليوم التالي.

في معظم الأحيان، كانت النسوة اللاتي يشترين خضراوات من شمعون يطلبن نصيحته لأنه يعرف جيداً الخضراوات والتوابل والأعشاب التي تنشّط أزواجهن، والتي تهدئ من غلوائهم في أي فصل من فصول السنة. فقد كان يوصيهن بالبندورة والجزر والتين والموز والبقلة والنعناع والمريمية لتهدئة رغبات الرجال المتأججة، وينصحهن بالزنجبيل والكزبرة والفلفل والأرضي شوكي والرمان والمشمش كمنشطات لزيادة رغبتهم الجنسية. وكان ينصح النسوة دائماً بأن يتعطّرن بزيت زهر النارنج الذي يمكنهن تقطيره من زهر النارنج.

بشكل عام، كنّ يبدين امتنانهن له، لأنهن يشعرن بآثار ذلك بعد فترة قصيرة. لكن قد يحدث أن رجلاً لا يعود يبدي اهتماماً جنسياً بزوجته. ففي إحدى المرات، سمع سلمان امرأة محبطة تقول إن زوجها أصبح أكثر ارتخاء الآن في الفراش. أصغى شمعون لها باهتمام، ثم قال لها: «هذا يعني أن كبد زوجك انقلب وأصبح إلى الوراء»، وأوصى لها بنوع من الخضراوات التي تستخدم عادة

للأشخاص الذين «لم ينقلب كبدهم»، وفي أحيان كثيرة، كان يقدّم لهن «العلاج» من دون مقابل.

لم يفهم سلمان ما معنى الكبد المقلوب، لكن نساء كثيرات في الحارة كنّ متحمسات للحصول على علاج له.

عندما لا يوجد شيء يفعله في الدكان، ولا يكون مشغولاً بحساباته، ينتقي شمعون نوعاً من الخضار، ربما باذنجان أو أرضي شوكي أو كرفس، يمسّده بيده، ثم يقترب من سلمان ويفضي له بسرّ، «هل تعرف كلّ المأكولات التي يمكن إعدادها من هذه الثمرة؟» وبما أنه لا يتوقع جواباً منه، يواصل كلامه ويقول: «لقد أحصينا ٢٢ طبقاً مختلفاً في ذلك اليوم، أنا وصوفيا العجوز، اثنان وعشرون طبقاً يختلف أحدها عن الآخر اختلافاً تاماً. فكّر في الأمر - مائدة عامرة يكسوها مفرش قماشي أبيض تمتد فوقه أطباق طويلة وعريضة، ضحلة وعميقة، مستطيلة ومستديرة، مليئة كلها بأطعمة لذيذة من الباذنجان أو الأرضي شوكي أو البطاطا، وقد تناثرت بين الأطباق والصحون، والزبادي بتلات ورد حمراء وصفراء. وأمام صحني كأس مترعة بالنبيذ الأحمر اللبناني. ما الذي يمكن أن يمنحني اللّه أكثر من هذا في الجنة، إيه؟»

كان كلّ ما يستطيع سلمان أن يقوله: «نرجيلة وقهوة مطعّمة بحب الهال»، فضحك شمعون ومسّد رأسه وفرك شحمة أذنه برقة.

«يا بني، يا بني، ستكون على ما يرام. فإذا لم يضربك أبوك حتى الموت وهو سكران، فإنك ستصبح في المستقبل رجلاً هاماً، تذكّر ما قلته لك الآن».

لم يكن العمل عند شمعون صعباً، لكنه كان يصرّ دائماً على أن يأتي سلمان إلى الدكان نظيفاً، ممشّط الشعر، وثيابه نظيفة، وكرر له: «إن الخضراوات والفاكهة متعة للعيون والأنف حتى قبل أن

يذوقها الفم ويستمتع بها». كان شمعون نظيفاً دائماً، حسن الهندام، حتى أن ثيابه كانت أفضل من الثياب التي يرتديها يوسف الصيدلاني.

ذات مرة، طرد سلمان لأنه جاء إلى الدكان بعد أن كان يلعب كرة القدم مباشرة تفوح منه رائحة العرق. وقال له: «أنت سفيري لدى زبائني، فإذا لم تكن نظيفاً ولم تستحم، فماذا سيقول الزبائن عني؟»

كان سلمان يدخل بيوتاً فيها باحات داخلية أجمل من الجنة التي وصفها القسّ في دروس الإرشاد الديني، لذلك، كان يحبّ توصيل الطلبات أكثر من العمل في الدكان.

وكان جميع الزبائن أسخياء معه ما عدا زبوناً واحداً بخيلاً، أستاذاً جامعياً يعيش وحيداً في بيت صغير، يسدّد دينه في نهاية الشهر. قال شمعون لسلمان: «زبون كهذا وسام لدكاني، وليس قطع نقوده التي ترنّ في جيبي».

«لماذا لم تتزوج؟» سأل سلمان الأستاذ الجامعي ذات يوم، فضحك الأستاذ البخيل، وقال: «أنا شخص سيّء جداً، إلى درجة أنني سأطلق نفسي لو استطعت».

كانت ثلاث أو أربع زبونات من زبائن شمعون يعطين سلمان قطعة شوكولاتة أو حلوى أو يقبّلنه أحياناً. لكنه كان يحبّ أن يوصل الطلبات إلى الأرملة ماريا الغنية التي تسكن وحدها، والتي تشبه باحة بيتها غابة فيها ببغاوات زاهية الألوان.

كانت الأرملة ماريا تطلب كميات كبيرة من المواد وتسدّد ثمنها فوراً. وفي أحيان كثيرة، تأخذ كمية صغيرة مما اشترته من السلة المليئة، وتطلب من سلمان أن يوصل الباقي إلى بيت جيرانها الفقراء، ويقول لهم: «الأرملة ماريا ترسل للأطفال بعض الخضراوات لتحمرّ خدودهم».

لكن السبب الرئيسي الذي جعله يرغب في زيارة الأرملة الغنية كثيراً هو لأنها كانت تضع له كرسياً تحت شجرة البرتقال وتقدّم له كلّ أنواع المربيات الغريبة التي لم يذقها في حياته. فقد كانت تصنع من الكباد والسفرجل والخوخ الأسود والورد، وغيرها من الفواكه والأعشاب أنواعاً مختلفة من الجيليه والمربيات. كانت تعمل ساعات طويلة لصنع أنواع جديدة من المربى، مع أنها مريضة بالسكري ولا تستطيع أن تتناول ملعقة واحدة مما تصنعه، لكنها كانت تحبّ دائماً أن ترى الناس يستمتعون بتناول كلّ هذه المربيات اللذيذة. قالت لسلمان الذي التهم أول سندويشة بالمربى بسرعة أن يأكل ببطء ويخبرها عن طعمها، ليحصل على سندويشة أخرى.

شعر سلمان بالأسف لأنه كان نهماً وجشعاً، فقد أراد أن يأخذ قليلاً من هذه المربيات اللذيذة إلى أمّه أو إلى سارة، لكنه لم يجرؤ على أن يطلب ذلك من الأرملة.

ما إن يتناول كمية كافية من المربى، حتى تبدأ تحدّثه عن حياتها، لكنها على عكس الكثير من الأرامل، لم تذكر له شيئاً عن زوجها المتوفى، وكانت هالة من الحزن تحيط بوجهها عندما تتكلم.

عندما سأل سلمان بائع الخضراوات عن سبب حزنها، تنهّد وقال له وهو يرش الفجل بالماء، ويرتب حبات التفاح في الصندوق، «لقد جرحها زوجها جرحاً عميقاً، لذلك، فهي لا تتحدّث عنه قط» وأضاف، «إنها قصة لا تُحكى للأطفال».

بعد عدة سنوات، عرف سلمان أن ماريا تنتمي إلى عائلة معروفة وغنية جداً. وكانت واحدة من أوائل الفتيات اللاتي حصلن على شهادة الثانوية العامة في دمشق في عشرينيات القرن الماضي، لكن زوجها خانها مع الطاهية بعد يوم واحد من زواجهما. كان يدّعي دائماً بأنه مغرم بها ويحبّها بجنون، فسامحته، ومكافأة على ذلك

خانها مرة أخرى. حتى عندما أصبح في الستين، ظل يلاحق كل امرأة يراها، ويسيل لعابه عليها، حتى أصيب بمرض الزهري ومات بسببه.

بعد وفاته، عاشت ماريا حياة هادئة. ومع أنها لم تبلغ منتصف الستينات، فهي تبدو وكأنها سيدة عجوز في الثمانين من عمرها.

عندما حكى سلمان لسارة بنشوة عن المربيات اللذيذة التي تصنعها الأرملة ماريا، تساءلت سارة كيف يمكنها أن تحصل على سندويشة منها.

قالت له سارة، «يمكنني أن أذهب وأقرع باب بيتها وأقول لها إني فتاة فقيرة، وحلمت بأن لديها قلباً دافئاً وعندها أنواع مربيات مختلفة، وأنني سأموت بعد فترة قصيرة، لذلك أتمنى قبل أن أموت أن أتناول عشر سندويشات مدهون عليها مختلف أنواع المربيات، لمرة واحدة فقط».

ضحك سلمان. سمعت فايزة، أمّ سارة، ما قالته ابنتها من خلف النافذة المفتوحة، فخرجت وعانقت سارة، وقالت لها، «لا تفعلي ذلك. سأصنع لكِ مربى الورد غداً».

فابتسمت سارة بسعادة، وقالت لأمها: «ومربى السفرجل بعد غد». في تلك اللحظة، دخل شرطي إلى «حوش الرحمة» على دراجته الهوائية. عندما رأى سارة وسلمان، ابتسم لهما قليلاً، وسألهما أين يقيم شخص يدعى عدنان المتهم بفتح بعض سيارات الليموزين الغالية الثمن، وسرقة مقاعدها وأجهزة الراديو فيها، وحتى أنه سرق من إحدى تلك السيارات المقود وباعه.

فقالت سارة: «آها»، وأشارت إلى الشقّة التي تعيش فيها سميرة، أمّ عدنان، على الجانب الآخر من الحوش، ثم أضافت،

«بجميع المواهب الرائعة التي يمتلكها، بإمكانه أن يصبح ميكانيكي سيارات مشهوراً أو سائق سيارات سباق».

فقال سلمان محتجاً: «أنتِ مجنونة». فلم تكن جميع أفكار وتصرفات عدنان جيدة. فهو سادي النزعة، يمسك القطط والكلاب الصغيرة والجرذان والفئران من أذيالها، ويلوّح بها في الهواء، ثم يضعها على الأرض. فتهرب تلك المخلوقات المسكينة وهي تترنح كأنها سكرانة، وتتقيأ أحياناً. وكان الناس الذين يسكنون في «حوش الرحمة» يضحكون ملء أشداقهم ويشجعونه على أن يجد حيلاً وحشية أخرى. كان سلمان الوحيد الذي يرى أن ما يفعله شيئاً فظيعاً.

سادية عدنان هي التي دفعت سلمان إلى ممارسة الرياضة ليقوي عضلاته. كان ذلك يوم الأحد، وقررت سارة أن تدعه يلعق من البوظة التي ستشتريها. عندما سارا إلى محل البوظة عند تقاطع طريق القشلة، قررت سارة أن تشتري مصّاصة ليمون. عندما استدارا ليعودا إلى البيت، كان عدنان الشرير واقفاً مع ثلاثة فتيان آخرين في مكان غير بعيد عن زقاقهم، وابتسامة عريضة بشعة تملأ وجهه.

«إذا كنت خائفاً، اركض من هنا بسرعة وسأتدبر أمري»، همست له سارة، لكن سلمان رآها ترتجف.

«لا تقلقي، سأتعامل مع هؤلاء الفئران وسينالون ما يستحقونه، تناولي مصاصتك بهدوء ولا تدعيهم يزعجونك»، قال ونفخ صدره.

«صاحب الأذنين اللتين تشبهان الإبريق، صاحب أذنَي الفيل».

بدأ عدنان يردد هذه الترنيمة وانفجر الصبيّان الآخران في الضحك. أمسك عدنان بكتف سارة وأوقفها. بدأت تلعق مصاصتها بسرعة، وتلهث كأنها مصابة بالربو.

«أبعد أصابعك القذرة عن صديقتي»، صاح سلمان غاضباً وركله بسرعة على خصيتيه. عندما انثنى عدنان على نفسه، ركضت سارة، لكن الصبيّين الآخرين وقفا أمام سلمان ومنعاه من اللحاق بها. رأى بائع البوظة ما يجري فصاح يأمر الصبيّين أن يكفّا عن ذلك. عندما لم يستجيبا له واندفعا لمهاجمة سلمان، جرى الرجل نحوهم وهو يلوّح بمكنسته، وضربهما بكل ما أوتي من قوة على ظهرهما وأردافهما، فتركا سلمان وهربا وهما يصرخان.

في ذلك اليوم، قرر سلمان أن يقوّي عضلاته، وحلم سلمان في تلك الليلة أن عدنان اعترض طريق سارة مرة أخرى، لكنه ألقى به من نافذة بيت شمعون بائع الخضراوات في الطابق الأول وارتفع كمنطاد إلى السماء.

كما لو أن السماء أرادت أن تصنع له معروفاً، وجد على قارعة الطريق قضيباً حديدياً يزيد طوله على متر، فأخذه إلى البيت. كان يعرف كيف يحوّل أي قضيب معدني إلى أثقال لتدريب عضلاته. تصبّ كمية من الإسمنت في دلو، وتضع القضيب المعدني في مزيج من الإسمنت والرمل والماء وتتركه حتى يجفّ، ثم تضع دلواً آخر مليئاً بذلك المزيج في الطرف الآخر من القضيب. أعطاه ميخائيل، عامل البناء، يومها الإسمنت. استخدم سلمان للطرف الأول الدلو الصدئ الذي وجده وراء قن الدجاج. وعندما لم يعثر على دلو مماثل ليثبّته في الطرف الآخر، قرر أن يستخدم علبة تنك أسطوانية قديمة مهترئة.

عندما جفّ الإسمنت، بدا شكل الأثقال مضحكاً: كتلة إسمنتية أسطوانية تتدلّى من أحد الطرفين، وشكل غريب يشبه النقانق المهروسة من الطرف الآخر، لكن ذلك لم يؤثر على سلمان. أعجب سلمان بنفسه لأنه استطاع أن يرفع الأثقال التي يصل وزنها إلى عشرة

كيلوغرامات تقريباً. كان ذلك في غاية الصعوبة لأن وزن الطرف الأسطواني يقلّ عن الطرف الآخر الذي يشبه قطعة نقانق بحوالي كيلوغرام. استطاع سلمان أن يرفع القضيب في الهواء لبضع ثوان لكن سرعان ما سقطت الأثقال على جانبه وهشّمت الأرض. كانت سارة تراقبه وهي تبتسم.

واصل سلمان تدريباته، لكنه كان يحصل على النتيجة ذاتها دائماً. وفي إحدى المرات، رأته سارة مستلقياً على الأرض يحدّق في السقف، والأثقال وراء رأسه.

قالت له: «هذا الشيء لن يزيد عضلاتك قوة، وإنما سيجعلك تمشي بشكل مائل مثل سرطان بحري وتسقط مثل أبي عندما يكون سكراناً ويرى سريره».

كسر سلمان الطرفين بمطرقة، وأخذ القضيب الحديدي إلى حداد عجوز وزنه وأعطاه ثلاثين قرشاً بالتمام والكمال ثمناً له.

«ستّ مرات بوظة» همس سلمان، وهو يصفّر سعيداً بثروته الجديدة. اشترى لسارة ثلاثة أكواز بوظة، وجعلت نظرتها المليئة بالحب عضلات صدره تزداد اتساعاً، وأحسّ بأنها تكبر حقاً.

5

يقع حيّ الميدان جنوب غرب مدينة دمشق القديمة. كانت قوافل الحجّ المتّجهة إلى مكة تنطلق من هذا المكان، وكان الناس يستقبلونهم في هذا المكان أيضاً عندما يعودون. لذلك توجد فيه العديد من المساجد والدكاكين التي تبيع السلع التي يحتاج إليها الحجاج، والحمّامات العامة وتجار القمح والحبوب بالجملة على امتداد الشارع الرئيسي العريض الذي يحمل اسم الحيّ «*شارع الميدان*». وتوجد حول هذا الشارع الطويل المزدحم شبكة من الأزقة الصغيرة. ومنه تتفرع حارة الأيوبي وتحتضن هذه الحارة الصغيرة أربعة بيوت فقط ومستودعاً كبيراً لتخزين اليانسون يقع مدخله في الشارع الموازي.

كانت نورا تحبّ رائحة اليانسون التي تُذكّرها بالحلويات.

سُمّيت حارة الأيوبي على اسم العشيرة الكبيرة التي عاشت ذات يوم في تلك المنازل الأربعة. كان زعيم العشيرة، سامي الأيوبي، مطلوباً من الشرطة بعد انتفاضة عام ١٩٢٥ ضد القوات الفرنسية المحتلة. فهرب هو وأفراد عائلته إلى الأردن وأصبحوا تحت حماية البريطانيين. وبعد أن أُنشئت المملكة الأردنية، أصبح السكرتير الخاص للملك وجاسوساً لصالح البريطانيين في القصر الملكي، وحصل على الجنسية الأردنية ولم يعد إلى دمشق.

بعد هروب عائلة الأيوبي بفترة قصيرة، اشترى تاجر ثري يُدعى عبد اللّه مهايني البيوت الأربعة بثمن بخس. جاء أجداد عبد اللّه مهايني من وسط سوريا في القرن السابع عشر واستقروا في حيّ الميدان، وعمل عبد اللّه في تجارة الأقمشة الفاخرة والأخشاب والجلود والأسلحة ومواد البناء وفتح عدة فروع لشركته في جميع أنحاء البلد. وأصبح ممثّلاً لشركة كهرباء هولندية، وشركة ألمانية لصناعة ماكينات الخياطة، ومصنع سيارات فرنسي.

كان البيت الصغير في نهاية الزقاق المسدود يُعدّ تحفة معمارية وفنية في دمشق القديمة، قدّمه السيد مهايني لابنته سحر، أمّ نورا، كمهر لها عندما تزوجت، وباع البيوت الثلاثة الأخرى وجنى أرباحاً طائلة. وبعكس زوجة السيد مهايني الأولى التي أنجب منها أربعة أبناء، بدا أن زوجته الثانية، أمّ سحر، لم تحمل في رحمها إلّا إناثاً، فأنجبت ثماني بنات يتمتعن بصحة جيدة، ولم يكن في نية التاجر أن يُبقي أياً من بناته عازبة لفترة طويلة، وأراد أن يجد لكلّ فتاة زوجاً يعتني بها ما إن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها. قال بعض جيرانه بخبث إن فارق السن الصغير بين بناته وزوجاته التسع اللاتي تزوجهن في حياته جعله يشعر بالإحراج. وكلما تقدم التاجر الثري مهايني في العمر، اختار زوجاته الأصغر سنّاً.

وحتى وفاته، عاش في قصر قريب من الجامع الأموي، لم يتوقف الخُطّاب عن التردد إلى قصره، لأن الزواج من إحدى بنات مهايني اعتُبر بمثابة ورقة يانصيب رابحة.

مثل معظم بناته الأخريات، كانت ابنته سحر أميّة لا تجيد القراءة، لكنها كانت جميلة جداً، وتقدّم رجال كثيرون للزواج منها، لكن السيّد مهايني طرد كلّ التجار والخياطين والصيادلة والمعلمين.

كان يبتسم بتعاطف لأمّ سحر عندما تقول له إنها تأسف لأنه رفضهم جميعاً.

«وجدتُ زوجاً مناسباً لسحر»، قال بنبرة تشي بأنه يعرف بماذا تفكر أمّ سحر، وأضاف، «وستكونين فخورة بأن تصبحي حماته».

كان عبد اللّه مهايني رجلاً واسع الاطلاع يتمتع بروح مرحة، ويردد دائماً: «إني مشغول طوال اليوم للحفاظ على السلام بين زوجاتي التسع اللاتي لا يتوقفن عن الشجار، وأولادي الثمانية والأربعين، والعشرة خدام، والمئتين وخمسين عاملاً. أظن أن نابليون امتلك وقتاً للراحة أكثر مني بكثير».

مع أنه كان يحبّ العادات والتقاليد، فقد كان منفتحاً على الابتكارات الحديثة، ومع أنه تزوج تسع نساء، ولم يسمح لزوجاته أو بناته أن يرتدين الحجاب، وعندما يسأله أحد المتزمتين عن سبب ذلك، كان يكرر كلمات صوفي شاب يكنّ له احتراماً كبيراً: «لقد خلق اللّه لنا الوجوه لنراها ونتعرّف على أصحابها. فالقلب، لا الحجاب هو الذي يجعلنا أتقياء، أليس كذلك؟».

كان يقول لزوجاته وبناته إن الحجاب لم يأت به الدين الإسلامي، وإنما يعود تاريخه إلى سوريا القديمة قبل ظهور الإسلام بألف عام. عندما كان يُطلب من النسوة من الطبقة الراقية فقط أن يرتدين الحجاب في الأماكن العامة، ولا علاقة للحجاب بالأخلاق، لأنه كان دليلاً على علو الطبقة فقط، وإذا ارتدت جارية أو فلاحة الحجاب، كانت تُعاقب بشدة.

أحب السيد مهايني حياة الأنس والمرح، وأحاط نفسه برجال أذكياء يدعوهم إلى بيته، ويصحبهم إلى حمّام السوق، ويقيم معهم علاقات تجارية. وكان من بين أقرب أصدقائه، يهوديان وثلاثة مسيحيين.

كان السيد مهايني معجباً برجل الدين الصوفي المحترم الفقير رامي عربي الذي كان يستمع إلى خطبه باهتمام شديد بعد صلاة الجمعة في مسجد الصلاح الصغير في حيّ الميدان، والتي يفضّلها على المواعظ والخطب الطنّانة الفارغة التي تُلقى بتوجيه من مفتي دمشق في الجامع الأموي القريب.

وهكذا أصبح الشيخ النحيف، الضئيل الجسم، صهر السيد مهايني العظيم، ثم والد نورا.

لم تكن جدّة نورا من طرف أبيها على وفاق مع أمّ نورا، بينما كان جدّها يحبّ زوجة ابنه كثيراً. عرفت نورا جدّها رجلاً خجولاً، يعيش حياة منعزلة، يتجنب القيام بزيارات إلّا إذا كانت ضرورية جداً، وحرصت أمّ نورا على أن توليه اهتماماً كبيراً عندما يزورهم. أما زوجته، جدّة نورا، السيّدة العجوز المفعمة بالحيوية التي كانت تزور الزوجين الشابين كثيراً، تردد دائماً بصوت مسموع، «لقد جئتُ لأرى حفيدتنا الصغيرة المباركة الذكية، نورا، وأما خدامها، وتعني بذلك أهل نورا، فلا يعنيني أمرهم شيئاً». وكلما شربت فنجان القهوة اللذيذ بسرعة، غادرت في وقت أبكر.

لم تكن أمّ نورا تعدّ القهوة بهذه السرعة لأحد إلّا لحماتها حتى تتخلص منها ومن سماجتها. وكان الجدّ مهايني يزور ابنته، أمّ نورا، كلّ يوم جمعة بعد الصلاة ليتناول طعام الغداء. وكان يكرر دائماً أن يوم الجمعة هو اليوم الوحيد في الأسبوع الذي يستطيع أن ينام فيه بهدوء، لأنه بعد أن يسمع خطبة صهره، والد نورا، لا يتبق لديه أي أسئلة تقضّ مضجعه.

كما لو أن جنيّة تخبر الشيخ الشاب بالأسئلة التي تدور في رأس التاجر العجوز مهايني خلال الأسبوع، كان يجيب على تلك الأسئلة

بالتحديد وهو على المنبر، ويقال إن سحر، أمّ نورا، قالت لإحدى جاراتها ذات يوم، «كان على زوجي أن يتزوج أبي، لا أن يتزوجني أنا. إذ يناسب أحدهما الآخر كثيراً».

يمكن فهم هذه السخرية بأنها إحباط زوجة لكن محتواها خاطئ، فمع أنهما صديقان، كان حديثهما يتحوّل أحياناً إلى جدال عنيف خصوصاً إذا لم يكن معهما شخص آخر. وكان السيد مهايني يقول للشيخ الشاب إنه يجب أن يكون متقدماً على جماعة المصلين في مسجده فكرياً بشهور لا بعقود لأن ذلك يعيق أولئك البسطاء من متابعة وفهم ما يقوله لهم، وبذلك، فإنه يسهّل الأمر على أعدائه، فبدلاً من أن يرتقي إلى منصب مفتي سوريا، فإنه سيبقى خطيباً عادياً في هذا المسجد الصغير المتداعي الذي يعظ فيه هؤلاء الأميين الذين لا يفقهون ما يقوله.

«هيا. لا تبالغ! هل أنت، مثلاً، أميّ؟»

«من، أنا؟» صاح التاجر الغني ضاحكاً.

فقال والد نورا: «يرقد الدمشقيون ويشخرون بينما يندفع قطار الحضارة إلى الأمام ماراً بهم من دون أن يشعروا به. افعل ما تشاء، كي لا ترعبهم عندما توقظهم، لأن الرجل النائم الذي يشخر يصاب بصدمة عندما توقظه».

وكلّما التقيا، كان مهايني العظيم يلوم نفسه بعد ذلك لأنه انتقد صهره الورع والمتعلم بقسوة شديدة. أما الشيخ رامي عربي، فكان يأوي إلى الفراش عازماً على أن يعمل بنصيحة السيد مهايني الحكيمة ويقدّم للمصلين في مسجده دواء مراً بالملعقة بدلاً من أن يقدّمه لهم في دلو.

بعد سنوات، تذكّرت نورا حادثة بدت لها، على الرغم من بساطتها، أنها ترمز إلى الصداقة العميقة التي تجمع بين أبيها وجدّها السيد مهايني. ففي أحد الأيام، كان أبوها يُصلح صندوقاً صغيراً لتضع فيه نورا ألعابها. ثم جاء جدّها لزيارتهم، وكالعادة، بدا أن أسئلة عديدة كانت تدور في رأسه، لكن والد نورا لم يتوقف عن تصليح الصندوق ولم يولِ أي اهتمام للرجل المسنّ الذي كان يحرّك كرسيه بتوتر إلى الأمام والوراء.

عندما بدأ يبدي ملاحظات قاسية حول إضاعة الوقت في تصليح الأشياء المتعلقة بالأطفال، نهض أبوها واقفاً، ودخل إلى غرفة مكتبه، ثم عاد وبيده مقص وورقتان، وسأل حماه بلطف، «هل يمكنك أن تصنع طائرة ورقية أو عصفوراً من هذه الورقة؟»

«وهل أنا طفل لأفعل ذلك؟» قال الرجل العجوز غاضباً.

فقال والد نورا، محوّلاً انتباهه إلى مفصلات الصندوق، «أتمنى أن تعرف كيف تصنعها من أجلنا كلينا». وقفت أمّها التي جلبت القهوة لأبيها عند الباب، وتسمّرت في مكانها. فوجئت عندما ابتسم الرجل العجوز وجثا على ركبتيه على الأرض وبدأ يطوي الأوراق. كانت أول ورقة يصنع منها عصفوراً يطير ببطء لنورا، يعلق أحياناً على غصن شجرة أو يسقط على الأرض على رأسه عندما يلقيه في الهواء من الطابق الأول من البيت.

على الرغم من قربه من الشارع الرئيسي، فقد خيّم هدوء شديد على بيت والدَي نورا. كانت جميع الأصوات تتلاشى في الدهليز الطويل المعتم الذي تسير نورا فيه عندما تدخل إليه من الزقاق حتى الفناء لتعود إلى الهواء الطلق والضوء مرة أخرى.

باحة صغيرة مظللة، زُيّن بلاطها بزخارف رخامية ملونة تمتد فوق أرضيات الغرف المحيطة بها، وفي وسط الفناء، تنتصب نافورة

صغيرة مزدانة بنقوش عربية، يُصدر الماء المنبعث منها خريراً موسيقياً لآذان الدمشقيين. لا يوجد شيء آخر يفضّل الدمشقيون سماعه أكثر من هذا الصوت خلال الشهور الحارّة في السنة.

كان أبوها يجلس أحياناً بجانب النافورة لفترة طويلة ويغمض عينيه. في البداية، كانت نورا تظن أنه نائم، لكنها سرعان ما تدرك أنه ليس نائماً. «الماء جزء من الجنة، لذلك لا يوجد مسجد لا يوجد فيه ماء. عندما أجلس هنا أنصت إلى الموسيقى التي تبعثها النافورة أعود إلى أصلي في رحم أمي، لا بل إلى البحر، أسمع أمواجه تتكسّر على الشاطئ، مثل صوت دقات قلب أمي»، قال لها ذات يوم وهي جالسة بجانبه تراقبه.

في بيت نورا يوجد درج يفضي إلى الطابق الأول، وقد أحيط سقف البيت فوقه بدرابزين جميل من الحديد المخرّم، تستخدم مساحة السطح كلها تقريباً لنشر الغسيل وتجفيف الفواكه والخضراوات وأنواع عديدة أخرى من المواد الغذائية التي تُنشر على السطح لتجفّ تحت حرارة الشمس الحارقة. وفي ربع مساحة السطح تقريباً، أقيمت غرفة علوية كبيرة ومضيئة يستخدمها والد نورا ليكتب فيها.

كان المرحاض عبارة عن حُجرة صغيرة تحت الدرج. وكما في كثير من البيوت العربية، لم يكن يوجد في بيت نورا حمّام، لذلك كانوا يستحمّون في فناء الدار أو في المطبخ، ويذهبون إلى حمّام السوق القريب من البيت كلّ أسبوع.

كانت نورا تحبّ بيت والديها في الصيف أكثر من أي وقت آخر، فما إن يغمر الظلّ الفناء عند العصر، وتعود أمّها من لقائها مع جارتها بديعة بعد أن تحتسيا القهوة، حتى تغسل الأرض المبلطة

وتسقي النباتات، وتمسح البلاط الرخامي حتى يلمع وتتلألأ ألوانه الزاهية.

«فُرشت سجادة البرودة الآن وبدأ المساء»، كانت أمّها تردد كلّ يوم برضاء شديد. كان ذلك طقساً يومياً في الصيف. ترتدي ثوباً نظيفاً بسيطاً، وتفتح الصنبور لتنطلق ماء النافورة، فتنبعث الماء من الثقوب الصغيرة وتسقط في الحوض محدثة لحناً موسيقياً. وفي الصيف، تضع أمّ نورا بطيخة حمراء كبيرة في بركة الماء، وتجلب صحناً من الموالح والمكسرات ليتناولوها بجانب النافورة. وعندما يعود والد نورا من المسجد، تكون البطيخة قد بردت وأصبحت منعشة. يستمر مزاج أمّ نورا الرائق حتى ذلك الوقت، لكن ما إن يعود زوجها إلى البيت، حتى تتشنج ويصبح سلوكها بارداً. كانت مشاعر باردة تسود العلاقة بين والديها. كانت نورا ترى كثيراً أزواجاً آخرين يحضن أحدهما الآخر، أو يتبادلان النكات، بل حتى يقبّل أحدهما الآخر، كما تفعل جارتهم بديعة وزوجها، ولطالما دهشت عندما تسمع النسوة في لقاءاتهن لاحتساء القهوة يحكين بحرية كبيرة عن أشدّ لحظاتهن الحميمة في السرير، وتنصح إحداهن الأخرى، ويتحدّثن عن الحيل والمكائد التي يستخدمنها لإغواء أزواجهن، والحصول على المتعة الجسدية. وكن يتحدّثن عن أنواع الثياب الداخلية المثيرة والمشروبات والعطور، ويسهبن في وصف أنواع القبلات، على الرغم من أنهن نفس النسوة اللاتي يهرعن أحياناً أو يسرن في الشارع وقد غطين رؤوسهن بأوشحة، يطرقن بأعينهن إلى الأرض خجلاً عند سماع أي نكتة أو كلمة نابية كما لو أنهن لم يحصلن على أي متعة طوال حياتهن.

أما والدا نورا فلم يقبّل أحدهما الآخر قط، كأن جداراً غير مرئي يفصل بينهما. ولم ترهما نورا يتعانقان قط. وفي أحد الأيام،

عندما كان باب الغرفة مواربًا قليلاً، وكانت نورا جالسة على الأريكة، رأت والديها في فناء البيت، جالسين بجانب النافورة يحتسيان القهوة. لم يكن بإمكانهما أن يريا نورا لأن غرفتها مظلمة. كانا كلاهما في مزاج رائق، يضحكان على أحد أقاربهما الذي تصرّف بغباء في ليلة زفافه. وفجأة مدّ أبوها يده ليلمس كتفَي أمّها العاريين. كان يوماً حاراً، فارتدت أمها روب نوم شفافاً. عندما لمسها وثبت من مكانها، وقالت له: «لا تفعل ذلك مرة أخرى، عليك أن تذهب إلى الجامع»، وانتقلت إلى كرسي آخر.

بالإضافة إلى علاقة والديها الباردة، رافق طفولة نورا شيء آخر كالخيط وهو الكتب.

«كتب، كتب عفنة تملأ المكان برائحتها»، كانت أمّها تقول متذمرة في معظم الأوقات. لم تكن الكتب عفنة، لكنها كانت تنتشر في كل مكان في البيت، تملأ الرفوف في الغرفتين في الطابق الأرضي، بالإضافة إلى الرفوف التي في السقيفة حيث تتكدّس أيضاً في أكوام أو تتناثر على الأرض كأنها أهرامات صغيرة. ما عدا الكرسي أمام طاولة المكتب والأريكة فهما المكانان الوحيدان اللذان لم تتكدس عليهما كتب. بعد عدة سنوات، أصبحت نورا تجلس هناك لساعات طويلة تقرأ تلك الكتب.

لم يكن يُسمح لنورا أن تُدخل كتباً إلى غرفة نوم والديها أو إلى المطبخ. كانت تلك رغبة أمّها، واستجاب أبوها لرغبتها هذه على الرغم من إحساسه بالأسف، لأنها هي التي تملك البيت. حتى بعد زواجهما، كانت أمّها تردد وهي تضحك بشيء من العجرفة، «عندما تزوجنا لم يكن أبوك يملك سوى ثلاثين برغوثاً وثلاثة آلاف كتاب يعلوها العفن». لم تكن الأمّ تبالغ إلّا في مسألة العفن لأن والد نورا كان يعتني بكتبه كما لو كانت فلذات قلبه. فقد كان رامي عربي

صوفياً عارفاً لا يفكّر كثيراً في الأمور الدنيوية، ويفضّل متعة الكلمات العربية على أي شيء آخر.

بعكس زوجته الأولى، لم تكن سحر، أمّ نورا، تستطيع أن تقرأ ولم تشأ أن تلبي رغبة زوجها في أن تتعلم القراءة والكتابة. كانت تصغر زوجها بسبعة عشر عاماً، وقد تزوجها وهي في السابعة عشرة من عمرها. أنجب رامي عربي ثلاثة أبناء من زواجه الأول، كانوا في عمر زوجته الثانية تقريباً، وأصبح لكلّ واحد منهم أسرة الآن، ولم يزوروا بيت أبيهما إلّا نادراً، لأن أمّ نورا لم تكن تحبّهم، وتكره أن تسمع شيئاً عنهم وعن أمّهم المرحومة. كانت تنظر بازدراء إلى أبناء زوجها لأنهم ليسوا، برأيها، فقراء فحسب، وإنما أغبياء أيضاً. كان والد نورا يعرف ذلك، ويشعر بخيبة أمل لأنه لم ينجب ابناً ذكياً، وكان يحبّ نورا كثيراً، وقال لها ذات مرة إن لديها عقلاً يتمنّى لو كان لدى أحد أبنائه عقل مثله، «لو كنتِ رجلاً لقلبتِ رؤوس الرجال في المسجد».

كان رامي عربي يفتقر إلى الصوت الجميل، ولم يكن يبدي اهتماماً بمظهره الخارجي، وتعتبر هاتان الصفتان في غاية الأهمية عند العرب. ومع أنه كان يشعر بالإحباط من أبنائه، فقد ظل يقول كلاماً طيباً عن زوجته الأولى، الأمر كان يثير حفيظة أمّ نورا وضغينتها. وكلّما ذكر زوجته السابقة، كانت تهسهس وتقول: «يفترض أن تفوح رائحة البخور في المقابر، أما رائحة هذه المقبرة فتفوح منها رائحة نتنة».

من الناحية الأخرى، كانت أمّ نورا تعتني بزوجها بإخلاص واحترام يقارب الخوف، وكانت تطهو طعامه وتغسل ثيابه وتكويها، وتواسيه عندما يتعرض لإحدى نكساته العديدة، لكنها لم تحبّه للحظة واحدة في حياتها.

مع أن أمّ نورا هي التي تملك البيت، فقد كان والد نورا صاحب الكلمة العليا. فقد أبدت سحر رغبتها في ارتداء الحجاب لتتميّز عن النساء اللاتي في محيطها وفي العالم خارجه، كان زوجها يكرهه مثل أبيها، ويقول: «لقد أنعم اللّه عليك بوجه جميل لأنه يريد الناس أن ينظروا إليه ليفرحوا ويمجدوا خالقه»، قال لها ذلك مرة قبل زواجها، ومرة بعده. مكتبة سُر مَن قرأ

عندما اقترحت إحدى خالاتها البعيدات المفتونة بجمال وجه نورا، من الأفضل أن ترتدي حجاباً حتى لا تضلّ الرجال، ضحك والد نورا عليها وقال ساخراً: «إذا كان كل شيء عادلاً وصحيحاً، كما يقول اللّه ورسوله، فيجب أن يضع الرجال حجاباً أيضاً، لأن رجالاً كثيرين يضلّون النساء بوسامتهم وشكلهم الجميل، أم أنني مخطئ؟»

قفزت الخالة كأن حيّة عضّتها، وغادرت البيت لأنها فهمت قصده. فقد كانت على علاقة بشاب وسيم في حارتها، وكان الجميع يعرفون ذلك ما عدا زوجها، وانزعجت أمّ نورا لأنها اعتبرت أنه ليس من اللائق أن يُلمح زوجها لها بذلك لأن ذلك لا يتفق مع واجب الضيافة. وكانت أمّ نورا تُعرف بأنها امرأة محتشمة إلى درجة التزمّت، فعندما تنشر الغسيل، كانت تحرص دائماً على نشر ملابسها الداخلية على الحبل في الوسط كي تكون بعيدة عن أعين المتطفلين على أسطح البيوت المجاورة. فقد كانت تخجل من ذلك كما لو أن سراويلها الداخلية لم تكن مصنوعة من القطن، وإنما من جلدها.

ولم يسمح زوج جارتهم بديعة أن ترتدي الحجاب، حتى أنه كان يطلب منها أن تستقبل ضيوفه وترحّب بهم. كان زوجها تاجر أقمشة ثرياً في سوق الحميدية، يستقبل زواراً في بيته - حتى أوروبيين

وصينيين. كانت بديعة تستقبلهم بتحفظ شديد لأن لديها قناعة راسخة بأن الكفار أناس غير نظيفين.

بعكس بديعة التي لم تكن تبدي احتراماً كبيراً لزوجها، كانت سحر تخشى زوجها رامي كما تخشى جميع الرجال، منذ ضربها أبوها ذات يوم وهي طفلة صغيرة عندما أهانته من دون أن تقصد أمام ضيوفه وقالت إنه «ديك يتبختر ولديه دجاجات كثيرة»، فارتبك وشعر بحرج شديد. وانتظر حتى غادر الضيوف، وطلب من الخادمة أن تجلب له العصا، وأمسك سحر وأوسعها ضرباً ولم تشفع لها دموع أمها أو توسلات الخادمة. وكان عليها أن تردد بصوت واضح: «سيكون زوجي تاج رأسي»، لكن دموعها خنقت صوتها، وبدا أن والدها لم يعد يسمعها في ذلك اليوم.

كان من الممكن أن تثور ثائرة زوجها رامي عربي خلال بضع ثوان. لم يضربها قط، لكنه كان يلسعها بسياط لسانه الذي يتوجه إلى قلبها مباشرة ويؤلمها أكثر من حدّ سكين مصنوع من الفولاذ الشامي. وبدأت تشعر بعد ذلك بخوف شديد كلما رأت شفتيه ترتعشان، وتغيّر لون وجهه.

كانت تتوق لأن تنجب ابناً، لكن جميع أطفالها بعد نورا ماتوا قبل أن يولدوا أو بعدها بفترة قصيرة.

بعد سنوات، تذكّرت نورا عندما أخذتها أمّها إلى المقبرة القريبة من باب الصغير وهو أحد أبواب دمشق التاريخية السبعة. لم يكن في تلك المقبرة القديمة قبور عادية فحسب، وإنما فيها أيضاً قبور دُفن فيها رجال ونساء معروفين في التاريخ الإسلامي المبكر وأفراد من آل بيت النبي وأصحابه المهاجرين. كانت أمّها تبحث دائماً عن قبر «أم حبيبة»، إحدى زوجات الرسول وقبر حفيدته سكينة بنت الحسين. وترتاد هذه المقبرة دائماً نساء شيعيات كثيرات، ملتحفات بعباءات

سوداء، خصوصاً نساء إيرانيات يأتين خصيصاً لزيارة هذه القبور، يسرن بمحاذاة الأضرحة يحملن في أيديهن شرائط وأوشحة كما لو أنهن، عندما يلمسن أحد تلك الأضرحة بتلك الأوشحة والشرائط، يأخذن قدسيتها معهن إلى بلدهن. ومع أن أمّها تنتمي إلى الأغلبية السنّية وتكره الشيعة أكثر مما تكره اليهود والمسيحيين، فقد دأبت على زيارة هذه المقبرة والصلاة بقرب قبر «أم حبيبة» لتنجب ابناً، تمرر يدها على الضريح ثم تمسّد بطنها. لم تجرؤ يوماً على أن تجلب وشاحاً، لأن زوجها يسخر من تلك الخرافات، وتخشى أن تعاقبها رفات الأموات الغاضبة وتجلب لها طفلاً مشوهاً.

عندما تعود بها الذكرة إلى تلك الأيام، تتذكّر نورا أن أمّها كانت تمضي وقتاً بين الأموات أكثر مما كانت تمضيه بين الأحياء. وكانت قد زارت مع نساء أخريات مئات أضرحة رجال دين معروفين وأصحاب الرسول، وصعدت معهن إلى جبل قاسيون، ووضعت أزهاراً وأغصان الآس على أضرحتهم. لم تكن نورا تستمتع بهذه الرحلة المرهقة والشاقة التي تنطلق في الصباح الباكر وتستمر حتى أذان الظهر. وكانت النسوة يقمن بهذه الجولة المرهقة في أيام محددة من أشهر رجب وشعبان ورمضان المقدسة، سواء أكان الطقس شديد البرودة أم شديد الحرارة. وكان على نورا أن ترافق أمّها دائماً، لكن والدها رفض مرافقتها لأنه يؤمن بأن هذه الشعائر ليست إلّا خرافات وكان يمقتها بشدة.

كان الموكب ينتهي عادة عند أبواب مسجد يقع عند سفح جبل قاسيون، حيث يقف المئات إن لم يكن الآلاف يدعون بصوت عالٍ لكي تصل أدعيتهم وأمنياتهم إلى السماء. كان كلّ ذلك يتم بسرعة: الزيارة، ووضع الأزهار وأغصان الآس الخضراء، والأدعية. كانت أمّ نورا تقول دائماً إن الأنبياء، كالملائكة، ينصتون إلى الأدعية حتى

الظهيرة فقط. وعندما يبدأ المؤذن أذان صلاة الظهر، يصمت الجميع على الفور. لسنوات طويلة، كان من عادة المؤمنين أيضاً أن يقرعوا مطارق الأبواب النحاسية والحلقات المعدنية العديدة التي تزين أبواب المسجد، فيحدثون ضجيجاً كبيراً، فينزعج إمام المسجد ويطردهم ويقول للناس المحبطين: «إذا لم يسمع اللّه وأنبياؤه صراخكم ودعواتكم، فلن يسمعوا هذا التطبيل والقرقعة أيضاً».

كانت أمّ نورا تحبّ دائماً أن تشارك في هذه المواكب وتتصرف كما لو كانت في غيبوبة. وكانت تعرف أيضاً، أكثر من والد نورا بكثير، متى يجب أن تزور أي ضريح وفي أي ساعة من اليوم.

لم يبق له إلّا أن يتنهد أحياناً بيأس ويقول: «هل أنا الشيخ هنا أم أنتِ؟»

منع والد نورا أمّها من زيارة المشعوذين والدجالين، وكان يكرر على مسامعها نصيحته بأن من الأفضل أن تذهب وتستشير طبيباً مختصاً حقيقياً، ولم يكن يرغب أيضاً في أن يسمع شيئاً عن محاولات زوجته التوسل إلى الأولياء الأحياء منهم والأموات. لذلك، لم تذكر نورا له شيئاً عن زيارة أمّها إلى الأضرحة أو إلى المشايخ. كانت تشفق على أمّها، حتى بدأت نورا نفسها تدعو اللّه أن يرزق أمّها صبياً.

انتفخت بطن أمّها ثماني مرات، انتفخت كثيراً حتى أصبحت مثل قبة فوق ساقيها، لكنها كانت تعود دائماً من المستشفى نحيفة كما كانت لكن من دون أن تنجب ابناً. وسرعان ما تعلّمت نورا كلمة *إسقاط الجنين*. لكن عذاب أمّها هذا لم يتمكن من استنزاف قوة حلمها. كان الإسقاط الثامن صعباً للغاية، وتمكّن الأطباء من إنقاذ حياة أمّها بضربة حظ، وكان ثمن ذلك أنها لم تعد تحمل بعد ذلك

أبداً. فقال لها زوجها مؤنباً إنها جلبت على نفسها العقم لأنها كانت تتناول كلّ تلك الأشياء السامة الشيطانية التي يصفها لها الدجالون.

تتذكّر نورا ذلك الإسقاط الثامن والأخير جيداً. فعندما عادت أمّها إلى البيت من المستشفى بدت أكبر سنّاً بكثير. في تلك الأيام لاحظت أمها، عندما كانتا تستحمّان معاً آنذاك في حمّام السوق، أول تبرعم في نهدي ابنتها. كانت نورا قد بلغت الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، فصاحت أمها بدهشة: «لقد أصبحتِ امرأة الآن»، وأحست نورا أن في صوتها نبرة تأنيب.

منذ تلك اللحظة، لم تعد أمّها تعاملها كفتاة، وإنما كامرأة ناضجة يتحلّق حولها الرجال الذين يسيل لعابهم عليها، كما كانت تظن.

عندما حكت نورا لأبيها عن قلق أمّها المبالغ فيه، ضحك، لكنه أدرك لاحقاً أن عليه أن يبدي احتراماً أكبر لهواجس ابنته. وبدأت أمّها تنظر إلى كل شاب بريبة كأنها تخشى أن ينقضّ على ابنتها ما إن تقع عيناه عليها.

«عندي حبل جاهز في القبو»، قالت لها في صباح أحد الأيام، «إذا حدث لك أي مكروه فإني سأشنق نفسي». عندما بحثت نورا في القبو لم تجد سوى حبل غسيل رفيع، لكنها ظلت تخشى أن تفعل أمّها ذلك، ولم تعد تخبرها بكلّ ما يجري لها.

كان أبوها مستعداً دائماً ليستمع إلى الأسئلة، ودأب بعض الأشخاص على زيارته، سواء في البيت أم في المسجد، يطلبون مشورته. عُرف بتحلّيه بالصبر وصراحته، وقلما أبدى امتعاضاً، حتى عندما تطرح عليه أسئلة من قبيل، لماذا خلق اللّه الذباب؟ ولماذا يضطر البشر إلى النوم؟

كان يجيب على أسئلتهم دائماً بصبر وودّ شديدَين، لكنه لم يكن

يجيب على الأسئلة المتعلقة بالنساء. وكان غالباً يقاطع رجلاً يطلب نصيحته حول هذا الموضوع بفظاظة، ويقول له: «هذا شأن نسائي. من الأفضل أن تسأل قابلة أو أمّك». كان يخشى النساء، وكان يردد كثيراً أن الرسول نفسه حذّر أصحابه من مكائد النساء، وكان يحكي غالباً قصّة الجنيّة التي وعدت رجلاً بأن تحقق له أمنية واحدة، فتمنى الرجل جسراً يمتد بين دمشق وهونولولو عاصمة هاواي، فزاغت عينا الجنيّة بيأس وقالت باستياء إنه يصعب عليها أن تحقق أمنيته. وسألته إن كانت لديه أمنية أخرى أكثر سهولة يمكنها أن تلبيها له؟ فقال لها نعم، إنه يريد أن يفهم زوجته، فضحكت الجنية، وسألته هل يريد أن يكون طريق الجسر إلى هونولولو ذهاباً فقط أم ذهاباً وإياباً.

كيف كان على نورا أن تخبر والدها أو والدتها عن الخيّاط الشاب الذي كان يكمن لها دائماً في الشارع الرئيسي ويسألها بصوت خفيض إذا كانت تريد أن يخيط لها الشقّ بين ساقيها؟ وأن لديه الإبرة المناسبة لعمل ذلك. عندما عادت إلى البيت، نظرت إلى نفسها في المرآة، وقالت لنفسها نعم، تبدو تلك البقعة التي بين ساقيها مثل شق، لكن هل يجب خياطته؟

بالطبع رأت فتياناً عراة في حمّام السوق، لأن الأمهات يستطعن اصطحاب أطفالهن الصغار في اليوم المخصص للنساء، إلى أن تظهر على أولئك الصبية علامات البلوغ، عندها يتعين عليهم أن يرافقوا آباءهم إلى حمّام السوق المخصص للرجال. لكنها ظلت تصدّق طوال هذه السنوات ما قالته لها إحدى الجارات في الحمّام: إن الصبية معاقون عقلياً منذ ولادتهم ولا يعرفون كيف يتبولون، لذلك منحهم اللّه أنبوباً صغيراً كي لا يبللوا أنفسهم طوال الوقت.

تعلّمت نورا أموراً كثيرة في حمّام السوق الذي لم يكن مكاناً للعناية بالجسد والنظافة فحسب، وإنما للراحة والتسلية أيضاً. فقد

كانت تسمع دائماً قصصاً وحكايات، وحكت لها بعض النسوة العجائز أشياءَ لا تجدها في أي كتاب، واكتشفت أن النساء يلقين كلّ أحاسيسهن المكبوتة وخجلهن عندما يخلعن ثيابهن، ويتحدّثن بصراحة عن مختلف الموضوعات، وكانت تفوح من المقصورة الدافئة المشبعة بالبخار رائحة زهر الخزامى والعنبر والمسك.

كانت نورا تستمتع كثيراً بتناول المشروبات والأطباق اللذيذة والغريبة في حمّام السوق، أشياء لم تذقها في البيت قط. فقد كانت كلّ امرأة تتباهى بإظهار مهاراتها في الطهي وتجلب معها ألذّ الأطعمة التي تعدّها، ثم يتحلقن في دائرة ويتناولن أكثر من عشرين نوعاً مختلفاً من الطعام، ثم يشربن الشاي المحلّى. عندما تعود نورا من الحمّام، كانت تشعر أن قلبها أصبح أكثر غنى.

عندما حكت لسامية، صديقتها في المدرسة، عن الخياط الذي يضايقها في الطريق، قالت لها سامية: «إنه يخدعك، فلا توجد لدى الرجال إبر، وإنما لديهم إزميل يحفرون به»، ونصحت نورا أن تقول له أن يذهب إلى بيته ويرتق شقوق أخواته، وإذا بقيت معه خيطان كافية، عليه أن يجرّب ذلك مع أمّه.

أرادت نورا أن تسأل والدها أو والدتها لماذا تظل تختلق ألف سبب وسبب لترى ذلك الصبي الشاحب ذا العينين الكبيرتين الذي بدأ يعمل في دكان المنجّد في خريف سنة ١٩٤٧، عندما كانت في الصف الخامس الابتدائي.

كان دكان المنجّد قريباً جداً من بيتها. عندما رآها الصبي تسير أمام الدكان في أول يوم بدا فيه العمل، ابتسم لها ابتسامة خجولة. وعندما سلكت نفس الطريق في اليوم التالي لترى الصبي، رأته جاثياً على سجادة صغيرة في الزاوية يصلّي، وكذلك في اليوم التالي،

واليوم الذي تلاه. تساءلت نورا عن سبب ذلك، وسألت والداها، لكنهما لم يعرفا سبب ذلك أيضاً. وقال أبوها: «قد يكون ذلك مجرد صدفة».

لكن أمّها قالت قبل أن تسكب الحساء، «أو ربما كسر شيئاً في المحل».

عندما رأت الصبي يصلّي مرة أخرى، سألت معلّمه، وهو رجل مسنّ ذو لحية قصيرة بيضاء كالثلج، هل ارتكب الصبي خطأً.

«لا أبداً، إنه فتى جيد»، قال لها المنجّد بابتسامة لطيفة، «لكن قبل أن يتعلّم كيف يتعامل مع القطن والصوف والأقمشة والجلود، يجب أن يتعلّم أولاً كيف يتعامل مع الزبائن. فنحن نعمل في باحات بيوت زبائننا، وفي أحيان كثيرة لا توجد في البيت سوى ربة البيت أو جدّة مسنّة. ويسمح لنا زبائننا أحياناً أن ندخل إلى بيوتهم التي لا يكون فيها أحد لنصلح أسرّة أو مراتب أو أرائك، يخرجون أثناءها للتسوق أو للعمل أو لزيارة الجيران. فإذا لم يكن المنجّد شخصاً موضع ثقة، فإنه يسيء إلى سمعة المنجّدين الآخرين. لذلك فإننا ندرّب الصبية المبتدئين على الالتزام بأصول الدين قبل أن يدخلوا إلى بيت زبون لأول مرة».

في تلك اللحظة، التفت الصبي إليها وحول عينيه هازاً رأسه تذمراً، فابتسمت نورا لهذه الرسالة القصيرة الواضحة.

عندما ذهب الصبي ليجلب ماء من الصنبور العام في الشارع عند الظهيرة، أرادت أن تنتظره. في ذلك الوقت، لم يكن الماء يصل إلى محلات كثيرة، فكان الصبي يذهب ويجلب دلاء ماء عدة مرات في اليوم.

في أحد الأيام، انتظرته نورا بالقرب من حنفية الماء. عندما ابتسم لها الصبي، قالت له نورا: «أستطيع أن أساعدك إذا أردت»،

وأرته تنكة الماء الصغيرة، فابتسم الصبي، وقال لها وهو يضع تنكة كبيرة تحت الحنفية: «شكراً لك، لا أستطيع أن أقبل ذلك، لأن ذلك سيجعلني أصلّي نصف ساعة أكثر. لكن يمكنني أن أبقى معك هنا قليلاً إذا أردت».

في ذلك الوقت، لم يأتِ أشخاص كثيرون لتعبئة أوعيتهم بالماء من الحنفية، وكانوا يغادرون بسرعة. ظلت نورا تتذكر ذلك الفتى عندما تسمع قصائد وأغاني عن جمال الملائكة، لكنها لم تفهم قط لماذا يجب أن يكون لمخلوق يشبه ملاكاً أجنحة ضخمة، ولم تكن لدى تميم أجنحة، لكنه كان أجمل فتى في الحيّ، وعندما كان يكلّمها، يبدأ قلبها يخفق مع كلّ كلمة يقولها.

أمضى تميم سنتين في تعلم القراءة والكتابة على يد شيخ، ثم اضطر لأن يعمل ليعيل والديه الفقيرين. حكى لنورا أنه حلم أن يصبح ربان سفينة ولم يكن يرغب في أن يعمل في تنجيد المراتب والكراسي والأسرّة والأرائك، وقال لها: «ومن الصلاة عندما لا يكون عندي عمل في المحل، أصبحت ركبتاي تؤلمانني».

عندما قال لها تميم إنه سيذهب إلى سوق الحميدية في اليوم التالي ليُحضر كمية كبيرة من الخيوط الملونة من تاجر الجملة إلى المنجّد، قررت أن تراه هناك. انتظرته بجانب محل بوظة بكداش.

في صباح اليوم التالي، قالت لأمها إن الدورة الشهرية جاءتها. فنصحتها أمّها كالعادة بألّا تذهب إلى المدرسة. كانت نورا تكره المدرسة، لكنها لم تجرؤ على أن تقول ذلك، لأن والدها يريدها أن تحصل على شهادة الدراسة الإعدادية.

قال لها أبوها أيضاً إنها شاحبة، ونصحها بأن تستقل الترام وتعود إلى البيت إذا أحسّت بأنها ليست على ما يرام. ذهبت نورا إلى

المدرسة. بعد ساعة، بوجهها الشاحب وصوتها المرتعش، أقنعت المديرة بأنها متوعكة. لكن ما إن ابتعدت عن المدرسة، حتى استعاد وجهها رونقه وبدأت تسير بخطوات ثابتة. لم تكن المدرسة بعيدة عن سوق الحميدية التي ذهبت إليها مشياً، ووفّرت القروش العشرة أجرة الترام.

في الساعة العاشرة وصل تميم يحمل بيده سلة كبيرة فارغة. عندما رأته في السوق، بدا لها وسيماً أكثر مما كان يبدو في دكان المنجّد.

«إذا سألنا أحد فإننا سنقول إننا أخ وأخت، لذلك يجب أن نسير ويمسك أحدنا بيد الآخر». كانت قد فكّرت في ذلك طوال الليلة الماضية. عندما مدّ لها يده، أحست بأنها ستموت من الفرح. سارا صامتين في السوق الذي يعجّ بالناس.

قالت له: «قل شيئاً».

فقال: «لقد أحببت ملمس يدك، فهي دافئة وجافة مثل يد أمي، لكنها أصغر من يدها بكثير».

فقالت: «معي عشرة قروش، لن أحتاج إليها لركوب الترام لأنني سأعود إلى البيت مشياً. ما طعم البوظة التي تحبّها؟»

قال: «ليمون».

فقالت: «وأنا أحبّ كثيراً مذاق التوت الشامي. إنه يجعل لون لسانك أزرق».

«وأنا أحبّ بوظة الليمون»، قال ولعق شفتيه.

اشتريا البوظة وتجوّلا في السوق. كانت أزهار الربيع تعبق في الشوارع. أرادت نورا أن تصفّر اللحن الذي تحبه كثيراً، كما يفعل الصبية، لكنها شعرت بالأسف لأنه لا يُسمح للبنات أن يصفرن.

سارا منفصلين لأن تميم يحتاج إلى يد ليحمل السلة، واليد

الأخرى ليمسك بها كوز البوظة. ضحكت نورا لأنه يصدر صوتاً عالياً عندما يلعقها، لكن سرعان ما امتلأ السوق بالناس فراحت تشق طريقها بين جموع الناس وسبقته. أُخذت بغناء متسول أعمى. تساءلت لماذا يتمتع المكفوفون بصوت جميل؟ في تلك اللحظة أحسّت بيد تميم. كانت قد أنهت نصف بوظتها، بينما تناول بوظته كلها. التفتت إليه فابتسم، وقال لها بهدوء: «لا تقلقي، أنا أخوك».

عندما وصلا الى نهاية السوق واضطرا لأن يفترقا، أخذ تميم يديها بيديه، ونظر إلى عينيها. لأول مرة غمرتها سعادة كبيرة. اقترب منها أكثر، وقال: «يودّع الإخوة والأخوات بعضهم بقبلة»، وقبّلها، ثم أضاف، «عندما أصبح ربان سفينة، سأعود في سفينتي من أجلك»، واختفى وسط الحشد، كأنه خجل من الدموع التي سالت على خدّيه.

بعد شهر، رأت صبياً آخر يركع على سجادة الصلاة الصغيرة تلك. «لكن أين . . .»، سألت المنجّد العجوز، لكنها سرعان ما صمتت كي لا تذكر اسمه الذي كانت تهمس به لوسادتها طوال تلك الليالي.

«آه، ذاك الفتى»، قال المنجّد سعيداً، «لقد هرب وأرسل إلى والديه رسالة منذ بضعة أيام يقول فيها إنه يعمل على سفينة شحن يونانية. إنه فتى مجنون».

في تلك الليلة، أرسل والدها في طلب الطبيب بعد أن أصابتها حمّى طوال أسبوع.

بعد مضي سنتين على هروب نورا، قرع رجل قوي البنية يرتدي بدلة بحار باب بيت والديها، وسأل والدها عنها. كانت أمّها حينذاك في المستشفى تُجري عملية الزائدة الدودية.

عندما سمع البحار أن نورا هربت، يقال إنه ابتسم وصافح والدها بودّ شديد، وقيل إنه قال: «كانت نورا تبحث دائماً عن مياه البحر الواسعة». فأُعجب أبوها بهذه الكلمات، وظل يذكر ذلك اللقاء دائماً - لكن ذلك كان يثير غضب زوجته - حتى وهي على فراش الموت.

لكن ذلك لم يحدث إلّا بعد عدة عقود.

6

لم يسأل أحد سلمان أين كان عندما غاب عن المدرسة عدة أيام متتالية، ومن بين المئة تلميذ والمعلمين الخمسة، ابتسم له شخص واحد فقط، وهو بنيامين الذي يجلس في المقعد بجانبه في الصفّ.

عندما عاد إلى المنزل عند الظهيرة، كانت أمّه لا تزال منهمكة في تنظيف مخبئهما، وبذلت جهداً كبيراً لترتيب الغرف بعد أن نظفتها وغسلتها وألقت القمامة في الفناء ثم كنستها إلى الغرف التي كانت ذات يوم ورشة حياكة.

ظلت تعود سرّاً وتعمل حتى العصر في بيتهم لتجهّز كلّ شيء لزوجها، ثم تهرب إلى مخبئها مع الصبي. طمأنها شمعون وقال إن بإمكانها أن تمكث هنا لبضع سنوات، لأن ورثة الحائك العجوز منهمكون في مقاضاة أحدهم الآخر لأن هذا البيت الصغير قد يجلب مبلغاً جيداً لقربه من كنيسة القديس بولص التاريخية.

بعد عدة أيام توقفت أمّه عن البكاء، وحلت رائحة بصل وزعتر محل رائحة العفن. لم تكن هناك كهرباء في البيت، لكن ضوء الشموع أبعد العتمة والبرد. كان المرحاض والحمّام في حالة جيدة لأن ورثة الحائك نسوا أن يقطعوا إمداد الماء عن البيت لانشغالهم في الشجار فيما بينهم بشأن الميراث.

ضحكت الأمّ وابنها مثل شخصين متآمرين عندما تخيّلا القسمات

الغبية التي ترتسم يومياً على وجه والد سلمان عندما يعود إلى البيت في المساء ثملاً، ولا يجد أحداً أمامه يضربه.

لكن سعادة الفقير لا تدوم طويلاً.

ذات ليلة، جاء والد سلمان فجأة إلى مخبئهم. رقص ظله بجنون على الجدران. ارتعشت الشمعتان أمامه. ملأ صوته ورائحته، مزيج كريه من العرق والعفن، المكان. لم يجرؤ سلمان على أن يتنفّس.

فيما بعد أخبرته سارة أن جارتهم سميرة، زوجة يوسف الذي يعمل في محطة الوقود، التي تسكن في الجانب الآخر من الباحة، بين قنّ الدجاج وشقّة الخباز، هي التي أفشت السرّ عن مكانهما لقاء ليرة واحدة. لم يكن هناك شيء يفوت انتباه سميرة. فهي تراقب من شقتها كلّ ما يجري في «حوش الرحمة»: ثماني شقق، ومرحاضان، ومخزنان، وقن دجاج. لن يغفر سلمان لها أبداً خيانتها هذه، ولم يعد يذكرها باسمها، وإنما أطلق عليها اسم «النمَّامة».

في تلك الليلة، جرّ والد سلمان أمّه من شعرها إلى الشارع، ولو لم يقف شمعون وكامل، اللذان هرعا بسرعة ووقفا في وجهه، لجرّ المرأة المسكينة حتى الباحة. خلّصا مريم من قبضته، وبينما كان شمعون يساعدها على النهوض على قدميها، دفع والد سارة، الشرطي، الرجل الغاضب أمامه إلى «حوش الرحمة»، وصاح به، «اهدأ وإلّا سأضطر إلى أن أرتدي بدلتي الرسمية عندها تعرف إلى أين يمكنني أن آخذك».

وقف سلمان أمام النافذة ونظر إلى انعكاس وجهه المليء بالدموع. كان خائفاً من أن يعود أبوه ويجرّه من شعره إلى خارج البيت أيضاً. عندما ساد الهدوء، كان الشيء الوحيد الذي أراد أن يفعله هو أن يذهب ويطمئن على أمّه. في تلك اللحظة، سمع نباحاً

عالياً من الطابق الأرضي، ثم تحوّل النباح إلى أنين، كما لو أن هناك كلباً خائفاً أو جائعاً.

رفع سلمان الشمعة وحاول أن ينظر إلى الباحة من النافذة، لكن الظلام الدامس ابتلع ضوء الشمعة قبل أن يصل إلى الأرض.

اعتراه شعور بالفضول والخوف في آن معاً، وبدأ يهبط الدرج ببطء. قبل أن يصل إلى آخر درجة، ارتطمت بساقيه كتلة متشابكة من الشعر الأسود، وحدّقت به عينان تلمعان.

رأى كلباً ضخماً، لكن كان يبدو من سلوكه الأخرق أنه كلب صغير، له رأس وخطم كبيران. من بقعة الدم على شعر صدره، أدرك سلمان أن هناك جرحاً في رقبة الكلب كما لو أن أحداً أصاب الكلب بجروح شديدة وتركه بين هذا الركام.

«انتظر هنا»، قال له سلمان وصعد إلى الطابق العلوي. وجد قطعة نظيفة من ثوب قديم بين الخِرَق التي تحتفظ بها أمّه في أحد الأدراج. لفّها بعناية حول رقبة الكلب المجروح الذي ظل ساكناً على نحو غريب.

«لن تموت»، قال له سلمان وربّت على رأسه، «مثل أمي»، وضم الكلب إليه. كان الكلب يئن من الجوع. تذكّر سلمان عظام لحم الخروف الذي أعطاه الجزار محمود لهما التي أعدّت أمّه منها آخر طبق حساء، واحتفظت بالعظمة كي يقضم سلمان بقايا اللحم منها عندما يجوع. أعطاها سلمان للكلب الذي التهم كلّ ذرة لحم فيها ولم يتوقف عن هزّ ذيله. عندما مسّد سلمان رأسه لفترة طويلة، هدأ الكلب. نظر أحدهما إلى الآخر مثل كائنين منبوذين، ولم ينس سلمان قط النظرة التي ارتسمت في عينَي الكلب.

عاد سلمان إلى البيت، لكنه لم ينس أن يغلق الباب المفضي لباحة «حوش الرحمة» جيداً، كأنه خشي أن يذهب الكلب.

عندما طلع النهار، تسلل إلى شقة والديه. كانت أمّه لا تزال جاثية على المرتبة، وأبوه يشخر بصوت عالٍ في الغرفة الثانية.

«لن يخيفكِ بعد الآن»، همس سلمان في أذن أمّه، «أصبح عندي كلب كبير، سيكبر قريباً وسيلتهم أي شخص يجرؤ على أن يلمسك»، ابتسمت أمّه وضمته إليها وغفت على الفور، لكن سلمان ظلّ مستيقظاً ولم يتحرك حتى سمع والده يصيح «القهوة»، فاستيقظت أمّه. عندما ذهبت إلى المطبخ، نام سلمان. رأى الكلب في منامه ضخماً وقوياً مثل حصان له جناحان أبيضان، ثم امتطاه مع أمّه وسارة وحلّق فوق الحيّ المسيحي. تشبّثت به أمّه خائفة، لكنه سمع سارة تطمئنها وتقول لها لقد سُحر الكلب وأصبح يطير وهو يعرف طريقه جيداً ولن يلقي بهم أبداً.

من فوق رأس أمّه، نادت سارة: «سلمان، سلمان، يجب أن تطلق اسماً على الكلب وإلّا فإنه سيضيع»، فصاح في الريح، «ماذا أسمّيه؟»

سمع أمّه وسارة يقولان بصوت واحد: «طيّار».

طار الكلب حول كاتدرائية القديسة مريم. كانت هذه أول مرة يراها سلمان من الأعلى. ثم حلّقوا فوق حارة العبارة حتى «حوش الرحمة». رأى سلمان الجيران يخرجون من بيوتهم ويشيرون إليهم ويصيحون، «طيّار».

استيقظ مجفلاً. كان أبوه على وشك أن يشعل سيجارته الثانية، ثم خرج وذهب إلى عمله. «اسم كلبي، طيّار»، همهم سلمان، وقفز واقفاً.

7

في عيد الفصح في سنة ١٩٤٨، تناول سلمان القربان المقدس الأول. بعد أن أصبح يستمتع بالأيام التي يهرب فيها من المدرسة، لم تعد مدرسة القديس نيقولاوس تطاق في سنته الثانية. لم يعد يذهب إليها. كان يذهب إلى المدرسة في فصل الشتاء عندما يكون الطقس بارداً، فيزداد قناعة بأن هذا المبنى الرطب الذي يُضرب فيه جميع الفتيان الأضعف، ليس المكان المناسب له.

عندما حلّ فصل الربيع الدافئ، خرج سلمان مع بنيامين إلى الحقول خارج أسوار المدينة ليتنشّقا رائحة الحياة، كان الهواء يعبق برائحة أزهار المشمش، وتناولا اللوز المرّ الصغير الأخضر من الأشجار مباشرة.

ضحكا كثيراً ولعبا مع الكلب الذي سرعان ما أصبح أيضاً صديقاً لبنيامين القوي البنية والذي كان يحمله على كتفيه مثل طوق من الفراء. وبعد ستة أشهر، كبر الكلب وأصبح حيواناً جميلاً وقوياً. لكن بعد فترة قصيرة، لم يعد بإمكان بنيامين أن يحمله. «إنه حمار متنكر في هيئة كلب»، قال وهو يئن من ثقل الكلب ووقع على مؤخرته، فترك الكلب وأخذ يضحك.

فقال له سلمان: «أنت الحمار. كلبي نمر متنكر في هيئة كلب».

في مطلع الصيف، لم يعد الأب يعقوب محبوباً في دمشق لشدة

تعصّبه، فنقله المطران إلى قرية جبلية في المنطقة الساحلية. بعد ذلك بفترة قصيرة، وقبل انتهاء سنته الثانية، ترك بنيامين المدرسة نهائياً، وذهب ليعمل مع أبيه، الرجل الضئيل الجسم، اللطيف الذي تكسو وجهه ندوب وتجاعيد كثيرة، والذي أُعجب بقوة ابنه الشاب الذي أصبح أطول منه، وأصبح بإمكانه أن يرفعه بيد واحدة عندما لا يكون في المحل زبائن.

بعد أن ترك بنيامين المدرسة بيومين، ودّع سلمان أيضاً مدرسة القدّيس نيقولاوس نهائياً، ولم تطأ قدمه المدرسة مرة أخرى.

لم يسأله أحد من الجيران لماذا لا يذهب إلى المدرسة مثل الصبية الآخرين. فلم تكن المدرسة تعني كثيراً لسكان «حوش الرحمة» الذين يكافحون للبقاء على قيد الحياة. وبدا لسلمان أن من الطبيعي أن يمكث في البيت ويعتني بأمه المريضة التي لم تعد تبكي عندما يكون بجانبها.

في أحد الأيام، سألته سارة، «لماذا لم تعد تذهب إلى المدرسة؟» فقال لها، «أمي . . .» محاولاً أن يختلق شيئاً، لكن عندما نظرت إليه سارة، تلاشت الكذبة من على لسانه، ثم قال غاضباً، «إني أكره المدرسة. إنها فظيعة. . . لا أريد أن أتعلّم بعد الآن»، ولكي تعرف السبب الحقيقي الذي جعله يكره المدرسة، سألته سارة، «هل تريد أن أقرأ لك بصوت عالٍ كما كنت أفعل من قبل؟ أقرأ لك قصصاً جميلة؟»

«لا أحبّ الكتب الآن. احكي لي عن شيء آخر».

فقالت: «لا تكن غبياً. الكتب رائعة. لا يستطيع أحد أن يحكي قصصاً كالقصص التي قرأتها في الكتب».

بدأت تقرأ له، ومع كل كتاب جديد تقرأه له، بدأ يزداد لهفة

وإثارة. في أحد الأيام، أحضرت سارة كتاباً فيه مسائل حسابية غريبة وألغاز أرقام ذكية. منذ ذلك الحين، بدأ سلمان يجد متعة كبيرة في حلّ المسائل الحسابية المعقدة. دُهشت سارة من السرعة التي يحلّ بها تلك المسائل الحسابية الذهنية، ومكافأة له على ذلك، قبّلته سارة في ذلك اليوم ثلاث قبلات على جبينه، وقبلة على شفتيه.

أُعجب سلمان كثيراً بكتاب يتحدّث عن الأرض، وتدرّب بأناة على تتبع مسار الأنهار الكبرى في العالم، وأصبح بإمكانه مع الأيام تحديد البلدان المختلفة بدقة على الخريطة. كانت القراءة بصوت عال تسبب له مشكلة، فقد كان يقرأ بسرعة، ويتجاهل حروفاً وأحياناً كلمات كاملة. كانت سارة تمسّد رأسه وتهمس، «اقرأ ببطء، استوعب ما تقرأه ببطء. لا يطاردنا أحد».

مرّ عام كامل قبل أن يصبح قادراً على القراءة بصوت عال دون أن يرتكب أخطاء، ويلفظ الكلمات بشكل صحيح. كانت سارة سعيدة بنجاحها كمعلّمة معه، وأصبحت تجلس معه كلّ يوم تقريباً.

شكّلا ثنائياً رائعاً، صورة من الهدوء والجمال. في بعض الأحيان، كان الجيران يسخرون منهما، قالت سميرة إنها تراهما كما لو كانا زوجين، فغضبت أمّ سارة كثيراً، وحذرتها بكلمات حادة، «ولا تنسي أيضاً أن زوجي شرطي»، وعادت إلى شقتها أمام جميع الجيران الجالسين خارج بيوتهم في ذلك اليوم، رافعة رأسها. بعد ذلك، لم يعد أحد يقول عنهما شيئاً.

ظلت سارة تأخذ سلمان إلى بلاد بعيدة، وعرّفته على شعوب أجنبية عديدة. علّمته لسنوات من دون أن يأخذا عطلة، أحياناً بلا توقف. كان آخر درس أعطته له قبل ليلة زفافها. ضحكا كثيراً في ذلك اليوم. عندما ناقشت سلمان الصفحات الختامية من رواية «قوي كالموت»، للكاتب غي دي موباسان، قالت، «كنت أتوقع أن تشعر

معي بالملل حتى الموت كلّ هذه السنين»، لكن سلمان لم يقل شيئاً، لأنه لم يجد الكلمات المناسبة ليعرب لها عن امتنانه.

كانت سارة مستعدة لكلّ شيء. فقد قدمت لسلمان شهادة صمّمتها بنفسها، كتبت عليها بالعربية والفرنسية: «سلمان تلميذي النجم»، ووقّعت عليها وكتبت التاريخ، وختمتها بالعلامات الثلاث الحمراء والخضراء والزرقاء، فبدت كما لو كانت وثيقة رسمية. لكن سلمان تعرّف على ختم مخفر الشرطة الذي كان والد سارة يجلبه إلى البيت، وقال لها ضاحكاً: «إنها تشبه شيئاً له علاقة بالسجن».

لكن ذلك لم يحدث إلّا بعد تسع سنوات. أما الآن فلنعد إلى صيف عام ١٩٤٨، عندما ترك سلمان المدرسة.

عندما أصبح الطقس دافئاً، بدأ سلمان يأخذ كلبه بعد الظهر في نزهات طويلة إلى الحقول، لأن بنيامين كان يعمل في ذلك الوقت في محل فلافل أبيه. كان الكلب يحب أن يقفز ويسبح في النهر الصغير ويجري وراء العصي.

التهم الكلب كلّ ما يضعه سلمان أمامه، وفهم كل كلمة يقولها له. وظل في الباحة حتى من دون أن يربطه سلمان بسلسلة عندما يذهب. كان يئن بصوت حزين خافت ومفجع، لكنه لا يتحرك من مكانه إذا أمره سلمان بذلك.

في أحد الأيام في شهر آب، طارد الكلب صبيَّين ضخمين من أبناء كبار المزارعين عندما هاجما سلمان وهو يسير. صبيان قويان ظنا أنهما سيمضيان وقتاً ممتعاً في ضرب هذا الفتى الضامر القادم من المدينة. لم يريا الكلب إلّا بعد أن قفز من الماء لنجدة سيّده الذي بدأ يصرخ. تورّد خدّا سلمان فخراً. في ذلك اليوم، قدّم للكلب الذي

أنقذه صحناً كبيراً مليئاً بقطع اللحم تناولها بنهم، ثم عاد إلى باحة «حوش الرحمة».

قال سلمان لأمه، «يمكننا الآن أن ننام في مخبئنا الليلة بسلام».

فأجابته أمّه، «لكن لا فائدة من ذلك، سيأتي في الليل ويعيدني إلى المنزل».

«لا يستطيع أحد أن يأخذك»، قال لها سلمان، «يستطيع الكلب أن يهاجم رجلين مثل أبي في وقت واحد»، لم يستسلم حتى وافقت أمّه على أن يعودا إلى مخبئهما. دُهشت أمه عندما رأت أن الكلب الأسود كبر وأصبح جميلاً وقوياً. ضحكت عندما حكى لها سلمان قصة الولدين الفلاحين عندما أطلقا ساقيهما للريح بعد أن تمزقت مؤخرة سرواليهما، وهما يرددان تعاويذ سحرية تحميهما من الكلب.

ضحكت أمّه وقالت: «لا تنفع التعاويذ لأن الكلب لا يفهم اللغة العربية».

تناولا الخبز والزيتون وشربا الشاي ثم خلدا إلى النوم. بعد سنوات، ظلّ سلمان يردد أنه لم يتناول زيتوناً في حياته ألذّ من هذا الزيتون.

استيقظ سلمان عندما سمع صرخات أبيه اليائسة في الأسفل. هبط سلمان الدرج يحمل بيده شمعة. كان أبوه مستلقياً على وجهه في الدهليز، يئن من الخوف، والكلب يقف فوقه كالمنتصر.

«لا تأتِ إلى هنا مرة أخرى»، صاح سلمان. لم ير أباه قط يجري مترنحاً بهذه السرعة، وظلت اللعنات التي أطلقها معلقة في الهواء وراءه.

في نهاية السنة، توصل ورثة الحائك إلى اتفاق وباعوا المنزل

للكنيسة لقاء مبلغ كبير. وبعد فترة قصيرة، بُنيت في هذا المكان دارٌ للمسنين الكاثوليك، بجانب كنيسة القديس بولص.

عاد سلمان وأمه إلى البيت لكن لم يكن بالإمكان أخذ الكلب إلى «حوش الرحمة». فلم يعارض أبوه ذلك فقط، وإنما معظم الجيران الذين قالوا إنهم يخافون على أطفالهم. ولم تستطع سارة وسلمان رغم كل محاولاتهما إقناع الآخرين مدى محبة «طيّار» للأطفال. قادت سميرة التي لم تتوقف عن الكلام الحملة بنجاح ضد وجود الكلب، وقالت سارة: «إن سميرة تخشى أن يمزّق الكلب الرجال الذين يزورونها في الليل».

«أي رجال؟» سألها سلمان.

فأجابته سارة: «لا يناسب هذا الموضوع الصبية الصغار»، ونظرت بعيداً نظرة ذات معنى.

وجدت سارة مكاناً لإخفاء «طيّار» بين أنقاض مصنع ورق قديم بالقرب من باب شرقي. كان كوخ حارس مهجور نما فوقه نبات اللبلاب، وكان لا يزال في حالة جيدة. عاش الكلب في ذلك الكوخ حتى اختفى بشكل غامض بعد سبع سنوات. لكن أشياء كثيرة هامة حدثت في حياة سلمان قبل ذلك، ويجب أن تعود القصة إليهم أولاً.

عندما لم تكن سارة تقرأ له، ولا تحتاج أمّه إليه، ولا يخرج في نزهة مع كلبه، ولا تكون لديه أعمال أخرى يجب أن يؤديها، يلعب سلمان في الزقاق حيث يلتقي أكثر من عشرة فتيان كلّ يوم، يشاركهم اللعب، لكنه لم يحاول قط أن ينضم إليهم ويصبح واحداً منهم.

كان خمسة من أولئك الصبية يعيشون في «حوش الرحمة» أيضاً، فقراء مثله، لكنهم عندما يلعبون في الزقاق مع رفاقهم الذين يبدون أكثر نظافة وأوفر صحة، يتصرفون كما لو أن سلمان فقط الذي يعيش

في «حوش الرحمة»، وكانت أذناه الكبيرتان اللتان تشبهان شكل إبريق موضوع نكاتهم وتهكمهم. فقد حكى عدنان، ابن سميرة، قصة حقيرة عن الطريقة التي جاء بها إلى هذه الدنيا. إذ قال «إن القابلة كانت في عجلة من أمرها، لكن سلمان رفض أن يخرج إلى هذا العالم لأنه كان خائفاً من الحياة، فأمسكته القابلة من أذنيه وسحبتهما حتى خرج»، وضحك ضحكة خبيثة انتقلت بالعدوى إلى الصبية الآخرين.

عندما بدأ عدنان يطلق عليه «ابن المجنونة»، تملّك سلمان رعب حقيقي لأن أمّه ليست مجنونة، بل مريضة. مريضة جداً، لكن كيف يمكنه أن يشرح ذلك لهذا الصبي الغبي الفظ؟

علقت كلمة «ابن حرام» على طرف لسانه، لكن خوفه أعادها إلى فمه، وابتلعها بقسوة لأن عدنان كان فتى ضخماً قوي البنية.

لم يتذكّر سلمان كم كان عمره عندما بدأ يطهو، لكن لا بدّ أن ذلك كان عندما غادر مع أمّه بيت الحائك. وأدركت فايزة أن مريم مريضة جداً فلم يُسمح لها بدخول المطبخ وحدها، وبدأت فايزة تطبخ الطعام لأسرتها ولصديقتها، تساعدها سارة. ثم بدأ سلمان يشاركهما.

«علّميني كيف أطبخ»، قال سلمان لفايزة التي ضحكت وأرسلته ليلعب مع الصبية الآخرين في الزقاق، وقالت: «يجب أن تلعب مع الصبية، فالمطبخ ليس مكاناً للرجال»، فبدأ يراقبها خلسة، كيف تغسل الرز، وتسلق المعكرونة، وتقشّر البصل، وتهرس الثوم، وتكسر عظام الخروف لتُخرج منه النخاع اللذيذ. وقبل انتهاء السنة، أصبح بإمكانه أن يعدّ أطباقاً عديدة بسيطة، وبدأت فايزة وسارة تستمتعان بالطعام الذي يطبخه. ولم يلاحظ أبوه إلّا بعد خمس سنوات أن زوجته لم تطبخ له الطعام. وعندما بدأت صحتها تتدهور باستمرار، لم

يعد يصيح بها ويضربها. في أحد الأيام، تظاهر سلمان أنه نائم، ورأى أبوه يمسّد رأس أمّه ويدندن لها أغاني بصوت خافت.

«في أسرتك كل شيء بالمقلوب فالمرأة ترقد مرتاحة في السرير، والرجل ينظف البيت»، قال جارهم مارون الذي يعيش مع زوجته وأطفاله العشرة في غرفتين صغيرتين قبالة شقّتهم، عندما رأى سلمان ينظّف نوافذ شقتهم.

«عينا مارون نائمتان»، همست سارة لسلمان عندما رأت جارهما يسير، وأضافت بنبرة منخفضة وتآمرية «لكن مؤخرته تعزف موسيقى طوال الليل. صدقني، اسمع ضرطاته عبر الجدران»، كان مارون رجلاً فاشلاً يقطع التذاكر في سينما *عايدة* التي شهدت أياماً أفضل في الماضي، أما الآن، فقد أصبحت مكاناً متداعياً، تعرض أفلاماً قديمة فقط. كان ثمن تذكرة الدخول إلى السينما عشرين قرشاً فقط، وبإمكان المرء أن يتخيّل ذلك من رؤية الصالة والشاشة المهترئتين. كان سلمان قد سمع عن هذا المكان الوخيم فقرر ألّا تطأ قدمه هذه السينما المليئة برجال يحاولون إمساك مؤخرات الصبية، وبحفنة من الجائعين ومحبي المشاجرات السكارى في معظم الأوقات. وكان مارون يعود أحياناً إلى بيته وعلى عينه كدمة زرقاء، أو سترته ممزقة. وكانت زوجته مديحة امرأة ضئيلة الحجم، ذكية وجميلة. كانت تحدّثه كلّ يوم عن الرجال الذين كان بإمكانها أن تتزوجهم لو لم ترتكب أكبر خطأ في حياتها عندما أنصتت له.

«يبدو أنها لم تتعلم شيئاً من أخطائها»، قالت سارة بجفاف. كانت مديحة تنجب طفلاً كل سنة في عيد الفصح، لكن لم يتحل أي من هؤلاء الأطفال مثقال ذرة من جمال أمّهم وعقلها. وإنما كانوا يبدون جميعاً نسخاً من وجه أبيهم الغبي عندما يقف شارداً وهو يأخذ التذاكر عند مدخل السينما، يمزّق جزءاً من التذكرة ويعيد الجزء

المتبقي إلى الشخص حتى من دون أن ينظر إليه. يكاد أطفاله يموتون جوعاً. «إنهم لا يتضورون جوعاً فقط، وإنما هم الجوع نفسه»، قالت فايزة، أمّ سارة.

بدأ سلمان يبحث عن عمل. كان نهاره طويلاً ومملاً، لأن سارة أصبحت تعود من مدرستها كمعلّمة متفرغة بعد الظهر. كانت جيوبه الفارغة تزعجه أكثر مما يزعجه الملل. فلم يكن أبوه يعطي جارتهم فايزة إلّا المبلغ الذي تحتاج إليه لشراء الطعام.

وبدأ سلمان يبحث عن عمل لأنه يريد أيضاً أن يبتعد عن أبيه الذي تحسنت معاملته مع أمّه، لكن معاملته معه ازدادت سوءاً. ولم يعد يرغب في أن يرى ذلك الرجل القذر الضخم بوجهه الداكن غير الحليق عادة، أو يسمعه وهو يصرخ في وجهه، «هيا انهض أيها الكسول، يا وجه النحس»، أو يتلقى الركلات عندما يكون نائماً، ولم يعرف أبداً سبب ذلك.

لم تخلُ نظرة سلمان إلى أبناء الجيران من الحسد الذين يرافقهم آباؤهم أو أقاربهم إلى المدرسة صباح كلّ يوم، ويغنون لهم، وكان يردّ في سريرته على كلّ تحية يسمعها في «حوش الرحمة»، لكنه في نفس الوقت يشفق عليهم أيضاً، لأن عليهم أن يذهبوا إلى مدرسة القديس نيقولاوس. تلميذ واحد فقط يدعى سعيد لم يفعل ذلك، أُعجب به سلمان كثيراً لأن لديه عملاً، ويعامله الجميع باحترام كما يعاملون الأشخاص الكبار..

كان سعيد يتيماً، يعيش مع الأرملة العجوز لوسيا منذ توفيت أمّه وأبوه في حادث بالحافلة. كانت الأرملة لوسيا تقيم في شقّة صغيرة قبالة البوابة بين مخبز بركات والمطبخ الخيري الكبير، وقد تبنت الأرملة سعيد لأنها لم تُرزق بأطفال، وقد تكفّلت الكنيسة الكاثوليكية بنفقاته لأن أباه كان يعمل مشرفاً في المدرسة الكاثوليكية الراقية

المخصصة لأبناء المسيحيين الأغنياء لعقود عديدة، والقريبة من كنيسة القديس نيقولاوس.

كان عمر سعيد يقارب عمر سلمان، وكان وسيماً مثل بنات بركات، وبسيطاً مثل أبناء مارون. كان في الصفّ الرابع عندما توفي والداه، لكنه لم يرغب في أن يمضي يوماً آخر في المدرسة، فعمل مساعداً في حمّام السوق القريب من باب توما، ولم يكن صاحب الحمام يدفع له أجراً لقاء عمله، وكان سعيد يعطي أمّه بالتبني القروش القليلة من الإكراميات التي يعطيها له المستحمّون، وكانت الأرملة سعيدة به وبها أيضاً.

عندما طلب سلمان من سعيد أن يسأل صاحب الحمّام إن كان بحاجة إلى صبي آخر يعمل في الحمّام، فوجئ سعيد كما لو أنه سمع هذا السؤال لأول مرة في حياته. وفي اليوم التالي أخبره سعيد أن الحمّامجي يريد أن يراه. في ذلك اليوم، دلك سلمان خدّيه الشاحبين بحجر الخفاف حتى كادا ينزفان دماً. رأته سارة يغسل شعره ويمشّطه في المطبخ.

سألته، «هل ستتزوج اليوم؟»

فقال ضاحكاً، «لا، يريد الحمّامجي أن يراني ولا أريد أن يظن أنني مريض».

عندما سألته، «هل أنت خائف؟» هزّ سلمان رأسه موافقاً.

بدا الحمّامجي في قميصه الداخلي والمنشفة الملفوفة حول خصره، مخيفاً كأنه أحد محاربي الساموراي. تفحّص سلمان من أعلى رأسه حتى قدميه، ثمّ هزّ رأسه وقال لسعيد، «قلت إن لديك صديقاً جيداً قوي البنية، أما هذا، فإنه نكاشة أسنان. وإذا رآه زبائني، فإنهم سيظنون أننا مستشفى للحالات الميؤوس منها».

8

«العربي هي كُنيَة زوجي» قالت جدّتها لها، «لذلك فهي كُنيَة والدك أيضاً، لكن اسمي كريمة، فإذا أردتِ أن تناديني فقولي الجدّة كريمة فقط، لا الجدّة عربي. وهل تعرفين ما معنى اسمي أيتها الصغيرة؟» هزّت نورا رأسها نافية.

«كريمة تعني شخصاً نبيلاً، سخياً. ويجب أن تكون المرأة كريمة، ويحبّ والرجال هذه الصفة فيها لأنهم قلقون دائماً ويتوقعون أن مجاعة ستحدث. لقد تعلّمت أن أكون كريمة منذ كنت صغيرة، لذلك يمكنك أن تطلبي مني أي شيء تريدينه، وسأعطيكِ إياه - حتى لو طلبت حليب العصفور»، قالت وواصلت صنع طائرة ورقية زاهية الألوان.

عندما سألت نورا والدها ما طعم حليب العصفور، ضحك وقال لها إن هذا أحد اختراعات أمّه الكثيرة، وعليها أن تجرّبه ذات يوم.

لكن أمّ نورا غضبت، وقالت: «ما هذا الهراء الذي تقوله أمّك؟ فالعصافير تبيض ولا تعطي حليباً. إن غرس أفكار كهذه في رأس الفتاة سيفسدها».

عندما طلبت نورا من جدّتها في زيارتها التالية حليب العصفور، دخلت جدّتها إلى المطبخ وعادت وبيدها كأس حليب بنفسجي فاتح اللون، وقالت لها، «لقد تناول العصفور كمية كبيرة من التوت

اليوم». شربت نورا الحليب بحذر وأعجبها طعمه الحلو بطعم التوت الشامي البنفسجي الشهير.

تعبق في الزقاق الذي تقيم فيه الجدّة كريمة رائحة طيبة، رائحة خبز طازج لا تزال تفوح من المخبز الصغير القريب من بيتها. كان الخبز الرقيق الذي يبلغ قطره نصف متر تقريباً ويسمّيه أهل الشام «الخبز المشروح» وهو خبز رخيص، يشتريه المزارعون والعمال بكميات كبيرة. لكن والدا نورا لم يحبّا هذا الخبز وقالا إنه مالح كثيراً ومحروق.

كلما زارت نورا جدّتها كريمة، تذهب إلى المخبز وتجلب رغيفاً كبيراً طازجاً، ثم تجلس مع جدّتها إلى الطاولة الكبيرة وتتناولانه، بينما ينظر إليهما جدّها ويضحك، ويقول محتجاً: «كأنه لا يوجد لدينا شيء نأكله، تجلسان هنا مثل امرأتين فقيرتين تأكلان الخبز الحاف».

فتقول له الجدّة: «يجب أن تتعلّم نورا كيف تستمتع بالمتع الصغيرة وهي صغيرة. الرجال لا يعرفون ذلك».

كانت نورا تحبّ زيارة جدّتها كريمة كلما استطاعت، وبما أنها لا تزال صغيرة، فقد كانت تضطر لأن تنتظر أباها كي يوصلها إلى بيت جدّتها، ولم تكن أمّ نورا ترغب في زيارة حماتها إلّا نادراً. وكلما أرادت نورا زيارة جدّتها، ألمّ بأمّها صداع نصفي، وطلبت من أبيها أن يذهب هو ونورا وحدهما.

بعد سنوات، لا تزال نورا تتذكّر بيت جدتها الصغير الذي كانت باحته مثل غابة مليئة بالنباتات، وقد صُفَّت الكراسي والمقاعد الركنية خلف ستائر من أزهار الياسمين المتسلقة وأشجار البرتقال وأزهار الدفلى والورد ونبتة الكركدية وأنواع أخرى من الأزهار في أصص وضعت فوق مصاطب خشبية مطلية باللون الأخضر. وما إن تصل

نورا إلى بيت جدّتها، حتى تصنع لها إكليلاً من أزهار الياسمين وتضعه على رأسها.

كان جدّها قصيراً، نحيفاً، صامتاً، طاعناً في السن، يجلس في زاوية في هذه الغابة، يقرأ أو يتلو بعض الأدعية. كان وجهه بأذنيه الكبيرتين يشبه وجه أبيها، لكن صوته أكثر رقة وأعلى نبرة.

ذات يوم، فاجأت جدّها عندما قرأت عناوين الصحف بصوت عالٍ، فقال لها مندهشاً، «إذاً تستطيعين أن تقرئي».

لا تتذكّر نورا متى تعلّمت القراءة بالتحديد، لكنها كانت تقرأ بطلاقة عندما دخلت الصفّ الأول وهي في السابعة من عمرها.

كلّما ذهبت نورا لزيارة جدّتها، تصنع لها طائرة ورقية من الورق الملون. كانت الطائرات الورقية التي تصنعها لها جدّتها أجمل بكثير من تلك التي تشتريها من صاحب الدكان «عبدو». وكانت نورا تحبّ أن تطلق طائرة ورقية في الهواء عندما تذهب في نزهة، ويتحلّق فتيان حولها يطلبون منها أن تدعهم يمسكون الخيط لتطير وتدور في الهواء.

كانت أمّها تردد باستياء أن لعبة تطيير الطائرات الورقية في الهواء من ألعاب الصبية لا البنات، فيضحك أبوها. وعندما بلغت العاشرة، قال لها هو أيضا إن عليها أن تتوقف عن اللعب. وأردف: «لقد أصبحت سيّدة شابة، والسيّدة لا تلعب بالطائرات الورقية».

لكن الشيء الذي كانت الجدّة كريمة تحبّه أكثر من زراعة الأزهار أو صنع الطائرات الورقية هو صنع المربيات. فلم تكن تصنع مربى المشمش والخوخ والسفرجل التي يصنعها أهالي دمشق عادة فقط، وإنما تصنع مربى من كلّ ما تراه أمامها: مربى الورد،

والبرتقال الحلو، والكبّاد، والعنب، والتين، والتمر، والتفاح، والبرقوق، وتين الصبّار، وكانت تقول: «المربيات تحلّي لسان الصديق والعدو، حتى لا يقولوا عنك أشياء مرّة كثيرة».

في أحد الأيام، ذهبت نورا تبحث عن جدّها لتريه فستانها الجديد، لكنها لم تجده. ثم تذكّرت فجأة ما قالته لها أمّها التي لم تلمس قط أي نوع من المربيات التي تصنعها الجدّة كريمة، وقالت لجارتها بديعة إن الجدّة ساحرة، وإنها تظن أنها تصنع مربى من الضفادع والثعابين والعناكب.

«أين جدّي؟» سألت نورا جدّتها بارتياب، «ألم تصنعي منه مربى؟»

فابتسمت جدّتها، وأجابت، «لا، لقد ذهب في رحلة طويلة»، وهرعت إلى المطبخ. عندما تبعتها نورا، رأت جدّتها تبكي حتى تورّمت عيناها. حتى بعد فترة طويلة، لم تستطع نورا أن تفهم كيف أخذ الموت جدّها بهدوء شديد ولم تلاحظ ذلك.

عندما بلغت نورا العاشرة من عمرها، لم يعد لديها أي أمل لأن تلعب مع أولاد جيرانها الذين كانوا أطفالاً أبرياء. وفي جميع الأحوال، لم تستطع اللعب معهم لأن أمّها كانت تناديها دائماً وتطلب منها أن تعود إلى البيت.

بدأت نورا تبدي اهتماماً بالكتب. وعندما كان أبوها يعود من المسجد، يقرأ لها بصوت عالٍ كلّ ما تحبّه. وفي أحد الأيام، أراها كيف تكتب الحروف العربية. ودُهش من السرعة التي تعلمت بها القراءة والكتابة. كانت تلتهم كلّ شيء، وتنظر إلى جميع الصور التي تجدها في الكتب الموجودة في مكتبة والدها الكبيرة. في أحد الأيام، فاجأته بتلاوة قصيدة في مديح الخليقة التي تعلّمتها عن ظهر

قلب. غمره شعور عارم بالغبطة فراح يبكي. «كنتُ أحلمُ دائماً بأن تكون عندي ابنة مثلك. كان اللّه رحيماً بي»، قال لها وقبّلها وخدش خدّها بشعر لحيته.

كلّما صعدت نورا إلى سطح البيت حيث تستمتع بالضوء، تصرخ أمّها وتقول لها: «ماذا تريد فتاة من كلّ هذه الكتب التي تكسوها الغبار؟» لكن عندما قال زوجها إن حبّ نورا للكتب «نعمة من اللّه»، لم تعد تجرؤ على أن تسخر منها.

كانت نورا تقرأ بصوت مرتفع ببطء وبتركيز، تتذوّق كلّ كلمة على لسانها، تنصت كيف أن لكلّ كلمة تقرأها لحناً يميزها، ومع مرور السنوات، بدأت نورا تحسّن الطريقة التي تنطق فيها كلّ كلمة حتى تبدو أجمل، وإذا كان علينا أن نصدّق والدها، فقد كان بإمكانها أن تتلو آيات من القرآن وقصائد أفضل من أي تلميذ في الصفّ الخامس مع أنها لم تذهب الى المدرسة بعد.

كانت نورا تحصي أيام الصيف التي لا تزال تفصلها عن موعد افتتاح المدرسة، مثل سجين يحصي الأيام الأخيرة قبل إطلاق سراحه ونيله الحرية التي يتوق إليها.

كان عدد الفتيات اللاتي يذهبن إلى المدرسة في دمشق في ذلك الوقت قليلاً جداً، وتميزت المدارس المسيحية بمستوى عالٍ جعلها أفضل مدارس دمشق، وكانت هناك مدرسة ممتازة تديرها راهبات، ليست بعيدة عن بيت نورا. لكن أمّها هددت بأن تغادر المنزل أو تنتحر إذا ذهبت ابنتها إلى مدرسة يديرها الكفار. فقد أبوها أعصابه، وذُرفت أثناء الشجار دموع كثيرة، وبعد لأيٍ اتفقا على أن يرسلا نورا إلى أفضل مدرسة إسلامية تقع بعيداً عن البيت في حيّ سوق ساروجة. اتُّخذ قرار ذهابها إلى تلك المدرسة في شهر آب، ثم حدثت أعظم مفاجأة. ففي أحد الأيام، قال أبوها مبتهجاً إن صديقه

الطيب والمتدين محمود حمصي أخبره عندما كانا في المسجد أن ابنته نادية ستذهب إلى تلك المدرسة بالترام.

كاد يُغشى على أمّ نورا التي ذرفت دموعاً غزيرة، واتهمت زوجها بأنه يجازف بحياة ابنته ويسلّم ابنته المرهفة الحسّ إلى ذلك الوحش الحديدي المتنقل، وقالت: ماذا لو أن أحداً اختطفها لأنها فتاة جميلة جداً؟

فقال أبوها: «لا يستطيع أحد أن يخطف الترام، فهو يسير دائماً على نفس السكك الحديدية»، وأضاف، «ويوجد موقف للترام رقم ٧٢ في الشارع الرئيسي على مسافة ٢٥ خطوة فقط من باب بيتنا، وهي نفس المسافة تقريباً من بيت صديقي حمصي».

كادت نورا تطير من الفرح. في ذلك المساء، ذهبوا جميعاً لحضور حفل الختان الذي أقامته عائلة الحمصي الثرية، وكان من المقرر أن تتعرف نورا في ذلك الحفل على رفيقتها نادية التي سترافقها إلى المدرسة.

كان المنزل يعجّ بالضيوف. تشبّثت نورا بيد أمّها. وظلّ غرباء كثيرون نساء ورجالاً يربّتون على رأسها ويمسّدون خدّيها. كان الضيفان الوحيدان اللذان تعرفهما هما جارتهما البدينة بديعة وزوجها.

في فستانها المخملي الأحمر، بدت نادية كأنها أميرة. أمسكت بيد نورا وقادتها عبر الجمع إلى الركن الذي كُدِّس فيه الكعك الحلو والبقلاوة على شكل أهرامات عظيمة. قالت لها، «تفضّلي، وإلّا فإن الكبار سيأكلون كلّ شيء ولن يتركوا لنا إلّا الفتات»، وتناولتا كعكة محشوة بالفستق من أحد تلك الأهرامات.

كانت نورا في غاية البهجة. فلم تر قط هذا العدد من الناس ومثل هذا المنزل الكبير. كان الجميع مبتهجين، يغمرهم مزاج

احتفالي. وفي ذلك اليوم حضرت نورا لأول مرة في حياتها حفلة طهور أو ختان، وقالت لها نادية إن شقيقها سيصبح بعد ذلك مسلماً حقيقياً.

كانت المائدة تئن من ثقل الأطعمة الشهية اللذيذة كما لو أن المضيف يخشى أن يموت ضيوفه من الجوع. إن رؤية تلك الأهرامات من المعجنات الحلوة المحشوة بالجوز والفستق التي رُشَّ عليها السكر جعلت نورا تشعر بالجوع، لكنها خجلت ولم تتناول شيئاً، بينما التهمت صديقتها نادية كمية كبيرة منها.

فجأة ساد شعور بالترقب في الغرفة، وهمست عدة نسوة، «لقد جاء، لقد جاء». ثم رأت نورا الحلاق صالح صاحب صالون الحلاقة في الشارع الرئيسي القريب من محل الحلواني إلياس. كان صالح طويل القامة ونحيفاً، حليقاً دائماً، يمشّط شعره الذي يدهنه بالزيت إلى الخلف، يرتدي دائماً معطفاً أبيض، وتوجد في دكانه خمسة طيور كناري تغرّد معاً كأنها في جوقة. وعندما لا يكون عنده زبائن، تراه نورا أحياناً يؤدي حركات كما لو أنه مايسترو يقود تلك الجوقة.

ردّ السيّد صالح على تحية الرجال له بإيماءة وقورة، يحمل حقيبة بيده اليمنى، وتوجه مباشرة إلى ركن في باحة البيت زُيّن خصيصاً لهذه المناسبة. في تلك اللحظة، رأت نورا الصبي الشاحب في ثيابه الملونة الزاهية. سار عدد من الأطفال نحو الصبي الذي لم يكن يكبرها كثيراً.

«لا تتحركي من هنا» سمعت أمّها تقول لها عندما تسللت مع نادية عبر حشد الكبار الذين كانوا يحافظون على مسافة بين بعضهم، لكنها كانت قد وصلت إلى الصفّ الأول.

طلب رجل، لعله أحد أعمامه، من الأطفال أن يبتعدوا ويوسّعوا الدائرة كي لا يزعجوا الحلاق في عمله.

قال الحلاق للصبي: «لا تخف. أريد فقط أن أرى مقاسك لأخيط لك قميصاً وسروالاً».

«لماذا يخيط له الحلاق قميصاً وسروالاً؟ لماذا لا يذهب إلى الخيّاطة داليا؟» سألت نورا نادية التي لم تسمع سؤالها والتي كان اهتمامها مركزاً على الرجل الذي طلب منه الحلاق أن يأخذ مقاس حذاء الصبي، نفس الرجل الذي طلب من الأطفال أن يبتعدوا ويوسعوا الدائرة حول الصبي والحلاق. جاء الرجل من وراء الصبي، وأمسك بذراعيه ورجليه بقوة كي لا يتمكن من أن يتحرك وبدأ الطفل بالبكاء. بدأ الكبار يغنون، كما لو أن قائد الجوقة أعطاهم إشارة البدء، وراحوا يصفقون، لم يسمع أحد صراخ الصبي إلّا نورا وهو ينادي أمه لتنقذه.

أخرج الحلاق من حقيبته سكّيناً حادة. أطلق صبي يقف بجانب نورا صيحة خفيفة ووضع يديه أمام خصيتيه كأن شيئاً هناك بدأ يؤلمه، ثم انسحب إلى الوراء. لم تر نورا ما الذي يجري قطعه تماماً، لكن شقيق نادية أجهش في البكاء. عندما نظرت نورا حولها، لم يكن قد بقي أحد في الصف الأمامي إلّا هي وصبي شاحب آخر. تراجعت نادية إلى الوراء أيضاً. جاءت امرأتان ووضعتا إكليلاً من الزهور على رأس الصبي وقدمتا له مبلغاً من النقود. ومع ذلك ظلّ حزيناً. صفّق له الجميع، ولمست نورا يده عندما حملوه إلى غرفة أكثر هدوءاً في الطابق الأول. نظر إليها الصبي بعينين متعبتين، وارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة.

رافقت أم نورا الفتاتين إلى المدرسة في اليوم الأول فقط. ثم بدأتا تذهبان إليها وحدهما بالترام. كانت نادية تجلس دائماً ساكنة

وتحدّق في الشوارع التي يمرّ فيها الترام دون أي تبدي أي اهتمام، أما نورا، فقد كان ذلك بمثابة مغامرة شبه يومية.

كانت نادية فتاة هادئة، شعرها أحمر، مكتنزة قليلاً، لا تحبّ المدرسة ولا الكتب. وحتى عندما لم تتجاوز السابعة من عمرها، كانت تريد أن تتزوج وتنجب ثلاثين طفلاً، ولم تحبّ اللعب إطلاقاً، وتقول دائماً إن الألعاب التي تلعبها الفتيات في الحيّ وفي المدرسة ألعاب طفولية، بعكس نورا التي أحبّت أن تلعب كلما أتيحت لها الفرصة.

بالإضافة إلى لعبة القفز، كانت نورا تحبّ ألعاباً أخرى مثل لعبة الغميضة. قال لها أبوها إن آدم وحواء أول من لعب هذه اللعبة عندما اختبآ من اللّه بعد أن تناولا تلك الفاكهة المحرمة. وعندما كان يأتي دور نورا لتختبئ، تتخيّل أنها حواء يبحث عنها اللّه.

أما اللعبة الأخرى التي كانت تحبّها كثيراً، فهي اللعبة التي ابتكرتها حنان، الفتاة الذكية في صفّها. إذ تقف تلميذتان إحداهما قبالة الأخرى، تدافع إحداهما عن النساء، والأخرى عن الرجال.

تعدّد التلميذة الأولى الأشياء السيئة والمكروهة عند الرجال، فتردّ الفتاة الأخرى على ما قالته الفتاة الأولى بما يقابله عند النساء، وعليهما أن تذكرا كلّ ذلك بكلمات عربية صحيحة.

فتقول الفتاة الأولى: «الشيطان مذكر والتابوت مذكر أيضاً». فتجيبها الفتاة الأخرى، «والخطيئة مؤنث والمصيبة أيضاً»، فتجيب الأولى، «الحمار مذكر، والجرذ أيضاً»، فتضحك التلميذات الواقفات حولهما. ثم تجيب الفتاة الأخرى «وجهنم مؤنث، والفأرة أيضاً». وتظلان هكذا إلى أن تخطئ إحداهما في نوع الجنس أو لا تردّ بسرعة كافية. وتقف فتاة ثالثة حكماً، تقرر من هي الفتاة

الرابحة، وإذا استمرت اللعبة لفترة طويلة، ولم تفز أي من الفتاتين، ترفع الحكم كفّها وتطلب تغيير الموضوع، فتبدأ الفتاتان المتنافستان تركّزان على صفات أفضل وأجمل وأكثر نبلاً لدى كلا الجنسين.

فتقول إحدى الفتاتين: «الكون مذكر، والقمر أيضاً».

فتقول الأخرى: «والفضيلة أنثى، والشمس أيضاً»، وهكذا، حتى تفوز إحداهما، أو ترفع الحكم يدها وتطلب من الفتاتين أن تصفا الجنسين بعبارات أكثر اكتئاباً.

لم تكن نادية ترى هذه اللعبة ممتعة أيضاً. ولم تكد تصل إلى نهاية الصف الخامس حتى تركت المدرسة، وبدأت تزداد بدانة، وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها تزوجت ابن عمها، وهو محام استطاع أن ينشئ مكتباً حديثاً بمبلغ المهر الذي أعطاه له حماه الثري. ثم سمعت نورا من الجيران أن نادية لم تنجب أطفالاً، ولم يطلّقها زوجها كما جرت العادة في مثل هذه الحالات في ذلك الوقت، لأنه يحبّها.

بدءاً من الصف السادس، بدأت نورا تذهب إلى المدرسة وحدها، ولاحظت أنها لم تفتقد نادية.

كانت نورا معجبة بجابي الترام الذي يرتدي بدلة رمادية جميلة ويحمل بيده علبة التذاكر. وكان المفتش الذي يصعد إلى الترام مرة في الأسبوع ليدقق في تذاكر الركاب، يرتدي بدلة زرقاء غامقة، ويبدو كأنه ملك، يضع خواتم ذهبية في أصابع يده. وظنت نورا في البدء أنه صاحب الترام.

بعد محطتين، كان يصعد إلى الترام كلّ يوم رجل محترم يرتدي بدلة سوداء، يزيد عمره على سبعين سنة، لكنه لا يزال وسيماً، طويل القامة، نحيف، يرتدي ثياباً أنيقة على الدوام، بيده عكاز له مقبض

فضي. ثم عرفت نورا لماذا لا يطلب جابي الترام من البارون غريغور أن يشتري تذكرة، فقد كان هذا المسكين مصاباً بلوثة في عقله، يعتقد أنه سيكتشف أحد أسرار النبي سليمان، وعندما سيكتشفه، سيصبح ملك العالم. وحتى يحين ذلك، كان على جميع الناس أن يخاطبوه بلقب «بارون»، وعرفت أنه أرمني له زوجة وابن صائغ ذهب معروف في دمشق.

كان البارون يجوب أرجاء المدينة طوال اليوم، يوزّع مناصب هامة في العالم الذي سيحكمه ذات يوم، ويمنح مباركته للمارة والركاب الذين يلتقي بهم. وإذا أبدى له أحدهم احتراماً شديداً وانحنى له وخاطبه «صاحب السعادة»، يبتسم له البارون، ويقول له وهو يربت على كتفه بلطف: «سأجعلك حاكماً على مصر وليبيا». وكان يأكل ويشرب أيضاً مجاناً في جميع مطاعم ومقاهي المدينة، ويقدم له باعة السجائر أغلى أنواع السجائر. «هذه لك يا بارون، ليس عليك أن تدفع ثمنها، فقط تذكّر ذاتي المتواضعة عندما تكتشف ذلك السرّ».

«طبعاً سأفعل ذلك يا صديقي العزيز. سأوكلك بطباعة العملة. يمكنك في النهار أن تطبع أوراقاً نقدية للبلد، وبعد انتهاء عملك في المساء، يمكنك أن تطبع المزيد منها لك فقط».

في كلّ أسبوع، قال والد نورا، يدفع ابن البارون كلّ نفقات أبيه بامتنان وتهذيب شديد لكل من قدّم للرجل العجوز شيئاً، حتى أن الكثير منهم كان يطلب مبلغاً أقل من القيمة الحقيقية لما استهلكه البارون.

«إنه مجنون، لكنه يعيش ذلك النوع من الحياة التي لا يحلم بها الآخرون، حتى لو بذلوا كلّ ما بوسعهم ليفعلوا ذلك طوال حياتهم»، قال جابي الترام ذات يوم مؤنباً راكباً سخر من البارون.

اعتاد البارون أن ينزل من الترام بعد محطة واحدة من مدرسة نورا، بعد أن يودّع جميع الركاب بأسلوب مهيب. وكان سائق الترام يقرع جرس الترام مرتين تكريماً له، فيلتفت البارون ويلوّح له. شحوب وجهه، وحركة يده البطيئة يجعلانه يبدو شخصاً في غاية الاحترام.

في بعض الأحيان، كانت نورا تظل في الترام حتى آخر الخط، ثم تعود إلى المدرسة. وكان الجابي يغض الطرف عنها، ويقول لها: «أوه، نسينا أن نقرع الجرس عند الموقف الذي تنزلين فيه عادة»، فتبتسم وقلبها يخفق بقوة. فقد استكشفت أماكن في المدينة لا تعرفها أمّها، لكنها لم تخبرها عنها، لأن أمّها تتوقع الأسوأ دائماً، وتنتظر كل يوم بفارغ الصبر حتى تذهب وتحضرها من محطة الترام عندما تعود.

ظلت نورا تفعل ذلك منذ أول يوم ذهبت فيه إلى المدرسة حتى آخر يوم لها في المدرسة.

كانت مدرسة نورا التي تقع في حيّ سوق ساروجة الراقي، مبنى رائعاً ونموذجاً للهندسة المعمارية العربية، فيها باحة داخلية تتوسطها نافورة ماء جميلة، ويكسو النوافذ زجاج معشّق، وتحمي الأروقة الظليلة ذات الأقواس التلاميذ من أشعة الشمس الحارقة ومن المطر أثناء الاستراحة، تضم المدرسة قرابة مئتي تلميذة من الصف الأول حتى الصف التاسع.

بعد نجاح نورا في امتحان الشهادة الإعدادية بفترة قصيرة، هُدم المبنى وأقيم مكانه مبنى حديث قبيح، يضم عدة محلات ومستودعاً كبيراً لبيع الأدوات الكهربائية المنزلية.

كان في صفّ نورا ثماني عشرة تلميذة، كلّ تلميذة منهن عالم في حد ذاتها، وكنّ يحببن بعضهن كأنهن أخوات. واكتشفت نورا في المدرسة أن لها صوتاً جميلاً. كانت نورا تحبّ الغناء، وكانت تغني كثيراً، حتى أمها المتزمتة كانت تحبّ أن تنصت إليها عندما تغني.

وأمضى أبوها الذي أحبّ صوتها أيضاً، عدّة سنوات في تدريبها على التنفس بطريقة صحيحة. لم يكن يجيد الغناء، لكنه يجيد فنّ التحكم في التنفّس.

كانت نورا تحبّ كثيراً درس الديانة، لا لأن المعلّم كان شيخاً شاباً وتلميذ والدها وأحد الذين يقدّرونه كثيراً فحسب، وإنما لأنه أيضاً شاب وسيم، ومعجب بصوت نورا، يطلب منها دائماً أن تتلو بعض الآيات القرآنية، وكانت نورا تضع كلّ جوارحها عندما ترتل، حتى أن بعض الفتيات كنّ يبكين عندما تفعل ذلك، وكان الشيخ يمسّد رأسها بامتنان عندما تنتهي، فتسري لمسته في جسدها مثل وميض برق، فيشتعل جسدها كله. لكنها سرعان ما تدرك أنها ليست الفتاة الوحيدة التي تحبّ الشيخ، وإنما جميع الفتيات في صفّها.

ظلت نورا تحتفظ بذكريات سعيدة عن أيام دراستها لسنوات عديدة، باستثناء تجربة مريرة واحدة. ففي الصف السابع، كانت متفوقة في جميع المواد ما عدا الرياضيات التي عانت منها الأمرَّين. لم تحبّ السيد ساداتي معلّم الرياضيات الجديد، وكانت مادة الهندسة بمثابة كارثة حقيقية بالنسبة لها. فقد تحولت أبسط حسابات زوايا وأضلاع المثلثات إلى متاهة لا تجد لها حلاً أو مخرجاً. وكانت جميع تلميذات الصفّ يحصلن على درجات متدنية في مادة الرياضيات، وفي ساعة الرياضيات تبلل جسم نورا بالعرق كما لو كانت في حمّام ساخن، وخفق قلبها بقوة.

لذلك، حدث ما كان يجب أن يحدث: ففي أحد الأيام، جاء المعلّم إلى الصفّ معكّر المزاج لسبب لا يعرفه أحد إلّا هو، وطلب منها أن تخرج إلى السبورة وتعطي أمثلة واضحة عن جميع قواعد الهندسة التي تعلمتها حتى ذلك الحين. في تلك اللحظة تمنت نورا من كلّ قلبها أن تموت بسكتة قلبية وأن يصاب الأستاذ بالطاعون.

لم تنبس بكلمة واحدة حتى سُمع صفير قضيب الخيزران في الهواء، وأصابت الضربة الأولى يدها فسحبتها وخبأتها بذراعها. توقف قلبها عن الخفقان، ثم أعقبت ذلك ضربات أخرى على ساقيها وظهرها حتى أدركت أنها يجب أن تُبقي يدها ممدودة وراحة يدها مفتوحة إلى الأعلى. لم تعد تشعر بضربات العصا وهي تنهال عليها. من وراء الغشاوة التي شكلتها دموعها، رأت جميع التلميذات في الصفّ جالسات متسمّرات في أماكنهن كأنهن تحولن إلى تماثيل حجرية. حتى أن بعض الفتيات بدأن يبكين ويطلبن من المعلّم أن يتوقف عن ضربها، لكنه لم يتوقف إلّا بعد أن بدأ يلهث.

عندما عادت إلى البيت، وبّختها أمّها، لكن والدها دافع عنها، وقال إن ساداتي حمار وليس معلّماً، وأنه يعرفه ويعرف والده وعمّه فهم مجرد قطيع من الحمير، تنفّست نورا الصعداء وشعرت بالارتياح.

«إني أكرهه»، قالت لأبيها، «أكرهه...»

فقال لها أبوها بهدوء: «لا، يا طفلتي. فاللّه لا يحبّ الذين يكرهون، وإنما يحمي الذين يحبّون بنعمته الواسعة اللامتناهية. يجب أن ترثي لحال ساداتي وتشفقي على دماغه المتخلف. لقد اختار المهنة الخطأ، وهذا أسوأ ما في الأمر».

بعد ذلك بسنة، اختفى المعلّم فجأة. فقد فَقَدَ أعصابه مع فتاة

في الصفّ السادس، ولم يدرك أن والدها ضابط برتبة عالية في المباحث. فنقلته وزارة الثقافة إلى المنطقة الجنوبية، وهذا بحد ذاته كارثة على الساداتي، لأنه يكره سكان الريف في المنطقة الجنوبية ويعتبرهم سمّاً.

ظلت نورا تذهب إلى المدرسة حتى حصلت على الشهادة المتوسطة، ولكي تحصل على شهادة الثانوية، كان عليها أن تنتقل إلى مدرسة أخرى، فثارت ثائرة أمّها، واستخدمت الدموع والمرض كسلاحين قويين، فامتثل والد نورا لها، بعد أن هددت بالانتحار إذا عانت بعد الآن من قلقها على ابنتها.

وقالت إن المرأة لا تحتاج في حياتها إلى أن تتعلم من الكتب، وإنما كلّ ما تحتاج إليه زوج تنجب منه أطفالاً، وقالت إذا استطاعت نورا أن تجيد الخياطة والطهي وتربية أطفالها ليصبحوا مسلمين صالحين، وهذا أكثر شيء يتوقع منها.

استسلم أبوها. كانت تلك أول مرة تهتز فيها ثقة نورا به، وبدأت أسس حياتها تتزعزع حتى اليوم الذي هربت فيه. إن الثقة هشة كالزجاج، لا يمكن إصلاحها إذا أصيبت بشرخ.

أعجبت فكرة أن تصبح نورا خياطة أمّها، وعندما بلغت الخامسة عشرة، أرسلتها لتتعلم الخياطة عند الخيّاطة داليا التي يقع بيتها في زقاق الورد، في نفس الحيّ الذي تقيمان فيه.

في ذلك الوقت، انتقلت أسرة جديدة إلى الزقاق وأقامت في البيت المجاور لبيتهم الذي توفي صاحبه المسنّ منذ سنتين، وباعت أرملته البيت وسافرت لتعيش مع ابنة أختها في شمال سوريا. كان المالك الجديد موظفاً في شركة الكهرباء، زوجته قصيرة ونحيفة ولطيفة، وأربعة أبناء جلبوا الكثير من الضحك إلى الزقاق عندما كانوا يقفون خارج باب بيتهم ويقولون نكاتاً. كانوا مسلمين، لكنهم يلعبون

بسعادة مع أبناء جيرانهم المسيحيين وأقاموا علاقة جيدة معهم. وكانوا يعاملون نورا بتهذيب شديد وقد أحبتهم كثيراً. كانت تشاركهم الضحك، وتحبّ أن تنصت إلى قصص المغامرات التي يروونها عن إفريقيا. فقد عاشوا في أوغندا بضع سنوات، وعندما مرضت أمّهم، ترك زوجها عمله الذي يدرّ عليه ربحاً جيداً، وعاد إلى دمشق. وما إن وطئت قدما الأمّ تراب دمشق، حتى استعادت صحتها فوراً.

أحبّت نورا مراد، الابن الأكبر الثاني الذي تفوح منه دائماً رائحة عطرة، وعندما كان يضحك، تنتاب نورا رغبة قوية في أن يضمها بين ذراعيه.

بعد ستة أشهر، اعترف لها أنه أحبّها منذ أول يوم رآها فيه. كان مراد يكبر نورا بأربع أو خمس سنوات، وسيماً، ولأول مرة منذ زمن، كانت تشعر أن قلبها يرقص فرحاً عندما تقع عيناها عليه.

في أحد الأيام، عندما لم يكن والداها في البيت، غامرت نورا وقابلته داخل باب بيتها. وضعت نورا بصلتين في كيس ورقي لكي يأخذ مراد كيس البصل ويقول إنه جاء ليستعير قليلاً من البصل إذا عاد والداها فجأة، ويشكرها بتهذيب ويغادر. كان بإمكانهما أن يسمعا كلّ الأصوات في الشارع من الدهليز المعتم. ارتعشا كلاهما من الإثارة والخوف عندما قبّل نورا قبلة طويلة على شفتيها لأول مرة في حياتها. كان مراد خبيراً. لمس نهديها أيضاً، وأكّد لها أنه لن يفعل لها أي شيء غير أخلاقي.

عندما قال: «لا يجوز للمرأة أن تفعل ذلك قبل ليلة عرسها»، قالت في نفسها إنه سخيف وضحكت.

عندما التقيا في المرة التالية، نزع فستانها، ولعق حلمتيها. أحست بقشعريرة، ولم تكد تستطيع أن تقف على قدميها. وظلّ يهمس لها، «لا تخشي شيئاً، الأمر كله بريء».

في إحدى المرات، سألها إن كانت تحبّه وتنتظره حتى ينهي فترة تدريبه كحلاق، ثم يتزوجها ويفتح صالون حلاقة في هذا الشطر من المدينة، وأكد لها، «صالون حلاقة عصري».

أرعبها السؤال. قالت له إنها ليست مستعدة لتنتظره فقط، وإنما مستعدة لأن تموت من أجله. فضحك وقال إن هذا الكلام يبدو مقتطعاً من مشهد في فيلم مصري، أحد تلك الأفلام التي تستدرّ الدموع، وإن من الأفضل أن تبقى على قيد الحياة وترفض أي شخص يتقدّم للزواج منها، وقال إنها فتاة جميلة جداً، وإن جمالها هذا سيدوم طويلاً.

تساءلت كيف يمكنها أن تقنعه بحبّها اللامحدود؟ فقالت له إنها ستزوره في الليل، وإنها مستعدة لأن تقدم على أي مجازفة من أجله.

لم يصدّقها، وقال لها بنبرة أبوية عليها ألّا تتبجح، وتقول أشياء لا يمكنها أن تفعلها.

فقالت نورا التي جُرحت مشاعرها: «الليلة، عندما تدق ساعة الكنيسة الواحدة، سأكون على سطح بيتكم».

فقال لها إنها فتاة مجنونة، لكن إذا جاءت حقاً، فإنه سيمارس الحبّ معها على السطح.

فقالت: «أنا لست مجنونة. أنا أحبك».

لم يكن الأمر صعباً. فلم تكن هناك سوى فجوة ضيّقة بين البيتين يجب أن تخطو فوقها. كان الهواء بارداً، لكنها شعرت بدفء يسري في داخلها، وبرغبة قوية في أن يضغط جسده على جسدها.

لكنه لم يأتِ. لم تفهم سبب عدم مجيئه. فلم يكن عليه إلّا أن يصعد من الطابق الأول حيث غرفة نومه، إلى سطح منزله. انتظرت بجانب الخزانات المطلية بطلاء داكن التي تُسخّن فيها الماء تحت

أشعة الشمس اللاهبة أثناء النهار. تكوّرت على نفسها بجانب تلك الخزانات الدافئة، وانتظرت.

لكن مراد لم يأت. زحف الوقت بطيئاً. كانت كلّ ربع ساعة تمرّ كلما دق الجرس، تبدو دهراً بالنسبة لها.

عندما دقت ساعة الكنيسة الساعة الثانية، نهضت على قدميها. أحست بركبتيها تؤلمانها وقد تجمّدت يداها من شدة البرد. ففي تلك الليلة من شهر آذار هبّت ريح جليدية عاصفة. لمحت مراد واقفاً وراء نافذة غرفة نومه. لوّح بيده، فخيّل إليها أنه يلوّح لها. بدأ قلبها يتوق لأن تذهب إليه، لكنها سرعان ما أدركت أن تلويحته تعني أن عليها أن تذهب. هبط عليها فجأة ظلام ثقيل. أحست بقدميها الحافيتين أثقل من الرصاص. عادت ببطء إلى السطح، وفجأة واجهت الهاوية الضخمة التي تفصلها عن سطح بيتها. نظرت إلى الأسفل. في مكان ما في الأعماق البعيدة في الفناء، ومض ضوء مصباح.

بدأت تبكي وأرادت أن تقفز، لكن الخوف أصابها بالشلل.

عثروا عليها صباح اليوم التالي، صورة تجسد البؤس، وأخذوها إلى البيت. بكت أمها كثيراً، وقالت: «ماذا سيقول عنّا الناس يا ابنتي؟ ماذا سيقولون عنّا؟»

لم تتوقف عن البكاء والنحيب حتى صاح بها والد نورا وقال: «توقفي عن هذا النحيب. ما الذي يمكن أن يقوله الناس إذا كانت الفتاة مصابة بالحمّى وتمشي في نومها؟»

فقالت أمها: «مهما كان السبب، يجب أن تتزوج ابنتك في أسرع وقت ممكن زوجاً قوياً طيباً يرعاها». فأجابها إن نورا لا تزال فتاة صغيرة، وعندما قالت له إنه لم يراع أنها كانت صغيرة عندما تزوجها وهي في السابعة عشرة من عمرها، وافق.

بعد أسبوعين، رأت نورا مراد مرة أخرى. كان شاحباً وابتسم لها. عندما سألها إن كان بإمكانه أن يأتي ويستعير قليلاً من البصل لأمه، بصقت عليه بازدراء، فقال لها مندهشاً: «أنتِ فتاة مجنونة. هذا أنتِ، مجنونة، مجنونة!».

9

لسنوات عديدة، ظلّ سلمان يتذكّر تفاصيل ما حدث صباح ذلك اليوم، قبل عيد الفصح. ففي ذلك اليوم، أحضر لهم بنيامين كعادته سندويشات فلافل، وأحضر معه أيضاً، لأول مرة، سجائر. ساروا مع الكلب «طيّار» حتى النهر، ثم أشعل بنيامين أول سيجارة، وأخذ منها نفساً عميقاً، ثم سعل وبصق ومرّر السيجارة إلى سلمان الذي أخذ نفساً عميقاً أيضاً وسعل حتى جحظت عيناه. أحسّ بأن أحشاءه ستندلق خارج جسمه. نظر إليه الكلب بخشية وبدأ ينبح.

«لا، لم أحبّها» قال وأعاد السيجارة إلى صديقه، «رائحتها تشبه رائحة أبي».

«إذاً كيف ستصبح رجلاً؟» سأله بنيامين.

فأجابه سلمان، «لا أعرف، لكن في جميع الأحوال لا أريد أن أدخن»، ولم يتوقف عن السعال. ثم التقط غصناً صغيراً ملقى على الأرض وألقاه في النهر ليعطي شيئاً آخر للكلب يلعب به.

كان مزاج بنيامين معكراً لأنه اكتشف في صباح ذلك اليوم أن طفولته قد انتهت. فقد كان عليه أن يتزوج ابنة عمه التي لا يحبّها، لكنها ورثت مبلغاً كبيراً من المال، وأراد أبوه أن يسدّد ديونه من ذلك المبلغ.

لكن سلمان لم يعرف شيئاً عن ذلك، وكان كلّ ما يعرفه هو أن

بنيامين معكر المزاج وظلّ يحثّ سلمان على أن يدخّن معه. عندما رفض سلمان، رفع بنيامين صوته وقال له بنبرة مليئة بالحقد، «لا يمكنني أن أحتمل الصبية الذين لا يشاركونني، ورفضت أن تشارك في مباراة الاستمناء الأسبوع الماضي، والآن لا تريد أن تدخن. هذا التصرف لا يقوم به إلا الدساسون الذين يريدون بأي ثمن أن يظهروا كقديسين. أنت جبان، ضرطة صغيرة كريهة الرائحة». أراد سلمان أن يصرخ لكنه عرف أنه إذا فعل ذلك، فإنه سيفقد صديقه الوحيد.

في تلك اللحظة سمع الكلب ينبح بقوة.

ارتفع منسوب النهر كثيراً في ربيع تلك السنة، وتحوّلت قناته الصغيرة إلى سيل هادر فاض على ضفتيه وجرف الكثير من الأشجار والأكواخ، ودمّر جسراً بالقرب من بساتين المشمش الواسعة التي تملكها عائلة قباني.

قفز سلمان على قدميه ورأى الكلب يحاول الوصول إلى الضفة، وقبض بفكيه ذراع رجل يغرق، كان يسبح بشكل جانبي ليتجنب تيار الماء القوي، لكن التيار جرفه إلى مسافة بعيدة. صاح سلمان لبنيامين وراح يجري. رأى وراء الجسر المهدم الكلب يسحب إلى اليابسة جسداً صغيراً مغمياً عليه. عندما وصل سلمان، قفز الكلب في المياه الضحلة يهزّ ذيله فرحاً، وبقربه رجل ممدّد على ظهره بدا أنه أصيب في رأسه.

«تعال، ساعدني»، صاح سلمان لبنيامين الذي وقف بعيداً ينظر إليه.

«هيا، دعنا نذهب من هنا. لقد مات الرجل، وسيسبب لنا ذلك مشكلة كبيرة»، صاح بنيامين.

بدأ الغضب يعتمل في نفس سلمان، وصاح، «تعال ساعدني أيها الأحمق، إنه لا يزال يتنفس». أخذ الكلب يثب حوله وينبح كما

لو أنه يدعو بنيامين أيضاً ليساعده، لكن بنيامين اختفى من دون أن يترك أثراً بين أشجار الصفصاف الكثيفة التي تتدلّى أغصانها نحو الماء مثل ستارة خضراء. كانت تلك الكلمات هي آخر كلمات تبادلها سلمان وبنيامين.

بعد أن أصيب بخيبة أمل مريرة، بدأ سلمان يتفادى بنيامين، وكلّ ما عرفه عنه بعد ذلك أنه تزوج ابنة عمه وسافر معها إلى بغداد. لكن ذلك حدث بعد سنتين أو ثلاث سنوات.

سحب سلمان الرجل إلى بقعة جافة وحده وراح يضغط على صدره ويصفع خديه لإنعاشه. فتح الرجل فجأة عينيه وبدأ يسعل. نظر إلى سلمان وإلى الكلب مرتبكاً، وسأل، «أين أنا؟ من أنت؟»

فقال له سلمان بحماسة، «كنتَ في النهر وقد أنقذك الكلب... كدتَ تغرق».

«حظي سيء. لقد أمسكوا بي وكادوا يقتلونني».

بعد سنوات، كان كرم - اسم الرجل الذي أنقذه سلمان وكلبه - لا يزال يحكي لروّاد المقهى الذي يملكه أنه عاش حياتين: الأولى مدين بها لأمّه، والثانية لسلمان والكلب.

منذ ذلك اليوم، بدأ سلمان يعمل يومياً في مقهى كرم الصغير الجميل في حيّ سوق ساروجة الراقي. لكن كرم لم يذكر قط ما الذي جعله يُغمى عليه ومن رماه في النهر. سمع سلمان من نادل في المقهى أن ذلك كان بسبب علاقة غرامية.

«هذا يعني»، قالت سارة التي بدا أنها تعرف كل شيء، «أن هناك امرأة في الأمر، ورجالاً لم يعجبهم أن الرجل الذي أنقذته ذهب معها إلى الفراش».

سألها سلمان، «لماذا ذهبا إلى الفراش معاً؟»

فقالت سارة غاضبة، «لا، لا تقل إنك لا تعرف ما الذي يفعله الرجال والنساء معاً في الظلام».

«تقصدين أنهما كانا يمارسان الحبّ، لذلك ألقوا بكرم في النهر؟»

هزّت سارة رأسها.

لم ينم سلمان في تلك الليلة. لماذا يجازف رجل بحياته ليمارس الحبّ مع امرأة؟

لم يستطع أن يتخيّل السبب.

عندما أدرك أنه لم يعرف السبب، سأل كرم إن كان سيلتقي بتلك المرأة مرة أخرى، فنظر إليه كرم بهدوء، وسأله، «المرأة؟ أي امرأة؟»

فقال سلمان: «المرأة التي ألقوا بك في النهر من أجلها». عندما قال ذلك، خشي أن تكون سارة مخطئة.

ضحك كرم ضحكة غريبة، وقال: «أوه، هي. لا، لن أراها مرة أخرى». لكن سلمان عرف من صوته أنه يكذب.

بعد سنة عرف سلمان حقيقة ما جرى، وتأكد حينها أن سارة أخطأت بتفسيرها هذه المرة تماماً.

أصبح المقهى بيت سلمان الثاني. لم يتقاض أجراً، لكنه كان يتلقى إكراميات كثيرة تصل في نهاية اليوم إلى أكثر من الأجر الذي يتقاضاه أبوه الذي يعمل حداداً، وفي أحيان كثيرة، كان يحصل على بقشيش عندما يوصل طلباً إلى أحد بيوت الأغنياء في الحيّ: مشروبات منعشة، أطباق صغيرة، كلّ ما قد يحتاج إليه المرء لملء فجوة جوع صغيرة أو ليقدّمه لضيوف وصلوا فجأة دون موعد مسبق - ففي دمشق، نادراً ما يُعلِم الضيوفُ مضيفَهم المسكين أنهم سيأتون قبل الزيارة. يظنون أن المفاجأة ستسرّه أكثر.

لم يحبّ النادلان الآخران اللذان يعملان في المقهى سلمان.

سميح، الأكبر سنّاً، قزم حقود تكسو وجهه تجاعيد كثيرة، ودرويش، الأصغر سنّاً، أنيق، حليق الذقن دائماً، شعره ممشّط جيداً، هادئ الطبع، يتحرك بسرعة وسهولة، صوته ناعم يشبه صوت امرأة. لم يدرك سلمان إلّا بعد فترة أن درويش يبدو ودوداً ومسالماً مثل راهبة، لكنه حقود مليء بالسمّ مثل أفعى كوبرا، قال له سميح إذا أعطيت يدك لدرويش، فيجب أن تتأكد بعدها من أن أصابعك لا تزال في مكانها. كانا يشاركان سلمان في توصيل الطلبات إلى سكان الحيّ ويقومان على خدمة الزبائن في المقهى. لكن لم يتجرأ أي واحد منهما على إيذاء سلمان لأنهما يعرفان أن كرم، صاحب المقهى، يحبّ هذا الفتى النحيف ذا الأذنين الكبيرتين كثيراً. كانت لديهما أفكارهما حول سبب معاملة معلّمهما اللطيفة لهذا الفتى، لكنهما احتفظا بذلك لنفسيهما، لأنهما يعرفان مدى قسوة كرم إذا سمعهما يقولان ذلك.

لكنهما لم يتوقفا عن إزعاج سلمان ونصب الفخاخ له حتى لا يخدم أفضل الزبائن الذين يقدمون إكراميات سخية - إلى أن ترك سلمان المقهى في خريف عام ١٩٥٥.

لم يأبه سلمان لكل ذلك، فقد أحبّه جميع الزبائن لأنه شاب لطيف وودود فكان أكثر الزبائن بخلاً ينفحه بقشيشاً جيداً.

لكن الشيء الذي أزعج زميليه كثيراً هو الامتياز الذي منحه كرم لسلمان عندما بدأ كرم يطلب منه أن يذهب إلى السوق ويشتري له أغراضه ويأخذها إلى بيته مرة أو مرتين في الأسبوع.

كان كرم يقيم في منطقة تحيط بها الأشجار بالقرب من جبل قاسيون الذي يطلّ على مدينة دمشق من الجهة الشمالية الغربية حيث تحيط بالبيوت القليلة هناك حدائق جميلة مليئة بأشجار الفاكهة وشجيرات الآس والصبّار. ولم يكن بيت كرم يبعد عن ساحة

خورشيد، المعروفة أيضاً بساحة آخر الخطّ، لأن خطّ الترام ينتهي هناك.

كانت أشجار التفاح والمشمش والآس تملأ نصف حديقة بيت كرم، وتشكّل أشجار الصبّار والورود حاجزاً كثيفاً على امتداد السياج. وحتى داخل البيت، يمكنك أن تسمع صوت خرير مياه نهر يزيد الذي يحصل كرم منه على المياه التي يريدها بواسطة مضخة يدوية كبيرة. لقد ورث كرم هذا البيت مع حديقته الفخمة من عمته التي لم تنجب أطفالاً، ويعيش فيه وحده.

من بوابة الحديقة، يسير المرء في درب ضيّق تحفّه من الجانبين شجيرات الدفلى ثم عليه أن يصعد ثلاث درجات ليصل إلى مدخل البيت الذي يعدّ بابه الخشبي تحفة فنية تنمّ عن مهارة الحرفيين الدمشقيين.

دهليز مظلم يقسم البيت إلى قسمين، يفضي إلى غرفة النوم في آخر الدهليز. وعلى الجانب الأيمن هناك مطبخ كبير وحمّام صغير، وعلى الجانب الأيسر توجد غرفة جلوس رحبة مشرقة لها نافذة تطلّ على الحديقة.

لكن لا توجد في غرفة النوم في نهاية الدهليز أي نافذة، لذلك تفوح منها رائحة عفن، وزادت محاولات كرم بالتغطية على الرائحة بمجموعة متنوعة من الكولونيا والمعطرات سوءاً بدل القضاء عليها. وفي جميع الأحوال، لم يكن كرم يسمح لأحد أن يدخل إلى تلك الغرفة.

بدا ذلك غريباً لسلمان. ففي شقة والديه، كان كل منهم يغتسل ويطبخ ويعيش وينام في أي من الغرفتين.

«غرفة نومي هي معبدي»، قال كرم ذات يوم عن هذه الغرفة التي تعبق فيها أحياناً رائحة بخور. لكن سميح، النادل الأكبر سنّاً في

المقهى، قال إنها ليست رائحة بخور، وإنما رائحة حشيش يدخّن كرم كميات كبيرة منه في الليل.

في أحد الأيام، عندما اشترى سلمان الأشياء التي طلبها منه كرم وأخذها إلى بيته، لم يكن هناك أحد في البيت. دفعه الفضول ليرى غرفة نوم كرم: سرير مزدوج كبير من الخشب الداكن يتوسط الغرفة العادية، ويوجد فوق السرير رف صغير وضع عليه كرم بعض الصور. عندما أنار سلمان الغرفة، رأى أن كلّ الصور هي صور لشخص واحد، بدري الحلاق الذي يمارس رياضة كمال الأجسام والذي يتردد على المقهى كثيراً ويشغل طاولة كاملة له تتسع لعضلاته. لقد حوّل كرم الرف إلى هيكل معبد لصاحب العضلات.

ظهر بدري في الصور في جميع الأوضاع التي يمكن تخيّلها، مبتسماً وعابساً على نحو مبالغ فيه، بكامل ثيابه أو وهو لا يرتدي شيئاً سوى شورت سباحة، يحمل بيده كوباً فضياً أو لا يحمل شيئاً. كان هذا الرجل القوي يتدرّب كلّ يوم في نادي كمال الأجسام، يتباهى بجسمه دائماً، صدره وذراعاه وساقاه حليقة وناعمة مثل بشرة امرأة. كانت بشرته سمراء لوحتها الشمس، وترتسم على وجهه علامات الغباء.

كانت سارة تعطي سلمان دروساً كلّ يوم. ثم يأخذ بقايا اللحم التي يشتريها بثمن زهيد من الجزار طعاماً لكلبه «طيّار»، ويلعب معه في مصنع الورق المهجور حتى يشعر كلاهما بالإرهاق.

خصص سلمان مبلغاً من المال يعطيه لفايزة لتعدّ لأمّه وجبة طعام جيدة، لأن ما يدفعه أبوه لا يكفي إلّا ليقيها من أن تموت من الجوع. وكانت سارة تخبئ النقود التي يعطيها لها سلمان في مكان آمن. وتعلّم سلمان عبر السنين أن يثق بها ويعتمد عليها، لكنها

اشترطت عليه أن يشتري لها كل شهر كوز بوظة كبيراً بالفستق الحلبي لقاء احتفاظها بنقوده، وقالت له إنها فائدة على تلك النقود. بعد سنوات فهم سلمان ذلك وحوّل اسم الفائدة إلى رسوم مصرفية. لكنه على أي حال كان سعيداً لأنه يستطيع أن يشتري لها بوظة بالفستق الحلبي، لا لأنه يحبّ سارة وأمها فحسب، وإنما لأنه لم يكن لديه أيضاً مخبأ آمن في البيت. فقد اعتاد أبوه أن يفتش في كل زاوية عن نقود يدّعي أنه فقدها.

بعد قرابة سنتين، تمكن سلمان من توفير مبلغ يكفي ليشتري لأمه شيئاً يفاجئها به. فمنذ كان طفلاً، كانت أمّه تقول له قبل عيد الفصح مباشرة، «تعال لنذهب إلى السوق ونشتري ملابس جديدة من أجل عيد الفصح كما يفعل أبناء الأكابر».

عندما كان صغيراً كانت تغمره السعادة عندما تقول له أمّه ذلك، وكان يظنّ أن أباه أعطاها مبلغاً من المال. فيغسل وجهه، ويمشّط شعره، ويذهب معها إلى سوق الحميدية الذي يعجّ بالمحلات التي تعرض ثياباً جميلة في واجهاتها.

كان سلمان ينتعل حذاءه طوال فصل الشتاء حتى يهترئ نعلاه ويمتلآن بالثقوب، ويصبح جزؤه العلوي صلباً كالعظم. في أحد الأيام، قال له محمود، العامل في المخبز القريب، إن أحذية الفقراء مصمّمة لتكون أدوات تعذيب كي يكفّروا عن خطاياهم ويذهبوا إلى الجنة مباشرة عندما يموتون، ونقر على حذائه الذي أصبح جلده قاسياً كالخشب والذي سبب له بثوراً تنزف دماً في قدميه.

سنة بعد سنة، كان سلمان يتوق لأن يشتري حذاء أفضل. سار مع أمّه في السوق. كانت تقف أمام واجهات المحلات المزدانة، وبدا له في تلك اللحظات أنها تنسى نفسها تماماً عندما ترى فستاناً جميلاً، فتنبعث منها أصوات خافتة من البهجة، وعندما ترى بدلة أو

حذاء صبي، تنظر إلى سلمان من رأسه إلى قدميه كما لو أنها تسجل مقاساته، أو تتساءل إن كان اللون مناسباً له، ثم تنتقل لترى شيئاً آخر. بعد ساعة شعر بالملل.

«ماما، متى سندخل؟»

«ندخل؟ لماذا؟»

«لنشتري حذاء لي وثوباً لك».

«يا بني، من أين لي النقود؟»

ينظر إليها مذعوراً. فتقول له وقد ارتسمت على وجهها تعابير بريئة: «لا تكن سخيفاً، انظر فقط إلى الثياب والأحذية وتخيّل كيف ستشعر وأنت تتجول بهذه الأشياء الجميلة»، ثم تمشي بخطوات سريعة في السوق.

قبل حلول عيد الفصح هذه السنة بأسبوع، دعا سلمان أمّه ليذهبا إلى سوق الحميدية، وضحكت في الطريق كثيراً. ثم رأت فستاناً جميلاً معروضاً في واجهة أحد المحلات، فسألها سلمان هل أعجبها، فنظرت إليه وقد تغيّرت نظرتها، وقالت: «أعجبني؟ سأكون أميرة في هذا الفستان». «إذاً فهو لك. يجب أن تجربيه وتساومي صاحب المحل على ثمنه أولاً»، قال لها سلمان بجرأة، مع أن صوته كاد يخذله.

«لا بد أنك تمزح»، قالت له أمّه، غير متأكدة مما قاله.

أخرج سلمان يده من جيب بنطاله. دُهشت أمّه عندما رأت ورقتين زرقاوين من فئة المئة ليرة وعدة أوراق من فئة العشر ليرات، وقال لها: «إني أدّخر هذه النقود لكي تصبحي أميرة أخيراً»، وأضاف، «ويجب أن تشتري حذاء لك اليوم، وأريد بنطالاً وقميصاً جديدين وحذاء جلدياً لامعاً. لقد حسبتُ كل شيء. إذا حصلنا على سعر جيد فإن ثمنها يتراوح بين مئة وتسعين ليرة ومئتي ليرة».

على الرغم من ضعف أمّه، فقد كانت تجيد المساومة. عادا إلى البيت في ذلك المساء وهما يحملان أشياء ثقيلة، وبقي في جيب سلمان ثلاثون ليرة، واشترى لسارة أيضاً زوج جوارب بيضاء، لكن سارة انفجرت في الضحك لأن الجورب كان أكبر من مقاسها ثلاث مرات، وأعطته لأمّها.

حصل سلمان على إجازة في عيد الفصح وذهب ليحضر القدّاس مع أمّه التي سارت بتباهٍ إلى صحن الكنيسة، وجلست في المقعد الأمامي كأنها أميرة. كانت تبدو فاتنة حقاً. وعندما ذهبت لتتناول القربان المقدّس وعرفها القسيس، فغر فمه، ونسي أن يقول لسلمان الذي كان يسير وراء أمّه «هذا جسد المسيح»، وحدّق بها مدهوشاً وهي تمشي.

في ذلك الوقت، كان والد سلمان يشخر من الكحول الذي شربه ليلة البارحة.

دامت سعادة أمّه ثلاثة أسابيع كاملة، ثم أصيبت بنزلة برد. وبما أنها لم تأخذ الأمر بجدية، تحوّلت نزلة البرد إلى التهاب رئوي، وعندما لم تفدها أنواع الأعشاب التي تناولتها، أو الكمادات التي وضعتها على ساقيها أو على جبينها، استدعت فايزة طبيباً. كان الطبيب لطيفاً، لكنه طلب خمس ليرات مقدماً قبل أن يفحصها. أعطاه سلمان المبلغ، لكن ثمن الأدوية التي وصفها الطبيب كانت غالية.

نصح الجيران سلمان، بمن فيهم فايزة، بألّا ينصت إلى ما يقوله الطبيب، وأن بعض الأعشاب يمكن أن تشفيها. لكن سلمان كان متيقناً من أن الدواء هو الذي سيشفي أمّه وينقذها، لكن المبلغ الذي بقي مع سارة لم يكن كافياً لشراء الدواء.

كان يوم الاثنين أكثر الأيام هدوءاً في المقهى، فلم يأتِ كرم إلى

المقهى في ذلك اليوم. كان سميح، الأكبر سنّاً بين زميليه، مسؤولاً عن الصندوق، وعندما طلب منه سلمان أن يعطيه عشرين ليرة سلفة، قهقه سميح وقال له: «يمكنك أن تعتبر نفسك محظوظاً إذا أعطيتك عشرين قرشاً. هل تعرف كم هي عشرون ليرة؟ مائتا كأس شاي، أو مئة فنجان قهوة، أو خمسة وسبعون نرجيلة - هل تظن أنني أستطيع أن أعطيك هذا المبلغ؟ سيشنقني المعلّم ويلصق على صدري ورقة يكتب عليها: *شُنق بسبب غبائه*».

ضحك درويش وسميح كثيراً فغادر سلمان المقهى منزعجاً. كان سلمان يعرف أين يقع بيت معلّمه فذهب إليه مباشرة. كان باب الحديقة موارباً. دخل سلمان إلى الحديقة، وعندما وصل إلى باب المنزل، سمع صوت ضحكة من بعيد. لم يكن الباب مغلقاً أيضاً، فدخل بهدوء. كانت الأصوات تنبعث من غرفة النوم.

بعد سنوات، ظلّ سلمان يتذكّر كيف بدأ يسمع صوت ضربات قلبه تحت جمجمته. كان يذهب إلى بيت كرم كثيراً، وصار بإمكانه أن يأتي ويذهب عندما يشاء، لذلك لم يكن المكان غريباً عليه، ومن جهة أخرى تعوّد على رؤية بدري الحلاق في البيت. لكن ليس هكذا.

الآن، عندما وقف في الدهليز ونظر إلى ما يجري وراء باب غرفة النوم المفتوح صُعقَ. رأى الحلاق مستلقياً عارياً تحت معلّمه. كان لبدري عندما يتكلّم صوت عميق باللهجة الدمشقية العريضة. أما الآن، فكان يتوسل بنشوة، بنبرة أنثوية تشبه نبرة مطربة في أحد الأفلام العربية. كان سلمان في الرابعة عشرة من عمره، ولم يفهم ما الذي يجري. شعر بخشونة وجفاف في حلقه مثل ورق الصقل. رجع ببطء وسار إلى الباب وغادر المنزل. عندما أصبح خارج البيت، تنفّس الصعداء. خطر له أن الحلاق يلعب دور امرأة في لعبة الحبّ

هذه. بالطبع كان سلمان قد سمع كلمة «شاذ» في الشارع، لكنها كانت تقال لإهانة أحد، ولم يخطر بباله قط أن يكون هناك رجل يضاجع رجلاً آخر.

مع أنه لم يستطع أن يرى شيئاً كثيراً، فقد شحب وجهه، وأصبح خدّاه باردين كالثلج. قرفص خارج الباب حتى سمع الرجلين يضحكان ويلعبان في الحمّام. عندها نهض واقفاً، وقرع الباب بالمقرعة ثلاث مرات.

بعد لحظات طويلة نظر كرم من فتحة الباب إلى سلمان وتفحّصه بذعر، وسأله قلقاً، «هل حصل شيء؟ هل هناك مشكلة؟»

«لا، لا، لكن أمّي مريضة جداً، وأحتاج فوراً إلى عشرين ليرة. إنها... مصابة بالتهاب رئوي خطير. سأسدّدها لك على أقساط»، قال سلمان والدموع تسيل من عينيه.

«انتظر هنا»، أجابه كرم واختفى داخل المنزل، ثم عاد مرتدياً بيجاما زرقاء جديدة، وأعطى سلمان ورقة نقدية من فئة عشرين ليرة وخمس ليرات معدنية، وقال له: «اشتر لأمك فاكهة بخمس ليرات. هذه هدية مني، لا يتعيّن عليك أن تعيد لي سوى العشرين ليرة».

كان سلمان على وشك أن يقبّل يده، لكن كرم ربَّت على رأسه، وقال له: «أغلق بوابة الحديقة وراءك»، واختفى داخل المنزل، ثم سمعه سلمان يقفل الباب من الداخل.

بعد أن تناولت أمّه الدواء، نامت بهدوء في تلك الليلة لأول مرة منذ فترة طويلة. أما سلمان فراح يتقلّب في فراشه ولم يغمض له جفن. تساءل لماذا يحبّ معلّمه الذي يملك مالاً ومنزلاً رجلاً لا امرأة؟ رجلاً تكسو جسمه ونخاعه عضلات فقط، لا يفكّر في شيء سوى بشعره المزيّت وشكله؟ حتى أن بدري لم يستطع السير، أو

يقوم بأي عمل بسهولة. فعندما يمسك فنجان قهوته، يمسكه بشكل متشنج كما لو أن وزن الفنجان عشرة كيلوغرامات.

عندما وصف سلمان مشهد الحبّ الذي شاهده في غرفة النوم لصديقته سارة، قالت: «ليست الحياة سوى كرنفال. ففي قلب هذا الرجل القوي امرأة». عندما حدّق سلمان بها محتاراً، حاولت أن تشرح له بمزيد من الدقة، «إن ذلك يشبه عندما يعطيك العامل في حمّام السوق ملابس شخص آخر»، ثم صمتت سارة قليلاً، وأضافت، «سعيد امرأة في قلبه أيضاً، لذلك يحبّه جميع الرجال». وأشارت إلى سعيد، اليتيم الوسيم، الذي عاد للتو من عمله في حمّام السوق.

أحسّ سلمان وهو جالس بجانبها أنه صغير جداً، وكان شديد الإعجاب بها. إنها فتاة ذكية درست في المدرسة التي تديرها راهبات المحبّة «راهبات البيزانسون»، وكانت متفوقة دائماً في صفّها. ورآها سلمان في خياله الخصب كطبيبة ستعمل في المستقبل في إفريقيا، أو أنها ستساعد الهنود الحمر في أمريكا. عندما قال لها ذلك، ضحكت، وقالت: «أنت أحمق. يستطيع الأفريقيون والهنود الحمر أن يعيشوا حياة جيدة بدوني. أريد أن أصبح معلّمة، وأتزوج وأنجب اثني عشر طفلاً، وعندما يكبرون، أريد أن يكون أحدهم جزاراً والآخر خبازاً ونجاراً وحداداً وحلاقاً وإسكافياً وخياطاً ومعلماً وشرطياً، وبائع أزهار وطبيباً وصيدلياً، لأطمئن أنهم سيعتنون بي حتى آخر يوم في حياتي».

بالطبع أصبحت سارة معلّمة، وواحدة من أفضل المعلّمات في البلد، وبعد علاقة غرامية لاهبة، تزوجت سائق حافلة أحبّها حتى آخر يوم في حياته. وبالإضافة إلى مسيرتها المهنية، ربّت اثني عشر طفلاً أصبحوا حرفيين ومعلمين وتجاراً بارعين، وأصبحت إحدى

بناتها طبيبة، وأخرى محامية، لكن لم يصبح أحد من أبنائها الاثني عشر جزاراً.

اكتشف سلمان في ذلك الوقت أيضاً أنه في اليوم الذي أنقذ فيه الكلب معلّمه كرم من الغرق في النهر، كان قد ضُرب بسبب فتى لا بسبب امرأة. فعندما ذهب للقاء ذلك الفتى، وجد شقيقَي الفتى بانتظاره وحاولا أن يقتلاه.

كان درويش على علاقة طويلة مع معلّمه منذ فترة، لكن كرم قطع تلك العلاقة بعد هيامه ببدري، ومع أنه تركه يعمل في المقهى، ظلّ درويش يحبّ كرم ويتألم من فراقهما. كان قد تزوج، ومع أنه لم يكن يحبّ زوجته، أنجب منها سبعة أطفال.

في ذلك الوقت، بدأ ينتاب سلمان شعور بالتعاطف تجاه بدري، الرجل ذي العضلات، وبدأ يشفق أحياناً على المرأة التي في داخله والتي كان عليها أن تحمل كل تلك العضلات.

لم يكن باستطاعة بدري أن يحمل سلمان بيد واحدة فحسب، وإنما باستطاعته أن يحمله بأسنانه أيضاً. فقد كان سلمان يستلقي على الأرض ويتصلّب، ثم يمسك بدري حزام سلمان بين أسنانه ويرفعه. كانت رقبته تنتفخ عندما يفعل ذلك حتى تصبح هرماً قوياً من العضلات، وتبرز عروق رقبته حتى يصبح سمك الواحد منها إصبعاً.

كان بدري يتردد كثيراً على المقهى، وكان كرم يتصرّف معه مثل أي زبون آخر كأنه يعرفه معرفة سطحية فقط، تُقدّم له المشروبات التي يطلبها، يمازحه، لكنه يُبقي دائماً مسافة بينهما، أما إذا أمعن المرء النظر، فيمكنه أن يرى أن الشخصين يحبّ أحدهما الآخر. كان درويش يرى ذلك بوضوح، لكن ما لفت انتباهه هو أن الرجل لم يأتِ إلى المقهى كلّ يوم، وكان يدفع ثمن المشروبات التي يطلبها دائماً. واعتراه الشكّ في أن كرم مغرم بأجير الحلواني الذي يرتاد

المقهى كلّ يوم ليتناول بعض الوجبات الشهية بالإضافة إلى أطباق حلوى صغيرة يقدمها له كرم مجاناً. وفي أحيان كثيرة، كان كرم يحكي للأجير البدين نكات بذيئة، وكان يستمرئ هذه اللعبة معه التي لم تتجاوز المداعبة، والدغدغة، والعناق، والقرص. أما بدري، فكان شخصاً غبياً بعض الشيء ومتديناً متعصباً. مزيج خطير من الجهل واليقين. وما كان هذا الرجل المكسو بالعضلات ليصافح سلمان لولا محبة كرم له، ولم يخجل أن يقول متبجحاً، «لم أسلّم يدي إلى مسيحي غيرك، وإذا صادف أن ضلّ مسيحي طريقه ودخل إلى صالون الحلاقة، فإني أطلب من أجيري أن يحلق له.

بعد ذلك يجب غلي كلّ المقصات وشفرات الحلاقة لإزالة رائحة المسيحي الكريهة منها».

«ثق بي»، قالت سارة لسلمان، «يعيش هذا الرجل في خوف دائم، فإذا عرف المتعصبون ما يفعله فإنهم سيصنعون منه لحماً مفروماً وسيخ كباب».

«إذاً سيحصلون على كمية كبيرة من اللحم المفروم في ذلك اليوم». قال لها سلمان وهو يتخيّل الرجل ذا العضلات يدخل في مفرمة لحم، تحيط به حشود من المتعصبين الملتحين الذين كانوا يطوفون في أحياء دمشق في ذلك الوقت يندِدون بالفجور الذي ساد، حسب ادعائهم، المدينة.

«وأنت تزداد غباء كلّ يوم لأنك تعمل في ذلك المقهى»، قالت له سارة باشمئزاز التي لم تتناول لحماً طوال حياتها.

بعد سنوات، أقرّ سلمان بأن سارة كانت أول شخص يدرك، قبل معلّمه في المقهى بفترة طويلة، أن عمله في المقهى لن ينفعه في شيء مع أنه يكسب منه نقوداً.

قالت سارة ذلك لسلمان في صيف عام ١٩٥٢، لكنه لم يترك العمل في المقهى إلّا في خريف عام ١٩٥٣.

عندما يعود سلمان بذاكرته، يشوب ذكرياته غموض حول السنوات التي عمل فيها في المقهى. ولم تعلق في ذاكرته إلّا الأحداث التي يوجد فيها شخص واحد، وهذا الشخص هو سارة التي لم تتوقف عن تعليمه كلّ يوم تقريباً، وكانت تطلب منه أن يكتب ملخصات عن الروايات التي يقرأها، ثم تعلّق عليها وتنتقدها. وعلّمته الجبر والهندسة وعلم الأحياء والجغرافيا والفيزياء، وقليلاً من اللغة الفرنسية التي تتحدّثها بطلاقة.

حصلت سارة على شهادة الثانوية العامة بتفوق، وبدأت تعلّم الأطفال الصغار بالإضافة إلى دراستها في معهد المعلمات، ثم درّست الرياضيات واللغة الفرنسية في إحدى المدارس الراقية. ومع أن الطلب عليها كان كبيراً لإعطاء دروس خصوصية لأبناء بعض العائلات المسيحية الغنية، فقد قبلت أن تدرّس ابنة القنصل البرازيلي فقط لقاء مبلغ جيد لكل ساعة تدريس، ولم تكن ترغب في أن تعطي تلاميذ آخرين دروساً خصوصية لأنها تريد أن يتاح لها وقت كاف لتقرأ عدداً كبيراً من الكتب ومواصلة تعليم تلميذها المفضّل سلمان.

ثم تزوجت سائق الحافلة، وهو رجل بدين له صلعة، أحبّ سارة أكثر من أي شيء آخر في العالم. وعندما كانت ابنة خالتها ليلى تبدي ملاحظات ساخرة، وتقول إنها تحلم بممثل يقيم في بيت مجاور لبيتهم، وإنها لن تتزوج إلى أن يقتحم الحبّ قلبها ويضرم فيه النار، كانت سارة التي تعرف أشياء كثيرة هي الشخص الذي يقدّم لها محاضرة مجاناً. فقالت لها: «إذاً عليك أن تتزوجي إطفائياً. فالممثلون فرسان يحطّمون قلوب العذارى على الشاشة، لكنهم يضرطون ويشخرون في الحياة الواقعية، وتظهر بثور في مؤخراتهم

وتفوح من أفواههم رائحة كريهة. أظن أن الرجال البدينين جذابون جداً، والأهم من كلّ ذلك، فهم يتمتعون بحس دعابة، ويضحكون أكثر من الرجال النحيفين بنسبة أربعين في المئة. وإذا امتلك رجل بدين قلباً طيباً، فإنه يجعلني أشعر بأنني ملكة».

كان حفل زفاف سارة بهيجاً، وحتى الطقس وقف الى جانبها. فقد ظل شهر شباط جافاً ودافئاً كما لو كان شهر أيار. وبما أن عريس سارة الحمصي يتيم، لم يأبه في أي مكان تقام فيه حفلة عرسه. فقد أراد والد سارة الذي يعرف كيف يقيم حفل زفاف بهيجاً أن تتزوج ابنته في دمشق، حيث شكّل عشرة من رفاقه الشرطة حرس شرف لابنته أمام باب الكنيسة، وسارت سارة إلى داخل الكنيسة بين أولئك الرجال الذين يرتدون أجمل بدلاتهم كأنها أميرة.

احتفل سكان «حوش الرحمة» بالعرس لمدة سبعة أيام كما لو كان جميع سكانها أفراد عائلة سارة. وفوجئ سلمان كثيراً بما فعلته سميرة وابنها عدنان الذي كان متزوجاً ويعيش في حارة اليهود وسائق سيارة أجرة في هذه المناسبة. فقد أوليا سارة اهتماماً كبيراً. فأعدت سميرة الطعام لجميع المدعوين، وجلب عدنان كل الأغراض اللازمة. وساعدت مريم، أمّ سلمان، بقدر استطاعتها، وزيّن الجميع الباحة واشتروا مشروبات للآخرين. وكان شمعون سخياً أيضاً وأهدى الحفل صناديق مليئة بالخضراوات والفواكه.

كان العريس في غاية السعادة. فلم يسبق له أن رأى عرساً بهيجاً مثل هذا العرس الذي استمر سبعة أيام.

ولو لم يختفِ كلب سلمان قبل أسبوع من حفل الزفاف، لأصبح سلمان في غاية السعادة. فقد كان أحد المطاعم القريبة يعطيه بعض العظام واللحم لكلبه، وعندما ذهب مع كيس مليء بالعظام لكلبه، لم

يجد سوى بضع قطرات من الدم وخصلة من شعر «طيّار» الأسود. ما الذي جرى؟ لم يخبر سارة عن اختفاء الكلب كي لا يفسد سعادتها بحفل زفافها.

عندما انتهت الاحتفالات، سافرت سارة مع زوجها إلى حمص، المدينة الجميلة التي تقع على ضفة نهر العاصي. كان ذلك في شهر آذار ١٩٥٥. عانقت سارة سلمان عندما ودّعته وهمست في أذنه، «سنة ١٩٥٥ سنة مليئة بالحظ لي ولك. فقد تزوجت الرجل الذي أحبّه، وستخطو أنت خطوتك الأولى عبر بوابة سعادتك هذه السنة أيضاً».

خنق الحزنُ على أمه المريضة وكلبه الذي فقده صوته، فهزّ رأسه وعانق سارة، وفكّر في الكلب الذي إذا لم يكن قد مات، فلا بد أنه أصبح وحيداً أكثر منه.

بعد عدة سنوات، رأى سلمان الكلب، وعرف في ذلك الخريف أن سارة كانت تعرف كل شيء، حتى عن المستقبل.

10

«ألا تبالغ في ذلك» سأل الصيدلي صديقه، «تجعل زوجاتك الثلاث يقمن في أحياء بعيدة بعضهن عن بعض؟» وتساءل بصوت مسموع لماذا لم يستطع أن يجمعهن في بيت كبير، كل واحدة منهن في غرفة منفصلة، كما فعل جدّه وأبوه؟

فقال الضيف الأنيق، «يجب أن أُبعد زوجاتي بعضهن عن بعض، وإلّا فإن إحداهن ستفقأ عين الأخرى في ساعة واحدة. يا ليتني استطعت أن أفصلهن عن بعضهن بثلاث محيطات، وبنيت كوخاً لي في جزيرة في وسط تلك المحيطات، تقودني بوصلتي إلى إحداهن في كلّ ليلة».

«سأكون سعيداً لو كانت هناك ثلاث صحاري تفصل بيني وبين زوجتي»، أجابه الصيدلي، «لكننا نحن المسيحيين، لا نستطيع أن نتزوج إلّا زوجة واحدة حتى يفرقنا الموت. كان نبيكم يحبّ الحياة ويفهم النساء، أما إلهنا يسوع فقد كان ثورياً، ولم يكن يعرف شيئاً عن النساء».

«هل أنت متأكد؟» أجابه الرجل الذي يرتدي بدلة بيضاء، «ربما يعرف الكثير ولهذا السبب لم يتزوج قط، حتى عندما كانت النسوة يلقين بأنفسهن عند قدميه».

أخذا يحتسيان القهوة التي قدّمتها لهما مساعدة الصيدلاني

المكتنزة التي ترتدي معطفاً أبيض. في الجزء الخلفي من الصيدلية يوجد مختبر فيه ركن صغير للطهي وثلاجة مليئة بمكعبات الثلج، يحتفظ فيها الصيدلي دائماً بقنينة من أفضل أنواع العرق. نهض واقفاً، وقال: «قطرة من أجل التهاب العين، أليس كذلك؟ لمن؟»

«لا أعرف»، قال نصري قباني، متفاجئاً.

«يجب أن أعرف إذا كانت ستُعطى لطفل أم لشخص بالغ»، قال الصيدلاني، مودّعاً صديقه بمصافحة خفيفة.

«سأسأل زوجتي. هل عندك هاتف؟»

«كيف يمكن أن يكون لدى صيدلي فقير هاتف؟ كما تعرف اسمي إلياس أشقر وليس نصري بك قباني».

«حسناً، سأعرف اليوم وسأبلغك غداً»، أجاب الرجل الأنيق وغادر الصيدلية.

هذا ما يأتي من الثرثرة، قال لنفسه وهو في طريقه إلى خارج الصيدلية. لمياء تثرثر كثيراً، وفي النهاية لا يعرف أحد ماذا تريد.

كم كان يتمنى لو تزوج أبوه لمياء بدلاً من أن يجبره على الزواج منها. كان نصري في ذلك الحين شاباً غراً لا يمتلك أي خبرة. ظن أبوه أن فكرته جيدة لكبح شهوة ابنه للنساء، كما أسرّ له والده بعد سنين. بدت لمياء آنذاك الفتاة المناسبة، فهي ابنة قاضٍ مشهور تفوح منها رائحة الكتب والحبر أكثر من رائحة الشهوانية.

ثم اكتشف أنها امرأة عنيدة تتشبث برأيها إلى درجة كبيرة، وتعلّق على كلّ كلمة يقولها، ولم تكن توافقه على أي شيء إلّا نادراً. هناك دائماً أحمق يوناني أو صيني أو عربي عاش منذ قرون عديدة وأثبت عكس ما يقوله، وإذا لم تجد لمياء أحداً تستشهد به، فإنها تستشهد بأبيها لتثبت صحة آرائها.

لم يشعر بالراحة مع لمياء كما يشعر مع زوجاته الأخريات، لأن

البيت الكبير مع الحديقة الرائعة بالقرب من المستشفى الإيطالي أهداه لها أبوها بمناسبة زفافها. وببرود لا يعرف الخجل، كانت تردد دائماً، «بيتي» ولم تذكر قط كلمة «بيتنا».

لمياء امرأة مُفسدة للبهجة، وكان كلما لمسها، تثاءبت. «لا يكسو جسدك جلد، وإنما هو مليء بمفاتيح الإضاءة»، قال لها غاضباً ذات يوم وهما في الفراش «فما إن ألمسك حتى ينطفئ الضوء في جسدك وروحك». فأجابته وهي تتثاءب بملل: «هذه استعارة مصطنعة تخلو من أي فطنة وروح شعرية». كانت لمياء نحيفة جداً، صدرها مسطّح، مغرمة بالقراءة، بينما لم تكن لدى نصري أي علاقة بالكتب، وكانت الصحيفة كفيلة بأن تثبت له أن العالم يجعله يشعر بالقرف.

«ابن لديه قسماتك الجميلة وعقلها الذكي سيكون هبة من السماء للعشيرة. يمكنك أن تسميه باسمي»، قال له والده في ليلة الزفاف قاصداً الخير، لكنه موجهاً إهانة لابنه كأن أحداً لا يمتلك عقلاً إلّا لمياء.

لكن الأمور لم تسر كما قال له والده، فقد أنجبا ست بنات جميعهن صورة طبق الأصل عن أمّهن البشعة. واعتبر نصري زواجه هذا أسوأ خطأ ارتكبه والده في حقه. كان نصري ينام وهذه الفكرة راسخة في رأسه كلّ ثالث ليلة في منزل لمياء بعد أن يؤدي واجبه الزوجي معها. وكان يشعر بالسعادة دائماً في أشهر حملها الأخيرة، لأنها لم تكن تدعه يلمسها، وكان يجد أن الامتثال لأمرها شيء في غاية السهولة واللذة.

بعد أن يتناول فطوراً خفيفاً، يتوجه نصري قباني عادة إلى المقهى حيث يحتسي فنجان قهوة حلوة ويقرأ الصحيفة، ثم يتوجه إلى

السوق ويطلب من أصحاب المحلات بعض المواد ويعطيهم عنوان بيت إحدى زوجاته الثلاث، الزوجة التي يكون دورها هذه الليلة. وكان بائعو الخضراوات وبائعو السمك والتوابل والحلوانيون والخبازون والجزارون يرسلون أفضل ما لديهم من بضائع لأن السيد قباني معروف بكرمه، لا يساوم أو يتذوق شيئاً، وإنما يدفع ما يطلبونه منه مهما كان المبلغ بلا تردد ولا ينسى أن ينفح الصبية الذين سيوصلون تلك الأغراض إلى البيت بقشيشاً سخياً.

دأب نصري قباني على ارتداء بدلات أوروبية أنيقة، وبما أن الطقس حار في دمشق في معظم الأحيان، كانت لديه بدلات فاتحة اللون من الكتان الناعم والحرير الدمشقي أكثر من البدلات المفصّلة من الصوف الإنكليزي الغامقة، ويرتدي قمصاناً حريرية، وينتعل أحذية إيطالية، ويضع زهرة قرنفل طازجة أو وردة في عروة زره، وكانت ربطات عنقه الموشاة برسومات وأشكال شرقية تضفي عليه مسحة شرقية، وتوجد لديه مجموعة كبيرة من العكازات ذات المقابض الفضية أو الذهبية.

وكان الآخرون يخاطبونه دائماً بعبارة «نصري بك». علماً أن لقب بك وباشا التبجيليين من العهد العثماني لم تعد لهما قيمة حقيقية في دمشق وأصبحا من مخلفات الماضي، لكنهما لا يزالان يمنحان حاملهما هالة من النسب النبيل، لأن السلطان العثماني لم يمنح هذا التميز غير المرئي لكن المسموع إلّا للنبلاء والمقربين منه.

كان نصري قباني رجلاً مغروراً معتداً بنفسه، وعلى الرغم من الصداقة التي يشعر بها القاصي والداني تجاهه، لم يكن يكلّم أحداً إلّا الصيدلي إلياس أشقر الذي تفوق معرفته بالطب معرفة أي طبيب. تقع صيدلية أشقر الحديثة في حيّ الصالحية الجديد في دمشق بالقرب من مكتب نصري، غير بعيدة عن بيت زوجته الثانية سعيدة بجانب دار

الأزياء الشهير «ألبرت أبي راشد» في شارع الملك فؤاد المزدحم الذي أصبح اسمه لاحقاً شارع بورسعيد بعد حرب السويس عام ١٩٥٦ لتكريم المقاومة الشجاعة التي أبداها أهالي مدينة بورسعيد في مصر في مقاومة العدوان الثلاثي: الإنكليزي والفرنسي والإسرائيلي. وكان نصري قباني يرى أن تغيير اسم الشارع شيء سخيف، وظلّ متمسكاً باسمه القديم، شارع الملك فؤاد، حتى آخر يوم في حياته.

دأب نصري قباني على زيارة الصيدلي إلياس صباح كلّ يوم تقريباً، وسرعان ما انتشرت شائعات بأنه يشتري من الصيدلية جرعات سرية للحفاظ على شهوته وفحولته اللامحدودة للنساء.

عند حوالي الساعة العاشرة صباحاً - وأحياناً بعد ذلك بقليل، لكن ليس قبل ذلك - يصل نصري قباني إلى مكتبه الكبير الكائن في الطابق الأول من المبنى الحديث الفخم الذي يمتلكه وقد أُجِّر الطابق الأرضي منه لمحل كبير لبيع الأدوات الكهربائية وشركة الخطوط الجوية الفرنسية، وفي الطابق الثاني، يوجد المكتب المركزي لتجارة السجاد العجمي في سوريا. كانت هذه الشركات تدفع إيجارات عالية لأن شارع الملك فؤاد يشكل الشريان الرئيسي للمدينة الحديثة الذي توجد فيه أيضاً أفخم الفنادق والمطاعم والمكتبات ووكالات الأنباء وشركات الاستيراد والتصدير ودور السينما ومحلات الأزياء الغالية الثمن التي تعرض ألبسة راقية تستوردها من باريس. ويتألف مكتب نصري من غرفتين، بالإضافة إلى مطبخ وحمّام حديث ومستودع للأرشيف والتجهيزات، إحدى هاتين الغرفتين رحبة ومضاءة، فيها نافذة تطلّ على الشارع مؤثثة كأنها غرفة جلوس، وتملأ الغرفة أريكتان من الخشب الداكن منجدتان بمخمل أحمر، وطاولة قهوة واطئة وعدة كراسي كبيرة وثيرة، وفيها ركن صغير يتسع لطاولة خفيفة وضعت عليها مذكرة مكتب وهاتف.

وإذا مشى المرء في دهليز ضيق، يصل إلى الغرفة الثانية الكبيرة أيضاً التي لا توجد فيها نوافذ، وإنما طاولات مكتب ورفوف مليئة بالملفات فقط حيث يجلس توفيق الذي يعمل لدى نصري منذ سنوات عديدة، بالإضافة إلى موظفَّيْن مسنَّيْن آخرَين، وثلاثة مساعدين شباب.

لم يكن توفيق يكبر نصري في السن، لكن قامته النحيلة وكتفيه المحنيين وشعره الذي شاب باكراً، جعله يبدو كأنه ينتمي إلى جيل مختلف، وتبدي الهالات الداكنة تحت عينيه معالم إرهاق. كان نصري قد ورث توفيق من أبيه الذي يقال إنه قال له وهو على فراش الموت: «لدى شقيقيك عقل جيد وأنت لديك توفيق. انتبه له، لأنه إذا ذهب فإنك ستذهب أنت أيضاً إلى الحضيض».

كانت لدى قباني العجوز الذي يُضرب بثروته المثل، نظرة ثاقبة لمعرفة خصائص الرجل. كان يعمل في الصناعة والعقارات ومن كبار أصحاب الأراضي. ويقال إن حبة من حبتي مشمش يأكلها الدمشقي تأتي من حقوله، وأن جميع المنتجات في العاصمة المأخوذة من المشمش تُصنّع في مصانعه، وكان كذلك أكبر تاجر لبّ المشمش الذي يشتد عليه الطلب لصنع الزيوت والمواد العطرية.

بدأ توفيق العمل أجيراً في أحد مستودعات السيد قباني عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. كان توفيق حينذاك صغيراً نصف جائع، وكان عمال المستودعات الذين يقومون بملء أكياس الخيش بلبّ المشمش وخياطتها، يزعجونه، لكن السيد قباني المحنك أدرك أن توفيق ليس عبقرياً في الرياضيات فحسب، وإنما فتى فطن وشجاع. وقد أثبت توفيق ذلك عندما عارض السيد قباني ذات مرة، وهو شيء لا يجرؤ أحد على فعله.

عندما غضب السيد قباني العجوز، كان قد غضب من نفسه في

حقيقة الأمر، لأنه لولا اعتراض ذلك الفتى الشاحب لدمّر نفسه نتيجة حسابات غبية. عندما هدأ، ذهب إلى المستودع ليعطي الصبي ليرة مكافأة على ما فعله. لكنه لم يجده. عندما سأل عنه، قيل له إن مصطفى، رئيس عمال المستودع، ضرب الصبي ضرباً مبرحاً بالعصا لأنه تواقح وصحّح ما قاله ربّ العمل. ومع أن الآخرين لاحظوا الخطأ، لم يفتح أحد منهم فمه بدافع الاحترام والخوف. وعندما وجدوا توفيق أخيراً، أخذوه إلى ربّ العمل، السيد قباني العجوز الذي قال له: «من الآن فصاعداً سنعمل معاً يا بني. وعلى الجميع هنا أن يحترموك، لأنك أصبحت سكرتيري الأول الآن»، والتفت إلى الآخرين، وقال لهم: «وكلّ من يجرؤ على أن ينظر إليه نظرة غير محترمة، يعتبر نفسه مطروداً من العمل على الفور».

بعد بضعة أشهر، أتقن توفيق كلّ أنواع العمليات الحسابية، بما في ذلك حساب النسب المئوية ورسم الجداول، وتعلّم جميع الحيل الذكية المستخدمة في تقديم طلبات للإعفاء من رسوم الجمارك، وهو فن لم يتمكن قباني العجوز أن يعلّمه لمحاسبيه الاثنين خاملي الذهن طوال عشر سنوات.

منذ ذلك الحين، أصبح توفيق يُعامل كأنه واحد من أفراد عائلة قباني. وعندما بلغ الثامنة عشرة، رتب له السيد قباني زيجة جيدة من أرملة شابة ميسورة الحال من قرية جرمانا في جنوب دمشق. كانت زوجة صالحة، ومنذ ذلك اليوم، عاش توفيق حياة سعيدة. كان السيد قباني العجوز بمثابة نعمة أرسلها اللّه له. ومع مرور الوقت، أصبح غنياً، وأنجبت له زوجته ثلاثة أطفال، لكنه ظلّ متواضعاً كما كان دائماً، يكلّم جميع الناس بهدوء واحترام، حتى مع الصبية الذين يقومون بإيصال الطلبات. وبدافع الامتنان لربّ عمله، ظلّ وفيّاً لابن قباني المدلل الذي كان يهتم بملابس النساء الداخلية أكثر مما يهتم

بأسعار الفائدة وأسعار العقارات والذي سرعان ما أصبح الحاكم الوحيد لإمبراطورية مالية صغيرة. ومع مرور السنين، أصبح مغرماً أيضاً بنصري الذي كان يثق به ثقة عمياء ولم يتهمه قط بارتكاب أي خطأ وان حصل لم يؤنبه. وبخلاف شقيقيه البخيلين، كان نصري كريماً. صحيح أنه لم يعرف أشياء كثيرة عن الأعمال والصفقات التجارية، لكنه كان ضليعاً بأمور الحياة، ومثل والده لم يكن يحترم الرجال الأقوياء الذين كان يستمتع بأن يلفّهم حول إصبعه الصغير.

وكان يقول لنفسه وللآخرين: «لقد خلق اللّه كلّ شخص ويسّر له رزقه. فلا يمكنك أن تتوقع أن يكون بطل الملاكمة بارعاً في رقص الباليه».

ظل توفيق يطلب موافقة نصري قباني قبل أن يعقد أي صفقة تجارية. وكان قباني يوافق دائماً على ما يقوله، لأنه لم يفقه طوال حياته شيئاً في تجارة المشمش والمنتجات الكثيرة التي تستمد منه، ولم يبدِ أي اهتمام ببيع قطع أراض وشراء أخرى لأن إشاعات انتشرت تقول إن أغلى حيّ في دمشق سيُبنى قريباً في المكان الذي تُزرع فيه حالياً أشجار الرمان وشجيرات الدفلى وقصب السكر، أو لأن إحدى السفارات ستترك مقر إقامتها الفخم في المدينة القديمة وتنتقل إلى ذلك المكان.

«افعل ما تراه مناسباً»، دأب نصري قباني على القول بفتور، وخلال عامين، تضاعفت قيمة الأرض خمس مرات.

عندما فكّر نصري قباني بأن يبيع قطعة أرض لأن الأرباح التي سيجنيها كبيرة إذ إن ثمنها بلغ خمسة أضعاف ثمن شرائها، رفض توفيق الفكرة وقال له: «هذه لحظتنا المناسبة لشراء مساحات شاسعة من الأراضي. خلال خمس سنوات ستحصل على خمسمئة ضعف هذا المبلغ».

«إذا كان هذا رأيك فافعل ما تراه»، قال له نصري من دون اقتناع. وبعد خمس سنوات، أصبحت الأراضي في حيّ أبو رمانة الجديد الأغلى في المدينة، وكما قال توفيق فقد حققوا أرباحاً بنسبة ستمئة وخمسين في المئة.

عندما يصل نصري إلى المكتب صباح كلّ يوم، يسأل توفيق بنبرة ودية، «ما هي الأخبار؟» فيجيبه توفيق: «سآتي لأراك حالاً يا نصري بك». ثم يرسل صبياً ليُحضر فنجانيْ قهوة من المقهى القريب، فنجاناً شديد الحلاوة لمعلّمه، وفنجاناً من دون سكّر لكن مشبّع بالهيل له.

بينما يتناولان قهوتهما، يقدّم توفيق وصفاً موجزاً ودقيقاً لنصري عن جميع التطورات في العمل مدركاً أن معلّمه شخص يعتريه الملل بسرعة، وخلال سبع دقائق فقط، يعرض عليه توفيق كلّ المعاملات والصفقات المالية، بما فيها الصادرات والإيجارات والإصلاحات المتعلقة بالمباني العديدة التي يمتلكها، وجميع الأراضي الجديدة التي اشتروها.

«إذاً، هذا جيد»، يقول قباني شارد الذهن، حتى لو كان هناك رقم سلبي في هذا الحساب لمرة واحدة.

ثم يمضي ساعة في التحدّث على الهاتف مع أصدقائه، ولا يكاد يمرّ أسبوع لا يرتّب فيه موعداً لتناول طعام الغداء مع أحد رجال دمشق من ذوي النفوذ في المطعم الأثير لديه «الملك» الذي يقع بالقرب من مبنى البرلمان.

«يمكنني أن أمهّد الطريق من أجلنا على الغداء»، يقول لمدير أعماله، ولم يبالغ في قوله هذا. فقد كان نصري يتمتع بسحر معين، يعرف العالم فضلاً عن امتلاكه لآخر الإشاعات. وكان ذلك يثير إعجاب ضيوفه به. بالطبع، لم يكن يدعهم يدفعون الحساب قط،

وإنما كان يريد أن يستمتعوا فقط. كان كبير الطهاة في ذلك المطعم من مدينة حلب، وإذا كان بإمكان أي مطبخ أن يتباهى بالروائح وخلطات البهارات اللذيذة التي تتفوق حتى على مطبخ دمشق وبيروت، فهو المطبخ الحلبي، أكبر مدينة في شمال سوريا.

وإذا لم يدعُه أحد إلى الغداء، كان يذهب ويتناول الطعام وحده. في تلك الأثناء فقط، يجرؤ صاحب المطعم على أن يتبادل مع زبونه المميّز بضع كلمات فقط. ولم يكن نصري قباني يرغب أن يتناول الغداء مع أيّ من زوجاته وأطفالهن، وإنما كان يشاركهن الطعام في المساء.

بعد الغداء، يذهب نصري عادة لزيارة عاهرته المفضّلة أسمهان التي تقيم في منزل صغير لا يبعد أكثر من مئة خطوة عن المطعم. تشعر أسمهان بالسعادة لأن نصري يزورها دائماً في منتصف النهار عندما لا يأتي أحد من زبائنها المميزين لزيارتها. دأب نصري على ممازحتها، وكانت تستمتع بروحه المرحة، فتضحك حتى تسيل الدموع من عينيها، ثم يضاجعها، ويأخذ قيلولة عندها لمدة نصف ساعة، ثم يضاجعها مرة أخرى، ويستحمّ، ويدفع لها مبلغاً من المال ويغادر. عندما يخرج، يظن أحياناً أن العاهرة الشابة تركته يفعل ما يشاء وتصرفت نحوه بصورة آلية تماماً، وكان يأمل بأن تبدي له مزيداً من الحماسة والشغف. لكنه اكتشف بالصدفة بعد عدة سنوات، ما الذي يلهب نار الشوق في قلب أسمهان. لكن على الرغم من ذلك، فلديها كلّ الأشياء التي يحبّها: وجه جميل بعينين زرقاوين وشعر أشقر وجسد فاتن ربما قُدَّ من مرمر، ولسان لا يصدر منه إلّا كلام معسول.

t.me/soramnqraa

وهذا ما لا تقدّمه له أي من زوجاته الثلاث.

مكتبة

11

في يوم ماطر من أيام كانون الثاني من عام ١٩٥٢، دخل نصري قباني إلى محترف الخطاط حميد فارسي. ودُهش عندما رأى المكان مرتباً ونظيفاً إلى درجة كبيرة. لم يزر نصري محترف خطاط من قبل، وخيّل إليه أنه سيرى رجلاً طاعناً في السن ذا لحية طويلة أصابعه ملطخة بالحبر، لكنه رأى شاباً نحيفاً في ثياب أنيقة، يجلس خلف طاولة صغيرة من خشب الجوز. ابتسم له نصري وقال «طاب يومك» ونفض قطرات الماء التي علقت في مظلته ووضعها في زاوية بجانب واجهة المحترف.

فجأة، خطر له أنه كان عليه أن يأتي إلى هذا المحترف وهو أكثر استعداداً، لأنه لم يزر خطّاطاً من قبل ولم يشتر لوحة خطّ قط. نظر حوله. رأى لوحات خط جميلة تملأ المكان: أشعار، أقوال مأثورة، آيات قرآنية، لكنه لم ير الشيء الذي يبحث عنه.

«هل تقبل طلبات لتنفيذ أشياء خاصة؟» سأله نصري.

فأجابه الخطاط بصوت خافت: «طبعاً يا سيدي».

فقال: «وبسرّية تامة؟ يتعلق الأمر بهدية لشخص مميّز».

فأجابه الخطاط، «نعم، أي شيء يمكن كتابته بخطّ جميل، طالما أن العبارة لا تسيء إلى اللّه ورسوله». عندها عرف أن بإمكانه أن يطلب أي مبلغ من هذا الرجل الغني الذي تفوح منه رائحة عطرة.

«إنها عبارة هدية لرئيس دولتنا»، قال نصري وهو يُخرج من جيبه قصاصة كان قد كتب عليها توفيق، «إلى فخامة الرئيس أديب شيشكلي. قُد أمتنا إلى النصر، وفقك اللّه».

قرأ الخطاط هذه العبارة. بدا أنها لم تعجبه. هزّ رأسه. لم يرتح نصري لتردد الرجل فأردف قائلاً: «هذا فقط اقتراح للمحتوى. يمكنك كخبير أن تصدر حكمك وتعرف كيف وماذا تكتب لرجل عظيم كهذا».

تنفّس حميد فارسي الصعداء، وأدرك أن هذا الرجل الغني يفكّر بطريقة حديثة وعظيمة، فقال له على الفور، «سأضع أسماء اللّه ورسوله كنجمتين باللون الذهبي في الأعلى، وأكتب تحتها اسم رئيسنا باللون الأحمر، وسأكتب تحته بلون أخضر براق: لقد اختارك اللّه ورسوله لتقود أمتنا». صمت الخطاط برهة، وأضاف، «سمعت أنه شخص متدين جداً، لذلك فإن كتابتها بهذه الطريقة تتوافق مع أفكاره، ولن تكون بمثابة أمر. إنك تعبّر بفطنة عن رأي، عن أمنية، بأن اللّه اختاره كي يحكمنا. جميع الحكّام يحبّون ذلك».

«افترض أن اللّه لم يختره لقيادة ذلك الانقلاب؟» سأله نصري مازحاً ليبدد الشعور بالتوتر الذي انتابه.

«إذاً هناك يد لوكالة الاستخبارات الأمريكية أو البريطانية أو الروسية في ذلك، لكن ليس بإمكاننا أن نكتب ذلك، أليس كذلك؟» قال الخطاط بشجاعة. ضحك نصري بصوت عالٍ، لكنه أحسّ بالوحدة.

أراه حميد فارسي الورق الناعم وإطار الصورة المذهَّب الذي سيختاره لهذه اللوحة. بدا نصري متحمساً.

وافق الخطاط على أن يتفرّغ لهذه اللوحة وأن ينهيها خلال أسبوع. عندما طلب مبلغاً كبيراً، ابتسم نصري وقال: «لن أسألك

عن المبلغ، وستبذل كل ما بوسعك من أجلي. اتفقنا؟» قال له ومدّ يده ليصافحه لأنه لا يتوقع أن يرفض أحد عروضه السخية.

فقال حميد بهدوء: «اتفقنا». فوجئ نصري عندما رأى أن الخطاط لم يبتسم، لا بل لم يشكره لأنه كلّفه بهذا العمل. يا له من شخص غريب. مساعده توفيق هو الذي أشار عليه أن يقدّم هذه الهدية للرئيس لتخليص عدد كبير من الآلات التي استوردها من الجمارك بدون رسوم، الأمر الذي سيزيد أرباحها بنسبة ثلاثمئة في المئة.

قال له توفيق: «لا يمكن عمل شيء بدون الرئيس منذ قام بالانقلاب» وأضاف، «ويحبّ الرئيس لوحات الخطّ الجميل، وهو يشرب كثيراً كلّ يوم، ويشاهد أفلام هتلر لساعات طويلة، ويظهر للملأ وكأنه تقي وهذا يبهر المتدينين». أُعجب نصري بدهاء توفيق الذي يعرف أشياء كثيرة كما لو كان لديه جهاز استخبارات خاص به.

قال له توفيق إن حميد فارسي أفضل خطاط في دمشق كلها، وهو يعرف أنه يطلب مبالغ مرتفعة، وأنه شخص صعب المراس، متعجرف، لكن خطّه الجميل في حد ذاته عمل فني فريد من نوعه، ويمكن الاعتماد عليه. وقال لنصري إنه يجب أن يقدّم الهدية للرئيس في الوقت المناسب، لأن السفينة التي توجد على متنها الآلات ستصل إلى ميناء اللاذقية بعد أسبوعين، وأنه يجب الحصول على موافقة الرئيس خلال هذه الفترة. «مكالمة هاتفية واحدة منه، ستجعل وزير التجارة يجري أمامي ويُسكت ضباط الجمارك الحمقى وتنقل شاحناتنا الآلات إلى خارج منطقة جمارك الميناء».

كان توفيق شيطاناً، لكن أكثر شيء شيطاني فيه وجهه الملائكي البريء.

نظر نصري من النافذة. عندما توقف المطر، تذكّر فجأة الطلب الإضافي الذي يجب أن يرافق الهدية.

عندما وصل إلى الباب، قال: «وهناك شيء آخر، هل يمكنك أن تكتب لي أيضاً رسالة بخطك الجميل؟ باسمي أنا؟ فليس من المناسب أن أكتبها بخطي الرديء كخرابيش الدجاج...».

«طبعاً يمكنني أن أفعل ذلك، لكنني أريد اسمك وعنوانك بالكامل لأضع ترويسة أنيقة على الرسالة لكيلا يخفيها أي سكرتير أو موظف استقبال عن الرئيس»، قال حميد ودفع ورقة فارغة نحو نصري. عندما كتب نصري اسمه وعنوانه، عرف حميد فارسي أن هذا الرجل الأنيق صادق فيما يقوله عن خطه.

بدأت الشمس تشرق في الخارج، وتنفس نصري الصعداء. كان الخطاط فناناً بارعاً وذكياً، لكن رائحة فمه لا تطاق، ذكّرت نصري برائحة الحيوانات المفترسة في سيرك ذهب إليه عندما كان طفلاً في أحد الأيام مع أبيه. وبما أن مدير السيرك كان يحترم والده كثيراً سمح لنصري أن يقترب من أقفاص الحيوانات برفقة أحد الحراس. فاحت من تلك الأقفاص رائحة البول، وكان ذلك شيئاً سيئاً، لكن عندما سمع زئير نمر أو أسد أو عواء ضبع عن قرب، كادت رائحة أنفاسها تخنق نصري.

بعد أسبوع، فاجأه توفيق في الصباح الباكر وأعطاه لوحة الخطّ التي أحضرها بنفسه من محترف حميد فارسي ودفع له ثمنها. كانت أجمل مما تصوّر نصري أن تكون: إطار مزخرف رائع يحيط بالعبارة المكتوبة منحه مظهراً يكاد يكون مقدساً.

«أظن أنه لم يعد هناك شيء يعترض طريقنا الآن»، قال توفيق، ورأى نصري في عينه بريقاً شيطانياً.

بعد أسبوع، تلقّى نصري دعوة شخصية لتناول طعام العشاء مع

رئيس الجمهورية. أوصله سائق الرئيس إلى القصر الجمهوري. استمتع الرئيس بالأمسية كثيراً إلى درجة أنه بدأ يتناول العشاء مرة في الأسبوع مع نصري برفقة حفنة من رجال الأعمال المختارين بعناية في المدينة.

تكاد تكون الصداقات في تلك الأوساط مستحيلة، لكن بذكائه وشجاعته أصبح نصري مقرّباً من رئيس الدولة، واكتشف أن وراء البدلة العسكرية يكمن رجل متشنج وحيد لم يعش يوماً سعيداً واحداً في حياته منذ طفولته، لكنه أمضى معظم وقته في حياكة المؤامرات وصدّ المؤامرات.

رأى نصري النفاق في وجوه رجال الأعمال الآخرين الذين كانوا يشاهدون نفس الفيلم مع الدكتاتور كلّ أسبوع ويمدحونه، ثم يسخرون منه في جلساتهم الخاصة. كان الرئيس شيشكلي يحبّ هتلر إلى درجة العبادة، وكان يريد أن يقلّده في تصرفاته. وكان معجباً كثيراً بفيلم ليني ريفنشتال «*انتصار الإرادة*» الذي كان يدأب على مشاهدته مرة كلّ أسبوع في السينما الخاصة في القصر الرئاسي.

لم يطق نصري الألمان ولا الحرب، واخترع دائماً ذريعة ليغادر القصر. كان شيشكلي، ابن الفلاح، يحترم نصري ويرى أنه رجل مثقف ذو روح متحررة ينصت بعناية ويعبّر عن رأيه بدماثة شديدة. وصلت شحنة الآلات بعد ثلاثة أسابيع، ثلاث شاحنات مليئة بالآلات، معفاة من الرسوم الجمركية. كانت الشحنة تتضمن آلات لعجن العجين وآلة ثانية لتقسيمه إلى أجزاء للمخابز، بالإضافة إلى مثاقب ومخارط لورشات المعادن وإصلاح السيارات، وهي أولى الواردات القادمة من هنغاريا. ولمنح شركة القباني ساقاً وقدماً ثانية لتقف مستقبلاً بثبات، أوضح توفيق بأنه حصل على الوكالة الوحيدة لمنتجات تلك الشركة في سوريا.

«هل قلت قدماً ثانية؟ لديّ انطباع بأنك جعلت شركتنا دودة أم أربع وأربعين»، أجاب نصري، وضحك الرجلان.

عندما ذهب نصري لزيارة العاهرة أسمهان في ذلك اليوم، أخذ معه عطراً غالي الثمن. عندما دخل غرفة الجلوس، وجدها منهمكة في قصّ عبارة مكتوبة بخطّ جميل من مجلة على طاولتها. شكرته أسمهان على العطر، وواصلت قصّ العبارة، ووضعتها داخل إطار بعناية، وقالت له إنها تحبّ فنّ الخطّ الذي يعتبر تصويراً للكلمات، وقالت إنها تعشق الكلمات أكثر من أي رجل في العالم.

في تلك اللحظة، لاحظ نصري لأول مرة أن لوحات مؤطرة مكتوب عليها حكم مأثورة بخطوط جميلة تملأ الجدران في غرفة نومها، وغرفة الجلوس، والمطبخ، والحمّام. خجل من نفسه لأنه كان مصاباً بالعمى ولم يرها من قبل، أما الآن فقد عرف كيف يمكنه أن يدخل البهجة إلى نفس أسمهان.

عندما ذهبت لتتجمّل وتتزين له، كتب العبارة التي كانت تقصّها من المجلة التي تقول: «*حكمة الحبّ تكمن في جنونه*».

في ذلك اليوم كرر لنفسه أنه كان عليه أن يتزوج هذه العاهرة، ولتذهب عشيرته وسمعته إلى الجحيم. فهي امرأة ذكية مثل زوجته لمياء، خفيفة الظلّ وتضحك بمرح مثل زوجته نسيمة، وجسدها الفاتن يشبه جسم زوجته سعيدة، لكنها بعكس جميع زوجاته، فإنها تُشعره بالامتنان. صحيح أنها تطلب نقوداً لقاء ما تقدمه له من مهارات في الفراش، فإن زوجاته يفرضن عليه ضعف ما يدفعه لها، لكن بسبل أخرى، ولم تشعر واحدة منهن بالامتنان له عندما يأخذ لها هدية، بينما تظل أسمهان تشكره أحياناً أياماً عديدة عندما يقدم لها

قنينة عطر أو مجلة أزياء فرنسية غالية الثمن يشتريها من مكتبة ليبرير يونيفيرسيل.

بينما كان غارقاً في هذه الأفكار، أيقظه فجأة صوت داخلي كما يحدث له دائماً. بدا أنه صوت والده. «هل تظن حقاً أنك ستشبعها أيها الأحمق؟ امرأة كهذه لا يشبعها إلّا سبعة رجال، وماذا ستفعل بما يتبقى من شبقها وأنت مستلق بجانبها منهكاً وتشخر؟ سرعان ما ستجد رجلاً ثانياً ثم ثالثاً ورابعاً. ستركّب لك سبعة أزواج من القرون، ولن تستطيع عندها أن تدخل من الباب».

كان نصري يهزّ رأسه، محبطاً، عندما عادت أسمهان إلى الغرفة في غلالة رقيقة من الحرير، وقد كوّمت شعرها الأشقر في شكل هرم، وزيّنته بأحجار كريمة وريش. كانت أجمل عاهرة في مدينة دمشق، وبما أنها تتقاضى مبلغاً كبيراً لم يكن الرجال يقفون في طوابير أمام باب بيتها. فقد كانت تتقاضى مئة ليرة لقاء كلّ مضاجعة وهذا ما يعادل المبلغ الذي يتقاضاه توفيق أسبوعياً أو العامل في شركة شهرياً.

البرلمانيون والوزراء وكبار ملاك الأراضي وكبار ضباط الجيش ورجال الأعمال الأثرياء هم الوحيدون القادرون على دفع هذا المبلغ لقاء المتعة التي تقدمها لهم.

بعد بضع مداعبات، سألها نصري محبطاً وخجلاً عن عدد الرجال الذين استقبلتهم اليوم.

فقالت وهي ترتدي ملابسها الداخلية: «أنت الثالث».

«ألا يكفي لهذا اليوم؟» سألها راجياً أن تقول له بعد أن نامت معه، «نعم». لكن أسمهان ضحكت ضحكتها الصافية، ولم تجبه.

«هيا أسرع، سيصل رئيس البرلمان بعد قليل. إنه يريد أن ألعب

معه دور التلميذة البريئة وسوف يغويني. إنه أستاذ جامعي، كما تعرف».

«وبعده؟»

«هيا أسرع. سيأتي بعده ثلاثة أو أربعة أشخاص، ربما خمسة، لعل ذلك يتوقف على غيرة زوجاتهم»، قالت وهي تضحك، ودفعته بقوة نحو الباب.

إنها امرأة غريبة الأطوار، عديمة الحياء - كأنها ليست امرأة عربية - لكنها تعرف ما الذي تفعله بدقة. في أحد الأيام، قالت له: «الدعارة مهنة قديمة قدم التلال»، وأضافت، «يبيع البعض قوتهم وعمل أيديهم وأعينهم وظهورهم، وأنا أبيع عمل فرجي. يمكنك أن تنظر إلى الأمر بهذه الطريقة العلمية». لكن نصري لم يحبّ ما سمعه، ثم أضافت، «افترض أن امرأة جميلة وذكية أصبحت ناضجة للزواج، فأي زوج سيختاره لها أبوها من بين مئات المتقدمين لخطبتها؟ لن يختار أكثر شاب حساسية وأذكاهم، أو الشاب الذي يجيد استخدام الكلمات، ناهيك عن أكثرهم شعوراً بالكرامة، وإنما سيختار الأغنى والأقوى. إنها عملية بيع وشراء. تباع النسوة الجميلات واللاتي يتمتعن بصحة جيدة مقابل السلطة والأمان للمرأة وأسرتها. لكني أرى أنك لا تفهم ما أقول».

ارتبك نصري. صحيح أنها تتكلّم باللغة العربية، لكنها ليست اللغة التي اعتاد على سماعها.

انتظر نصري حتى العصر، ثم ذهب إلى محترف الخطاط راجياً أن تكون رائحة فم الرجل الكريهة قد تبخرت، وبالفعل، كانت تنبعث منه اليوم رائحة برتقال وكزبرة.

«هل أحبّ رئيس الجمهورية اللوحة؟» سأله بعد أن ردّ على تحية نصري.

«نعم، كثيراً. كيف يمكن ألّا تعجبه وقد خطّها قلمك؟» أجابه نصري، وهو ينظر إلى نصل السكينة الحادة التي كان الخطاط يشحذ بها رأس القصبة.

«سأُنهي عملي بعد دقيقة، تفضل واجلس»، قال له وأشار إلى كرسي أنيق. دخل أحد مساعديه وطلب منه ورقة ذهب. وقف الخطاط وأخرج من الخزانة دفتراً سميكاً. «بقيت سبعون ورقة - عندما تنهي عملك، دوّن عدد الورقات التي أخذتها والتاريخ الذي أخذتها فيه في القائمة التي ستجدها في آخر الدفتر، واحرص على أن تحافظ على أصغر قطعة متبقية. إنه ذهب، أتفهم؟» قال بصوت خفيض لكن حازم لمساعده، الرجل العجوز الذي وجد هذا التنبيه أمام زبون محرجاً.

فقال: «نعم، إني أنتبه لها جيداً ودائماً كما تعلم».

«أرسل لي يوسف»، أضاف حميد فارسي، «أريد أن يجلب لنا فنجانَي قهوة».

خرج صبي صغير من الورشة وسأل نصري بأدب كيف يحبّ قهوته.

«سكر كثير وهال قليل».

انطلق الفتى الأحول إلى مقهى كرم في نهاية الشارع.

تساءل نصري وهو ينظر إلى الصبي عن ثيابه النظيفة. وقد لاحظ أن جميع من يعملون هنا أكثر أناقة من الذين يعملون في المحترفات الأخرى المجاورة.

فردّ حميد فارسي على إطراء زبونه، «الرثاثة والخطّ الجميل لا يجتمعان».

بعد أن أنهى قهوته، قرّب نصري كرسيه من طاولة المعلّم الخطاط، وهمس، «لديّ طلب غير عادي اليوم. إنه طلب خاص. لامرأة، فهمت»، وأضاف، «بالطبع، ليست إحدى زوجاتي. فمن يكتب رسائل غرامية إلى زوجته؟»

ابتسم الخطاط ببرود.

«لا، إنها عبارة مأثورة عن الحبّ». قال نصري وأخرج من محفظته قصاصة صغيرة ووضعها على الطاولة. قرأ حميد فارسي العبارة وأعجبته.

«ما حجمها؟»

«بحجم كفّ يدي، لكن أرجو أن تكون جميلة جداً»، قال نصري، ثم أضاف، «ربما من الذهب».

«هل تريدها بسرعة؟»

«نعم كالعادة. وهذه المرة، أرجوك، مع رسالة أخرى بخطك الجميل، لكن هذه المرة بدون ترويسة وعنوان. فقد تُريها السيدة لأشخاص آخرين. يكفي أن تختم الرسالة بكتابة اسمي الأول، نصري».

«لكن يجب أن تقول لي ماذا تريد أن أكتب في الرسالة حتى أصيغها بالشكل المناسب».

شعر نصري بالحرج. فقد فكّر في كل شيء قبل أن يأتي، لكنه لم يفكر في الإجابة على سؤال كهذا.

«أوه، أي شيء... إنك تعرف نوع ذلك الشيء. عن الحبّ وما إلى ذلك»، تلعثم نصري، وفجأة بدا لنفسه سخيفاً. شعر الخطاط بالغبطة لأن هذا الرجل الثري الذي أراد أن يُظهر أنه شخص ذو مكانة عظيمة، لكنه لم يستطع صياغة جملتين ليعبّر عن مشاعره.

فقال بنبرة متعالية لشخص يمدّ يده إلى رجل يغرق، «حسناً، إذاً

قل لي ما الذي تحبه تلك السيّدة، وما هي أجمل قسمات فيها، وسأرى ما الذي يمكنني أن أفعله».

لم يشعر نصري بالحرج كما الآن، لكنه بدأ يصف عينَي أسمهان الزرقاوين وجسدها ومفاتنها الجميلة. وذكر أخيراً الملاحظة التي أثّرت عليه كثيراً، وهي أنها تحب الكلمات المكتوبة بخطّ جميل أكثر مما تحبّ الرجال.

دوّن الخطاط كلّ شيء، وقد حسد هذا الرجل الثري على حبّه لامرأة تعشق فنّ الخط.

عندما غادر نصري ورشة الخطاط وأصبح في الشارع، شعر أنه يتصبب عرقاً.

12

حتى بعد عدة سنوات، ظلّت نورا تتذكّر بحنين السنوات الثلاث التي أمضتها في ورشة خياطة داليا، وتعلّمت منها أشياء كثيرة. كانت تردد دائماً أن والدها علّمها القراءة، وعلّمتها أمّها الطبخ، وعلّمتها داليا كيف تعيش.

واستمتعت نورا كذلك بالعمل مع داليا لأنه مكّنها من الابتعاد عن أمّها، وعدم القيام بالأعمال المنزلية كالطبخ والتنظيف، لأن بيدها صنعة الآن، وكانت أمّها تقدّر ذلك كثيراً.

يقع بيت الخيّاطة داليا عند التقاء نهاية الزقاقين، على شكل مثلث، وهو تصميم بيت غير معتاد في المدينة، إذ يبدو مثل مقدمة سفينة بخارية ضخمة لها بابان يقع كلّ باب في زقاق مختلف، لا يوجد في البيت فناء داخلي، وإنما حديقة ضيقة تقع خلف المبنى حيث تحجب النباتات الطويلة البيت عن المباني المجاورة في كلا الزقاقين. وتشكل شجرة كباد عتيقة كثيرة العقد، وشجرة نخيل باسقة، وشجرتا ليمون الأعمدة التي تحيط بغابة، تنمو بينها شجيرات الدفلى والورد وتمتد عالياً. وتشكّل شجرة ياسمين ستارة كثيفة من الأزهار البيضاء والأوراق الخضراء الداكنة تحجبها عن البيوت المجاورة.

وتزيّن الشرفة في الطابق الأرضي المطلّة على الحديقة خلف البيت بركة ماء صغيرة، كُسيت أرضيتها ببلاط أحمر وأبيض مثل رقعة

شطرنج حيث تستريح الخيّاطة ومساعداتها، يشربن فيها الشاي والقهوة طوال عشرة شهور في السنة، وكان بإمكانهن أن يدخّن هنا أيضاً، لكن لم يكن يسمح لهن أن يفعلن ذلك داخل ورشة الخياطة لكي لا تتلوث الثياب والأقمشة برائحة الدخان.

تتكون صالة الخياطة التي تقع في الطابق الأرضي من غرفة استقبال جميلة، وورشتين جيدتي الإضاءة، ومطبخ كبير، ومخزن صغير توضع فيه أدوات ومواد الخياطة. والمرحاض عبارة عن غرفة صغيرة مسقوفة مخبأة وراء شجرة كباد في الحديقة.

كانت داليا تسكن في الطابق العلوي، ولم ترغب أبداً أن يزورها أحد هناك، حتى نورا. ويوجد درج خلف واجهة البيت يفضي إلى العليّة على سطح المنزل، وبجانب غرفة العليّة توجد فسحة لنشر الغسيل، ولا يحيط السطح درابزين مثل سطح بيت نورا. لذلك لم تكن ترغب في أن تصعد إلى السطح لتنشر الغسيل لأنها كانت تشعر بدوخة وهي تصعد الدرج ولأنه يتمايل قليلاً، فكانت تخاف من الصعود إلى سطح لا يوجد فيه درابزين أو حائط يحميها.

كانت داليا تحبّ بيتها الذي اشترته ورمّمته بنفسها. فقد تقاسم أشقاؤها الأربعة ميراث والدها فيما بينهم، وخدعوا داليا ولم يعطوها نصيبها من الميراث بعد وفاة والديهم، كانت حينذاك مثقلة بكوارث ومصاعب شخصية كثيرة. وعندما اكتشفت أن أشقاءها خدعوها، كان قد فات الأوان. فلم تعد تكلّم إخوتها طوال حياتها، أو أبناءهم وبناتهم الذين لم يتوقفوا عن محاولة مصالحة الخيّاطة المشهورة والمحبوبة.

كانت تقول لهم: «أعيدوا لي ما سرقه آباؤكم مني أولاً»، رافضة أن تعيد علاقتها بهم، «وإلا فاذهبوا أنتم وأساليبكم المخادعة إلى الجحيم».

كان بيت الخيّاطة داليا قريباً جداً من منزل نورا. في البداية، كانت تلك المشكلة الوحيدة، لأن أمّ نورا بدأت تتردد كثيراً على المحترف في الأسابيع القليلة الأولى لكي تطمئن على ابنتها. وكانت نورا تنزعج كثيراً لأن أمّها تكلّمها وتؤنبها أمام الآخرين وكأنها طفلة صغيرة، لكن سرعان ما لاحظت داليا ذلك. وفي صباح أحد الأيام، وضعت حداً لانزعاج نورا وشعورها بالحرج، فتوقفت عن الخياطة وقالت لأمّ نورا: «اسمعي. ربّي ابنتك كما تريدين في بيتك، أما هنا، فيجب أن تتعلّم مني، وأنا المسؤولة هنا ولا أحد آخر. هل فهمت ما أقوله لكِ؟»

فهمت أمّ نورا، ولم تعد تأتي. والغريب أنها لم تنزعج من الخيّاطة لأنها وبّختها، وإنما قالت: «إنها امرأة قوية. فقد دفنت ثلاثة أزواج، وهي تعرف وتفعل ماذا تريد».

ظلت نورا مستيقظة لساعات طويلة في تلك الليلة وهي تتساءل كيف يستطيع والداها أن يعيشا معاً. فقد كان أبوها رجلاً في غاية الطيبة والدماثة إلى درجة أنه يرى أن المجرم شخص بحاجة إلى حبّ وعناية، أما أمّها، فلم تكن تثق بأحد، وترى جميع الرجال ذئاباً في هيئة بشر، ينتظرون تحت ستار ابتسامة ودودة لأن يلتهموا ابنتها نورا وهي حيّة ترزق. «ماما، لا يبتسم لي أي رجل»، تكذب على أمها لتهدّئ من مخاوفها، «وإذا ابتسم لي أحدهم، فإني سألقنه درساً لن ينساه». لكنها لم تذكر لها مخاوفها من الحلاق الذي كانت نظراته تحرق بشرتها، ولم تحكِ لها عن حبّها لإسماعيل الفوّال الذي يعمل في دكانه بالقرب من زقاق بيتها. كان لطيفاً ودوداً، أنيقاً، حليق الذقن، لكنه أبشع رجل في الحارة كلها، فقد كان وجهه بأنفه الكبير المعقوف يشبه وجه نسر، ويشبه جسمه فرس النهر، لكنه دمث الخلق، يشيد جميع أهل الحيّ بالفول والحمص والفلافل

والمأكولات الأخرى التي يبيعها. كان محله صغيراً جداً لا يتسع إلّا لإسماعيل نفسه وقدور الحمص والفول ومقلاة الفلافل العميقة. وكان والد نورا يقول ضاحكاً إنه لو زاد وزن إسماعيل قليلاً لن يبقى في دكانه مكان حتى لمرشة الملح، لكنه، مثل الجيران الآخرين، كان يثني دائماً على المأكولات التي يقدّمها إسماعيل والتي ورث أسرارها من أجداده. فقد كُتب على لافتة معلقة فوق باب محله الصغير: على امتداد ٢٢ جيلاً، تطبخ أسرتي وتقلي الخضراوات في هذا المحل. ويقال إن السلطان العثماني سليم توقف هنا عندما كان متجهاً إلى فلسطين ومصر لأن الروائح الشهية المنبعثة من المحل جذبته وتناولها، ثم كتب السلطان رسالة شكر إلى صاحب المحل في ذلك الوقت، ظلّت معلّقة في المحل طوال أربعمئة سنة، وحتى آخر أيام الإمبراطورية العثمانية، وفّرت الحماية لصاحب المحل من أي أذى يمكن أن يُلحقه به أي مسؤول في الدولة.

عندما كان إسماعيل يرى نورا، يزمّ شفتيه في شكل قبلة، ويقبّل أحياناً المغرفة التي يحملها بيده قبلة حميمة، ويرقّص لها حاجبيه.

«تزوجيني أيتها الوردة الجورية»، قال لها ذات صباح عندما مرّت أمام محله، سارحة في تفكيرها. لوهلة خافت، لكنها بدأت تسخر منه بعد ذلك، ومنذ ذلك اليوم، أصبحت تشعر بدفء وأمان كلما نظرت إليه عندما تمرّ أمام محله، تمشي بخطوات وئيدة، رافعة رأسها، تستمتع بكلماته الشاعرية المتدفقة.

ما الخطر الذي يمكن أن يشكّله لها هذا الرجل البدين اللطيف؟ رأته في حلمها مرتين وهو في شكل قرص فلافل صغير يطفو فوق الزيت تنبعث منه فقاعات ويقول: «كلوني، كلوني» في ترنيمة غنائية. كانت تضحك عندما تستيقظ.

لا. لم تعد نورا تفضي بأسرارها لأمها منذ بلغت العاشرة أو الحادية عشرة، وقد جنّبها ذلك مشاكل كثيرة معها، لكن على الرغم من ذلك، لم يتوقف الجدال بينهما عندما كانت تكتشف أمّها شيئاً يثير مخاوفها على نورا.

في تلك الفترة، كانت جميع الفتيات يعشقن المطرب الفنان والممثل فريد الأطرش الذي يغني أغاني رومانسية وشعبية حزينة. كان لديه أكثر الأصوات حزناً في العالم العربي، وصوته المتباكي غالباً يجعل الدموع تسيل من أعين النساء جميعهن. وكانت أخباره تملأ الصحف أسبوعاً بعد أسبوع. وظل فريد الأطرش عازباً ولم يتزوج طوال حياته. وقد أُشيع بأنه يحبّ الخيول والفتيان أكثر مما يحبّ النساء، لكن النساء لم يصدّقن ذلك.

لم يحب والد نورا فريد الأطرش، وكانت أمها تكرهه لأنه يغوي النساء بأغانيه، وتقول: «إنه درزي، وماذا تتوقعين من رجل تعزف أمّه آلة العود لقاء نقود؟ هل سمعتِ كيف انتهت حياة أخته؟ لقد غرقت في نهر النيل. كانت أجمل امرأة في الوطن العربي، لكن بدلاً من أن تتزوج ملكاً راحت تغني في النوادي الليلية، وكان لديها عشيق إنكليزي غيور خنقها وألقى بجثتها في النهر».

كانت الخيّاطة داليا من تلك النسوة اللواتي يعشقن فريد الأطرش. فلم تحبّ أن تدندن أغانيه فحسب، وإنما كانت تحرص على مشاهدة كلّ أفلامه التي تُعرض في سينما روكسي، وقد شاهدت بعض تلك الأفلام مثل فيلم «*أحلام الشباب*» وفيلم «*شهر العسل*» و «*حبيب العمر*» أكثر من عشر مرات، وزُيّنت الجدار في ورشتها بملصق كبير لفيلم «*ما أقدرش*». كان فريد الأطرش كأنه يقول هذه العبارة لكلّ من ينظر إلى الملصق، بينما كانت رفيقته في الفيلم، الراقصة الشهيرة تحية كاريوكا، ترمقه بعينين مليئتين بالغيرة. وكلما

حثّت زبوناتها داليا على أن تسرع في خياطة فساتينهن، تشير إلى الملصق بصمت وتواصل عملها.

في أحد الأيام، بعد أن أمضت نورا أكثر من سنة في تعلّم أصول الخياطة على يد داليا، كانت مساعداتها يتحدّثن بشغف عن أحدث فيلم لفريد «آخر كذبة» الذي سيعرض بعد أسبوعين في سينما روكسي، وقلن إن فريد الأطرش الذي يعيش في القاهرة منذ أيام طفولته، سيأتي ويحضر العرض الأول للفيلم.

لم تُخبر داليا أحداً من أين حصلت على خمس تذاكر مجانية، وأخذت معها جميع مساعداتها لمشاهدة الفيلم.

كما تنبأت داليا، كان تسعون في المئة من الذين جاؤوا لمشاهدة الفيلم نساء يرتدين أبهى وأغلى فساتين لإرضاء المغني العازب. وعندما ظهر على خشبة المسرح، سرت همهمة مشحونة بالعاطفة في صالة السينما.

لم يكن فريد طويل القامة كما يبدو في الملصق، وكان وجهه شاحباً وناعماً، لا يزينه شارب كما جرت العادة في تلك الفترة. احمرّ وجه نورا وشعرت بقلبها يغوص في أعماقها عندما استقرّت عينا المطرب الكبيرتين والحزينتين للحظة عليها. فأُغرمت به على الفور بجنون، ولم تفهم قصة الفيلم جيداً، وعندما غنّى أحسّت أنه لم يكن يغني لسامية جمال، المرأة التي يحبّها في الفيلم، وإنما يغني لها هي. بكت وضحكت، ثم جاء ذلك اللقاء القصير الذي سلبها النوم من عينيها في تلك الليلة.

عندما غادر الجمهور الصالة، وقف المطرب عند المدخل محاطاً بالشخصيات الهامة في المدينة الذين أرادوا أن يأخذوا صوراً معه، أو يحصلوا على نسخ من صوره الموقعة. اصطفت النساء الدمشقيات اللواتي لم يقفن في حياتهن في رتل واللواتي كن يخدشن

أعين بعضهن عند بائعي الخضراوات لأنهن في عجلة من أمرهن دائماً، اصطففن هنا بصمت كالفتيات المطيعات في مدرسة دير كاثوليكي لكي يأخذ المطرب فكرة جيدة عنهن. كانت كل واحدة تأخذ صورة معه وتنسحب برزانة وهدوء. همست داليا الواقفة وراء نورا: «هذه فرصتك الوحيدة، الآن وإلّا فلا». كانت نورا في غاية السعادة وهي ترتدي فستان عروس غالي الثمن استعارته من ورشة الخياطة.

عندما جاء دورها، قدّم لها المطرب صورته وابتسم لها قليلاً ولمس أصابعها. كاد يُغمى عليها.

أما داليا فقد استجمعت شجاعتها واغتنمت فرصتها، وقبّلت المطرب المذهول قبلة مدوية على خده.

«أنا داليا - داليا الخياطة الصغيرة، أرملة ثلاث مرات. لقد قبّلتُ فريد الأطرش. يمكنني الآن أن أموت ولا يهمني إن أرسلني اللّه إلى جهنم»، قالت مزهوة وهي عائدة إلى المنزل، فقهقهت مساعداتها.

عندما عادت نورا إلى البيت ظهر اليوم التالي، وجدت أن الصورة التي وضعتها تحت وسادتها مُزّقت إلى ألف قطعة.

تسمّرت نورا في مكانها، كاد الغضب يأخذ أنفاسها. فقد بدأت تنتابها في تلك الأيام رغبة متزايدة في أن تغادر بيت والديها، وأرادت أن تتزوج بسرعة لتبتعد عن أمها.

لم يفت ذلك ملاحظة داليا التي قالت لها وهي تعطي صورتها لنورا: «لا تزعلي، جففي دموعك، يمكنك أن تأخذي صورة أخرى»، وأضافت، «لقد شبعت منها. ألم يكن جميلاً؟ وتلك الرائحة الجميلة».

أخفت نورا الصورة تحت لوح مخلوع أسفل خزانة ملابسها في

البيت، لكنها سرعان ما نسيتها. ولم تتذكّرها إلّا بعد أن هربت، وتساءلت هل سيكتشف أحد بعد قرن من الزمن الصورة المخبأة أسفل خزانة الملابس ويخمّن القصة الكامنة وراءها. هزّت رأسها نافية وابتسمت.

كانت داليا تعشق حرفة الخياطة وتكره الإهمال والتقاعس في العمل، وترى أن الأشياء التي تظل ناقصة ولا تستكمل ستنتقم من الشخص الذي لم يكملها، وكانت تتحلّى بالصبر كثيراً، لكن من سوء حظها أن مساعداتها لم يكنّ يركّزن على عملهن في أحيان كثيرة. وكان يخيّل لبعضهن أنهن أصبحن خياطات ماهرات بعد أن يخطن مئزراً أو مسّاكة فرن للمطبخ. «يا بنت، يا بنت، إنك لا تركزين على عملك»، كانت هذه أكثر الملاحظات التي تبديها داليا، لأن معظم المتدربات يردن أن يتعلمن قليلاً من الخياطة لكي يرغب فيهن الرجال. فبعد إجادة الطهي، تُعتبر الخياطة الميّزة الأكثر قيمة لدى الرجل الدمشقي في الزوجة التي يبحث عنها.

«المقصّ والإبرة والخيط وماكينة الخياطة ليست سوى أدوات مساعدة»، قالت لنورا في أول أسبوع لها، «يمكنك أن تفصّلي فستاناً لائقاً بعد سنتين من التدريب على أبعد تقدير، لكن لا يمكنك أن تعتبري نفسك خيّاطة حتى تعرفي، عندما تقع عيناك على قطعة القماش، ما هو الفستان أو الثوب الأفضل الذي يمكن خياطته منها، ولا يمكنك أن تتعلّمي ذلك من أي كتاب. يجب أن تشعري بالحرفة قبل أن تتمكّني من التقاط الزبيب من خليط الاحتمالات».

كانت نورا تراقب داليا بدقة لترى كيف تفتح قطعة القماش التي أحضرتها زبونتها، تلمسها ثم ترفعها وتضعها على خدّها، تفكّر، ثم ترفعها إلى الضوء. ثم ترتسم ابتسامة خجولة على شفتيها، وهي علامة

أكيدة على أنه أصبحت لدى داليا فكرة واضحة الآن، فتأخذ ورقة وترسم عليها تصميم الفستان، ثم تضع الرسمة على قطعة القماش لتتأكد. عندما تبدو داليا سعيدة، ترى نورا كيف انتقلت الفكرة من رأسها إلى رسغها، ثم تنتقل من أصابعها إلى قطعة القماش. بعد ذلك، لا يبقى أي تردد، وسرعان ما يُربط الفستان بدبابيس ودرزات مؤقتة. ولم يُسمح لأي مساعدة أن تقصّ القماش إلّا فاطمة الخبيرة بذلك. لكن داليا كانت تشجعهن على التدرّب على قطع القماش المتبقية (الفضلة). «بالقطن أولاً، القطن لطيف معكن، ثم تواصلن إلى الأعلى حتى تصلن إلى المرتفعات المهيبة للمخمل والحرير».

في سنة تدريبها الأولى، كانت نورا تُعجب بالمناقشات الطويلة التي تدور بين داليا وزبوناتها. كقاعدة عامة، كنّ يأتين بأفكار محددة عن نوع الفستان الذي يرغبن فيه، لكن داليا كانت ترى في معظم الأحيان أن فستاناً كهذا لا يلائم زبونتها.

«لا، يا مدام، البرتقالي والأحمر لا يتلاءمان مع عينيك ولون شعرك وخصوصاً جسمك المليء بالعافية والمتناسق الذي حباك اللّه به».

«لكن زوجي يحبّ اللون الأحمر»، قالت زوجة السيد سالم، مدير البنك.

«إما أن يرتديه هو، وإما أن تخسري من وزنك من عشرة إلى خمسة عشر كيلوغراماً»، قالت لها داليا، وأوضحت لها كيف أن اللون الأزرق يلائمها أكثر وكيف أنها ستبدو أكثر نحافة به.

«كيف استطعتِ أن تري كلّ ذلك؟» سألتها نورا ذات يوم، عندما كانت زوجة الجراح الشهير مسرورة وممتنة عندما رأت فستانها الجديد.

«تعلّمت كيف يجب أن يبدو الفستان قبل التفصيلة الأولى.

حاولي أن تفهمي تموّج الأمواج، وخضرة أوراق البرتقال الساحرة، وبياض أزهار الياسمين، ورشاقة أشجار النخيل، عندها ستجدين أنها كلها أتقنت فن الأناقة».

لم تكن داليا راضية أبداً، وكانت محقّة في معظم الأحيان. حتى فاطمة لم تسلم من لسانها الحاد. «انظري إلى فاطمة»، كانت تقول غالباً بسخرية يائسة لأقدم مساعداتها وأفضلهن، «إنها تعمل معي منذ عشر سنوات، وحتى الآن لا تستطيع أن تفتح عروة بشكل صحيح».

لم تكن فاطمة تحبّ عملية فتح العُروات، لكنها تعتبر خياطة ممتازة. وهي المساعدة الوحيدة التي جاءت إلى ورشة الخياطة قبل نورا وبقيت فيها حتى بعد أن غادرت نورا. ولم تعمل بقدر ما تفعله ثلاث مساعدات فحسب، وإنما اتخذت شكّل قلب الورشة الحنون، تشيع فيها الشعور بالراحة والطمأنينة، وتساعد الشابات الأخريات، حتى أنها كانت تعارض معلّمتها بصوت مرتفع إذا تجاوزت حدودها مع أي من عاملاتها.

كان عدد كبير من المساعدات يتركن الورشة لأنه لم يعجبهن العمل، فقد جئن وفي رأسهن فكرة بأنهن سيتقنّ المهنة بعد سنة، لكنهن يدركن أن الأمر أكثر تعقيداً بكثير. وكانت الفتيات يتركن الورشة أحياناً من تلقاء أنفسهن، أو تطردهن داليا في أحيان أخرى، وتقول لهن: «لقد أصبحتن تعرفن ما يكفي الآن لتصنعن كيلوتاً لأزواجكن».

كانت داليا تدفع أجراً ضئيلاً لمساعداتها يكفي لتغطية نفقاتهن الشهرية لشراء تذكرة الترام أو الباص، لكنهن كنّ يحصلن على وجبة ساخنة كل يوم وقهوة كلما رغبن، ولم يُسمح لإحداهن أن تشرب كحولاً إلا المعلّمة نفسها.

عندما تتذكر نورا تلك الأيام، كانت ترى أن أول سنة أمضتها في الورشة هي الأصعب على الإطلاق. لكنها بدأت تشعر بحماسة للعمل في السنة الثانية، عندما أصبح باستطاعتها خياطة فساتين كاملة بنفسها. وعندما بدأت تحلم بعملها، كانت داليا تضحك وتربّت على كتفها، وتقول: «إنكِ تحرزين تقدماً حتى أثناء نومك». لكن الحلم لم يكن ممتعاً. فقد حلمت نورا بزبونة جاءت لتجرّب فستان زفافها الذي كان جاهزاً تقريباً، في الحياة الواقعية كما في الحلم، لكن الزبونة لم تكن راضية مع أن الفستان كان رائعاً ويخفي حملها. قالت نورا لنفسها من الأفضل أن تعدّ قهوة للزبونة الواقفة أمام المرآة بفستانها الجديد لأنها كانت على وشك أن تبكي لتهدأ. وفي طريقها إلى المطبخ، طلبت نورا من معلمتها أن تكلّم الزبونة التي تحترمها كثيراً، لكنها سمعت في تلك اللحظة صوت ضحكة تشي بالارتياح. «لقد أصبح كلّ شيء على ما يرام الآن»، قالت المرأة بسعادة، «فقد قصّت الفستان بعرض كفّ فوق ركبتيها، وأصبح قصيراً وحاشيته متعرجة».

استيقظت نورا وهي تلهث.

عندما أنهت نورا قصتها قالت لها داليا وهي تضحك: «لقد أصبحت المهنة الآن تجري في جسدك ودمك، وسرعان ما ستقيم بيتاً في دماغك». كان ذلك أول فستان خاطته نورا بنفسها.

عملت نورا بهمة ونشاط، وكانت تذهب إلى غرفتها بعد العشاء كلّ يوم لتتعلّم الأسماء الصعبة لجميع الألوان والأقمشة المختلفة، وتتدرب على أنواع التفصيلات المختلفة والعديدة على قصاصات الأقمشة التي كانت تسمح لها داليا أن تأخذها معها إلى البيت. تعجبت نورا من قدرة داليا على أن تعدّد إحدى عشرة درجة من درجات اللون الأزرق، من لون الأزرق البحري إلى الأزرق

الخوخي. حتى أنه يوجد ست عشرة درجة من اللون الأحمر، من الأرجواني إلى الوردي، ولم تخلط بينها قط.

كانت داليا صريحة جداً حتى مع زبوناتها. في إحدى المرات، ازداد وزن إحدى تلك الزبونات بسرعة مخيفة بين فترات تجريبها فستان زفافها من الدعوات والولائم الكثيرة التي كانت تُدعى إليها أثناء فترة التحضير لحفلة العرس، وبدأ جسمها يصبح أكثر امتلاء وتزداد بدانة من جلسة قياس إلى أخرى، وحددت داليا الأماكن التي ازدادت امتلاء في جسمها وثبتتها بالدبابيس ثلاث مرات. وفي المرة الأخيرة، عندما رأت أن الزبونة لم تعد قادرة على ارتداء الفستان، لوّحت لها بيدها باستياء، وقالت: «أنا أخيط فساتين للسيدات الأنيقات، لا لكتل من العجين. يجب أن تحسمي أمرك يا ابنتي: إما أنك تريدين فستان الزفاف أم تتناولين الفستق والكاتو؟» فاحمرّ وجه الشابة وخرجت بسرعة. ثم عادت بعد عشرة أيام وقد بدت شاحبة، لكنها أنحف قليلاً.

«الجميلات لا يحتجن إلى فساتين لأن اللّه صنع لهن أجمل ثياب. لكنهن قليلات ويأتين في فترات متباعدة، أما بالنسبة للأخريات، فإن فننا يكمن في إبراز النقاط الجيدة فيهن وإخفاء النقاط السيئة»، بهذه العبارة لخصت داليا مهنتها. كانت تجلس وتعمل لساعات طويلة على ماكينة الخياطة «سينجر» ذات الدواسات التي كانت تفتخر بها. وامتلكت في ورشتها ثلاث آلات خياطة قديمة ذات مقابض تدار باليد تستعملها مساعداتها.

حتى بعد سنوات من هروبها، ظلت نورا تتذكّر داليا، وكل ما تعلّمته من تلك المرأة الغامضة.

13

قالت الخيّاطة لنورا ذات يوم، «كيف تزوجتُ زوجي الأول؟ بسبب والديَّ اللذين عاشا هنا في حيّ الميدان، وكشخصين محترمين جداً. كان أبي يحبّ مشروب العرق وكانت أمّي تشربه أكثر من أبي، كما لو كانا مسيحيين، مع أنهما مسلمان ملتزمان، لكنهما اعتبرا الأوامر والنواهي مجرد قواعد ضرورية لتنظيم المجتمعات البدائية.

«كان حيّ الميدان الذي نعيش فيه يُعرف بأنه بؤرة الاضطرابات والمقاومة الوطنية منذ أيام الحكم العثماني، وظل هكذا في فترة الاحتلال الفرنسي. وكان الحيّ يحاط أحياناً بأسلاك شائكة، ويدققون هوية كلّ من يدخل إلى الحيّ أو يخرج منه. وعندما حدثت اضطرابات، قصف الفرنسيون الحيّ.

«كان أبي زعيم الحيّ، وكانت تربط سكان الحيّ علاقة حميمة جداً، ويعرفون بعضهم بعضاً. وقد عُرف والدايَ بكرم ضيافتهما، وكان أي شخص غريب يدخل إلى الحيّ، يؤخذ سواء بلطف أو بالقوة إلى أبي، فإذا كان الغريب شخصاً شريفاً يعتبر ضيفاً مكرماً، ويقيم له الجيران جميعاً مأدبة احتفاء به، أما إذا تبين أن نواياه شريرة، فإنه يُطرد من الحيّ شرّ طرده. وخلال سنوات الاضطرابات تلك، كُشف عن جاسوسين وأُعدما، وألقيت جثتاهما بجانب الأسلاك الشائكة وألصقت ورقة على صدريهما كُتب عليها، «مع

أطيب التمنيات لساراي»، وهو الجنرال موريس ساراي، قائد القوات الفرنسية في سوريا.

«في أحد الأيام الشديدة البرودة في عام ١٩٢٦ - كان البلد يغلي منذ اندلاع الثورة الكبرى ضد الفرنسيين في جبل الدروز عام ١٩٢٥ - جاء شاب من مدينة حلب ليتعلّم كيف ينظّم سكان حيّ الميدان مقاومتهم ضد الفرنسيين، اسمه صلاح، يحفظ أشعاراً كثيرة ويلقيها في الأمسيات بطريقة رائعة.

ما إن وقعت عيناه عليَّ حتى أراد أن يتزوجني، ووافق أبي على الفور. كان صلاح ينحدر من عائلة حلبية معروفة وغنية، ورأى أبي أن من المنطقي أن يزوج ابنته لرجل يكنّ احتراماً كبيراً لسكان حيّ الميدان، حتى أنه لم يستشرني. كنت لا أزال في السادسة عشرة من عمري، وكانت الطريقة التي يرمقني فيها هذا الرجل تجعلني أشعر بالضعف أمامه. كانت عيناه جميلتين، وشعره طويل مجعد».

صبّت داليا قليلاً من العرق في كأسها، وأضافت إليه قليلاً من الماء وجرعته، ثم مضت تقول: «لقد فتنني صلاح طوال ليلة العرس. وبينما كان المدعوون يرقصون ويغنون، كان يُسمعني قصيدة غزل بعد أخرى. أُغرمت به كثيراً. بعد انتهاء الاحتفالات، دخلنا إلى غرفة النوم الكبيرة، وأغلق الباب خلفه وابتسم لي. عندما أُغلق الباب، بدأت ألهث وشعرت كما لو أن كيساً رُبط حول رأسي وقطع أنفاسي.

حاولت أن أتذكّر نصيحة أمّي «أظهري له شيئاً من المقاومة، لا تستسلمي له على الفور». كان جسدي كلّه يرتعش. كيف يمكنني أن أتظاهر بأنني أُبدي له مقاومة؟ عندما فكّ أزرار فستاني، كاد يُغشى عليَّ. سألني: «هل تريدين رشفة من العرق؟» كانت قنينة العرق قد وضعت في الغرفة سراً في دلو فيه ثلج مجروش. هززت رأسي. قلت

في نفسي إن الكحول سيمنحني شيئاً من الشجاعة، وقد قالت لي أمّي إنه يوقظ شهوة المرأة أيضاً فتحصل على المتعة في ليلتها الأولى. أخذ صلاح رشفة صغيرة، أما أنا فقد جرعت كأساً مترعةً، وشعرت بهسيس السائل وهو يلامس الحرارة في داخلي. بدأت يداه تقتربان مني، وبدأ في الوقت نفسه يفكّ أزرار بنطاله.

إذا لمس ثدييَّ، قالت لي أمي في ليلة العرس، يجب أن أتأوه ليتابع ما يفعله، أما إذا لمسني في مكان لا أريد أن يلمسني فيه، فيجب أن أتظاهر بأن جسدي كله قد تيبّس وأصبح مثل لوح خشبي.

لكن ما إن وضع صلاح يده بين ساقيَّ، حتى تشنجتُ من قمة رأسي حتى قدميّ، مثل طوافة تحاول أن تتحرر لكنها عالقة بين جذوع أشجار كثيرة. شعرت بأن كلّ شيء في جسدي قد خُدّر. نزع ثيابي، ثم رأيت قضيبه. كان صغيراً ومعقوفاً. لم أتمالك نفسي من الضحك. صفعني على خدّي لأن قضيبه لم يستجب. باعد بين ساقيَّ كثيراً وكأنه فيل. نظرت إليه وهو عارٍ بين ساقيَّ. قلت في نفسي كم هو بشع. فتبخرت كلّ رغبة فيَّ وطارت من النافذة المفتوحة. راح يتصبّب عرقاً، وفاحت منه رائحة غريبة. لم تكن رائحة قوية لكنها غريبة تشبه رائحة شرائح خيار طازجة.

في الساعات القليلة التالية، لم يتوقف، بحذر شديد، عن محاولاته إيلاج قضيبه نصف المرخي فيَّ. في النهاية، تمكن من الحصول على الدليل بأنني عذراء بإصبعه، ففرح والدايَ وأقاربي وهللوا بسعادة خارج الغرفة.

بعد ثلاثة أسابيع، أُوقف صلاح عند إحدى نقاط التفتيش. كان يحمل أسلحة، وعندما حاول أن يهرب، أطلقوا عليه النار وأردوه قتيلاً. سار جميع سكان الحيّ في جنازته، وأقسموا على أن ينتقموا من ساراي الفرنسي، وبكى الرجال كما يبكي الأطفال اليتامى. أكون

كاذبة لو قلت لك إنني حزنت على صلاح الذي بدا لي غريباً خلال الأسابيع الثلاثة التي عشناها معاً. ساعدني البصل على أن أذرف الكثير من الدموع في ذلك الوقت. أظن أن اللّه صنع البصل ليساعد الأرامل على حفظ ماء وجوههن. وقد نجحت في ذلك. حاول أقربائي الذين قلقوا على صحتي مواساتي وتهدئتي. شعرت كأنني وحش بارد القلب وأرغمته على أن يتأثر، لكن قلبي ظلّ صامتاً».

كانت نورا مديدة النظر، لكنها بدأت تجد صعوبة في إدخال الخيط في فتحة الإبرة، فبدأت تضع نظارات. كانت أرخص وأبشع نظارات عُرضت عليها، نظارات اختارتها لها أمها كي لا تُغري نورا أحداً إذا وضعت نظارات جميلة. بدأت نورا تخجل من وضع هذه النظارات سواء في الشارع أم في البيت، وأبقتها في درج خزانتها في ورشة الخياطة. ونصحتها أمها بألّا تخبر أحداً عنها لأن لا أحد يريد أن ترتدي زوجة ابنها نظارات، خصوصاً إذا كانت مديدة النظر. فعدسات هذه النظارات تبدي العينين وكأنهما في دهشة بليدة دائمة.

وكانت داليا تضع دائماً نظارات ذات عدسات سميكة لمعالجة قصر نظرها، وفوجئت نورا عندما خلعتها ذات مرة، وبدا لها فجأة أن عينيها كبيرتان جميلتان، لا كما كانت تراهما، وكأنهما حبّتا حمص صغيرتان ضائعتان في دوامة من الزجاج.

أحبّت نورا ذلك الشعور بالهدوء وهي تؤدي أعمالاً تلقائية خفيفة لساعات طويلة، لأنه كان يتاح لها وقت لتفكّر في أشياء عديدة. والغريب في الأمر أنها لم تفكّر، بخلاف الفتيات الأخريات اللواتي يعملن في ورشة داليا، في الزواج قط. وإنما كانت تريد أن تحبّ بشغف رجلاً يأخذ بمجامع قلبها وعقلها، لكنها لم تر ذلك الشخص بعد. وغالباً ما كانت تجمع في مخيّلتها رجل أحلامها من

أجزاء منفصلة: عينا متسوّل، وعقل والدها، وذكاء بائع البوظة، ومشاعر بائع الفول نحوها، وصوت فريد الأطرش، وقسمات الممثل تايرون باور الذي أُعجبت به كثيراً عندما شاهدته في عدة أفلام في السينما.

في بعض الأحيان، كانت تضحك عندما يخطر لها أن خطأً ما قد يجمع الأجزاء الخاطئة معاً، فيصبح رجل أحلامها رجلاً ضئيل الجسم مثل أبيها، له بطن وصلعة مثل الفوّال في حارتها، ووجه فريد الأطرش الذي يخلو من أي تعابير، ونسخة عن أخلاق تايرون باور السيئة كما قرأت.

في أحد الأيام، جاءت إحدى العاملات في الورشة، تفيض عيناها بالدموع، وقالت وهي تبكي إنها رسبت في الاختبار. فسألتها داليا، «أي اختبار؟»

عندما قالت الشابة وهي تبكي، «اختبار العروس»، عادت داليا إلى ماكينة الخياطة التي تعمل عليها، وشعرت بالارتياح. كان دور هذه الشابة تنظيف المطبخ وإعداد القهوة في ذلك اليوم، لكن داليا أعادتها إلى بيتها عند الظهيرة كي لا ترى الزبونات وجهها المبلل بالدموع. ماذا جرى؟ كان والدا جزار شاب قد أُعجبا بها وأراداها زوجة لابنهما. فحصتها أمّ الشاب وشدّتها من هنا وهناك، لكنها رفضتها لأن أسنانها ليست جميلة، ونضحت عرقاً كثيراً من شدة قلقها وتوترها، وانتهى اختبار العروس في حمّام السوق بهزيمة شنعاء عندما اكتشفت أم العريس ندبتين كبيرتين بشعتين في بطنها. وهكذا انتهى الحلم.

عندما كانت الشابة تبكي بحرقة في المطبخ على مصيرها، تذكّرت نورا كتاباً مصوراً فيه لوحات فرنسية، تظهر إحدى تلك اللوحات امرأة عارية جميلة ناعمة البشرة وشاحبة في سوق

الجواري، ورجلاً بديناً يرتدي ثوباً يتحسس جسدها وفمها. كان يدقق النظر في أسنانها كما يفعل مزارع عندما يريد أن يشتري حماراً.

كانت أمّ نورا سعيدة بالمهارات التي اكتسبتها ابنتها في مهنة الخياطة، وظلت طوال الوقت فخورة بالفستان الذي أهدته لها نورا في عيد الفطر، أحمر غامق، موشّى ببعض الرسوم والأشكال، كانت خياطة الثوب سهلة جداً ولم تجد نورا أي مشكلة في العمل.

لم تر نورا أمّها قبل أو بعد أن أهدتها الفستان في ذلك اليوم متأثرة عاطفياً بهذا الشكل. تنهّدت وقالت: «كنت أريد طوال حياتي أن أصبح خيّاطة، لكن أبي كان يرى أن من العار أن تكسب المرأة عيشها من عملها».

الغريب في الأمر أن أمّها أولت ثقتها التامة بداليا، مع أنها لم تُبدِ ذلك علناً. عندما قالت لها نورا ذات يوم أنها دُعيت مع داليا إلى منزل رجل ثري لكي تخيط داليا لزوجته بعض الفساتين، لم تعترض أمّها، وقالت لها بثقة: «إن داليا امرأة قوية تستطيع أن ترعاك، لكن لا تخبري والدك بذلك لأنه لا يحب الأغنياء وسيُفسد متعتك بإلقاء مواعظه عليك».

«لنتوقف عن العمل اليوم»، قالت داليا في عصر أحد الأيام وهي تضع آخر غرزة في فستان تخيطه لإحدى صديقاتها.

تفحّصت الفستان للمرة الأخيرة وأعطته لنورا التي علّقته على مشجب، وقالت: «ستبدو صوفيا أصغر من عمرها بما لا يقل عن عشر سنوات عندما ترتدي هذا الفستان».

تناولت داليا قنينة العرق وسجائرها وكأساً وخرجت إلى الشرفة وشغّلت نافورة البركة فتدفقت الماء بنعومة في البركة الصغيرة. تبعتها

نورا التي دفعها الفضول أخيراً لتتحدث عن حياة داليا بعد وفاة زوجها الأول.

قالت داليا: «زوجي الثاني اسمه قادر وهو ميكانيكي سيارات. وهو ابن عمي، وكان يعمل في ذلك الوقت في ورشة لتصليح السيارات الكبيرة في إحدى ضواحي دمشق. عرفته صبياً صامتاً يكسو الشعر جسده مثل قرد. وكان أفراد أسرته يسخرون منه ويقولون على سبيل المزاح لا بدّ أن أمّه أقامت علاقة مع غوريلا، لكنه لم يكن سيئاً إلى تلك الدرجة.

بعد أن مات زوجي الأول جاء قادر الذي فتح في ذلك الوقت ورشة تصليح سيارات، لزيارتنا. لم أكن حينها قد بلغت السابعة عشرة من عمري، ولم أعش في شوارع دمشق حينذاك إلا بجسدي، أما في رأسي، فقد كنت أعيش في الأفلام التي أشاهدها.

صار قادر ميكانيكي سيارات ماهراً، يتدفق الزبائن على ورشته. وعندما كان يأتي ليزورني، تفوح منه رائحة بنزين. وكان إما يلبث صامتاً أو يتحدّث مع أبي عن السيارات، لأن أبي كان من أوائل الأشخاص الذين قادوا سيارة فورد في دمشق في تلك الفترة.

لم نحبّ أنا وأمّي ابن عمي قادر بعكس أبي الذي كان يحبّه كثيراً، وأصبح يصلح له سيارته بدون مقابل، وكان يكرر دائماً: «إن يد قادر مباركة، فمنذ لمس سيارتي تلك، لم تعد التنكة القديمة المصدية تتعطل».

كان خطيبي عكس العشيق الذي طالما كنت أتخيّله في أحلامي. فقد كان عشيق أحلامي يجيد استخدام الكلمات، شاب عربي رشيق له عينان واسعتان، وشارب صغير، وسالفان مشذبان، يزورني كلما أحببت، وجهه حليق ناعم، وشعره أجعد لامع، يحمل تحت إبطه

دائماً صحيفة أو مجلة، يهتم بشفتيَّ وعينيَّ أكثر مما يهتم بمؤخرتي، ويرى كلماتي مثيرة، ويغرق في عينيَّ.

لكن ذلك العشيق مات عندما أصبحت وجهاً لوجه مع عريسي في ليلة زفافنا الذي لم يُبدِ اهتماماً بقصات الشعر الأنيقة أو بالمجلات والأفلام التي يعتبرها مظاهر خادعة. ولم يثر اهتمامه أي شي ليس مصنوعاً من اللحم أو المعدن، ولم يكن يتناول خضراوات، ولم يغنِّ قط، ولم يشاهد فيلماً واحداً في حياته، حتى أنه لم يلاحظ أنني أمتلك فماً وعينين، ولم ينظر إلّا إلى ردفيَّ.

في الليلة الأولى، استلقيتُ تحته ولم يقبّلني حتى قبلة واحدة. كان يصهل مثل حصان قوي يتصبب عرقاً تفوح منه رائحة زيت محرك سيارات. لم أستطع إلّا بجهد جهيد أن أحتفظ بوليمة العرس الفخمة في معدتي.

كزوجة ليس عليَّ أن أكون عشيقته في السرير فقط، بل عليَّ أن أكون أيضاً أماً ترعاه وتعتني به، ومديرة أعماله، وخادمة منزله. ثيابه وحدها تكفي لكي لا تتوقف الغسالة عن العمل طوال النهار، لأنه كان يريد أن يرتدي ثياباً نظيفة كلّ يوم. كم تمنيت أن أتزوج رجلاً عربياً غنياً يفصل كل شيء: أمّ وزوجة تدير شؤون البيت، وخادمة تقوم بالأعمال المنزلية، وطاهية، وعشيقة جميلة للمداعبة، ومربية للأطفال، واللّه وحده يعرف ماذا أيضاً. في هذه الأيام، يريد الرجال أن يحصلوا على كلّ ذلك من امرأة واحدة، وبأرخص الأسعار أيضاً.

طوال سنة كاملة، كان يضاجعني مرتين كلّ يوم، وبعد فترة قصيرة، لم أعد قادرة على أن أمشي بسهولة. في إحدى الليالي، جاءني الفرج. ففي منتصف رعشة الجماع شهق صارخاً مثل طرزان الغابة وسقط على جانب السرير. لقد مات - تيبّس مثل لوح خشب

الباب. بكيت ثلاثة أيام متواصلة من هول الصدمة. ظنّ الناس أنني كنت أبكي حزناً عليه».

لم تسمع نورا قبل ذلك قصصاً مدهشة كقصص داليا. أرادت أن تسألها بعض الأسئلة لتعرف مزيداً من التفاصيل، لكنها لم تجرؤ على مقاطعة داليا وهي تروي قصصها.

هذه المرة، كانت داليا ذكية، فتحركت بسرعة أكثر من عائلة زوجها، فباعت الورشة إلى أقدم عامل فيها، وباعت سيارة الكاديلاك الكبيرة ذات الـ ١٦ سيلندر إلى شخص سعودي ثري لقاء مبلغ كبير، وضحكت كثيراً عندما لم تترك شيئاً لإخوة زوجها وأخواته.

لكن داليا لم تتحدّث قط عن زوجها الثالث، حتى عندما سألتها نورا عنه قبل أن تغادر ورشة الخياطة بعد ثلاث سنوات رفضت أن تتحدّث عنه. يبدو أنها أصيبت بجرح غائر. كان الجرح بالفعل عميقاً، كما عرفت نورا من إحدى جاراتها لاحقاً.

التقت داليا بزوجها الثالث عندما كانت تزور صديقتها المريضة في المستشفى. شاب مصاب بالسرطان، لا يرجى شفاؤه. كانت زوجة كبير الأطباء في المستشفى إحدى زبونات داليا، واستطاعت أن تحصل لها على إذن لتزور الشاب الذي أحبّته عندما تشاء، وقررت أن تتزوج هذا الشاب المريض الذي لم تذكر اسمه قط. ومع أن أفراد أسرتها وصديقاتها حذروها من الإقدام على هذه الخطوة، لم تتزحزح داليا عن قرارها، فتزوجت الرجل وأخذته معها إلى منزلها، وعاملته بحبّ لا يوصف حتى أصبح بمقدرته الوقوف على قدميه، واكتسى وجهه لون الصحة بعد أن غادره شحوب الموت. أحست داليا أنها في الجنة، بجانبها رجل وسيم ذكي. لم يزعجها قط أنه عاطل عن العمل، بل كانت سعيدة لأنه لم يفعل شيئاً سوى العيش بقربها، وكانت ترد على الذين ينتقدونها، «دعوه يستمتع بالحياة أيها الحساد

البخلاء، فقد عانى لسنوات»، وأنفقت عليه بسخاء وحرصت على ألّا تتراكم عليها أي ديون. كان زوجها جذاباً للغاية. في البداية أحبّها كثيراً، لكنه بدأ يخونها بعد ذلك. عرف الجميع ذلك ما عدا داليا التي رفضت أن تواجه الحقيقة.

في إحدى الأمسيات الصيفية الجميلة، كانت داليا تنتظر عودته إلى البيت على العشاء الذي أعدّته بمناسبة الذكرى الثالثة لزواجهما، وكانت ترجو أن يكون رقماً يجلب لها حظاً سعيداً. ثمّ رنّ جرس الهاتف، وسمعت صوت امرأة يقول لها بنبرة فظة وباردة إن عليها أن تأتي وتأخذ جثمان زوجها الملقى على الدرج بعد أن أصيب بسكتة قلبية.

كانت المرأة التي اتصلت بها تدير بيت دعارة معروفة في الشطر الجديد من المدينة. وجدته داليا ملقى على درج بيت الدعارة، وأرعبها وجهه الذي بدا لها قبيحاً وفظاً للغاية. اتصلت داليا بالشرطة، وتبيّن في ذلك المساء أن الرجل الميت كان أحد الزوار الدائمين لبيت الدعارة ذاك، وتعرف جميع النسوة والخادمات في بيت الدعارة أنه رجل غني مبذّر يحبّ العاهرات صغيرات السنّ، وقد نقلته السكتة القلبية إلى العالم الآخر.

بعد تلك الصدمة، أحبّت داليا رجالاً آخرين، لكنها لم تعد ترغب في أن تعيش مع شخص آخر. كانت نورا متيقنة من أن لدى داليا عشيقاً لأنها تلاحظ أحياناً علامة زرقاء على عنقها، لكن نورا لم تعرف من هو ذلك العشيق.

بما أن داليا امرأة ذات خبرة واسعة في الحياة، كانت تنصح مساعداتها وزبوناتها عندما يشتكين لها من أزواجهن، وكان لدى نورا انطباع بأن بعض تلك النسوة لا يأتين لخياطة فساتين، وإنما يأتين ليحصلن على نصيحة جيدة من الخيّاطة.

من المكان الذي كانت تجلس فيه نورا وهي تعمل، كان باستطاعتها أن تسمع كلّ كلمة تقال في الشرفة عندما لا تستخدم ماكينة الخياطة، فسمعت كلّ المشكلات التي تعاني منها السيّدة قباني الأنيقة، الشابة الثرية التي لم تنعم بجمال في مظهرها، بل بصوت ساحر. ولاحظت نورا كيف يطرأ تغيير ملحوظ على السيدة قباني، فعندما تراها صامتة، تشفق عليها، لكن عندما تتحدّث، تصبح امرأة شديدة الجاذبية. فهي امرأة مثقفة تعرف أشياء كثيرة عن الفلك والشعر، والأهم من كل ذلك، فهي تعرف عن الهندسة المعمارية، لكنها لم تعرف شيئاً عن الرجال، ولم تعش حياة سعيدة مع زوجها.

طلبت السيّدة قباني من داليا أن تخيط لها اثني عشر فستاناً كلّ سنة كي تأتي مرة في الأسبوع وتفتح لها قلبها وتحتسي معها فنجان قهوة، وكانت تسمح لداليا أن تناديها باسمها «نسيمة»، أما جميع المساعدات الأخريات فكنّ يخاطبنها «مدام قباني» ويعاملنها بأقصى درجات الاحترام.

كانت نسيمة قباني طالبة متفوقة في المدرسة، ولم تكن ترغب في أن تسمع شيئاً عن الرجال. حلمت بأن تصبح مهندسة معمارية، وكطفلة رسمت تصاميم طموحة لمنازل المستقبل مستفيدة من المناخ الحار إلى أقصى درجة كي تظل بدون تدفئة في الشتاء، ويكمن سرّ هذه البيوت في نظام تهوية متطور رأته نسيمة عندما ذهبت في رحلة إلى اليمن.

ترمّلت أمّها في سن صغيرة، لكنها ورثت ثروة هائلة، وكان جلّ طموحها ألّا تؤول ممتلكات زوجها المتوفى إلى الطامعين في مال ابنتها وابنيها، فقررت أن تبحث عن زوجتين مناسبتين لابنيها وزوج مناسب لابنتها، واستطاعت أن تحقق طموحها. فتزوجوا ثلاثتهم من عائلات أكثر ثراءً.

كان زوج نسيمة ابن صديقة أمها. وكونها الزوجة الثالثة لهذا الرجل لم يزعج ذلك أحداً إلّا نسيمة. وأخبرتها داليا أن زوجها من أصحاب النفوذ في دمشق ويمتلك أبنية وعقارات كثيرة.

أما أكبر مشكلة واجهتها نسيمة فهي أنه كان عليها أن تمثّل دور الزوجة المتلهفة لرؤية زوجها عندما يأتي دورها كلّ ثلاثة أيام، وصارت تكره نفسها في اليومين التاليين. لم تستطع أن تقول كلمة صادقة واحدة لزوجها، وكانت تُرغم نفسها على أن توافق على كلّ شيء يقوله لتقتصر الحديث الممل معه، ما جعلها تشعر بإرهاق شديد، لأن الكذب عمل مرهق إذا لم يمتلأ قلب الكاذب بالفساد، وكان قلب نسيمة نقياً مثل قلب طفلة في الخامسة من عمرها، وصعب عليها أن تتصرف معه دائماً بمرح وتدلّله وتقبّله وتثيره كي يتمكن من القيام بواجبه الزوجي كما ينبغي، لكنها لم تحبّ جسمه الأبيض كالثلج والرخو وكأنه قطعة عجين، يتعرّق بغزارة كل ليلة حتى أصبح جسمه زلقاً كالضفدع. واحتسى كميات كبيرة من العرق دائماً قبل أن يضاجعها، ولم تكن نسيمة تحتمل رائحة اليانسون التي تفوح منه، وكان لديه قضيب ضخم كقضيب حمار، وكلما طلبت منه أن يرأف بها لأنها تتألم كثيراً، ازداد إثارة وهياجاً نحوها. كان استلقاؤها تحته عذاباً حقيقياً، وقد أنجبت منه حتى الآن ثلاثة أطفال تحبّهم، وتجد متعة في الحياة معهم يشفيها من زيارات زوجها.

في أحد الأيام، نصحت داليا المرأة أن تدخّن ثلاث سجائر حشيش قبل مضاجعته. وقالت إن بعض زبوناتها قد فعلن ذلك فتمكّن من أن يتحملن أزواجهن. لكن نسيمة قالت إنها لا تتحمل آثار الحشيش لأن رؤية زوجها سيصيبها بالغثيان.

حاولت داليا مواساة زبونتها وقالت لها لا بد أن زوجها ينتج كمية كبيرة من السائل المنوي، لذلك عليه أن يتخلص منه، سواء أراد

أم لم يرد. فضحكت نسيمة بمرارة، وقالت: لو سألتني، لقلت لك إن زوجي يملك دماغاً استثنائياً يطفح بالسائل المنوي.

ضحكت المرأتان، ولأول مرة، أُعجبت نورا بضحكة مدام قباني التي تشبه غرغرة جدول صغير. وقالت نورا في نفسها إنها لو كانت رجلاً، لأُغرمت به على الفور. لم تعرف نورا كم كانت قريبة من هذه الحقيقة. لأن نصري قباني قرر أيضاً أن يتزوج هذه الشابة عندما سمع صوت ضحكتها في منزل والديها، آنذاك لم يُسمح له رؤية عروسه، لكنه أخذ بنصيحة أمّه وتزوجها.

في أحد الأيام، قبل أن تنهي فترة تدريبها بفترة قصيرة، سمعت نورا الخيّاطة تنصح صديقتها نسيمة قباني، «كل ما يمكنك أن تفعليه هو الطلاق، عندها يمكنك أن تبحثي عن رجل آخر تحبّينه».

في نهاية السنة الثالثة تقريباً، سمحت داليا لنورا أن تخيط وحدها أغلى أنواع الأقمشة، كالمخمل والحرير. وعندما كانت تخيط فستاناً بمفردها، كانت داليا تبدي أعجابها به ما أثار غيرة مساعدتها القديمة فاطمة.

كان من الممكن أن تصل إلى نهاية تدريبها الذي استمر ثلاث سنوات بسرور لو لم تظهر عمّة الخطاط المشهور ذات يوم.

في صباح اليوم الذي قابلت فيه هذه المرأة، رأت نورا شرطيين يطلقان النار على كلب وهي في طريقها إلى ورشة الخياطة. فقد انتشرت شائعات في المدينة منذ بضعة أسابيع بوجود عصابة تصطاد الكلاب وتكتب على ظهرها اسم الرئيس شيشكلي بمادة بيروكسيد الهيدروجين، ثم تطلقها في المدينة. كان لون فروة الكلب الذي أصيب برصاصة أمام عينَي نورا بنياً فاتحاً، وكانت حروف اسم الرئيس تلمع باللون الأبيض كأنها مكسوة بطبقة من الثلج.

عندما حكت نورا لداليا في ذلك الصباح أنها رأت الكلب يتألم كثيراً لأن الرصاصة لم تقتله على الفور، تسمّرت داليا في مكانها، وقالت: «هذه إشارة على سوء الحظ. ليحفظنا اللّه مما سيأتي». لكن سرعان ما نسيت داليا ونورا الكلب والرئيس.

في ربيع عام ١٩٥٤، أطاحت انتفاضة بالعقيد شيشكلي الذي جاء إلى السلطة بواسطة انقلاب. وبعد عدة سنوات، فهمت نورا أن داليا لم تكن ضحية خرافات في ذلك الصباح، وإنما قالت نبوءة حقيقية.

14

استغرقت نورا عدة سنوات لتجمع صورة زواجها من قصاصات ذكرياتها المبعثرة. وعندما تفعل ذلك، كانت تتذكّر في أحيان كثيرة جدّتها التي كانت تخيط مناظر طبيعية كاملة وتجمعها من قصاصات قماش زاهية الألوان في لوحة قماشية.

كما اكتشفت قبل هروبها بفترة قصيرة، أن صديقتها في المدرسة نبيهة العظم هي التي قادت حميد فارسي إليها بدون قصد سيء منها. كانت أسرة نبيهة الثرية تقيم حينذاك في منزل جميل لا يبعد عن محترف حميد أكثر من خمسين خطوة. كان شقيقها الذي يعرف نورا منذ طفولتها مهووساً بالخط العربي، وأحد زبائن حميد فارسي. في أحد الأيام، عندما حكى لنبيهة عن حياة العزلة التي يعيشها الخطاط، خطر ببالها اسم نورا.

ثم تذكرت نورا عندما التقت بنبيهة بالصدفة في سوق الحميدية ذات يوم عندما ذهبت لتشتري أزراراً لمعلّمتها الخيّاطة داليا. كان لديها متسع من الوقت، فقبلت دعوة زميلتها السابقة في المدرسة لتتناول معها بوظة. قالت لها نبيهة التي كانت مخطوبة والتي سيُعقد قرانها بعد فترة قصيرة إنها فوجئت عندما رأت نورا لا تزال عزباء.

«كنت أظن دائماً أنك بهذا الوجه الجميل ستتزوجين رجلاً ثرياً

عندما تبلغين الخامسة عشرة، وبالمقارنة معك، فأنا دجاجة منتوفة الريش».

بعد أسبوعين، قال والد نورا إن رجلاً ثرياً، سليل عائلة نبيلة يريد أن تكون زوجة رابعة له، لكنه رفض ذلك طبعاً لأن ابنته تستحق أن يكون لها زوج يحبّها وحدها.

بعد شهر، دعت جارتهم بديعة نورا وأمّها لاحتساء القهوة معها. لم تشأ نورا أن تذهب، لكنها ذهبت مع أمها بدافع المجاملة.

عندما تتذكّر نورا ذلك جيداً، تدرك أن أمّها كانت تعرف سبب تلك الزيارة، لذلك ألحّت عليها أن تبدو في أجمل حلة لها، ولم يكن ذلك شيئاً معتاداً لأن الجارات يزرن بعضهن وهنّ في ثيابهن العادية وفي نعالهن البيتية في معظم الأحيان.

رأت نورا سيّدة أنيقة في متوسط العمر جالسة في غرفة الجلوس في بيت بديعة قالت إنها صديقتها، اسمها ميادة قريبة الخطاط المعروف حميد فارسي، يعمل زوجها في السعودية، وإنها لا تأتي إلى دمشق كثيراً، وحكت لهن السيّدة عن الاحترام الذي يكنّه السعوديون لزوجها، وقالت إنهما يعيشان في قصر، لكنها ترى الحياة في ذلك البلد صعبة ومملة، لذلك، فإنها تأتي وتمضي فترة الصيف في منزلها الصغير في حيّ الصالحية.

بينما كانت تتكلّم لم ترفع عينيها الصغيرتين الثاقبتين عن نورا، وشعرت نورا بنظرات المرأة تخترق ثيابها، فارتبكت.

لم يكن كلّ ذلك سوى مسرحية هزلية سيئة الإخراج، لكن نورا لم تدركها جيداً. ففي الزيارة الأولى تلك، طلبت بديعة من نورا أن تعدّ لهن القهوة لأنها تحبّ طريقتها في إعداد القهوة، مع أن نورا تعدّ القهوة مثل أي فتاة أخرى في السابعة عشرة من عمرها في دمشق.

وبما أنها تعرف منزل جارتها جيداً، فقد نهضت وذهبت إلى المطبخ. لم تعرف أن المرأة الغريبة راحت تتفحص طريقتها في المشي بعين خبيرة. وعندما قدّمت لها نورا القهوة، قالت بحماسة «يا لك من فتاة رشيقة».

تحدثت النساء في أمور عديدة وبصراحة شديدة، ولاحظت نورا أنهن يتحدثن في أمور حميمية خصوصاً في أول لقاء يجمعهن مع امرأة غريبة. وفجأة بدأت بديعة تثني على أحد أقارب المرأة وهو خطاط ثري ترمّل باكراً، وبدا واضحاً أنها تعرف عنه أشياء كثيرة، وأكدت أم نورا للمرأتين الأخريين أن كون الرجل أرملاً لا يعيبه ولا يؤثر عليها أو على أي امرأة عاقلة، شريطة ألّا يكون له أطفال.

«نعم، الحمد للّه ليس له أطفال، لكن إذا تزوج غزالة شابة، فسيكون سعيداً لأن ينجب منها عدة أطفال جميلين»، أجابت المرأة الغريبة وهي تتفحّص نورا وتحرك حاجبيها. عندها أدركت نورا أنهن يتحدثن عنها، وشعرت بإحراج شديد.

بعد فترة قصيرة، ودّعت نورا وأمّها المرأتين وغادرتا. عندما أصبحتا خارج الباب، توقفت أمها وقالت لنورا إنها تريد أن تتنصت على ما ستقوله المرأتان عنها. لم تنتظرا طويلاً حتى سمعتا الحديث داخل المنزل بين المرأتين، فقد قالت المرأة لمضيفتها بصوت عال وواضح، «إنها غزالة، حفظها اللّه من عيون الحاسدين، لكنها نحيفة قليلاً، لكن بقليل من التغذية فإنها ستزداد جمالاً وصحة، قامتها جميلة وتشي حركتها بأنوثة ملحوظة، ويداها دافئتان وجافتان، لكن يبدو أنها معتدّة بنفسها. ربما، لكن قليلاً».

«أكيد، أكيد. جميع الفتيات اللاتي يقرأن كتباً معتدّات بأنفسهن، لكن إذا كان قريبك رجلاً حقيقياً فإنه يستطيع أن يكسر شوكتها في أول ليلة، ويثبت لها أنه سيّد البيت، أما إذا لم يفعل

ذلك، فلا داعي للقلق، سيعيش زوجها كما يعيش زوجانا معك ومعي، وهذا ليس أمراً سيئاً أيضاً».

فضحكت المرأتان.

يبدو أن أمّ نورا أعجبت كثيراً بالحديث الحميمي هذا، لكن نورا شعرت بالحرج، وأرادت أن تبتعد.

بعد عدة أشهر، اكتشفت نورا أن أمّها ذهبت إلى محترف العريس الموعود في اليوم التالي وتفحصت محترفه جيداً. كان المحترف جميلاً، جيد الإضاءة، فيه مكان لاستقبال الزبائن من الرخام والزجاج يشبه متحفاً حديثاً في حيّ سوق ساروجة الراقي.

لكن أمّ نورا لم تتخيّل كيف يمكن لشخص أن يكسب رزقه من الكتابة - فقد كتب زوجها عدة كتب وظلّ فقيراً. وعندما قالت ذلك لجارتها بديعة، طمأنتها وقالت لها: حميد فارسي أفضل خطاط في مدينة دمشق وعنده بيت فخم، ولا يمكن مقارنته بوالد نورا، وأخبرتها أن لديها مفتاح البيت إذا أرادت أن تذهب وتراه، لكن أمّ نورا لم تشأ أن تتطفّل على بيت العريس إلّا إذا رافقتها، فالتقتا في سوق البزورية وذهبتا معاً.

«إنه ليس منزلاً وإنما بقعة من الجنة»، همست أمّ نورا، وقد نسيت كلّ تحفظاتها. بالفعل كانت للبيت صفات الجنة كما يتخيّلها الدمشقيون. فما إن تجتاز باب البيت من الجانب الشرقي، حتى تسير في دهليز مظلم يخفف من حدّة ضوضاء وغبار وحرارة الشارع كثيراً، وفي منتصف الدهليز تقريباً، يُفتح باب على مطبخ واسع من النوع الذي طالما حلمت به أمّ نورا، توجد أمامه، بجانب مرحاض حديث، غرفة تُخزّن فيها قطع أثاث قديمة، وجرار فارغة، وقدور كبيرة، وأجهزة وأغراض منزلية أخرى لا تُستعمل إلّا مرة واحدة في السنة على أكثر تقدير، ثم يفضي الدهليز إلى فناء توجد فيه كلّ ما

تتمناه نفس الإنسان، موشّى برخام ملون فيه نوافير ماء وأشجار ليمون وبرتقال ومشمش، فضلاً عن بضع شجيرات ورد وياسمين متسلّقة. وتحيط بالفناء كوّات لاتقاء الطقس، وغرف جلوس فسيحة، وغرف ضيوف، وغرف نوم. لم تشعر أمّ نورا أنها بحاجة إلى رؤية الطابق الأول، فقد اكتفت بما رأته في الطابق الأرضي.

لم تُخبر أمّ نورا زوجها وابنتها عن هذه الزيارة السرية، لا حينذاك ولا لاحقاً.

لكنها اقتنعت في تلك اللحظة أن حميد فارسي صيد ثمين لابنتها. فبدأت تمهّد بحذر لتكلّم زوجها بالأمر، لكنها ادّعت، بعد أن هربت نورا، أنه انتابتها شكوك حول هذا الرجل منذ البداية. قلما استشاط والد نورا غضباً، لكنه وبّخها واتهمها بالكذب عندما أخبرته زوجته بذلك.

بعد قرابة أسبوع على تلك الزيارة الاستكشافية للبيت، رافقتهما بديعة وميادة لاحتساء القهوة. جلسن بجانب بركة الماء ورحن يتحدّثن عن أحلام النساء التي بدا أنها تتركز حول نقطة واحدة: وهي إسعاد أزواجهن.

رأت نورا أن أحاديثهن مليئة بالنفاق، لأن أمّها وبديعة لا تفعلان ذلك مع زوجيهما. حتى عندما كانت طفلة، كانت متيقنة من أن والدها سيكون سعيداً أكثر لو أنه عاش مع امرأة أخرى.

حدّثتها ميادة مطولاً عن أشياء يجب على نورا ألّا تردّ عليها مثل أي فتاة دمشقية، وعندما ودعتها، فاجأتها ميادة بأن عانقتها بحرارة، وقالت لها إنها تستطيع أن تناديها باسمها الأول، ميادة، لكن عندما قبّلتها ميادة في فمها، أحست نورا بشيء من الخوف. لم يزعجها ذلك لأن رائحة عطرة فاحت من فم المرأة الجميل، لكن ذلك أحرج نورا كثيراً.

«لماذا فعلت ذلك؟» سألت أمها باستياء عندما أصبحت وحدها مع أمها.

«أرادت ميادة أن تتأكد من رائحة فمك عن قرب، وإن كان فمك شهياً».

«لكن لماذا؟» سألتها نورا بدهشة.

فأجابتها أمها، «لأن قريب ميادة، الخطاط المشهور، يبحث عن زوجة، ويمكنك أن تعتبري نفسك محظوظة إذا تزوجك».

غمرت نورا سعادة غريبة عندما سمعت أن رجلاً مشهوراً يريد أن يتزوجها. واتُّفق على أن ترافق أمّها إلى حمّام السوق الأسبوع المقبل للقاء ميادة وجارتها بديعة.

ثم أدركت نورا أن قريبة حميد فارسي تريد أن تفحص جسد نورا عارياً قبل أن تتخذ قرارها النهائي.

لكنها فوجئت من أمّها التي تخجل حتى من أن تظهر أمام عصفور في باحة البيت، عندما سمحت لامرأة غريبة أن تتحسس جسد ابنتها العاري في الحمام وتتفحص أدق تفاصيل جسدها. اعترى نورا شعور بالدوار، وتركت المرأة تفعل ما تشاء، وراحت هذه تفحص عضوها وثدييها، وإبطها، وأنفها، وأذنيها.

ولم تتعرض نورا إلى إحراج آخر يُعتبر عادة جزءاً من هذه الإجراءات لأن سمعة عائلة عربي المعروفة للقاصي والداني، جنّبها سؤال جيران نورا عنها.

وتلت ذلك أسابيع من الشك والحيرة.

فبعد تلك الزيارة إلى حمّام السوق، لم يُسمع شيء من تلك المرأة لفترة طويلة، واعترى القلق أمّ نورا كما لو أنها هي التي ستتزوج.

لكنها جاءت أخيراً وزارتهما، وزفت لأمّ نورا الخبر السعيد بأن

حميد فارسي يرغب في الزواج من ابنتها. فبكت أمّ نورا من الفرح، واتفقت مع ميادة على جميع التفاصيل، بدءاً من المهر حتى الموعد الذي سيجتمع فيه الرجال لبحث الأمور التي تفاوضت عليها المرأتان على مدى أسابيع.

جاء عم حميد، زوج ميادة، الذي عاد من السعودية لزيارة والد نورا يصحبه ثلاثة تجار أثرياء من سوق الحميدية، كما لو أنهم يريدون إظهار نوعية الأشخاص الذين يقفون وراء العريس.

أدهش والد نورا، الشيخ عربي، زواره بسعة معرفته فراحوا يتنافسون على طرح أسئلة صعبة عليه تتعلق بالأخلاق والدين وهم يتناولون الفاكهة ويدخنون ويشربون الشاي الأسود الحلو. ثم بدأوا يتحدثون عن الغرض من زيارتهم، وسرعان ما اتفق الطرفان. وعندما بدأ الحديث عن مهر العروس، أكّد لهم والد نورا، بعكس ما تريده زوجته، أنه لا يهمه ذلك، وأن المهم بالنسبة له أن يكون واثقاً من أن ابنته ستكون في أيد أمينة، وقال إن النقود تذهب وتأتي، أما احترام المرأة الشريكة وحبّها فإنهما ثابتان، وأن هذا كلّ ما يريده لابنته. قالت له زوجته التي كانت تتنصت على حديث الرجال من المطبخ، بعد ذلك إنه يفتقر إلى المهارة وإنه كان بإمكانه أن يطلب مهراً أعلى بكثير لابنته العروس، المبلغ الذي كانت قد اتفقت عليه مع قريبة العريس. وقالت له إنه أعطى ابنته بثمن بخس كما لو كانت نورا خادمة عجوزاً. وشاركه عمّ حميد في هذا الرأي لكنه لم يقل شيئاً وسخر من والد نورا في سريرته الذي أكد وجهة نظره بأن الرجل الذي يهتم بالكتب لا يفقه شيئاً عن الأمور المتعلقة بالعمل أو بالحياة الحقيقية، وقال في نفسه إنه لو كان في مكانه لطلب مهراً يزيد ثلاثة أضعاف على المهر الذي طلبه من أجل فتاة جميلة وذكية مثل نورا.

عندما حدّدوا أخيراً موعد العرس، نهضوا جميعاً واقفين وتصافحوا، وقرأ والد نورا الفاتحة.

بعد بضعة أيام جاء شخص من جانب العريس وأحضر جزءاً من المهر المتفق عليه، ثم جرى كلّ شيء بسرعة، وحصلت الخيّاطة داليا على أكبر عدد من الطلبات هذه السنة لخياطة أجمل الفساتين لحفل الزفاف. عندما تتذكر نورا ذلك، تشعر أن تلك الفترة كانت مفعمة بالحركة والنشاط. فلم يسبق لها أن زارت ذلك العدد من المحلات وأنفقت مبالغ كبيرة، ولم يحدث ذلك مرة أخرى. فلم تتوقف أمّها عن شراء كميات كبيرة من الآنية الخزفية والثياب والمجوهرات مع أن البيت الذي ستنتقل إليه نورا مؤثث بالكامل، كان قد اشتراه حميد فارسي منذ سنوات، وعاش فيه مع زوجته الأولى. لكن على الرغم من ذلك، أصرّت أمّ نورا على شراء آنية خزفية جديدة وبياضات جديدة للأسرّة. وأراها العريس الخزانة المليئة بالآنية الخزفية الباهظة الثمن، لكن أمّ نورا قالت إن تناول الطعام من صحون وآنية استخدمتها امرأة متوفاة فأل سيء، فاستسلم العريس مكرهاً، وأعطى حماته نسخة من مفتاح البيت، ولم يعد يكترث لِما أُخرج منه، وتجاهل التغييرات التي أجرتها حماته. ورأت أمّ نورا في ذلك كرماً ونبلاً فيه، وأحبّته منذ تلك اللحظة.

أُرسلت قطع الأثاث الثقيلة إلى بيت حميد مباشرة، ووضعت الأدوات والأشياء الأخرى في منزل والدَي نورا حتى يحين موعد العرس. فامتلأت غرفة بعد غرفة بالأغراض الجديدة، وبدأ والدها يتطلّع إلى اليوم الذي ستُنقل فيه كلّ تلك الأغراض إلى بيت العريس. لكن كان عليه أن ينتظر بعض الوقت.

عملت داليا وحدها لتجهيز زفاف نورا، وكانت تشكو أحياناً من

أنها لن تتمكن من إنجازها في الوقت المحدد، وشربت كمية كبيرة من العرق، ولم تنم إلا قليلاً.

«عندما تحين ليلة العرس، ستصبحين في المقبرة»، قالت لها نورا تداعبها لتخفف من شعورها بعذاب الضمير.

بعد سنوات، تذكّرت نورا تلك الأسابيع الأخيرة التي أمضتها في ورشة الخياطة. كانت داليا حزينة جداً. «يتركني الأشخاص الذين أحبّهم دائماً»، قالت لنورا فجأة في مساء أحد الأيام عندما كانتا تعملان وحدهما. وقالت إنها تأسف لأن عريس نورا رجل غني، لأن نورا أفضل مساعدة لها، وكان من الممكن أن تصبح خياطة ممتازة. وعندما ودّعت إحداهما الأخرى، سالت دموع كثيرة على خدَّي نورا، وأهدتها داليا قميصاً حريرياً، وقالت لها بتأثر شديد، «انظري - لقد صنعت لكِ هذا سرّاً. قطعة الحرير من بقايا ثوب آخر، وأخذت الأزرار الغالية الثمن من زبونة غنية، لذلك لا تفكّري في الأمر. للأشياء المسروقة طعم أفضل وتبدو أجمل مما لو كنت قد اشتريتها».

سكرت داليا حتى الثمالة في تلك الليلة.

في فترة لاحقة، تذكّرت نورا ذلك الوداع بوضوح شديد، لأنها ذهبت في ذلك المساء إلى حمّام السوق وتعرضت لتجربة غير مستحبة. بعد بضع دقائق من وصولها إلى الحمّام، دنت قابلة مشهورة في الحيّ من أمّها وطلبت من نورا أن تتبعها. كانت النسوة في المقصورة الكبيرة يُحدثن جلبة كبيرة، ترش إحداهن الماء على الأخرى ويلعبن مثل فتيات صغيرات، يجلسن في مجموعات متفرقة، تفرك إحداهن جسد الأخرى بالصابون والماء، وهنّ يغنين.

تبعت نورا المرأة المكتنزة إلى مقصورة بعيدة ليس لها باب. نظرت القابلة إلى داخل المقصورة، وقالت لهما: «نستطيع أن نفعل ذلك هنا».

قالت لها أمّها إنها يجب أن تزيل شعر جسمها بالكامل من أجل ليلة العرس. فعلت القابلة ذلك كما لو كان ذلك عملاً روتينياً، ومن دون أي اعتبار لنورا، بدأت تزيل شعرها بعجينة خاصة مصنوعة من السكّر، قطعة تلو الأخرى. كانت تلك العملية مؤلمة كما لو كانت ضربات بلوح فيه مسامير أو لسعات دبور. عندما بدأت تزيل شعر عانتها، كان الألم لا يطاق. وشعرت نورا بأن القابلة ستمزّق بشرتها، فراحت تبكي، وبدلاً من مواساتها، صفعتها القابلة على وجهها، وقالت متذمرة: «اسكتي يا بنت. إذا لم يكن بإمكانك أن تتحملي قليلاً من الألم التافه كهذا، فكيف ستتحملين زوجك؟ إن هذا الألم مقارنةً مع ذلك الألم لعبة أطفال». ثم غسلت نورا بعنف وخرجت مسرعة. بعد بضع دقائق، جاءت مصفّفة الشعر التي هدّأت من روع نورا، وقالت لها إن القابلة امرأة غليظة القلب والقالب فضحكت نورا لهذا الوصف الدقيق الساخر، وقلّمت المرأة اللطيفة أظافر أصابع قدمَي ويدَي نورا، وغسلت شعرها وصفّفته، وعلّمتها كيف يمكنها أن تلجأ إلى بعض الحيل إذا لم تحبّ ما يفعله لها زوجها حتى يبلغ لحظة الرعشة بسرعة عندما ينام معها.

عندما تعود نورا بذاكرتها، ترى أنها كانت في الأيام التي سبقت ليلة العرس مثل حَمْل يُتبّل ويُحضَّر للطهي. ذرت مصفّفة الشعر المسحوق على جسم نورا وعطّرتها. شعرت نورا بعطش وجفاف شديد في حلقها، لكنها لم تجرؤ على أن تطلب ماء. كان جسدها يحترق، وازداد الهواء في الحمّام حرارة. وعندما حاولت أن تنهض واقفة، شعرت بالجدران تدور من حولها، فأمسكتها مصفّفة الشعر من تحت إبطيها. أحسّت نورا بأنفاس المرأة على مؤخرة رقبتها. ثم بدأت مصفّفة الشعر تطبع قبلات على عنقها، وتهمس لها برقّة «ماذا بك يا بنيتي؟»

فقالت لها نورا، «أشعر بالعطش». تركتها مصفّفة الشعر جالسة على الأرض وخرجت بسرعة من المقصورة، ثم عادت تحمل بيدها طاسة نحاسية مليئة بالماء البارد، عندما تناولت نورا جرعة من الماء، آلمها حلقها الجاف. بذهول تام، رأت يد مصفّفة الشعر تداعب نهديها. بدون إرادتها، لاحظت باستغراب حلمتيها تتضخمان كما لو كانتا حلمتَي امرأة أخرى.

«يمكنكِ أن تأتي وتزوريني دائماً إذا أردتِ»، همست مصفّفة الشعر في أذنها وقبّلتها على شفتيها، وأضافت «سأدللك كما لا يستطيع أي رجل أن يدللك».

بعد الحمّام، عادت نورا وأمها إلى البيت صامتتين. كانت نورا حزينة لأن سعادتها بانتظار موعد العرس قد تبخرت. أقيمت حفلة الخطوبة الرسمية في منزل والديها الذي يتسع لعدد محدود من المدعوين. كانت رائحة بخور وعطر ثقيل وشمع تعبق أرجاء البيت. فقد طلبت أمّها مئات الشموع الكبيرة من مدينة حلب لزيادة الإضاءة، لأن أمّها لا تثق بالكهرباء التي لم تنقطع قط أثناء الاحتلال الفرنسي للبلد، لكنها بدأت تنقطع منذ الاستقلال مرتين في الأسبوع في البلدة القديمة. وكانت أمّ نورا ترى أن الظلام في ليلة الخطوبة أو العرس أسوأ مصيبة يمكن أن تحدث على وجه الأرض، نذير شؤم للحياة الزوجية.

عندما تزوجت ابنة أختها بركة، كانت أمّها تكرر ذلك دائماً إلا إن أحداً لم ينصت إليها. تذكّرت نورا أنه عندما انقطعت الكهرباء في ذلك الحين، لم يكترث أحد، لكن أمها تملّكها الرعب. وعندما أُضيئت الفوانيس، قالت أمها إن رائحة الزيت تكاد تخنقها.

بعد ثلاث سنوات، بعد إسقاطها الثالث، تناولت الشابة السم، وعزت أمّ نورا ذلك إلى انقطاع الكهرباء في ليلة عرسها.

بعد مرور زمن على حفلة خطوبتها، تذكّرت نورا البخور. فقد كان والدها يأمل في أن يحوّل المنزل إلى معبد بحرق البخور. كانت نورا تحبّ كثيراً رائحة البخور، وبناء على تعليمات أمّها، وضعت ابنة أختها الصغيرة قطعاً صغيرة من راتنج البخور في أوعية نحاسية عديدة مليئة بالجمر لتحترق.

عندما وقف والد نورا على الطاولة كمنبر يحمل بيده كتاباً، صمت جميع المدعوين. قرأ قصتين من الكتاب عن حياة الرسول بصوت عالٍ، وكان ينظر أحياناً بحدة إلى بعض النسوة اللاتي لم يتوقفن عن حشو أفواههن بالحلوى والفواكه المكسوة بالسكر.

وبناء على رغبة العريس، عُقد الزواج الرسمي بإشراف الشيخ محمود نادر، شيخ الجامع الأموي المعروف. لم يحضر العريس، لأن التقاليد لا تسمح للعريس برؤية عروسه قبل الانتهاء من عقد الزواج الرسمي.

لم تستوعب نورا أشياء كثيرة حدثت في حفلة الخطوبة الطويلة تلك. وبما أن والد عريسها لم يكن على قيد الحياة، مثّل عم حميد عائلة فارسي، الذي أتى خصيصاً قبل يوم مع زوجته من السعودية، ودار همس بأنه جاء لحضور هذه المناسبة العائلية بالطائرة الملكية، لأنه صديق مقرب جداً من الملك السعودي. وقد أعطى الرجل يده لوالد نورا قبل الشيخ، وأكد على أنها أمنية ابن أخيه بالزواج، وقدم له المبلغ المتبقي من المهر المتفق عليه. ردد الرجال بضعة أدعية معاً، ثم ألقى الشيخ موعظة عن حرمة الزواج وقدسيته.

جلست نورا في كرسي مرتفع كالعرش بعيدة عن الجميع، تحيط بها الورود والريحان والزنابق. كان عليها ألّا تبتسم، لأن ذلك يُعتبر

سخرية واستهزاء بأسرتها. «يجب أن تبكي إذا استطعتِ»، أوصتها أمّها. حاولت نورا أن تفكّر في مشاهد حزينة حدثت لها أو شاهدتها في أفلام، لكن الأفلام الوحيدة التي تذكرتها عن الأعراس كانت أفلاماً كوميدية، فحاولت عدة مرات ألّا تضحك عندما ترى ضيفاً يتصرّف بطريقة هزلية كما فعل أحد الممثلين في فيلم مصري رخيص.

لكن ما زاد الطين بلة، أن العمّ فريد الذي كان واقفاً بجانبها مع عدد من المدعوين أرادها أن تضحك. في تلك السنة طلّق للمرة السادسة، صارت له هيئة مستديرة مثل بطيخة حمراء. لم يتوقف عن إلقاء نكات وكان الآخرون يضحكون بصوت عالٍ بالعدوى. أخيراً، طلبت أمّ نورا من العمّ فريد أن يترك نورا بسلام ويبتعد عنها.

شعرت نورا بالامتنان لأمها، لكن عندما أغمضت عينيها وتذكّرت الصبي المسكين عندما كان يُختن وهو يبكي بحرقة، بدأت تبكي. ولم تتوقف عن البكاء على الرغم من كلمات مواساة أمها والنساء الأخريات.

تناهى إليها صوت أبيها من بعيد الذي بدأ يتلو بصوت عال مع الرجال الآخرين بعض الآيات القرآنية التي تبارك الزواج.

«أميرتي الصغيرة»، قالت لها أمها، وقد تلطخ وجهها بالدموع من شدة تعاطفها مع ابنتها عندما فتحت نورا عينيها، «هذا قدرنا. يجب على النساء أن يغادرن دائماً منزل والديهن».

قبل بضعة أيام من ليلة العرس جاء يوم الحنّاء. اشترت أمها كمية كبيرة من الحنّاء، وامتلأ المنزل بالنسوة من العائلة ومن الحيّ اللاتي كنّ يرقصن ويغنين، وصبغن أيديهن وأقدامهن باللون الأحمر، ونقشت بعضهن أشكالاً هندسية، وصبغت بعضهن ألواناً على راحتي أيديهن وأصابعهن وأقدامهن، ثم حلّ أخيراً يوم العرس، فنُقلت الأغراض التي اشتُريت مؤخراً إلى بيت العريس في موكب طويل.

تنفّس والد نورا الصعداء.

سار أكثر من عشرة رجال من أكابر حيّ الميدان بخطوات وئيدة في مقدمة الموكب، يتبعهم رجل طويل القامة في ثوب عربي يحمل مصحفاً كبيراً مفتوحاً، يتبعه صبي صغير يرتدي ثياباً جميلة يحمل على رأسه وسادة العريس، يسير خلفه طفل آخر يحمل وسادة العروس، ثم أربعة شبان أقوياء يحملون المراتب والسرير، يليهم رتل مؤلف من ستة رجال كلّ اثنين يسيران بجانب بعضهما، يحملان على أكتافهما بساطاً ملفوفاً، يليهم أربعة رجال يدفعون عربة عليها خزانتان صغيرتان ثُبّتت عليهما طاولتان صغيرتان بجانب السرير، ورجل قوي البنية يحمل مرآة كبيرة لها إطار. وأثناء مرور الموكب، كانت بعض النسوة الواقفات أمام بيوتهن يرقصن ويلقين أوراق الورد والياسمين على الموكب. حمل عشرة رجال آخرون الأواني الخزفية، ستة رجال أقوياء آخرون يحملون أدوات المطبخ الكبيرة والصغيرة، يتبعهم آخرون يحملون الكراسي والمقاعد والوسائد والستائر المطوية وبياضات السرير، وقد احتاج حمل ثياب نورا وحدها المعبأة في بقج كبيرة ملونة بألوان زاهية، إلى ستة شبان.

ثم استقبل الأصدقاء والأقارب الموكب في بيت العريس بالبهجة والغناء وتناول المشروبات المنعشة.

دفع والد نورا مبلغاً سخياً لقاء مساعدة هؤلاء الأشخاص، وقبّلوا يده وانصرفوا وهم يغنون.

جاءت مصفّفة الشعر التي تفحّصت جسد نورا في الحمّام، وأزالت الشعرات المتبقية التي بقيت من عملية النتف الأولى في الحمام، ثم دهنت جسد نورا بزيت عطر الياسمين الذي عبقت رائحته بقوة. ثم ارتدت نورا فستان الزفاف الثقيل، وأُلبست في ذراعها اليسرى عشر أساور ذهبية، ولُفَّ حول عنقها عقد من الذهب،

ووضع قرطان في أذنيها، ثم ذُرَّ مسحوق البودرة على وجهها ثم ما تبقى من الماكياج. عندما أنهت النسوة كلّ ذلك، لم تعرف نورا نفسها عندما نظرت في المرآة. فقد بدت أجمل بكثير، وأكثر أنوثة.

ثم خرجت نورا من منزل والديها إلى عربة مزدانة، أمّها على يمينها، وميادة على يسارها. قالت نورا في نفسها إنه يشبه مشهداً رأته في أحد الأفلام المصرية، وصعدت خلفهن الصديقات والقريبات في عشرين عربة أخرى، وبدأ الموكب يتحرك في الحيّ باتجاه الشارع المستقيم. راح المارة والمتسولون والباعة الجوالون يحدقون في موكب العربات التي تجرّها الخيول، وردد بعضهم الدعاء: «ليباركك النبي، ويهبك أطفالاً صالحين».

«تحوّل عرس ابنة أخي»، بدأت ميادة بالحديث، «إلى كارثة في الأسبوع الماضي. فقد كان والدا عريسها تقليديين إلى درجة كبيرة، وقبل ساعتين من العرس طلبت حماتها من قابلة تعرفها أن تتأكد من عذرية ابنة أخي. لم تعترض ابنة أخي التي تحبّ عريسها كثيراً والتي كانت تشعر بأنها بدأت تقترب من الجنة لأنها عذراء، لكن والديها رفضا ذلك وقالا إن حماتها التي تعارض هذا الزواج منذ البداية تتعمد إهانة العروس. حدث لغط شديد، ونشب شجار بين العائلتين، وبعد ساعة دُقَّ ناقوس الخطر، وتمكنت الشرطة من فصل الطرفين، وتحوّل فناء المنزل إلى مشهد حزين، ولم تعد فيه سوى كومة من الحطام، وتحطمت سعادة ابنة أخي».

شعرت نورا بالغثيان، وتساءلت لماذا تحكي لي هذه المرأة عديمة الذوق هذه القصة، هل تقصد أن ذلك قد يكون تلميحاً مفيداً لي؟

ترجّلت نورا من العربة أمام بيتها الجديد وسارت نحو المدعوين

الذين بدأوا يغنون ويرقصون ترحيباً بها. أعرب أكثر من مئة شخص عن سعادتهم وبهجتهم. عانقتها داليا وهمست في أذنها، «إنك أجمل من أي أميرة في الأفلام»، ثم عادت إلى الوراء واختفت. وضع لها رجل من عائلة العريس كرسياً عند مدخل البيت، وأعطتها امرأة قطعة عجين بحجم قبضتها. كانت نورا تعرف ما الذي يجب أن تفعله. أخذت قطعة العجين، وصعدت فوق الكرسي وألصقت قطعة العجين بقوة على القوس الحجري عند مدخل البيت. عندما ظلت قطعة العجين عالقة في مكانها، هلّل المدعوون وصاحوا «مثل قطعة خميرة العجين سيزيد عددكما وتتكاثران».

دخلت نورا إلى بيت الزوجية وأُعجبت بفناء البيت المزدان الذي ملأته أمّها بالشموع والمباخر كما فعلت في منزلها في حفلة الخطوبة.

بحثت نورا بعينيها عن أبيها في وسط هذا البحر المائج من الرجال والنساء، واعتراها شعور غريب بالوحدة. فقد كانت تأمل أن تسمع منه كلمة تشجيع، لكنها لم تره.

بصمتٍ، أخذتها أمّها إلى غرفة فيها عدة نساء مسنّات ابتسمن لها. كان عليها أن تتحمّل الآن نصف ساعة من ذلك المشهد الرخيص الذي كانت صديقاتها قد حدّثنها عنه، وبدأت العجائز يحدّثنها على انفراد أحياناً، ومعاً كجوقة سخيفة في أحيان أخرى. وقفت نورا في وسط الغرفة، بينما استندت أمها إلى الحائط وراحت تراقب ما يجري كما لو أن نورا ليست ابنتها. بدأت العجائز يُسمعنها وصايا حفظنها عن ظهر قلب.

«مهما قال لكِ، لا تخالفيه. فالرجال لا يحبّون ذلك».

«مهما سألكِ، فإنك لا تعرفين الجواب، حتى لو عرفتِه. فالرجال يحبّون أن تكون المرأة جاهلة، ولا يهمهم ما نعرفه».

«تمنّعي، لا تستسلمي له بسهولة. قاوميه حتى يسيطر عليك.

الرجال يحبون ذلك. فإذا سلّمت له نفسك بسهولة - حتى لو كان ذلك بدافع الحب - فإنه سيعتقد أنك فتاة سهلة منحلة أخلاقياً».

«وعندما يأخذك لا تخافي. ما عليك إلا أن تكزّي على أسنانك قليلاً حتى يلجك، وقبل أن تأخذي عشرة أنفاس، يبدأ عصير شهوته يتدفق في داخلك. ابدئي بالعدّ وقبل أن تصلي إلى الرقم مئة، ستسمعينه وهو يشخر، وإذا كان قوياً، فإنه سيفعل ذلك ثلاث مرات، لكنه بعد ذلك سيصبح خرقة متعرّقة رخوة».

«يجب أن تبذلي جهدك حتى تُفرغيه في ليلة العرس، لأن القذف الأول ليس هو الذي يضع قلبه بين يديك وإنما القذف الأخير، ومنذ ذلك الحين، يصبح رهن إشارتك، أما إذا لم يكن راضياً في ليلة العرس، فإنه سيصبح سيّدك وسيذهب إلى العاهرات».

واصلن كلامهن كما لو أن نورا ستخوض معركة ضد عدو شرس. تساءلت لماذا يجب عليها أن تعامله هكذا، حتى يبدو بعكس ما هو؟ لم تعد نورا تسمع ما يقلنه لها. شعرت أن النسوة والغرفة بدأت تدور حولها كما لو كانت تقف فوق قرص دوّار. استرخت ركبتاها، لكن النسوة أمسكنها من ذراعيها، وأجلسنها على مقعد خشبي، وواصلن حديثهن. حاولت نورا أن تحفر نفقاً لنفسها في وسط تلك الضوضاء لتسمع ما الذي يفعله المدعوون خارج الغرفة. وسمعت فجأة صوت أبيها يناديها.

بعد قليل، سمعت صوت طرقات على الباب وسمعت صوت أبيها يناديها. دفعت نورا النسوة جانباً واندفعت إلى خارج الغرفة. ابتسم لها أبوها وسألها، «أين كنتِ؟ كنت أبحث عنك».

«وأنا أبحث عنك»، همست نورا ودموعها تسيل على كتفه. أحسّت بالأمان بوجوده، لكنها أحسّت بشيء من الكراهية تجاه أمها

التي تركتها تحت رحمة أولئك النسوة العجائز. لكن الهراء الذي قلنه لها ظلّ عالقاً في ذاكرتها، كلّ كلمة منه، لسنوات طويلة.

كانت النسوة في فناء البيت يرقصن على ضوء الشموع الملونة، وانهمكت أمها بإصدار الأوامر. وقفت نورا للحظة وشعرت كأنها تائهة. ثم سمعت ضجيجاً في الشارع. أمسكت إحدى قريبات العريس بيدها، وقالت لها: «تعالي معي»، وفجأة وجدت نورا نفسها في غرفة مظلمة. «لا يُسمح لنا أن نفعل ذلك، لذلك انتبهي الآن لما ستشاهدينه»، همست لها وتوجهت إلى النافذة ورفعت الستارة الثقيلة. في تلك اللحظة، رأت نورا حميد لأول مرة. بدا أنيقاً في بدلته الأوروبية البيضاء، يسير نحو البيت بين مجموعة من حاملي المشاعل والسيوف.

أرادت نورا أن تراه منذ حفلة خطوبتها. أخبرتها أمّها عن مكان محترفه، لكنها تجنبت الاقتراب منه كي لا يراها ويتعرّف عليها. قالت لها أمّها: «الرجال لا يحبّون النساء الفضوليات، لأن ذلك يجعلهم يشعرون بعدم الأمان». لم تكن الصورة التي حصلت عليها أمها خفية، بأساليب ملتوية، واضحة تماماً. كانت صورة جماعية التُقطت في رحلة، ولم تكن ملامح حميد الواقف في الصف الخلفي واضحة تماماً. توقف الموكب المهيب. أصبح الآن قريباً جداً من النافذة. إذا فتحتها فقد تلمس وجهه. لم يكن طويل القامة، لكن الوقار باد عليه وجسمه رياضي، وبدا أكثر وسامة ورجولة من جميع الأوصاف التي ذكروها لها. «المشاعل تجعل جميع الرجال يبدون أجمل»، سمعت المرأة الواقفة بجانبها تقول، لكن في تلك اللحظة، بدا حميد في نظرها أميراً.

بدا كلّ شيء غير واقعي في ضوء المشاعل.

«يجب أن تخرجي الآن وتجلسي على العرش»، قالت لها المرأة

عندما اقترب الموكب من باب البيت للترحيب به بأغنية بهيجة. خرجت نورا من الغرفة وركضت مباشرة إلى ذراعَي أمها. «أين كنتِ طوال الوقت؟» سألتها أمها غاضبة.

في تلك اللحظة، دخل حميد إلى البيت، وتوجهت عيناه الثاقبتان مباشرة إليها. احمرّ وجهها. سار نحوها بخطوات ثابتة، فنظرت إلى الأسفل، ثم أمسك يدها وأخذها إلى غرفة النوم.

أسمعها حميد كلمات هادئة. قال لها إنه خمن كيف تبدو مما وصفنه له، لكنها تبدو أجمل بكثير مما توقعه، وقال إنه سيسعدها، وإنها يجب أن تطيعه وألّا تخاف منه.

لمس وجهها بيديه واقترب منها كثيراً فرفعت عينيها ونظرت إلى عينيه. قبّلها على خدها الأيمن أولاً، ثم على شفتيها. لبثت ساكنة، لكن قلبها بدأ يخفق بقوة. فاحت منه رائحة عطر الخزامى وزهر الليمون. كان طعم فمه مرّاً قليلاً، لكن قبلته كانت لطيفة، ثم تركها ودخل إلى الحمّام.

في تلك اللحظة، دخلت أمها وجارتها بديعة إلى غرفة النوم كما لو كانتا تنتظران خارج الباب. خلعتا فستان زفافها الثقيل وحليها، وأعطتاها ثوب نوم حريرياً جميلاً، ومسّدتا السرير، ثم اختفتا. «تذكّري، لقد مررنا كلنا بهذه التجربة وما زلنا أحياء»، قالت لها بديعة وضحكت ضحكة خبيثة.

«لا تخيّبي ظنّي يا طفلتي»، همست أمّها والدموع في عينيها، «جمالك سيأسره، وستحكمينه بالخضوع له». قبّلت نورا الجالسة على حافة السرير، المذهولة، وخرجت بسرعة. كانت نورا متأكدة من أن المرأتين تربضان خارج الباب.

خرج حميد من الحمّام يرتدي بيجاما حمراء، ومدّ لها ذراعيه. بدا لنورا وسيماً أكثر مما كان في بدلته.

بدأت النسوة في فناء البيت يغنين أغاني عاطفية تتحدث عن شوق المرأة التي تنتظر زوجها الذي هاجر، وعن لياليها المؤرقة وعطشها الذي لا يرتوي للحصول على الحنان، وعندما انبعثت الأغنية الثالثة، ولجها حميد. عاملها بحذر شديد واحترام كبير، وتأوهت وامتدحت رجولته، كما أخبرتها صديقاتها وأمّها ما عليها أن تفعله. وطفح وجه حميد بالسعادة والرضاء على رجولته وهذا ما تنبأت به النسوة اللواتي لقّنوها متى وكيف عليها أن تتأوه.

لم يكن الألم الذي ألمّ بها شديداً كما كانت تخشى، لكنها لم تجد أي متعة طوال تلك العملية. لكن الأمر لم ينته بالنسبة له. فعندما دخلت إلى الحمّام، نزع الملاءة الملطخة بدم عذريتها من فوق السرير وأعطاها للمرأتين اللتين تنتظران خارج الباب، فرحّبتا به ببهجة شديدة.

عندما خرجت نورا من الحمّام، كان حميد قد وضع ملاءة نظيفة فوق المرتبة، وقال لها بضحكة خفيفة: «لقد أعطيت الملاءة الأولى للمرأتين اللتين تنتظران خارج الغرفة - ليتركننا بسلام الآن». وكان محقاً، فلم يعد هناك أحد يراقبهما.

أبدى حميد إعجابه بنورا عندما قال لها بنبرة رومانسية، «أنت أجمل امرأة رأيتها في حياتي»، ثم أضاف، كان جدّي مخطئاً بشأن العمة ميادة»، وسرعان ما غطّ في النوم. لم تفهم نورا قصده.

لم يغمض لها جفن في ليلة زفافها تلك حتى بزوغ الفجر. تأثرت كثيراً لهذا التغيير الكبير الذي حدث في حياتها، وانتابها شعور غريب لكونها في سرير مع رجل غريب.

استمرت احتفالات العرس طوال أسبوع، وكان حميد يضاجعها كلما أصبحا وحدهما في غرفة النوم، سواء عند القيلولة، أو في

الصباح الباكر، أو في الليل، أو في أثناء ذلك. أحبّت رغبته فيها، لكنها لم تشعر بشيء تجاهه.

«سيأتي ذلك مع الزمن. أنا متأكدة من ذلك»، قالت لها إحدى صديقاتها تواسيها.

لكن صديقتها أخطأت في تكهّنها.

15

أعرب العقيد شيشكلي عن تقديره الشديد للوحة المكتوبة بخطّ الخطاط حميد فارسي. وبدأ نصري يهديه قصيدة كلاسيكية مكتوبة بخطّ جميل كلّ أسبوع تقريباً. غمرت حميد فارسي السعادة لأنه كُلّف بكتابة هذه اللوحات، لاسيما أن بعض أصدقاء الرئيس بدأوا يُعجبون أيضاً بأعماله وبدأوا يكلّفونه بكتابة لوحات لهم، واعتبر حميد أن نصري فأل خير عليه، لكن نصري لم يلاحظ ذلك.

عندما جلب نصري لوحة خطّ أخرى للرئيس شيشكلي عندما دعاه إلى العشاء، كان الرئيس في غاية السعادة ووضع ذراعه حول كتف نصري، وقال له إنه لم يشعر بسعادة كما الآن منذ ذلك اليوم الذي أُعطي فيه قرص عسل كاملاً ليأكله وحده عندما كان طفلاً فقيراً، وعانق ضيفه، وأضاف، «أنت صديق حقيقي».

طلب من المدعوين الآخرين أن يجلسوا، وخرج شابكاً يده بيد نصري إلى الحديقة وحكى له بإسهاب وبطريقة مؤثرة عن سوء حظه مع السياسيين. وتحدّث الرئيس كما يتحدّث فتى قروي وحيد يشعر بعزلة خانقة ويريد أن يُفرغ ما يجيش في صدره لأحد سكان المدينة، لا كرئيس دولة قوي. لم يفهم نصري شيئاً عن السياسة، لذلك رأى من الأفضل أن يلتزم الصمت.

عندما عادا بعد ساعتين، كان المدعوون لا يزالون جالسين حول

الطاولة، متشنجين من الإرهاق الذي بدأوا يشعرون به، وابتسموا بخنوع في وجه رئيسهم الذي لم يكد يلاحظ أحداً منهم. شكر نصري مرة أخيرة على اللوحة وتوجه إلى غرفة نومه محنيّ الكتفين. أخيراً، طلب المسؤولون عن البروتوكول من المدعوين أن يغادروا. ابتسم نصري مسروراً بمكانته لدى الرئيس، بينما راح الآخرون يشتمون بصمت.

كان توفيق مصيباً عندما قال له إن لفن الخطّ تأثيراً سحرياً على الإنسان العربي. حتى العاهرة بذلت جهوداً غير عادية لإرضائه منذ اليوم الذي أهداها لوحة الخطّ، وسالت من عينيها دموع الفرح عندما رأت اسم الخطاط الشهير وتوقيعه تحت عبارة جميلة عن الحبّ.

لأول مرة وجدها نصري مفعمة بالحيوية الشبقة والحركة في السرير. شعر أنه في الجنة تحيط به سحابة من العطر، وتغمره بشرتها الناعمة. غمره شعور لم يشعر به من قبل - سواء مع إحدى زوجاته أو مع العدد الكبير من العاهرات. اشتعل قلبه. هل يقول لها إنه مغرم بها بجنون؟ من الأفضل ألّا يفعل ذلك لأنه يخشى من ضحكتها. فقد قالت له ذات مرة أنْ لا شيء يضحكها من كلّ قلبها أكثر مما يقوله لها الرجال المتزوجون بأنهم يحبّونها بجنون قبل بلوغهم الرعشة، لكن ما إن ينتهوا ويستلقوا بجانبها جامدين حتى تفوح منهم رائحة العرق، ويفكّرون في زوجاتهم ويشعرون بالذنب.

لذلك، لم يقل لها نصري شيئاً ولعن جُبنه. عندما ذهبت لتغتسل وابتسمت له ابتسامة باردة - كعادتها قبل أن يغادر - شعر بالامتنان لأن عقله هيمن عليه في تلك اللحظة. دفع لها مبلغاً من المال وغادر. أقسم نصري ألّا يُغرَم بعاهرة، لكنه ظل يهديها لوحة خطّ بين فترة وأخرى، موحياً لها بتباهٍ بأنه هو الذي أملى على الخطاط هذه العبارات. فوجئ نصري بأن العاهرة الشابة، مثل الرئيس، تستطيع

أن تناقش تفاصيل الخطّ التي لم يلاحظها هو نفسه. فعندما تكون الكلمات متداخلة ومتشابكة مثل غابة من الخطوط الدقيقة لا يستطيع أن يقرأها جيداً، أما الرئيس والعاهرة فكانا يستطيعان قراءة كلّ كلمة كأنها أبسط شيء في العالم، وعندما كانا يقولانها له بصوت عالٍ، يرى هو أيضاً الكلمات تخرج واضحة من غابة الحروف.

كان يحبّ أن يناقش مع الخطاط سرّ مهنته، لكن سرعان ما تموت الأسئلة وهي لا تزال على طرف لسانه. خشي أن يزول شعوره بالتفوق أمام هذا الرجل المتعالي لو اعترف له بجهله. أتيحت له الفرصة مرة واحدة لمناقشة جزء صغير من السرّ. فعندما وصل ذات يوم إلى محترف الخطاط ولم يجده، رجاه مساعده، الخطاط العجوز أن ينتظر كما طلب منه معلّمه، وريثما يمضي الوقت حتى يعود معلّمه أراه لوحة مكتوبة بخطوط رفيعة رأسية لها عقفات مقوسة ومنحنية وقدر كبير من النقاط ليقدّمها للرئيس، لكن كلّ ما استطاع أن يقرأه هو كلمة «اللّه».

فقال للمساعد: «أنا لست خبيراً، هل يمكنك أن تقرأ لي اللوحة؟»

فوجئ المساعد، لكنه راح يمرّر، مع ابتسامة ودودة، إصبعه فوق الزجاج، متتبعاً حروف كلّ كلمة، وفجأة انبثقت جملة كاملة من تلك السطور المتشابكة: زعيم *الشعب*، *العقيد* شيشكلي، *يد اللّه معك*.

فوجئ نصري عندما رأى مدى سهولة قراءة العبارة، لكن سرعان ما عاد الغموض يتراءى أمام عينيه. فقد كانت كلمات «اللّه» و «شيشكلي» و «الزعيم» واضحة كلّ على حدة، أما باقي الكلمات فقد ضاعت في غابة الحروف المذهّبة.

كانت بداية عام ١٩٥٤ سيئة. فقد نشبت معارك ضد القوات الحكومية في كل مكان، وتعرّض الرئيس شيشكلي لضغوط قوية، فألغى لقاءاته الأسبوعية، ولم يعد نصري يراه إلّا في الصحف وقد بدا شاحباً وقد تقلّص حجمه داخل بدلته العسكرية، وبدت عيناه حزينتين. تذكّر نصري مرة أخرى ابن المزارع الوحيد الضعيف الذي فتح له قلبه. «لا شيء سوى الأشواك والندوب»، همس لنفسه عندما رأى ذلك الوجه الحزين.

في ربيع تلك السنة، أُطيح بالعقيد في انقلاب أبيض. ألقى الرئيس كلمة وداع قصيرة وغادر البلد وقد ملأ جيوبه وحقائبه بالذهب والدولارات التي انتزعها من البنك المركزي للدولة. حزن نصري عدة أسابيع. قال له مدير أعماله توفيق عليه ألا يخشى شيئاً، وإن الحكومة الديمقراطية الجديدة ستفتح البلد، وإنه في ظل الحرية لا يهاجم أحدٌ رجالَ الأعمال، وقال له توفيق أيضاً إن ذلك الفلاح البدائي شيشكلي الذي لم يعرف شيئاً ويبدي رأيه في كل شيء، كان يثير غضبه.

ثم أضاف توفيق ضاحكاً، «ومن الآن فصاعداً، لن تضطر لشراء لوحات خطّ غالية الثمن كلّ شهر».

غضب نصري لأن مدير أعماله عديم الإحساس وناكر للجميل، ووصلت كلمات طرد مساعده الذي يعمل لديه منذ سنوات طويلة على رأس لسانه، لكنه تمالك نفسه وكبح جماح غضبه عندما سمع أصوات البهجة العارمة من أفواه سكان الحيّ الذين كانوا منذ فترة قصيرة يخرجون في مسيرات يعبّرون فيها عن استعدادهم لبذل أرواحهم فداء للرئيس. قال نصري يواسي نفسه إن دمشق قحبة جاهزة لتفتح ساقيها لأي حاكم يأتي ويحكمها، وها قد جاء الآن حاكم ليحكم باسم الديمقراطية البرلمانية.

اعترى نصري شعور بأنه أحب العقيد المخلوع مثل أخ لكنه لم يعترف بذلك لأحد طوال تلك السنوات. وبدأ يرى كابوساً مزعجاً يتكرر كل ليلة يفتح فيه الرئيس باب منزله ويبتسم لشخص غريب لم يميّز نصري وجهه. لكن الابتسامة تجمّدت كقناع عندما صوّب الشخص الغريب مسدسه نحو العقيد وأطلق رصاصة. كان نصري يستيقظ مجفلاً، مبللاً بالعرق.

لم يسقط البلد في لجة الفوضى كما ظنّ العقيد شيشكلي. وفي صيف سنة ١٩٥٤، لاحظ نصري أن الدمشقيين يعيشون في جو يسوده السلام أكثر من المعتاد، وبدأوا يضحكون بصوت أعلى من ذي قبل، ولم يعد يذكر أحد اسم الرئيس المخلوع، ولم يعرف المزارعون في حياتهم محاصيل أوفر مما حصلوا عليها في ذلك الصيف. وفجأة، بدأت أكشاك الصحف تبيع أكثر من عشرين صحيفة والعديد من المجلات، تتنافس كلها على جذب القراء.

كانت مشاعر أسمهان فاترة تجاه الانقلاب ونفي الرئيس. قالت له ذات مرة بفظاظة، «بالنسبة لي فإن جميع الرجال متشابهون. فعندما يتعرّون أمامي، لا أعود أميّز بين بائع الخضراوات والجنرال»، وأضافت، «العُري تمويه أفضل من قناع الكرنفال». سرت قشعريرة في جسد نصري عندما فهم معنى ما قالته وهو في طريقه إلى المنزل.

لكنها كانت تقدّر كثيراً لوحات الخط التي يهديها لها، وتستمتع بالرسائل التي يدّعي أنه أملاها على الخطاط والتي تضم حِكَماً وأقوالاً مأثورة وقصائد تمجّد المتعة الحسيّة ومباهج الحياة، لكن لم يوجد في أي منها كلمة واحدة عن العشق الذي يشعر به نصري تجاه أسمهان. وإذا بدا هذا الحبّ حتى كتلميح في عبارة فرعية، كان نصري يطلب من الخطاط أن يكتب الرسالة من جديد دون هذا

التلميح الذي قد تفهمه أسمهان بشكل خاطئ. «لا أريد أن تسيء فهمي. فالنساء يزنّ كل كلمة، ويفكّرن بشكل معقد، ليس كالرجال. فنحن نفكّر دائماً بطريقة مباشرة بسيطة، ولذلك يمكنني الاستغناء عن هذه المشكلات في حياتي».

اعتبر حميد فارسي أن هذه الملاحظة قد تعني أن نصري لا ينام من شدّة الشوق، لكنه لا يعرف أن هذه الكلمات ليست خيالاً شعرياً وإنما هواجس. كان شوق نصري لأسمهان في ذلك الوقت يكاد يمزّق كيانه. فإذا سمع اسمها بالصدفة، سرى دفء في قلبه، ومع أنه كان يقسم لنفسه كلّ يوم أنه سينساها، لم يطعه قلبه قط. وتعيَّن عليه أن يدرك أنه لا يستطيع أن يقرر ألّا يعشقها، كما لا يستطيع أن يقرر ألّا يموت. ومن سوء حظ نصري أنه لم يكن بإمكانه أن يخبر بعشقه أحداً، ولا حتى الصيدلاني إلياس، عن شغفه بأسمهان، وعن غيرته من زبائنها الآخرين، دون أن يبدو سخيفاً. فمن الذي سيفهم أن رجلاً ناضجاً له ثلاث زوجات لا يزال يفقد عقله من أجل عاهرة مثل شاب محموم؟

لم يعرف أحد أن نصري كان مقتنعاً منذ طفولته بأن عليه ألّا يحبّ أحداً، وأنه إذا تجرأ وأحبّ أحداً فإن حبيبته ستُسلب منه. وفي طفولته كان يهتم بأبيه لا بأمّه التي اعتبرها مجرد امرأة بين عدة نساء في الحرملك. ولم يبدأ يحبّها إلّا بعد أن بلغ العشرين من عمره، عندما رأى أنها امرأة في غاية الطيبة، وبدأ يكرّمها أكثر من أي شخص آخر. ولم يتزوج زوجته الثالثة، نسيمة، إلّا لأن أمّه أحبتها لأخلاقها ولأنها تملك صوتاً رائعاً، لكنها لأسف وحزن نصري، ليست جميلة، وماذا فعلت أمّه، بدلاً من أن تفرح بزواجه؟ ماتت في اليوم التالي من ليلة عرسه وكان عليه أن يعيش بقية عمره مع نسيمة.

غالباً ما كان يجافيه النوم، ويتساءل ما هي اللعنة التي حلّت

عليه، أو هل الحبّ بحيرة يجب ملؤها بالزواج والعمل لكي لا يغرق فيها. وفي معظم الأحوال، كان يحب النساء اللواتي لا يمكنه الحصول عليهن. ألم يتزوج دائماً رغماً عنه؟ فقد أرغمه أبوه على أن يتزوج زوجته الأولى لمياء، وتزوج زوجته الثانية حسماً للجدل وخوفاً من مسدس شقيقها، وتزوج الثالثة إرضاء لأمه. ولذلك لا يمكنه أن يقول إنه تزوج أياً منهن عن حبّ.

ظلّ نصري متشبّثاً بقراره ألّا يحبّ أسمهان كي لا يخسرها، لكن ما إن يضيع بين ذراعيها البضّتين، ويغوص في أعماق عينيها الزرقاوين، حتى يفقد القدرة على التحكم في قلبه. وفي إحدى المرات، راح يدندن وهو يضاجعها مع أنه يعرف تماماً أن صوته نشاز.

«لا يهمني إن كنت تزأر مثل طرزان، فهذا شيء يضحكني، لكن لا تنظر إليّ بهذه الطريقة البلهاء أثناء ذلك وكأنك تعشقني»، قالت له أسمهان، «فهذا يجعلني أخاف منك، وإلّا فإني أفضّل أن أكون مع أحد أولئك الرجال المسنين الذين تكمن مشكلتهم الوحيدة في عدم القدرة على الانتصاب».

«هل يمكنك أن تكتب لي رسالة بكلمات حبّ غير ظاهرة تتّجه إلى القلب مباشرة، ولا تبدو سخيفة للعقل؟» سأل حميد فارسي. فقد أعطى لنفسه وقتاً أطول في عصر هذا اليوم الحار من شهر أيار. أراد أن يقدّم لأسمهان لوحة كُتب عليها اسمها الكامل، مع رسالة جميلة.

«كيف يمكن أن تصل الكلمات إلى القلب من دون أن تمرّ من بوابة العقل؟» أجابه فارسي، وهو منهمك في تخطيط عنوان كتاب. كان نصري مفتوناً برؤية كيف يستطيع الخطاط تظليل كلّ حرف كما

لو كان هناك ضوء يسطع عليه من الزاوية اليسرى، فيمنح الظل تلك الحروف بعداً ثالثاً، وتبدو كأنها نافرة من الورقة.

«بنفس الطريقة التي يبهج فيها فن الخطّ القلب، حتى لو لم يكن بإمكانك أن تفك رموز الكلمات»، قال له نصري. توقف فارسي لحظة ورفع عينيه، ودُهش عندما وجد أن هذا الرجل شبه الأمي استطاع أن يجيبه بذكاء.

«هذا شيء مختلف»، قال فارسي ليكسر الصمت المشوب بالتوتر. لم يستمر الأمر أكثر من دقيقتين، لكن الصمت بدا لنصري دهراً. «إن الموسيقى الداخلية للخط تثير الدماغ ثم تشقّ طريقها إلى القلب - مثل الموسيقى التي لا تعرف أصلها أو ما هي كينونتها، ومع ذلك، فإنك تستمتع بها».

لم يفهم نصري ما قاله له حميد، لكنه هزّ رأسه.

«على الرغم من ذلك، ليس من الخطأ أن ترسل قصائد حبّ معروفة إلى امرأة تحبّها، وكلّما كانت من الأدب القديم أصبحت أفضل، عندها يمكنك أن تقول إنك ترسلها لها لأنك أحببت تلك القصائد وأردت أن تقاسمها المتعة نفسها... قد يكون شيئاً من هذا القبيل، لكن الشرح يظل عقلانياً يقنع الدماغ. لا يمكن أن تُهرَّب اللغة لأنها تنشأ أصلاً في الدماغ».

«ليس من السيء أن تتحدّث بوضوح في وسط غموض الشعر»، قال نصري الذي قرأ هذه العبارة في الصحيفة في صباح ذلك اليوم، وأعجبته. العمود المخصص لمخاطبة رئيس الدولة الجديد الذي يبدو دائماً أنه ينطوي على معنى مزدوج.

«هل أنت مستعجل؟» سأله فارسي. فقد كلفته الوزارة بإعادة تصميم جميع الكتب المدرسية، لأنه تقرر تطهيرها من أي آثار للديكتاتور شيشكلي في عهد الديمقراطية الجديدة.

عندما بدأ حميد فارسي يتذمر من كثرة المهام التي كُلِّف بها، قال له نصري بفظاظة لأول مرة، «لا يوجد أسبقية لشيء على عمل قباني، حتى لو كلفك به البرلمان. فقط لكي يفهم أحدنا الآخر».

استجاب له حميد فارسي مطيعاً، لأن نصري يدفع عشرة أضعاف المبلغ الذي يمكن أن تدفعه أي جهة أخرى.

في اليوم الخامس، كانت الرسالة جاهزة موضوعة في مغلّف أحمر مع نسخة خطية صغيرة في إطار لقصيدة غزلية معروفة لابن زيدون. وكالعادة، وجدت أسمهان لوحة الخط في غاية الروعة، لكن الرسالة المرفقة أبكتها. وقف نصري في صالون بيتها مرتبكاً، ورأى أنها أُخذت بجمال الكلمات، وخرجت من القفص المصنوع من فولاذ برودتها وارتمت بين ذراعيه، وقالت: «افعل بي ما تشاء اليوم. فأنت سيّد قلبي»، وسلّمته نفسها كما لم تفعل من قبل.

مكث نصري معها حتى الصباح. وفي اليوم التالي، رفضت أسمهان أن تأخذ منه أي مبلغ لقاء تلك الليلة. «لقد أعدت لي بهذه الرسالة الأشياء التي سرقها العالم مني»، قالت له وقبّلته بحرارة على فمه.

عندما خرج من بيتها، وقف نصري يفكّر في ثدييها الناهضين وشفتيها الجميلتين، يتنشّق عبير عطر الياسمين الذي رشّت به شعرها بعد أن خرجت من الحمّام. لقد جلب له حميد فارسي الحظ، وكان على قناعة تامة بذلك.

عاد إلى المكتب كأنه ركّب نابضاً في قدميه، لا يفكّر في شيء، تغمره السعادة ورائحة الياسمين.

16

لم يظلّ حميد فارسي غريباً بالنسبة لنورا في ليلة زفافها فقط، وإنما ظلّ كذلك كلّ الليالي التي تلت حتى هربت. لم تساعدها كل نصائح النساء التي قدمنها لنورا بحسن نية أنها ستتعود على الحياة مع زوجها. لكنها اعتادت على الغرف والأثاث وعلى وحدتها. لكن كيف يمكن أن تعتاد على رجل غريب؟ لم تعرف جواباً مقنعاً على ذلك.

مع أن حميد كان رجلاً لطيفاً في الفراش يراعي مشاعرها، فقد ظلت نورا تعاني من الشعور بالوحدة. وكلما اضطجع فوقها وولجها، لا تعود تستطيع أن تتنفّس حتى تكاد تختنق. ظلت هذه الوحدة والغرابة مصدر ألم شديد طوال الوقت.

عندما تناول المدعوون كلّ المأكولات في حفلة الزفاف، وغُنيت كلّ الأغاني، وغادر آخر شخص البيت، تضاءلت الغرابة المليئة بالنشوة التي اعترتها طوال الحفلة حتى أضحت مجرد شعور بعزلة عادية، وبدأت تراه بعينين جديدتين كما لو أن العريس غادر المنزل وجاء مكانه زوج غريب.

وسرعان ما اكتشفت أول نقاط ضعفه: فلم يكن باستطاعته أن يستمع إلى النساء الغريبات فقط، وإنما لم يكن يرغب في أن يستمع إليها أيضاً. فمهما حدّثته عن أي شيء، لم يُبدِ اهتماماً به ولم

يتحدّث إلّا عن مشاريعه، الكبيرة منها والصغيرة. وتأكد لها أن مشاريعه الخاصة تشغل تفكيره أكثر من حياته معها. وعندما تسأله عن مخططاته، يرفض أن يجيبها ويقول: «هذا ليس موضوعاً مناسباً للمرأة»، وكانت ترى كيف أنه يبدي اهتماماً بأي رجل، حتى لو كان قزماً، أكثر من أي امرأة ذكية.

وسرعان ما جفّت كلّ الكلمات على شفتيها.

عانت الكثير من تقديسه لبرنامجه اليومي الذي مارسه بانضباط حديدي، ولم تستطع مع الأيام احتمال احتقاره للحياة معها وتقديسه لعمله. فمع أن والدها خطيب مسجد، لم يكن يعير الانضباط جدية كبيرة، أما حميد فكان يسخر من سلوكه هذا ويرى أنه دلالة على انحطاط الثقافة العربية، فهو لا يكره شيئاً في العالم كما يكره كلمة «بكره، غداً» التي يستخدمها عدد كبير من العرب بسهولة عندما يعدون أحداً، أو لإجراء تصليحات ما، أو تنفيذ أوامر، أو تلبية موعد محدد. «لا تلفّ وتدور»، صاح في وجه نجار ذات يوم، «قل لي يوماً وساعة محدّدَين، لأن لجميع الأيام الحقيقية بداية ونهاية، أما كلمتك «غداً» فلا توجد لها بداية ونهاية».

وعده النجار ثلاث مرات ليصنع له أرففاً للمطبخ ولم يف بوعده، وفي نهاية الأمر، اشتراها حميد جاهزة من محل مفروشات.

كان حميد يعيش حياته بدقة الساعة وفق جدول زمني صارم. يستيقظ ويستحم ويحلق ذقنه، ويشرب قهوته، ويغادر البيت في تمام الساعة الثامنة، وعند الساعة العاشرة، يتصل بنورا بالهاتف ويسألها إن كانت بحاجة إلى شيء ليرسله لها مع الأجير عندما يأتي ليجلب له طعام الغداء عند الظهيرة. وأمر حميد الصبي الأجير أن يصل إلى باب بيته في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف، وكان الفتى المسكين يفعل ذلك كل يوم وهو يلهث ويتصبب منه العرق.

في تمام الساعة السادسة مساء، يعود حميد إلى البيت ويستحم، وفي السادسة والنصف، يتناول الجريدة التي جلبها معه من المحترف ويقرأها حتى آخر صفحة. وفي تمام السابعة، يتناول العشاء، ويظل ينظر إلى الساعة. وفي أيام الاثنين والأربعاء، يأوي إلى الفراش في تمام الساعة التاسعة، وينام مع نورا أيام الثلاثاء والجمعة والأحد، ويؤجل موعد نومه لهذا السبب نصف ساعة. في تلك الأيام، يكون مبتهجاً، ليضع نفسه في المزاج المناسب ويُخرج من رأسه الخطّ الذي كان يستحوذ عليه منذ بضع ساعات. في تلك الأيام، تعلّمت نورا أن تبتسم ابتسامة عريضة عندما يعود زوجها إلى البيت.

وفي أيام الخميس، يلعب الورق مع ثلاثة خطاطين آخرين في مقهى يقع في الشطر الجديد من المدينة حتى بعد منتصف الليل. وفي أيام السبت، يحضر الاجتماع الأسبوعي الذي تعقده جمعية الخطاطين، لكن نورا لم تسمع منه قط عما يدور في ذلك الاجتماع، ويقول لها بحدة، رافضاً أن يجيب على سؤالها: «هذا ليس موضوعاً يخص النساء».

لفترة من الوقت، كانت تتساءل إن كان يذهب لزيارة عاهرة في أيام السبت تلك، لكنها وجدت بعد ذلك وثيقة في جيب سترته التي كان يرتديها في أحد تلك الاجتماعات، من صفحتين فيها محضر اجتماع الخطاطين. قرأت البنود فيها ووجدتها مملة، وتساءلت عن السبب الذي يجعلهم يدوّنون وقائع الاجتماع حول الخطّ العربي. ثم أعادت الصفحات المطوية إلى جيبه كي لا يلاحظ شيئاً.

قبل انقضاء ثلاثة أشهر، ترسّخ شعورها بالوحدة القاتلة في البيت. فما إن يسود الهدوء، حتى تُظهر العزلة لنورا وجهها البشع. فقد تحولت الكتب التي كانت تحبّها والتي جلبتها معها إلى كتابات لا طعم لها فقدت كلّ جاذبيتها، ولم يعد بإمكانها أن تشتري كتباً

جديدة من دون أن تأخذ إذناً من حميد. وعندما أخبرته ثلاث مرات بعناوين الكتب التي تريد أن تقرأها، رفض الفكرة على الفور، وقال إن أعمال المؤلفين المعاصرين تعكّر صفو الحياة الأسرية وتفسد الأخلاق، فقدت نورا صوابها لأنه لم يطّلع على أي كتاب من تلك الكتب قبل أن يقول ذلك.

لكي تتغلب على شعورها بالوحدة، بدأت نورا تغني بصوت عال، لكنها سرعان ما سمعت تعليقاً متهكماً من البيت المجاور فصمتت. فقد صاح أحدهم من الفناء المجاور ضاحكاً: «إذا كان شكل هذه المرأة كما تغني، فلا بد أن زوجها ينام مع تنكة ماء صدئة». كان ذلك الشخص ضئيل الحجم، باسم الوجه، لكنها لم تعد تغني بعد ذلك.

ولكي تُبعد عقلها عن التفكير في المشاكل وتشغل نفسها، بدأت تنظف البيت عدة مرات في اليوم، وعندما تدرك أنها نظفت النوافذ بقطعة قماش ناعمة للمرة الثالثة خلال ذلك الأسبوع، ترمي قطعة القماش في زاوية، وتجلس بجانب بركة الماء وتجهش في البكاء.

كانت النسوة اللواتي يعشن في البيوت المجاورة ودودات ومنفتحات إلى درجة كبيرة، وعندما دعيت للقائهن وشرب القهوة معهن، وجدت منهن اهتماماً وإعجاباً حقيقيين. فقد أُعجبن بأسلوب نورا الأنيق في الكلام ومهاراتها في الخياطة، وأردن أن ترافقهن إلى حمّام السوق.

بدأن يجتمعن في صباح كل يوم ويتبادلن الشائعات التي انتشرت في الليل، ويلتقين عند العصر بعد القيلولة لاحتساء القهوة مرة أخرى، وخلال ذلك، يساعدن بعضهن بعضاً في الطهي أو في صنع المربيات وحفظ الفواكه والخضراوات.

كانت نورا تضحك كثيراً مع جاراتها اللواتي كن، بخلاف أمّها، يستمتعن بالحياة ويضحكن على كل شيء، حتى على أنفسهن. والأهم من كلّ ذلك، فقد كن يعرفن أساليبَ وحيلاً ماكرة تجعل حياتهن أسهل، وقد تعلّمت نورا أشياء كثيرة منهن.

بعد فترة قصيرة، بدأت نورا تشعر بالملل من أولئك النسوة. فقد كنّ نساء بسيطات لا يعرفن ماذا يقلن عندما لا يتحدثن عن الرجال والطهي والأطفال، الأشياء التي لديهن خبرة حقيقية فيها.

ولم يقرأن ويكتبن شيئاً. وبعد محاولات عديدة، لم تتمكن نورا من جعلهن يبدين اهتماماً بأي شيء عن العالم خارج حياتهن المعتادة كزوجات، فلاذت بالصمت.

أصبح الهاتف خلاصها الذي جعلها، على الأقل، تبقى على تواصل مع صديقاتها من أيام المدرسة، فانتعشت قليلاً، لكن الوقت ظل يسير ببطء شديد. نصحتها سناء، صديقتها، «اكتبي يوميات عن أسرار حياتك الزوجية، خصوصاً الأشياء المحرّمة التي تتوقين إليها. لكن يجب أن تجدي أولاً مكاناً آمناً تخبئينها فيه».

وجدت نورا مخبأً آمناً في المخزن الذي توجد فيه خزانة قديمة أرضيتها من ألواح خشبية يمكن رفعها بسهولة.

بدأت تراقب زوجها بدقة أكبر وتكتب كلّ ما تراه وما تشعر به في دفتر كبير، وتعلّمت خلال ذلك كيف تطرح الأسئلة الصعبة، وحتى لو لم تجد إجابة شافية لها، كانت تشعر براحة غريبة عندما تصوغها في كلمات.

ومع كل صفحة تكتبها، ازدادت بُعداً عن زوجها الذي بدأت ترى فيه أشياء عديدة لم تلاحظها من قبل. فقد اكتشفت أن حميد فنان بارع، لكن بعكس والدها، لا يبدي اهتماماً بما تعنيه الكلمات

التي يخطّها، وإنما يهتم بشكلها فقط. فقد قال لها ذات يوم: «يجب أن يكون التناسب والموسيقى متناغمين»، وكتبت في مفكّرتها، «لا أستطيع أن أصدّق أن خطاطاً لا يهتم إلّا بمظهر الكلمات الجميل، ولا تعنيه معاني هذه الكلمات». ووضعت تحتها خطاً أحمر.

وفي يوم من الأيام أحضر حميد معه لوحة كُتبت فيها عبارة جميلة داخل إطار، وعلّقها على الحائط في الصالون. لم تملّ نورا من الإعجاب بجمال الخطّ، لكنها لم تستطع أن تفك رموز كلماتها التي تلتف بعضها حول بعض، ولم يستطع أي من الزوار القلائل الذين جاءوا إلى البيت قراءتها، لكنهم أجمعوا كلهم، حتى والدها، على أن اللوحة المكتوبة بتلك الأحرف جميلة جداً وأنها تُشبع الروح والعقل. وعندما ألحّت نورا على زوجها أن يفسّر لها تلك الكلمات المكتوبة، ابتسم حميد وقال: «إن الروث يجعل الخضراوات تنمو بسرعة أكبر»، واعتبر الصدمة التي بدت على وجه نورا دليلاً على أنها لا تتمتع بروح الدعابة.

كان حميد محاطاً بجدران صمته الذي يفتخر به، كأنه يعيش في قلعة لا شأن للنساء فيها. سُمح لمعلّمه القديم، سيراني، بالدخول إليها، وكذلك رئيس الوزراء العظم الذي كان منزله قريباً جداً من المحترف والذي كان من كبار المعجبين بالخطاط وزبوناً جيداً له.

لكن على الرغم من احترامه لهما، فقد أبقاهما بعيدين عنه أيضاً. ففي قرارة نفسه، كان حميد فارسي يعيش وحيداً. وقد أصيبت نورا بجرح عميق في مشاعرها عندما صدّها حين حاولت أن تتقرّب منه وشعرت كما لو أنها اصطدمت بجدار سميك، وحاولت صديقاتها تهدئتها وقلن لها إن ذلك يحدث لهن أيضاً. فقالت صديقتها سناء إن زوجها ينهشه مرض الغيرة، «إذ يختلق مشكلة كبيرة إذا أطال رجل النظر إليّ في الشارع، فيثأر لكرامته باعتباره ضابطاً في

القوى الجوية، عندها أتمنى أن تنشقّ الأرض وتبتلعني، ويخشى دائماً أن يأخذني رجل آخر منه، كأنني حمارة أو سيارة أو لعبة يمتلكها، فيهاجم الرجل الذي نظر إليَّ، وقد تعلّم ذلك من أبيه وجيرانه وتلك الأفلام المصرية الفظيعة عندما يتشاجر الرجال بدافع غيرتهم، وتقف المرأة جانباً تنتظر، كما تنتظر المعزة أو النعجة أو الدجاجة لترى أي تيس أو كبش أو ديك سيفوز».

لم يجبر زوج سناء زوجته أي شيء عن عمله في القوى الجوية لأن ذلك، كما يقول، لا يخص المرأة، «لكنكم تسمحون أن نصبح أرامل»، أجابته سناء بمرارة وبعد بضع سنوات، تحطمت طائرته في أول طلعة له في طائرة مقاتلة جديدة، كما لو أن نبوءة سناء قد تحققت.

وقالت لها صديقات أخريات إن أزواجهن يتصرفون كالصبية الصغار لا يشعرون بالأمان ويحتاجون دائماً إلى قلاعهم المبنية من الرمل. وقلن لنورا إن عليها أن تكون سعيدة لأن زوجها لا يخونها، وقالت لها إحداهن إنها امرأة جاحدة، لأن زوجها يوفر لها حياة مريحة أكثر مما تحلم، وهي تقول الآن إنها تشعر بالملل.

«يا لها من امرأة ساذجة»، جأرت داليا، «قولي لها فقط إن الأزواج يمضون أوقاتاً وينفقون أموالاً في المطاعم وفي بيوت الدعارة أكثر مما يمضونه مع زوجاتهم - لا تدعي أحداً يحدثك عن الجحود».

حتى من دون دعم الخيّاطة، لم تشعر نورا بالامتنان لرجل لا يلمسها إلّا عندما يريد أن يضاجعها، ولا يسألها عن صحتها لشهور عديدة. فقد كان يتحاشى أن يلمسها كما لو كانت مصابة بمرض جلدي معدٍ. وفي الشارع، يسير أمامها، وعندما تطلب منه أن يسير بجانبها لأنها تشعر بالمهانة لأن تجري وراءه دائماً، يقول لها إنه سيفعل ذلك، لكنه سرعان ما يعود ويسبقها بعدة خطوات، ويرفض

أن يمسك يدها، ويقول: «هذه مجرد أفلام، والرجل المحترم لا يفعل مثل هذه الأشياء».

لسنوات عديدة، ظلت تتساءل لماذا يشعر الرجل أن كرامته تُهان إذا أمسك بيد زوجته، لكنها لم تجد جواباً على ذلك. في بعض الأحيان، كانت تقف أمامه ليضطر إلى أن يلمسها، لكنه كان يحيد عنها ويواصل طريقه، وإذا لمسته، يجفل ويبتعد عنها. وكان يحرص على ألّا يظهر أمامها عارياً، وإذا سارت وهي عارية من غرفة النوم إلى الحمّام، يشيح بعينيه عنها.

في إحدى المرات، وبّخها طوال الليل لأنها لمسته أثناء العشاء تحت الطاولة. كانا قد دُعيا إلى بيت والديها، وكانت أمّها سعيدة جداً بزيارة نورا لهما لأول مرة بعد زواجها، ولأول مرة في حياتها، لمست خدّ زوجها أمام الآخرين. كانت نورا في غاية السعادة في ذلك اليوم، وأرادت أن تشارك زوجها سعادتها، فلكزت ساقه بنعومة بقدمها تحت الطاولة. فأجفل مذعوراً. وجدت صعوبة في أن تُبقي الابتسامة على وجهها، وعندما عادا إلى بيتهما، صرخ فيها، وقال إن هذا السلوك الأرعن لا يصدر إلّا عن عاهرة، لا عن زوجة محترمة بوجود أشخاص آخرين.

لأول مرة صاحت في وجهه في مساء ذلك اليوم. استشاطت غضباً، وقالت إنه إذا سارت الأمور على هذا المنوال، فإنها ستتجمّد بجانبه حتى تموت، فضحك حميد ضحكة ساخرة، وقال: «إذاً سخّني المدفأة. توجد لدينا كمية كبيرة من الحطب»، وتركها جالسة وحدها في الصالون.

رعبها لم يعرف حدوداً عندما سمعته يشخر، ولم تكد تمضي نصف ساعة على ما جرى بينهما.

ما الذي يجب أن تفعله نورا؟ من المؤكد أن كلّ ما كانت تريده

هو الهدوء والسلام. ألم تكرر أمّها على مسامعها أنه مهما كان الزواج سيئاً، فإنه يظل ملاذاً آمناً للزوجة؟ هذا غير صحيح. لم تشعر بالأرق من قبل ولم تفكر أن تهرب كما أصبحت تفكر الآن.

ما هو الشيء الذي يزعجها؟ لم تعرف ما الذي يزعجها حقاً إلّا بعد أن التقت بسلمان الذي قال لها إن عقلها مضطرب لأنها تدرك أنها تهدر حياتها بدون سبب معقول. بدأت مفكّرتها السرّية تمتلئ، وشعرت نورا بأنها جاسوسة تراقب كائناً غريباً. وحتى عندما يكون زوجها واقفاً أمامها أو نائماً بجانبها، ظلّت في أعماقها مسافة فاصلة بينهما ما مكّنها من مواصلة مراقبتها له بدقة.

كان شخصاً متعصباً في كلّ ما يفكّر فيه ويفعله، لكنه يخفي بدراية حواف آرائه الحادة تحت طبقة سميكة من المجاملات. كان يريد أن يكون الأفضل في كلّ شيء، لكن ما عدا إتقانه فن الخطّ، لا توجد لديه خبرة في أي شيء، مثل صبي صغير وقح. لاحظت أن والدها لم يحرجه في أحيان كثيرة كي لا يفضح أمره. عندما ذكرت ذلك لأبيها ذات مرة، قال لها: «إنه طفل، أنتِ محقّة. ففي أمور كثيرة لا يملك سوى افتراضاته التي يعتبرها بعنجهية الأغبياء حقائق، وإذا أظهرتُ له الحقيقة فلن يأتي لزيارتنا كلّ أسبوع، وسيكون ذلك أسوأ وقعاً علينا من آرائه. إن رؤية وجهك تعني لي أكثر من جميع الآراء الأخرى في العالم، مهما كانت صحيحة».

لكن حميد لم يرغب أن يكون الأفضل دائماً في المسائل المتعلقة بالفقه والفلسفة والأدب فحسب، وإنما في كلّ الأشياء الأخرى، مع أنه لم يقرأ شيئاً سوى الجريدة اليومية. بعد سنوات عديدة من العمل الجاد ليصبح أكثر الخطاطين احتراماً، انتصر، ومثل جميع المنتصرين، أصبح ثملاً بنصره.

عندما تزوج حميد نورا، كان خطاطاً مشهوراً وازدادت الطلبات التي بدأت تنهال عليه حتى لم يعد بوسعه أن ينفّذ جميع الأعمال التي يُكلّف بها على الرغم من المبالغ الباهظة التي يطلبها، فاضطر إلى أن يكلّف مساعديه بتنفيذها. بالطبع، كان حميد ينفّذ التصميم الأولي، وفي النهاية يضيف عليها لمساته الأخيرة. لكنه ظل ينفّذ الأعمال الهامة بنفسه ويكتب الرسائل وقصائد المديح بخطّ جميل بمتعة كبيرة. وصار يطلب مبالغ كبيرة لأن الأعمال التي يقوم بها مميّزة وفريدة من نوعها. وكان يشعر بالفخر عندما يزوره أكاديميون وسياسيون ورجال أعمال أثرياء، مسرورين بالمكانة الرفيعة التي حققتها لهم أعماله، ليعربوا له عن امتنانهم.

قال له أحد الزبائن ذات مرة، «ما طلبته منك ليس سوى هيكل عظمي بشع، لكنك بثثت فيه الحياة ونفثت فيه روحاً وأصبح من لحم ودم».

كان بعض المزارعين الأغنياء الذين لا يعرفون كيف يشقّون طريقهم في تلك الغابة الحضرية في العاصمة، يطلبون من حميد فارسي أن يكتب لهم رسائل، ولم يسألوه قط عن الثمن لأنهم يدركون أن رسائله ستفتح لهم أبواباً عريضة - رسائل تشكل كلّ صفحة فيها عملاً فنياً فريداً، ولم يكرر حميد نمطاً أو شكلاً نفّذه أكثر من مرة، لذلك لم يكن يريد أحياناً أن يسلّم اللوحة المنتهية للزبون، لكنه كان يفعل ذلك مضطراً.

كان يركّز كل تفكيره وجهده لأيام على معنى الرسالة التي سيكتبها وهدفها، ويمنحها الشكل الذي يحوّل الكلمات إلى موسيقى، إلى موجة تنقل قارئها إلى المكان الذي يريده الشخص الذي كلّفه بكتابتها.

عندما يعمل، يشعر أنه ملحن. حتى معلّمه كان يشيد بمشاعره

تجاه موسيقى الحروف. وبينما لم يتمكن خطاطون آخرون من تطوير إحساس حقيقي حول امتداد الحرف، وعدد الاستدارات والزوايا التي تحتاج إليها الكلمة، وأين يجب أن توضع كلّ نقطة، فقد أتقن هذا الفن تماماً بإحساسه المرهف وتمارينه التي لا نهاية لها. وساعدته بصيرته العميقة وصبره على ألّا يدع أي تنافر أو نشاز في عمله.

الخطّ العربي مؤهل جداً ليكون موسيقى للعين. وبما أنه خطّ متصل، فإن لطول الوصلة بين الحروف دوراً كبيراً في الكتابة. إذ إن إطالة هذه الوصلة أو تقصيرها بالنسبة للعين يشبه إطالة أو تقصير الفترة الزمنية التي تستغرقها النوتة الموسيقية بالنسبة للأذن. إذ يصبح الحرف «ألف»، وهو خط عمودي في اللغة العربية، فاصل المقياس بالنسبة للإيقاع الموسيقي. لكن بما أن حجم الحرف «ألف» نفسه يحدّد حجم جميع الأحرف الأخرى، وفق مبدأ النسبة والتناسب في قواعد الخط العربي، فإنه يشارك أيضاً بشكله العمودي في ارتفاع وعمق الموسيقى التي تتشكل بشكل أفقي من خلال الحروف المكتوبة في كل سطر. كما أن اختلاف اتساع الحروف وعرضها والانتقالات عند قدم هذه الحروف وجسدها ورأسها، من خطّ رفيع برفع شعرة إلى خط عريض، يؤثّر على العين أيضاً. إن الامتداد الأفقي والتداخل بين الأحرف المستديرة وحادة الزوايا، وبين الخطوط العمودية والأفقية يُحدث لحناً عند رؤية الكلمات، ويضفي حالة مزاجية، إما خفيفة ومرحة ومبهجة، وإما مليئة بالكآبة الهادئة، أو حتى حزينة ثقيلة ومظلمة للنفس.

وإذا أراد المرء أن يمضي في تأليف الموسيقى بالحروف، فإن المسافة الفارغة بين الحروف والكلمات تتطلب مهارة أعظم. لأن المساحات الفارغة في لوحة الخطّ ما هي إلّا لحظات استراحة.

وكما هي الحال في الموسيقى العربية، فإن الخطّ العربي يعتمد أيضاً على تكرار بعض العناصر المحددة التي لا تشجع على رقصة الجسد والروح فحسب، وإنما كذلك على قدرتنا على الابتعاد عن المجال الدنيوي والارتقاء إلى عوالم أخرى.

17

غرق كلّ شيء حول نورا في صمت مميت. وأصبحت الأمسيات عذاباً ممضاً بالنسبة لها. ففي بعض تلك الأمسيات، لم ينبس حميد بكلمة واحدة، وإذا نام معها، فقد كان يفعل ذلك بدافع الواجب وهو يكزّ على أسنانه.

في بعض الأحيان، بذلت نورا جهدها على ألّا يصدر منها صوت طوال المساء لترى إن كان سيلاحظ ذلك، لكنه لم يُبدِ أي ردة فعل. كان يستحم ويشرب قهوته وينام أو لا ينام معها، ثم يشخر طوال الليل.

وإذا قال شيئاً، فإن ما يقوله مجرد صدى لتراتيل مديح أنشده آخرون عنه. وشيئاً فشيئاً بدأت نورا تتساءل إلى متى يمكنها أن تتحمل هذه الحياة؟

ذات مرة، بدافع الاحتجاج، وضعت قماشة غسل الصحون المتسخة فوق صحن وزيّنته بقطعة سِيْف ألمنيوم تستخدمها في تنظيف وحكّ الأواني، ووضعت فوقها أعواد ثقاب وبقايا شموع ونوى زيتون، ووضعت الصحن بجانب الإبريق الذي يصبّ الماء منه. ومع ذلك، لم يلاحظ شيئاً، وجلس وراح يتناول فطائر اللحم بصمت وشهية.

بالإضافة إلى كلّ ذلك، كان بخيلاً. ففي الساعة الحادية عشرة

والنصف من ظهر كل يوم، يرسل الصبي الأجير ليجلب له طعام الغذاء في المطبقية التي تتألف من ثلاثة أطباق، توضع في الطبق الأول سلطة، وفي الطبق الثاني الوجبة الرئيسية، وفي الطبق الثالث كمية من الأرز أو البرغل أو البطاطا. لم يكن يتناول حلوى أو فواكه بعد الطعام، وإنما يشرب القهوة في المحترف. كانت معظم جاراتها يرسلن وجبات طعام إلى أزواجهن في مطبقية، لكنهم، بعكس زوج نورا، يعطون زوجاتهم نقوداً ليشترين من السوق حاجياتهن، وكنّ يساومن البائعين ويشربن الشاي والقهوة ويستمعن إلى الشائعات الرائجة وينقلنها إلى نساء أخريات، ويتحدثن ويضحكن مع البائعين. أحبّت نورا أن تذهب إلى السوق منذ كانت صغيرة، وكانت تحبّ أن تذهب إلى بائع التوابل المعروف، سامي، وتنصت إلى الحكايات الجميلة التي يحكيها عن كلّ نوع من أنواع التوابل.

أما حميد فكان يتبجح بقوله إن بإمكانه أن يشتري مواد أفضل وبنصف السعر، وفي جميع الأحوال، ليس من اللائق أن تذهب زوجة الخطاط المشهور الجميلة إلى السوق وتساوم أولئك الباعة «المتخلفين».

كتبت في مفكرتها في يوم أغاظها رفضه المتكرر: «إنه غبي لا يعرف شيئاً عن لذة الحديث مع البائعين».

تتصدر المساومة عند شراء الحاجيات قائمة الأنشطة الممتعة عند المرأة الشامية، لكن حميد لا يعرف ذلك. فقد كان يرسل لها مع الصبي الأجير أرخص جذاذات اللحوم والخضراوات وجميع الأشياء التي يريد أصحاب المحلات التخلّص منها وبيعها بأسعار رخيصة للرجال فقط، والتي ترفض النساء شراءها، وكان يشتري كميات قليلة كأنها تحضّر طعاماً لأحد دور الأيتام، ومع أن كل الأشياء التي يشتريها رديئة، كان حميد يتوقع أن تصنع منها ألذّ

وأشهى الأطباق. وكانت جاراتها اللاتي يعرفن وصفات سرية ويحضّرن مأكولات لذيذة من أرخص المكونات يأتين ويساعدنها، مقابل أن تخيط لهن نورا فساتين مجاناً، وهذا يعني أنهن يحتفظن بالنقود التي يعطيها لهن أزواجهن لقاء بعض الأعمال كالخياطة، وينفقنها على شراء البن وحبّ الهال والحلويات وتذاكر السينما.

لم يلاحظ حميد فارسي هذا التعاون بين النساء قط.

لم يفرض حميد على نورا ارتداء الحجاب. كانت دمشق تمرّ في ذلك الوقت في مرحلة من التقدم والحرية، ولم ترتد الحجاب سوى السيّدات المسنّات، ونادراً ما كانت الشابات يرتدينه. ومع أن حميد لم يشعر بأي غيرة على نورا، كان يمنعها من استقبال رجل في غيابه.

في الواقع لم يكن يزور نورا أحد إلّا جاراتها اللاتي لا يريد أزواجهن أيضاً أن يستقبلن أحداً في البيت أثناء غيابهم، لكن لم تنفّذ أي واحدة منهن هذا الأمر.

ولم يلاحظ حميد ذلك أيضاً.

لم يكن عالم الأسرة والأصدقاء والجيران يعني شيئاً بالنسبة لحميد، وكان يبدي بشاشة سطحية لجميع الناس، لكنه لم يُبدِ اهتماماً بأحد. وإذا اكتشف بمحض الصدفة أن إحدى صديقات نورا أو جاراتها قد زارتها، فإنه يبدي امتعاضه، ويقول لها: «يجب أن يزرنك عندما أكون في البيت»، وما عدا أمّها، لم تكن أي امرأة تشعر بالراحة في حضوره.

«إنه تكيّف جنسي»، قالت لها جارتها سلطانة، المرأة النحيفة ذات العين الواحدة، «الرجال صيادون، يبحثون دائماً عن حظهم في أماكن بعيدة، أما نحن النساء، فإننا نبحث في كل شبر من الأرض عن البذور والأعشاب. نجد أحياناً قصة تشبه البذرة، صغيرة جداً فتتجاهلينها على الرغم من وجود حياة فيها وقاسية بما يكفي لكي

تبقى على قيد الحياة، حتى لو وطئها فيل. إن القصص والبذور إخوة. لذلك تحبّ النساء القصص أكثر مما يحبها الرجال، وهذا ما يجعلهن قارئات ومستمعات أفضل».

بذلت نورا كل جهدها لإثارة فضول حميد، تحكي له على العشاء ما الذي يجري في حياة العائلات حولهما، وتحدّثه عن أحداث غريبة وحوادث ومغامرات، لكنها سرعان ما تدرك أنه لا ينصت إليها.

كان تعليقه الوحيد على كل ما تقوله، «ابتعدي عن البائسين والمحرومين الذين تعرضوا لخيبات الأمل»، ويضيف، «إن المصائب تعدي كالزكام». لم تعرف من أين يأتي بكلّ هذه الأمثال السيئة التي لا يتوقف عن إخراجها من جعبته، لكنها، في جميع الأحوال، لم تأخذ ملاحظاته على محمل الجد. ولم تفعل ذلك حتى ذلك اليوم الذي طرد فيه صديقتها بشرى بقسوة وفظاظة من المنزل.

مثل نورا نشأت بشرى، ابنة بديعة، في حارة الأيوبي. ولدى بديعة التي ساعدت على ترتيب زواج نورا من حميد، خمسة أبناء وابنتها بشرى. وقد أحبّ جميع أفراد الحيّ ابنتها الوحيدة لجمال ضحكتها العالية المميزة، التي كان الحلواني إلياس يعطيها أحياناً مصاصة ملونة عندما ترسم ضحكتها الجميلة ابتسامة على وجهه وتنسيه كآبته. وكانت بشرى تحبّ نورا كثيراً، وعندما كانت صديقتها التي تكبرها بسبع سنوات، تلمسها على وجهها برقّة، وتقبّلها أحياناً، وتقول لها: «يا حلوتي، يا حلوتي»، كانت نورا الصغيرة تشعر أنها تحلّق في السماء.

كان أبوها وجيرانها وصديقاتها في المدرسة يتوقعون أن تتزوج بشرى أغنى رجل في المدينة، وظنوا في البداية أن توقعاتهم ستتحقق. فعندما رأى المحامي قدري بشرى تسير أمام نافذة بيته في

طريق عودتها من المدرسة، أرسل أمّه لترتب الأمر مع أمها بديعة في حمّام السوق. ثم أرسلت المرأتان زوجيهما ليلتقيا بعد أن أفهمتهما ما الذي يجب عمله، فالتقى الرجلان وظنّ كل منهما أنه هو الذي قرر ذلك بإحساسه المرهف الذي لا يخيب لما يلائم عشيرته، وكرر الاثنان في لقائهما كالببغاء ما أملته عليهما زوجتاهما: أن بشرى البالغة من العمر خمسة عشر عاماً، وقدري البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً مناسبَين تماماً ليقترن أحدهما بالآخر.

بعد أن تزوجت بشرى، لم ترها نورا طوال سبع سنوات، وفجأة، بدأ سكان الحيّ يتهامسون بأن زوج بشرى قد حبّل ابنة عمّه وسيتزوجها، لكن ابنة عمّه أصرّت على أن يطلّق بشرى أولاً. وبعد فترة قصيرة، عادت بشرى إلى بيت والديها مع بناتها الثلاث. كانت في الثانية والعشرين من عمرها، شاحبة، لكن لم يبدُ عليها إطلاقاً أنها أنجبت ثلاثة أطفال. كانت طويلة القامة، نحيلة مثل أبيها، وجهها جميل مثل وجه أمّها.

أُعجب سكان الحيّ بالفتيات الصغيرات اللاتي كنّ نسخاً عن أمّهم، لكن بأعمار مختلفة، أكبرهن في السادسة وأصغرهن في الثالثة من العمر.

في ذلك الوقت، اعتادت نورا على لقاء بشرى في ورشة الخيّاطة داليا. وكانت بشرى، مثل داليا الصريحة، امرأة تستطيع أن تحكي لها بدقة عن أمور الزواج.

«ماذا تتوقعين من زوج يصفعك في ليلة العرس لكي تركعي أمامه وتردّدي، نعم يا سيّدي، أنت سيّدي ومالك روحي، وأنا لا شيء»، وأضافت، «وبعد ست سنوات من الزواج وإنجاب ثلاثة أطفال، اكتشف أنه يحبّ ابنة عمّه فطلقني»، قالت لنورا ذات يوم وهما تشربان القهوة.

أصبحتا على وئام كما لو كانتا صديقتين حميمتين طوال سنوات غياب بشرى. وبعد زهاء ستة أشهر، سمعت نورا أن بشرى ستتزوج من يوسف، صديق شقيقها الذي كانت تحبّه ولم يعترض على وجود بناتها الثلاث.

فرحت نورا كثيراً لسعادة بشرى، لكن داليا لم تحبّ الرجل، ورأت أنه رجل شديد الغيرة على امرأة في حالتها، وأن روحه صغيرة جداً. هل كانت داليا سكرانة عندما قالت ذلك، تساءلت نورا، أم أنها كانت تعني ما قالته بجد؟

بعد مضي ثلاث سنوات على زواجها، جاءت بشرى لتزور نورا التي تزوجت حميد الآن. شربت بشرى فنجان قهوتها بسرعة. كانت متوترة كأنها تريد أن تنفّس عما يجيش في خاطرها، وقالت: «لقد أصبح غيوراً إلى درجة الجنون بعد أن أنجبت ابنتنا دنيا. كان متيقناً من أنه سينجب ذكوراً يشبهونه، لكن الطفلة دنيا تشبهني، فاتهمني بأنه لا تزال في جسدي بقايا حيوانات منوية من زوجي الأول، وقال إنها ستُخصبني طوال حياتي، مع أن الطبيب أكّد له أن الحيوانات المنوية تموت بعد يومين على أبعد تقدير، لكنه لم يقتنع، واتهم الطبيب بأنه ينام معي، وأنه متواطئ معي، وذهب إلى عيادته ومعه سكّين مطبخ، تصوري هذا الجنون الذي لم يُذكَر في كتاب».

في اللحظة التي قالت فيها ذلك، دخل حميد إلى البيت. استشاط غضباً عندما رأى بشرى وهي تبكي، ومن دون أن يحيّيها، طلب منها بصوت بارد كالجليد أن تغادر بيته فوراً وتأخذ معها حظها السيء.

شعرت نورا بالإهانة وكانت متيقنة من أنها فقدت بشرى إلى الأبد. بكت طوال الليل. أخذ حميد بطانيته، ونام على الأريكة في الصالون، وفي اليوم التالي، رفض أن يتحدّث عما جرى، وكان كلّ

ما يعنيه هو أن الأمر قد انتهى، كما لو كانت بشرى لوحة خطّ أنهاها ونسي أمرها.

بعد بضع سنوات سمعت نورا أن بشرى تعيش من أجل بناتها فقط، وأنها انتقلت إلى الطابق الأول في بيت والديها، وحصلت على وظيفة في أحد مكاتب شركة طيران، وقد عادت ضحكتها العالية الصافية كما كانت في أيام صباها.

عندما طرد حميد بشرى من بيته، عانقت نورا في الدهليز المعتم بجانب الباب الخارجي، وهي تبكي، وقالت لها: «إنه رجل مبتلى بمرض الغيرة أيضاً يا أختي المسكينة في البؤس»، وغادرت.

18

«إن العمل في المقهى ليس العمل المناسب لك على المدى الطويل. لا تقل لي إنك ستتعلّم شيئاً هنا يمكّنك من إعالة أسرة في المستقبل»، قال له كرم في صباح يوم خريفي دافئ، لكنه لم ينتظر منه رداً وأضاف، «الخطاط حميد فارسي يبحث عن صبي للقيام بمهام صغيرة عنده، لأن مصطفى، الفتى الأحول، هرب ولم يعد يعمل عنده»، وأخذ جرعة كبيرة من الشاي، وأضاف، «يجب أن تأخذ هذا العمل. أؤكد لك أن الخطّ منجم ذهب»، ورفع كأس الشاي إلى شفتيه.

ارتعب سلمان لأنه ظن أن سميح، النادل الأكبر سناً، قد حكى له عن شجارهما البارحة.

كانت تلك أول مشاجرة عنيفة دارت بينه وبين شخص آخر منذ سنوات. كما جرت العادة لم يأتِ كرم إلى المقهى أيام الإثنين، وكالعادة يصبح النادل درويش عدوانياً ويحكي عن شكوكه بما يفعله كرم، لكن سلمان هو الوحيد الذي يعرف حقيقة ما يجري. فقد كان كرم يمضي طوال ذلك اليوم في الفراش مع عشيقه بدري الذي لا يعمل يوم الاثنين، عطلة الحلاقين، أما في المقهى فلم يكن هناك يوم عطلة طوال الأسبوع.

بدأ شجارهما عندما غادر آخر زبون المقهى. كان سميح، أقدم

الندل الثلاثة، قد أنهى مراجعة حساباته ووضع النقود في الصندوق، ودوّن الحسابات في الدفتر الرئيسي. فبالإضافة إلى الزبائن الذين يدفعون ثمن مشروباتهم نقداً، هناك زبائن دائمون وأصحاب محلات يسدّدون حساباتهم كل أسبوع أو حتى كل شهر. نظّف سلمان ودرويش الطاولات في المقهى، وغسلا الصحون، ومسحا الأرض، ورتّبا الكراسي، ووضعا منافض السجائر النظيفة على الطاولات. لم يكن هناك شيء يكرهه معلّمهم أكثر من أن يأتي في الصباح ويجد المقهى غير نظيف ومرتب.

لم يتوقف درويش عن استفزاز سلمان كلما تمكن من ذلك، ويبذل كل محاولة ليجد وسيلة يجعله يفقد أعصابه. كان الصائغ إلياس بركات قد اشتكى من غطرسة درويش بعد ظهر ذلك اليوم، وأصرّ على أن يقوم سلمان على خدمته. لكن سميح، قال لسلمان إنه إذا فعل ذلك فإنه سيطعن درويش في ظهره، لكن سلمان لم يرغب في أن يزعج الزبون وأراد أنه يخدمه، لأن الصائغ يعطي إكرامية سخية بالإضافة إلى أنه مسيحي. وبما أن سميح ودرويش كانا مسلمين، فقد كان سلمان يشكّ في أنهما يتقصّدان معاملة الزبائن المسيحيين بفظاظة.

قام سلمان على خدمة الصائغ الذي أعطاه بقشيشاً ليرة كاملة. عندما همّ بركات بمغادرة المقهى، قال إنه سيعود إلى هذا المقهى لأنه يوجد فيه نادل متحضر جيد التربية.

عندما يصبحان وحدهما، كان سلمان يشعر بكراهية هذين النادلين تجاه «الكافر، آكل لحم الخنزير هذا»، كما كان يطلق عليه درويش، فيقول سميح بضعة أشياء ويهزّ رأسه موافقاً. قبل منتصف الليل بقليل، ألمح درويش إلى أنه يعرف أن صاحب المقهى كرم ينام مع سلمان لكي يحافظ هذا على عمله، وإلّا لكان قد طرده منذ زمن بسبب غبائه.

لم يعد سلمان يحتمل، فصاح في وجه درويش، وقال: «إنك تقول ذلك لأنك تغار، لأن المعلّم لا تعجبه مؤخرتك ووجد مؤخرة جذابة أكثر. أيها الأحمق، حتى الغراب لا يريد أن ينظر إلى مؤخرتي الضامرة. إن كرم ينيك رجلاً وسيماً كلّ يوم، لكنّي لن أخبرك من هو، حتى لو متّ من الغيرة».

انهار درويش مثل بيت من ورق وأخذ يبكي. فهمس سميح لسلمان بخبث: «يا ابن الشيطان الذي يصلّي للصليب، لماذا أهنته هكذا؟ ألا تعرف يا كافر كم هو شخص حساس؟»

«التمساح حساس أكثر منه ومنك»، صرخ سلمان في وجه سميح من دون أن يخشى عراكاً جسدياً معه.

عندما وعد كرم سلمان في اليوم التالي بعمل جديد، ظنّ سلمان خطأ أن سميح قد وشى به.

لماذا أراده أن يذهب ويعمل عند الخطاط من بين كلّ الآخرين؟

لو كان كرم قد طلب منه أن يذهب ويعمل عند نجار أو حداد لما انزعج. فقد سمع كرم وعشيقه بدري، يقولان إن الخطاط أفعى، ويصفانه غالباً بصفات سيئة عندما يتهامسان، وها هو كرم يريده الآن أن يذهب ويعمل عند ذلك الرجل؟ حتى أن سلمان لم يستطع أن يسأل معلّمه عن سبب إرساله ليعمل عند الخطاط الذي سمع عنه تلك الأحاديث بالصدفة. كان يتنصّت عليهما كثيراً، وعرف منهما بعض أسرار المدينة، واستطاع بتلك المعلومات السرية أن يُبهر حتى سارة التي كانت تعرف كل شيء.

لكن منذ مات عدنان، لم تعد لدى سلمان قصص كثيرة يحكيها لها. كان عدنان، سائق التاكسي، ابن سميرة، يحكي حكايات مليئة بالمغامرات بأسلوب شائق خلال فترات الاستراحة في مقهى كرم. حتى وفاته، دأب عدنان على المجيء إلى المقهى مرتين أو ثلاث

مرات في اليوم ليشرب الشاي الذي يضع فيه كمية كبيرة من السكّر. في إحدى الليالي، بينما كان عدنان يقود سيارته في طريق ريفي، اصطدمت سيارته بشاحنة مركونة على جانب الطريق، فمات هو والراكب الذي معه على الفور.

إذاً آخر قصة عرفها سلمان هي قصة العاشقَين كرم وبدري. لم تملّ سارة من سماعِ قصص عنهما، بل أدمنت لذة الاستماع لقصصهما الغريبة فعلاً.

لا يمكن القول إن الحلاق بدري رجل يحبّ عمل الخير لأنه ينتمي إلى جماعة شريرة غير معروفة تدعى «*الأنقياء*» تعمل لزيادة الكره والأذى ضد المسيحيين واليهود، لكن الأدهى من ذلك، فإنها تعمل أيضاً ضد منظمة سرية تدعى «*جميعة الحكماء*» وكان من الواضح أن للخطاط حميد فارسي علاقة بها ولذلك كان بدري يكره حميد وجماعته التي وصف أعضاءها بأنهم ثعابين، مسلمون في الظاهر، أما في قلوبهم فهم أعداء الإسلام، وقال إنهم يصلّون لآلهة إغريقية وينامون مع شقيقاتهم. ضحكت سارة كثيراً من فكرة النوم مع أخيها لأن لديها ثلاثة أشقاء ولا تستطيع احتمال حتى الجلوس بقرب أي واحد منهم.

وقالت: «قد يكون لهذا الرجل، بدري، عضلات، لكن ليس في رأسه شيء سوى زرق عصفور، لكن ما يفعله هو وكرم مغامرة خطيرة».

لم يفهم سلمان تصرفات كرم. فمع أن معلمه لا يتحمل الأشخاص المتعصبين دينياً، لم يجرؤ على قول كلمة سيئة واحدة عن جماعة «*الأنقياء*» كي لا يزعج بدري. فقد كان مخلصاً له، واستغل بدري ذلك. كم بكى كرم من شدة شوقه لصديقه إذا تشاجرا وتوسل له ليسامحه على الهاتف، ولا يتوقف عن البكاء إلّا عندما يرضى عنه

بدري. وعندما يلتقيان، يصبح كرم مثل صبي صغير يذوب رقّة مع كلّ لمسة، وينفّذ كلّ ما يطلبه منه بدري كأنه عبد له.

في رأي سارة فإن الحبّ ربة ذات وجهين، تحرّرك وتستعبدك في آن واحد. قالت له إنها سارت مسافة طويلة حتى وصلت إلى حيّ العمارة لتعرف أين صالون بدري للحلاقة. وجدته أخيراً وأزعجها منظره الرث والوسخ. وأقسمت لسلمان أنها لم تر صالون حلاقة مثل محل بدري الذي يشبه إسطبلاً تتراكم فيه القاذورات، وأضافت لا بد أن حبّ كرم أعماه لأن هذه الكتلة من العضلات لا يمكن أن تثير أحداً لديه أحاسيس حتى أن يُدخل إصبعه في أنفه، وأضافت، «لن أُفاجئ إذا مات معلّمك ذات يوم من أجل بدري مع أنه غبي وعندما يتحدث بصوته العالي تصدأ أظافري ويشيب شعر رأسي»، فضحك سلمان كثيراً عندما سمع هذه العبارة.

لكنه تساءل في ذلك الصباح لماذا عليه أن يعمل عند الخطاط؟

كما لو أن كرم سمع تساؤله الذي لم يقله، قال له: «إنه فنان كبير. انظر إلى الناس الذين يرعونه ويتعاملون معه. فمن بين زبائنه وزراء وأطباء، يريدون جميعاً أن يتحدّثوا مع حميد فارسي شخصياً».

هزّ سلمان رأسه، لكنه قال لنفسه إن ذلك غير ممكن لأن حميد فارسي المتعجرف المتقلب المزاج يطرد أجيراً كل سنة تقريباً، إن لم يكن ذلك الصبي، مثل مصطفى الأحول قد هرب.

«يمكنك أن تكون سعيداً»، قال له كرم مشجعاً، «فهذا خبر جيد. فأنا لا أرسلك لتعمل في بيت دعارة. إن الخطّ فن نبيل. والأغنياء يحبّونه ويطلبونه باستمرار، والأهم من كلّ ذلك، فإنهم لا يسألون عن ثمن لوحة الخطّ. هل تعرف كم يطلب حميد فارسي لقاء كتابة عبارة مثل بسم *اللّه الرحمن الرحيم*؟ مئة ليرة! نعرف أنه كبير الخطاطين، لكن حتى هؤلاء يطهون طعامهم بالماء. وماذا يكلّفه

الحبر والورق؟ ليرة واحدة ليرتان؟ أو قل ثلاث ليرات. أما نحن هنا، فإني لا أكسب ذلك المبلغ في أسبوع كامل، ويجب أن أتحمل ضراط زبائني وبصاقهم ورائحة أفواههم وعرقهم الكريهة. حميد ينحني له زبائنه بامتنان شديد، أما زبائننا فإنهم لا يقولون شيئاً إلّا عندما يتذمرون».

«لكنك تعرف أنني أكره المدرسة والكتب»، قال سلمان محاولاً أن يصنع لنفسه طوافة أمان بكذبة صغيرة.

«أيها الوغد، هل تحاول أن تخدع كرم؟ لقد علّمتك سارة أكثر مما تعلّمه كثير من الفتيان حتى بعد حصولهم على شهادة الثانوية العامة. و -»، قال كرم ومال نحو سلمان وهمس بنبرة تآمرية - «يجب ألّا تدع ذلك الخطاط يعرف ما الذي يمكنك أن تفعله. يمكنك أن تقول له دائماً إنك درست حتى الصفّ الثاني الابتدائي، ثم تتعلّم فنّه بالسرّ. إذ يحتفظ الخطاطون بأسرارهم بغيرة شديدة. عليك أن تتعلّم هذه الحرفة التي تدرّ ذهباً خفية منه، وإذا طردك يمكنك أن تعود للعمل عندي دائماً».

تنفّس سلمان الصعداء، وسأله، «هل يمكنني أن أزورك؟» فأجابه كرم، «هل فقدت صوابك؟ ستأتي إلى المقهى ظهر كل يوم لتتناول وجبة طعام، ويمكنك أن تأتي إلى بيتي مرة في الأسبوع لتمارس الخطّ. فلا يمكن لأحد أن يصبح خطاطاً في البيت الذي تعيش فيه الآن. سأجهّز لك غرفة صغيرة، لكن إياك أن تخبر أحداً بذلك، لأنه هذه الفكرة لن تروق لهم، هل تفهم ما أقوله؟»

هزّ سلمان رأسه بصمت.

عندما تذكّر سلمان هذ الحديث، أقرّ بأن كرم كان محقاً. بالإضافة إلى الدروس التي كانت تعطيها له سارة، والإكراميات التي

ينفقها على علاج أمّه من حين لآخر، لم يكن الوقت الذي يمضيه في المقهى كما توقع في البداية وقتاً سعيداً، وإنما وقتاً كئيباً. فتّشت أفكاره في مخابئ ذاكرته المظلمة ووجدت فيها أكثر من سبب للكآبة. فقد طلب منه أحد الزبائن مثلاً، وهو دلال عقارات غني يعيش وحيداً، أن ينام معه وكرر ذلك على مسامعه ثلاث مرات. كان يطلب منه أشياء صغيرة كلّ يوم، ويحاول أن يلمس سلمان كلّما جاءه بالطلب، عيناه تبرقان. كان يتوسل لسلمان أن يبقى معه قليلاً ويحاول أن يلمس مؤخرته، لكن سلمان خاف منه وطلب من كرم مساعدته فابتسم له ابتسامة ذات معنى، وصار يرسل مكانه درويش ليكسب بضع ليرات وليخدم دلال العقارات المثلي.

كانت نادية تظهر في ذكرياته أيضاً. نادية ابنة تاجر السجاد محمود البستاني الجميلة ذات العشرين ربيعاً التي يمتلك والداها بيتاً جميلاً في زقاق الورد وسط حيّ سوق ساروجة. كان أبوها يأتي إلى المقهى في الساعة الثالثة من كلّ يوم ويدخّن أركيلة قبل أن يذهب إلى عمله. كانت نادية التي طُلّقت بعد زواجها بسنة من أمير أردني، تنظر إلى سلمان بعينين عاشقتين حتى أُغرم بها. كان يراها دائماً عندما يذهب ليسلّم طلبات لوالديها أو لجيرانهم. عندما سألته أين يسكن، كذب عليها وقال لها إنه يسكن في حيّ باب توما، وسط الحيّ المسيحي، وعندما سألته إن كان مستعداً لأن يصبح مسلماً في سبيل الحبّ أجابها بجرأة إنه مستعد لأن يصبح يهودياً أو حتى بوذياً إذا لم يكفها الإسلام لأنه يحبّها، وعندما كانت تسأله بفضول عن منزله، كان يجيبها باقتضاب ليخفي فقره لأن جمال المباني في حيّ سوق ساروجة العصري شلّ صدقه وأجبره على الكذب، فكيف يمكنه أن يخبر نادية، أو أحد الزبائن الأغنياء الآخرين في هذا الشطر من

المدينة عن الكوخ البائس الذي ينام فيه كلّ ليلة؟ إذ توجد للبيوت في هذا الحيّ باحات داخلية، صمّمها مهندسون معماريون كبار حتى أصبحت تشبه الجنة. لم يبالغ كرم عندما قال إن أثرياء دمشق سيصابون بخيبة أمل عندما يرون الجنة الحقيقية ويقولون: «كنا نعيش في بيوت أفضل في دمشق، فذهب صومنا وعبادتنا هباء». كان سلمان يقول لنفسه ذلك أيضاً، لعل الجنة خُلقت للفقراء فقط، وإذا توفرت لهم هناك بيوت جميلة وطعام كاف، فإنهم سيكونون في غاية السعادة.

كانت نادية تشتكي من أنه يقف هناك صامتاً، يرمقها بحبّ، لكنها تريد أن تسمع منه كلمات لطيفة. وعندما لم يعرف ماذا يقول لها، سأل سارة التي أملت عليه قصيدة حبّ فرنسية مترجمة.

لكن الحظ لم يحالفه، ولم تلمس نادية الورقة، لأن إحدى صديقاتها أخبرتها أن سلمان يعيش في جحر فئران، وقالت إنها رأت ذلك بأمّ عينيها، «ساحة تعجّ بالمتسولين، ولديك الوقاحة لأن تكذب عليَّ. إنك لا تحبني»، وأطلقت ضحكة هيستيرية، وشعر سلمان بالدموع الحبيسة في عينيها بسبب خيبة أملها. أراد سلمان أن يقول لها إنه كذب عليها لأنه يحبّها، لكن نادية لم تدعه يقول كلمة واحدة. وعندما قالت له إنه كذاب صغير مغرور وإن كرامتها هي التي تمنعها من أن تخبر معلّمه، عاد يجرّ قدميه إلى المقهى.

طلب كرم من سميح أن يحلّ محله في المقهى وأخذ سلمان إلى سوق الحميدية واشترى له قميصين وبنطالين وجوارب وحذاء جديداً، ثم ذهبا إلى محل بوظة بكداش الشهير.

«يفضّل الخطاط حميد أن يوظف أشخاصاً مغفلين، أميين، لا أشخاصاً أذكياء»، قال كرم لسلمان وهما يتناولان البوظة، «إنه شديد

الغيرة حتى أنه أحبط طموح الخطاطين الثلاثة الذين حاولوا أن يفتحوا محترفاً لهم في هذا الحيّ منذ عشر سنوات ونشر عنهم افتراءات وأكاذيب. إنه لا يريد أن يشاركه أحد المكاسب التي يحصل عليها هنا حيث لا يوجد أحد ينافسه، لكن يوجد عدد كبير منهم في حيّ الخطاطين في البحصة.

«وهو لا يعطي أسراره لأحد، لذلك، يجب أن تحصل على تلك الأسرار بنفسك. يجب ألّا تخلع قناع الفتى الغبي اللامبالي. وعندما ينسى أن يحذر منك، يمكنك أن تستغل ذلك وتكشف أسراره. يجب أن تعرف ما هي وصفات أنواع الحبر الشهيرة التي يستخدمها، والأساليب والحيل السرية التي يستخدمها في كتابته، وما الشيء الذي يجعله كبير الخطاطين؟ لا أعرف أشياء كثيرة عن هذه الأشياء، لكنّي سمعت أن بإمكان المرء أن يميّز خطّه حتى من مسافة بعيدة. يجب أن تكتشف كلّ ذلك بنفسك إذا أردت أن تكون خطاطاً ناجحاً، لكن يجب أن تحتفظ بتلك الأسرار لنفسك، ودوّنها في دفتر ملاحظات وخبئ الدفتر عندي - لا عند الشيطان، لأنه متحالف معه. ويجب ألّا تخبر أحداً بذلك، حتى سارة، لأنه إذا اكتشف ذلك، فإنه لن يطردك قبل أن تتعلّم كلّ الفنون التي يعرفها فحسب، وإنما سيُنزل بك عقاباً شديداً. لقد فعل ذلك مرتين مع شخصين كانا يتدربان عنده لم يتوخيا الحذر، يجلس أحدهما الآن أمام الجامع الأموي يتسوّل بيده المشلولة، وأصبح الآخر بائع بصل. ولا يعرفان حتى الآن لماذا عاقبهما معلّمهما هكذا. إنه توأم الشيطان». من تعابير الخوف التي بدت على وجه سلمان، عرف كرم أنه بالغ كثيراً في رواية هذه القصص، فأضاف، «لكنه لن يفعل معك شيئاً، فإذا لمس شعرة من رأسك، فلن يبقى في محترفه شيء سليم، ولن تبقى عظمة سليمة واحدة في جسمه، لذلك يجب أن تتعلّم كل شيء، ولا تخشى شيئاً».

«أظن أنني لا أستطيع أن أتعلّم فن الخطّ؟»

«إنك شاب ذكي، ويدك ثابتة، ولن يصعب عليك شيء إذا عرفت أسرار المهنة. قال لي أحد الأصدقاء إنه إذا توفرت لديك الأقلام الجيدة والحبر المناسب، تكون قد أتقنت نصف المهنة، لذلك يجب أن تراقب معلّمك وهو يشذّب قصبات أقلامه حتى تتمكن من عمل ذلك بنفسك وأنت نائم».

«ولماذا تفعل كلّ ذلك من أجلي؟» سأله سلمان عندما وقعت عيناه على كيسين كبيرين فيهما الثياب الجديدة التي اشتراها له.

«لا شيء يا بني. فكما تعرف، لا يوجد عندي أبناء، بالإضافة إلى ذلك، فأنا مدين لك بحياتي»، قال وهو يربت على رأس سلمان بمودة، وأضاف، «ستذهب اليوم إلى الحلاق، ثم إلى حمّام السوق، وتأتي غداً عند التاسعة صباحاً إلى بيتي في ثيابك الجديدة مثل أمير، وسنذهب معاً إليه. سأتصل به اليوم وأخبره بذلك، لأنه لا يحبّ أن يزوره أحد من دون موعد مسبق. كما قلت لك، فإن السفير الفرنسي أكثر تواضعاً منه».

بينما كان يودّعه في سوق الحميدية، أمسك كرم بيد سلمان بقوة طويلاً، وقال له، «سأمنحك سنتين، يجب أن تتعلّم خلالهما كلّ حيل وأسرار المهنة. فهمت؟»

فأجابه سلمان خجلاً، «نعم، سأبذل قصارى جهدي». ضحك وودّع كرم ليبعد عنه مشاعر الامتنان القوية التي دفعت الدموع إلى عينيه، لكنه لم يعرف في تلك اللحظة أنه سيتمكن من الإيفاء بوعده.

في صباح اليوم التالي، فوجئت أمّ سلمان عندما رأته يستعد للذهاب في وقت مبكر مرتدياً ثياباً جديدة، وقالت له، «تبدو كأنك

عريس، هل قررت سارة أن تتزوجك أخيراً؟» كانت التحضيرات لحفل زفاف سارة تجري على قدم وساق.

فأجابها سلمان، «لا، لا، قد أحصل اليوم على عمل جديد».

أحاطت أمّه رأسه بيديها وقبّلت جبينه، وقالت: «تفوح منك رائحة حظ سعيد».

لم يكن حميد فارسي سيئاً كما خيّل إلى سلمان. وعلى الرغم من أن كرم يعرفه منذ عدة سنوات، لم يكن حميد وثيق الصلة به أو بأي جار آخر.

ما أدهش سلمان على الفور، بالإضافة إلى المحترف النظيف والأنيق، عينا الخطاط الصغيرتان الذكيتان اللتان بدا أنهما تراقبانه طوال الوقت. لم يحاول سلمان أن يكذب عليه ويصف أسرته بأنها في حال أفضل مما هي، كما نصحه كرم، فأجاب بصدق على جميع أسئلة الخطاط، ولم يخفِ عنه مرض أمّه ولا إدمان أبيه على شرب العرق. رفع حميد فارسي حاجبيه مندهشاً من صراحة هذا الشاب النحيف الذي لا يتجاوز عمره السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وعاش رغم صغر سنه مرتفعات الحياة وأعماقها. فلم ير نفسه عندما كان طفلاً فحسب، وإنما ذكّرته أذنا الفتى الكبيرتان أيضاً بمعلّمه الذي يحبّه «سيراني» الذي امتلك أيضاً أذنين كبيرتين كأنهما شراعان.

عندما سأل سلمان ما الذي يأمله من العمل هنا، لم يجبه كما طلب منه كرم، «آمل أن أخدمك يا سيدي وأكسب بعض النقود»، لكن بدا له فجأة أن سارة تلقّنه الردّ، فقال: «يا سيدي، لم أذهب إلى المدرسة لفترة طويلة، لكنّي أحبّ الخطّ العربي. لن أصبح خطاطاً كبيراً أبداً، وإنما أريد أن أكون مساعداً جيداً لك. سأبذل كلّ ما بوسعي وسأنفّذ نصائحك وتعليماتك، وسأصبح خادمك المخلص طوال الوقت».

كان كرم الذي جلس طوال الوقت صامتاً الى جانب سلمان متيقناً من أن سلمان أفسد كلّ شيء، لكن لدهشته الكبيرة، سمع أشهر خطاط في دمشق، يقول: «إذاً لنجرّب. ستبدأ العمل فوراً، وسأوضح لك ما يجب أن تفعله هنا ومع من ستعمل. لذلك ودّع معلّمك السابق الآن الذي لولا أنه تكلم لمصلحتك لما وطئت قدماك محترفي».

التفت سلمان إلى كرم، وقال له بصوت خافت: «شكراً جزيلاً يا معلّمي».

«أتمنى لك حظاً سعيداً يا بني، وستكون وجبتك الساخنة بانتظارك في المقهى في الساعة الثانية عشرة ظهر كل يوم، وكن جيداً معه كما كنت معي طوال هذه السنوات»، قال له كرم وغادر.

عندما خرج، بدأ ينضح عرقاً، وتنفّس الصعداء، ثم قال لنفسه وهو يضحك، «هذا الشيطان الماكر»، وعاد إلى المقهى في نهاية الشارع.

19

لم يبالغ كرم عندما قال إن فن الخطّ عالم مختلف تماماً. فلم يخطر في بال سلمان أن باستطاعته أن يصنع شيئاً جميلاً من بضع كلمات مكتوبة، وظن أن الخطاطين فنانون يكتبون لافتات للمحلات التجارية والمباني فقط، وفجأة رأى باباً يُفتح على الأسرار التي كانت تبدو له في الماضي ضرباً من السحر، وليس فيها شيء مرعب كما في المدرسة، ولم يشعر للحظة واحدة بأن الوقت بطيء يثقل قلبه كما كان يشعر في المدرسة. كانت الأيام تمضي بأسرع مما يتمنّى. ومع أن العمل في المقهى كان يُتعبه جسدياً، لكنه لا يتطلب منه أن يبذل جهداً ليفكّر. أثناء عمله في المقهى، جاب جميع الأماكن في أفكاره، لكنه لم يكن بحاجة إلى أن يفكّر كثيراً في الأشياء التي يفعلها.

أما العمل هنا، فإنه لا يتطلب بذل مجهود جسدي فحسب، وإنما يملأ رأسه أيضاً حتى يكاد ينفجر من كلّ ما يراه ويفهمه. إذ يسود الصمت في المحترف هنا وفي الورشة خلفه يذكّره بالصمت في الكنيسة الكاثوليكية أثناء صلاة القداس. لم يتصف حميد فارسي وحده بالهدوء، فهو لا يتكلم إلا نادراً عند الضرورة القصوى، وإنما جميع الخطاطين الذين رآهم في ورشة حميد، وبدأ رأس سلمان يعجّ بالأفكار حتى أنه نسي أمّه وسارة والكلب وكرم، وبدأ يمضي يومه

كلّه لا يفكر في شيء إلّا في ما يجري من حوله، ويعود في المساء منهكاً، لكنه يشعر بالسعادة أكثر من قبل.

كان سلمان ينظّف المحترف والورشة كلّ يوم لأن معلّمه حميد يحرص على نظافة المكان أكثر من صيدلي، ولا يحتمل أن يرى ذرة غبار. ثم بدأ بالتدريب اليومي على يد المساعدين الآخرين. رأى سلمان لافتة معلقة على باب الورشة تقول: «*العجلة من الشيطان*». وفعلاً لا شيء يسير في هذا المكان بسرعة. منذ اليوم الأول، بدأ سلمان يراقب صمد، اليد اليمنى لمعلّمه الخطاط، والمسؤول عن الورشة، وهو يزيّن مثلثاً من خلال انعكاسات عديدة حتى أخذ شكلاً سداسياً مع كلمات متداخلة ومتشابكة حول المركز. كان لا يزال بإمكان سلمان أن يميّز الأحرف عندما كان صمد يرسمها، لكنها سرعان ما اختفت في لوحة أرابيسك جميلة وغامضة تشبه وردة، كل سطر فيها حاد كالسكين، لكن الحروف قفزت من الورقة عندما أضاف مساعده باسم ظلالاً إلى عنوان الكتاب الذي كتبه صمد بيد واثقة.

سُمح لسلمان أن يراقبهما، وقد أحبّه المساعدون الآخرون لأنه ينفّذ كلّ ما يطلبونه منه بسرعة البرق.

ألقى حميد فارسي نظرة سريعة، ودقق عنوان الكتاب، ثم هزّ رأسه راضياً، وكتب اسمه تحت تصميم الخطّ. ودوّن شيئاً في دفتره، وخرج ليواصل عمله في كتابة قصيدة بخطوط معقدة.

أخذ سلمان قطعة ورق، وكتب عليها اسمه بقلم رصاص وحاول أن يمنحها ظلالاً. لم تكن سيئة أيضاً، لكن الحروف لم تبرز في الصفحة عندما ظللها.

عندما أعدّ الشاي للعاملين في الورشة بعد الظهر، أثنوا عليه وعلى ذائقته الجيدة. فقد أعدّ لهم الشاي بنفس الاهتمام الذي علّمه

إياه كرم الذي قال له: «القهوة مشروب قوي ويحتمل بعض الأخطاء، أما الشاي فهو الابن الحساس لنبتة *الست المستحية*. ففي لحظة إهمال واحدة، تذوي وتفقد أزهارها». راقب مساعدو حميد فارسي سلمان بفضول وهو يعدّ الشاي بمتعة كبيرة. لم يلاحظوا ذلك من الصبية الذين عملوا قبله. حتى المعلّم فارسي أبدى دهشته وإعجابه وقال له وهو يرشف الشاي السيلاني المعطّر بتلذذ، «بعد فترة قصيرة، ستنافس معلّمك السابق».

«يجب ألّا تنسى أبداً زاوية الشمس. انظر، إذا رسمت خطاً ينحني ويستدير ويمرّ بشكل مستقيم، ثم يسير في خط متعرج، عندما تكون الشمس مشرقة على اليسار، فأين يسقط الظلّ في كل مقطع من الخط؟» قال له باسم، المساعد الآخر، في أول درس تلقاه عن الخط، ينصحه بنبرة ودية.

راح يرسم الظلّ ببطء وهو يرشف الشاي، ورأى سلمان كيف أن يده ترافق مسيرة الخط في تناسق منتجة ظلاً، يتغيّر شكله ومكانه مع تحوّل الخطّ نفسه. مدّ المعلّم حميد رأسه إلى الورشة للحظة، وهزّ رأسه بسرور عندما رأى مساعده يعلّم الشاب الصغير، فقفز سلمان من على كرسيه ووقف باستعداد. ابتسم له حميد وقال: «اجلس، فنحن لسنا في ثكنة عسكرية، وانتبه جيداً إلى ما يقوله لك باسم».

في الأيام القليلة التالية، ظلّ سلمان يركّز لاستيعاب وفهم كلّ ما يراه ويسمعه. كان كلّ شيء جديداً وغامضاً بالنسبة له، حتى الورق والحبر أصبحا فجأة عالماً جديداً مثيراً للاهتمام.

في كل يوم جمعة، عندما يأخذ المعلّم - مثل جميع المسلمين - يوم عطلته ويغلق المحترف، يذهب سلمان إلى الغرفة التي أعدّها له كرم: غرفة صغيرة جميلة، فيها طاولة ومقعد قديم لكنه مريح، وسرير

ضيّق، ورف صغير، تضيئها نافذة كبيرة مواجهة للجهة الشمالية مع الطاولة التي تفوح منها رائحة نبات الآس القوية التي تهبّ على الغرفة في فصل الربيع، وفيها أيضاً ضوء كهربائي.

أعطى كرم مفتاح الغرفة لسلمان الذي أصبح بإمكانه أن يأتي إليها كلّ يوم، ما عدا يوم الاثنين. ولقاء ذلك، كان عليه أن يضخ الماء من النهر ويروي الشجيرات والورود والأشجار، ويتسوّق الأشياء التي يطلبها منه كرم وينظّف المنزل الذي كان تنظيفه سهلاً لأن أرضيته مكسوة ببلاط ملون، وما عدا أيام الاثنين، كان كرم يأتي إلى بيته لينام فقط. وكانت تأتي امرأة تغسل له ثيابه وتكويها. قال له كرم: «يمكنك أن تستخدم الهاتف في المطبخ، لكن يجب ألّا ترفع السماعة عندما يرن». عند وجوده في المنزل، كان كرم يجري اتصالات كثيرة بالهاتف.

أعطى كرم سلمان دفترين كبيرين، واحداً ليتدرّب فيه على الخطّ، والآخر ليدوّن فيه الأسرار والوصفات.

بدأ سلمان يتطلع بشوق إلى أيام الجمعة ليدوّن انطباعاته وجميع ملاحظاته التي يكتبها في قصاصات صغيرة وينقلها إلى دفتر الملاحظات. وكلما جاء إلى غرفته، وجد قصيدتين أو ثلاث قصائد قصيرة يتركها له كرم، ليحفظها عن ظهر قلب، وكان يقول له: «الشعر يفتح القلب على ألغاز اللغة»، وكان سلمان يخجل من نفسه إذا لم يحفظ تلك القصائد.

كان فن الخطّ بمثابة قارة جديدة يسافر إليها سلمان، وكان تحدُّثُ المساعدين بصوت خفيض اكتشافاً بحدّ ذاته بالنسبة لسلمان. فقد كانوا يتكلمون دائماً همساً. في البداية، صُدم سلمان الذي عاش مع الضجيج في المقهى واعتاد عليه، بأنه كان يتكلم في البداية،

بصوت مرتفع ومزعج، وكان صمد المشرف على الورشة يضحك، أما الحرفيون الثلاثة الآخرون، محمود وراضي وسعيد، ومساعدوهم باسم وعلي، فكانوا يحاولون أن يلفتوا انتباه سلمان كي يخفض نبرة صوته العالية بوضع سبابتهم على شفاههم.

باستثناء محمود ذي الطباع الفظة، لم يلكزه أحد على رأسه أو يوجّه له كلمات نابية. عندما ذكر سلمان كلمة « طيزي»، طلب منه صمد أن يترك كلمات كهذه في الشارع، وأكد له بسخرية أن هذه الكلمات الفظة ستنتظره قرب المدخل ليستخدمها عندما يغادر الورشة. تأثّر سلمان بما قاله، وأصبح يقف عند مدخل المحترف ويقول لكلماته النابية أن تبقى خارج الورشة، ويستعيدها عندما ينهي عمله. كما لو كانت تلك الكلمات ثقيلة كالرصاص، أصبح يدخل إلى الورشة وهو يشعر بالارتياح.

في صباح أحد الأيام، رآه حميد فارسي يتمتم شيئاً عند المدخل، وعندما سأل سلمان عما يقوله أجابه هذا إنه يتخلص من كلماته النابية قبل أن يدخل الورشة، ابتسم فارسي، لكن ابتسامته كانت باردة مثل ابتسامة ملك، وهو بالتأكيد الملك المطلق هنا. لا يمكن ولا يُسمح لأحد أن يمازحه أو حتى يلمسه بيده إذا أراد أن يلفت انتباهه إلى شيء عندما يكون منهمكاً في حديث مع أحد كما كان سلمان مع كرم والزبائن في المقهى. جلس حميد فارسي دائماً خلف طاولته الأنيقة المصنوعة من خشب الجوز عند مدخل المحترف. كان الجميع يتحدّثون عنه ومعه باحترام، لا بل بتبجيل، حتى صمد الأكبر سنّاً من معلّمه. كان المحترف أمام الورشة منطقة محظورة على المساعدين إذا لم يستدعهم، وكان صمد، يد حميد اليمنى والمسؤول عن الورشة في الأربعين من عمره، وسيم الوجه، يتمتع بطبيعة مرحة، ويشرف على عمل الحرفيين الثلاثة والمساعدين

وصبي المهمات باهتمام شديد. لكل شيء في هذه الورشة وقته ومكانه، ولم يبدُ أن أحداً منهم يحسد الآخر، ويتقاضى الجميع أجراً ثابتاً بحسب سنوات خبرتهم. فالذين يتقاضون أجراً أكبر، يُكلّفون بالمهام الأكثر صعوبة.

أما أجر سلمان فقد كان نصف ما يكسبه في المقهى، وقد واساه كرم وقال له إن جميع كبار الخطاطين بدأوا عملهم صبية أجراء.

كان سلمان يعود إلى مقهى كرم كلّ يوم ليتناول الغداء. يتناول وجبة طعام ويشرب الشاي من دون مقابل، ثم يعود إلى المحترف. شعر أن معاملة سميح ودرويش له قد تغيّرت وأصبحا يعاملانه بود شديد ويهرعان لخدمته. لكن كرم حذّره منهما وقال: «كن حذراً. لا تخبرهما شيئاً عن عملك الجديد أو عن معلّمك، ولا تذكر شيئاً عن الغرفة التي أعطيتك إياها في بيتي فهما غبيان ومستعدان لأن يبيعا أمهما مقابل إكرامية بسيطة».

جاءت النصيحة في الوقت المناسب لأن سلمان كاد يتورط ويحكي لسميح ودرويش الفضوليين عن معلّمه فارسي الغني الذي يعيش حياة بسيطة، والذي لا يشرب الكحول ولا يدخن، ولا يلعب طاولة الزهر أو يراهن على شيء، ولم تطأ قدمه المقهى، ويتناول طعام غدائه الذي ترسله له زوجته عند الظهيرة، ولا يشرب سوى القهوة والشاي اللذين يعدّهما له في ورشته. وعندما يزوره زبائن على درجة من الأهمية، يطلب لهم عصير ليمون أو قهوة من مقهى كرم.

تعلّم سلمان بشغف وبسرعة بإشراف الخطاطين الحرفيين، وبدا أن حميد فارسي لم يعد يوليه انتباهه، ولم يعد يطلب منه شيئاً إلّا عندما يريد أن يرسله إلى السوق، أو ليعدّ له كأساً من الشاي أو القهوة. لم يُزعج ذلك سلمان، لأن حميد كان منعزلاً عن مساعديه

الآخرين أيضاً، لا يبدي اهتماماً كبيراً بهم، مع أنه يعرف ما الذي يفعله كلّ واحد منهم، ولم يوبخ أحداً منهم قط، لكنه لا يرحم عندما يعطي رأيه حول جودة عمل ما. وكان مساعدوه يرتجفون عندما يسلمونه عملاً أنجزوه، ويعودون إلى عملهم وهم في غاية الانشراح إذا وافق على عملهم. ولم يظهر على حميد أنه متحمس لشيء. قال صمد، المشرف على الورشة، مواسياً الحرفي راضي عندما عاد ذات مرة من عند حميد حزيناً وارتمى على كرسيه مثل كيس بطاطا لأنه طلب منه أن يعيد تصميم ترويسة رسالة لأحد الزبائن لأن تناغم الحروف لم يحظ برضاء المعلّم حميد.

«لو كتب اللّه نفسه عبارة ما، لوجد معلّمنا خطأً فيها»، قال صمد لزميله راضي وبدأ يساعده على إعادة تصميم اللوحة وترتيب الكلمات من جديد، وقال سلمان لنفسه إن اللوحة الجديدة أصبحت أجمل. وفي اليوم التالي، دقق حميد فارسي النظر فيها، ثم هزّ رأسه ونادى سلمان، وأعطاه عنوان الزبون وقال له المبلغ الذي يجب أن يدفعه له. سُرّ الزبون الذي يقيم في حيّ الصالحية القريب من المحترف كثيراً، وأعطى سلمان إكرامية ليرة. عندما أعطى سلمان المبلغ لمعلّمه، قال له ببراءة حمل وديع إن الزبون أعطاه إكرامية ليرة وسأله هل يجب أن يتقاسمها مع الآخرين؟ فأُعجب به حميد فارسي كثيراً.

فسأله حميد، «لكن كيف ستتقاسمها بالتساوي معهم؟» لم يدر ولم يخطر بباله أن سلمان قد حضّر ردّاً على سؤال كهذا وهو عائد إلى المحترف، واعتبر أن هذه الليرة ستكون دفعة لتحسين سمعته في الورشة ولدى معلمه حميد.

فأجابه سلمان: «أظن أن أفضل طريقة هي أن نشتري بها شاي دارجيلينغ اللذيذ الذي تشعر عندما تحتسيه كأن في فمك حديقة مليئة بالأزهار». في تلك اللحظة أحبّ حميد هذا الصبي النحيف.

فوجئ رفاقه في الورشة أيضاً بما فعله وأبدوا سعادتهم لأنهم سيشربون شاي دارجيلينغ الذي اشتراه لهم بالليرة التي أعطاها له الزبون، لكنهم قالوا له، بعكس ما قاله معلّهم حميد، إنهم يريدون في المستقبل شرب الشاي السيلاني الثقيل الذي اعتادوا عليه.

قال صمد: «نعم، تفوح منه رائحة أزهار، لكن طعمه يختفي بسرعة»، رد راضي مازحاً وساخراً، «لا يزول طعمه بسرعة فقط، وإنما يبدو أن لا لون له. إنه يذكّرني بشاي الشمرة الذي كانت تشربه جدتي عندما تعاني من مغص في معدتها».

لعن سلمان أمهاتهم في سريرته لأنهن جلبن مثل هؤلاء الجاحدين إلى العالم. ضحك كرم، وقال لسلمان: «لقد فعلت الشيء الصحيح لكي تحظى برضاء معلّمك، وهذا أهم بكثير مما قاله الآخرون».

بعد يومين، ناداه حميد وقال له: «مضى عليك الآن شهر في العمل معي، وأرى أنك تحرز تقدماً جيداً. بدءاً من الأسبوع القادم، ستذهب إلى بيتي وتحضر لي وجبة الغداء وتعيد المطبقية الفارغة من اليوم السابق إلى زوجتي، وتأخذ لها الأشياء التي أطلب منك شراءها. كان الأجير الذي قبلك يستغرق ساعة وربع للقيام بذلك. كان يتسكع ويتلهّى برؤية البائعين المتجولين والمشعوذين، وأنا متأكد من أنك تستطيع أن تفعل ذلك في نصف ذلك الوقت. في جميع الأحوال، أريد أن تكون وجبة طعامي على الطاولة هنا في تمام الساعة الثانية عشرة، حتى لو كانت هناك اضطرابات في المدينة»، قال له حميد وهو يبري حواف قلم قصب.

«لا تُفسد حياتك، خذ الأمور براحة وبطء»، قال له راضي وهو يحرّك الحبر، وهمس له كرم عندما ذهب إلى المقهى عند الظهيرة ليتناول طعامه، «يقولون إن زوجته جميلة. متّع عينيك بمنحنيات

جسدها»، وضحك بصوت عالٍ على النكتة التي قالها، لكن سلمان ركل ساقه تحت الطاولة بانزعاج وتمتم، «ماذا تظنني؟»

«ماذا أظن؟، أظن أنك» ردّ كرم ضاحكاً بصوت أعلى، «رجل توجد بين ساقيه أفعى جائعة، يقترب منها أرنب صغير سمين».

«أنت غليظ اليوم»، قال سلمان وخرج من المقهى غاضباً، وذهب مباشرة إلى بائع البوظة، واشترى كوز بوظة بنكهة التوت الشامي، الذي هدّأ روحه الغاضبة وحلّ الطعم الحلو محلّ المرارة في فمه، ثم عاد يسير ببطء إلى المحترف. عندما مرّ من أمام المقهى، قال له كرم من داخل المقهى، «أراك يوم الجمعة». فردّ سلمان الذي هدأ، «نعم».

في اليوم التالي، دفع حميد فارسي للرجل العجوز أجره للفترة الزمنية منذ هروب الصبي الأحول مصطفى لأنه كان يجلب له يومياً وجبة غدائه الساخنة، الذي كان ينقل كلّ يوم في مقطورة دراجته حوالي خمسين وعاء خزفياً ومعدنياً يجلب فيها طعام الحرفيين وأصحاب المحلات. وبما أنه لم يكن يجيد القراءة، لم يُكتَب على أي من تلك الأواني أسماء وعناوين أصحابها، لكنه كان يعرف صاحب كلّ وعاء ولم يخلط قط بين أوعية أي من زبائنه. وأصبحت الآن مهمة جلب غداء حميد فارسي على عاتق سلمان.

«لكن كلّما احتجت إليَّ، اتصل بي»، قال الرجل العجوز بلطف وانحنى لحميد، وذهب.

إنه «رجل طيب»، قال حميد عن الرجل العجوز لأنه لم يثق أبداً بالأجير مصطفى الذي عمل عنده. ومع أن صمد حكى نكاتاً كثيرة في الورشة عن بخل معلّمه، لم يكن يأكل إلّا قطعة خبز يابسة مع بضع حبات زيتون أو جبن من حليب الغنم أثناء النهار، ويذهب إلى مقهى كرم ليتناول وجبة ساخنة مرة في الأسبوع على الأكثر. عندما أجابه

سعيد، «إن معلّمنا يقرف من تناول الطعام في المطاعم»، ابتسم صمد، أما راضي فقد هزّ رأسه وقال هامساً، «لا، إنه بخيل فقط»، وفرك إبهامه وإصبعه معاً - الحركة التي تعني أنه يحبّ المال كثيراً، وهي حركة ليست معروفة في مدينة دمشق فقط.

كانت أسعار الطعام في مقهى كرم مرتفعة بالنسبة للمساعدين، لذلك كان راضي وسعيد يتناولان طعامهما مع علي وباسم كلّ يوم في مطعم رخيص يقدم وجبات سريعة، أما محمود فكان الوحيد الذي لم يتناول شيئاً طوال النهار. كان طويل القامة لا يتوقف عن التدخين، وإذا سُئل لماذا لا يتناول شيئاً، يجيب بأنه لا يستمتع بالطعام، ويريد أن يتغذّى من تدخين السجائر.

في أحد أيام الخميس، طلب حميد من سلمان أن ينتظره بعد انتهاء العمل. في الساعة السادسة تقريباً، أغلق حميد المحترف وسار أمام سلمان بخطوات سريعة الذي بذل جهداً ليحلق به. خرجا من سوق ساروجة إلى القلعة، وعبرا سوق الحميدية باتجاه الجامع الأموي. تساءل سلمان، هل يريد أن يأخذه كلّ هذه المسافة ليريه الطريق إلى بيته؟ بعد قليل انزلقت قدم معلّمه، عندما انعطف إلى شارع البيمارستان، زلّت قدمه فوق حافة الرصيف البازلتية الملساء. فوجئ سلمان عندما رأى معلّمه ممدداً على الأرض لا يستطيع النهوض بين أرجل المارة. هل زلّت قدم حميد لأن سلمان تمنّى له ذلك؟

«اللعنة عليهم جميعاً»، صاح معلّمه، لكن أحداً لم يعرف من يقصد. ساعده بائع السوس على النهوض على قدميه، وقدّم له كأساً من الماء البارد، لكن حميد فارسي رفضها بفظاظة، وعاد يسير في شارع البيمارستان، بخطوات أبطأ، وتجاوزا مستشفى البيمارستان

الشهير الذي يعود تاريخه إلى القرن الثاني عشر. كان الدم يسيل من إحدى ركبتيه، وقد تمزّق بنطاله في تلك الساق، لكن سلمان لم يجرؤ على أن يقول له ذلك. تبعه إلى شارع المحكمة بمحلاته المتعددة الألوان المؤدي إلى زقاق الخياطين، الزقاق الذي يعرفه سلمان جيداً لأنه كان يأخذ طلبات أحياناً إلى خيّاط في الحي المسيحي، ويفضي زقاق الخياطين إلى الشارع المستقيم مباشرة.

يتفرّع الزقاق الذي يوجد فيه منزل معلّمه من الشارع المستقيم، ويقع قبالة زقاق اليهود، وإذا سار المرء على امتداد الشارع المستقيم، فإنه يصل إلى الحيّ المسيحي. لم تكن كنيسة القديسة مريم الأرثوذكسية والقوس الروماني يبعدان أكثر من مئة متر عن الطريق المفضي إلى بيت حميد، وكان حي العبارة الذي يقيم فيه سلمان يبعد قرابة خمسمئة متر عن بيت معلّمه.

«ها هو البيت. تقرع الباب ثلاث مرات، وتنتظر هنا»، قال له حميد فارسي عندما وقف خارج بيت جميل، وأشار إلى مقرعة الباب البرونزية، وأضاف وهو يفتح باب البيت الذي كان، مثل جميع أبواب البيوت الدمشقية مغلقاً لكنه ليس مقفلاً من الداخل، «ثم تعطيك زوجتي طعام الغداء، وتعيد لها المطبقية الفارغة من اليوم السابق».

ثم أضاف: «وهناك شيء آخر. يجب ألّا يعرف أحد عنواني، لا أحد من أفراد أسرتك ولا حتى صمد. فهمت؟» لكنه لم ينتظر ردّه واختفى داخل البيت دون أن يودّعه، وأوصد الباب من الداخل.

تنفّس سلمان الصعداء. أصبح عليه الآن أن يستكشف الطريق بنفسه، لأنه لم يعد يولي اهتماماً بذلك بعد أن سقط معلّمه على الأرض. عاد إلى المحترف بعد أن تأكد من أنه حفظ الطريق، شارعاً شارعاً. استغرق كلّ ذلك عشرين دقيقة تماماً، لكن ذلك جعله ينضح عرقاً.

يوم السبت، أول أيام الأسبوع، استيقظ سلمان في الصباح الباكر. كان يوماً خريفياً دافئاً، وكان أبوه لا يزال نائماً. فوجئت أمّه عندما رأته قد استيقظ في وقت مبكر، وسألته، «لماذا استيقظت في هذا الوقت المبكر؟ هل أنت عاشق، أم أصبح في داخلك منبّه الآن؟»

«سآخذ اليوم وجبة طعام معلّمي لأول مرة. ستعطيني زوجته المطبقية، وكما تعرفين فلم أر امرأة مسلمة عن قرب أو دخلت بيتها قط».

قالت له أمّه وقبّلته بين عينيه، «مسلمة، يهودية، مسيحية، ما الفرق؟ إنك لن تأكل المرأة. ستأخذ منها المطبقية وتوصلها إلى معلمك فقط».

في الساعة الحادية عشرة ظهراً، غادر سلمان المحترف وذهب إلى مقهى كرم وشرب كأساً من الشاي. عندما همّ لمغادرة المقهى بسرعة، أمسكه كرم من ذراعه، وسأله، «لماذا أنت متوتر هكذا؟ أظن أنك ستصبح عاشقاً اليوم»، ومسّد شعر سلمان القصير.

بدأ قلب سلمان يخفق بقوة عندما وقف خارج بيت حميد فارسي. أخذ نفساً عميقاً، وقرع الباب مرة واحدة وقال بصوت خافت، «طاب يومكِ». عندما سمع صوت وقع خطوات، قال بصوت أعلى، «مرحباً، طاب يومك يا سيدتي... مدام؟»

ظهر وجه صبياني جميل وراء الباب الموارب قليلاً. لم تكن المرأة متحفظة وباردة كما توقع سلمان، ترتدي ثياباً عصرية، لا توجد في جسدها منحنيات بارزة، كانت نحيفة بعض الشيء.

«آه، أنت الأجير الذي سيأخذ وجبة الغداء الآن»، قالت له بنبرة ودية، وأعطته المطبقية المكونة من ثلاث طبقات، أعطاها الإناء الخزفي المغسول من يوم البارحة.

«شكراً»، قالت له وأغلقت الباب حتى قبل أن يقول لها شيئاً.

في طريق عودته إلى المحترف، حاول أن يهدأ. عندما بدأ يتصبب عرقاً، سار على الجانب الذي يغمره ظلّ. وصل إلى المحترف قبل الثانية عشرة بقليل. نظر إليه حميد فارسي مشفقاً، وقال: «لم يكن عليك أن تجري. لقد رأيتَ ما حدث لي، وكنت أفضّل ألا تتعرّق أو تصاب بضربة شمس ويصل طعام غدائي سليماً».

كان طعام الغداء سلطة ولحم ضأن في مَرَق اللبن ورز. بدا كلّ شيء في تلك الأواني الصغيرة شهياً تفوح منه رائحة لذيذة. عندها أدرك سلمان لماذا لا يحبّ معلّمه طعام المطاعم.

كانت الوجبة في مقهى كرم في ذلك اليوم: باذنجان محشي باللحم المفروم. كم يكون لذيذاً عندما تطبخه أمّ سلمان، أما عندما يطبخه سميح، فإنه يحرقه ويصبح طعمه مرّاً مثل روح ذلك الرجل.

«حسناً؟» سأله كرم عندما أنهى وجبة طعامه وشاركه في شرب الشاي، «هل أصبحت عاشقاً؟»

أزعج هذا السؤال سلمان.

فقال: «لا، لكن إذا عشقتُ، فسأخبرك بذلك فوراً».

عندما ذهب سلمان ليجلب وجبة الغداء إلى معلّمه حميد في اليوم التالي، ألقى التحية حتى قبل أن تفتح المرأة الباب كله. قال لها: «مرحباً، طاب نهارك مدام». ابتسمت له ابتسامة ودية وأعطته المطبقية كما فعلت البارحة، بالإضافة إلى كيس مشمش أرسلته ابنة خالة أمّها، كما قالت له.

كانت وجبة حميد في ذلك اليوم لحم كباب وبطاطا مشوية وسلطة. أما في مقهى كرم، فقد كانت الوجبة: بامية في مرق

البندورة ورز. لم يكن سلمان يحبّ البامية التي تفرز سائلاً لزجاً كالمخاط، فتناول قطعة خبز وجبن غنم وبضع حبات زيتون.

عندما عاد إلى المحترف، كانت رائحة المشمش تملأ المكان ووصلت إلى الورشة. اعتباراً من ذلك اليوم، بدأ سلمان يربط هذه الرائحة العطرة بزوجة الخطّاط الجميلة.

مع مرور الأيام، ازدادت أواصر الصداقة بين سلمان وكرم وصار كرم أكثر ثقة بصديقه الشاب وازداد كرمه وصدقه تجاهه. حتى أنه لم يجد أي عائق لشرح همومه لسلمان ولم يمنع نفسه حتى من البكاء شاكياً ألمه من عشيقه بدري الذي يتصرف رغم عضلاته وقوّته كطفلة حساسة صغيرة ويحرد ويقاطعه أحياناً لأسابيع.

بالطبع لم يخبر كرم معشوقه بدري أنه يحكي لسلمان لأنه لو فعل ذلك لهرب بدري وقطع علاقته معه لخوفه من جماعته المتعصبة، «سيهرب لأنه يخشى مصارحتهم بحبه لي» قال كرم والأسف يملأ وجهه.

«أي جماعة هذه؟» تساءل سلمان.

«ليس مهماً بالنسبة لك. كل ما هو مهم أنهم يعتبرون حبّ بدري لي خطيئة لا تغتفر» أجاب كرم بصوت يائس.

في حقيقة الأمر، كان بدري في أعماقه متشدداً ومتعصباً بشكل هستيري، ولم يفتح فمه أحياناً لساعات لأنه جاهل، لكن عندما يتطرق الحديث إلى موضوع دينه، فإنه يتقيأ سيلاً من الكلمات المليئة بشعوذة بدائية. فمن بشر احترقوا على الفور بنيران هبطت من السماء، أو تحولوا إلى قرود لأنهم شتموا رجل دين أو نظروا نظرة شهوانية إلى امرأة، الى أناس طالت ألسنتهم وأصبح طولها مترين ونصف وسقط أمامهم على الأرض فلملموه ووضعوه في سلة

يحملونها معهم أينما ذهبوا. ولأنهم أهانوا أشخاصاً شرفاء عاقبهم اللّه وأطال ألسنتهم ليضحك عليهم الناس عندما يرونهم ليتعلّم الناس أن اللّه لا يحب النميمة. وتحدّث بحمق عن أصدقاء له مؤمنين وصالحين حملتهم الملائكة إلى مكة وأعادتهم في ليلة واحدة لأنهم فقراء لا يستطيعون أداء فريضة الحج بسبب تكاليفه الباهظة.

كان كل ذلك عبارة عن خرافات وخزعبلات كان سلمان قد سمعها عندما كان طفلاً في «حوش الرحمة»، عندما كان أحد الجيران الذي أصيب بالخرف يهذه بمثل هذه الخزعبلات عن مسيحيين صالحين أو سيئين. والأسوأ من ذلك، أن الكاهن الكاثوليكي كان يدافع عنه حينذاك ويعتبر كلامه رجماً بالغيب لا بل تنبؤات.

في إحدى المرات، اغرورقت عينا بدري بالدموع عندما كان يحكي بحماسة شديدة عن علماء وفلاسفة وسياسيين أمريكيين اعتنقوا الإسلام سرّاً لأنهم سمعوا صوتاً عربياً في المنام يحثهم على ذلك ويعدهم بالجنة.

«ولماذا لا يعلنون على الملأ ويخبرون الصحافة عن السبب الذي جعلهم يعتنقون الإسلام؟» سأله سلمان الذي أثارت أعصابه موجة من الغضب تجاه هذا الغبي.

«لأن اللّه كلفهم بمهمة سرية ليعملوا بنشاط بين الكفار»، أجاب بدري كما لو أن المسؤولين الأمريكيين أخبروه بذلك للتو.

«ولماذا الأمريكيين بالتحديد؟ وليس مثلاً الأوغنديين أو البرازيليين؟» سأله سلمان مخفياً سخريته ببراعة.

فأجابه بقناعة تامة، «لأن اللّه يعلم قوة وسلطة الأمريكيين على جميع بلدان العالم من الناحية العسكرية، فإذا أصبحوا مسلمين فإنهم سيجعلون العالم كله في أشهر معدودة يعتنق الدين الحنيف». لو

كانت لدى سلمان الشجاعة الكافية لاتّصل بمستشفى المجانين الذي يطلق عليه الدمشقيون اسم «العصفورية» لأن يأتوا ويأخذوا بدري.

في أحد الأيام، سمع سلمان من سارة حكمة طريفة، «بعد الحديث مع غبي من الأقارب أو الجيران، يحتاج المرء إلى ساعة كاملة لينظّف عقله من نفايات ذلك الغبيّ».

بعد أن استمع إلى بدري، احتاج سلمان إلى ساعات عديدة لكي ينظّف رأسه من نفايات كلام هذا الحلاق الغبي.

في أحد الأيام، جاء بدري الى بيت كرم، على غير عادته. لم يكن ذلك يوم الإثنين، وإنما يوم الخميس، برفقة شخص آخر. وسمع سلمان الضجيج الذي كانوا يحدثونه عندما كان منهمكاً بالتدرب على تعلم الخط، ولم يكن باستطاعتهم رؤية غرفته في الجانب الآخر البعيد عن المدخل وغرفة النوم.

بعد قليل جاء إليه كرم وجلب له كأساً من الشاي وقطعة بقلاوة، وقال له: «لا تغادر غرفتك اليوم لكي لا يراك بدري. نحن في المطبخ وعندنا حديث هام مع صديق له».

«أعوذ باللّه. لن أتحرّك من مكاني لأن معلّمي كلفني بعمل صعب يجب أن أنجزه حتى يوم السبت. إنها لوحة معقدة بخط الثلث الصعب، وقد باءت كل محاولاتي بالفشل حتى الآن».

نظر كرم الى الأوراق المبعثرة في أرجاء الغرفة ورأى تمارين على كتابة الخط بدا أنها محاولات فاشلة رماها سلمان على أرضية الغرفة. ابتسم وغادر الغرفة بهدوء مثل قطة.

بعد ساعتين أرغمه الشاي على الذهاب إلى المرحاض ليتبول. عندما اقترب من المرحاض سمع أصوات شجار في المطبخ، وسمع الرجل الغريب، الضيف الآخر، يصرخ، «يجب أن نذبح أبناء

الشياطين أولئك كالماعز من الوريد إلى الوريد لنريح المؤمنين منهم».

وافقه بدري على ما قاله، لكن كان لدى كرم رأي آخر، فقال: «هذا خطأ فادح. إذا أردت أن تنتقم من عدو لك فعذّبه وادعُ اللّه أن يطيل عمره ليتحمّل أكبر قدر ممكن من العذاب».

صعق هذا الكلام سلمان، وشعر بضربات قلبه في فمه، وارتخت ركبتاه كأنهما ستسقطان على الأرض. انسحب وسار بما تبقّى له من قوة في الممر الى المرحاض، لكنه لم يستطع أن يُنزل قطرة واحدة كما لو أن بوله قد تبخّر من تأثير الصدمة.

من هو الشخص الذي يخطط هذان الشخصان لقتله؟ وما الذي جعل كرم، هذا الإنسان النبيل، يشاركهما؟

احتاج سلمان إلى سنوات ليعرف سرّ تلك الليلة التي جمع أحجار صورتها حجراً حجراً مثل لوحة الفسيفساء حتى اتضحت لديه الصورة.

في تلك الليلة، لم يتمكن من جعل يده ثابتة التي ظلت ترتجف بسبب ما أصابه من اضطراب، ولم يتمكن من التدرب على خط الثلث الذي يعتبر من أصعب الخطوط العربية وأجملها، فأغلق باب الغرفة، وغادر البيت بسرعة.

خلال الأشهر القليلة الأولى، تعلّم سلمان سرّ تجهيز الحبر، وحفظ عن ظهر قلب الكميات المطلوبة ودوّنها خلسة في قصاصات ثم نقلها بحذافيرها إلى دفتر ملاحظاته يوم الجمعة في بيت كرم.

كان المحترف يستخدم كميات كبيرة من الحبر الملون لتنفيذ أعمال لمهندس معماري صمّم مسجداً جديداً. وقد أشرف صمد على

عملية تحضير الحبر، ونفّذ راضي العمل، وكان سلمان قد جلب الصمغ العربي من سوق البزورية في أكياس.

أذاب صمد الصمغ في الماء الساخن وأضاف كمية وزَنَها بدقة شديدة من زرنيخ الكبريت وكمية قليلة من مسحوق أخذه من كيس لا توجد عليه كتابة. عندما سأله سلمان ما هو هذا المسحوق، تمتم صمد وقال شيئاً يشبه كلمة صوديوم. كان راضي يمزجه ويغلي كميات كبيرة من ذلك المسحوق الأصفر البراق كلّ يوم. وكان المعلّم حميد يستخدم مستخلصات الزعفران باهظة الثمن لتخطيط اللوحات الصغيرة والصغيرة جداً، ولم يستخدم أحد غيره حبر هذا اللون النبيل. كان صمد يصنع اللون البرتقالي من كبريتيد الزرنيخ، واللون الأبيض من الرصاص الأبيض، واللون الأزرق من مسحوق اللازورد، ثم يصنع درجات مختلفة من اللون الأحمر من مسحوق الزنجفر أو أكسيد الرصاص، ويستخدم للأشياء الأخرى، عِرْقُ الحَلاَوَة وحجر الشبّ والماء. وبغية الحصول على لون أحمر أكثر كثافة، يُضاف القرمز إلى هذا المستخلص، وهو مسحوق أحمر يُستخلص من حشرة تسمى دودة القرمز.

نبّه صمد سلمان بأن عليه أن يتعامل مع الألوان بحذر شديد، لأنه ما عدا الحبر الأسود غير الضار، فإن معظم الأصباغ الأخرى شديدة السميّة. عندما كان راضي يسمع ذلك، كان يضحك من مخاوف صمد، ويمزج كلّ شيء بيديه العاريتين، ثم يتناول طعامه دون أن يغسلهما. بعد قرابة سنة، أصيب راضي بتقلصات شديدة في معدته، وبما أنه فقير جداً، لم يكن بمقدوره أن يذهب إلى طبيب جيد، فبدأ يتناول بعض الأعشاب ويستخدم بعض العلاجات المنزلية الأخرى. وبعد فترة قصيرة، تغيّر لون وجهه وأصبح شاحباً جداً. وعندما حلّ الشتاء، بدأ يتقيأ، وبعد أن غادر سلمان المحترف بفترة

قصيرة في شباط ١٩٥٧، مرض راضي ولم يعد قادراً على مواصلة العمل، وأصيبت يداه بالشلل، وأصبح فمه يلتوي بشكل مرعب عندما يتكلم، واسودّت حواف لثته. أعطاه حميد مبلغاً قليلاً من المال وفصله من العمل.

لم يحبّ حميد أن يعمل في مزج الألوان لأنها سامة. وكما قال لأحد زبائنه، «إن اللون الأسود والأبيض يصنعان موسيقى، العين تتحرك بين عمودين، وهذا يُحدث إيقاعاً، موسيقى العيون، مزيج بين العاطفة والدقة. إن اللون مدهش، فهو يغريك بسهولة لكي تستمتع بالفوضى». دوّن سلمان هذه الملاحظة على هامش جريدة قديمة، وقصّها ووضعها في جيب بنطاله قبل أن يذهب ليعدّ له الشاي.

كان اللون الذهبي على خلفية خضراء أو زرقاء أكثر الألوان التي يحبّها المعلّم حميد الذي يقول عنه «نشوتي الذهبية».

لفترة من الوقت، تساءل سلمان لماذا يرسله حميد باستمرار إلى سوق البزورية ليشتري له عسلاً مع أنه لم يأكله قط، لكنه اكتشف سبب ذلك في نهاية شهر آب: فهو يستخدمه لصنع الحبر الذهبي. كانت هذه المهمة تنحصر في المعلّم وصمد، يد حميد اليمنى، الذي يُسمح له وحده أن يصنعه ويلمسه، ولم يُسمح لأحد آخر حتى أن يراهما وهما يقومان بذلك. لكن سلمان اختلس نظرة عندما كان حميد يعمل في المطبخ الصغير خلف المحترف، ورأى الألواح المستطيلة المصنوعة من رقائق الذهب، الرقيقة جداً التي صُنعت بطَرق الذهب وضغطه مراراً عبر أسطوانات فولاذية لتزداد رقته، موضوعة بين صفائح من الورق المشمع الرقيق في كتاب كبير له غلاف جلدي.

كان حميد يأخذ وعاء من البورسلان ويضع فيه مادة الجيلاتين وقليلاً من العسل ويذيب فيه الراتنج ثم يضع ورقة الذهب في المحلول ويفركها بإصبعه حتى تذوب أيضاً. ثم يفرك ورقة ذهب ثانية

وثالثة ورابعة، ثم يغلي المزيج كله ويتركه لفترة من الوقت، ثم يصبّ السائل، ويترك بقايا الذهب التي لم تذب في الوعاء لعدة أيام حتى تجفّ، ثم يضيف الماء إلى السائل الذهبي ويقلّبه حتى يختلط جيداً، ثم يكشط الذهب المتبقي من الإناء، ويضعه في قنينة، ويصبّ الحبر الذهبي عليها. مكتبة سُر مَن قرأ

كان حميد يدهن الأحرف بغطاء كثيف من الذهب، ويتركه يجفّ، ثم يفرك السطح بحجر كريم أملس حتى تلمع الحروف الذهبية.

دوّن سلمان أيضاً ملاحظات عن السكاكين التي يستخدمها الخطاط. فقد صُنعت السكين التي يستخدمها حميد في المدينة الألمانية سولينجن، أما السكين التي يستخدمها صمد والتي يفتخر بها كثيراً فقد صُنعت في مصنع شهير للفولاذ في مدينة سنغان في إيران، كان قد اشتراها من سائح إيراني زار دمشق.

حصل سلمان على سكين حادة من إسكافي أرمني صموت يقع دكانه بجانب الزقاق الذي يقيم فيه، لقاء قائمة أسعار كتبها له سلمان بخط جميل حتى لا يضطر الأرمني للتكلّم بلغة عربية مكسّرة.

تعلّم سلمان فنّ تحويل قصبة أو قصبة خيزران إلى قلم بحواف حادة. بالنسبة للعديد من المبتدئين، فإن أصعب جزء في هذه العملية يكمن في عملية القطع النهائية التي تحدد طول حافة القلم وزاوية ميلانه على الورقة. في أحد الأيام، صاح صمد بذعر عندما كان مساعده سعيد ينشر ويبري رأس القصبة لتصبح قلماً: «لا تبريها كثيراً هكذا، اقطعها» ووضع صمد القصبة فوق لوح خشبي، وهوى فوقها بسكين سعيد، فقُطعت القصبة، ثم شذّب الحافة وشقّها حتى تتشرّب الحبر، ثم أمال رأس القلم بزاوية خمس وثلاثين درجة.

فغر المساعد فمه دهشة.

عندها قال له صمد، «يمكنك الآن أن تكتب بخطّ الثُلث. إذا كنت متردداً ونشرت أو بريت رأس القلم فإن قلمك لن يتحدّث بلسان صافٍ يغري الورقة، وإنما ستصبح له أسنان، ولن تتمكن حتى من كتابة رسالة إلى حماتك بقلم كهذا»، وعاد إلى طاولته.

يوم الجمعة التالي، تدرّب سلمان على القطع في غرفته في بيت كرم. فقد أدرك أنه لا يفتقر إلى الخبرة فحسب، وإنما يفتقر أيضاً إلى الشجاعة لقطع القلم بضربة واحدة.

«يجب أن تحرص على ألّا تعذّب الورقة بقلم قصب، وإنما تحركه فوق سطح الورقة مثل رقصة جنية مرهفة الأحاسيس»، نصحه صمد وأراه في أحد الأيام وظيفة كل إصبع من أصابع يده اليمنى، وقال: «يجب أن يرقد القلم بحيث تحرّكه السبابة من الأعلى إلى الأسفل، ويدفعه الإصبع الأوسط من اليمين إلى اليسار، ويأخذه الإبهام في الاتجاه المعاكس». ابتسم صمد بارتياح عندما رأى سلمان يتدرب بجدية على كل قصاصة ورق مرمية.

في وقت لاحق، قال سلمان إن نقطة التحوّل في حياته، اللحظة التي جعلت منه خطاطاً، كانت في مساء يوم في كانون الثاني ١٩٥٦ عندما كان يساعد معلّمه، فلقد بقي جميع الحرفيين والمساعدين في الورشة يعملون في تلك الليلة أيضاً لتنفيذ أعمال للسفارة السعودية التي تدفع عشرة أضعاف ما يدفعه الآخرون شريطة أن يكون العمل في غاية الإتقان. كانوا يريدون تقديم لوحة كبيرة مكتوب فيها حِكَمٌ وأمثال إلى ملكهم هدية خلال زيارته إلى دمشق.

في تلك الليلة، دُهش سلمان من الدقة التي قسّم فيها معلّمه حميد السطح الكبير واستحضر الحروف والأشكال من العدم. عندما

بزغ الفجر، انتصبت اللوحة أمامه كأنها خلق إلهي. عندما كان عائداً إلى البيت، ظلّ سلمان يهمس إلى نفسه، «أريد أن أصبح خطاطاً. وسأصبح خطاطاً».

بالإضافة إلى التدرّب على الخطّ، علّم سلمان نفسه من كتاب صغير متاح لجميع الذين يعملون في الورشة. يقول إن الحروف العربية، في تناغمها، يجب أن تستند إلى الهندسة التي وضعها الخطاط العظيم ابن مقلة منذ أكثر من ألف سنة. يتعلق الأمر بازدواجية الانحناء والخطوط المستقيمة، والانقباض والاسترخاء، والمرئي والمخفي. وسرعان ما أصبح باستطاعة سلمان أن يميز بين أنماط الخط العربي السبعة المختلفة التي وجد بعضها سهلاً، وأحبّ كثيراً خط النسخ الشعبي الذي يُستخدم في طباعة معظم الكتب، لكنه كان يخشى أن يكتب خط الثلث، وبذل جهداً كبيراً لتعلمه، حتى أن حميد كان يثني عليه في بعض الأحيان.

كان يرى اسم ابن مقلة في كلّ صفحة تقريباً من صفحات هذا الكتاب الصغير. لم يعرف زملاؤه في الورشة الكثير عن هذا العبقري العظيم، لكن سلمان كان يسمع معلّمه دائماً يترنم بمديح هذا الخطاط الجليل الذي عاش في بغداد والذي لا تزال قوانينه بالتناسب معمولاً بها حتى يومنا هذا.

قال حميد فارسي عن ابن مقلة: «إننا نتعلّم الفن، أما هو فقد لقّنه اللّه هذا الفن، لذلك تمكّن خلال فترة حياته القصيرة، أن يفعل أكثر مما استطاع أن يفعله مئات الخطاطين منذ ذلك الزمن».

في ذلك المساء دوّن سلمان ما سمعه في دفتر ملاحظاته، ووضع علامة استفهام كبيرة على اسم ابن مقلة.

خلال عام ١٩٥٦، تعلّم سلمان كل شيء تقريباً عن أسس الخط

العربي وعناصره والتوازن بين الخطوط والسطح، وإيقاع عمل فن الخطّ باتباع قواعده كما تتبع الموسيقى فنها: هيمنة جزء واحد من الكلمات أو الحروف على الكلمات الأخرى في الصفحة، وتناغمها وتناسقها، والتباين والتداخل والانعكاس، والأهم من كلّ ذلك، سرّ المسافات الفارغة بين الحروف.

لكن الأهم من كلّ ذلك، تعلّم في تلك السنة لأول مرة في حياته كيف يحبّ امرأة.

20

لم يكن فريد، خال نورا، سعيداً - بالرغم من زواجه التاسع أو العاشر - وقد ملّت نورا من ثرثرته الدائمة عن النساء. فقد كان يلتقي بأولئك النسوة الوحيدات عندما يطلبن منه أن يكتب لهن رسائل، ثم يُفتنَّ بجمال خطّه ولغته الشاعرية. لكن الإحساس بخيبة الأمل لا يحتاج إلى فترة طويلة ليدخل قلب المرأة، لأن فريد لم يتوقف عن مراودة النسوة الأخريات والتودد إليهن. «الزواج بحاجة إلى نضج، وخالك لا يزال صبياً غبياً»، قال لها أبوها ذات يوم عندما سمع أن شقيق زوجته سيطلّق زوجته. أحست نورا أن هناك شيئاً لم يأخذه بعين الاعتبار، وهو الزمن. فقد تقدّم في العمر كثيراً، وأصبح يبدو سخيفاً في بدلته البيضاء وحذائه الأحمر، وبدأت طريقته في التودد إلى النساء تبدو مثل كازانوفا كهل متقاعد سخيفة بعد أن خلا فمه من الأسنان. عندما جاء لزيارة نورا بعد ذلك، طردته وطلبت منه ألّا يأتي لزيارتها إلّا عندما يكون زوجها في البيت لأنه لا يسمح لها أن تستقبل رجالاً عندما يكون خارج البيت. كانت تعرف أن خالها فريد يكره زوجها، وأنهما على طرفيْ نقيض مثل الماء والنار.

«لكن يا نورا، أنا خالك»، دمدم فريد بصوت خافت، «أنا متأكد أن بإمكانك أن تدعيني أدخل».

فقالت له بحدّة وهي تغلق الباب في وجهه، «هذه القاعدة تنطبق على جميع الرجال». ولم يزرها مرة أخرى. وعندما مات، لم تفتقده نورا.

«في السجن وفي الزواج، يُعتبر الزمن أسوأ الأعداء»، قال لها بائع البصل العجوز وراح يدفع عربته في شوارع دمشق وينادي «بصل رخيص»، بصوت حزين. كان قد أمضى ثلاث سنوات في السجن، وتزوج للمرة الثانية وهو حزين لأنه تعيس في حياته الزوجية التي حلم بدفئها في السجن. دفعت نورا ثمن البصل لهذا البائع التعيس وابتسمت، وأغلقت الباب خلفها. كادت الدموع تطفر من عينيها لأن محاولاتها لجعل الزمن يمضي بسرعة بخطوات رشيقة باءت كلها بالفشل، كما أخفقت منذ بضعة أيام عندما تركت مكالماتها الهاتفية الطويلة مع صديقاتها طعماً بائتاً في فمها.

بدأ الزمن يستحيل بسرعة متزايدة ليصبح كتلة لزجة، دبقة، خصوصاً في الأيام الثلاثة في الأسبوع عندما ينام حميد معها: أيام الثلاثاء والجمعة والأحد كانت تتمنى أن تختبئ في مكان ما بعد العشاء.

في البداية، أُعجبت بزوجها كثيراً، لكن ذلك أصبح ضرباً من الماضي، فقد بدأت تراه الآن بعينين مفتوحتين. فهو رجل مملّ ومغرور، لكن ذلك كله ترك زاوية له في قلبها بدون كراهية - حتى الليلة التي ضربها فيها أول مرة، لم يكن قد مضى على زواجهما ستة أشهر. بعد تلك الليلة الفظيعة، امتلأت تلك الزاوية الفارغة بذكريات إهانتها ورائحة معينة انبعثت من جسده، تشبه رائحة مطاط محترق، وزالت رائحة جسده الحلوة في الماضي وأصبحت مجرد ذكرى.

عندما يعود حميد إلى البيت، يخالج نورا شعور غريب، فيغمر

غرف البيت برد جليدي، وتتجمّد من البرد وتشعر بأنها أصبحت مشلولة. تذكّرت فيلماً جعلها تشعر هكذا في السينما، عندما تجمّد قطار في الجليد في سيبيريا، وتجمّد معه جميع الركاب أيضاً، وغطّى الجليد أعينهم. لبضع لحظات، كانت تشعر بنار تحترق في داخلها كما لو أنها تريد أن تدفئ قلبها وتنقذ أطرافها من البرد الشديد، لكن سرعان ما تنطفئ النار ويتسلل إليها البرد المنبعث من زوجها.

كان حميد يعتني بنفسه كثيراً، يستحمّ كلّ يوم، ويفرك يديه بمزيج من زيت الزيتون وزيت الخزامى ليحافظ على نعومتهما ونضارتهما - بالطبع من أجل فنّ الخط، وليس من أجلها هي.

بدأ ذلك اليوم بكارثة. فقد انزلق من يدها مرطبان كبير مليء حتى حافته بالباذنجان المحشو بالجوز (المكدوس)، وسقط وتناثر إلى ألف قطعة فوق أرضية المطبخ المبلطة. وتناثر زيت الزيتون فوق أرضية المطبخ وعلى الخزائن، فاضطرت إلى أن ترمي المكدوس كله خشية أن تكون قد علقت به شظايا زجاج صغيرة، وأمضت ساعتين في تنظيف المطبخ.

حتى بعد الإرهاق الذي ألمّ بها، أعدّت لحميد وجبة طعامه التي يحبها كثيراً، حساء عدس مع معكرونة، وأرسلته له في المطبقية، وجلست تستريح لمدة نصف ساعة.

عندما دعتها جارتها وردة إلى حفلة صغيرة، فرحت نورا وخيّل إليها أن اليوم انتهى بسلام، لكنها لم تكن تعرف أن الكارثة الحقيقية لا تزال في بدايتها. فقد سبّب طبق الرز بحليب الحلو الذي تناولته في بيت وردة اضطراباً في معدتها، وتقيأت ثلاث مرات في ذلك المساء. وشعرت بوهن شديد.

لكن حميد لم يُبدِ أي تعاطف لحالتها، وقال لها: «أريد أن أنام معك الليلة» ولمس مؤخرتها وهي تقدّم له صحن السلطة.

عندما قالت له إنها تعاني من ألم شديد في معدتها، لوّح بيده رافضاً ذلك العذر، وقال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة: «يمكنك أن تمرضي طوال اليوم، لكن لا يُسمح لك أن تمرضي في ليالي الثلاثاء أو الجمعة أو السبت، فهي من حقّي. ألم يقل لك أبوك المتعلّم أن اللّه منحني هذا الحق؟»

أرادت أن تقول له إن أباها لم يرغم أمها على النوم معه، لكن لسانها لم يطعها، واغرورقت الدموع في عينيها.

تملكها خوف شديد منه، فاستلقت على السرير مثل خشبة، لكنه استشاط غضباً، وقال: «هل سأنام مع جثة هامدة؟» فغضبت منه كما لم تغضب من قبل، وعندما حاولت أن تُبعده عنها، جُنّ جنونه وضربها بشدة. تملكها خوف شديد حتى أنها لم تستطع أن تذرف دمعة واحدة.

في وضعها البائس هذا، تذكّرت نورا نصيحة أمّها بأن عليها أن تردد دائماً الأشياء التي يحبّ أن يسمعها الرجل، وأن تتلوى وتتأوه له وتطلب منه المزيد. يبدو أن هذا هو الشيء الذي يحبّه. وعندما أفرغ شهوته في النهاية، غطّ في النوم وراح يشخر دون أن يقول لها كلمة واحدة.

التصق بها عرقه الذي تفوح منه رائحة مطاط محترق. غادرت السرير وانسلّت إلى المطبخ وفركت جلدها بالماء والصابون بقوة حتى كاد يتقشّر.

منذ ذلك الحين، ما إن تشمّ نورا رائحة العطر الذي يستخدمه حميد، حتى تتذكّر تلك الليلة الشنيعة.

كانت أمّ نورا تزورها دائماً في الأوقات التي لا تكون مرغوبة فيها، وتهمس لها بنصيحة لا تطلبها منها. إنها أفعى. لم تعد نورا

تشعر بكراهية عادية تجاه أمّها كما من قبل، وإنما أصبحت تكرهها وتحتقرها بشدة. وفي بعض الأحيان، كان يراودها شكّ بأن أمّها مغرمة بحميد فارسي. فكلما رأته، ترمقه بعينين عاشقتين، وتلمسه لمسات مليئة بالحنان، وتوافق على كلّ ما يقوله، حتى لو كان خالياً من أي معنى.

«زوجك تاج رأسك ويجب أن تخدميه وتغسلي قدميه ثم تشربي الماء المتبقي لأنه هدية من السماء، أما النساء المتعجرفات، فإن الأمر ينتهي بهن في الحضيض يا ابنتي». عندما قالت لها أمّها ذلك، رفعت نورا صوت المذياع إلى أعلى قدر فغادرت أمّها البيت غاضبة من دون أن تودّعها. كانت نورا تفضّل أن تبتعد عن والديها لفترة طويلة من الزمن، لكن حميد قبل دعوة والدها إلى الغداء يوم الجمعة قبل أسبوع من بدء السنة الجديدة. كان الطعام لذيذاً، ولم يتوقف حميد عن امتداح الطعام. نظرت إليه أمّها بِوَلهٍ، وقالت له: «علّم حماك أن يقول كلمات جميلة كهذه، فهو لا يقول لي كلمة واحدة مما قلته»، وعندما شكرها حميد على القهوة بعد الطعام، وضعت يدها على ساقه وهو شيء لا يسمح حتى لنورا أن تفعله، لكنه لم يعترض وابتسم لأمها. أرادت نورا في تلك اللحظة أن تصرخ بغضب.

«أيتها الخائنة»، هسهست لأمّها في المطبخ، وكرهت الابتسامة السخيفة التي ارتسمت على وجه أمّها. بدا لها أنها تعيش في عالم آخر.

عندما أصبحا في الشارع، قال لها حميد، «لدى أمك قلب طيب، وهي قلقة عليك». أحست نورا أنها تختنق.

«مرحباً نورا»، صاح إلياس الحلواني، «لماذا لم تعودي تكلمينني؟»

خجلت نورا من نفسها عندما رأت الرجل العجوز الذي خلا فمه من الأسنان الآن، لكنه لا يزال رجلاً خفيف الظل، فأجابته نورا بابتسامة، «أهلاً عم إلياس».

«لقد سرق كبير الخطاطين أجمل الحروف في حيّنا وترك ثقوباً في أبجديتنا. هل يريد أن يشتري لأميرته كيلو من الشوكولاتة المشكلة؟ أو ربما عش البلبل، أو أفضل أنواع البرازق اللذيذة بالسمن والسمسم والفستق الحلبي؟ كلّ هذه الأشياء تذيب قلب امرأة جميلة».

مثل معظم التجار الدمشقيين، قال إلياس ذلك كما لو أنه يغنّي أغنية مغوية، وهو يرقّص حاجبيه.

«لسنا بحاجة إلى أي حلويات»، أجابه حميد بجفاف شديد، وواصل طريقه. نظرت نورا نظرة مليئة بالاعتذار إلى إلياس، وراحت تمشي بخطوات سريعة وراء زوجها.

في تلك الليلة، قبل أن يبدأ بالذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة - في بداية عام ١٩٥٦ - منعها حميد من مغادرة البيت إذا لم تضع غطاء على رأسها، وهددها بالطلاق أيضاً لو أنها كلّمت بعد الآن رجلاً مسيحياً في الشارع. بدأ جسم حميد يرتجف كما لو كان سكراناً، وبدأت الكلمات تخرج من فمه بصعوبة.

«ماذا حصل بعد ذلك؟» سألتها جارتها وداد عندما قالت لها نورا إنها تشعر بالملل. «ماذا تتوقعين؟ حتى المعجزة تفقد بريقها إذا تكررت ٣٦٥ مرة في السنة. فبعد خمس سنين من الزواج لن يتعدى شعورك تجاهه بأنه أكثر من أخيك. لا يملك أزواجنا شيئاً حيال ذلك، فالزمن كفيل بأن يزيل أي بريق عن أي عريس الذي لن يبقى منه شيء سوى مزيج هش يدعى «الزوج» و «أبو أطفالي».

كانت وداد تشرب خفية لتجلب بعض المشاعر لإثارة زوجها، وعندما تسكر، تجعل منه بنيران شبقها السكير مراهقاً هائجاً في السابعة عشرة من عمره نهماً لجسدها.

قالت سامية لنورا، جارتها الشابة من المنطقة الشمالية، إنه ما إن يلمسها زوجها، وهو أستاذ مدرسة فظ، حتى يخرج عقلها من جسدها ويسافر بعيداً، وقالت إنها أصبحت تتقن هذا الفن الآن، فلم تعد تشعر إن كان زوجها لا يزال في داخلها، أم أنه غطّ في النوم.

قالت نورا في نفسها إنها ستجرّب هذه الطريقة. فعندما استلقى زوجها وراءها وراح يدفع بجسده عليها، حلّقت فوق غرفة النوم، وراحت تراقب نفسها في السرير، ثم ذهبت إلى المطبخ في مخيّلتها وشربت فنجان قهوة وتذكّرت قصة من طفولتها. وعندما رأت الشوبك الذي كانت تستخدمه في ذلك اليوم لصنع فطائر عجين محشوة على الطاولة، خطر لها فجأة أن تأخذه وتدخله في مؤخرة زوجها. خيّل إليها أنها رأت علامات الدهشة في عينيه، وانفجرت ضاحكة.

بعد سنة، لم يعد حميد يكلّمها. كان كل شيء يسير بسلاسة بالنسبة له، وبدا أنه سعيد. كانت تسمعه أحياناً وهو يتحدّث إلى أشخاص آخرين على الهاتف، فتحسدهم على قدرتهم على إثارة اهتمامه، وكلّما حاولت أن تفتح معه موضوعاً، يقتل الحديث في مهده ويقول: «من الواضح» أو «هذا الذي تقوله النساء هراء». وهكذا بدأت سبل التواصل معه تقلّ يوماً بعد يوم.

كانت داليا التي تحكي لها عن مشاكلها، تهزّ بكتفيها وتقول: «يبدو أنك تتحدثين بالنيابة عن جميع أزواج زبوناتي. في رأيي، لم ينضج نظام الزواج حتى الآن، مع أننا نمارس هذا النمط من العيش

المشترك منذ آدم وحواء»، وأخذت جرعة كبيرة من العرق، وأضافت، «يجب ألّا يتزوج الأشخاص لأكثر من سبعة شهور، بعد ذلك يجب أن يغيّروا شركاءهم. وهكذا لن تكون هناك فرصة للملل». هل كانت تمزح؟ لم تكن نورا تحبّ هذا النوع من المزاح.

بعد أن بدأت تضع غطاء الرأس، أصبح بإمكان نورا، على الأقل، برأسها المربوط الذي أصبح يشبه بيضة - كما قال لها أبوها مازحاً - أن تغادر البيت، لكن لزيارة جاراتها فقط أو لشراء الأغراض التي لا يجلبها زوجها.

لكن حالها كانت أفضل بكثير من حال نساء أخريات، كما قالت لها جارتها وداد. فقد عرفت نورا أنه ليست وداد فقط التي لا يُسمح لها مغادرة البيت دون أن يرافقها ذكر، وإنما كذلك سلطانة وبعض صديقاتها الأخريات. فقد كان باب البيت أبعد مسافة يستطعن الذهاب إليها. حتى أنه لم يُسمح لسلطانة أن تنظر من النافذة إلّا إذا نظرت خلسة كي لا يراها أحد، ولم يُسمح لوداد وسلطانة أن تتصلا بالهاتف بأحد - كان عليها أن تنتظر حتى ترفعا السماعة، لذلك كانت نورا تضطر للاتصال بهما أكثر من مرة في اليوم.

حتى عندما كانت سلطانة فتاة صغيرة، كانت تحلم بأن تذهب إلى مقهى البرازيل متنكرة في هيئة رجل، وتجلس في المقهى مع الرجال وتخلع قميصها. وكانت تنتابها أيضاً فكرة مجنونة بأن تقيّد زوجها بسلسلة ليستغرق ستة شهور لينتقل من غرفة النوم إلى الحمّام ثم إلى المرحاض وإلى المطبخ ويعود، وتسأله، «حسناً، كيف ترى هذا العالم اللذيذ الذي أجبرتني أن أعيش فيه؟»

لاحظت نورا لسان سلطانة السليط عندما تتحدّث عن أسرتها، فقد مزّقت شخصية أبيها إلى جذاذات، بالإضافة إلى شخصية

زوجها، وقالت إنه تنبعث من جسده الأبيض كالثلج المحشوّ جيداً بالدهن روائح غريبة. «رائحة كريهة تختلف في كلّ جزء منه وطية من طيات كرشه». أما نورا فلم تكن لديها الشجاعة لتصف عذابها.

كانت الساعات والأيام والشهور تتالى، تقضم كلّ مفاجأة في مهدها. أصبحت نورا تشعر أنها كالحمار الذي يعمل في معصرة الزيتون في حيّ الميدان حيث كانت تعيش عندما كانت فتاة، عيناه معصوبتان وهو يجرّ حجر الرحى، ويدور به إلى ما لا نهاية، منذ شروق الشمس حتى غروبها. «عيناه معصوبتان ليظن أنه يذهب إلى مكان آخر، لكن الحمار يفاجأ عندما تُزال العُصابة الوسخة عن عينيه ويكتشف أنه لم يبرح مكانه»، قالت لها داليا حينذاك.

«لكنّي لست حمارة»، قالت بتحدٍّ، «فلم يخلقني اللّه امرأة جميلة كي أراوح في مكاني طوال اليوم وعيناي معصوبتان». قوّست داليا حاجبيها لدهشتها، وهمست، «يا إلهي، يا إلهي»، وتتبعت نورا نظراتها القلقة عندما غادرت المنزل.

أوصتها ناريمان، صديقة نورا من أيام المدرسة، أن تذهب وترى بصّارة مشهورة، وقالت لها ناريمان إنها لا تطلب مبلغاً كبيراً، لكنها تعطيها معلومات قيّمة، ووعدتها بأن تذهب معها في أول زيارة لها لأن نورا تخشى أن تسير في شوارع لا تعرفها في ذلك الشطر من المدينة.

«إنها البصّارة الوحيدة في دمشق»، همست لها ناريمان وهما ذاهبتان إلى حيّ المهاجرين. استقلتا حافلتين مختلفتين، ثم سارتا على أقدامهما. قالت لها ناريمان إن البصّارة عرفت على الفور بواسطة السحر الأسود أن زوج ناريمان على علاقة بامرأة أخرى، وأعطتها الترياق اللازم، وعلّمتها التعاويذ السحرية المناسبة، وعندما

عاد زوجها الذي كان يهملها كما لو أنها قطعة خشب، من عمله إلى البيت، لم يفكّر في شيء سوى أن يبدي لها محبته الشديدة، وبعد صمت طويل، أضافت ناريمان بصوت أعلى قليلاً، «وسرعان ما اكتشفت أن امرأة أخرى كانت تمصّ دمه حتى يجفّ وتبعده عني. فقد أصبحت إحدى بنات عمه أرملة وهي لا تزال في مقتبل عمرها، وأراد أن يتركني ويتزوجها. وصفت لي البصّارة شكلها وقالت إن الجني تلبّس روح زوجي وربط عقدة في قضيبه وسيمسك المرأة من أذنها ويحضرها إليّ. وبالفعل، جاءت المرأة ووقفت أمام باب بيتي وقد احمرّت أذنها وسألتني بكل جرأة ووقاحة عن ابن عمها، وقالت إنه لم يرها منذ زمن. لكنّي لم أدعها تدخل إلى بيتي، وتركتها تنتظره في الشارع»، قالت بضحكة قصيرة.

«وهل انتظرته؟»

«نعم، حتى عاد من عمله. وقفت في طريقه وأرادت أن تعرف لماذا ابتعد عنها، لكنه دفعها جانباً وقال لها أن تذهب إلى الشيطان، فقد أصبح الآن في حال أفضل ويريد أن يرى زوجته. فراحت تصرخ في الشارع حتى ملّت وذهبت».

امتناناً لعودته إليها، أهدت ناريمان البصارة خروفاً صغيراً كانت قد وعدتها أن تقدّمه لها.

«هل تظنين أنها تستطيع أن تجعل زوجي ينام معي أقلّ ويكلّمني أكثر؟» سألتها نورا، وقالت لنفسها كم تبدو سخيفة، فرمقتها ناريمان بدهشة.

«ماذا؟ هل تريدين أقل منه؟ هل أنت مريضة؟»

لم تردّ نورا. كانتا قد وصلتا إلى بيت البصّارة. اعترى نورا خوف شديد عندما دخلتا إلى الغرفة المكسوة بالسواد التي تعبق برائحة روث دجاج ودهون زنخة. كانت البصّارة ضئيلة الحجم

وبشعة، ترتدي ثوباً أسود مليئاً بالبقع، تضع حول رقبتها مجوهرات فضية كثيرة، تُحدث رنيناً كلما تحركت.

بعد أن غادرت ناريمان، فتحت البصّارة بطاقات التبصير، ولم ترفع عينيها الصغيرتين الحادتين عن نورا. «يوجد في قلبك سبعة أختام. زوجك يحبّك، لكنه لم يجد المفتاح الصحيح. يجب أن تساعديه. يجب أن يأخذ سبعة مساحيق في سبعة أيام متتالية، يجب أن تحرقي واحدة من سبع تعويذات على الورق مع كل مسحوق، وها هي سبع قطع من الرصاص التي يجب أن تضعيها تحت وسادته».

هذه المرة، أرادت أن تأخذ ثلاث ليرات. إنه مبلغ كبير، لكنه ليس كبيراً إن كانت ستجد فائدة.

بعد بضعة أيام، أصاب زوجها إسهال حاد، واشتكى من مذاق الطعام الغريب الذي قدمته له. كان ذلك كلّ ما قاله لها.

عادت نورا إلى البصّارة. ذهبت وحدها هذه المرة، وحدّثتها عن حلم غريب رأته في منامها. ففي اليوم الرابع أو الخامس من «معالجة» زوجها بالمسحوق والتعاويذ، حلمت ببائع الخضراوات، عمر، الرجل القوي ذي الصلعة التي تلمع على الدوام، والذي يقع محله في الشارع المستقيم. لم يكن رجلاً وسيماً، لكن سحره لا يقاوم. في حلمها رأته يلمّع حبة باذنجان. عندما ابتسم لها، رأته عارياً. ألقى بها فوق كيس خيش، وغطى جسدها ببتلات ورد، وكسر بطيخة حمراء بسكين كبيرة، وأخرج منها قطعة كبيرة ووضعها بين فمه وفمها. عندما تناولتها أحست بأنه يلجها. ظلت تتناولها حتى سقطت آخر قطعة منها على بطنها العارية، فانحنى عمر فوقها والتهمها، وولجها بقوة حتى أغمي عليها من المتعة.

استيقظت وهي في غاية السعادة.

عندما روت للبصّارة ما رأته في الحلم، قالت لها: «لقد أراكِ سحري الرجل المناسب، الشخص الذي يمتلك مفتاح أقفالك».

شعرت نورا بسخافة ما تفعله، وقررت أن تتوقف عن زيارة البصّارة. بينما كانت تغادر بيت البصّارة، صادفت امرأة ترافق صديقة لها، لكنها لم تشأ أن تدخل معها.

«إنها محتالة»، قالت لها المرأة الغريبة، «تعيش على مصائب الآخرين كما يعيش القمل في رأس المساكين». أُعجبت نورا بما سمعته، وأرادت أن تسمع منها المزيد لترتاح، فدعت المرأة لأن تتناول معها صحن بوظة. في طريقهما، حكت صفية - وهو اسم المرأة - لنورا عن حياتها السعيدة مع زوجها الذي يزداد حبّها له يوماً بعد يوم والذي تكتشف فيه كل يوم صفات جديدة. تعمل صفية معلّمة، ويعمل زوجها حداداً في ورشة كبيرة. تعرّف أحدهما على الآخر لفترة قصيرة قبل زواجهما، وقد أحبّها منذ أول يوم رآها فيه، وازداد حبّه لها في السنوات العشر التي أعقبت زواجهما.

تحدّثت صفية كثيراً في صباح ذلك اليوم، واستمعت لها نورا باهتمام. فقد كان سماع أن هناك أزواجاً سعداء في دمشق أمر مثير أكثر من أي قصة خيالية. تبادلتا عناوينهما، ووعدت كلّ واحدة منهما بزيارة الأخرى.

قبل أن تودعها، قالت لها صفية، «إذا سألتني، فإني أقول لك إن جزءاً من مشكلتك يكمن في أنك لا تستخدمين كل قدراتك. فأنت امرأة ذكية، ويجب أن تفعلي شيئاً مفيداً يرضيك، لا أن تنتظري طوال اليوم حتى يعود زوجك إلى البيت».

عندما ألمحت لحميد بحذر بأنها ترغب في أن تعمل خيّاطة، لأنه لا يوجد في شارعهم خيّاطة، استشاط غضباً وصرخ في وجهها، وأراد أن يعرف من الذي غرس هذه الفكرة في رأسها.

لم تجبه.

بعد بضعة أسابيع، زارت نورا صفية عدة مرات، واكتشفت أن

المرأة لم تبالغ فيما قالته. ففي إحدى زياراتها لها، كان زوج صفية في البيت لأن يده أصيبت أثناء العمل في اليوم السابق. كان رجلاً لطيفاً وترك المرأتين وحدهما، وأعدّ لهما القهوة، وضحك عندما سألته زوجته بعد أن رشفت أول رشفة من القهوة إن كانت دمشق تعاني من شح في البن هذه الأيام. كانت هذه أول مرة ترى فيها نورا رجلاً يعدّ القهوة لزوجته. لقد جرحت سعادة الآخرين مشاعر نورا، فقررت ألّا تزور صفية مرة أخرى. السعادة أمر في غاية البساطة. لماذا يرفض حميد أن يفعل شيئاً لإرضائها؟ فهو يرفض حتى أن يجلب الملح إذا لم يكن موجوداً على المائدة. «ملح»، قال لها، وعندما تعمّدت نورا ألّا تردّ عليه، راجية أن ينهض بنفسه ويجلب الملح، أمسك بذراعها بقوة، وصاح فيها: «ألا تسمعين؟ قلت لك ملح».

عرفت نورا أنها تقف عند نهاية زقاق مسدود. تملكها شعور باليأس، لكنها رأت أن معرفة ذلك تقدّم جيد بالنسبة لها.

بينما كانت نورا وهي في قمة يأسها تبحث عن طريق صغير، وسيلة عجائبية أو أي منفذ يخرجها من هذا الزقاق المسدود، ظهر سلمان، ذلك الشاب الفقير الذي له وجه طفل بدون لحية وأذنان كبيرتان. في البداية، ظنّت أنه في الخامسة عشرة من عمره، لكنها فوجئت عندما قال لها، وقد احمرَّ وجهه خجلاً، إنه في العشرين. بذلت جهداً كبيراً لتكتم ضحكتها عندما رأته.

إذاً لماذا أُغرمت به من بين جميع الرجال؟ قالت لنفسها مواسية إن للحبّ، كالموت، إرادة خاصة به توجهه. يأتي فجأة على نحو لا يمكن تفسيره. يبحث أحياناً عن أشخاص لا يخطرون ببال المرء، كالموت الذي قد يبعث أشخاصاً أصحاء إلى العالم الآخر، بينما يتوسل آخرون وهم في حالة مرض شديد كلّ يوم أن يأتيهم بسرعة.

في ذلك اليوم، أحسّت نورا بحاجة قوية إلى أن تكتب كل ما يجول في خاطرها، أصبحت أفكارها مثل أمواج متلاطمة على الشاطئ، كل ما لا تستطيع أن تقوله لأي شخص حيّ. «الحب طفل هائج، لا أمل منه، يتسلل إلى قلبك مباشرة من دون أن يطرق الباب».

أحد الجوانب المثيرة للاهتمام في حبّها لسلمان هو أنه لم يكن حبّاً من أول نظرة كما يقول المثل القديم في دمشق. ففي بداية تشرين الأول، عندما وقف عند مدخل بيتها لأول مرة، لم تقل له حتى «طاب يومك»، وإنما أخذت منه سلة التسوق الثقيلة التي اشتراها حميد وأعطته المطبقية. تكرر هذا المشهد كلّ يوم لأكثر من مئتي مرة في الشهور السبعة بين تشرين الأول ١٩٥٥ ونيسان ١٩٥٦. وفي بعض الأحيان، كانت تبادله كلمة بدافع اللباقة، أو لأنها كانت تشفق عليه، لكنها لم تفعل ذلك في أحيان كثيرة. في بعض الأحيان كانت تقدم له تفاحة، وفي أحيان أخرى، لم تكن تقدّم له شيئاً. كان خجولاً، قليل الكلام. وما إن تغلق الباب، حتى تنساه ويخرج من تفكيرها على الفور.

في أحد الأيام، أغلقت الباب وراءها، لكنها لم تستطع أن تنساه، وتمنت لو أنها لم تعامله ببرود وغطرسة.

كان يوماً دافئاً في منتصف شهر نيسان. ظلت نورا تفكّر في سلمان طوال الليل. بعد سنوات، قالت إن أفكارها عنه أصبحت إزميلاً يحفر قطعة تلو الأخرى من الجدار في نهاية الزقاق المسدود المعتم، وعند الفجر، قبل أن تغفو أخيراً ، رأت في خيالها كيف تداعى الجدار وتمتعت بالمشهد الطبيعي الرائع، الذي غمره النور.

في صباح اليوم التالي سألت نورا نفسها مرات عديدة: هل أحبّه فعلاً؟ نظرت إلى الساعة ثلاث مرات، وعندما سمعت مطرقة الباب تقرع، غمرتها الفرحة. تمالكت نفسها. لكن ما إن وقعت عيناها عليه

حتى عرفت أن مصيرها قد تقرر. لم يقل لها شيئاً، وإنما نظر إليها نظرة قلقة وانتظر أوامرها. عندما نظرت إلى عينَي سلمان، شعرت أنها تقف أمام البحر، وأحست بأمواج تتدفق في داخلها.

أمسكت يده، وأدخلته إلى البيت وأغلقت الباب. «هل تريد»، سألته وهي تلهث، «هل تريد أن تشرب قهوة؟ أم تتناول قطعة حلوى أم شوكولاتة؟» بدأ قلبها الذي امتلأ نشوة يرقص في صدرها.

لم يقل شيئاً، وكان كل ما فعله هو أنه ابتسم لها. كان يريد أن يقول لها: أنا جائع، هل لديك قطعة خبز وبيضتان مسلوقتان، أو قطعة جبن؟ لكنه لم يقل شيئاً.

«أم تفضّل أن تأكل شيئاً؟» سألته في تلك اللحظة، كما لو أنها رأت الجوع الذي يشعر به في عينيه.

هزّ رأسه وخجل لأنها خمّنت أنه جائع. تنفّست الصعداء. ذهبت إلى المطبخ وملأت صحناً كبيراً بأشياء لذيذة: جبنة وبسطرما وزيتون ومخلل وخيار.

كان لا يزال واقفاً بارتباك في الدهليز، مسنداً ظهره إلى الحائط أمام المطبخ. قدمت له الصحن ورغيفين صغيرين من الخبز.

جلس سلمان على الأرض ووضع الصحن أمامه بحذر. راحت تراقبه وقد غمرتها سعادة لم تشعر بها من قبل، وهي تبتسم.

في ذلك اليوم، اكتشفت لأول مرة في حياتها أن باستطاعة يدها أن تتحرك من تلقاء نفسها. حتى عندما كانت تراقب سلمان من باب المطبخ، كانت يدها اليمنى تتجه نحوه، وكان عليها أن تتبعها. عندما وضعت يدها على جبين سلمان كما لو أنها تستشعر درجة حرارته، توقف عن الأكل، وأخذ يبكي.

«فجأة»، قال وصمت كأنه يريد أن يحبس دموعه، «عرفت كيف كان كلبي يشعر عندما جاء إليَّ وأكل كلّ ما قدمته له»، وحكى لها

كيف أنه رأى الجرو الصغير الطليق في تلك الليلة، وكبر وأطلق عليه اسم «طيّار».

قبّلته من شفتيه. كانتا مالحتين. بادلها القبلة وتنشّق رائحة زهر الليمون من خديها.

عندما أمسك بوجهها بين يديه وقبّل عينيها، شعرت بنار تضطرم في داخلها، فضمّته إليها بقوة. لكنها تذكّرت فجأة أنه يجب أن يذهب بسرعة. قبّلته قبلة أخيرة، ونهضت واقفة.

«لقد فُتحت الأقفال السبعة الآن وسقطت أمام قدميَّ»، قالت له، لكنه لم يفهم ما تقصده. أخذ المطبقية وخرج يجري.

عندها رأت أنه لم يكد يأكل شيئاً من الصحن الذي قدّمته له.

شعرت نورا بالإرهاق كما لو أنها عبرت جبالاً وودياناً. فوجئت لأنها شعرت بهذه المتعة فقط من لمسات سلمان وقبلاته.

في عصر ذلك اليوم، شعرت بالذنب. تساءلت هل هي امرأة جاحدة تعيش في بيت مريح وتخون الرجل الذي يعيلها؟ قررت أن تأخذ الأمور بهدوء مع سلمان عندما يأتي في اليوم التالي، وأن تعطيه المطبقية وتغلق الباب كما تفعل دائماً. وتشكره على تلك اللحظات القليلة التي كانت أشبه بحلم - كما يفعل العشاق في الأفلام المصرية -، ثم تلقي عليه محاضرة عن الإخلاص والواجب. بينما كانت تعدّ هذه المحاضرة، نظرت إلى الساعة. لقد تجاوزت الحادية عشرة بقليل، وشعرت برغبة قوية لرؤية سلمان كأنها تغرق وتلهث طلباً للهواء. وحتى قبل أن يطرق الباب مرة ثانية، جذبته إلى داخل البيت وإلى قلبها.

منذ ذلك اليوم، بدأ الزمن يجري بسرعة كما لو كان مكوّناً من أثير نقي.

21

نادراً ما كان المعلّم حميد يغضب بسرعة. وكما قال صمد مقارنة بحميد يظهر بوذا رجلاً متقلب المزاج وعصبياً، لكن معلمه يستشيط غضباً كلما جاءت أخته لتزوره في المحترف، وهي امرأة طويلة القامة، جميلة، لم يحبّها قط لأنه يعتبرها امرأة سوقية ترتدي ثياباً غير محتشمة وتشعره بالخجل والحرج. عندما تأتي إلى المحترف، ينتابه القلق ويظل ينظر إلى الباب كأنه يخشى أن يأتي أحد زبائنه المميّزين ويسأله من هذه المرأة التي ترتدي ثياباً جريئة.

وكان مساعدوه يشعرون بتوتر آخر، فعلى الرغم من أنها شقيقة ربّ عملهم، فقد كانوا يحدّقون في مؤخرتها بشبق من دون رادع.

كان حميد يعطي شقيقته سهام المبلغ الذي تطلبه لتغادر المحترف بسرعة، ثم يلعن صهره عديم الفائدة، المصوّر الذي يبدو أنه رجل سيء.

ومن حين لآخر، كانت حماته التي تحرص على أن تبدو امرأة شابة تأتي أيضاً، فيتعكّر مزاجه طوال اليوم. كان يشعر أيضاً بحرج شديد. وكان يغادر المحترف معها بعد فترة من وصولها، ويزعم صمد أنهما ذهبا إلى فندق قريب، لكن هذا غير صحيح. فقد كان حميد يدعو حماته إلى مقهى عائلي غير بعيد عن المحترف، ثم يعود بعد نصف ساعة مبتهجاً.

وعندما ازدادت زيارات حماته إلى المحترف، بدأ حميد يزداد توتراً، وكان مساعدوه يشعرون بذلك. كان صمد يردد وهو يهزّ رأسه: «هذه المرأة ستدمّر حياته».

ثم توقفت فجأة عن المجيء.

في الربيع، بدأ حميد يحضر اجتماعات عديدة في وزارة الثقافة. وكلما غاب عن الورشة، تراخى مساعدوه في العمل قليلاً، لأنهم لم يتوقفوا عن العمل منذ بضعة أشهر، وكان حميد صارماً معهم.

ذات يوم مشمس، في بداية شهر أيار، ذهب حميد لحضور اجتماع في الوزارة، وبما أنه لم تكن لديهم أعمال كثيرة في تلك الفترة، أعطاهم صمد استراحة لمدة ساعة، فذهب سلمان إلى مقهى كرم الذي قال له مداعباً عندما رآه، «حسناً، يا خطاطي الرائع، هل يريد معلّمك أن يأكل شيئاً؟»

فأجابه سلمان، «لا، لا، لقد ذهب إلى الوزارة، وأعطانا صمد فترة استراحة لمدة ساعة لأننا أنهينا العمل وسيأتي الزبون ليستلمه بعد الظهر»، ثم صمت قليلاً، وتساءل هل يجب أن يحكي لصديقه كرم الذي يعتبره بمثابة أب عن حبّه لنورا الذي مضى عليه ثلاثة أسابيع الآن. فقد كان يثق بكرم كثيراً، ويشعر بأن عليه أن يخبره بكل شيء، وسأله، «هل لديك بعض الوقت من أجلي؟»

«من أجلك، لدي كلّ الوقت لك. ماذا في الأمر؟»

«هناك امرأة، لكن لا تسألني عن اسمها»، قال سلمان متردداً.

«وأين المشكلة؟»

«ربما يخيّل إليّ أنها تحبّني. ربما تريد أن تتخلّص من الملل. إنها امرأة مسلمة».

«حسناً، ليس من الصعب معرفة المشكلة الأولى، أما المشكلة

الثانية فهي مسألة حساسة، ويجب أن نعالجها بدراية وببطء، لكن هناك وسيلة لذلك دائماً».

ابتسم سلمان بمرارة، وأضاف بسرعة، «المرأة متزوجة - من رجل له نفوذ».

«يا إلهي. تحكي لي أولاً قصة لطيفة، مشوقة، ثم تأتي كلّ جملة بضربة مطرقة. هل تحب المرأة؟ هذا هو المهم. فكل شيء آخر سيأتي تباعاً إن كنت تحبّها وهي تحبّك. متزوج، مسلم، مسيحي، يهودي، رجل، امرأة، لا شيء من كلّ ذلك مهم ما عدا للعقول المتحجرة». انحنى على الطاولة، وتابع قائلاً: «كما تعرف، فأنا أحبّ بدري، مهما فعل أو لم يفعل، مهما قال أو لم يقل، وهو يحبّني، لا كما أريد، وإنما بقدر ما يستطيع. هذا هو حظي السيء، لكنّي أحبه. حتى لو كلفني ذلك حياتي، فلن أبتعد عنه سنتيمتراً واحداً. إن الحبّ لا يحكم على الإيجابيات مقابل السلبيات، والشي الآمن مقابل الشي غير الآمن، والشيء غير الضار مقابل الشيء الخطير، وإلّا فهذا ليس حباً، وإنما تاجر يكشف حسابات تجارية. فماذا يقول قلبك؟»

«أحبّها كثيراً، لكن لا أعرف أن كانت تحبّني فعلاً. لا بد أنها معجبة بي، لكني لا أظن أنها ستظل معجبة بي عندما تعرف أنني أعيش في حوش الرحمة».

«في هذه الحالة، يجب أن تتركها في الحال، لأنها عندئذ لا تستحق حبك. مع أنني أظن أن المرأة لا تهتم من أين أنت. ما الذي يهم من أنت، وقد حالفها الحظ بأن تكون معك. لكن نصيحتي لك، لا تفكر في الأمر كثيراً، تصرّف - وسرعان ما ستكتشف إن كانت تحبّك أم أنها تريد أن تتسلّى فقط. ألم يقل المسيح: اقرع ويفتح لك الباب؟ أم كان هذا بوذا؟»

لم يعرف سلمان من قال ذلك. انتهت فترة الساعة، وكان عليه أن يعود بسرعة إلى المحترف. عندما همّ سلمان بالذهاب، أمسكه كرم من ذراعه، وقال: «عندي شيء لك»، وأشار إلى دراجة هوائية مركونة بجانب الرصيف، وأضاف، «إنها دراجة متينة، إطاراتها أعرض من الإطارات العادية، ولها سلة صغيرة مثبتة بإحكام فوق العجلة الأمامية كالتي يستخدمها الكثير من البقالين والخبازين لتوصيل الطلبات إلى زبائنهم، مصنوعة في هولندا. أعطاني إياها أحد الزبائن الذي لم يسدّد ما عليه من دين منذ سنة، وأكّد لي أنه يكتب كتباً جميلة وأنه عن قريب سيصبح غنياً، لكنه يكتب قصائد مملة لو قرأتها على عدّائينا العرجان لمدة ساعة وفتحت لهم باباً للهروب لحطموا الأرقام القياسية الأولمبية. قيمة هذه الدراجة لا تغطي أكثر من ربع المبلغ الذي يدين به لي. وعليه أن يسدّد نصف المبلغ قبل أن أدعه يطلب كأساً أخرى من الشاي».

أعجبت هذه الهدية سلمان كثيراً، فعانق صديقه.

همس في أذن سلمان، «قلت في نفسي إن بإمكانك أن توفر نصف ساعة على الأقل عند الظهيرة إذا استخدمت الدراجة، ويمكنك أن تستمتع بوقتك معها أكثر»، وأضاف، «يجب ألّا تخبر أحداً في المحترف عن الدراجة. اتركها عند صديقي ياسين، صانع الأواني الفخارية. تعرف أين دكانه. يمكنك أن تقودها إلى أي مكان، ثم تعيدها إلى دكانه وتعود إلى المحترف سيراً على قدمَيك. وإذا رآك أحد مساعدي حميد، قل له إن الدراجة لكرم وإنه سمح لك أن تستخدمها عندما تريد».

لم تغب نورا عن تفكير سلمان طوال الوقت. عند الحادية عشرة ظهراً، لم يعد يحتمل. أخذ كيس البن المحمّص الذي اشتراه حميد

لزوجته من محمصة بن قريبة. لكن صمد قال له معترضاً، «لكن الساعة ليست الحادية عشرة».

فانبرى راضي يدافع عنه، وقال: «دعه يذهب ليوصل الأغراض بدون عجلة مرهقة»، فوافق صمد على مضض. سار سلمان الخطوات الخمس الأولى ببطء، ثم بدأ يجري إلى محل صانع الفخار، وركب دراجته وانطلق بها.

استغرق الطريق بالدراجة عشر دقائق فقط.

«لقد سلبتني أكثر من عشرين دقيقة من الشوق وأنا أنتظرك»، قالت له نورا واقتربت منه في الدهليز المعتم وراء باب البيت الخارجي. قبّلها قبلة أطول مما قبّل أحداً من قبل. بعد لحظات، بدأت ساقاها تخونانها ولم تعد قادرة على الوقوف على قدميها، فقادته إلى غرفة المخزن أمام المطبخ التي توضع فيها أغراض عتيقة وتوجد فيها أريكة قديمة عريضة. كانت نورا قد نظفت غرفة المخزن وتخلصت من الأواني والمقالي والمصابيح والأدوات المنزلية بالإضافة إلى صناديق كرتون لم يعد لها لزوم.

بدا سلمان لها كائناً جاء من عالم آخر. ومنذ تلك القبلة الأولى في منتصف نيسان، لم يحاول أن ينام معها. كانت تحترق شوقاً إليه، وكان يداعبها برقّة كما لو كانت بشرتها بتلة وردة رقيقة يخشى أن يهرسها بأصابعه، مما زاد هيامها به.

في ذلك اليوم، لم يعد بإمكانها أن تتحمل أكثر من ذلك، ونسيت قلقه عليها وعلى هشاشتها ورقّتها، فأنزلت بنطاله ومارست الحبّ معه بلا تردد. ولأول مرة في حياتها، أحسّت بما كانت تقوله لها صديقاتها عن بلوغهن النشوة.

أحسّت بعروقها تلتهب، مثل بخار ساخن يتصاعد في جسدها، وبدأ قلبها يخفق بسرعة، ورأت أجمل وجه في العالم بين يديها،

وجه رجل تنبعث من فمه أصوات صغيرة من البهجة مثل دلفين، وخشية عليه، التصقت به كثيراً. «طعمك طعم فستق محمّص»، قال لها وهو يلعق ثدييها.

عندما استلقى على الأريكة بجانبها، لاحظت أنه ليس مختوناً، فسألته، «هل نسيك المطهّر؟»

فقال: «لا، نحن لا نُختن».

«لمَ لا؟ فالختان دليل على أن الصبي أصبح بالغاً، أليس الختان دليلاً على ذلك عندكم، أنتم المسيحيون؟»

فأجابها، «ربما أراد المسيح أن يظل أتباعه أطفالاً إلى الأبد».

22

لم يعتقد نصري قباني في حياته أن العشق يمكن أن ينتهي فجأة. فقد أحبّ ألماز ذات الخمسة عشر ربيعاً طوال سنة، وحتى عندما يكون مع نساء أخريات، فإنه يغمض عينيه وتتجسد أمامه ألماز ذات الجسد الرائع الناعم الأملس إلى درجة أن أصابعه لا تكاد تستطيع الإمساك به، وتفوح منها رائحة تعبق بالأنوثة، فضلاً عن أنها تجيد فن الغزل. كان باستطاعتها أن تفتن الرجال وهي تتأرجح في كلامها بين التلميح إلى احتمالات قبولها وإمكانيات رفضها بأسلوب لا يجيده أحد غيرها، وهو شيء لم يره نصري في أي امرأة أخرى، تتمنّع بطريقة لا تجعل الرجل يشعر بالإساءة، ولا تشعره بأنها ترفضه تماماً، وإنما تلمح بذلك وكأنها تقول له، «لم تبذل جهداً كافياً في المحاولة معي».

كانت ابنة مستأجر في إحدى شققه. ومع أنها لا تزال طفلة، فقد تفوقت بأنوثتها وأساليب إغرائها على زوجاته الثلاث. كانت تتمتع بروح دعابة، وجوابها على رأس لسانها. وقد أحدث لسانها السليط - الذي أثار إعجاب نصري كثيراً - جروحاً عميقة في أعدائها. كانت أطول قامة منه بثلاثة أصابع، لها وجه جميل أقرب إلى جمال فتاة سويدية منه إلى جمال فتاة عربية.

عرفها منذ كانت طفلة تلعب بالدمى. حتى في ذلك الوقت، فقد

زيّن وجهها ذلك التعبير الحسّي الشهواني الذي يعبّر عن الإطراء والإثارة في وقت واحد. وأما والداها فكانا يتصرفان دائماً كما لو أنهما لا يلاحظان شيئاً.

كان عمر والدها يقارب عمر نصري، وكان يبدو أنها كانت تنتظره عندما يأتي لزيارة أبيها، وأفهمته بتصرفاتها أنها متعلّقة به. كان يقدّم لها هدايا بسخاء، ولم ينس قط أن يجلب لها الحلوى التي تحبّها، *أصابع الفستق الحلبي*، والتي يسمّيها السوريون «*مبرومة بالفستق الحلبي*». وفي أحد الأيام في شهر كانون الثاني البارد عام ١٩٥٥، عندما جاء ليناقش أمراً مع أبيها، كانت ألماز وحدها في البيت. فقد سافر والداها إلى مدينة حلب لبضعة أيام لحضور عزاء أحد أقاربهما، وجاءت عمّتها في المساء لتمضي الليلة مع الفتاة. عندما التهمت ألماز أصابع الفستق، ولعقت شفتيها، راحت تنظر إليه بعينين مسبلتين، ففقد أعصابه وعقله.

حبّلها.

وقف أشقاؤه ومدير أعماله توفيق رغم إحباطهم إلى جانبه، وعرض نصري أن يدفع مبلغاً من المال لتسوية الأمر، لكن والد ألماز الحادّ المزاج، هدد نصري وقال له إما أن يتزوج الفتاة، وإما أن يُفرغ طلقات بندقيته ذات السبطانتين مرتين، مرة في فَمِ نصري، ومرة في فمه هو، وقال إنه مستعد لأن يموت على أن يحمل هذا العار، وقال إنه لن يؤثّر عليه بالإقناع أو الابتزاز. وأكد له أن أمواله كلها لن تنقذه من الموت. فالموت لا يعرف الرشوة.

كان توفيق، مدير أعمال نصري، أول من أذعن للأمر، وقال من الأفضل أن يتزوج نصري ألماز ويرفد عشيرة القباني بأبنائها على أن يسبب فضيحة لا تحمد عقباها. وقال له إن أسوأ زوجة أفضل من

أفضل قحبة، لأنك لا تهدر مالك مع القحبة فقط، وإنما تهدر بذرتك أيضاً.

فقال نصري غاضباً، «حسناً، بما أنني أفضل حالاً من إخوتي، فإني سأزيد عشيرة قباني أربعة أضعاف»، وصاح، «أنا الثور الشامي الحقيقي الذي يحبّل عشر بقرات»، قالها بعد أن تذكّر ما رآه في معرض دمشق الدولي في خريف العام الماضي في قسم الصناعة والزراعة الهولندي عندما رأى صورة ثور ضخم ولَّد بحيواناته المنوية أكثر من ثلاثة آلاف عجل، كما قال الهولنديون.

أذعن نصري وتزوج ألماز في شهر آذار، وشعر أن قوة حبّها قد جدّدت شبابه، بينما لم يفارقه الشعور في رفقة زوجاته الثلاث الأخريات أنه يتقدّم في العمر كثيراً من كثرة أحزانهن وشكاويهن.

بعد حفلة العرس، سافر نصري وألماز بالطائرة إلى القاهرة، أحس أنها اقتحمت قلبه فعشقها كما لم يعشق امرأة. بعد أن تتزين وتضع مكياجاً وترتدي ثياباً جميلة كانت هذه الفتاة التي عاشت طوال حياتها في ضواحي مدينة دمشق القروية تتصرف كما لو كانت امرأة ذات خبرة ودراية في الحياة، وتتحدّر من عائلة فرنسية أرستقراطية. فقد كانت تصدر أوامر للعاملين في الفندق وفي المركب أثناء رحلاتهما في نهر النيل الذين كانوا يهرعون لتنفيذ أوامرها وتلبية طلباتها. كان الجميع يتنافسون على خدمة ألماز، وكان نصري يقف مبهوراً أمامها. وفي السرير، بعد أن يبلغ النشوة بفترة قصيرة، ويستلقي بجانبها منهكاً وثملاً من المتعة، تبدأ تفتعل مشكلة لم يفهم سببها لفترة طويلة، لكنه أدرك بعد ذلك أن سلوكها ذاك ناجم عن غيرة مرضية ورغبة واضحة في السيطرة. فقد حثته بعد كل مضاجعة أن ينتقد زوجاته الثلاث، وتطلب منه باستمرار أن يعدها بأنها حبّه

الأول، وحبيبة قلبه، وتطلب منه ألّا يذهب لزيارة زوجاته الأخريات إلّا بإذن منها وموافقتها.

بالطبع لم يعدها بأن يفعل ذلك، لكنه كان مستعداً دائماً ليقدّم لها تنازلات. فامتثل لرغبتها ومدّد فترة شهر العسل من أسبوعين إلى شهر، لكنه لم يحتمل طبيعتها المهيمنة، وراح يردد باستمرار على أسماعها أن الزوج في عائلة قباني هو الآمر الناهي، وعليها أن تكون سعيدة لأنها زوجته الأثيرة، وأنه لا يمكنها أن تطلب منه أكثر من ذلك.

اتصل بمدير أعماله توفيق وقال له إنه أصيب بحمّى وسيذهب إلى مصح على البحر الأحمر، وطلب منه أن يوفّر كل متطلبات زوجاته.

لكن تمديد مدة شهر العسل لم يحلّ المشكلة وظلت غيرة ألماز تنهش أعصابه، فقد كانت تثير مشكلة كبيرة إذا قال لامرأة أخرى كلمة لطيفة، سواء أكانت نادلة في مطعم أو بائعة في الشارع، سيطر عليها تصورها المرضي وهو أنه لا يوجد لدى النساء الأخريات سوى هدف واحد في الحياة، وهو تدمير سعادتها مع نصري.

عندما عادا إلى دمشق، انتقلا إلى منزل مؤثث بفخامة في شارع بغداد الراقي. لكن منذ الليلة الأولى، بدأت ألماز تتذمر من أن الطقس بارد جداً في البيت وأن جميع قطع الأثاث على الطراز الأوروبي البارد، وقالت إنها تريد منزلاً عربياً فيه بركة ماء وحديقة مليئة بأشجار البرتقال والليمون وأزهار الياسمين وعريشة عنب وأحواض أزهار، وقالت إنها لا تستطيع أن تعيش في هذه البناية الكريهة.

أثناء فترة حملها، ازداد وزن ألماز كثيراً، ربما لأنها كانت تتناول كميات كبيرة من الكعك والحلويات الأخرى، بالإضافة إلى

فطائر المعجنات المحشوة التي ترسلها لها أمّها كلّ أسبوع، كما لو أن ابنتها ستموت من الجوع.

من مرافقته لزوجاته، عرف نصري كيف أن الحمل يمكن أن يغيّر المرأة. كانت زوجته الأولى لمياء الوحيدة التي لم تتأثر بحملها حتى الأسابيع القليلة الأخيرة. أما زوجته الثانية، سعيدة، فقد ازداد وزنها قليلاً، وازدادت كراهيتها له إلى أن وضعت وليدها، ولم تدعه يضاجعها قبل ولادتها بثلاثة أشهر، لأن ذلك، كما قرأت سعيدة في إحدى المجلات، يمكن أن يهشم رأس الجنين في رحمها.

أما نسيمة، زوجته الثالثة، فلم تكن تفكّر في الجنس كثيراً، لكنها ازدادت شبقاً أثناء فترة حملها، وترغب في أن يضاجعها كلّ يوم، أما زوجته ألماز، فقد مرّت بمرحلة غريبة. فقد ازداد وزنها كثيراً في منطقة ثدييها وبطنها وردفيها حتى لم تكد صديقاتها وقريباتها يعرفنها.

في تلك الفترة، لم تعد تتنفّس بشكل طبيعي، وإنما بدأت تنفخ وتلهث، ولم تعد تأكل طعامها وإنما تلتهمه التهاماً، وبدأت تتحرك بصعوبة كبيرة، ولم تعد تقوم بأعمال البيت، فاستعانت ببعض قريباتها اللاتي دفعت لهن مبالغ كبيرة من جيبه. رائحتها فقط ظلّت تنضح أنوثة، وظلّت تجذبه.

وكلما ازداد وزنها كيلوغراماً واحداً، ازدادت غيرتها لأنه لم يعد يضاجعها. وبدأ يراودها الشك بأن زوجاته الثلاث وجميع العاهرات في المدينة يتآمرن عليها. كانت كلماتها المهينة وسخريتها منه تكوي جروحه كما لو أنها شحذت لسانها بزيت فلفل حار.

أكد له أصدقاؤه أنها عندما تلد، سينتهي كل ذلك، وسيختفي وزنها الزائد، ولسانها السليط الذي يقطر سماً، ومزاجها السيء. لكن عندما أنجبت ألماز ابنتها ناريمان في شهر أيلول، ازدادت

سوءاً، فأصبحت ابنتها مركز العالم، وأن على الجميع أن يكونوا عبيداً لها. وما زاد الطين بلة أن جميع أفراد أسرتها دعموها بقوة، وأصبح أبوها وأمّها ثرثارين غبيّين. وعندما كان نصري يراهما، تعتريه رغبة في أن يتصل بمستشفى الأمراض العقلية ليأتوا ويأخذوهما.

ثم انتقل مع ألماز إلى المدينة القديمة بعد أن ورث والداها بيتاً من إحدى أقربائهما، ولم يرغبا أن يبيعاه إلى شخص غريب. لم يكن عدد سكان دمشق والمناطق المحيطة بها يزيد آنذاك على ثلاثمئة ألف نسمة، مع أن مساحتها تعادل مساحة القاهرة، وكانت بيوت كثيرة لا تزال فارغة في المدينة آنذاك، اشترى نصري البيت لأنه لم يوافق على أن يستأجره أو أن يسكن على حساب والدَي زوجته.

يقع البيت جنوب الجامع الأموي وقريب من الكنيسة المريمية الأرثوذكسية في شارع فرعي بالقرب من الشارع المستقيم، فيه باحة داخلية صغيرة لكنها جميلة وحديقة فيها شجرة كباد وشجرة برتقال وبركة ماء. كان كلّ شيء في البيت صغيراً ومليئاً بزوايا ضيّقة وصغيرة، ولم يكن فيه طابق علوي مثل جميع البيوت العربية في هذا الجزء من المدينة فحسب، وإنما توجد فيه أيضاً عليّة يمكن الوصول إليها من الطابق الأرضي بواسطة سلم خشبي طويل.

استنفد انتقالهما في شهر تشرين الثاني كل طاقة نصري، لأن ألماز لم تكد تفعل شيئاً، ولم يكن يرضيها شيء. عندما عبّر عن ضيقه لصديقه الصيدلي إلياس، ضحك إلياس ساخراً وقال: «إذا تزوجت زوجة أخرى، فإنك ستحدث أزمة سكن في دمشق».

لكن نصري لم يضحك على هذه النكتة السمجة.

ما زاد الوضع كراهية هو أن والدَي ألماز اتخذا البيت مسكناً لهما، فقد كان نصري يراهما كلما عاد إلى البيت، وكان على وشك

أن يطلّق ألماز عدة مرات، لكن إخوته ومدير أعماله نصحوه بأن يتمالك أعصابه حرصاً على مصالح العشيرة.

بعد فترة طويلة، ذهب إلى بيت أسمهان، عاهرته المفضّلة، لكنه وجد أنها تغيّرت كثيراً أيضاً، فلم تعد ترغب في أن يحبّها بشغف فقط، وإنما أبدت له كذلك الاقتراح المجنون بأنها مستعدة لأن تتخلّى عن حياتها كبائعة هوى وتصبح ملكاً له إذا تزوجها.

بدأ نصري يشعر أن أسمهان أصبحت تشكّل خطراً عليه لأنها أُغرمت به، بعد أن كانت تصدّه لسنوات عندما كانت تشغل كلّ تفكيره، وتظهر له برودة، بدأت تلحّ عليه لشعورها أنه لا يريدها، فلم يعد بإمكانه أن يفعل شيئاً سوى أن يهرب منها.

بالطبع، اكتشفت ألماز زياراته المتكررة إلى بيت أسمهان وطلبت منه تبريراً، وقالت إنه يعلم جيداً أنها بحاجة إلى رعايته ومحبته، وأنه إذا ظل يذهب إلى تلك العاهرة، فإنها ستنتقم منه شرّ انتقام ذات يوم.

أحس والداها اللذان كانا جالسين عندما قالت له ذلك بحرج شديد، وأرادا أن يغادرا، لكن ألماز هزّت سبابتها أمامهما وطلبت منهما أن يبقيا في مكانهما.

فقال لها نصري بطريقة سلطوية، «هذه ثرثرة نساء سخيفة. لا توجد لديّ علاقة بأي عاهرة».

حذّره الصيدلاني إلياس بألّا يستخف بتهديدها، لكن نصري كان واثقاً بنفسه، لأنه أوقف علاقته بأسمهان منذ فترة.

بعد فترة قصيرة لاحظ أن ألماز هدأت. فعندما كان يزورها مرة كلّ أربعة أيام، لم يعد يراها مملّة. كان يكره والديها إلى درجة أنه يكاد يفقد أعصابه أحياناً، ويطلب منهما أن يعودا إلى بيتهما، لكنه كان يجد في أحيان أخرى كلامهما مواسياً، وكانا يتصرفان مثل

مهرجين من الدرجة الثالثة مع حفيدتهما ناريمان طوال اليوم، كأنهما عبدان مطيعان لابنتهما.

لكنه كان يشعر بالنفور من كل ذلك، فنقل غرفة نومه إلى الطابق الأول وترك الطابق الأرضي تحت تصرف زوجته وأهلها، وخصص غرفة العلية على السطح له أيضا لكي لا يزعجه أحد.

لم تخسر ألماز شيئاً من وزنها بعد أن أنجبت ناريمان، وأصبحت تتحرك مثل مصارع ساموراي، لكن رائحتها الجذابة وابنتها الجميلة فقط كانتا تذكّرانه، بألم، بجمالها في الماضي.

في أحد أيام شهر تشرين الأول، جلس نصري على السطح في الشرفة الصغيرة أمام العليّة مع والد زوجته يحتسي كأساً من العرق مع الماء المثلج. كان الجو دافئاً صيفياً، وكانا يستمتعان معاً بالنظر إلى أسطح بيوت المدينة التي خيّم عليها الهدوء عند الغروب، وكان مربو الحمام قد أطلقوا طيورهم في السماء، يوجهونها من أسطح بيوتهم بالصفير. كان الحمام يحلّق في شكل دائرة ثم ينقضّ بشكل بهلواني جميل ليعود إلى دائرته ويحلق الى ارتفاع كبير. في هذه الساعة من المساء، أصبحت سجادة الصوت التي ملأت السماء فوق دمشق أكثر هدوءاً وحزناً.

كانا يتناولان قليلاً من الفستق المحمّص، ويحتسيان العرق البارد مع الثلج في كأسيهما الرقيقتين الغبشتين، يتحدثان عن السعادة والنساء وعن موسم الحصاد هذه السنة والحرب في قناة السويس.

عندما فرغت قنينة العرق، وتناولا آخر حبة فستق، وتبادلا قصصاً وشائعات، عاد حماه إلى الطابق الأرضي، وهو يردد اسم اللّه ليحميه من الوقوع من على السلم الخشبي القديم المقلقل الذي يؤدي إلى الشرفة في الطابق الأول حيث كان الغسيل معلقاً ثم يهبط

إلى الطابق الأرضي. حمل نصري الكراسي والطاولة الرخامية الصغيرة الى العليّة المكونة من غرفة واحدة على السطح لها نافذة صغيرة قبالة الباب باتجاه الشرق، استطاع من خلالها أن ينظر إلى البيت المجاور، لكنه لم يكن في زاوية تمكّنه من الرؤية بشكل جيد، إلّا أنه استطاع أن يرى نافذة المطبخ في الطابق الأرضي وجزءاً من باحة البيت الذي تتوسطه بركة ماء وفيه أشجار بالإضافة إلى غرفة خشبية في الطابق الأول.

ألقى نظرة سريعة من بين درفات نافذته نصف المغلقة - فرآها. كانت تستحمّ ببطء، تدندن أغنية بصوت واطئ. يا له من مشهد رائع... يا لهذا الجمال. أخذ نصري يحدّق ويحدّق، وجفّ ريقه كثيراً حتى بدأ يؤلمه. في تلك اللحظة، سمع صوت زوجته ألماز تناديه لينزل إلى الطابق الأرضي ويتناول العشاء.

لكنه لم يأبه للطعام أو للحديث معها.

في صباح اليوم التالي استيقظ في وقت مبكر، وتسلل إلى العليّة وراح يراقب البيت المجاور الذي خيّم عليه هدوء تام في ضوء الفجر.

استحوذت تلك المرأة المجهولة على جميع حواسه. كان وجهها جميلاً بعينين واسعتين جميلتين، أقصر قامة بقليل من نصري، تكاد تشبه صبياً. لم ينل امرأة كهذه حتى الآن. من هي؟ لماذا لم ير معها رجلاً في البيت؟ هل هي أرملة؟ أم زوجة بين عدة زوجات يزورها زوجها مرة في الأسبوع؟

مهما كان أمرها، فقد اشتهاها نصري.

لكن كان عليه أن يصبر قليلاً لأنه سيسافر قريباً مع مدير أعماله توفيق إلى السعودية والأردن والمغرب في رحلة عمل مهمة، لأن وجوده هناك ضروري.

بعد أسبوعين، استقلّ طائرة قديمة تابعة للخطوط الجوية السورية عائداً إلى دمشق. كان توفيق الذي يحمل في حقيبته بعض العقود الممتازة سعيداً، بينما كان نصري قباني معكّر المزاج لأنه لم ينم جيداً.

ما إن عاد نصري إلى البيت حتى صعد إلى العليّة ليرى حبيبته المجهولة، لكنه لم يرها وكأن الأرض انشقّت وابتلعتها. أين هي؟ بدأ يختلس النظر الى البيت المجاور بحذر لكي لا تلاحظ زوجته الغيورة ألماز شيئاً. وبينما كان مستغرقاً في التفكير سمع صوت ألماز وهي تتنحنح وتسعل من التعب بسبب ردفيها الثقيلين أثناء صعودها إليه. وقفت لاهثة على الشرفة الصغيرة أمام العلية وسألته ماذا يفعل هناك.

لم يردّ عليها هبط نازلاً الى الطابق الأرضي وتبعته ألماز والشكوك تملأ قلبها.

اكتشف أن أفضل فترة لاختلاس النظر إلى تلك المرأة هي أثناء القيلولة عندما تغطّ ألماز في النوم. حتى لو بكت ناريمان، فلن يوقظ نحيبها أمّها. وإذا لم يكن جدّها وجدّتها في البيت، كانت تهدأ بنفسها لأن ألماز تنام مثل قطعة خشب يابس، تشخر بصوت عالٍ حتى أن الذباب الذي يملأ غرفة النوم يبدأ يبحث عن ركن يهرب إليه.

ما الذي يمكن لنصري أن يفعله؟ من حين لآخر، كان صوت العقل يوبخه ويلومه لأنه يتصرّف مثل مراهق عاشق. إذ تملأ العاهرات المدينة الجديدة، كلّ واحدة أجمل من الأخرى، وها هو ينتظر هنا، بقلبه الذي يخفق، أن يرى جارة له. لكنه تجاهل صوت العقل، وهمس بتحدٍّ، «وماذا في ذلك؟ فالحب يجعلنا أطفالاً مرة أخرى».

في صباح أحد أيام كانون الأول الشديدة البرودة، ذهب إلى محترف حميد فارسي، حزيناً شاحباً. كان عند الخطاط زبونان، زوج وزوجة جاءا ليستلما لوحة الخطّ المؤطرة. ألقى نصري التحية بتهذيب شديد وانتظر. كان عقله في مكان آخر، ولم يولِ اهتماماً للحديث الدائر بينهما إلّا عندما قال الرجل والمرأة إن اللوحة مرتفعة الثمن.

«تفضل القهوة»، قال أحد العاملين الواقف بجانبه. شاب نحيف له أذنان كبيرتان وقدّم له فنجان القهوة الحلوة.

لم يجد للقهوة طعماً، ولم يتوقف الزبونان المزعجان عن مساومة حميد فارسي الذي بدا منزعجاً. حاول نصري أن يقرأ أفكاره: في البداية، طلب الزبونان من أفضل خطاط في المدينة أن يكتب لهما لوحة مرتفعة الثمن، وعندما جاء وقت الدفع، تردّدا وخارت عزيمتهما.

بعد ربع ساعة اتفق حميد مع الزوج على أن يخفض عشر ليرات عن المبلغ المطلوب، لكن الزوجة الرقيقة ذات الشعر الأحمر لم تقبل، وهمست لزوجها شيئاً لم يسمعه أحد، وعندما لم يستجب زوجها لها زاغت عيناها وأبدت انزعاجها لنصري الذي لم يبتسم لها ابتسامة تضامن، تلك الابتسامة التي توحد الزبائن عادة ضد الشخص الذي يتعاملون معه. أثار هذان الشخصان البخيلان حنقه.

عندما تم الاتفاق أخيراً، وضع الخطاط النقود في درج مكتبه، والتفت إلى نصري وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وقال له: «أين كنت طوال هذه الفترة؟ لم أسمع منك منذ زمن، حتى أنني زرتك منذ فترة لأعرض عليك اقتراحاً».

«زرتني؟» سأله نصري متفاجئاً، وانزعج لأن أحداً في المكتب لم يخبره بتلك الزيارة.

«نعم، نزمع إنشاء مدرسة لتعليم فنّ الخط، وقد حصلنا على دعم سخي من وزارة الثقافة ومن بعض العائلات الراقية في دمشق: العظم والبكري والصحناوي والبرازي والأصفر والغزي ومردم بك، بالإضافة إلى شخصيات أخرى مثل شكري القوتلي وفارس الخوري وخالد العظم وفخري بارودي وصبري العسلي الذين لم يرحبوا بفكرتنا فقط، وإنما دعمونا بتبرعات كبيرة. وقلت في نفسي يجب أن يكون اسمك وارداً في لوحة الشرف. يجب أن يكون الخطّ العربي قريباً من جميع القلوب، ويجب ألّا يقع فنّنا الجميل في حفرة الإهمال والخراب، وإنما يجب دراسته وتنظيفه من التراكمات والشوائب غير الضرورية وتطويره»، وأضاف، «وإذا لم نفعل شيئاً من أجل تطوير حروفنا، فإنها ستُكتب بعد فترة بآلات وحروف أوروبية». لاحظ الخطاط أن نصري شارد الفكر، فأراد أن يجذب انتباهه ويغويه، فقال: «طبعاً ستكون هناك لوحة رخامية تخلّد أسماء جميع من ساهم في بناء هذه المدرسة. وبما أنني أعرفك وأعرف كرمك، فإن اسمك سيتصدّر الأسماء في لوحة الشرف».

أدرك نصري الآن لماذا لم يخبره أحد في المكتب عن زيارته. فقد كان الاتفاق بين العاملين في المكتب بألّا تُرفض جميع طلبات التبرعات فحسب، وإنما تركها بدون ردّ لفترة من الزمن حتى يشعر الشخص الذي طلب تلك التبرعات بالملل - ويوجد كثيرون منهم في دمشق - إلى أن يتوقفوا عن طلبهم من تلقاء أنفسهم.

لكن الأمر مختلف هنا. فقد تخيّل نصري أولاً بمتعة، حسد شقيقيه له عندما يجدان اسمه في قائمة المتبرعين التي تضم أسماء كبار رجال السياسة والثقافة، ثم خطر له انزعاج أساتذته الذين كانوا يقولون له إنه سيحط من قدر اللغة العربية بسبب الضرر الذي يلحقه بها كلّ يوم. وللحظة، فكر بسعادة، في الشيخ راشد دائماً، مدرّس

اللغة العربية الذي يكرهه كثيراً، وسيحرص على دعوته لحضور حفل الافتتاح.

فقال: «يا لها من فكرة جيدة، ويسعدني كثيراً أن أكون طرفاً فيها. عندي بيت رمّمته منذ فترة قصيرة لا يزال فارغاً في شارع بغداد الراقي - يمكنك أن تستخدمه من دون دفع إيجار لمدة عشر سنوات، بعدها سينتهي تبرعي، ويمكنك بعد ذلك أن تستأجره أو تشتريه، شرطي الوحيد أن يبقى البيت في حالته الجيدة بعد انتهاء فترة العشر سنوات. ما رأيك؟»

فأجاب الخطاط الذي لم يتمكن من حبس دموعه، «لا أعرف ماذا أقول لك». لم تتحرك مشاعر نصري عندما رأى رجل عواطفه باردة جداً تتأجج. فالمنزل فارغ مثل أربعة منازل أخرى يمتلكها، وإذا كان بإمكان منزل فارغ أن يُكسبه شهرة بينما يعيش الدارسون والمتعلمون حياة فقيرة، فإنه سيثبت مرة أخرى أن الدراسة لا تؤدي إلى الشهرة والثروة.

«هل لديك عدد كاف من الأساتذة والطلاب؟» سأله نصري ليكسر حاجز الصمت الذي خيّم عليهما.

«أساتذة، نعم، ويجب أن نختار طلابنا من جميع أنحاء البلد. عندما يتخرج أفضل الطلاب من مدرستنا، ستشتهر المدرسة عالمياً، لأننا نركّز على مستوى عال من تعليم الخط وفق معايير الخطاط الأسطوري ابن مقلة. سيأتي الطلاب من جميع الدول العربية والإسلامية، وستصبح دمشق مركزاً هاماً. متى يمكنني أن أرى المنزل؟»

«ليس جاهزاً بعد. إنه في بناية مبنية على الطراز الأوروبي الحديث، فيها سبع غرف في الطابق الأرضي، وخمس غرف في الطابق الأول، وخمس غرف أخرى في الطابق الثاني. وفي كل طابق

هناك مطبخ وحمامان ومرحاضان. اذهب وقابل مدير أعمالي اليوم ووقّع معه العقد. سأتصل به وأعطيه كل التعليمات. متى تظن أن المدرسة ستُفتح؟»

«في شهر أيار ستبدأ الدراسة إن شاء اللّه، لكن الافتتاح الرسمي سيكون في آذار لنتمكن من بدء الإعلان عنها في شهر شباط ونرسل الدعوات». صمت حميد قليلاً ثم التفت نحو الورشة، ونادى سلمان، فظهر الشاب الذي قدّم لنصري قهوته، وقال له، «اذهب بسرعة إلى مقهى كرم وأحضر لنا فنجانَي قهوة».

«لا تجلب لي شيئاً، شكراً، يجب أن أذهب بعد قليل، وسأضطر إلى أن أشرب القهوة مرة أخرى في المكان الذي سأذهب إليه... أشكرك، ليس اليوم أرجوك، لكن هل يمكنني أن أكلمك على انفراد؟» قال نصري وهو ينظر إلى الشاب ذي الأذنين الكبيرتين.

فقال له حميد: «يمكننا أن نخرج قليلاً. هناك عدة مقاهٍ تفتح في وقت مبكر في حي الصالحية».

بعد عشر دقائق، كانا يجلسان في مقهى الأمير. عندما أحضر لهما النادل العجوز فناجَي قهوة ينبعث منهما البخار، قال نصري، «يتعلق الأمر بامرأة. امرأة سلبت قلبي. أريد رسالة. إنها أرملة شابة تعيش وحدها بهدوء. إني أحتاج إلى مساعدتك. لرسائلك مفعول سحري. لا يوجد أحد في هذه المدينة يكتب أفضل منك».

«كم عمر المرأة؟ هل هي ميسورة الحال؟ هل تقرأ الشعر؟»

«هل ترى تلك البائعة في محل الأقمشة على الرصيف المقابل؟ تكاد تكون في حجمها وشكلها، لكن وجهها أجمل بكثير، مثل وجه فتى جميل. لا أعرف إن كانت تقرأ الشعر».

نظر الخطاط إلى الفتاة في المحل الذي أشار إليه نصري، وقال مبتسماً: «هذه جميلة أيضاً». لكن نصري هزّ رأسه، وراح يصف

مفاتن معشوقته، وقال إنها مثيرة أكثر من تلك البائعة، وذكر له التفاصيل التي تمتاز بها، المرئية وغير المرئية، وطريقة مشيتها التي ملكت قلبه وسلبت عقله، والألق الذي يشعّ من داخلها. وشرح له الفرق الدقيق في الألق الذي يظهر على امرأة مكتفية ومُشبعة، ثم قال بنبرة تآمرية: «تلك المرأة لم تعرف الإشباع حتى الآن، أما تلك الفتاة البائعة فهي مشبعة حتى الامتلاء».

نظر حميد إلى المحل على الرصيف المقابل، مبدياً شيئاً من الاهتمام، لكنه لم يفهم كيف أدرك زبونه الثري أن تلك الفتاة مشبعة جنسياً.

«لن أكتب لك هذه الرسالة فقط، وإنما سأكتب لك كلّ رسائلك لعشر سنوات قادمة، من دون مقابل»، وعده الخطاط.

تلفن نصري لمدير أعماله توفيق وقال له إنه أصبح الآن راعياً للفنون، وإن المنزل في شارع بغداد أصبح تحت تصرّف مدرسة الخطّ من دون إيجار طوال السنوات العشر القادمة. توقع أن يسمع صيحات استنكار، لكن توفيق ردّ بهدوء وبقدر من البهجة، «رائع. ومن غيرك يمكنه أن يتبرع هكذا؟» وعندما ذكر نصري جميع الأسماء المشهورة بصوت عالٍ، وقال إن اسمه سيكون في مقدمة قائمة المتبرعين في اللوحة الرخامية، ظن توفيق أنه سكران.

ثم قال نصري لحميد مبتسماً، «توفيق بانتظارك».

«ثمة شيء أريد أن أسألك عنه»، قال حميد، «مع أنني لا أريد أن أسأل كثيراً عن علاقتك بهذه السيدة التي تحبّها. لكن يجب أن أعرف لأقرر نمط الرسالة التي سأكتبها. ما شكل حياتها؟»

تصبّب عرق بارد من نصري الذي لم يتوقع أن يسأل الخطاط سؤالاً في الصميم فجأة.

فقال كاذباً، «إنها تقيم في مكان غير بعيد من هنا، بالقرب من مبنى البرلمان».

«لا، لا، لقد أسأتَ فهمي. لا يهمني أين تسكن، لكن أريد أن أعرف كيف تعيش ومع من تعيش. أظن أنك ستعطيها الرسالة سرّاً، وإذا كان هناك خطر أن يراك شخص آخر في المنزل، فإني سأجعل معنى الرسالة واضحاً، لكن دون الكشف عن شخصيتك. أما إذا كنت ستسلّمها الرسالة شخصياً، فيمكنني أن أكتبها بصراحة أكثر مما إذا كان هناك رسول يسلمها لها. وفي هذه الحالة، سيكون من الأفضل استخدام حبر سرّي. لهذا السبب أريد أن أعرف إن كانت تعيش وحدها أو مع أشخاص آخرين».

«لا، لا، إنها تعيش في بيت وحدها. لكني لا أعرف بعد كيف سأوصل الرسالة إليها. لكن ماذا تقصد بالحبر السرّي؟»

«حسناً، يستطيع المرء أن يكتب بسوائل مختلفة لا يمكن قراءتها إلّا بعد معالجتها بالحرارة أو بمواد كيميائية. يمكنك أن تكتب بالحليب وعصير الليمون وعصير البصل. وهناك أحبار أغلى بكثير، لكن تظل الكتابة مقروءة لفترة زمنية معينة فقط».

«لا، لا أفضّل هذه الطريقة. أريد أن تحصل المرأة على رسائل مكتوبة بأحرف جميلة من يدك، مذيلة باسمي نصري قباني»، قال نصري متباهياً.

«إذاً من دون حبر سرّي. حسناً، سأفكّر في الأمر، ويمكنك أن تستلم رسالتك بعد ثلاثة أو أربعة أيام».

«انتظر قبل أن تكتبها. سأتصل بك غداً على أبعد تقدير، عندما أتأكد مما أريد أن يُكتب في الرسالة»، قال نصري وهو يهمّ بالمغادرة. كان مضطراً للذهاب بسرعة ليأخذ زوجته لمياء إلى طبيب

العيون لأن أوردة صغيرة في عينها اليسرى بدأت تتهتك منذ بضعة أشهر، وأصبح لونها أحمر داكناً تنبض في عينها. كانت تخشى أن تكون مصابة بسرطان العين. كان ذلك شكلاً من أشكال الهستيريا. فقد أصبح كل شيء صغير يمكن علاجه بالأعشاب يهددهن بالسرطان، ولم يعدن يذهبن لاستشارة جداتهن اللاتي يعرفن جيداً الأعشاب المستخدمة لكل مرض، وإنما أصبحن يذهبن إلى الطبيب مباشرة.

23

فوجئ حميد باستقبال توفيق، مدير أعمال نصري، الودي له. كانت للرجل ذي الشعر الرمادي القصير، والعينين اليقظتين، ابتسامة ذكية. لم تنمّ أسئلته عن خبث أو شك فقط، وإنما كانت حادة مثل نصل سكين مليئة بالفخاخ المخبأة بذكاء. لكن عندما عرف أن حميد فارسي الشهير سيكون مديراً لهذه المدرسة الجديدة، وأن رئيسها الفخري هو الخطاط سيراني، أسطورة عصره، بدأ توفيق يتذلل في كلماته المبالغ في تهذيبها. قدّم العقد لحميد وكتب في المكان المخصص لكتابة مبلغ الإيجار، «على الطرف المتعاقد ألّا يدفع إيجاراً طوال مدة هذه الاتفاقية»، لكنه لفت انتباه حميد فارسي بلطف إلى الفقرات التي تنصّ على أنه يمكن إنهاء عقد الإيجار مع المستأجر فوراً إذا أراد أن يستخدم المنزل لأغراض أخرى، أو إذا أهمل إصلاح الأعطاب التي تحدث، «لدى السيد قباني مبان عديدة ومستأجرين كثيرين فإذا لم نحرص على صيانة البيوت من مستأجريها، فإننا سنقوم بأعمال ترميم طوال الوقت».

مبدياً تفهّمه التام، وقّع حميد على الاتفاق بخط مزخرف.

في اليوم التالي تلفن نصري للخطاط وأبلغه ما الذي يريد أن يكتبه في الرسالة، وقال: «ينبغي أن يكون فيها شيء يتعلق بالذهب.

يجب أن تقول إنني مستعد لأن أعطيها ذهباً بوزنها إذا استطعت أن أرى عينيها الجميلتين وأقبّل الوحمة التي على بطنها، أو شيئاً من هذا القبيل. في جميع الأحوال، أريد أن يُذكر الذهب في الرسالة».

«يا لها من امرأة محظوظة»، صاح حميد في الهاتف، «نصف فتيات دمشق سيركعن تحت قدميك لو أعطيتهن قطناً يعادل وزنهن، فما بالك إذا كان ذهباً».

«صحيح، لكن القلب وحش بري لا يفهم المنطق أبداً».

«قلت عبارة جميلة. سأستخدمها: *القلب وحش بري*. إنها عبارة جميلة»، كرر الخطاط بصوت منغّم، وأضاف، «أصبحت العبارة في ذهني، وأظن أنها ستعجبك. صفحتان، بقياس دفتر عادي لكن على ورق ناعم جداً صُنع يدوياً في الصين، أبيض كالثلج تبرز فيه الكلمات بالحبر الأسود بشكل رائع، وقد خطر لي الآن ونحن نتكلم أن أكتب كلمة «ذهب» على ورقة ذهب. يمكنك أن تستلم الرسالة بعد يومين. بالمناسبة، هل قال لك مدير أعمالك الودود إننا وقّعنا العقد؟ وقد أعطاني المفتاح. ليلة البارحة، شعرت بالفضول فذهبت إلى شارع بغداد لألقي نظرة على المنزل. إنه لؤلؤة غالية الثمن، لم تبالغ على الإطلاق. ستكون اللوحات الرخامية جاهزة في بداية كانون الأول».

«عدة لوحات؟ هل يوجد متبرعون كثيرون؟»

«نعم، لكن أريد أن أضع أسماء أفضل المتبرعين والمحسنين للمدرسة في لوحة واحدة. بالطبع سيتصدر اسمك اللوحة، وسترد أسماء الآخرين بعد اسمك».

قرر نصري أن يلقي رسالته في الهواء إلى المرأة الجميلة. وقد

تخلّى منذ بضعة أيام عن فكرة الذهاب إلى منزلها وتسليمها الرسالة مباشرة، أو إرسالها عن طريق رسول.

حاول نصري تحديد مكان بيتها بدقة، لكنه وجد صعوبة في تحديد باب بيتها من النافذة في العليّة، لكنه لاحظ أن المزاريب في بيتها مطلية باللون الأصفر وهو لون غير معتاد للمزاريب في دمشق، وأمل أن يتمكن من تحديد منزلها عندما يصل إلى الشارع الذي يقع فيه. بيوت دمشق القديمة شهيرة بتداخلها والبيت الملاصق لبيت آخر قد يكون مدخله في بعض الأحيان في زقاق آخر.

لكن لم يكد يغادر الشارع المستقيم ليرى أين تقيم جارته حتى سمع صوت ابن عمه البعيد بلال قباني الذي كان رجلاً قليل الذكاء، لكنه سليط اللسان. فقد كان قد أصيب بالشلل بعد أن تعرض لحادث ويمضي حالياً أربعاً وعشرين ساعة كلّ يوم جالساً أمام نافذته. «حسناً، من أرى هنا؟» نعق هذا الرجل المزعج، «ابن عمي نصري قباني. ماذا تفعل هنا في شارعنا؟ هل قتلت شخصاً آخر وتجلب له الدية؟» وأطلق ضحكة خبيثة تمنّى له نصري أن يموت بسببها، أجابه بجفاء: «طاب يومك»، وهو يسير بسرعة تحت نافذة بلال ليجتاز هذا الإزعاج. وكانت المفاجأة الثانية بانتظاره بعد عشر خطوات، إذ عرفته أخت أحد المستأجرين لديه، واندفعت نحوه لتقبّل يده بامتنان، ونادت بصوت مرتفع شخصاً من داخل المنزل الذي تستأجر غرفة فيه. «ها هو السيد قباني الكريم، تعالي وانظري إلى قدوة الرجال»، لكنه سحب يده منها وراح يغذّ خطاه لاعناً حظه، بينما راحت المرأة تنادي صديقاتها اللاتي هرعن نحوها، «إنه رجل كريم وخجول، إنه قباني أصيل».

بعد خمسة أمتار، حيّاه متسول وصاح بصوت أجش: «أنت هنا يا سيّد قباني؟ يا لها من مفاجأة».

لم يعرف نصري كيف أن الشحاذ الذي أمسكه من كمّه بقوة عرف اسمه. سحب يده منه بقوة وتملكه غضب شديد، لا لأنه لم يعثر على بيت المرأة الجميلة فحسب، وإنما لأنه لم يعرف كيف يخرج من هذا الشارع. قال لنفسه إن هذا الشارع حقل ألغام، وإن ابن عمه أحد تلك الألغام، وأخت المستأجر لغم آخر، والشحاذ وجميع المتربّصين خلف النوافذ والذين يراقبونه من خلال الأبواب المواربة المستعدين لتمزيق سمعته إرباً، حقلاً كاملاً من الألغام. تذكّر نصري قصّة عاشق انتظر أربعين سنة ليسلّم حبيبته رسالة حبّ، وعندما رآها أخيراً اكتشف أن لديها أربعة أبناء وعشرين حفيداً.

كان عليه أن يبحث عن طريقة أخرى، وتساءل لماذا لا يطوي ورقة الرسالة في شكل طير ويلقي بها من العليّة في بيته إلى غرفتها أو إلى فناء بيتها، عندما رأى صبيين واقفين بجانب الجامع الأموي يطلقان أوراقاً مطوية مثل السنونو تسبح في الهواء.

لم تستغرق الزيارة إلى طبيب العيون فترة طويلة. أمضى الدكتور فرح خمس دقائق وهو يفحص العين الحمراء، ثم طمأن قباني وزوجته، ووصف لها أحد مشتقات الهيبارين، وطلب ثلاثين ليرة. «إنه مبلغ كبير»، قالت زوجته لمياء عندما غادرا العيادة. فأشار نصري إلى اللوحة المعلّقة على باب العيادة، وقال لها: «يجب أن يدفع أحدهم تكاليف رحلاته إلى جميع تلك البلدان الجميلة». كانت لمياء قد قرأت الأسطر الأخيرة تحت اسم الطبيب على اللوحة المعلقة على باب العيادة وفيها تذكر أسماء مستشفيات في نيويورك ولندن وليون ومدريد وفرانكفورت إثباتاً على المؤهلات التي يحملها. وقد شاعت آنذاك تلك الموضة عند الأطباء غير الأكفاء.

عندما عاد إلى البيت مع زوجته لمياء، بدأ يطوي أوراقاً في

شكل سنونو ويلقيها في الهواء من العليّة في الطابق الأول، وراحت بناته الأربع الأكبر يقفزن حوله ببهجة، وأشارت الفتاتان الأصغر سناً إلى الطيور الورقية وهما تضحكان بدهشة. كانت الطيور الورقية تهبط أو تعود إلى العلية مباشرة، وتحلّق أحياناً في شكل أقواس عريضة أنيقة، ثم تعلق بين أشجار الحديقة العالية، أو تسقط على الأرض.

اقتنع نصري أنه لا يمكن الاعتماد على هذه الطيور الورقية، عندما دفعت الريح إحداها إلى حديقة البيت المجاور، تخيّل أن رسالته ستهبط في حديقة بيت مجاور لفناء بيت جارته الجميلة، فيقرأها شخص آخر، ربما يكون ابن عمه بلال، فيفضح سرّ نصري. غضب نصري وشعر كأن حجرة عالقة في حلقه.

قالت لمياء لنفسها ما الذي جرى لهذا الرجل؟ فلم تره قط يلعب مع بناتهما. وها هو الآن يأخذهن فجأة في نزهة في يوم مشمس، لكنه بارد في شهر كانون الأول.

كانت ابنته الثالثة سميرة، هي التي اكتشفت حيلة أبسط من الطائر الورقي المعقدة بكثير. فقد ثنت الورقة ثلاث طيات بشكل طولي، وبدت الورقة المطوية مستوية مثل مسطرة، ثم ثنتها في منتصفها على شكل حرف V وألقتها من الشرفة، فراحت الورقة تدور في الهواء مثل مروحة طائرة هليكوبتر، ثم سقطت ببطء في مكان غير بعيد عن العليّة، فصاح نصري بسعادة، «هذه هي الطريقة الصحيحة»، ثم طوى ورقة بالطريقة نفسها، ووضع فيها قطعة عملة معدنية ثبّتها بغراء في وسط الشكل V، فطارت الورقة بشكل شاقولي إلى الأسفل وهبطت في المكان الذي أراد أن تسقط فيه أسفل العليّة.

24

بعد انقضاء أسبوع على توقيع العقد، كان حوالي أربعين رجلاً يجلسون في أكبر قاعة في المدرسة الجديدة التي لم يكن فيها كراسي أو طاولات بعد، فجلسوا على سجاجيد أحضرها حميد فارسي، يشربون الشاي وينصتون إلى معلّمهم حميد الذي كانوا يخاطبونه «المعلم الكبير» والذي راح يشرح لهم أهم النقاط في مخطط المدرسة الجديدة. كانت نبرة صوته تشي بالانتصار، صوت جنرال فخور قبل أن يشن معركة استعدّ لها جيداً. عُلّقت على الحائط خلفه لوحة ضخمة، لا تزال على الورق كُتب عليها «*مدرسة ابن مقلة لتعليم الخطّ*».

«ستمكّن هذه المدرسة مجتمعنا من أن يحقق تقدماً كبيراً، ستكون أول مدرسة من نوعها تُفتتح في سوريا لتدريب الخطاطين الفن الذي أرساه معلّمنا الجليل ابن مقلة سنة ٩٣٧ أي قبل وفاته بثلاث سنوات. لن يهدأ أعداؤنا، لذلك يجب أن يخيفهم حفل الافتتاح هذا وأسماء الأشخاص الذين يقومون على رعاية هذه المدرسة. وقبل أن يتجاوزا الصدمة الأولى، تكون المدرسة الثانية قد أُنشئت في مدينة حلب. إن السبق هو سرّ الانتصار. وبينما يتجادلون حول المدرستين في دمشق وحلب، نكون قد أنشأنا المدرسة الثالثة في حمص والرابعة في اللاذقية.

تشكّل هذه المدارس البذرة التي سينمو منها مستقبل جديد لفنّ الخط. سنحافظ على التقاليد هنا في دمشق، وفي سعينا للابتكار، سنقوم بتطوير هذا الفن حتى نتوصل إلى استحداث أبجدية حيوية، وبالمناسبة - أود أن أقول إننا كل أربع سنوات - سنرسل مجموعة من الخطاطين الشباب المدربين جيداً إلى كل أنحاء بلدنا وكذلك الى البلاد العربية، وفي غضون عشرين عاماً، أتوقع أن نكون قد رفعنا من قدر الخطّ وجعلناه فناً سامياً ونقياً.

إن استراتيجية الهجوم التي يتبعها الحمقى الملتحون الذين يطلقون على أنفسهم اسم «*الأنقياء*» تتمثل في أنهم يقولون عنا إننا نسيء إلى الدين لأننا نريد إصلاح الخط العربي والكتابة باللغة العربية. لا تدعوهم يرهبونكم أيها الإخوة الأعزاء. فليس من الصحيح إذا كنا فعلاً نحبّ الإسلام ونبجّل القرآن، أن نسمح بانهيار أجمل اللغات في العالم وانقراضها لأنها توقفت عن التطور. كل لغات العالم تطور نفسها لتتناسب مع الزمن والتقدم العلمي. وكل من يهتم باللغة يهتم بالعقل أيضاً، واللّه أعظم وأنقى عقل على الإطلاق. أما الأغبياء فهم الذين يخشون اللّه. نحن نحبّه ونحبّ رسوله وسنكرمهما حتى آخر الزمان.

إني أحلم بأن تكون لدينا لغة عربية قادرة على التعبير عن أدق الفروق الصوتية على وجه الأرض من القطب الشمالي حتى القطب الجنوبي. لكن لا يزال أمامنا مشوار طويل يجب أن نقطعه قبل أن نتمكن من تحقيق ذلك. انطلقوا في طريقكم يا جنود الحضارة، واشحذوا أقلامكم، لأننا سنبدأ هجومنا».

تردد صدى التصفيق في جنبات المنزل. نهض حميد على قدميه، وشكر أصدقاءه على تقديرهم له بتأثر شديد. وفكّر بفخر في قرارة نفسه أنه حتى ألدّ أعدائه سيقرّون بأن حميد فارسي هو أول

شخص يحقق نجاحاً في إنشاء مدرسة لتدريس فنّ الخط في مجتمعهم.

شكّل اثنا عشر رجلاً مجلس الحكماء، أعلى لجنة في هذه الجمعية، ستة وثلاثون يشكّلون دائرة المنشئين، الذين ترأسوا معاً جمعية الحكماء، وهي جمعية سرية للخطاطين أسسها ياقوت المستعصمي، أحد أمهر ممارسي هذا الفن سنة ١٢٦٧ الذي كان خطاطاً وأمين مكتبة، وشهد في أيام شباط الباردة من عام ١٢٥٨ تدمير بغداد على يد المغول الذين أحرقوا جميع المكتبات في المدينة، وعندما وجدوا أن النار لا تلتهم الكتب بالسرعة التي تمنّوها، ألقوا كميات كبيرة من الكتب في نهر دجلة حتى اسودّت مياهه طوال سبعة أيام، كأنها اتشحت بالسواد حزناً على سقوط الثقافة العربية.

لم يمتلك ياقوت وقتاً للبكاء، ولم يكتف بتأسيس مدرسة كبيرة للخطّ في بغداد، وإنما أرسل أيضاً خمسة من أفضل تلاميذه وأكثرهم تقديراً بعد أن أعطاهم تعليمات دقيقة لإنشاء جمعيات للخطاطين وتأسيس مدارس في جميع أرجاء العالم الإسلامي. كان حميد يأمل في أن يُحيي روح ياقوت من جديد.

25

كان يوماً شديد البرودة من أيام كانون الأول، ولم يتوقف المطر عن الهطول حتى الفجر وامتلأت جميع الحفر في «حوش الرحمة» بالماء. استيقظ سلمان في الصباح الباكر مرهقاً. كانت تلك الليلة مرهقة لجميع العاملين في ورشة حميد. مع أنه كان مرهقاً، لم يغمض له جفن طوال الليل وهو يفكّر في نورا، يسمع صوت قطرات المطر تخبط على سقف غرفته من الصفيح الرقيق المتموج، وحسد زوجها الذي ربما كان مستلقياً بجانبها الآن. عندما تذكر نعومة بشرتها، شعر بالدفء، لكن خوفاً شديداً تملكه في الظلام. ماذا لو اكتشف الأمرَ معلّمُه حميد؟

قفز من سريره، واستحمّ بسرعة وتناول قطعة الخبز والمربى التي أعدّتها له أمّه. كانت رائحة الخبز الطازج تملأ المكان. ابتسمت أمّه لأول مرة منذ زمن، بعد أن زالت الحمّى الغريبة التي جعلت حياتها صعبة لأشهر طويلة.

كان أبوه قد ذهب إلى عمله. وضع سلمان خمس ليرات في جيب سترة أمّه، وقال لها: «اشتري شيئاً تشتهيه نفسك لتستعيدي صحتك». قبّلته وأخذت رأسه بين يديها، وقالت له وعلى وجهها ابتسامة، «تفوح منك رائحة السعادة». فضحك وخرج مسرعاً ليلحق الباص، ووصل إلى ورشة العمل في الوقت المحدد.

بدا من وجه حميد فارسي أنه معكّر المزاج هذا الصباح، فقد جاءت شقيقته سهام مرة أخرى قبل ساعة وطلبت منه نقوداً لأن زوجها سيُجري عملية جراحية. صرخ حميد بها وقال إنه ليس جمعية خيرية وعلى زوجها أن يعمل بدلاً من أن يجلس ولا يفعل شيئاً سوى أن يدخّن الحشيش ويشرب الكحول، لكنه أعطاها نقوداً في نهاية الأمر. انتقل مزاج حميد السيء إلى مساعديه. حتى راضي المليء بالحيوية لم يستطع أن يحكي أي نكتة، وكان محمود غاضباً، وعلى عكس صمد، كلّف سلمان دائماً بأعمال مملة لا يتعلّم منها شيئاً.

كانوا يعملون جميعاً في ذلك اليوم على تحضير أوراق كثيرة صغيرة الحجم، يُكتب على كل منها حرف ضخم وآية قرآنية، أو حديث نبوي، يبدأ كل منهما بذلك الحرف. عمل مساعدوه كما لو أنهم يعملون في خط إنتاج في أحد مصانع السيارات. فقد طُلبت عشر نسخ من كل حرف من الأبجدية، وعندما يجفّ الحبر، يطوي سلمان تلك الأوراق ويضعها في أكياس صغيرة من القماش، وستقوم الزبونة فيما بعد في بيتها، وهي قابلة مشهورة، بخياطة الأكياس الصغيرة وبيعها كتميمة تحمي حاملتها من عيون الحساد والأمراض وحتى خيانة زوجها لها، وتقبض على هذه الشعوذة مبالغ كبيرة من النسوة اللواتي يؤمنّ بالغيب والخرافات.

تذكّر سلمان نكتة حكاها له بنيامين في المدرسة عن قس غبي في القرية التي كان والداه يعيشان فيها. فقد طُلب من القسّ الذي يُعرف بمقدرته على طرد الأرواح الشريرة، أن يُخرج الشيطان من روح شاب، فوضع الكتاب المقدّس على رأس الشاب الذي جثا على الأرض وبدأ يقرأ «نجمع فاء وياء معاً، فيصبحان: «في»، ألف ولام وباء ودال وهمزة معاً: «البدء»، خاء ولام وقاف معاً :«خلق»، ألف ولام ولام وهاء معاً، نقول: «اللّه».

«إلى متى ستقول هذه الكلمات؟» سأله الشيطان في قرقرة مخيفة.

فقال القس بهدوء: «حتى تنتهي التوراة ثم الإنجيل»، وتابع قراءته، «ألف ولام وسين وميم وألف وواو وألف وتاء تعطي معاً: «السماوات».

فصاح الشيطان، «كفى، سأخرج الآن، لا لأنك شخص مقدّس، وإنما لأنك شخص مملّ جداً».

ضحك سلمان في سريرته، لكنه لم يشأ أن يحكي لهم هذه النكتة لأنهم مسلمون. لحسن الحظ، حان الوقت لإحضار المطبقية للسيّد حميد، والأهم من كلّ ذلك، ليرى نورا.

عندما عاد سلمان إلى المحترف، لم يكن حميد الذي ذهب مع زبون ثري قد عاد بعد. وضع المطبقية وذهب إلى مقهى كرم. لأول مرة في حياته، شعر سلمان بسعادة لا توصف وأدرك ما الذي كانت تقصده سارة بأنك تشعر كأنك في الجنة عندما تحبّ. اعترته رغبة قوية لأن يعانق كلّ من يصادفه في طريقه إلى المقهى.

يبدو أن كرم قد أصيب بشيء من الحمّى لأنه كان يريد كلّ يوم أن يعرف أخباراً أخرى عن مدرسة الخط، وهذا ما أزعج سلمان لأن كلّ ما يعرفه هو أن المدرسة ستُفتح في أيار، وأن حفلاً كبيراً سيقام في أول آذار بحضور شخصيات مشهورة من عالميْ السياسة والثقافة، وأن تبرعات كبيرة جُمعت من جميع أنحاء البلد، وأنه من المزمع أن تُفتح مدرسة ثانية في مدينة حلب من الأموال الزائدة، وقال إن ذلك يعزز على ما يبدو جمعية ينتمي إليها حميد ويضعف جمعية أخرى.

لم يعد هناك شيء آخر يقوله له لأن معلّمه حميد لا يتحدّث عن

هذا الأمر بوضوح، وعلى الرغم من ذلك، لم يتوقف كرم عن طرح الأسئلة لأنه يشك في وجود خطط سرّية وراء إنشاء المدرسة.

«خطط سرية؟ أنت مجنون. لقد أصبحت تتكلّم مثل بدري الذي يشك في وجود مؤامرة يهودية إذا طرأ أي تغيير على الطقس. لا توجد أي خطط سرية. كل ما يريده حميد أن يخلّد اسمه».

تجهّم وجه كرم. ولم يقل شيئاً.

بخلاف كرم، كان حميد في مزاج رائق الآن. لم يرَ سلمان معلّمه مبتهجاً وصريحاً كما هو الآن. كان يقوم بعمل شخصين. وكعادته، يؤدي أعماله كلها بدقة متناهية، ويمضي ساعات على الهاتف وهو يتحدّث عن المدرسة، والتصاريح اللازمة، والأثاث، وإعلانات الصحف، وعن أمور تجارية أخرى. وفي بعض الأحيان، يظلّ في المحترف حتى منتصف الليل، ويطلب من جميع مساعديه أن يعودوا إلى بيوتهم بعد الساعة الخامسة مساء بقليل.

26

كُلِّف سلمان لأول مرة صباح هذا اليوم بتظليل عبارة مأثورة كتبها صمد. كان هذا أول عمل مسؤول يُعهد به إلى سلمان وحده، لذلك لم يتمكن من الإنصات إلى حديث معلّمه على الهاتف.

أجفل سلمان عندما سمع معلّمه يقول له وهو مستغرق في عمله، «سلمان، يمكنك أن تأخذ سلة المكسرات إلى زوجتي من عادل بائع الخضراوات، وفي طريقك خذ البهارات التي طلبتها من محل الحلبي»، وأضاف بصوت عال، كأنه يريد أن يُسمع جميع مساعديه، «قل لها إنني سأتناول اليوم طعام الغداء مع وزير الثقافة، لذلك لا داعي لأن ترسل لي الغداء اليوم». فوجئ سلمان لأنه كان بإمكان معلّمه أن يخبر زوجته ذلك على الهاتف، ولا بد أنه سيتصل بها لاحقاً ويقول لها ذلك ويطلب منها أن تذهب إلى بيت والديها في ذلك المساء، وأنه سيذهب ويحضرها بعد أن ينهي اجتماعاً مهماً مع الخبراء في الوزارة.

بعد الساعة العاشرة ببضع دقائق، أنهى سلمان تظليل اللوحة، وأثنى صمد على عمله، وعندما عرف أن حميد لن يعود اليوم، أرسل سلمان إلى البيت.

«بعد أن توصل المكسرات والأغراض الأخرى يمكنك أن تعود إلى بيتك. يكفي ما فعلته اليوم، وتعال صباح الغد مستعداً للعمل»،

قال له صمد الودود الذي لا يزال لديه عمل لن ينهيه إلّا في المساء.

لم يأخذ سلمان الدراجة الهوائية وذهب إلى بيت نورا على قدميه. وضع السلة الكبيرة الثقيلة على رأسه وشقّ طريقه بين حشود الناس والعربات والحمير وكل هذا الحشد الذي ينوء بأحماله من رجال ونساء وأطفال وبغال وحمير، الذين بدا أنهم أصيبوا جميعاً بالطرش ولم يعد أحد يسمعه وهو ينادي أن يفسحوا له الطريق لكي يمرّ.

قبّلته نورا على عينيه، وعندما بدأ يداعب طرف أنفها، قالت له، «أذناك ليستا رائعتين فقط، وإنما عيناك أجمل عينين رأيتهما في حياتي، مدورتان وذكيتان مثل عيون القطط».

بعد سنوات، تذكّر أن نورا كانت أول امرأة في حياته تقول له إن فيه شيئاً جميلاً، ومع أن سارة أحبته، لكنها لم تمتدح عينيه قط. إنهما جميلتان حقاً، قال في نفسه، لكن قول نورا له إن أذنيه جميلتان، ظل لغزاً بالنسبة له.

«أرني كيف ألعب الدُّحل. كنت أحسد الصبية في الشارع دائماً لأننا نحن الفتيات لم يُسمح لنا أن نلعب الدُّحل»، قالت له فجأة، وأحضرت علبة خشبية صغيرة مليئة بالدُّحل.

لعبا. اكتشف أن نورا تجيد اللعب بها، لكنها لم تهزمه. «تحتاجين إلى مزيد من التدريب. لقد تعلمت اللعب بها بصعوبة في «حوش الرحمة»، وخُدشت يداي حتى تورّمتا»، قال لها سلمان عندما أعجبت بمهارته في اللعب.

عندما جلس خلفها وأمسك بيدها اليمنى ليريها كيف تمسك الدُّحل، انبعثت من جسدها موجة دفء، وبدأ قلبها يخفق بسرعة شوقاً إليه، لكنها ركّزت على تعلّم اللعبة.

أصبحا عاريين.

«إذا جاء زوجك الآن ورآنا هكذا سيُلقي بي في الجحيم في خمس دقائق»، قال لها وهي تلتقط الدُّحل.

«لن يفعل ذلك. فهو لا يريد أن يوسّخ يديه ويحفظهما للخطّ. لا، كلّ ما سيفعله أنه سيطلقني بالثلاث، ويتخلص مني. لا مثلكم، أنتم المسيحيين، فالحبل الذي يقيّد كلّ مسلمة هو لسان زوجها، وسيكون بحاجة إلى شاهد، وبوجودك هنا، سيكون عنده الجاني والشاهد معاً»، قالت ودفعت سلمان إلى الأريكة وربّتت على مؤخرته.

فأجابها، «لا، لن أكون شاهداً. هل نسيتِ أنني مسيحي»، وقبّلها على كتفها.

بادلته القبلة وقالت: «لا لم أنس، لكن عليك الآن أن تنسى زوجي»، قبّلها سلمان ونسي كلّ شيء.

27

عندما لم يتوقف المطر، اكتست وجوه الدمشقيين الذين كانوا يبتسمون بسعادة في البداية لأن الأمطار في هذه المنطقة التي ظلت لفترة منكوبة بالجفاف تعد بمحاصيل أفضل، تجهماً لأن الأمطار ظلت تهطل بقوة فوق البيوت المشيّدة من الطوب الطيني. وبعد خمسة أيام، غمرت المياه المدينة القديمة كلها، وتحوّل نهر بردى الذي يصبح في الصيف عادة جدولاً صغيراً يلعب فيه الأطفال وهم حفاة، إلى سيل جارف، وغمرت ضفتي النهر قبل أن يصل إلى مدينة دمشق فدمّر البساتين وجرف عدداً من الأكواخ، وغمرت المياه الكثير من المطاعم والمقاهي الجميلة على ضفة النهر حتى وصلت إلى الطابق الأول. وأصبحت المدينة بحيرة واسعة، بدءاً من جسر فيكتوريا حتى ساحة الشهداء. وكان سوق الخطاطين في حيّ البحصة من أكثر المناطق التي لحقت بها أضرار. وبما أن مياه الفيضان وصلت بين عشية وضحاها، ولم يكن أحد يتوقع حدوث ذلك، لحقت بالخطاطين خسائر جسيمة.

كان حميد سعيداً لأن محترفه - في حيّ سوق ساروجة الذي يقع في أرض مرتفعة قليلاً - لم يلحق به أي ضرر، فكُلّف مع بضعة خطاطين آخرين الذين لم تصل مياه الفيضان إليهم بالأعمال التي لم يتمكن زملاؤهم من تنفيذها.

بعد سبعة أيام، توقف المطر وأشرقت الشمس في سماء زرقاء صافية مضيئة أبهرت أنظار الدمشقيين.

عندما قاد سلمان دراجته في المدينة القديمة بعد الساعة الحادية عشرة بقليل، كان البخار لا يزال يتصاعد من أسطح البيوت تحت أشعة الشمس اللاهبة كما يتصاعد البخار من أرغفة خبز خرجت لتوّها من الفرن.

كان يدور حول برك المياه الموحلة التي تصل حتى الركبة، وينظر بإعجاب إلى الأطفال الذين يلعبون بصخب وبهجة كما لو كانوا يلعبون على شاطئ البحر. كانت نورا قد أعدّت طبقاً من الفاصوليا الخضراء مع اللحم والبندورة. كان لذيذ الطعم، لكن لم يحظ سلمان بوقت كاف، فتناول صحنه بسرعة، وقال لها: «أنا آسف، يجب أن أذهب بسرعة لأن الفيضان سدّ معظم الطرقات»، ليبرر تناوله طعامه بسرعة.

«يا لك من شخص بخيل. كنت أريد أن ألتهمك بعد أن تنتهي كما ألتهم قطعة حلوى»، قالت له وهي تعض شحمة أذنه برقّة.

فأجابها سلمان، «يمكنك أن تبدئي دائماً من أذنيّ لأن فيهما مساحة واسعة».

عندما ودّعها، نظرت إلى الشارع من وراء الحاجز الشبك الذي يغطي النافذة، ورأته يقود دراجته بين المارّة ويرسم ابتسامة على وجوههم. بدا لها كما لو أن لدى سلمان فرشاة رسم سحرية يدغدغ بها قلوب البشر.

لم تعرف نورا أحداً آخر يمكنه أن ينشر كلّ هذه السعادة والبهجة، ولامت نفسها لأنها لم تر ذلك من قبل.

«انتبه لنفسك، أرجو لك كل خير»، همست بحنان لم تشعر به طوال حياتها الماضية.

شرح له محمود كيف يضفي على الورق منظر الرخام. لو كان الشخص الذي يعلّم سلمان أحد المساعدين الآخرين في الورشة لكان الأمر أكثر متعة، لكن محمود لم يتوقف عن قرص ذراعه وضربه على رأسه - من دون داع - ولم يعرف كيف يشرح له الأمر جيداً.

شرح له راضي ألغاز الورق الرخامي خلال الاستراحة عند الظهيرة. كان المحترف يستهلك كميات كبيرة من الورق الرخامي في تصميم الكتب وإطارات لوحات الخط.

في منتصف كانون الأول جاءت سارة في زيارة إلى دمشق. كانت حاملاً وبدت أجمل بكثير من قبل. كانت السعادة تشع في عينيها.

كان يوماً مشمساً، لكن برك الماء التي تكونت من الأمطار الأخيرة لا تزال منتشرة في كل مكان في «حوش الرحمة». وقف رجل عجوز أمام البوابة ونظر إلى الفناء وراح ينادي: «حوايج قديمة، كنادر قديمة، حديد قديم؟» ومن نبرة صوته بدا أنه لم يكن يتوقع الكثير من أهالي هذه المنطقة. سمع صوت امرأة تناديه وطفلها ذو الأربع سنوات يبكي، وقالت له: «هل تشتري هذا الشيطان الصغير؟» فتسمّر الصبي في مكانه، ونظر بقلق إلى الرجل ذي الثياب الوسخة الذي يحمل على كتفه كيساً كبيراً، وركض إلى داخل البيت بسرعة البرق.

فأجابها الرجل وهو يلوح بيده رافضاً، «عندي الكثير من هؤلاء. تسعة، كلّ واحد منهم آلة تلتهم كل ما تراه».

رأى سلمان سارة جالسة عند مدخل بيت والديها، تستمتع بدفء الشمس.

أحضر كرسياً وجلس بجانبها، وشعر أنه قريب منها كما كان يشعر في تلك الأيام الماضية، وتحدثا بصراحة عن حياتها مع زوجها، وعن مرض أمّ سلمان، وما جرى لبعض أهالي «حوش الرحمة». لاحظت سارة أن سميرة شاخت بضع سنوات بعد أن توفي ابنها عدنان في الحادث المأسوي، وأصبحت متدينة جداً، فلم تعد تقابل رجالاً، واعتبرت أن وفاة ابنها عقاب لها.

بدا أن سارة التي تعيش في مدينة حمص تعرف أشياء عن جيران سلمان أكثر مما يعرف هو بكثير، فحكت له ما حدث لسعيد، ذلك الصبي الوسيم الذي رآه سليمان يكبر حتى أصبح رجلاً بديناً، ضخم الجثة، وأصبح يمشي كما تمشي المرأة. وبدأت تشاع عنه شائعات وأقاويل منذ فترة من الزمن.

«سعيد قحبة ذكر»، قالت سارة، «في البداية استغل بعض الزبائن في حمّام السوق ذلك الصبي الوسيم وكانوا يعطونه بقشيشاً سخياً، ثم أغواه أحدهم، وابتزّه آخر»، وأضافت بنبرة حزينة، «ولم يكن الرجل الثالث يحتاج إلى أن يبتزّه على الإطلاق». كانت تحبّ سعيد الوسيم، عندما كانت فتاة صغيرة.

«يا له من شيء مؤسف»، همس سلمان الذي تذكّر بعض روّاد المقهى الذين كانوا يعطونه إكرامية ويلمسونه. كانوا رجالاً وحيدين، أغنياء وفقراء، وحاول سلمان أن يقول لهم دون أن يسيء إليهم إنه ليس من النوع الذي يظنون.

«حسناً؟» قاطعت أفكاره فجأة، «ألم تعشق حتى الآن، أم أنك لا تزال مثل راهب؟»

ابتسم سلمان، وقال: «حتى الرهبان لا يستطيعون مقاومة الحبّ. لقد قرأت ذلك منذ فترة قصيرة»، وأضاف، «اسمها نورا، يمكنها أن تحرم أي راهب من أداء صلاته».

«أوه، لماذا تتكلم هكذا - أم أنك لا تزال في المرحلة الأولى من الحبّ، وقد أعمتك هرموناتك؟» أجابت سارة المتأهبة دائماً للرد.

هز سلمان رأسه وقال: «إني لا أبالغ. هل رأيتِ الممثلة أودري هيبورن في السينما؟»

«طبعاً. شاهدت فيلم *عطلة رومانية* وفيلم *سابرينا*، كل فيلم منهما مرتين، لكن ماذا عنها؟»

«يمكن أن تكون نورا أختها التوأم».

«صحيح؟ أم أنك تسخر مني؟»

فأجابها، «لا، حقاً»، ولم يقل شيئاً آخر للحظة. تذكّر ما قاله كرم، ثم قال: «لكن الأهم من جمالها هو أنني أحبّها، وسأحبّها، حتى لو كانت عوراء وعرجاء. إنها تعيش هنا» ونقر على صدره، وأضاف: «إنها رائعة مثلك تقريباً».

«وأنت أعظم فاتن على الإطلاق - كيف يمكن لأحد ألّا يعجب بك؟»

فقال سلمان: «أوه، يمكنني أن أذكر لك بعض نماذج البشر الذين لم يُعجبوا بي. هناك كثير منهم في المقهى وفي المحترف أيضاً».

«وماذا تفعل جميلتك هذه؟» سألته سارة عندما دخل سعيد إلى الفناء الذي حيّاهم متبرماً وذهب إلى شقته مباشرة حيث يعيش وحيداً منذ ماتت الأرملة التي تبنّته.

«إنها خيّاطة جيدة، لكن زوجها خطاط غني، ولا يسمح لها أن تمارس مهنتها»، قال سلمان الذي لم يتمكن من كبت ابتسامته، لأنه خمّن ما ستقوله له سارة.

«سلمان، سلمان، ما الذي تفعله بحق السماء؟ هل هي زوجة معلّمك أم زوجة أحد أعدائه؟»

«إنها زوجته، وإذا كان عليّ أن أحبّ زوجات أعدائه، فإني سأحتاج إلى حرملك لأضعهن فيه. لديه أعداء كثيرون».

«كم تغيّرت يا بني العزيز. بدأت تتكلم كما يتكلّم الصحفيون»، قالت بإعجاب.

«لم أغيّر نفسي، وإنما الحبّ غيّرني، ولا يهمني إن كانت مسلمة».

«لا، إن ما يقلقني هو أنني لا أريد أن أراك ممدداً في المجاري وثقب في رأسك ذات يوم. ستكون حماقة مني أن أقول لك أن تبعد أصابعك عن هذه المرأة، لأن أصابعك لا تستطيع أن تفعل ذلك. لكن كن حذراً. سأصلّي لمريم العذراء كل ليلة قبل أن أُغمض عينيَّ لكي تحميك»، قالت وهي تمسّد رأسه، ثم نهضت واقفة لتذهب مع أمّها التي تنتظرها لزيارة خالتها المريضة.

«كما ساعدتك مريم العذراء باستعادة كل صرصور بعد تحليقه في السماء دون أن يفقد رجله»، همس سلمان، لكن سارة لم تسمعه.

يوم الأربعاء، كان على سلمان أن يأخذ آخر وجبة غداء لحميد في ذلك الأسبوع لأنه سيسافر يوم الخميس إلى حلب وسيمكث فيها ثلاثة أيام. قال سلمان لنورا يمكنهما أن يلتقيا في بيت كرم الذي يعمل وحده في المقهى يوم الجمعة.

«يمكننا أن نمضي اليوم كلّه معاً من دون أن يزعجنا أحد»، قالت ممتلئة بالأمل.

سألته عن عنوان بيت كرم، وكتب لها أسماء خطوط الحافلات

والترام التي يجب أن تأخذها. قبّلته وبينما كانت تودّعه، سألته، «هل أُحضر شيئاً نأكله؟» فقال لا. يوجد طعام كثير في بيت كرم.

«أحضري لي نفسك فقط، لأنني جائع جداً لأكلك»، قال وهو يقبّلها. فضحكت. لو سأله أحد ما أجمل شيء في العالم، لقال على الفور ضحكة نورا.

أعطته مطبقية الطعام، وحقيبة فيها قميص مكوي وجوارب نظيفة لحميد الذي كان لديه موعد هام مع شخصية بارزة في ذلك المساء، ولا يوجد عنده متسع من الوقت ليعود إلى البيت ويغيّر ثيابه.

«خطر لي شيء آخر»، قال سلمان وهو يهمّ بالذهاب.

ضحكت نورا لأنها أصبحت تعرف حيله الآن.

«نعم، إلى الأبد منذ قبّل أحدنا الآخر»، قالت تقلّد صوته.

«لا عن جد. هل تعرفين شيئاً عن فن الخط؟» سألها.

«قليلاً فقط. لكن لدى حميد مكتبة ممتازة. هل يمكنني أن أبحث عن أي شيء من أجلك؟»

«من هو ابن مقلة؟ جميع الخطاطين يبجّلونه كثيراً وزوجك يتحدّث عنه كأنه قديس، وإلى أي جميعة ينتمي زوجك؟ لكن يجب ألّا تسأليه لأنها جمعية سرية. سمعته يتكلّم على الهاتف».

«لا أعرف أي شيء عن جمعية سرية. حميد وجمعية سرية؟ هذا شيء غير محتمل، لكنّي سأحاول أن أبحث عن ذلك أيضاً، وعندي شيء آخر أريد أن أحدّثك عنه عندما نلتقي يوم الجمعة»، قالت له نورا وطبعت قبلة طويلة على شفتيه، «لماذا طعم شفتيك لذيذ دائماً؟»

«يعلّمني صمد حالياً فن الانعكاس في الخطّ، وعندما قبّلتك أول مرة، انعكس عطرك على فمي». قال لها بثقة، ثم غادر. كان صبي يلعب على الدراجة، لكنه عندما رأى سلمان قادماً، قفز منها وجرى مبتعداً.

28

لم تغادر نورا البيت في مثل هذا الوقت المبكّر من الصباح منذ كانت في المدرسة كما فعلت يوم الجمعة ذاك. ترددت كثيراً وتساءلت إن كان عليها أن ترتدي حجاباً للحذر، لكنها قررت أخيراً ألّا ترتديه.

هبّت ريح قوية وأثارت الغبار وقصاصات الأوراق وأوراق الأشجار على طول الطريق أمامها، وطارت الحمامات والعصافير في الشوارع على ارتفاع منخفض. تساءلت، هل هي عصفور أم حمامة؟ ولم تعرف لماذا لم تشأ أن تكون لا هذا ولا تلك. في إحدى المرات، قالت إحدى جاراتها إنه يُخيَّل إليها أن نورا تشبه نبتة صبّار أكثر من أي شيء آخر في مملكة الحيوانات. «أنا وردة أريحا»، همست نورا لنفسها. لأن الريح تشق طريقها في الصحراء وتدفع وردة أريحا معها لسنوات، ثم يخيّل إليها أنها أصبحت عبدتها المطيعة. لكن مع أول قطرة مطر تتذكّر الوردة أنها كانت ذات يوم واحة صغيرة خضراء وتضرب جذورها ضاحكة على الريح الغاضبة. وعلى زوجها أن يحرص من الآن وصاعداً. لقد ذاقت الآن أول قطرة ماء.

في تمام الساعة السادسة والنصف، استقلّت الحافلة من الموقف أمام الشارع الذي تقيم فيه. كان وجه دمشق بريئاً في تلك الساعة الأولى من الصباح. حتى الدمشقيون الذين استيقظوا باكراً، كان

النعاس لا يزال يداعب أجفانهم ويبدون مسالمين كأنهم أطفال صغار. رأت تامر المتسوّل الذي لم تره منذ فترة طويلة. قيل إنه اختفى فجأة، لكن ها هو يقف أمامها حيّاً يرزق وافر الصحة، نظيفاً، ممشّط الشعر. كان وجهه لا يزال مبللاً، وقطرات الماء تتساقط من شعره. دأب تامر على العزف على الناي أمام محطة سكة حديد الحجاز. عزفه شجي، فقد كان أحد أعضاء الفرقة الموسيقية في الإذاعة السورية، إلى أن ألقى به شيء سيء ما وجعله يعيش في الشارع.

إذا أغمض المرء عينيه وهو يستمع إلى تامر وهو يعزف، فإنه يسمع صوت الريح وهي تغني في الصحراء. في صباح هذا اليوم، وصلها صوت نايه الحزين عبر ضوضاء منبعثة من حافلة مليئة بتلاميذ المدارس.

تذكّرت مفكّرتها فجأة. من المؤكد أنها كانت ستكتب عن تامر المتسوّل لو لم تحرق الدفتر الأسبوع الماضي. فمنذ قبّلها سلمان لأول مرة، بدأت تكتب في مفكّرتها بين الحين والآخر، وإذا كتبت شيئاً، فإنها لا تذكر أي شيء عن سلمان بوضوح وبشكل مباشر. يجب ألّا يعرف أحد شيئاً عن سرّ حبّها لسلمان، ولم تعد تهتم بتسجيل شيء عن زوجها، وإنما بدأت تكتب عن اضطراباتها العاطفية فقط. فقد كتبت المرة تلو الأخرى أنها قررت أن تتوقف عن رؤية سلمان، لكن ما إن تصبح الساعة الحادية عشرة، حتى تجد نفسها تأمل بأن يأتي اليوم في وقت أبكر من الوقت المعتاد. ثمة قوة حيوانية تجذب قلبها إليه. لم تشعر برغبة شديدة في حماية سلمان كأنه طفل ضعيف فحسب، بل إن رائحته وطعم فمه ونظرة عينيه تجعلها تشتاق إليه جسدياً كما لم تشعر من قبل، حتى أنها لم تسمع أو تقرأ عن ذلك قط. فكتمت هذا السرّ لنفسها. حتى أنه لا توجد

حاجة إلى أن يعرف أنه نقلها إلى فردوس اللذة وظلت غارقة في النشوة لفترة طويلة أكثر من مرة، منذ أول قبلة قبّلها إياها عندما التقيا. ثم تقسم مرة أخرى أنها يجب أن تضع حداً لحبّهما. فقد حذّرها عقلها من أن علاقة بين امرأة مسلمة متزوجة وشاب مسيحي ستكون نهايتها وخيمة. وإلى أين سيقودهما هذا الحب؟ كان هذا السؤال يخطر في بال نورا، ولكنها لم تفهمه مثلها مثل فتاة صغيرة تسأل كم الساعة في وسط رقصة فولكلورية صاخبة وضرب طبول.

في معظم الأحيان، كانت تحضّر حديثاً عقلانياً ستقوله له تُبرز فيه بهدوء وبموضوعية كلّ الأسباب التي تجعلهما يقاومان تلك الشهوة الحيوانية التي تعتريهما، لكن ما إن يطرق الباب، حتى تغيّر رأيها، وتقرر أنها ستقول له ذلك عندما يكونان مستلقيين جنباً إلى جنب على السرير، يرتاحان قليلاً، وتقول لنفسها إنه الوقت المناسب لتقول له ذلك، لكن ما إن يحدث ذلك، حتى تنسى ما الذي كانت تريد أن تقوله له: «إني أتناسى ذلك عمداً»، كتبت في مفكّرتها. لكن عندما شعرت أن هذه المفكّرة تزيدها عذاباً مثل مرآة عديمة الشفقة على الوعود التي قطعتها على نفسها ولم تنفّذها، وأدركت أنه مع أنها لم تذكر سلمان بالاسم، فإن أي شخص سيعرف أنه هو بعد أن يقرأ سطرين اثنين فقط، فقررت أن من الحماقة أن تعرّضه لخطر أن يُقتل، فأحرقت الدفتر في وعاء نحاسي ونثرت الرماد حول شجيرة ورد.

عندما صعدت إلى الباص، ابتسمت لقراراتها الطفولية بأن تتوقف عن رؤية سلمان. وصلت بعد حوالي ساعة، وضغطت على مقبض بوابة الحديقة كما طلب منها سلمان، وسارت بسرعة إلى المنزل. عندما فُتح باب المنزل فجأة، ارتعبت، لكن سلمان ابتسم لها وشدّها إلى داخل المنزل. تعثّرت بين ذراعيه وكادت تقع، لكن قبل أن تستعيد أنفاسها، غرقت في قبلة عميقة.

«الفطور جاهز يا سيدتي»، قال لها وهو يأخذ معطفها ويضعه على الكرسي في غرفته.

أبدت دهشتها عندما رأت الفطور جاهزاً ينتظرها في المطبخ: مربى وجبن، وزيتون، وخبز طازج، وشاي. أشياء بسيطة جداً، لكن هذه أول مرة في حياتها يعدّ لها رجل طعام الإفطار.

عندما رأى مشاعر نورا، أحسّ سلمان بالحرج. هناك أشياء كثيرة يريد أن يقولها لها، لكن كل ما استطاع أن يقوله لها كانت أسخف كلمة ممكنة: «لنأكل الآن!». بعد سنوات، ظل منزعجاً من نفسه، لأنه بدلاً من أن يستقبلها بقصيدة حبّ كان قد حضّرها، كان كلّ ما قاله تلك الكلمة السخيفة «لنأكل الآن!».

لم يعرف سلمان كم مرة مارسا الحبّ فيها صباح ذلك اليوم. أخيراً، قبّل نورا مرة أخرى، وقال: «لو سُئلت ذات يوم إن كنت أؤمن بالجنة، فإني سأقول إنني لا أؤمن بها فقط، وإنما هي موجودة بالفعل وقد زرتها معكِ». كان يداعب وجهها وتقبّل هي أطراف أصابعه. عندما غادرت السرير ووضعت ساعة يدها، صفّرت بصمت عبر أسنانها. وقالت لنفسها «أربع ساعات من الحبّ، مدام نورا، مبروك عليك إقامتك الطويلة في جنة الحواسّ».

«لا أظن أنك ستذهبين الآن؟» سألها سلمان بشيء من القلق.

فقالت: «لا، لن أذهب، أريد أن أرتدي ثيابي قبل أن أقرأ لك شيئاً حزيناً جداً»، وأضافت، «لا أستطيع أن أقرأ مثل هذه الأشياء وأنا مستلقية، عارية أو في قميص النوم. لقد تعلّمت ذلك من أبي الذي كان يرتدي ثياباً لائقة عندما يقرأ شيئاً كما لو أنه سيلتقي بمؤلف الكتاب أو بطل القصة. وعندما أنتهي من قراءتها، سأعود إلى السرير ونمارس الحب مثل زوجين من القردة».

قفز سلمان واقفاً، وقال: «إذاً سأرتدي ملابس مناسبة أيضاً. وبما أنني المضيف، ليس من اللائق أن تجلس الضيفة هناك وتقرأ وهي في ثوب أنيق بينما يجلس مضيفها عارياً».

ارتدى ثيابه بسرعة ورتّب سريره وجلس أمامها. قالت: «حسناً، لم أستطع أن أعرف شيئاً عن الجمعية السرية. لا بدّ أنك أسأت الفهم، أو ربما اختلط عليك الأمر. فلا يعرف أبي شيئاً عنها أيضاً. قلت له إنني قرأت مقالاً في الصحيفة عن جمعية سرية للخطاطين، فقال لي ألّا آخذ ما يكتبه الصحفيون على محمل الجد، لأن كتابة الأخبار يومياً، عمل شاق، والصحيفة التي لا تبالغ في نشر الأخبار، ستفشل وسرعان ما تغلق، لكنّي وجدت شيئاً عن ابن مقلة. إنها قصة حزينة جداً كتبها زوجي ذات يوم ونشرها في إحدى المجلات. نسختها من أجلك، كلّ ما فعلته هو أنني حوّلت التقويم الهجري إلى تقويم ميلادي. هل تريد أن تقرأ القصة بنفسك، أم تريد أن أقرأها بصوت عالٍ؟»

فقال سلمان: «اقرئيها بصوت عالٍ من فضلك».

بدأت نورا تقرأ: «ولد ابن مقلة سنة ٨٨٥ أو ٨٨٦ في بغداد. لا يعرف أحد أيهما التاريخ الصحيح لأنه ولد في أسرة مدقعة الفقر. وتوفي في تموز سنة ٩٤٠، وهذا التاريخ معروف بدقة لأنه مات في السجن، وكانت سمعته قد ملأت أرجاء العالم العربي والإسلامي. ويدعو اسمه للفضول، «مقلة»، وهي كلمة شاعرية مرادفة «للعين»، وهو اسم أمّه الذي أطلقه عليها أبوها عند ولادتها لحبّه الشديد لها. تزوجت مقلة خطاطاً فقيراً، ولم تحمل أسرته اسم زوجها أو عشيرته، وإنما حملت اسمها هي، وهذا أمر نادر في شبه الجزيرة

العربية في ذلك الوقت، وحتى الآن. كان جميع أبناء مقلة وأحفاده خطاطين، لكنّ أبا علي محمد بن مقلة كان أشهرهم جميعاً.

ابن مقلة أعظم خطاط عربي طوال العصور، مهندس الخطّ العربي. فلم يطوّر عدة أساليب ويحسّنها فحسب، وإنما كان كذلك أول من وضع مقاييس الحروف وأبعادها، وضبطها وجعلها متناغمة ومتناسقة. ولا تزال قواعد نظام هندسته النسبية للخط معمولاً بها حتى الآن، وبتطبيقها يستطيع أي خطاط أن يتحقق بسهولة إن كان خطه صحيح أم لا.

إن الحرف العربي «ألف» خط عمودي اختاره ابن مقلة ليكون مقياساً لجميع الحروف المكتوبة. ومنذ ذلك الحين، بدأ جميع الخطاطين يحدّدون طول حرف الألف في النص الذي يكتبونه، كمقياس لطول الحروف الأخرى بواسطة نقاط متتابعة ومرسومة بشكل عامودي، ويعتمد حجم النقطة بحسب الريشة المستخدمة وذلك بضغط الريشة على الورقة. وتُضبط جميع الحروف الأخرى، سواء أكانت أفقية أم عمودية بالأبعاد التي حددها ابن مقلة بعدد معيّن من النقاط. وتكوّر كذلك بعض الحروف بتتبع دائرة يتوافق قطرها مع طول حرف الألف. ويشبه الالتزام بهذه المقاييس والنسب بالالتزام بالإيقاع في مقطوعة موسيقية. فعند الالتزام بها فقط يبدو الخط متناسقاً حتى يصبح بمثابة موسيقى للعين. وبعد سنوات من الممارسة والتدريب، يعرف كلّ خطاط هذه القواعد تلقائياً، لكن النقاط تُظهر دائماً إن كانت المقاييس صحيحة أم لا.

كان ابن مقلة موهوباً في الرياضيات وضليعاً في مجال الخطّ، وكان عالم طبيعة أيضاً، واطّلع على ما كتبه علماء الدين والملحدون على حد سواء، مثل ابن الراوندي وابن المقفع والرازي والفارابي. لكنه كان شديد الإعجاب بالعالم الموسوعي الجاحظ. لكنه بخلاف

الجاحظ الذي رفض مرافقة الحكام حتى أفضلهم وهو المأمون ولم يحتمل الجاحظ البقاء في بلاط الخليفة، راعي العلوم والآداب، ابن هارون الرشيد المعروف، أكثر من ثلاثة أيام ، كان ابن مقلة يتقرب كثيراً من حكّام عصره، وهذا ما سيجلب له المصائب.

تبوأ ابن مقلة منصب الوزير الأول - الذي يعادل منصب رئيس الوزراء في عصرنا الحالي - في بلاط ثلاثة خلفاء على التوالي. لكن التقرب من هؤلاء الخلفاء جرّ عليه هلاكه في نهاية الأمر.

أدرك ابن مقلة أن الخط العربي ليس هبة إلهية كما يدعي أصحاب اللحى الطويلة والعقول الفارغة، وإنما ابتدعته اليد البشرية. كان مأخوذاً بجمال الحرف العربي، لكنه أدرك أيضاً نقاط ضعفه. فبدأ في وقت مبكر جداً ابتكار طرائق لإدخال إصلاحات حذرة على حروف الأبجدية، نبع اللغة. جرّب كثيراً، ودوّن ملاحظاته، وانتظر اللحظة المناسبة. كانت مدينة بغداد في ذلك الوقت عاصمة إمبراطورية عالمية، ومركز قوة الإسلام الدينية والدنيوية.

عانى الكثير من الخطاطين والمترجمين في عصر ابن مقلة من نقص بعض الحروف العربية التي تمكّنهم من التعبير عن ألفاظ وأسماء بعينها باللغة العربية تزخر بها بلدان ولغات أخرى. فشجع ذلك ابن مقلة على أنه قرر أن يقطع شوطاً أبعد من ذلك. وقد ساعدته دراسته لعلوم الطبيعة على التوصل إلى الفكرة الحاسمة. بالطبع، كان يعرف أن المتعصبين الدينيين يعتبرون الحروف العربية مقدسة لأنها الحروف التي كُتب بها القرآن، لكنه كان يعلم أيضاً أن إصلاحات عديدة أُدخلت على اللغة العربية.

فقد أُدخلت أكثر تلك الإصلاحات أهمية، في بغداد أيضاً، قبل زهاء مئة سنة من ولادة ابن مقلة. حتى ذلك الإصلاح، لم تكن توجد نقاط في اللغة العربية فوق الحروف أو تحتها، وكان تشابه بعض

الحروف يؤدي إلى صعوبة وسوء فهم وسوء تفسير بعض الكلمات أثناء قراءتها، حتى عندما يقرأ رجال الدين نصوص دينية بصوت مسموع. وأُجريت إصلاحات عديدة طفيفة من أجل تحسين الخط العربي، لكن الإصلاح الجذري وجد النور قبل اثني عشر قرناً.

أُضيف لخمسة عشر حرفاً، أي أكثر من نصف حروف الأبجدية العربية، نقاط فوق أو تحت الحرف المضافة إليه. فأصبح بالإمكان إزالة اللبس الذي قد يحدث أثناء القراءة. في ذلك الوقت، أسكت الخليفة عبد الملك بن مروان والحجاج، الحاكم الدموي في إقليمه الشرقي، جميع الأصوات المحافظة التي انتقدت كل إصلاح. وقد أعاد الخليفة كتابة القرآن بالخط المعدّل، فأصبح بإمكان أي شخص أن يقرأ القرآن من دون أي خطأ.

لم تكتسب النصوص الدينية وضوحاً فحسب، وإنما أصبحت لغة الشعر والعلم والحياة اليومية العربية أكثر وضوحاً ودقة، لكن لولا يد الخليفة القوية، لما كان بالإمكان اتخاذ خطوة كهذه.

عرف ابن مقلة ذلك، فشعر بالحاجة إلى دعم خليفة مستنير ذي بصيرة ثاقبة تساعده على فهم الحاجة إلى عملية إصلاح ثانية ملحة. وقد يكون ذلك الدافع الرئيسي لتقرّبه من السلطة وتودّده للخلفاء.

كان ابن مقلة يحبّ الخطّ العربي كما يحبّ ابنه، فبذل كلّ ما بوسعه لخدمته، لكنه خسر كل شيء في نهاية الأمر.

هل أراد أن يصل بتقرّبه للخلفاء إلى السلطة كما زعم أعداؤه الذين أشاعوا أن لديه مخططات يتآمر فيها على الخليفة، وملأوا صفحات كثيرة بهذه الأفكار الكاذبة؟

لا، فقد كان ابن مقلة قد حقق أشياء كثيرة قبل أن يقود الحركة الجذرية لإصلاح الخط الذي جرّ عليه الويلات وأدى إلى دماره.

كان آخر الخلفاء العباسيين الراضي باللّه تلميذ ابن مقلة عندما

كان طفلاً، لقّنه الفلسفة والرياضيات وعلّمه اللغات. وكان ابن مقلة بالنسبة للخليفة الراضي كما كان أرسطو بالنسبة للإسكندر الكبير، لكن الخليفة الراضي باللّه كان يفتقر إلى روح ذلك المحارب المقدوني العظيم الذي فتح العالم.

عندما كان ابن مقلة لا يزال يتربع على قمة سلطته، شيّد لنفسه قصراً في بغداد أحاطت به الأساطير. فقد قيل إنه حفر على أكبر حجرة من أحجار السور الكبيرة عبارة: «*ما أصنعه سيبقى إلى الأبد*». وأحاطت بالقصر حديقة ضخمة حوّلها ابن مقلة الذي كان يحبّ مملكة الحيوانات إلى حديقة حيوانات فريدة من نوعها تطوف فيها جميع الحيوانات بحرية تامة في حظائر منفصلة. ولكي يمنح الطيور إحساساً بالحرية، بنى لها في سماء الحديقة شبكة من الحرير ووظف لهذه الحديقة عدداً كبيراً من الحراس والأطباء البيطريين، وكان عالم فارسي يدعى محمد نور الدين يشرف على رعاية تلك الحيوانات.

أراد ابن مقلة أن يفهم قصة الخلق من خلال دراسة مملكة الحيوان، وبدأ فريقه يجري تجارب على التهجين، أثارت اهتمام الكثيرين لكنها أثارت أيضاً معارضة وأحقاداً في قصر الخليفة. كانت هذه المناقشات والتجارب بعيدة عن معرفة الناس العاديين وظلت حبيسة خلف جدران القصر السميكة.

صحيح أن العاملين مع ابن مقلة حققوا نجاحاً طفيفاً في تهجين الطيور والكلاب والقطط والأغنام والماعز والحمير والخيول، إلّا أن الكثير من تلك التجارب باءت بالفشل وأدت إلى ولادة مخلوقات مشوهة.

شجع التقدّم الذي حققه ابن مقلة في العلوم الطبيعية على أن يأخذ خطوة أخرى، الخطوة التي لو نجحت لجعلته مشهوراً على صعيد العالم. كان الخليفة العباسي الراضي باللّه يميل إليه وظن ابن

مقلة أن الخليفة سيقف إلى جانبه في محاولاته الرامية إلى إصلاح الخط العربي. كان الخليفة حينذاك في الرابعة والعشرين من عمره، وكان منفتحاً على العالم ينظم الشعر ويحب الخمر والنساء، وكان قد طرد رجال الدين المتشددين من عاصمته بغداد، وأحاط نفسه برجال دين معتدلين، لكنه، شأن جميع الخلفاء اللاحقين، بدأت سلطته تذوي ولم يعد له نفوذ قوي حتى في بلاطه، وعجّ قصره بالخدم والعبيد والحريم وأمراء الجيش الذين يحيكون المؤامرات والدسائس، ويبعدون الإصلاحيين عن الخليفة.

جرّت شهرة ابن مقلة وعلمه وثروته عليه الكثير من الحسد والعداء. كان آنذاك في أوائل الأربعينات من عمره، وأدرك حينها أن الخلافة في انحطاط وتدهور، فخشي ألّا يتمكن من تنفيذ خططه الثورية. فبغداد تمور بالاضطرابات والمؤامرات. وكان ابن مقلة معتداً بنفسه كثيراً، حاد الطبع، عنيفاً في حبّه وفي كراهيته يعامل موظفي البلاط بفظاظة، لذلك لم يكن محبوباً لدى المقربين من الخليفة.

وعلى الرغم من جميع المؤامرات التي حيكت ضده، أصبح ابن مقلة وزيراً للخليفة الشاب الراضي، وكان شديد الثقة بعبقريته، ما جعله شخصاً متعجرفاً.

وقد نصحه بعض أصدقائه المخلصين الذين بدأوا يقلقون عليه بأن يبتعد عن القصر ويتمتع بشهرته كخطاط كبير، لكن ابن مقلة كان مصرّاً على تنفيذ خططه الطموحة لإصلاح الأبجدية العربية التي يتطلب تنفيذها دعم الخليفة لمواجهة السلطة الدينية، لكنه أخطأ في تقديره للخليفة، ودفع ثمن ذلك غالياً.

كان ابن مقلة قد درس اللغات الفارسية والعربية والآرامية والتركية واليونانية، واطّلع على تطور الخط العربي منذ بداياته حتى

عصره. وقد مكّنته الدراسات الدقيقة التي أجراها من ابتكار أبجدية عربية جديدة، تتضمن خمسة وعشرين حرفاً فقط، يمكن من خلالها نطق حروف وأصوات كل اللغات المعروفة حينذاك. وهدف إلى إزالة بعض الحروف «الميتة»، وإدخال حروف جديدة. وإذا وُوجِهَت أفكاره بمقاومة كبيرة، فقد خطط الإبقاء على حروف الأبجدية القديمة وإضافة أربعة حروف جديدة هي p و o و w و e، التي يمكن بها أن يعاد إنتاج الكلمات الفارسية واليابانية والصينية واللاتينية والعديد من اللغات في إفريقيا وآسيا، بشكل أفضل. وذلك ما قام به الإيرانيون بكل ذكاء دون أن يجرؤ أحد من أصحاب اللحى على اتهامهم بأنهم يحاربون الإسلام.

كان يدرك أن مجرد فكرة إجراء تغييرات على الحروف العربية تعتبر خطيئة مميتة في ظلّ حكم جميع الخلفاء الذين كانت توجد في قصورهم أكثر من أربعة آلاف جارية وخصي يقومون على خدمتهم وإمتاعهم، وكان الخلفاء في معظم الأحيان يحبّون الخمر أكثر مما يحبّون الدين، لكن عندما يتعلق الأمر بمسائل الدين، فإنهم لا يتساهلون أبداً. فقد جُلد فلاسفة وشعراء مشهورون أو أُعدموا بوحشية لأنهم اقترحوا أدنى درجات إصلاح هيكل الحكومة أو الدين أو أعربوا عن أدنى نقد للدين.

لم يتردد الخلفاء في اعتبار أنفسهم «ظلّ اللّه على الأرض»، وأن خلافتهم هي التعبير الكامل عن الحكم الإلهي. لذلك، كانوا هم وحاشيتهم عنيدين ومتشددين إذا أراد أحد إدخال أي تغيير مهما كان.

من خلال إصلاحاته الثورية في الخط العربي، أراد ابن مقلة أن يجعل الحروف العربية واضحة لا لبس فيها، ولم يعرف أنه بعمله هذا يدعم الحكام السنّة في صراعهم مع الشيعة. فقد كانت الجماعات الشيعية المتطرفة مثل الطائفة الإسماعيلية تعتبر القرآن

حمّال أوجه ويمكن قراءته على مستويات متعددة يخفي في طياته تأويلات مختلفة. حتى أن بعض الفرق المغالية ادّعت أن ما يفهمه عامة الناس من القرآن ما هو إلّا الظاهر، أي السطح، القشرة، ويخفي تحته لباً أكثر أهمية وتعقيداً في معاني الكلمات، لذلك سميت هذه الفرقة بالباطنية. وهم يعتقدون أن كل كلمة في القرآن تحمل معنى مزدوجاً، لكن أنصار المذهب السنّي رفضوا هذه الفكرة تماماً، وقالوا ليس لكلمات اللّه من تفاسير أخرى غير تلك الواضحة في القرآن.

كان الخليفة في بغداد ومستشاروه وفلاسفة البلاط ورجال الدين كلهم من طائفة السنّة، وكانوا يتسترون في قيادة الحرب ضد الشيعة خلف ادعائهم بأن هذه الحرب هي معركة الخليفة التقي، الحاكم الذي اختاره اللّه للقضاء على المرتدّين والكفار. ولذلك سرّهم أن ابن مقلة وضع نظاماً دقيقاً لأبعاد ومقاييس الحروف المكتوبة وخطوطاً بسيطة وجميلة ومرنة وهي الخط، *النُسخي*، الذي أصبح باستطاعة الناسخين استخدامه لكتابة القرآن بسرعة وبوضوح ومن دون تنميق. وهو الخطّ الأكثر استخداماً في طباعة الكتب حتى يومنا هذا.

أصبحت كلمات القرآن واضحة الآن، وأضحت الخطوط التي ابتكرها ابن مقلة أفضل سلاح في حرب السنّة ضد المعارضة الشيعية. لكن الخليفة ورجال الدين لم يعلموا أن ابن مقلة خطط لإجراء مزيد من الإصلاحات الجذرية على الخط العربي.

أحب الخليفة الراضي ابن مقلة واحترمه، وكان يمتدحه على الملأ، لكن عندما أفضى له ابن مقلة بتفاصيل سرّ أبجديته الجديدة، صُدم الخليفة، وحذّر ابن مقلة من أن أعداءه يقفون له بالمرصاد، لكن ابن مقلة فسّر هذا التحذير بأنه تلميح من شخص سيكون حليفاً له، وبدأ يجمع عدداً من الأشخاص الذي يوافقونه الرأي. وشاركه

بعض رجال الدين والمترجمين المعروفين في آرائه حول ضرورة إجراء إصلاح جذري للغة العربية وحروفها، لكنهم أدركوا أن دعمهم لهذه الفكرة سيشكل خطراً عليهم لأن المحافظين سيعتبرون ذلك اعتداء على القرآن نفسه، فتوقف معظم الإصلاحيين عن دعمه، لكن ابن مقلة لم يعبأ بالخطر الوشيك، لأنه كان واثقاً من تعاطف الخليفة الراضي ودعمه له.

عندما عرف أعداء ابن مقلة مخططاته أخبروا الخليفة وربطوها بالتجارب التي يجريها على تهجين الحيوانات، وقالوا له إن هدف ابن مقلة الوحيد، في رأيهم، أن يسخر من الذات الإلهية وينصب نفسه خالقاً بدلاً منه، وأنه يريد كذلك التطاول على لغة القرآن. فأمر الخليفة الشاب ابن مقلة بأن يتخلّى عن مشروعه هذا.

لكن ابن مقلة، الذي كان متديناً في أعماق قلبه، من دون تعصب، أكّد للخليفة أنه يتمنى الموت على أن يشكك في كلمة واحدة من القرآن، وقال إن تبسيط الحروف العربية وتوسيع نطاقها سيساعد على انتشار اللغة والقرآن أكثر.

افترق الصديقان، وقد اعتقد كلّ منهما بشكل خاطئ وخطير أنه أقنع الآخر.

أراد الخليفة أن يحمي هذا العالم الذي يقدّره كثيراً من الدسائس والمؤامرات، وشعر أنه بدأ يرى الخطر الداهم القاتل الذي يهدده.

أما ابن مقلة، فقد اعتبر أنه محقّ كمصلح، وظنّ أن خطته هي الوسيلة الوحيدة لجعل الخطّ العربي جديراً بإمبراطورية عالمية.

كتب ابن مقلة عدة أطروحات أدرج فيها أوجه القصور في حروف اللغة العربية، وطرح أفكاراً لتحسينها.

في البداية، لم يرفض الخليفة الراضي هذه الأفكار، لكن رجال الدين هددوا بسحب تأييدهم له والبقاء أوفياء للإسلام إذا وافق على

أفكار ابن مقلة. عندها أدرك الخليفة الذي رأى كيف قُتل أبوه على يد الغوغاء وشهد عزل عمه بسبب مؤامرة حيكت في القصر - ونجا هو أيضاً من محاولة اغتيال - ماذا يعني كلّ ذلك.

وأشاع معارضو ابن مقلة بأنه يتآمر للإطاحة بالخليفة، فأصدر الخليفة الغاضب أمراً باعتقاله من دون أن يحقق في الأمر، ولأنه يفتقر إلى الشجاعة لمعاقبة معلمه ووزيره الخطاط العظيم بنفسه، أوكل هذه المهمة إلى أمير في البلاط يثق به، لكنه لم يعرف أن هذا الرجل هو الذي يقود المؤامرة على ابن مقلة. جُلد ابن مقلة، لكنه لم يقل أين أخفى حروف أبجديته الجديدة بعد أن دوّنها. انتقاماً منه، قطع رجل البلاط هذا يد ابن مقلة اليمنى، واستولى على ممتلكاته وأمر بحرق قصره وحديقة الحيوانات فيه. وقيل إن النيران التهمت كل شيء ما عدا الجدار الذي كُتبت عليه كلمة «الزمن».

ما لم تدمّره النار، سرقه الجياع في بغداد. فقد أعلن المتآمرون علناً أن ابن مقلة يتآمر على الخليفة. لكن أحد مؤرخي القصر دحض هذه الكذبة وأخبرنا أنه لم يُعدم كما جرت العادة في حالات كهذه، وإنما عالج جروحه فيما بعد طبيب الخليفة الشخصي، وتناول العشاء في الليلة ذاتها مع الخليفة نفسه.

ظل ابن مقلة طوال عمره يشكو التشويه الذي أصيب به يقول: «*يدي التي خدمت بها ثلاثة من الخلفاء وكتبت بها القرآن مرتين تُقطع كما تُقطع أيدي اللصوص*».

كان في الخمسين من عمره، ولم يرض بالاستسلام للأمر الواقع، فاخترع رباطاً ثبت فيه ريشته في معصمه المقطوع، وتمكّن بهذه الطريقة من أن يكتب من جديد، لكن خطه فقد الكثير من جماله. أسّس ابن مقلة أول مدرسة عظيمة للخط ليهب علمه إلى الآخرين، وشكّل مجموعة من الموهوبين الذين أدركوا أهمية خطة

إصلاحاته وتذكروها ونقلوها في حال حدث له مكروه، لكنه أصيب بخيبة أمل عندما اكتشف أن أصدقاءه قد نأوا بأنفسهم عنه عندما عُوقب، وتملّكه شعور بالمرارة. وأراد أن يغرس المعرفة السرية لخطوطه في قلوب الخطاطين الشباب كي تُحفظ بعد وفاته.

لكنه لم يعرف أنه كان يخطو خطوة أخرى إلى الفخ الذي نصبه له أعداؤه الذين حرَّفوا خططه المتعلقة بمدرسة الخط والذين اعتبروها مؤامرة أخرى للإطاحة بالخليفة.

غضب الخليفة على ابن مقلة لأنه لم يستمع إلى نصائحه، وطلب من قاضيه أن يضعه تحت الإقامة الجبرية في منزل خارج المدينة، وأن يمنعه من أن يفضي بأسراره لأي إنسان، فعاش الخطاط في ذلك البيت على حساب القصر حتى آخر أيامه، لكنه لم يكن يرى أحداً سوى حارسه حتى وفاته.

قطع أحد ألدّ أعداء ابن مقلة لسانه وألقى به في ذلك البيت الذي يقع على أطراف الصحراء حيث عاش في عزلة وبؤس شديدين. لم تجد احتجاجات الشعراء والعلماء نفعاً في ذلك الوقت.

مات ابن مقلة في تموز ٩٤٠ م. وقد ألقى أعظم شعراء عصره كلمات مؤثرة على قبره، فلو كان يتآمر حقاً على الخليفة أو على القرآن كما زعم أعداؤه، لما تجرأ شاعر على الثناء عليه والإشادة به، ناهيك عن إبداء حزنه عليه، لأن أولئك الشعراء والعلماء كانوا يعملون آنذاك في بلاط الخليفة، ويعيشون بنعمته وفضله.

«*إن ما أصنعه سيبقى إلى الأبد*»، أشهر عبارة قالها ابن مقلة، وحتى يومنا هذا فإنه يخبرنا عن رؤية رجل كان يعرف أن قواعد الخط العربي التي أرساها ستبقى طالما بقي الحرف نفسه». أنهت نورا قراءتها. جمعت الأوراق ووضعتها على الطاولة.

خيّم صمت على الغرفة الصغيرة. أراد سلمان أن يقول أشياء كثيرة، لكنه لم يجد أي كلمات.

«لم يكن متآمراً قط»، قالت نورا بصوت هادئ. هزّ سلمان رأسه. في تلك اللحظة، سمعا صرير بوابة الحديقة.

«هناك أحد قادم»، صاحت نورا وارتدت معطفها بسرعة، «اذهب وانظر من هو، ولا تهتم بي. إذا كان كرم، أكون قد ذهبت»، قالت وشحب وجهها، وأومأت برأسها نحو النافذة. فتحتها حتى قبل أن يصل سلمان إلى باب غرفته. وبما أنهما كانا في الطابق الأرضي، لم يكن عليها إلّا أن تقفز من فوق حافة النافذة.

«حسناً، أيها الخطاط الصغير»، قال كرم عند باب البيت، «قلت لنفسي أن ألقي نظرة. لم يأت زبائن كثيرون إلى المقهى اليوم». وضع كيس خبز على طاولة المطبخ، ونظر إلى سلمان، وسأله، «لماذا تبدو شاحباً. هل تخفي عن صديقك كرم شيئاً؟» وقبل أن يقول شيئاً آخر، فتح باب غرفة سلمان ووقف عند المدخل. توقع سلمان أن يسمع صرخة، وبدأ قلبه يخفق بقوة في صدره.

عاد كرم إلى المطبخ خائباً، ثم قال: «ظننت أنه يوجد عندك ضيف. إني لا أعترض على ذلك، لكن يجب ألّا تخفي عني أسراراً. لماذا وجهك شاحب هكذا؟»

«لقد أرعبتني. ظننت أنك شخص متطفّل».

عاد سلمان إلى غرفته وأغلق النافذة التي تركتها نورا مواربة، وجلس أمام الطاولة ووضع كومة الأوراق التي فيها قصّة ابن مقلة في الدرج. كان كرم يتكلّم في الهاتف، لعله كان يتكلم مع بدري الذي بدا أنه لا يريد أن يزوره.

فتّش سلمان الغرفة لعله يجد أي أثر يمكن أن يكشف عن وجود

نورا، وشعر بالارتياح، لأنها نظفت المطبخ بعد الفطور مباشرة وبسرعة، ولم تترك أي أثر يشير إلى أنهما تناولا الفطور معاً.

لكنه رأى فجأة المشط الفضي الذي كانت نورا تضعه على شعرها ملقى على الأرض. التقطه ورفعه إلى وجهه. كاد يبكي، وشعر بأسف شديد لأنه سبّب لنورا مشاكل وقلقاً بدعوته لها الى بيت كرم. لكن قلبه ضحك على خيبة أمل كرم.

فتح سلمان الدُّرج وراح يتصفح المقالة عن ابن مقلة مرة أخرى. ثم اكتشف الصفحة الأخيرة، الصفحة التي كانت نورا ستقرأها له أيضاً: قصيدة كتبتها امرأة في القرن الحادي عشر عن حبيبها.

بسرعة، عاد ودسّ جميع الأوراق في الدرج.

عاد كرم ووقف أمام الغرفة، وسأله، «أرى أنك مجتهد اليوم. هل أكلت شيئاً؟»

هزّ سلمان رأسه، وقال: «لست جائعاً»، وانحنى فوق دفتره مرة أخرى. وقف كرم وراءه وراح يقرأ بصوت مرتفع من الورقة أمام سلمان: «الخطّ في توازن كوني بين الدنيوي والسماويّ، الأفقي والعمودي، المنحنيات والخطوط المستقيمة، المفتوحة والمخفية، العريضة والضيّقة، الفرح والحزن، القاسي والليّن، الصارم واللعوب، الصعود والهبوط، النهار والليل، الوجود والعدم، الخالق والمخلوق».

توقف، وقال: «كلام رائع. أين وجدت هذه؟»

فقال سلمان: «في دفتر كبير سميك يدوّن فيه المعلّم حميد أسراره»، وأضاف، «إنه يحتفظ بالدفتر في خزانة كبيرة فيها أشياء مهمة أخرى، ويقفل عليها».

«أي نوع من الأسرار؟» سأله كرم.

«وصفات أنواع الحبر غير المرئية، وكتابان عن الخطوط السرية، وحافظة فيها أوراق الذهب، وسكّينه الغالية الثمن، ووصفات الأحبار العادية، والكتاب الذي وجدت فيه هذه الكلمات».

«وماذا يوجد فيه أيضاً بالإضافة إلى هذه العبارات الذكية؟»

«لا أعرف. لم أتمكن إلّا أن ألقي نظرة عليه فقط»، قال سلمان وهو يعيد ترتيب أوراقه لإخفاء توتره. ثم وضع يده على فمه يفكّر كما لو أنه تذكّر شيئاً، وقال: «نعم، يوجد فيه شيء عن الحروف الميتة والحروف الحيّة، لكنّي لم أفهمها. توجد فيه أحياناً صفحات مكتوبة بخطّ سري. الحروف عربية لكن اللغة ليست عربية وليست فارسية ولا تركية».

«حروف ميتة؟ هل أنت متأكد؟» سأله كرم مندهشاً.

«نعم، ولكن لماذا تهتم أنت بذلك؟»

«من الجيد أن يعرف المرء دائماً ماذا يخطط الأبرياء من أمثال حميد. تقول حروف ميتة؟» كرر كرم وظهر في عينيه بريق شيطاني.

كان على كرم أن يعود إلى المقهى، فترك سلمان أخيراً. دخل سلمان إلى المطبخ ووقف فوق كرسي ونظر إلى الشارع من نافذة صغيرة فوق رفّ البهارات. رأى كرم يسير في الشارع باتجاه موقف الترام. أعدّ لنفسه كأساً من الشاي وبدأ يهدأ شيئاً فشيئاً. عندما اتصل بنورا، كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة.

قال لها بحماسة: «أنا سلمان، هل كل شيء على ما يرام؟»

«نعم يا قلبي. لكنّي أضعت مشطي الفضي عندما قفزت من النافذة إلى الحديقة».

«لا، لا، لقد سقط تحت السرير قبل أن تقفزي. هل يمكنني أن أحتفظ به كتذكار لمغامرتنا الأولى؟»

«إنه لك. لقد أعطتني إياه زبونة غنية في ورشة الخيّاطة داليا منذ

سنوات. لكن قل لي الآن، ما هي تلك الزيارة المفاجئة لكرم لكي يطمئن قلبي عليك؟»

«لم أعرف سبب زيارته المفاجئة. هل هي بالصدفة أم كمين - هل كان يريد أن يمسك بنا بالجرم المشهود، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟»

«ربما ليبتزّني، أو ربما لأنه رجل مسكين وحيد يريد . . .»

فقاطعها سلمان، «لا، لا، إن كرم لا يفكّر في النساء، لا أعرف إن كنتِ قد فهمتِ قصدي. أنا واثق من ذلك، وهذا ما يجعل هبوطه المفاجئ علينا أمراً غريباً. قال إنه شعر بالملل في المقهى».

تحدّثا طويلاً، ووضعا نظرياتهما، وحلما معاً، لكن في تلك اللحظة، خطر ببال سلمان شيئاً يريد أن يقوله لنورا.

«أرجو ألّا يكون سؤالي محرجاً»، قال لها. أراد أن يقول لها ذلك عندما كانا في السرير، لكنه نسي.

«ما هو السؤال؟» سألته نورا.

«شخص ما يتجسس على معلّمه، وينقل لأعدائه المتعصبين عن تأسيس مدرسة الخطّ حتى قبل الإعلان عنها رسمياً. لقد حذرني راضي، أكثر المساعدين لطفاً، بأنه سمع المعلّم حميد ومساعده صمد يشكّان في أنني أنا من ينقل تلك الأخبار».

«لكنك مسيحي! كيف يمكنهم أن يكونوا بهذا الغباء حتى يظنّوا أنك عضو في جماعة المسلمين المتعصبين؟ لا تقلق، قد يكون حميد مستحيلاً كزوج، لكنه رجل ذكي وحذر. لن أصلّي من أجلك، قد يكون كل ذلك مزحة سيئة»، قالت قبل أن تنهي المكالمة.

عمل سلمان قرابة ساعة، لكنه شعر بالقلق ولم يعد يستطيع أن يركّز على عمله. فأعاد كتبه ودفاتره إلى الدُّرج، ووضع المشط الفضي في جيب بنطاله. عندما فتح باب غرفته ليخرج، كاد يموت

من الصدمة، لأنه رأى كرم عند مدخل الباب في تلك اللحظة، وقال بابتسامة جامدة، «لا أعرف لماذا لا أشعر بالرغبة في البقاء في المقهى اليوم. فكّرت أن أعود وأعدّ شيئاً نأكله».

«شكراً، لكن يجب أن أعود إلى البيت»، قال سلمان، «أمّي ليست على ما يرام». لأول مرة شعر بالخوف من كرم.

في الخارج، كان هواء المساء بارداً. كان الترام يسير في المساء الدمشقي، وتراءى له أن المدينة لا تبدو كما تبدو في النهار. فقد كان الناس يسيرون بخطوات سريعة يحملون أكياس التسوّق، رؤوسهم مليئة بالخطط، سعداء ومتعبون في آن معاً وهم عائدون إلى منازلهم.

لوهلة نسي أنه في الترام. أحسّ كما لو أنه جالس في لعبة الأحصنة الدوّارة، يدور ويدور بينما يمرّ بغرف مضاءة ومحلات ملونة وأطفال مبتهجين ورجال ونساء مسنّين أحنت السنون ظهورهم. أغمض عينيه للحظة. عندما فتحهما، رأى نفسه ينظر مباشرة إلى وجه ضاحك لسكير التفت وسأل السائق بصوت عالٍ، «هل أنت ذاهب إلى الأرجنتين اليوم؟»

بدا أن السائق يعرف الرجل، وقال، «لا، ليس اليوم. سنذهب اليوم إلى هونولولو. لن تكون الأرجنتين في طريقنا لكننا سنسافر إلى هناك في ٣٠ شباط».

كان بضعة ركاب فقط، مثل سلمان، متجهين إلى وسط المدينة، ثم استقلّ تراماً آخر ليذهب إلى باب توما في الحيّ المسيحي. كان الترام مزدحماً بعض الشيء، وكان سلمان سعيداً لأنه وجد مقعداً فارغاً. كان الرجال والنساء يرتدون أفضل ثيابهم، يتبادلون النكات، ذاهبين إلى حفلة.

لم يستطع أن يُبعد عن تفكيره ذلك البريق الشيطاني الذي رآه في

عينَي كرم. تساءل لماذا بدأ صديقه يبدي فجأة اهتماماً بأسرار الخطاط. بينما كان يفكّر في ذلك، انعطف الترام بسرعة حول منعطف. وبدأ السائق الذي يبدو أن مزاج ركابه الذاهبين إلى حفلة قد انتقلت إليه وراح يغني معهم، ويغيّر السرعة من حين لآخر. امرأة جميلة مكتنزة فقدت توازنها ووقعت في حضن سلمان وهي تضحك. ثم وقع أشخاص آخرون فجأة في أحضان الآخرين. عندما رأى السائق ركابه المترنحين في المرآة الخلفية، ضغط على المكابح وفكّ تشابك الحشد الصاخب.

«الولد المسكين، سوف تسحقينه»، صاح رجل يرتدي بدلة زرقاء داكنة أنيقة ويضع قرنفلة حمراء في عروة سترته.

«هيا، إنه يستمتع بذلك»، أجاب رجل آخر يرتدي بدلة رسمية.

حاولت المرأة وهي تقهقه أن تنهض من حضن سلمان الذي أحبّ رائحة عطرها، مزيج من زهر الليمون والتفاح الناضج عندما لامس خدّها وجهه لفترة قصيرة. استنشق عطرها. نهضت المرأة على قدميها ونظرت إلى سلمان محرجة.

مرّت سنوات قبل أن يتذكّر ذلك البريق الشيطاني في عينَي كرم مرة أخرى، محاولاً أن يعود في ذاكرته إلى الجنة التي عرفها بين ذراعيْ نورا. وتذكّر أيضاً تلك الجولة المسائية في الترام، عندها فهم لماذا جعل الشيطان عينَي كرم تلمعان.

ففي الليلة التي أعقبت تلك الجولة المغامرة في الترام، سمع سلمان أن بائع الخضراوات شمعون قد هرب إلى إسرائيل. تساءل لماذا. في الأيام القليلة التالية، ظلّ ينظر إلى غرفة شمعون من نافذته راجياً أن يرى فيها نوراً، لكنها ظلت مظلمة.

لم يستأجر زوج وزوجة الشقّة المكونة من غرفتين إلّا بعد شهر،

وظل صاحب المحل يشتكي، حتى بعد سنوات، من أن شمعون لا يزال مديناً له بإيجار ثلاثة أشهر.

لكن سلمان وجميع الجيران في «حوش الرحمة» كانوا يعرفون أن صاحب المحل بخيل وهو يكذب، وأن ريع الأعشاب المجففة وزيت الزيتون والفواكه المجففة التي بقيت في المحل والتي أصبحت ملكه الآن، تكفي لدفع الإيجار لمدة سنة.

29

قلّل المعلّم حميد الذي لم يكن متديناً من أهمية المتعصبين، لأنه يؤمن أن كائناً كليّ القدرة هو المسؤول عن الخلق، ويفتخر حتى أقصى بقعة في روحه بأن اللّه يحبّ اللغة العربية التي أنزل بها القرآن على نبيه محمد. ولهذا لم يُبدِ أي اهتمام بالأديان الأخرى، ويرى أن التطرف في الإيمان هو الأساس الذي تُبنى عليه مواقف العقول الساذجة. لكنه يحترم اليهود أكثر مما يحترم المسيحيين لأنه يرى أوجه تشابه عديدة بين اليهودية والإسلام، بينما يصرّ المسيحيون بغطرسة على التمسك بإيمانهم بأن اللّه أنجب ابناً يشرب الخمر وصُلب، بالإضافة إلى أن يسوع الإنسان طلب من أتباعه وحواريه أن يحبّوا أعداءهم. وهذا ما لا يقوله عاقل حسب رأيه.

لم يرتَدْ حميد المسجد إلّا نادراً. لكن ذلك تغيّر فجأة في مطلع كانون الثاني ١٩٥٦، عندما نصحه معلّمه المبجل الخطاط الشهير «سيراني» بأن يذهب إلى الجامع الأموي يوم الجمعة حيث يلتقي برجال الدين وكبار السياسيين ورجال الأعمال المعروفين في المدينة ورؤساء العشائر ذوي النفوذ. كان سيراني قلقاً على حميد، تلميذه المفضّل، وقال له: «يتهامس الناس حول مخططاتك، وتتخذ همساتهم، شيئاً فشيئاً، شكلاً لا يعجبني. لذلك، تعال معي إلى المسجد يوم الجمعة لتثبت لهم أنك مسلم تقي». تأثّر حميد بقلق

الرجل العجوز عليه واهتمامه به، وقرر أن يذهب ويصلّي في الجامع الكبير كلّ يوم جمعة.

بعد ذلك بفترة قصيرة، في ربيع عام ١٩٥٦، قدّر حكمة سيّده. فقد بدأ كبار رجال الدين والعلم والسياسة يدعونه لتناول الشاي معهم، ووافقوا على دعمه المتشدد لارتداء الحجاب وغطاء الرأس، وأقرّوا أنهم كانوا يظنونه غير ذلك.

في شهر أيار، ادّعى بتفاخر لجميع من التقى بهم هنا أنه رفض عرضاً كبيراً لتخطيط لوحة للكنيسة الكاثوليكية، وأنه سيذهب قريباً إلى مكة ليحج لأول مرة في حياته. لكن مساعديه فقط لم يصدّقوا هذا الورع الجديد والمفاجئ الذي أصابه.

«ربما كان السعوديون سيكلفونه بعمل كبير»، قال صمد لنفسه. كما شكك المساعدون الآخرون في ورع معلّمهم الجديد بالدين، وهو الرجل الذي كان، كما ادّعى محمود، يذهب إلى بيت دعارة صغير خاص في شطر المدينة الجديد برفقة ثلاثة خطاطين آخرين كلّ يوم خميس.

«إنه يلعب الورق يوم الخميس»، قال صمد معترضاً.

«نعم، لكنه لا يلعب الورق في مقهى، وإنما في بيت مدام جولييت. هكذا قال لي ابن عمي الذي كان يعمل لدى أحد هؤلاء الخطاطين، ويقيم بالقرب من بيت المدام. يلعبون الورق هناك كلّ يوم خميس، ويختار الفائز في اللعبة عاهرة على حساب الآخرين».

في خريف عام ١٩٥٦، خُيّل إلى حميد فارسي أنه أقنع جميع الأشخاص البارزين في دمشق، بالإضافة إلى رجال الدين الأكثر تشدداً بأهمية إيلاء فن الخط اهتماماً خاصاً. لم يقل لهم كلمة واحدة عن الإصلاحات الراديكالية التي حضرها لجعل الأحرف العربية

عصرية، مع أن معظمهم، بالرغم من صداقتهم، نأوا في قرارة أنفسهم عن مشروعه. لكنه كان متيقناً من أن علاقته برجال الدين المحافظين ستؤدي بهم الى ربط كلابهم الشرسة «*الأنقياء*» بإحكام.

لكنه كان يبالغ في تقدير تأثير رجال الدين المعتدلين وحتى المحافظين منهم على المتعصبين الذين يعملون سرّاً. بعد أسبوعين من توقيع فارسي على عقد استئجار مبنى مدرسة الخطّ العربي، دخل رجل ملتح إلى مكتب نصري قباني وسأله ساخراً أين صاحب المكتب، فوجد توفيق صعوبة في أن يكبت ضحكته، وأجابه: «أنا الأجير هنا. كيف يمكنني أن أساعدك؟»

«لقد أخطأ معلمك. لا يوجد لدينا شيء ضد عشيرته، لكنه يتبرع بالنقود ليدعم حميد فارسي في عمله الشيطاني. قل له أن يسحب دعمه هذا، ويعطي المال لفقراء المسلمين بدلاً من أن يعطيها له، أو يتبرع بها لترميم مساجدنا، عندها لن يحدث له شيء». كان الرجل يتكلم ببرود شديد، أثار الخوف في نفس توفيق الذي يخشى الأشخاص الباردين كهؤلاء منذ طفولته. فعلى الرغم من أنهم لا يفهمون سوى أشياء قليلة جداً، فإنهم لا يتورعون عن عمل أي شيء، لأنهم يعتقدون أنهم يضعون في عماهم وجهلهم قدماً في الجنة. ومثل هؤلاء لا يمكن ردعهم بأي تهديد أو عقاب ولذلك لا توجد معرفة علمية أو أيديولوجية حديثة في العالم كله يمكنها أن تعدّ مقاتلين أفضل من هؤلاء.

فأجابه توفيق بنبرة استعلاء ليغطي على خوفه، «اسمعني الآن، لقد دعم معلّمي مدرسة الخط، ولم يدعم بيت دعارة».

«لكننا نرى أن عمله هذا ما هو إلّا ستارة ليخفي بها عمل الشيطان، ولم آتِ لأناقش الأمر معك أو معه، وإنما لأحذّركم»، قال الرجل الذي غضب فجأة وأدار ظهره، وغادر.

وقف توفيق في مكتبه يرتجف. استغرق بعض الوقت ليتخلص من ظهور هذا المتعصب، ثم أخذ نَفَساً عميقاً واتّصل بنصري الذي كان منشرح الصدر في تلك اللحظة.

«ليذهبوا إلى الشيطان. حمّام وحلاقة ذقن سيكونان أكثر فائدة لهم. فإذا كان فنّ الخط كفراً ورجزاً من عمل الشيطان، فأنا لا أعرف ما الذي يرضي اللّه».

هزّ توفيق رأسه. لكن عدم ثقته القديمة استيقظت من جديد عندما أغلق الهاتف، وتذكّر ما قاله له والد نصري المرحوم: «لا تبعد عينيك عن نصري للحظة واحدة، وإلّا فإنه سيحبّل امرأة، وسيوصل شركته إلى نقطة الحضيض والانهيار».

فكّر مساعد نصري المخلص طويلاً، حاول إيجاد سبل ليجنّب معلّمه من الوقوع في مشاكل. عندما اتصل برجال دين وأساتذة وصحفيين وليبراليين ومحافظين سخروا كلهم من مخاوفه وأكدوا له أن الخطّ أسمى وأرقى أشكال الفن في الثقافة العربية. قال له ممدوح برهان، رئيس تحرير صحيفة *الأيام* المحافظة «ويريد هؤلاء البرابرة الآن أن يمنعونا من لعبة الحروف المقدسة على أنها عمل من أعمال الشيطان»، وأضاف، «إنهم يقفون ضد كلّ متع الحياة، لذلك، فهم أعداء الإسلام. فقد كان نبينا صلى اللّه عليه وسلّم رجلاً يتمتع بالحياة».

رجل واحد فقط أجاب إجابة تجاوزت الشعور بالطمأنينة وهو حبيب كحالة، الصحفي المتمرّس ورئيس تحرير المجلة الساخرة «*المضحك المبكي*». فقد قال ذلك الرجل الأنيق: «إنه ليس الخط العربي، وإنما - هكذا سمعت - خطط حميد فارسي السرية هي التي تزعج هؤلاء المتعصبين، وإذا كان الأمر كذلك، فلا داعي لأن تقلق على نصري قباني. إن هدفهم الرئيسي هو حميد فارسي».

ونصح توفيق بأن ينسى ذلك المتعصب المجنون، لكن عينَي ذلك الرجل الملتحي الميتتين لاحقتا توفيق حتى أحلامه.

بخلاف توفيق، نسي نصري قباني تلك المكالمة الهاتفية على الفور، وتناول بعض الحلوى، وشرب فنجان قهوة، وصعد إلى غرفته في الطابق الأول. أخرج ملفاً من حقيبته، وفتحه، وبرزت أمامه الرسالة المؤلفة من صفحتين. يا له من عمل فني رائع، فقد وصف المرأة وصفاً رائعاً، وإذا ضيّق عينيه قليلاً، فإن الخطوط تتحول إلى ألسنة لهب مشتعلة.

يا له من نص رائع. لم يستطع نصري أن يطوي تلك الورقة الناعمة. قال لنفسه إن طيها سيُفسدها فطواها بطريقة صحيحة بحيث التقت حافة الورقة بالطية في الوسط. أخذ قطعة النقود الذهبية الثقيلة التي اشتراها من أحد المحلات في شارع الصاغة بالقرب من الجامع الأموي، وثبّتها في وسط الشريط بقليل من الغراء ثم صعد إلى السرير، ورفع الشريط عالياً وأفلته. دار الشريط مثل مروحة وهو يهبط بشكل عمودي إلى الأرض.

انتظر حماته بفارغ الصبر حتى تُنهي غسل الصحون وتنظيف المطبخ. بعد دهر، ذهبت لتنام. كان يعرف أن ألماز تشخر منذ فترة طويلة بجانب ابنتها ناريمان التي بدأت تشبهها كثيراً.

عندما أصبح المكان صامتاً أكثر من مقبرة، سار نصري ببطء نحو السلم الخشبي وتسلّقه بحذر دون أن يصدر صوتاً. بعد لحظات أغلق باب العليّة وراءه.

عندما صعد إلى السطح، كانت الشمس تنشر بساطاً يلمع فوق المدينة. كان الجو دافئاً لطيفاً، لكن هواء الليل البارد بدأ يهب على العليّة. ارتجف نصري وتوجه نحو النافذة. نظر إلى الفناء في الأسفل

حيث كانت المرأة تتشمس على كرسي كبير بجانب بركة الماء، وتقرأ. عندما فتح النافذة، رفعت المرأة عينيها وابتسمت. كان من الممكن أن يموت نصري من شدة الفرح. أجابها بإيماءة وأراها الورقة. عندما همدت الريح، ترك الشريط الورقي يبحر في الهواء ورأى الدهشة على وجه المرأة. ضحكت ووضعت يدها على فمها. هبطت المروحة على مسافة مترين من الحائط، غير بعيد عن بركة المياه.

اعتدلت المرأة في جلستها، وابتسمت له مرة أخرى، ثم نهضت على قدميها والتقطت الشريط الورقي. ثم سمع نصري وقع خطوات وضجة مدوية. بدا كما لو أن أحداً خبط على الباب بمطرقة. فأغلق النافذة بسرعة، وانتظر لحظة، ثم عاد إلى الشرفة الصغيرة أمام العليّة. في تلك اللحظة رأى زوجته تدخل إلى الدرج المفضي من الطابق الأول إلى الطابق الأرضي. انتظر بجوار السلم ليتأكد أنه مخطئ، لكن لم يظهر أحد على الدرج.

ظن أنها هلوسة ناجمة عن وخز الضمير، فابتسم لأنه لم يشعر قط بتأنيب ضمير منذ كان طفلاً. غادر العليّة وأراد العودة الى الطابق الأرضي. عندما انتقلت قدمه من الدرجة الأولى على السلم الى الدرجة التالية تهاوى الخشب تحته وسقط نصري وطار في الهواء وأخذ يبحث عن شيء يتمسك به، لكن قدمه اليسرى ارتطمت بعد ثوانٍ بالأرض بقوة.

هبط عليه ظلام مليء بالألم مثل لوح خشبي. عندما استعاد وعيه، وجد نفسه مستلقياً في سرير في المستشفى، جبيرة تغطي ساقه اليسرى التي لا يستطيع تحريكها.

30

استشاط حميد فارسي غضباً أمام مساعديه الذين لا يعرف أحد غيرهم مسألة المنحة السخية التي قدّمها نصري قباني، وأن ورشته قد أنجزت لوحتين رخاميتين يتصدر إحداهما اسم نصري قباني. كان مساعده صمد هو الذي أنجز اللوحتين بعد أن وضع حميد التصميم الرئيسي، علماً أن صمد هو الذي لفت انتباه حميد إلى أن الأجير سلمان قد يكون جاسوساً، لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يسمع الأحاديث التي تدور بين حميد وزبائنه أكثر من أي شخص آخر في الورشة.

«لكنه مسيحي»، قال له حميد مستبعداً فكرة أن يكون سلمان مخبراً للمتطرفين المسلمين، لكن ذلك لم يقنع صمد الذي قال: «مسيحي أو يهودي، كلّهم خونة. فقد باعوا المسيح لقاء ثلاثين قطعة فضة. إذا تركت محمود يحقق معه، فإنه سيغنّي مثل عصفور كناري».

لم يوافق المعلّم حميد في البداية، لكنه رضخ أخيراً.

وصل سلمان المسكين إلى الورشة في اليوم التالي جسمه مليء بالكدمات، يداه وإحدى عينيه متورمة، وكست قشرة بنيّة الجرح بجانب أسفل أذنه اليسرى، لكن محمود لم يحصل منه على أي معلومات. وقف صمد أمام معلّمه مطأطئ الرأس.

سأل حميد سلمان ببراءة واضحة ما الذي جرى له، فقال له

سلمان، خوفاً من عقاب محمود له، إنه وقع من على دراجته عندما كان يقودها في نزلة شديدة الانحدار.

حدث ذلك قبل يوم واحد من عيد الميلاد. نظر حميد إلى الصبي النحيف مشفقاً، وسأله، «تحتفلون غداً بعيد ميلاد نبيكم، أليس كذلك؟» هزّ سلمان رأسه، «وبعده تحتفلون بليلة رأس السنة الجديدة. ابق في البيت حتى الثاني من كانون الثاني، حتى تتحسّن صحتك»، قال له حميد وأخرج محفظته من جيبه وأعطى سلمان أجر شهر كامل وأرسله إلى البيت. في تلك اللحظة، ظهرت أخته سهام عند مدخل المحترف، فصاح حميد منزعجاً: «اخرجي من هنا، لا يوجد عندي اليوم وقت لك ولا توجد معي نقود أيضاً» ودفعها باتجاه الباب. تمتمت أخته شيئاً، وضربت الباب الزجاجي بقبضتها وغادرت.

التفت حميد إلى عماله وصرخ: «وسيأخذ محمود مكان سلمان اعتباراً من اليوم حتى يعود، عقاباً على ما فعله».

كان ذلك بالنسبة لمساعده محمود المتقدم في السن عقاباً قاسياً، لكن الأسوأ سيحصل له في شهر كانون الثاني.

عندما اتصل سلمان بنورا من مقصورة الهاتف وأخبرها بما حدث، قالت إنها تريد أن تراه. خجل سلمان أن تراه هكذا، لكنها أصرّت على رؤيته.

جلسا في مقهى في الشطر الجديد من المدينة، بالقرب من سينما الفردوس. لم يقل سلمان شيئاً، لكن نورا تملكها الذعر. ماذا فعلوا بسلمان؟ كيف يمكن أن يكون زوجها قاسياً إلى هذه الدرجة؟ سالت دموعها عندما رأته، وقبّلت عينيه، ولم تخش أن يراها أحد. نظر صاحب المقهى إليهما بنظرة مليئة بالتعاطف. شعرت نورا بكراهية شديدة تجاه زوجها. بعد لقائهما ذهبت لزيارة داليا. لم تخبرها شيئاً

عمّا حدث، لكنها شربت قليلاً من العرق لأول مرة في حياتها. ثم شعرت بتحسن. عندما ودعتها، عانقتها الخياطة وضمتها إليها بقوة، وقالت: «احرصي على نفسك يا طفلتي». هزت نورا رأسها وسارت بخطوات بطيئة عائدة إلى البيت.

في الثالث من كانون الثاني، عندما عاد سلمان إلى العمل في الورشة، سأله كرم أثناء فترة الغداء إن كان قد سمع بأن محمود مريض، فهزّ سلمان رأسه.

«سمعت أنه مريض جداً وأنه لن يتمكن من أن يعمل مرة أخرى». كان تفكير سلمان في مكان آخر في ذلك اليوم، فقد ذكرت له نورا بشكل عابر أنها تعرف شخصاً يستطيع أن يحصل له على أوراق أصلية وهوية جديدة باسم جديد بمبلغ مئة ليرة.

أراد أن يسألها كيف يمكن لأي شخص أن يحصل على أوراق أصلية باسم شخص آخر؟ كان قد سمع فقط عن أعمال تزوير جيدة وأخرى رديئة. كأنها سمعت سؤاله الذي لم يقله، تابعت نورا، «رجل خبيث يعمل موظفاً في دائرة الأحوال الشخصية ويبدو أنه قادر على الحصول على جميع البيانات والهويات الأصلية من مخزن الدائرة، وباستطاعته إحياء الأموات، وصنع هويات تحمل أسماء موتى ومطابقة للأصل فمن سيعرف أن حامل هذه الهوية هو واحد من اثنين يحملان الاسم. ولن يفشي الشخص الآخر السرّ لأنه مات منذ سنوات».

ظلّ سلمان يفكّر في مسألة الهوية الثانية، ولم يُبدِ اهتماماً إن كان محمود، ذلك الأخرق، مريضاً أم لا. لكنه أدرك في اليوم التالي أنه لم ينصت جيداً لما قاله كرم، حتى أنه لم يفهم ما قاله.

ففي ليلة الثاني من كانون الثاني، هاجم أربعة رجال ملتحين

أقوياء مساعد الخطّاط، محمود، وأوسعوه ضرباً. وكانوا يصيحون في كل ضربة، اللّه أكبر، اللّه أكبر، كأنهم يؤدون طقوساً دينية، ثم ضربه أضخم رجل فيهم بمطرقة ثقيلة على يده اليمنى، وهشّمها.

لو لم يكتشف أحد المارة محمود ملقى على الأرض عند مدخل مستودع مظلم يئن بصوت مكتوم، لمات من نزيف داخلي. وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد اتصل رجل مجهول بحميد في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وقال له إن مساعده حاول أن يغتصب امرأة شابة، وإن شقيقها كسر اليد التي لمستها.

وضع حميد سماعة الهاتف بسرعة كما لو كانت تحترق. لم يذكر شيئاً عن ذلك الاعتداء، لكن جميع من في الورشة عرفوا به.

في اليوم التالي كان حميد قد ذهب ليحضر اجتماعاً مع وزير الثقافة عندما رنّ الهاتف وأجاب صمد.

تكلمت زوجة محمود مع صمد وقالت له وهي تبكي إن زوجها، الحمد للّه، تجاوز مرحلة الموت، لكن لم يعد قادراً على استخدام يده اليمنى. بكت بحرقة لأن جميع نزلاء المستشفى عرفوا أن محمود ضُرب لأنه اغتصب امرأة وبدأ الجميع يرمقونها أيضاً بنظرة احتقار. واساها صمد ببضع كلمات وأغلق الهاتف. كان سلمان ممزقاً بين الشعور بالامتنان لكرم الذي لا بد أنه وراء هذا العمل الانتقامي، وبين نفوره من وحشية هذه العقوبة التي أثّرت أيضاً على أسرة محمود التي ستصبح بلا معيل. أي لعبة خفية قاسية يلعبها كرم؟

في ذلك اليوم الحزين، تقيأ راضي لأول مرة. كانوا قد أخفوا مرضه عن معلّمهم. لكنه تماثل للشفاء بعد بضعة أيام. كان سلمان يعدّ شاي أعشاب لمساعدة راضي عندما بدا شاحباً وبدأ يعاني من تشنجات في المعدة.

لم يحزن حميد على خسارة محمود لفترة طويلة. فقد أرسل مساعده صمد بعد أسبوع يبحث عن خطّاط شاب خبير سمع عنه. كان على صمد أن يحسم الأمر على الغداء. فقد أعطاه حميد عشرين ليرة وقال له: «اطلب له طعاماً جيداً يملأ بطنه. فالمعدة تحكم العقل».

بعد يومين وصل بشير مجدي، المساعد الجديد، الذي يحلم بإعادة تصميم جميع الكتابات المستخدمة في طباعة الصحف والمجلات ذات يوم. كان شخصاً مرحاً أحبّ سلمان منذ اللحظة الأولى، لكن كانت لحميد بعض التحفظات عليه لأنه يعمل كل شيء بسرعة، فقال له: «إنك لا تنتج عملاً شاقاً ليُلقى به بعد أيام جانباً، وإنما تعمل شيئاً يبقى إلى الأبد. خذ وقتك، لا تسرع، دع الزمن وليس التسرع يعيش في حروفك».

لكن لم يكن باستطاعة بشير أن يعمل ببطء. بعد أن عمل شهرين في الورشة، ألقى الريشة واستقال، وذهب ليعمل في إحدى الصحف الكبرى، وأصبح بعد فترة الخطاط الرئيسي فيها.

ساءت صحة أمّ سلمان كثيراً وارتفعت درجة حرارتها خلال فترة عيد الميلاد، ثم تماثلت للشفاء قليلاً، لكنها سرعان ما عادت إلى سريرها وبدت منهارة وشاحبة. ومع أن سلمان اشترى لها أدوية غالية الثمن، لم تخفف من حدّة ألمها، ولم تتمكن من معالجتها.

كان يرافقها كلّ يوم جمعة إلى عيادة الدكتور حاصباني الذي يعالج في ذلك اليوم الفقراء مجاناً. عجّت عيادته بالمرضى وكان على المرء أن ينتظر طويلاً. لكن لطف الدكتور حاصباني مع جميع مرضاه سهل الانتظار. في النهاية، لم يستطع الطبيب أن يحدد بدقة مرض أمّ سلمان. إرهاق عام؟ عدوى فيروسية؟ ثم انتحى بسلمان

جانباً وقال له إنه لم يبق أمام أمّه وقت طويل تعيشه، مع أنها لم تبلغ الأربعين من عمرها بعد.

يا له من وجود بائس، قال سلمان لنفسه وهو في طريقه إلى الورشة. أمّه التي ولدت في بيئة فقيرة وبيعت لرجل غريب لم تحبّه ولم تحترمه وهو لم يحبّها ويحترمها أيضاً، أمضت حياتها في الألم وستموت الآن ببطء وتتعذب من الألم.

قال لنورا، «أفكّر أحياناً أن اللّه ينتقم لنفسه من الأشخاص الخطأ».

في الصباح، بعد أن نظّف المحترف جيداً كما يفعل كل أسبوع، كان على سلمان أن يسلّم لوحة خطّ في إطار، سُدِّد ثمنها سلفاً، إلى أحد الزبائن. لفّ اللوحة القيّمة في ورقة جريدة وخرج قبل الساعة العاشرة بقليل. عندما وصل إلى جسر فيكتوريا، رأى كلبه جالساً بهدوء أمام متسول أعمى. «طيّار، كلبي العزيز، من يخطر بباله ذلك؟» همس فرحاً. أراد أن يجري نحوه، لكنه خاف أن تقع اللوحة الباهظة الثمن من يده. ذهب إلى مكتب المهندس الذي يبعد ثلاثة شوارع، وسلّمه اللوحة. كانت تعليمات حميد له أن ينتظر ويسلّم المهندس شخصياً اللوحة ويجب أن يشكره عليها. كان حميد خطاطاً معتدّاً بنفسه، يحكي كثيراً حكاية الوالي المصري محمد علي والخطاط الفارسي. فقد طلب محمد علي باشا، حاكم مصر العظيم، من الخطّاط الفارسي سنكلاخ أن ينسخ قصيدة دينية مشهورة بخط جميل ليعلّقها في صدر الجامع الكبير الذي كان الباشا يشيّده في القاهرة في ذلك الوقت. أمضى الخطّاط شهرين في العمل على تلك اللوحة. وعندما انتهى، طلب من خادمه أن يأخذ اللوحة إلى مصر. عندما وصل إلى بلاط محمد علي، أعلن الخادم أنه جلب اللوحة،

وقد أملى عليه معلمه أوامره القاسية: «إذا لم يقف الباشا احتراماً عندما يستلم اللوحة، عليك أن تعود بها». كان سنكلاخ يصر على احترام فن الخط. لم يقف محمد علي احتراماً فقط، وإنما وقفت حاشيته كلها أيضاً وصفقوا عندما دخل الخادم إلى القاعة حاملاً اللوحة الكبيرة. في مكتب المهندس، أرادت السكرتيرة أن تستلم اللوحة من سلمان، لكنه تشبث بها حتى نادت رئيسها أخيراً. كان مسروراً جداً باللوحة، وأعطى سلمان إكرامية سخية، وطلب منه أن يبلغ تحياته الحارة وشكره للسيد حميد.

عاد سلمان بسرعة إلى جسر فيكتوريا. شكر اللّه لأن الكلب لم يتزحزح من مكانه وظل مقعياً أمام المتسوّل الأعمى الشاب وهو يغني بصوت حزين عن قدره البائس. وقف الكلب فجأة. بدا عجوزاً جسمه مليء بالندوب، لكنه رأى قسمات الجرأة مثل تلك التي كانت بادية عليه عندما كان جرواً.

ركض الكلب نحو سلمان، ودار حوله وهو يهزّ ذيله، حتى كاد يوقعه على الأرض. فقد عرفه وأخذ ينبح بفرح لأنه رآه. «طيّار»، صاح سلمان، «عزيزي طيّار». توقف الشحاذ عن الغناء، وقال: «عيني، تعال إلى هنا، عيني، تعال»، لكن الكلب لم يستجب له، فصاح الشحاذ بأعلى صوته: «ساعدوني، يحاول أحدهم أن يسرق كلبي. أرجوكم ساعدوا ضريراً وسيجازيكم اللّه خيراً».

فقال له سلمان: «كفّ عن الصراخ. لا أحد يحاول أن يسرق شيئاً منك. هذا كلبي. لقد أنقذت حياته عندما تخلّى الجميع عنه وكبر معي حتى سرقه أحدهم. اسمه طيّار». رأى سلمان الشك والخوف في وجه الشاب المتسوّل، وأضاف: «لاحظ كيف يطيعني، طيّار اجلس»، فجلس الكلب وهو يهزّ ذيله. لبث في مكانه مع أنه كان يريد أن يجري إلى سلمان. أدرك الشحاذ أن الكلب يطيع سلمان.

«إنه كلبي، وأنا أبحث عنه منذ سنوات. كم تريد لقاء أن أستعيده؟» قال له سلمان.

فقال الشحاذ متوسلاً، «ربما كان كلبك ذات يوم، لكنه أصبح الآن العين التي أرى بها. اسمه عيني لأثبت أنه عيني، وهو يعتني بي طوال اليوم. لا يمكنك أن تأخذه مني. في أحد الأيام، حاول بعض الأولاد الأشرار أن يسرقوني، فهاجمهم وحماني بشجاعة - ألا ترى الندوب عليه؟»

«لكن. . .» قال سلمان محتجاً.

«لا مجال للكن. أعيش أنا وعيني معاً سعيدين منذ سنوات. إنه أخي، إنه يهتم بي، حتى أنه يبكي معي عندما أكون حزيناً».

فقال سلمان: «حسناً، سأترك لك الكلب وأقدّم لك هدية أيضاً. ناده *طيّار* من الآن فصاعداً، وسأدلك على مقهى جميل في حيّ سوق ساروجة، ليس بعيداً من هنا. فقد أنقذ *طيّار* حياة صاحب المقهى كرم ذات يوم. وهو يعرف الكلب ويحبّه. وستتناول وجبة طعام ساخنة في المقهى ظهر كل يوم، وطيّار أيضاً، اتفقنا؟ كرم رجل كريم، لكنه لن يفعل ذلك إلا إذا ناديت الكلب باسم طيّار».

«حسناً. مستعد أن أسمّي حتى نفسي *طيّار* لأتناول وجبة طعام ساخنة. فلم أتناول وجبة ساخنة منذ عدة أيام. ما اسم المقهى؟»

«*مقهى كرم*»، قال سلمان وهو يربت على *طيّار* الذي غفا الآن، مطمئناً لسماعه صوتهما الودي، «سأكون هناك بين الثانية عشرة والثانية عشرة والنصف ظهراً» أضاف سلمان وذهب الى الورشة.

بدا أن كرم قد تغيّر كثيراً، فلم يُبدِ أي اهتمام بالكلب أو بالشحاذ، ورفض رفضاً قاطعاً أن يقدم للرجل وجبة طعام.

عندما رأى كرم سلمان قادماً، هزّ رأسه بغضب، ثم أمسكه من قميصه وجرّه إلى داخل المقهى، بينما كان درويش يطلب من الشحاذّ، وإن بتهذيب أكثر من رئيسه، أن يخرج وألّا يزعج زبائنه بكلبه، وأعطاه سراً سندويشة فلافل.

«هل أنت مجنون، ترسل هذا الشحاذّ المقمّل وكلبه الأجرب إلى المقهى؟» هسهس كرم لسلمان.

صُدم سلمان وشعر بالخجل. أراد أن يسأله ما الضير في أن يدع شحاذاً يجلس في المقهى لمرة واحدة في اليوم، لكن كرم لم يمنحه فرصة ليسأله، وإنما قال: «اخرس! هل تعرف مستوى الأشخاص الذين يأتون إلى هنا؟ من بينهم كبار الشخصيات، وزراء سابقون، ورئيس الوزراء الحالي وابن عمه، وصائغي ذهب وجواهرجية، وأساتذة جامعيون، ورجال دين، وشيخ الجامع الأموي، وكبار الضباط، ولم تفكّر في شيء أفضل من أن ترسل لي هذا الشحاذ الوقح. اخرج من مقهاي وخذ معك هذا الفم الصاخب»، صاح كرم غاضباً. في تلك اللحظة، سمع سلمان الشحاذ ينادي كلبه، «تعال يا عيني، تنبعث من هذا المكان رائحة نتنة مليئة بالجشع والانحلال. ليعاقب اللّه الرجل الذي جاء بنا إلى هنا. هيا يا عيني، هيا»، صاح ومضى بعيداً.

بكى سلمان بحرقة. كره المعلّم حميد الذي لم يمنحه لحظة هدوء في صباح ذلك اليوم، وكره كرم لأنه أحدث هذه الجلبة، لكنه كره نفسه قبل كل شيء.

لم يرَ الكلب مرة أخرى.

لم يعد سلمان يستخدم الدراجة إلّا عندما يذهب إلى بيت معلّمه كلّ يوم. كان يريد أن يتباهى بها أمام سكان «حوش الرحمة» لكنه

خشي أن يشي به أحد، لأن باسم وعلي اللذين يعملان في الورشة يسكنان بالقرب من «حوش الرحمة».

كان سلمان يرى دمشق عندما يطوف في أرجائها بدراجته بطريقة تختلف عما يراها وهو يتجول مشياً على الأقدام أو وهو راكب في الحافلة. لاحظ فجأة عدداً من الأجانب الذين يعملون في المدينة. في أحد الأيام، رأى فلاحاً يسير وراء دابته القوية المثقلة بالحمل لا تكاد ترى أمامها من تحت الجذوع والأغصان الطويلة التي تحملها. كان الفلاح ينادي بتعب وملل: «حطب. حاذر ظهرك. حطب».

كان والد سلمان قد قال له إن المزارعين يبيعون أخشاب الأشجار القديمة المريضة لأنها تدرّ عليهم مبالغ جيدة، وإنهم يحرقون روث البقر والقش الجاف فقط.

وصل المزارع إلى تقاطع شارع حيث يقف ثلاثة رجال متكئين على فؤوس عملاقة، يدخنون ويتبادلون النكات.

عندما اشترت امرأة جذعيْ شجرة، تقدّم أحد الرجال الثلاثة وراح يقطع الخشب إلى قطع صغيرة. إنه من أصل ألباني ويتقاضى أجراً زهيداً على عمله هنا.

والذين يعملون في شحذ السكاكين في دمشق أفغانيون، والذين يصلحون الساعات أرمن، وتجار السجّاد من إيران، وبائعو الفستق في شوارع المدينة من السودان.

في بداية شهر شباط، تحسّن الطقس، وبعد بضعة أيام مشمسة، تنفّس الدمشقيون الصعداء، وتحسّنت صحة أمّ سلمان أيضاً، فغادرت سريرها، وعاد شيء من اللون إلى خدّيها، ووضعت ألف خطة، لكن الطبيب حذّرها من أن ترهق نفسها، وتستنفد طاقتها.

في صباح أحد الأيام، فاجأت أمّه سلمان عند الإفطار، سألته

بشيء من الخجل: «هل تعرف ما الذي كنت أحلم به دائماً؟» فهزّ سلمان رأسه.

«أن أذهب في جولة على دراجتك. أقصد، لا أستطيع أن أقودها بنفسي، لكن إذا أخذتني عليها، فإني سأكون فخورة بك. هل ستفعل ذلك من أجلي؟»

فقال سلمان: «يسعدني أن أفعل ذلك».

بعد أن عاد سلمان من عمله في عصر أحد الأيام، دخل بدراجته عبر البوابة إلى باحة حوش الرحمة، ثم أحضر شرشفاً ووضعه على المقعد، وطلب من أمّه أن تجلس عليه.

قاد سلمان الدراجة متباهياً حول الباحة الكبيرة. خرج الجيران، رجالاً ونساءً، وجلسوا على كراسي واطئة أمام أبواب بيوتهم، ينظرون إلى المرأة السعيدة الجالسة على الدراجة. ألقى بركات، مساعد الخباز مع بناته الجميلات اللاتي تزوجن جميعهن الآن، إلى أمّ سلمان مروحة ورقية حمراء صغيرة مثبّتة على عصا. ضحكت أمّ سلمان، ورفعتها إلى الأعلى وبدأت الأشرعة الحمراء الصغيرة تدور في الهواء. لأول مرة في حياته، سمع سلمان أمّه تغني أغنية بهيجة.

دار سلمان بها أكثر من عشرين دورة، وجرى وراءه بعض الأطفال يصيحون بسعادة ويغنون ببهجة. وسار كلّ من توجد لديه دراجة وراء سلمان، ولم يتوقفوا عن قرع أجراس دراجاتهم. بدا كما لو أنه موكب عرس. وقف كامل، الشرطي، والد سارة، في وسط الباحة وراح يوجّه حركة المرور بصافرته ضاحكاً.

لاحظ سلمان كيف أن والد سارة بدا شاباً وسيماً بالمقارنة مع أمّها التي بدت عجوزاً ومتعبة في هذه الأيام - التي كانت تغار بقوة. تذكّر عندما قالت له سارة منذ سنوات، «إن أمّي تقتل غيرتها وتبتلعها مساء كلّ يوم وتقرر أن تثق بأبي، لكن الغيرة تنبعث مرة أخرى من

فمها المفتوح في الليل، وما إن يغادر أبي في الصباح الباكر، حتى تعود الغيرة تقفز على كتفي أمّي وتهمس لها بأن شكوكها لها ما يبررها، وتغذّي ذلك الشيء الرهيب الذي يتشبث بها مثل حيوان أليف، حتى يصبح في المساء بحجم الديك. وعندما يعود أبي إلى البيت من العمل متعباً، تخجل أمّي وتقبّله، تشعر بالذنب، وتذبح غيرتها وتأكلها من جديد».

دار سلمان عدة دورات على الدراجة مع أمّه حتى طلبت منه أن يتوقف. كانت منهكة لكنها سعيدة. توقف أمام باب منزلهم، ونزلت عن الدراجة وعانقته، وقالت له: «كانت هذه الجولة أفضل من الحلم الذي أحلم به منذ طفولتي».

بعد أسبوع دخلت في غيبوبة. غنّى لها سلمان أغانيها بصوت خفيض بجانب سريرها، لكنها لم تُبدِ أي تجاوب. كان يتخيّل أحياناً أنها تحرك يدها لتقول له إنها تريده أن يواصل الغناء.

في نهاية شباط، بعد أن فقد سلمان وظيفته بيوم واحد، ماتت أمّه في الليل. كانت مستلقية في سريرها لا تتحرك، وطيف ابتسامة على شفتيها. استيقظ سلمان على الجلبة التي أحدثها أبوه وهو يبكي مثل طفل، ويقبّل زوجته ويتوسل إليها أن تسامحه. وجد المروحة الورقية الحمراء الصغيرة تحت وسادتها.

بعد حادثة الشحاذ، لم يعد سلمان إلى مقهى كرم لعدة أيام، ولم يذهب إلى منزل كرم يوم الجمعة أيضاً.

بعد بضعة أيام، ذهب سلمان بالدراجة إلى ساحة بائع الأواني الفخارية ورأى كرم هناك. أقفل سلمان قفل الدراجة وحاول أن يختبئ بسرعة. «هيه، انتظر، إلى أين أنت ذاهب؟» صاح كرم بنبرة لطيفة تكاد تشي بشيء من التوسل.

لم يردّ سلمان لكنه توقف وخفض بصره. «يجب أن تفهمني»، قال كرم، «لا يمكنني أن أُطعم جميع الجياع في العالم».

«لم يطلب أحد منك أن تفعل ذلك. لقد أردت أن أرى الكلب مرة أخرى، ولم أستطع أن أخبرك مسبقاً في ذلك اليوم. أنا آسف، لكن يجب ألّا تشتمني وتقول إنني دمّرتك».

«لا، إنك لم تدمّرني. أنا آسف، وأرجو أن تسامحني» ثم سأله، «هل سنعود صديقين مرة أخرى؟». أومأ سلمان برأسه، فضمّه كرم إليه وعانقه.

سارا جنباً إلى جنب إلى المقهى. ثم سأله كرم، «حسناً ما هي الأحداث الجديدة على الصعيد الغرامي؟» لم يقل سلمان كلمة واحدة عن حبّه لنورا، لا بدافع الشك، وإنما لأنه لم يكن يريد أن يشارك أحداً هذا الشيء الثمين، حبّه.

«لا، لا يزال حبّاً من طرف واحد، من طرفي. قد تكون معجبة بي، فهي تعاملني بلطف، لكنها وفيّة جداً لزوجها، ولن تقيم علاقة مع شاب له أذنان بارزتان»، قال له، لكنه ابتسم في سريرته ابتسامة عريضة حتى كاد يصاب بالفواق.

31

رسائله هي التي جعلت أسمهان تنسى أنها لن تحبّ أحداً أبداً، لكن ما إن يدخل نصري إلى بيتها حتى تفقد السيطرة على قلبها ويختفي شعورها الذي طالما فرضته على نفسها برفض أي رجل، فلقد عادت عبر رسائل صبري الى تلك الفتاة الصغيرة التي تنتظر بشوق ولهفة كلمات الصبي الذي أحبّته آنذاك منذ أكثر من عشر سنوات، وتظل مستيقظة في الليل إذا تأخرت رسالة منه.

عندما أحبّت مالك، ابن جيرانها الشاحب الوجه، كانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، ولم يكن قد بلغ الخامسة عشرة من عمره بعد، لكنه كان يمتلك مفتاح الشعر السرّي الذي يفتح به قفل العوالم وراء الحروف المكتوبة ويريها لها. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد.

تنحدر أمّ أسمهان من أسرة غنية، وكانت ثالث امرأة في سوريا تنال شهادة الدراسة الثانوية قبل أن تنجب أسمهان بسنتين. وأما عائلة والدها فكانت من كبار تجار المدينة، لها روابط تجارية منذ العصور الوسطى مع فينيسيا، وفيينا، ولندن، ولوبيك. شغل أبوها منصب مدير مؤسسة التبغ. ومع أنه مسلم، فقد أرسلها هي وأبناءه الأربعة إلى مدارس مسيحية راقية، وكانت مدرستها التي تقع في حيّ

الصالحية لا تبعد كثيراً عن منزلها الحالي. أدارت المدرسة راهبات صارمات يرتدين ملابس غريبة ويضعن أغطية رأس ناصعة البياض لها أجنحة كبيرة ذات زوايا منحنية إلى الأعلى في كلا الجانبين. وعندما تمشي الراهبات، تعلو أغطية رؤوسهن وتهبط كما لو كن يضعن على رؤوسهن بجعات يرفرفن ليحافظن على توازنهن.

مع أنه توجد في المدرسة مكتبة ضخمة، لم يُسمح للطالبات أن يلمسن الكتب فيها، ولم يكن بوسع أسمهان أن تختار أيضاً ما الذي تريد أن تقرأه في البيت. فقد احتفظ أبوها بكتبه في خزانة لها واجهة زجاجية أنيقة. ومع الأيام حفظت أسمهان العناوين المكتوبة على أعقاب الكتب عن ظهر قلب، لكن لم يخطر ببالها قط أن تتناول كتاباً من رف الخزانة وتقرأه. قال لها مالك ذات مرة إن الكتب المحظورة شيقة تضم في طياتها، أكثر من الكتب الأخرى، كلّ ما هو قيّم ومهم يجب أن يعرفه المرء. في أحد الأيام، وجدت أسمهان مفتاح خزانة الكتب وأخرجت منها كتاباً عنوانه «*سرّ الكلمات*» كان قد سحرها. قال لها مالك إنه يعرف هذا الكتاب، وطلب منها أن تقرأه كله، فحتى الأشياء التي لا تفهمها ستتجمع في داخلها مثل برعم زهرة ينتظر اللحظة المناسبة حتى تتفتح وتظهر بتلاتها.

بعد مضي خمس سنوات، تمكنت أسمهان من قراءة جميع الكتب التي ضمّتها خزانة أبيها. كانت تأخذ معها دائماً كتاباً إلى لقاءاتها السرّية مع مالك وصارت كل مرة تقرأ له قصيدة أو حكاية عن الحبّ. كان مالك يزداد شحوباً عندما يستمع إليها، والدموع تسيل من عينيه عندما تتحدث القصيدة عن عذاب وتباريح الحبّ.

لم تر أسمهان طوال حياتها مستمعاً أفضل من مالك الذي كانت تشعر بأن الكلمات التي تقرأها تُجذَب بقوة بمغناطيس خفي داخل أذنيه إلى درجة أنه ينتزعها منها، فيدغدغ ذلك لسانها بطريقة غريبة

عندما تكلّمه مما يُشعرها بلذة تُحمّسها على المزيد من القراءة والكلام معه.

بعد أن تقرأ له قصيدة، يبدأ يشرح لها الإيحاءات التي توحي بها القصيدة، وتشعر كما لو أنه يمسكها بيدها ويقودها إلى حدائق المتعة السرية. لم يكن باستطاعة مالك قراءة الكلمات المرئية فحسب، وإنما رؤية جذورها الخفية أيضاً.

كانت تتسلل كلّ يوم تقريباً عبر فجوة سرّية في السياج إلى حديقة منزل والديه، ويلتقيان في غرفة مستودع الأدوات. كانت الحديقة الكبيرة قد تحولت إلى غابة من الأشجار والشجيرات البرية لأن والديه لا يحبّان العمل في الحديقة، ولم تكن لديهما رغبة في أن يعتنيا بالورود، ودالية العنب، وأشجار البرتقال، والتوت، وقد ورثا هذا البيت الرائع ببستانه الجميل وتركاه ليد الخراب. حتى قبل أن يهاجرا إلى أمريكا في عام ١٩٥٠، بدا المنزل الكبير آيلاً للخراب.

لكن هذه الهجرة تمْت بعد فترة طويلة، تزوجت أسمهان خلالها، وتوفي مالك قبل ذلك بثلاث سنوات.

ظلّا يلتقيان كل يوم تقريباً لمدة خمس سنوات. لم تلاحظ أمّها وإخوتها وأخواتها ذلك حتى توفي مالك.

كان ذلك أشبه بالإدمان على مخدر، يجلس هناك دائماً كأنه ينتظر قدومها، وكانت تغمره السعادة عندما تظهر.

عندما يجلسان على الأريكة الكبيرة القديمة المنجّدة بالمخمل الأحمر التي كانت ذات يوم أريكة فاخرة جداً، كان يلمس شفتيها بأصابعه الرقيقة ويقرأ لها قصائد عن جمال المرأة، ثم عرفت أنه كتب هذه القصائد ليحتفل بجمالها. كانت تنسى أصص الأزهار الفارغة والملقاة هنا وهناك، والمعدات الأخرى الصدأة التي تركها

الجنائنيون، وأباريق السقاية، وخرطوم الماء. تتأثر بكلماته، كما لو أنها انتقلت الى عالم آخر خُلق لهما وحدهما.

في أحد الأيام، أحضر مالك كتاباً ضخماً تملأ صفحاته كلمات لم تستطع أن تقرأها مكتوبة في شكل خطوط متداخلة. استطاعت أن تقرأ كلمة هنا وحرفاً هناك، لكن الشيء كلّه ظلّ لغزاً بالنسبة لها. بدت لها تلك الأشكال والحروف مثل غابة أنيقة من الحبر الأسود تفصل بينها فراغات بيضاء.

قبّلها كثيراً في ذلك اليوم حتى اعتراها شعور بالدوار. أخذ سبابتها وراح يمررها فوق الحروف المرسومة على الصفحة حتى بدأت تشعر أن تلك الحروف تتدفق الى داخلها. كان الكتاب مفتوحاً أمامها على طاولة قديمة واطئة. انحنى مالك بجانب الصفحة وأخذ يتتبع طريقه عبر متاهة الخطوط والمنحنيات والنقاط. بدا جميلاً جداً في ذلك الضوء المتساقط عبر النافذة الزجاجية الملونة. عندما قبّلت شحمة أذنه، ابتسم ومرّر إصبعه فوق كلمة رأتها الآن تتحرر وتنطلق من غابة الحروف والأشكال، فاستطاعت أن تقرأها: *الحبّ*. وفي يوم آخر، رأته جالساً في غرفة المستودع يضع أمامه كتاباً كبيراً. ما إن رآها، حتى نهض واقفاً وابتسم لها، وأمسكها بيدها وقادها إلى الأريكة وقبّلها حتى اعتراها شعور بالاضطراب. شعرت بالخوف منه لأنه بدا مهتاجاً وكأنه في حالة جنون. استلقت تحته. لم يقبّلها على شفتيها ورقبتها وخدّيها فقط، وإنما هبطت قبلاته حتى حزامها فقبّله، وكان يتلمس طريقه كأنه رجل أعمى، فقبّل ساعة يدها، ثم قبّل فستانها وركبتيها وسروالها الداخلي، وكان ينبعث منه صوت يشبه صوت نحيب ناعم لطفل جائع يبحث عن ثدي أمه.

ثم ابتسم، واعتدل في جلسته وانتظر حتى اعتدلت في جلستها

أيضاً، فأمسك سبابتها اليمنى بيده وراح يمررها فوق كلمات أول زخرفة كبيرة في الكتاب.

كانت أبياتاً من قصيدة حسيّة مثيرة، وسرعان ما أدركت أنه كتاب حبّ ممنوع، عاش مؤلفه في القرن الرابع عشر، وجمع قصائد جريئة من جميع أنحاء العالم وكتبها بخط فني ليحفظها ولا يستطيع أحد قراءة الأسرار المخفية بين تلك الحروف إلّا إذا كان خبيراً. أما الذين لا يتقنون فنّ الخطّ، فإن هذه الكلمات تبدو لهم مجرد زخارف جميلة.

صفحة بعد صفحة، تصف الحبّ الممنوع والممارسات الغرامية والشوق المتأجج للمس المحبوب. ومرة تلو الأخرى، تحتفل تلك القصائد بالجمال الجسدي للرجل والمرأة بتفاصيل دقيقة. ترد غالباً عبارة دينية يسهل قراءتها في الصفحة فوق القصيدة الإيروتيكية للتمويه. ظلّ مالك يمرّر إصبع أسمهان فوق تلك الحروف والكلمات حتى أحست بشوق يستعر نحوه، فضمّته إليها وأنصتت إلى خفقات قلبه السريعة وهي مستلقية فوقه.

أحبّته بشهوة عارمة وبراءة كبيرة في الوقت نفسه. مضت الأيام والشهور والسنوات كما لو أنها مرّت في ثانية واحدة، إلى درجة أنها لم تعد تستطيع أن تميّز بين تلك السنوات، ولم تستيقظ إلّا عندما أصيب بمرض شديد فجأة.

ألم تعرف طوال تلك السنوات أنه مصاب بمرض عضال؟ ألم يملأ الخوف قلبها؟ لماذا رسمت خططاً كثيرة في أحلام يقظتها وهي تعرف جيداً أنه لن يبرأ من مرض القلب الذي أصيب به؟ هل أحبّته إلى درجة العبادة كي تبقيه حيّاً مدة أطول؟

فوجئت عندما طرقت أخته ذات يوم باب منزلها، وتمتمت بعينيها المطرقتين، أن مالك يحتضر وأنه يرغب في رؤيتها. جرت

أسمهان في الحال إلى المستشفى الإيطالي البعيد عن بيتها في المدينة. كانت غرفته مليئة بالناس. عندما رآها مالك ابتسم. في الصمت الذي خيّم فجأة، همس، «ها هي، ها هي».

لفتت نظرات الحاضرين المستهجنة انتباهها إلى أنها لا تزال تنتعل خُفَّها المنزلي. «اقتربي، أريد أن أريكِ شيئاً»، قال لها مالك بصوتٍ يكاد لا يُسمع، لكنها فهمتها بوضوح وهي لا تزال واقفة أمام الباب، كما لو كانت الكلمات تهمس في أذنها. تسمّرت قدماها في الأرض كما لو أن نظرات الآخرين أثقلتهما بالرصاص.

«أريد أن أكون وحدي»، سمعت مالك يقول لأمّه التي تمسك بيده، عيناها حمراوان ومنتفختان. جلست أسمهان على طرف السرير، وعندما مدّ يده إليها، نظرت حولها محرجة، لكن الغرفة أصبحت فارغة فجأة كما لو أن يداً سحرية أفرغتها.

قال لها بصوت حزين: «لقد كتبتُ لك هذه»، وأخرج من الدرج الصغير بجانب السرير حزمة صغيرة مستطيلة ملفوفة اعتباطاً بورقة صرّ رُبطت بخيط سميك. حلّت أسمهان العقدة الضيقة بأصابعها المرتجفة ومزّقت الورقة بسرعة. ظهرت لوحة خطّ صغيرة في إطار. بدت الكلمات متشابكة، في شكل وردة.

قال مالك محاولاً أن يتنفّس بصعوبة: «عندما تستطيعين أن تقرئي هذه، ستتذكرينني».

«الحبّ هو المرض الوحيد الذي لا أريد الشفاء منه»، قرأت بعد ستة أشهر عندما تمكنت من حلّ لغزها. رافقتها هذه اللوحة الصغيرة المؤطرة طوال حياتها مثل أيقونة. ومنذ تلك الساعة ارتبط الخط الجميل بحبها لمالك.

بعد زيارتها للمستشفى بيومين، استيقظت من كابوس عند الفجر. سمعت أحداً يناديها، فركضت من غرفتها إلى الشرفة

الصغيرة. كان والداها وإخوتها الصغار الثلاثة لا يزالون نائمين في غرفهم في الجانب الآخر من غرفتها. لم تر أحداً فعادت الى فراشها.

بعد فترة قصيرة، علمت أسمهان من أخت مالك التي كانت تنام على أرضية الغرفة بجانب سريره طوال الليالي التي أمضتها في المستشفى، أنه في تلك الساعة من الصباح التي ركضت فيها أسمهان إلى الشرفة، بدأ مالك يلفظ أنفاسه الأخيرة، نادى اسمها بصوت مسموع.

لم يكن مالك قد بلغ العشرين عندما مات، ولم تتجاوز أسمهان آنذاك الخامسة عشرة. بعد أسبوع أصيبت بالحمّى وأغمي عليها. عندما استعادت وعيها، كانت أمّها قد عرفت كلّ شيء عن علاقتها بمالك. كيف عرفت، ظلّ ذلك سرّاً من أسرارها. واست أسمهان وسألتها إن كان كلّ شيء على ما يرام «في الأسفل»، واطمأنت عندما اكتشفت أن أسمهان لا تزال عذراء.

منذ ذلك الوقت، أخذت أسمهان عهداً على نفسها بأنها لن تحبّ أحداً مرة أخرى، وأعلنت عن موت قلبها، لكنها لم تعرف آنذاك أن القلوب لا تملك عقلاً لتفهم إعلاناً كهذا.

عندما كبرت وازدادت أنوثة، كانت نظرات الرجال التي ترمقها بشهوانية تزيدها بروداً.

«ماذا تعني خمسة عشر؟ لديها خبرة في الحبّ أكثر مما لديّ»، قالت أمّها لأبيها في ذلك المساء، «يجب أن تتزوج».

بعد سنة، زُوِّجت أسمهان من ابن عمها الذي يكبرها بعشر سنوات، جراح مشهور في الطبّ الشرعي سيء الأخلاق، يعرف عن الجثث أكثر مما يعرف عن الأجساد والعقول الحية.

في مطلع عام ١٩٥٠، تلقّى والد أسمهان رسالة رائعة من

فلوريدا. جاءت الرسالة في حينها، فقد خسر أمواله كلها في المضاربات، وأصبح يعيش على مرتّبه كمدير لمؤسسة التبغ، لكن سرعان ما تراكمت الديون عليه لأنه لم يغيّر أسلوب حياته السابقة، وبعد ستة شهور، أجبره تراكم الديون على رهن البيت. وصلته هذه الرسالة الآن كأنها تدخّل إلهي في اللحظة الأخيرة. فقد كان عم والدها رجلاً غنياً يملك فندقاً ولم ينجب أطفالاً. بعد عدة طلاقات وإجراءات قانونية خسر فيها أموالاً كثيرة، بدأ يكره الأمريكيين. ولكي لا ترث الحكومة الأمريكية ثروته الكبيرة بعد حياة طويلة ومضنية من العمل، أرسل إلى ابن أخيه الوحيد الذي عرفه قبل أن يهاجر. طلب منه أن يأتي إلى أمريكا ويحصل على بطاقة إقامة ويرث ممتلكاته. تذكرة الطيران التي أرسلها أقنعت والد أسمهان أن هذه ليست مزحة سمجة.

بعد ثلاثة أسابيع، حصل على الأوراق اللازمة، وصفّى أعماله في دمشق، وهاجر مع أفراد أسرته الآخرين.

كان وداعاً مؤثراً في مرفأ بيروت. بكى الجميع ما عدا زوج أسمهان الذي ظل يضحك ويمزح طوال الوقت. شعرت أسمهان بالنفور من هذا الرجل، وانتظرت حتى غادرت السفينة الميناء، ثم قالت له ما يجول في رأسها. تشاجرا في طريق عودتهما إلى دمشق، وقبل أن يصلا إلى البيت بمسافة قصيرة طلبت منه أن يطلّقها.

فقال لها وهو يضحك بفظاظة: «لن أطلّقك قبل أن أجد عشيقة أجمل منك، وإذا كنت مستعجلة يمكنك أن تجدي لي امرأة أخرى»، واهتزّ جسده كلّه من الضحك حتى كاد يفقد السيطرة على قيادة السيارة.

بعد أسبوع، اتخذت أسمهان أول عشيق لها. ففي حفل استقبال أقامه وزير الثقافة حينذاك، فؤاد الشايب، كانت موضع حسد من

جميع النسوة الموجودات هناك، وتودد إليها جميع الرجال ذوي النفوذ والمناصب العليا، فاختارت واحداً منهم.

استمتعت بالشمبانيا الذي احتسته، ولاحظت الرجال يحومون حولها ويتبخترون كالديوك. بدوا لها صبية صغاراً، معتدّين بأنفسهم، حمقى، غير جديرين بالثقة. ورأت كيف أن زوجها المتغطرس أصبح وضيعاً ومطأطئاً فجأة أمام وزير الصحة، ووزير الصحة أمام رئيس الوزراء، ورئيس الوزراء أمام قائد القوات المسلحة القزم ذي الأنف الأحمر المليء بالندوب الذي تتدلّى منه نياشين بألوان زاهية وحليّ زائفة أخرى تنبعث منها صلصلة وصوت معدني كلما تحرك. كان يشبه القرد الذي رأته أسمهان في سيرك في طفولتها. وارتدى القرد آنذاك بدلة مزخرفة كالتي يرتديها نابليون، ووقف منتصباً عندما أُمِرَ بذلك، وأدى التحية العسكرية، وابتسم ابتسامة شنيعة طوال الوقت.

«أحد هؤلاء القرود سيمسح تلك الابتسامة عن وجهك»، همست أسمهان لنفسها عندما ضحك زوجها مرة أخرى بصوت مرتفع. ابتسمت لمضيفهما فؤاد الشايب، وهو رجل قصير نحيف ذو قسمات فاتنة من قرية معلولا المسيحية. شخص مثقف، ومتحدث لبق. أُعجبت به. ومع أنه كان على درجة عالية من الثقافة، لكنه لم يكن قوياً بما يكفي للمهمة التي أعدّتها أسمهان لعشيقها القادم. وجدت بعد فترة قصيرة في ذلك المساء الرجل المؤهل لذلك وهو ذاك الرجل الذي صارت ضحكاته في تلك الليلة أعلى وأكثر بدائية من ضحكات زوجها: وزير الداخلية، سعيد بدرخان الذي كان مغامراً جريئاً من أغنى العائلات في شمال سوريا، وكان سلوكه يتطابق مع منبته المتعجرف.

أصبح الأداة الذي كنس زوجها كما يُكنس بيدق من على لوحة شطرنج. وهكذا فعل. فبعد ستة شهور، عرف العالم كلّه عن

علاقتهما، ووافق زوجها على أن يطلّقها لتجنب مزيد من الفضائح، وحذّره وزير الداخلية بأنه إذا لمس شعرة واحدة من رأس أسمهان، فلن يعود باستطاعته أن يشرّح جثثاً أخرى في المستقبل، لأنه سيكون إحدى تلك الجثث. خرجت أسمهان من البيت وأعطاها عشيقها المنزل الصغير القريب من مبنى البرلمان. بعد شهرين مات سعيد بدرخان في حادث سير غامض. من المؤكد أنه تم العبث بفرامل سيارته. واختفت الملفات المتعلقة بالحادث، ولم تستجب الحكومة للشائعات التي دارت حول مقتله بأمر من رئيس الجمهورية لأن سعيد بدرخان أعدّ ملفاً في وزارة الداخلية عن الرشوة والانحلال والعيوب الأخرى لرئيس الدولة. ونشرت أرملته هذه القصّة عن طريق صحفي بأن علاقته مع عاهرة شابة كلفته حياته، لأن طليق المرأة الشاب قتله انتقاماً لشرفه.

لم تتأثر أسمهان بكل ذلك، وسواء أكان ذلك بالصدفة أم لا، فقد نامت في اليوم التالي للجنازة مع رجل لقاء مبلغ من المال لأول مرة. كان عضواً في البرلمان وكريماً جداً. وهو الذي نصحها أيضاً بألّا تطلب مبلغاً ثابتاً. «انظري حولك، وسترين أنه لا توضع أسعار على السلع الراقية التي تعرض في واجهات المحلات. كوني انتقائية وذكية في اختيار زبائنك، وسيأتون إليك وسيكافئونك أكثر مما تتخيلين إذا أسعدتهم».

تبيّن أن كلمات النائب تنبُّئية. وسرعان ما أصبح زبائن أسمهان رجال من أرقى الطبقات. وقيل لاحقاً إنها تكسب في أسبوع أكثر مما يتقاضاه رئيس الوزراء في شهر، أو ما يكسبه أستاذ مدرسة ثانوية في سنة، وعرفت أسمهان كيف تستثمر هذه الأموال جيداً.

بعد طلاقها بثلاثة أشهر، دخل نصري إلى صالونها. منذ

البداية، بدا لها شخصاً مميّزاً. يعرف كلّ الألاعيب والحيل، ويعرف نصف المدينة فوق الأرض وتحتها، كما قال لها ذات مرة مازحاً. كان نصري مبذراً وكريماً يتمتع بذائقة ممتازة. قاومت أسمهان إبداء مشاعرها له لفترة طويلة، لكن رسائل نصري مع لوحات الخطّ التي بدأ يقدمها لها كانت موجات عنيفة وعالية ارتطمت بالسدّ الذي أقامته وحطمته.

نسيت العهد الذي قطعته على نفسها بألّا تحب أحداً وأُغرمت به كثيراً بعد الرسالة الثالثة أو الرابعة. كانت تلك الرسائل هي التي أعادتها إلى الحياة ونقلت إليها إحساساً بخفة عظيمة صعّبت الحياة عليها، فلم يعد باستطاعتها أن تستلقي غير مبالية في أحضان الرجال الآخرين. كانت تبتسم ابتسامة مصطنعة كقناع، لكن بعض زبائنها المتمرّسين استطاعوا رؤية ما وراءها. لم يسروا لذلك، ولم يعودوا يقولون لها عند مغادرتهم إنهم شعروا كأنهم في الجنة، وإنما بدأوا يكلمونها كما لو كانوا أطباء ويقولون لها إنها كانت متوترة، متصلّبة، ولم تفعل ذلك من كلّ قلبها.

لم تتصور آنذاك أن يمرّ يوم دون أن ترى نصري، تشمّه، وتمنح له نفسها، نصري الذي كان يزورها ظهر كلّ يوم.

وعلى الرغم من ذلك، كاد يُصدم عندما قالت له إنها يمكن أن تعيش معه وله وحده فقط. فلم يعد يكتب لها رسائل، وقلّل عدد زياراته لها، وبدأ يراوغها ويلف ويدور كلما تلفنت له. كانت تلك أربعة من أسوأ أسابيع في حياتها. بدا لها كأن نصري قد اختفى. كانت قلقة جداً، وذهبت إلى مكتبه في صباح أحد الأيام. وجدته جالساً يضحك مع مساعده ذي الشعر الأشيب. عندما رآها تغيّرت تعابير وجهه. خرج مساعده من المكتب بسرعة ومن دون صوت، مثل رجل وصل إلى بر الأمان من خطر عاصفة رعدية قوية.

«ماذا تفعلين هنا؟» سألها نصري بفظاظة.

«أبحث عنك. كنت قلقة عليك. ألستَ سعيداً برؤيتي؟» ونظرت إليه نظرة مليئة بالتوسل. لم يجبها لكنه ابتسم مرتبكاً وادّعى أنه مشغول، ووعدها بأنه سيزورها قريباً، لكنه لم يفعل.

عندما عادت إلى مكتبه مرة أخرى - بعد فترة طويلة - أمسكها توفيق، المساعد ذو الشعر الأشيب، من ذراعها ولم يدعها تدخل، وقال لها: «هذه شركة محترمة وليست بيت دعارة»، ودفعها نحو الدرج وأغلق الباب.

رنّت الكلمات التي سمعتها ذات مرة من عاهرة عجوز سكرانة برعب: «عندما يرفضك أحدهم لأول مرة، فاعلمي أنك قد تجاوزت ذروتك، وبدأ الطريق إلى أسفل المنحدر وسيمضي بأسرع مما تظنين».

«لا»، صاحت عندما استفاقت لِما لحقها من إهانة ذلك الرجل الحقير. هبطت الدرج بسرعة وخرجت من المبنى. أقسمت أن تنتقم، وعادت إلى عملها، آملةً أن تساعدها طلبات زبائنها وترانيم الثناء عليها على نسيان الجروح التي أصابتها. لم تنتظر طويلاً. كان أول زبون يزورها، حلواني شهير، أغدق عليها المديح عندما غادر وقال إنه يشعر بالرضا أكثر من أي شخص آخر.

إطراء زبائنها لها سرعان ما جعلها تنسى كلمات تلك العاهرة العجوز. لكنها قررت أن تتوقف عن العمل نهائياً إذا رفضها شخص آخر، وستنتقل لتعيش على شاطئ البحر في اللاذقية أو طرطوس وتدّعي أنها أرملة شابة وتفتح مقهى هناك. ستعيش هناك ولن تعمل عاهرة مرة أخرى، لكنها ستنتظر بفضول أي مفاجآت قد تجلبها لها الحياة. «لديَّ قدر كاف من المال لأعيش في أمان»، قالت لنفسها.

32

لم ترهب نصري ساقه المكسورة أو غيرة زوجته الرابعة ألماز. وفي بداية شباط، بدأ يمشي من دون عكازات، وركّب سلّماً حلزونياً من الحديد يصعد من الطابق الأول إلى العليّة.

لم يخبر حميد شيئاً عما حدث له، وإنما أبلغه بحماسة شديدة عن تأثير الرسالة الأولى الرائع وطلب منه أن يكتب له رسالة ثانية، وأملى عليه بضعة تفاصيل عن ضحكة المرأة ويديها الناعمتين البضتين، وعندما همّ بمغادرة المحترف، قال له الخطّاط، «شكراً لأنك لم تتراجع».

«أتراجع؟ لماذا أتراجع؟»

«بسبب الابتزاز المشين والمخزي الذي يمارسه أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم *الأنقياء*. فقد أرسلوا أحد المتعصبين الملتحين ليقابل مدير أعمالك. تلفن لي وأعرب عن قلقه، وأكدت له أن الرئيس شكري القوتلي يشارك في المشروع، بالإضافة إلى مشايخ الجامع الأموي ومفتي الجمهورية وصولاً إلى جميع البطاركة المسيحيين. لا أعرف كيف وصل الخبر إلى عقولهم الغبية».

سمع نصري عن جماعة «*الأنقياء*» منذ بضع سنوات، وكان أخوه الأصغر يتعاطف معهم سرّاً، أما هو فلم يستطع أن يتحمّلهم فقد بدوا له مثل رسوم كاريكاتورية لعرب قبيحين، ويعتبر دعوتهم سخيفة،

لكنهم يشكّلون خطراً على الناس، ويريدون القضاء على الجمهورية والديمقراطية والأحزاب السياسية والعودة إلى حكم الشريعة والخلافة. وبما أنهم جماعة لا أمل لهم بالنجاح في المجتمع السوري المنفتح والمختلط دينياً وثقافياً، فقد أنشأوا جيشاً سرّياً يتصرّف بعداء شديد وابتزاز وتحريض، وازداد عدد محاولات الاغتيال التي يقومون بها. وكان أعضاء جماعة «*الأنقياء*» المتميّزين يلقون محاضرات تشيد بماضي العرب المجيد الذي يريدون استعادته.

«لكن استمع إليّ. إنهم لا يعرفون نصري قباني. بدأت أعتبر الآن مدرستك ضرورة ملحة». لم يكترث حمدي لنبرته العاطفية، لأنه في الواقع يعتبر الخطّ فناً غير مؤذ.

«حسناً، أثناء معاركك مع أولئك الملتحين، لا تنسَ رسالتي، فهناك رجل ملتح آخر بحاجة ماسة إليها»، قال وضحك ضحكة تشي بشيء من العجرفة، ومدّ يده نحو حميد وغادر قبل أن يفهم الخطّاط قصده.

بعد ثلاثة أيام، ألقى نصري الرسالة التالية وأبحرت في الهواء. كانت المرأة الحسناء جالسة في باحة البيت، تنسخ شيئاً من كتاب ضخم إلى دفتر ملاحظات. عندما رأته يطلّ من نافذته الصغيرة، ابتسمت. وضع نصري في الرسالة قطعة نقدية ذهبية أخرى واقترح في الرسالة أن يلتقيا في مكان تختاره هي.

ضحكت المرأة وأخذت الرسالة، واختفت.

انطلق حميد فارسي في منتصف كانون الأول في رحلة ثانية جاب فيها أرجاء سوريا لجمع تبرعات وإقناع الأشخاص المؤثرين بضرورة دعم مدرسة الخط التي يزمع إنشاءها. عندما تدفقت تبرعات سخية، بدأ يفكّر في افتتاح مدرسة ثانية في حلب، عاصمة شمال

سوريا، بعد أن يفتتح المدرسة الأولى في دمشق، ثم سينشئ خمسة فروع أخرى في المدن السورية الرئيسية، لكن المركز الرئيسي سيكون في دمشق.

لكنه أصرّ على رؤيته بأن الوقت قد حان لإجراء إصلاح جذري على الأحرف العربية واعتبر ذلك أهم من التبرعات التي يجمعها. لكن عندما شرح أفكاره السنة الماضية لأعضاء مجلس الحكماء، أعلى هيئة في جمعية الحكماء، سخروا منه، ورأى حفنة من الجبناء أن خطّته ستعمل على تقويض المجتمع، وتهديم مدرسة الخط فوق رؤوسهم وقالوا إنهم يفضّلون أن يبقوا بسلام هكذا لمئة سنة أخرى. وعندما أصرّ على خطته وقال إنه مستعد لتحمّل كامل المسؤولية - حتى لو كلّفه ذلك حياته - صفّقت له تلك الأيدي التي كانت قبل قليل تشير إليه بارتياب.

شهدت سوريا فترة انتعاش، وكانت كلّ الطرق مشرعة، حتى تلك التي لم يجرؤ أحد أن يحلم بها قبل بضع سنوات فقط.

في منتصف شباط، استقلّ حميد الحافلة المتّجهة من دمشق إلى حلب التي انطلقت عند الساعة التاسعة صباحاً بعد تأخير دام ساعة، وسارت في شوارع المدينة المزدحمة حتى خرج السائق بها إلى الطريق السريع إلى حلب عند مدخل المدينة الشمالي.

عندما مرت الحافلة في شارع بور سعيد، رأى نصري قباني منهمكاً في حديث مع الصيدلي المعروف إلياس أشقر خارج الصيدلية. بدا أنهما صديقان وثيقان. تساءل حميد لماذا لا يستطيع أن يقيم صداقة وثيقة كهذه مع نصري قباني المرموق والسخي الذي قدّم، بقصد منه أم من دون قصد، دعماً كبيراً لجمعية الحكماء.

لم يثق الكثيرون من أعضاء الجمعية بنصري قباني الثري

المنغمس في متاع الدنيا، وأراد آخرون أن يحصلوا على نقوده من دون أن يُذكر اسمه في لوحة الشرف.

في الاجتماع الذي نوقشت فيه هذه المسألة، أبدى حميد انزعاجه، وسأل «هل سيتصرف مجلس الحكماء كما تتصرّف النسوة اللاتي يثرثرن عن خبر ما وهنّ يحتسين القهوة حتى تتحول إلى شائعة سفيهة، أم أنهم معنيون بتحقيق أفكارهم؟ إننا لا نريد أن نتزوج نصري قباني، وإنما نريد أن نحصل على دعمه ووقوفه إلى جانبنا، لذلك لا علاقة لنا إن كان يرتاد عاهرات أم لا، وهل يعرف أحد منكم كم مرة يخون هذا الوزير، أو ذاك الضابط الكبير، أو رجل الدين، أو رجل الأعمال، زوجته أو زبائنه أو اللّه؟»

صفّق الحاضرون له. للحظة وجدهم مُنَفِّرين إلى درجة أن قشعريرة سرت في عموده الفقري. جدار بارد كالثلج فصله عن الأعضاء الجالسين، كما فصله عن قباني الذي دافع عنه.

كان حميد ينوي البقاء في حلب ثلاثة أيام، ثم سينطلق إلى إسطنبول ليشارك في مؤتمر للخطاطين الإسلاميين الذي سيعقد في تلك المدينة، ويتفاوض فيها على أعمال مهمة. فقد كان من المقرر بناء مسجد جديد في أنقرة تموّله السعودية، يشارك في تصميمه خطاطون مشهورون. فدُعي إلى المؤتمر ثلاثة من كبار الخطاطين العرب، ورأى حميد أن أمامه فرصة جيدة.

بعد مغادرته بيوم، بدأ مساعدو حميد في محترفه يعملون ساعات أقل ويأخذون فترات استراحة أطول.

كان صمد خطاطاً جيداً من الناحية التقنية، يجيد كل فنون الخطّ، لكنه لم يخرج قط عن القواعد الراسخة. «إذا لم تتجاوز الحدود، فلن تكون خطاطاً كبيراً أبداً»، قال له حميد ذات يوم، لكن

صمد كان يفتقر إلى الطموح والخيال، ولم يرغب في أن يكرس حياته، مثل حميد فارسي، للخطّ فقط. فقد كان يحبّ زوجته وأبناءه الثلاثة كثيراً، يطبخ لهم ويغني لهم، ويرى أن هؤلاء الأشخاص الأربعة يوفرون له كل أسباب الحياة التي يعيش من أجلها، ويرى الخطّ مهنة جيدة يكسب منها مبلغاً جيداً من المال، لا أكثر من ذلك. بالطبع لم يذكر ذلك لأحد، لأنه لو فعل ذلك، لفقد عمله، وكان يعرف جيداً أنه لو عمل في مكان آخر لما كسب ما يكسبه بالعمل مع حميد الذي أصبح يده اليمنى منذ عقود.

كان صمد يعبّر لزملائه عن تقديره لعملهم، لذلك أحبّوه، وكانوا يخافون من حميد. كانوا يشعرون بالسعادة دائماً عندما يغيب معلّمهم، لأن صمد كان يدعهم يذهبون إلى بيوتهم في وقت مبكّر من المساء. كان على أحدهم أن يبقى في الورشة لتلقّي الطلبات التي قد ترد عن طريق الهاتف حتى السادسة مساء.

عندما عاد حميد من رحلته لم يكن رائق المزاج. فلم يعجبه الاجتماع في حلب، وفي إسطنبول كُلِّف خطاط مصري بالعمل في المسجد. «أراد الأتراك تكليفي بالعمل، لكن المندوب السعودي استبعدني لأنه ظن أنني شيعي. لم يعرف هذا الغبي أنه قد تكون كنية شخص فارسي وهو سنّي»، قال ساخطاً. ولم يقل شيئاً عن الاجتماع الذي عقد في حلب والذي احتجّ فيه الخطاطون بشدة على فكرة إنشاء مدرسة الخطّ الرئيسية في دمشق، وسألوا لماذا لا تُنشأ في حلب بعيداً عن مركز السلطة؟ ولمن ستكون الكلمة الفصل في الجمعية؟ وقالوا غاضبين صحيح أن البلد ديمقراطي لكن المجتمع لا يزال عالقاً في نظام الخلافة حيث يمكن لزعيم كبير أن يخلف إرثه لشخص يختاره من بعده. لا يمكن أن يكون ذلك. لكن حميد تشبث بموقفه.

وهدأ أخيراً كبار الخطاطين ووافقوا بالإجماع على دعم مشروعه لإنشاء مدرسة الخطّ الرئيسية في دمشق.

«الحلبيون يتشاجرون بحدّة لكنهم لا يتخلّون عن أصدقائهم على عكس الدمشقيين الذين قلما يتشاجرون لكنهم يتخلّون عن أصدقائهم بسهولة»، قال رئيس القسم هناك بكبرياء. آلمت هذه الملاحظة الجارحة حميد.

أدرك حميد فيما بعد أن الاجتماع في حلب لم يكن سيئاً كما خيّل إليه. فقد التقى بالخطاط علي بركة، وهو شاب صغير دعم كبير الخطاطين بقوة ومن دون تحفظات وأنصت من دون أن يتأثر بهجوم الآخرين عليه. كان علي بركة يحبّ حميد فارسي كثيراً ويؤمن بكل كلمة يقولها، فقرر حميد أن يرشحه خليفة له، بأمل أن يحظى بذلك تعاطفاً من الخطاطين في حلب، لكن الأوان قد فات.

عندما عاد إلى المحترف فور وصوله إلى دمشق ووجد كل شيء نظيفاً ومرتباً ومنظماً، شعر بالاطمئنان. راودته رغبة قوية في أن يدوّن أفكاره وانطباعاته عن رحلته إلى حلب وإسطنبول. طلب من سلمان أن يعدّ له فنجان قهوة، وفتح الخزانة المقفلة، وأخرج الدفتر السميك الذي يدوّن فيه أفكاره وأسراره. عندما فتح الخزانة، أدرك أن أحداً عبث في القفل.

كان كلّ شيء موجوداً في الخزانة، لكنه عندما فتح الدفتر ذا الجلد الأسود، رأى أن يد شخص غريب غليظة قد عبثت به. رأى تمزّقاً في الغلاف. لا بدّ أن أحداً فتح الدفتر عنوة. تمزّق كهذا لا يمكن إصلاحه. لو كان تجليد الكتاب سيئاً لسقطت الصفحات منه، لكن بما أنه مجلد تجليداً متيناً، فقد ظلت الأوراق سليمة في داخله.

كان معلّمه سيراني قد أهداه له وجلّده له مجلّد الكتب المعروف سليم بقلان.

انفجر حميد. صاح غاضباً اهتزّت أركان المحترف من صوته. نادى صمد وحاسبه على تقصيره. وقف مساعده أمامه مطرق الرأس وبدأ يتساءل من هو الشخص في الورشة الذي لم يسلك بشكل طبيعي في الأيام القليلة الماضية. لم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، إنه سلمان.

عندما توقف حميد عن الصياح لأنه بدأ يلهث، وبدأ سكان الحيّ يتجمعون خارج واجهة المحترف، نظر صمد إليه باحتقار، وقال: «إنك توبخني حتى أبدو سخيفاً أمام جيراننا، سامحك اللّه. لكنّي لم أفعل شيئاً يستحق ذلك. يستطيع أي شخص أن يقتحم أي مكان في هذه الأيام، لكن عندما أنظر إلى الخزانة الآن فإني أرى أنها ظاهرة للجميع، ولا أستبعد أن يكون مجرماً محترفاً قد اقتحم المحترف في الليل وسرق دفترك، أو ورقة ذهب، أو سكينك، أو أي شيء آخر. كان بإمكانك أن تشتري خزنة فولاذية، لكنّي سمعت أن ملك اللصوص الدمشقيين يستطيع أن يفتح أي خزنة في المدينة بعينين معصوبتين». صمت صمد قليلاً، ثم أضاف: «لكن لو كنت قد استمعت إليّ، فإني أقول لك اطرد سلمان. أشعر أن هناك شيئاً خفياً في هذا الفتى».

رفع حميد عينيه اللتين كانتا تحترقان، وقال بصوت متصدّع: «اطرده، إذن».

33

في الأيام القليلة التالية، غمرت حميد فارسي السعادة عندما وجد أن التحضيرات لإنشاء مدرسة الخطّ تجري بسرعة. فقد بدأ عمال الديكور والكهربائيون والحدادون والنجارون يعملون ليل نهار لترميم المبنى ويطلونه بطلاء جديد قبل الافتتاح بأسبوع.

كان من المقرر أن يكون يوم الافتتاح في الأول من شهر آذار. ومن بين مئة وعشرين مدعواً بارزاً، رفض أربعة أشخاص فقط حضور الحفل، وغطت جميع الصحف والمجلات الصادرة في دمشق هذه المناسبة، حتى أن أهم صحيفة لبنانية، *النهار*، كتبت تقريراً مطولاً عنه.

قبل يومين من افتتاح مدرسة الخطّ، تلقّى نصري الذي كاد يشعر باليأس رسالته الثالثة بخطّ كبير الخطاطين حميد فارسي، يسأله فيها هل أخفق في إحراز أي تقدم مع حبيبته؟ فقد كانت الرسالة التي كتبها حميد لعشيقة نصري مليئة بملامة حزينة لأنها تلعب معه لعبة الغميضة، وسألها فيها عن سبب عدم لقائه. تعجب حميد من عدم رد المرأة على نصري رغم أنه نسخ قصيدتين من مجموعة أشعار قديمة تعود إلى القرن السابع تتحدثان عن لوعة الحبيب للقاء معشوقته. كان حميد يأمل بصدق أن يتمكن نصري من أن يداعب قلبها بهذه الرسالة الثالثة.

ذهب نصري إلى مكتبه أولاً وناقش مسألة هامة مع توفيق، ثم ذهب لزيارة زوجته ألماز التي أصيبت بنزلة برد شديدة، ليطمئن بأنها لن تلاحقه اليوم.

في تلك الليلة ذهب ليتأكد إن كانت المرأة الجميلة في بيتها. صعد إلى العليّة ونظر إلى باحة بيتها في الأسفل. رأى أضواء منارة في البيت وتمكن من رؤية كلّ شيء بوضوح شديد - وقد أذهله ما رآه.

كان مع المرأة الجميلة رجل - إنه حميد فارسي.

أعماه الغضب، هبط نصري السلّم الحلزوني بسرعة. يا لها من خدعة حقيرة. فقد قال لحميد إن المرأة رفضت أن تراه، ودفع مبالغ كبيرة لقاء ذلك، وأرسل لها قطعاً من الذهب، وها هو هذا المنافق يبتزّ هذه الشابة الجميلة الآن.

لم يفكّر نصري طوال الليل في شيء إلّا في الانتقام. وعندما فكّر أخيراً في طريقة يؤذي بها حميد، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة في الظلام حتى كادت تضيء الغرفة. «حميد، يا حميد، لقد ارتكبت أكبر خطأ في حياتك».

لكن الخطأ كان خطأ نصري.

34

سالت الدموع على خدَّي سلمان وهو يسير بجانب أبيه وراء نعش أمّه. عندما أنزل أربعة رجال النعش الخشبي المتواضع إلى القبر، جفّت دموعه. تملّكه خوف غريب. فقد أثقلت قلبه فكرة أن أمّه لن تعود تقف على قدميها.

لم يسر في جنازة أمّه إلى مثواها الأخير سوى جيرانهم في «حوش الرحمة»، وأضاف الأب العجوز باسيليوس الذي كان معكّر المزاج في ذلك اليوم بؤساً إلى البؤس السائد فوبّخ اثنين من خدمه أثناء صلاة القداس لأنهما ظلا يتلكآن، وتمتم صلاة الجنازة كما لو كانت عملاً مملاً ومرهقاً، ثم عاد إلى بيته بسرعة. كان الجو شديد البرودة، وبدا له الأمر كله سيئاً.

ودّع كرم سلمان في المقبرة وعانقه، وقال له وهو ينظر بعيداً، «الربّ معها. إني أشعر بحزنك، لكن صدّقني فقد ارتاحت من كلّ عذاباتها». لكن سلمان ظلّ صامتاً، ثم أضاف كرم، «آه تذكرت، لقد وجدت لك عملاً جيداً عند الصائغ إلياس بركات. إنك تعرفه، وهو يحبّك كثيراً». قبّل جبين سلمان وذهب.

أعرب جميع الحاضرين الآخرين عن تعاطفهم وتعازيهم، لكن لم يبق في ذاكرة سلمان شيء في ذلك الوقت سوى ما قاله جاره مارون مثل قمة جبل منعزلة انبثقت من سهل منبسط، «لن أحاول أن

أواسيك. فأنا لا أزال حزيناً على أمّي. الأمهات مخلوقات إلهية، وعندما يمتن تموت الشرارة الإلهية فينا أيضاً، وكل عزاء تسمعه ما هو إلّا نفاق». عندما نظر سلمان إليه، رأى الدموع تسيل على خدَّي الرجل. لم ير سلمان وجه مارون حكيماً وجميلاً كما رآه في تلك اللحظة.

عندما عاد سلمان إلى البيت وحيداً في عصر ذلك اليوم البارد، بدت الشقّة فارغة إلى درجة مرعبة. أمضى أبوه ما تبقى من اليوم مع مارون وكامل وبركات في الخمارة عند ناصية حارة العبارة.

راح سلمان يتنقل في أرجاء البيت، رأى صندل أمّه القديم تحت الطاولة في نفس المكان الذي تركته فيه قبل أن ترقد في سريرها آخر مرة. رفعه وأجهش في البكاء.

عاد والده يترنح في حوالي منتصف الليل.

بعد يومين اتصل سلمان بنورا من مكتب البريد. عندما سمع صوتها شعر بارتياح شديد. وأدركت نورا مرة أخرى أن سلمان هشّ مثل مزهرية مصنوعة من الزجاج الرقيق فيها صدع ولذلك فهي مهددة بأن تسقط وتتهشم في أي لحظة. عندما أغلقت الهاتف، تساءلت هل ستحزن هكذا عندما تموت أمّها. لا، بالتأكيد لا، قالت في نفسها، وشعرت بالخجل.

دعا سلمان نورا إلى بيته. كانت تريد أن ترى بيته منذ فترة، لكنها كانت تخجل أن تطلب منه ذلك. ستزوره ذات يوم. لا يُبدي أحد في الحيّ المسيحي اهتماماً كبيراً بمن يزور من، إذ إن بيوت المسيحيين مفتوحة للجميع، ويزور الرجال والنساء بعضهم بعضاً. لاحظت نورا ذلك عندما كانت طفلة حيث كان يعيش بعض المسيحيين في حيّ الميدان الذي نشأت فيه، وكانت ترى أن النساء يجلسن مع الرجال عندما يزورون بعضهم.

لم يكترث سلمان لِما يقوله الجيران. كانت سارة الشخص الوحيد من بين كلّ هؤلاء التي يهمه رأيها وقد غادرت منذ زمن، ويبقى أبوه خارج البيت طوال اليوم، وفي أحيان كثيرة طوال الليل أيضاً. لم يهتم أحد بما يفعله هذا الرجل التعيس، خصوصاً سلمان. كانت أمّه الجسر الذي يصل بينهما، أما الآن، فقد أصبحا على ضفتي نهر ولن يلتقيا أبداً.

في اليوم الذي ستزوره فيه نورا في الساعة الثانية ظهراً، ركب دراجته بعد الساعة الحادية عشرة وذهب ليرى كرم.

كان يعتبر كرم رجلاً ذكياً وآسراً، لكن عندما تطرق الحديث إلى عملية السطو التي ساعده فيها سلمان، تبين له أنه شخص زلق وخطير مثل ثعبان البحر.

أراد سلمان أن يركل نفسه لسذاجته. كان يظن أن كرم يريد أن يعرف كلّ تلك الأشياء بدافع الفضول، عندما طلب من سلمان أن يأخذ طبعة لقفل الخزانة القديم. بعد بضعة أيام، أعطاه كرم نسخة من المفتاح استطاع أن يفتح به الخزانة - بشيء من الصعوبة - في أثناء غياب معلّمه، وأخرج الدفتر الكبير الجميل الذي يسجّل فيه الخطاط أسراره.

بما أنه كان من المستحيل أن ينسخ كل شيء في وقت قصير، كانت الوسيلة الوحيدة للحصول على نسخة في دمشق في خمسينيات القرن الماضي بواسطة مصور. عندما فكّر سلمان في الأمر بعد ذلك، غضب من نفسه غضباً شديداً، لأنه لم يكن يشكّ في شيء، وإنما ظنّ أن الأمر كله عبارة عن تسلية. أربعمئة وعشرون صفحة. التقط المصوّر بكاميرته الممتازة مئتين وعشر صور، تظهر كلّ منها

صفحتين من الكتاب. وقف سلمان يراقبه، وهبط قلبه عندما سمع كعب الكتاب يطقطق لأن المصور أراد أن يكون سطح الدفتر مستوياً.

«لا تقلق»، قال له كرم يطمئنه، «كلّ شيء سيكون على ما يرام».

لكن لم يكن هناك أي شيء على ما يرام.

لم يفهم سلمان سبب قيام كرم بتصوير مئتين وعشر صور غالية الثمن لإرضاء فضوله والمجازفة بعمله وبعمل سلمان، كما قال لكرم الآن بصوت ثابت. أُشبع كرم بالإطراء وشجعه على أن يذهب لزيارة الصائغ على الفور. قال أشياء كثيرة جميلة عن التضحيات الكبيرة والصغيرة التي يجب أن يقدمها المرء من أجل الصداقة. لأول مرة أحسّ سلمان أن ضحكة كرم تخلو من أي فرح حقيقي، ولم تكن سوى حركات مصطنعة بعضلات وجهه عندما يسحب شفتيه إلى الخلف ويكشف عن أسنانه. مكتبة سُر مَن قرأ

جاء طفل صغير إلى المقهى وطلب شيئاً. «حسان، الأجير الجديد. أحد أقرباء صمد»، قال كرم. نظر سلمان بسرعة إلى الفتى الصغير الذي كان يقضم ببهجة سندويشة فلافل.

قرر سلمان أن يأخذ أغراضه لاسيما دفاتره من الغرفة في بيت كرم. يجب أن يذهب كل منهما في حال سبيله، والأهم من كل ذلك، يجب ألا يوافق على أي اقتراح يقدمه هذا الرجل الغامض مرة أخرى. إنه يفضّل أن يموت جوعاً على أن يزور مقهى كرم. لليالٍ عديدة، لم يغمض لسلمان جفن. لم تكن خيبة أمله هي التي حرمته من النوم فقط، وإنما كانت فكرة واحدة تعذّبه أكثر من أي شيء آخر: هل يمكن أن يكون كرم خبيثاً استخدمه منذ البداية ليتجسس على حميد فارسي ويصبح عاشقاً لزوجة حميد؟ هل هذا هو شعوره بالامتنان لأنه أنقذه من الغرق؟ قلما أظهر له كرم شعوراً بالامتنان.

يداهنك ثم يتصرف من وراء ظهرك. وماذا لو كان هو الذي دبّر مسألة إغواء نورا؟ هل سيؤثر ذلك على حبّه لها؟ لم يجد إجابة على هذا السؤال، لكنه قرر أن يخبر نورا بكل شيء. بدا كلّ شيء مشوشاً في رأسه. قالت له سارة ذات يوم إن التستر وخداع الآخر في الحب هو الصدع الأول، وسيحوّل من دون أن يلاحظ أحد الحب الى حطام.

كان عليه أن يتظاهر الآن أمام كرم بأنه لم يشكّ في أي شيء، حتى يستعيد دفاتره. ففي الدفترين الأولين، كتب سلمان كل ما تعلّمه في محترف حميد: التقنية، نصائح المعلّم، صنع الأحبار، تركيب الألوان وأسرارها، وأساليب إدخال التصحيحات. أما الدفتر الثالث، فكان عزيزاً عليه كثيراً لأن نورا كتبت فيه جميع الإجابات على الأسئلة والمعلومات المتعلقة بابن مقلة - التي سألها عنه كثيراً. كانت نورا سعيدة لأنه طلب منها أن تفعل ذلك، لا لأن مكتبة زوجها سهّلت عليها البحث عن هذه المعلومات فحسب، وإنما، الأهم من كل ذلك، لأن ذلك جعل الوقت يمرّ بسرعة. وكان سلمان ينصت باهتمام وامتنان لكلّ ما تذكره له عن كبار الخطاطين في التاريخ، رجالاً ونساءً، وأسرار أساطين الخطّ القدامى. وعندما كانت تنتهي، كان يقبّل طرف كلّ أصبع من أصابعها ويداعب شحمة أذنها برقّة شديدة حتى لا تعود تحتمل ذلك أحياناً، وتلقي بنفسها فوقه ويمارسان الحبّ بشغف شديد.

وصل سلمان إلى شقته قبل الساعة الواحدة والنصف بقليل. فتح النوافذ والأبواب، وكنس الغرف، ومسح الأرض بقطعة قماش مبللة، ووضع طبقاً من البسكويت الطازج على الطاولة وجهّز الماء ليعدّ كوباً من الشاي الممتاز الذي اشتراه من أفضل بائع شاي في الشارع المستقيم، أمام مدخل سوق البزورية.

بدأ قلب نورا يخفق بسرعة عندما عبرت بوابة «حوش الرحمة» ورأت سلمان واقفاً أمام باب شقته في الجانب الأيسر من المستطيل الكبير الذي يمثّل «حوش الرحمة» الفقير.

ابتسم ودنا منها وحيّاها بطريقة رسمية وبتحفظ، ثم رافقها إلى باب بيته حيث تنحّى جانباً لتدخل أولاً.

دُهشت عندما رأت الشقة نظيفة ومرتبة وأنيقة. قرأ ذلك في تعابير وجهها.

قال لها وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه: «ساعتان في الصباح، وربع ساعة بعد الظهر». خلعت معطفها. فُتن بثوبها القطني الجديد. «إنك جميلة تشبيهن النساء الجميلات في مجلات الموضة»، قال لها وضمّها إليه بحب شديد. أرادت أن تشكره على هذا الإطراء لأنها هي التي خاطت الثوب الجديد، لكن شفتيها انشغلتا بشيء أفضل. فتشبثتا بشفتيه ولم تتركهما إلّا بعد أن استعادت وعيها ووجدت نفسها عارية تتصبّب عرقاً على السرير بجانبه. «ألن تقفل الباب؟» سألته في وقت متأخر بعض الشيء من اليوم.

«لا أحد يغلق باب بيته في هذا الحيّ، ولم يُفقد شيء من بيت أحد».

عندما ارتديا ثيابهما وجلسا إلى طاولة المطبخ، يشربان الشاي، رمقته بنظرة طويلة عميقة، ثم قالت: «أريد أن أغادر دمشق معك. فمنذ أحببتك لم أعد أحتمل البقاء فيها. لا يمكننا العيش هنا. إنه سيقتلنا. لكنّي متأكدة من أننا سنجد مكاناً نعيش فيه ونحبّ بعضنا من دون أن يزعجنا أحد، ليلاً نهاراً»، ثم ابتسمت ساخرة من سذاجتها، وقالت مستدركة، «أقصد طبعاً بعد أن نعمل ونكسب رزقنا. أنا أعمل خيّاطة وأنت تعمل خطاطاً».

لم يقل سلمان شيئاً، وشعر بشيء من الخوف من جمال الحلم الذي استدعته نورا من مخيّلتها بكلمات مقتضبة.

وأضافت قائلة، «وحتى لو أمسكوا بي فلن أندم، حتى لو أمضيت أسبوعاً واحداً في الجنة معك».

فقال لها سلمان: «لا، لن يتمكن أحد من الإمساك بنا. سنعيش في مكان لا يمكن لأحد أن يعثر فيه علينا، وكلما كانت المدينة التي سنذهب إليها أكبر، صعب عليهم أن يعثروا علينا».

«حلب»، قالت نورا على الفور، «ثاني أكبر مدينة في سوريا». حاول سلمان أن يقترح بيروت لأنه سمع أن الحياة في عاصمة لبنان جيدة لجميع الهاربين والمنفيين، لكنها أقنعته بأنه لن يدقق أحد في أوراقهما في سوريا كما هي الحال خارج البلد، وواسته وراحت تصف له المطبخ الحلبي اللذيذ الذي يضع المطبخ الدمشقي والبيروتي في الظلّ.

«أحتاج إلى صورتين شخصيتين لك تظهران أذنيك».

«أذناي كلتاهما؟» بدا مندهشاً، «الصورة العادية ليست كبيرة بما يكفي، لذلك فإني أحتاج إلى صورة بانورامية تُظهران أذنيَّ كلتيهما»، وعلى الرغم من الخوف الذي كان لا يزال جاثماً معهما على الطاولة ضحكت. ما كادت ترفع كأس الشاي عن الطاولة حتى أعادته وبدأت تسعل لأنها ابتلعت قليلاً منه بطريقة خاطئة. ضحكة سلمان طهّرت قلبها. لم تكن ضحكته قرقرة أو تغريدة أو ضحكة موسيقية، وإنما ضحكة يتميّز بها. كان يضحك كأنه يلهث، مثل شخص مصاب بالربو، يأخذ نفساً ويعود ويضحك مثل موجة متكسّرة. كان يُعدي الجميع بضحكاته، حتى الكراسي، كما قالت لنفسها، لأنها ارتطمت بأحدها وهي تضحك وأصدر صوت ارتطام يشبه صوت ضحكة.

«بمناسبة الحديث عن الصور، أنصحك بأن تأخذ كلّ صور

الكتاب النيجاتيف من المصوّر قبل أن يتذكّرها كرم. خطر لي ذلك الليلة الماضية. فقد ذكر زوجي عن عملية السرقة في محترفه قبل يومين، وقال بصورة عابرة إن دفتره يضم كنوزاً تعود إلى عشرة قرون، كنوزاً من المعرفة، وفلسفة وطرائق وتاريخ الخطّ، لقد جازفتَ بكل شيء، فلمَ لا تأخذها أيضاً؟ من يدري، فقد تفيدك ذات يوم».

«لكن كيف يمكننا أن نقنع المصوّر؟ فصور النيجاتيف تخصّ كرم الذي تركها في مكان آمن عند المصوّر، لأنه يخشى أن يأتي أحد ويفتش عنها في بيته أو في المقهى».

«هل يعرف المصوّر كرم شخصياً؟»

«لا، إنه لا يعرفه أبداً. إنه أحد المصورين الكثيرين الذين فتحوا محترفاتهم في الشطر الجديد من المدينة، فلم يكن يريد مصوراً يمكن أن يعرفه لاحقاً».

فقالت نورا: «رائع، إذاً اتصل به وقل له إنك كرم وإنك بحاجة إلى صور النيجاتيف وقل له إنك سترسل زوجتك لتأخذها، قل له اسمها - عائشة - وأخبره أنها ستذكر له عدد الصور، مئتان وعشر صور، على أنها كلمة السرّ. وإذا أراد أن يعرف أشياء أخرى، يمكنك أن تصف له شعري وقل له إنني أضع نظارات».

«نظارات؟ لماذا النظارات؟» سألها سلمان.

ضحكت نورا، وقالت: «هذا سرّ زوجة الخطاط. وستنتظرني أنت في شارع جانبي لتأخذ الصور»، ثم ودّعته وقبّلته قبلة طويلة. عندما وصلت إلى الباب، التفتت إليه وقالت: «أعجبني بيتك الأنيق والمرتّب. ستكون زوجاً جيداً لزوجة خيّاطة مشغولة جداً».

عندما اجتازت زقاق العبارة وخرجت إلى الشارع المستقيم،

راحت تتساءل إن كان ما فعلته هو الصواب عندما لم تخبر سلمان حتى الآن عن الرسائل الثلاث التي أرسلها ذلك التيس العجوز الذي يزعجها دائماً. كانت ستقول له ذلك عدّة مرات، لكن لسانها كان يوقف الكلمات ويعيدها إلى حلقها. كان من الصعب ابتلاعها.

وقالت في نفسها سيكون هناك متسع من الوقت في المستقبل لتحكي له هذه القصة المملّة. وأمامها الآن احتمالات أكثر خطورة. إن مجرد التفكير في ذلك جعلها تحكم قبضة يدها اليمنى في جيب معطفها. كانت عازمة على المضي في الطريق الذي اختارته حتى النهاية.

بعد يومين، ركب سلمان دراجته عائداً إلى البيت. كانت رزمة تتراقص في السلة على الدراجة عند كلّ مطب في الطريق. عندما وضع الدراجة خارج باب الشقة، ألقى عليه الخباز بركات الذي كان واقفاً في الباحة التحية.

«أي شيء يؤكل فيها؟» سأله بركات مازحاً.

«لا، إنه شيء يُقرأ، هذا كلّ شيء»، أجابه سلمان وهو يضحك.

فقال جاره: «إذاً سأتركها لك».

فتح سلمان الحقيبة الكبيرة التي اشتراها من أجل الرحلة. كانت لا تزال فارغة. وَزَن الرزمة الثقيلة بيديه للحظة، ثم وضعها في حقيبته دون أن يفتحها.

لم يفتح سلمان الرزمة إلّا بعد ثلاثة أشهر تقريباً، وذُهل من كمية المعلومات السرية والخطيرة أمام عينيه.

عندما أخبر نورا في لقائهما التالي عن شكوكه بأن كرم تقصد أن يضعه في طريقها، أنصتت إليه باهتمام. بدا سلمان وكأن الفكرة قد أزعجتها كثيراً.

«حتى لو فعل ذلك؟» قالت نورا وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة، «فلو لم أُغرم بك لما كانت لدى كرم أي فرصة مهما كان دهاء ذلك الرجل الذي أرسله لزيارتي. لا تلقي بالاً لكرم وبدري وحميد وجمعية الحكماء وغير الحكماء، والأنقياء والوسخين، لنتركهم يحيكون مؤامراتهم كما يحلو لهم ونمضي أنا وأنت معاً».

فتنفّس سلمان الصعداء.

35

كان حفل الافتتاح في الأول من شهر آذار أروع وأجمل مما توقعه حميد. شيء واحد صغير فقط عكّر صفوه وهو عدم حضور نصري قباني، لكن حميد سرعان ما نسيه.

أعرب ضيوفه المميّزون عن ثنائهم التام، حتى الرئيس شكري القوتلي، رئيس الدولة، كان حاضراً، لكنه حافظ على مسافة بينه وبين الآخرين ولم يشأ أن يلقي كلمة.

ترددت شائعات بأن السعوديين الذين توجد لهم صلة وثيقة مع عائلة الرئيس القوتلي منذ قرون طلبوا منه ألّا يلقي كلمة في حفل الافتتاح كي لا يمنح بعداً سياسياً لمدرسة الخطّ الخاصة. عندما سمع حميد ذلك انتفخ صدره بفخر.

ثم أشاد وزير الثقافة بهمة ورؤية ومثابرة أول مدير للمدرسة، حميد فارسي الذي قال إنه دأب على زيارته كلّ أسبوع تقريباً حتى منحه أخيراً رخصة بافتتاح المدرسة من وزارة الثقافة.

«سألت السيد فارسي» قال الوزير مازحاً، «منذ متى وضعت خططاً لهذه المدرسة، فأجابني منذ عام ٩٤٠. ظننت أنني لم أسمعه جيداً وأنه لا بدّ قال عام ١٩٤٠. ماذا، منذ سبع سنوات كاملة؟ سألته بكل تقدير. فابتسم حميد فارسي ولم يصحح لي من باب المجاملة. لكن الأمين العام لوزارة الثقافة، ساعدي الأيمن، السيد

عدنان حمدان، المعجب بالسيد فارسي، قال لي لاحقاً إنه يقصد السنة التي توفي فيها أعظم خطاط في جميع العصور قاطبة، ابن مقلة الذي توفي عام ٩٤٠. لذلك فإنه لشرف كبير أن أفتتح هذا المدرسة التي ستعيد إحياء اسمه من جديد».

فدوّى تصفيق طويل وصاخب في أرجاء القاعة.

عندما توجّه حميد إلى منصة المتحدّثين، ومضت كاميرات المصورين تتنافس فيما بينها. شكر الوزير ووعد بأنه سيبذل كلّ ما في وسعه لدعم قضية الخطّ. كان خطابه مقتضباً لكنه قوي ومؤثر، واختتم كلمته بالقول: «سيداتي وسادتي، أعدكم، هنا من قلب البلاد العربية، بأن الخطّ سيزدهر وسيجعل دمشق عاصمة لأمة قوية مرة أخرى»، بدا أثر التصفيق في الدموع التي ترقرقت في عينَي حميد.

عندما تلا حميد ببطء وبتلذّذ قائمة رعاة المدرسة، أدرك مرة أخرى عدم وجود نصري قباني. لماذا لم يحضر؟

أكل الضيوف وشربوا وتبادلوا الأحاديث وضحكوا بصوت عالٍ حتى منتصف الليل. ولمعت أضواء الكاميرات مرات كثيرة، لأن العديد من الضيوف أرادوا أن يأخذوا صوراً تذكارية مع شخصيات أسطورية مثل فارس الخوري، رئيس الوزراء المسيحي الوحيد في تاريخ سوريا.

بعد انتهاء الحفل، عندما غادر جميع المدعوين المدرسة، أحاط صمت عميق بحميد الذي راح يسير في المبنى الفارغ، وترك صور الساعات القليلة الماضية تمرّ في مخيلته. لقد تحقق حلمه العظيم، لكن هل أصبح سعيداً الآن؟

لماذا لم يحضر نصري قباني الحفل؟ تساءل الجميع. فوجئ مدرّس نصري قباني السابق، الشيخ دوماني، وهو رجل عجوز خَرِف منذ زمن، دعاه حميد لكي يرى نصري قباني أستاذه الذي يكرهه لأنه

كان يضربه كثيراً عندما كان طفلاً. دعاه انتقاماً ليرى أن أسوأ تلامذته قبل خمسين سنة يتصدّر قائمة رعاة الثقافة والخطّ. «كان خطّ يده غير مقروء كما لو كان يعطي الدجاج رشوة ليكتبوا له وظائفه المدرسية»، قال الرجل العجوز الذي يخلو فمه من الأسنان. «لم يأت، لا بدّ أن سِنّارته علقت بسمكة في مكان ما»، قال أمام عدد من الأشخاص قابضاً على خصيتيه باليد اليسرى، ما أثار ضحك البعض، واشمئزاز البعض الآخر من هذا الشيخ الخرف.

«حسناً، هذا الخطر لا يهددك ولا يهددني»، قال فارس الخوري العجوز ساخراً منه، وضحك الرجال المحيطين به.

لكن لماذا لم يأت نصري؟ هل أن هؤلاء «الأنقياء» الأغبياء وراء الحقيقة بأن توفيق، يد نصري قباني اليمنى، قد اتصل فجأة قبل يوم واحد من الحفل، وقال له إنه يتلقى تهديدات كثيرة، وإن معلّمه يريد أن يفسخ عقد الإيجار، «لأسباب تتعلق بأمن ممتلكاته، كما أرجو أن تتفهم الوضع». لم يفهم حميد، لكن محاميه طمأنه وقال: إن العقد ساري المفعول، ولا يمكن لأي قوة على وجه الأرض أن تُبطله الآن.

لم يكتف نصري قباني بعدم حضور الحفل، وإنما رفض أن يرى حميد في الأيام القليلة التي تلت الحفل، ولم يردّ على مكالماته الهاتفية.

ماذا حدث؟ لم يهتد حميد لجواب مقنع.

36

في العاشر من نيسان ١٩٥٧، استقلّت نورا وسلمان الحافلة المتجهة من دمشق إلى حلب.

أخذا معهما ثلاث حقائب كبيرة وحقيبة فيها طعام وماء من أجل الرحلة.

عندما استقرا في مقعديهما أخيراً، قالت له نورا: «مدّ يديك»، ووضعت فيهما كيساً مخملياً ثقيلاً.

سألها، «ما هذا؟»

وقالت بصوت خافت وحزين «سبعون قطعة ذهبية قدّمها حميد لي مقدماً في ليلة زفافنا لقاء أربع سنوات من العمل المتواصل في التنظيف والطهي والكي وتحمّل مزاجه المتقلّب»، وأضافت، «وآلام لا يمكن تعويضها بالنقود».

نظرت من نافذة الحافلة إلى العمال وهم يشقّون طريقاً لخطّ الترام. هذا ثالث خطّ للترام. «لم تعد ترى إلّا القليل من الحمير للاستئجار هذه الأيام»، قالت له وهي تهزّ رأسها. ما مشكلتها، قال سلمان لنفسه، فقد هربت من مدينتها التي نشأت فيها ومن زوجها، وها هي تفكّر الآن في الحمير. وضع يده على كتفها، وقال: «سأكون حمارك دائماً»، لكن نورا لم تضحك على هذه النكتة السخيفة.

قبل ساعتين من مغادرتها، ذهبت نورا لزيارة داليا. رفعت الخيّاطة عينيها من وراء ماكينة الخياطة وفهمت على الفور. «سأهرب»، همست نورا. فقالت لها داليا، «خمّنت ذلك عندما رأيتك. هل فكّرت في الأمر جيداً؟». فهزّت نورا رأسها.

بكت المرأتان عندما ودّعت إحداهما الأخرى. عرفت داليا أنها لن ترى صديقتها الشابة مرة أخرى. في وقت لاحق قالت إنها فهمت لأول مرة في ذلك اليوم كيف يمكنك أن تعرّض حياتك لخطر قاتل لا لأنك تكره الحياة، وإنما لأنك تحبها.

ثم ذهبت نورا إلى بيت والديها. كانت تعرف أن أباها مصاب بنزلة برد وهو طريح الفراش منذ عدة أيام. أعطته مغلفاً فيه رسائل وأخبرته بسرعة ما نوع الرسائل الموجودة في المغلف، وطلبت منه أن يحتفظ بها وغادرت. جرى وراءها وهو لا يزال في خفّ غرفة النوم، وسألها مذعوراً «يا ابنتي هل حدث شيء؟»

فأجهشت في البكاء.

«هل يمكنني أن أساعدك يا طفلتي العزيزة؟» سألها وأحسّ بضعف شديد في ركبتيه فاستند إلى شيء يساعده على الوقوف.

فقالت له: «اقرأ رسالتي وفكّر بما يجب أن تفعله»، وأضافت، «أستطيع أن أساعد نفسي بنفسي»، ورأته يبكي أيضاً. شدّتها دموعه إلى الأعماق مثل أوزان ثقيلة من الرصاص. في عقلها، تحررت منه، وخرجت مسرعة.

«كان اللّه معك»، همس راجياً أن تلتفت عند نهاية الشارع وتلوّح له، كما كانت تفعل دائماً، لكن نورا اختفت عند ناصية الشارع وخرجت إلى الشارع الرئيسي.

عاد رامي عربي يمشي بخطوات بطيئة إلى غرفة نومه. بأصابعه المرتجفة فتح المغلف الكبير الذي وجد فيه رسالة وداع نورا وأكثر

من ثلاثين قصاصة فيها أقول وحكم جميلة كان قد كتبها لها. أدرك قلبه أن إعادة كلماته له تعني انفصالاً تاماً، لكن رسائل نصري كانت الصدمة الحقيقية.

تملّكه شعور بالرعب. تناول رسالة نورا مرة أخرى وقرأها بعناية. كتبت عن خيبة أملها، وعن عذاب حياة زوجية تعيسة قدّمها لها، وأكّدت له أنها لن تكرهه أو تكره أمّها من أجل ذلك، لكنها قررت أن تتدبر أمور حياتها بنفسها لأنهما أخفقا، كوالدين في أداء واجبهما الأساسي لحمايتها.

كان رامي عربي يعرف ابنته حق المعرفة ويفهمها جيداً. كتبت له كلّ ذلك قبل أن تختفي لأنها شعرت كأنها إسفنجة مبللة بكلمات مريرة، وعليها أن تعصر الإسفنجة قبل أن تأخذ ما يمكن أن تقدمه لها حياتها الجديدة.

عندما قرأ الرسالة من أولها إلى آخرها للمرة الثالثة، نظر إلى تلك الحروف المغرية التي خطّها زوجها. بدأت يداه ترتعشان، واعتراه شعور بأنه أصيب بالشلل.

«القواد والديوث الحقير»، سمع نفسه يصرخ بصوت عالٍ.

لم تسمع أمّها عن زيارة نورا والرسائل إلّا في مساء ذلك اليوم، عندما عادت من اجتماعها الأسبوعي لجمعية دينية نسائية. وطلبت من زوجها أن يقرأ لها رسالة الوداع. من الكلمات الصريحة فيها أدركت أن نورا قد ذهبت فعلاً. أطلقت صيحة وصرخت بصوت عالٍ فهرعت ثلاث جارات لها ظنن أن زوج جارتهن سحر قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

في ذلك اليوم، عاد سلمان إلى منزل كرم، صاحب المقهى، وأخذ دفاتره وأدوات الكتابة، وترك لوحة خطية دائرية لكرم. عندما

عاد كرم إلى المنزل مساء ذلك اليوم، فوجئ بوجود المفتاح على باب المنزل. ظن أن سلمان عاد ويريد أن يراه.

عندما ذهب كرم إلى «حوش الرحمة» ليرى سلمان في منتصف آذار لم يجده، وقالت له إحدى الجارات إن سلمان يتعلّم الآن فنّ الطهي الدمشقي الراقي على يد طاهٍ ماهر، وأضافت إنه يعمل في مطعم الأندلس الراقي بالقرب من باب توما.

عندما رآه كرم في ذلك اليوم بدا سلمان سعيداً، وقال له بعد أن اكتشف فن الطهي، وجد أنه يفضّل الملعقة على قصبة الكتابة، وأضاف أنه مشغول كثيراً الآن لأنه منهمك في تجهيز الطعام لحفليْ زفاف، وعندما يتاح له قليل من الوقت سيعود ليرى كرم وربما يمارس قليلاً من الخطّ. كان معلّمه في العمل كارلوس الذي ربعه إسباني وربعه يهودي وربعه عربي وعلى الأقل ربعه الآخر مسيحي، يحبّ فنّ الخط، ويرى أنه بالإضافة إلى الطبخ وركوب الخيل والمبارزة، فإنه فن يجب أن تتقنه قبل أن تُطلق على نفسك اسم رجل.

كان هذا لقاء عاطفياً بالنسبة لكرم الذي اكتشف لأول مرة أن سلمان يستطيع أن يتحدث أيضاً بفصاحة شديدة. عندما قال له ذلك مازحاً، ضحك سلمان وقال نعم، قد يكون محقّاً، فقد كان يعاني طوال تلك السنوات من حبسة في لسانه، وقد حرّرها الحبّ والتوابل منها الآن.

في طريق عودته إلى المقهى قال كرم لنفسه لم يعد سلمان فتى وإنما أصبح رجلاً بالغاً الآن. شعر بمحبة عميقة، بعيدة تماماً عن الشفقة أو عذاب الضمير، تجاه هذا الشاب الشجاع، محبّة نمت في قلبه مثل زنبقة تجاوزت كثيراً حبّه لجسد بدري. لأول مرة، بدا له سلمان جذاباً إلى درجة لا تقاوم. عندما سيلتقي به في المرة القادمة،

سيقول له ذلك، ويعرب له عن أمله بأن يتلفن له أو يزوره في المقهى، لكن شهر آذار انتهى ولم تُلب رغبة كرم. انزعج بدري لأن كرم لم يعد يتكلّم عن شيء إلّا عن سلمان، ولم يكن مخطئاً في افتراضاته، لأن في قلب الحبيب المخدوع بوصلة غير مرئية.

في ذلك اليوم من شهر نيسان، فتح كرم باب منزله ونادى على سلمان، لكن الصمت ابتلع صوته. دخل ببطء وتوجّه إلى الغرفة التي يعمل فيها سلمان دائماً. وجد الباب مفتوحاً على مصراعيه. كان فم درج المكتب فاغراً، وفارغاً في الغرفة التي أصبحت خاوية. لفتت نظره لوحة خطّ صغيرة بحجم كفّ اليد من ورقة ملقاة على سطح المكتب. لم يتمكن كرم من فكّ حروفها.

بعد يومين أرى اللوحة لصمد، مساعد حميد عندما كان يتناول طعامه في المقهى عند الظهيرة، وسأله، «هل يمكنك أن تقرأ هذه الأشياء المتشابكة والمتداخلة بعضها مع بعض؟» ووضع صفحة الورقة الصلبة أمام الخبير.

«إنها ليست أشياء متداخلة، إنها خطّ كوفي له انعكاس. إنها مكتوبة بدقة. جميع النسب والزوايا والمنحنيات صحيحة، لكن النص يفتقر إلى الأناقة. من كتبها؟»

فأجاب كرم مفتخراً، «صديق».

فقال صمد: «لا، لا يمكن أن يكون ذلك».

«لمَ لا، هل لي أن أسألك؟»

«لأنه لا يوجد صديق يمكن أن يكتب هذه الكلمات. إنها تقول: *إن قلب كرم مقبرة*».

نضبت كلّ الألوان من وجه كرم. حتى بدا أن لون عينيه الغامقتين أصبح رمادياً باهتاً. عاد يجرّ قدميه إلى مكتبه. أقسم

العاملون معه أنه عندما خرج من مكتبه، لم يعد شعره أسود داكناً وإنما رمادي فاتح.

اختفى سلمان كعادته بهدوء. لم يودّع أحداً. كتب رسالة طويلة إلى سارة وطلب منها أن تكذب كذبة بيضاء لتتستر عليه وعلى نورا.

باع دراجته بمبلغ جيد لبائع خضراوات في حيّ العمارة البعيد عن حيه.

ما عدا أمّ سارة، لم يلاحظ أحد في «حوش الرحمة» أن سلمان رحل. عندما أصيب والده بمرض خطير في الكبد بعد شهرين، أدرك عدد من الجيران أنهم لم يروا سلمان منذ فترة طويلة. كان بعض الذين يعيشون في «حوش الرحمة» يتطلعون إلى فرصة للحصول على شقة جيدة من غرفتين، لكن والد سلمان سرعان ما تماثل إلى الشفاء وعاش سنوات عديدة أخرى، ولم يضع قطرة كحول واحدة في فمه بعد ذلك.

عادت فايزة، أمّ سارة، من حمص في ذلك الوقت، بعد أن أنجبت ابنتها البكر طفلة صغيرة. قالت فايزة للجزار محمود وجارتها سميرة بثقة كبيرة إن سلمان يعمل طاهياً في الكويت ويتقاضى مرتباً كبيراً، وقالت لهما فايزة بنبرة تآمرية: «لكن هذا سرّ بيننا». في مدينة دمشق، كان طلبٌ كهذا يعني أن يُنشر الخبر بسرعة وعلى نطاق واسع، وقد فعل الجزار محمود وسميرة ذلك بجدارة.

بعد سبع وعشرين ساعة وثلاث وثلاثين دقيقة وصل الخبر إلى كرم في مقهاه. لم يصدّق ما سمعه، واتصل بمطعم الأندلس الفخم في الحيّ المسيحي، وسأل صاحبه عن صديقه سلمان.

«إنه ليس هنا الآن. كنت سأجعل هذا الشاب الذكي نائباً لي. فلم يتعلّم أي عامل آخر عندي بالسرعة التي تعلّمها هذا الشاب –

كان يغني وهو يعمل، شغوفاً ومتحمساً في كلّ شيء، وله أنف ممتاز، والأنف الجيد يساوي ذهباً في مهنتنا. إنه لشيء مؤسف، لكنني لا أستطيع أن أحقد عليه. سمعت أنه يكسب في الكويت عشرة أضعاف مما يكسبه في مطعمي».

أغلق كرم الهاتف وبكى وراح يصيح غاضباً لاعناً شيوخ النفط وجماعة الأنقياء وغبائه وبدري وقلب سلمان القاسي الذي لم يمنحه فرصة لتصحيح خطئه.

شهدت قصة حياة سلمان الجديدة كطاهٍ في الكويت تحويرات وتعديلات عديدة بعد سردها للمرة العشرين أو الثلاثين. ففي إحدى تلك الروايات، قيل إن سلمان يعدّ طعام أمير الكويت، وفي رواية أخرى، أصبح صاحب سلسلة مطاعم في منطقة الخليج، وأشاع بعضهم أنه أصبح مسلماً وتزوج ابنة عمّ الحاكم، وأكد آخرون أنه أصبح بعد اغتياله طعاماً للسمك.

في الخريف، عندما عادت القصة إلى أسماع أمّ سارة، طرأت عليها تغييرات كثيرة إلى درجة أن فايزة نفسها لم تعرفها لكنها ضحكت راضية.

37

بعد عدة سنوات، كان حميد يحكي لكلّ شخص له أذنان ويتحلّى بالصبر ليستمع، أن هروب زوجته فتح عينيه، وقال إنه في اليوم الذي اختفت فيه زوجته، بدأ انحطاط العرب وتخلفهم يتضح له، وأنه لم يرغب في أن يكون جزءاً من ذلك التخلف. كان يريد توعية الناس، لكنه سيدعهم غارقين في سباتهم، ولن يندم على ذلك. وبدأ يرى الآن أن الشعب الذي يعاقب الذين يعملون على إصلاحه، ويضطهد أنبياءه ويطردهم ويقتلهم، فإن مصيره السقوط إلى الهاوية.

اكتشف حميد غياب زوجته عندما عاد إلى البيت في ذلك المساء. كان قد فعل أشياء كثيرة من أجل مدرسة الخطّ، وأمضى وقتاً طويلاً بعد ظهر ذلك اليوم ليتوصل إلى نهاية ناجحة بعد مفاوضات مضنية. فقد كُلِّف بالقيام بجميع أعمال الخطّ والزخرفة في مسجد صلاح الدين الذي تموّله السعودية. لم تكن المفاوضات سهلة، خصوصاً أن الخطاطين من الدول العربية الأخرى كانوا مستعدين لتنفيذ العمل مقابل خُمس ما طلبه. وخرج ثلاثة من أشهر الخطاطين السوريين خاليي الوفاض، وعرض عليهم حميد العمل معه لقاء مبلغ جيد وقبلوا ذلك بامتنان. كان يوماً رائعاً.

عاد إلى المنزل سعيداً وراضياً في تلك الليلة الدافئة من شهر نيسان. كانت مدرسة الخط قد فتحت أبوابها في الأول من شهر

نيسان، أي قبل شهر من الموعد المقرر، وكان قد أوضح وجهة نظره بقوة في جمعية الحكماء وهزم كلّ من يحسده أو ينازعه على منصب الأستاذ الأعظم. وأبدت الغالبية العظمى من الأعضاء ثقتهم المطلقة به. لم يختر خصومه لحظتهم جيداً لذلك باءت جهودهم بالفشل. لم يكن حميد أفضل خطاط فحسب، وإنما البطل الذي أوصل الجمعية إلى مصاف أعلى مما أوصلها إليه أي شخص آخر قبله.

في طريقه إلى البيت، همس لنفسه مرات ومرات بفخر، «حميد، لقد فعلتها»، ثم أخذ نَفَساً عميقاً وصرخ بصوت مسموع، «نعم، لقد فعلتها». سيستمتع الآن بزوجته وبهذه الليلة. اشترى لها ثوب نوم رقيقاً من الحرير الأحمر الشفاف، وأراد أن ترتديه له وينغمس في جميع نزواته وأهوائه معها.

من محل بيع أطعمة لذيذة غالية الثمن، اشترى مئتي غرام من البسطرما، لحم البقر المجفف الذي تكسوه طبقة رقيقة من التوابل الحادة، مقطّعة إلى شرائح رقيقة، واشترى أيضاً كمية من الجبن والزيتون الغالي الثمن، واشترى لزوجته مرطباناً إيطالياً من الأرضي شوكي المقطّع إلى شرائح صغيرة المحفوظ في زيت الزيتون، ومن بائع الفواكه عند ناصية الشارع المستقيم، اشترى لأول مرة في حياته قطعة أناناس غالية الثمن.

قال لبائع الفاكهة والخضراوات: «لا تهتم بالسعر، فاليوم يوم خاص».

فتح باب البيت وهو يصفّر لحنه المفضّل.

لن ينسى أبداً لحظة الصمت المرعب الذي استُقبل به. الغريب في الأمر أنه خمّن على الفور أن نورا لم تذهب لزيارة الجيران أو بيت والديها. لا بدّ أن شيئاً فظيعاً قد حدث. دخل إلى المطبخ ووضع الأكياس الورقية على الطاولة، ونادى «نورا». بدأ قلبه يخفق

بقوة. لم يسمع أي ردّ، أو أي شيء. خرج إلى الفناء وتهاوى على كرسي بجانب النافورة، وأحس بوهن شديد. في تلك اللحظة، أدرك الكارثة.

«هناك لحظات تعرف فيها ما الخطأ الذي ارتكبته. كنت على وشك أن أموت عندما فهمت في لحظة واحدة ما الخطأ الذي ارتكبته في حياتي فقد ولدت في المجتمع الخطأ وفي الزمن الخطأ». كرر لنفسه وفيما بعد للآخرين. أشفق عليه الذين سمعوه، لكن أحداً لم يفهم ماذا يقصد. بدا له الآن أن العديد من قراراته كانت خاطئة. لكنه كان يريد شيئاً واحداً فقط، وهو تكريم الخطّ العربي، هذا الاختراع الإلهي الذي حوّل بعض الحروف المكتوبة إلى محيطات وصحاري وجبال، الى شعر وفلسفة تثير الشجون وتُلهم العقول. ألم يمنح كل ما هو مدوّن بالحبر على الورق حياة مديدة؟ الآلهة فقط يمكنها أن تفعل ذلك. كان عليه أن يدرك ذلك. إن الحروف آلهة، ولن يدخل الجنة إلّا كلّ من تخلّى عن كلّ شيء من أجلها. لا تسمح هذه الآلهة بمكان للزوجة والأولاد؟ بداية، ألم يولد في الأسرة الخطأ؟ من غير المجنون الذي يضرب رأس ابنه بالعصا والحذاء لأنه حصل على هدية إلهية ومارس وهو طفل فن الخط؟ هل كان أبوه مريضاً؟ وأمه التي لم تحبّه أو تدافع عنه قط، ألم تكن مريضة كذلك؟

أليس من الحماقة أنه أراد أن يعيش حياة زوجية. بالطبع، إنه بحاجة إلى امرأة، لكن هذا لا يعني أنه كان مدمناً على النساء مثل نصري قباني. لا، لم يكن الحبّ يرضيه نصف ما يرضيه العمل كخطاط.

جلس زهاء نصف ساعة في بيته المقفر، راجياً أن يقول له أحد الجيران إن نورا تعرضت لحادث، أو أنه أُغمي عليها ونُقلت إلى

المستشفى. لكن لم يطرق أحد باب بيته لساعات طويلة، مع أنه أضاء كل الأضِواء في البيت ورفع صوت المذياع ليعرف الجيران أنه موجود في البيت.

بعد عدة ساعات، بدت له فكرة أنها تعرضت لحادث سخيفة، وقد آلمه ذلك لأنه أدرك مدى عجزه. كان متيقناً أيضاً من أن والديها لا يعرفان شيئاً عن وقوع أي حادث، وإلّا لكانا قد أخبراه.

لم يعرف كم ساعة نام. منذ ذلك اليوم أقلع عن عادته بأن يستيقظ عند الساعة السادسة صباح كلّ يوم ويأوي إلى الفراش في العاشرة ليلاً على أبعد تقدير. لم يعد يميّز بين الليل والنهار.

استيقظ على صوت قرع قوي على الباب. نظر حوله مجفلاً وهزّ يده لأنه رأى كابوساً لدغه فيه دبور كبير بين السبابة وإصبعه الوسطى. كان مستلقياً على السرير بكامل ثيابه. لأول مرة في حياته نام من دون أن يستحمّ مرتدياً ثيابه التي يخرج بها إلى الشارع.

كان الوقت لا يزال مبكراً، لكن النهار قد طلع في الخارج طارداً الظلام.

وقف والد نورا عند الباب شاحب الوجه، عيناه محمرتان من البكاء. بدا بشعاً أكثر من أي وقت مضى.

«السلام عليكم» حيّا حميد بجفاء. لم يكن الشيخ رامي عربي مداهناً في حياته، كما يعرف حميد. دخل في الموضوع مباشرة. من دون أن يقول شيئاً، ألقى الرسائل على الطاولة الصغيرة في باحة البيت الداخلية ووقف هناك. بالطبع، عرف حميد خطّ يده. كيف حصل والد نورا على هذه الرسائل بحق السماء؟ فجأة اتّضح له كل شيء. فهم حميد ما الذي يقوله له رجل الدين من دون أن ينبس كلمة واحدة. ارتخت ركبتاه وتهالك على أقرب كرسي. كيف سيشرح الأمر لوالد زوجته؟ أمل أن يكون الأمر كله مجرد كابوس.

«تفضّل اجلس. حدث سوء تفاهم فظيع ويمكنني أن أشرح ذلك لنورا»، قال بصوت متهدج. للحظة شعر بالارتياح في سريرته بأن نورا لجأت إلى بيت والديها، وأرسلت والدها من قبلها، لكنه حافظ على تعابير الزوج المصدوم. «كان عليها أن تناقش الأمر معي قبل أن تثير فزعك بلا داع. هذه رسائل لزبون وأنا...»، بدأ محاولاً شرح ما حدث.

لكن الشيخ العربي هزّ رأسه رافضاً الفكرة، وقال: «نورا ليست عندنا. لقد هربت... لقد أعطيتك زهرة لتكون زوجتك، وماذا فعلت بها أيها الرجل عديم الشرف؟» قال الشيخ بصوته المخنوق بحزنه الصامت. رمق صهره نظرة ازدراء، وغادر.

ذُهل حميد فارسي.

لقد خدعه ذلك التيس الشبق نصري قباني الذي أغوى زوجته نورا بهذه الرسائل، ومن يعرف كم شخصاً أخبرهم عن ذلك لكي يدمّر سمعته، سمعة حميد، ويذلّه. هل خطط نصري قباني كلّ ذلك من البداية؟

لكن الخطاط وجيرانه المشنّفة آذانهم لم يصدقوا أن نورا هربت ولن تعود. اتصل بالمحترف وقال لمساعده إنه لن يأتي اليوم. لم يفعل ذلك قط من قبل. لكن اعتباراً من ذلك اليوم وحتى أُغلق المحترف، أصبحت هي القاعدة.

استحمّ حميد وحلق ذقنه، وارتدى بدلته الصيفية، وانطلق لزيارة والدَيْ زوجته في حيّ الميدان. لم يكن الشيخ العربي في البيت. فتحت له زوجته سحر الباب، وجهها ملطخ بالدموع.

«ماذا فعلت بابنتي؟ لقد أحببتك مثل ابن لي»، قالت مخفية مشاعرها الأخرى، لأنها ظنت ذات يوم أنها أحبّت هذا الرجل النحيل القوي الإرادة. فعندما كان يقول لها كلمة، أو يلمسها برفق،

كان شعور بالإثارة يتغلغل حتى أعماق قلبها. لكنها ضحّت بذلك القلب لتنقذ شرف العائلة وسُمعتها، وقد مات الآن كلّ شيء في داخلها، وأحسّت أنها كانت مخطئة في تصرّفها معه، لأن كلّ ما فعلته هالة هذا الرجل، أبهرتها. كانت ستخسر معه في جميع الأحوال.

بدا أنها لن تدعوه للدخول إلى البيت. فليس من المعتاد في هذا الحيّ التقليدي أن تستقبل امرأة رجلاً آخر في غياب زوجها، حتى لو كان ابن عمها أو صهرها، وعليهم الانتظار إلى أن يعود ربّ البيت.

قال وهو يمسك بيدها: «دعيني أشرح لك»، لكنها سحبت يدها بسرعة، وأغلقت الباب في وجهه. ناداها حميد مرة أخرى من وراء الباب وسألها، «لكن متى غادرت؟»

فقالت أمّ نورا وهي تبكي: «لا نعرف». قرع الباب بهدوء، لكنها لم تفتح له. ظهرت بديعة، جارتها، أمام باب بيتها.

«ماذا حدث؟ هل يمكنني أن أساعدك؟» سألت الخطاط الذي تعرفه جيداً. خمّنت أن مكروهاً قد حدث، لأن أمّ نورا لم تقل لها شيئاً، بل ظلت تتمتم، «يا ويلاه! كارثة، كارثة»، واختفت عن الأنظار.

قال لها الخطاط باقتضاب، «لا، شكراً»، وجرّ نفسه نحو الشارع الرئيسي واستقلّ سيارة أجرة أقلّته إلى بيته.

كان الأمر أسوأ مما كان يظن.

«أنا حمار»، صاح عندما جلس وحده بجانب بركة الماء مساء ذلك اليوم وهو يفكّر في نصري. أخذ ينوح بصوت مرتفع حتى سمعه الجيران. حتى الآن، لم يكن أحد قد علم شيئاً عن هرب نورا. لكن وصلت في ذلك المساء بعض الأخبار إلى المنزل المجاور، لكن مع

بزوغ الفجر، بدأ الخبر ينتشر حتى تحوّل إلى شائعة ناضجة في المخابز ومحلات بائعي الوجبات السريعة في الحيّ.

لعلّ الأرض انشقت وابتلعت نصري قباني. بعد أسابيع من هرب نورا، لم يتمكن حميد من العثور عليه. وفي مخيلته الجريحة، تصوّر أفلاماً كاملة عن قيام قباني الغني بإغواء النساء ثم ببيعهن لشيوخ النفط.

لم يعد حميد يذهب إلى المحترف إلّا مرة أو مرتين في الشهر. وحتى عندما تأتيه أعمال هامة تتطلب وجوده، كان يُبعدها عن تفكيره.

في نهاية شهر أيار، أخبره سليم، الحلاق الذي لا يبعد دكانه عن محترف حميد كثيراً، أنه سمع أن نصري قباني لم يوجّه سهامه إلى حميد بمحض الصدفة، وإنما كان يهدف إلى تدميره بالكامل منذ البداية، وقال له إن نصري قباني تلقى تعليمات من جهات عليا بأن يتقرّب من حميد ويكلّفه بكتابة لوحات باهظة الثمن فحسب، وإنما إغوائه تدريجياً بسخائه حتى يتمكن من أن يقدّم دليلاً مكتوباً عن ضعف شخصيته وانحلاله، وأضاف سليم بنبرة تآمرية أنه تم توزيع الأدوار بشكل مدروس، فبينما يدمّر نصري قباني سمعة حميد بهذه الرسائل، تخطف عصابة من المجرمين المتمرسين نورا. إنها مؤامرة حيكت ونفّذت بنجاح ثلاث أو أربع مرات في بيروت والقاهرة وبغداد للتخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم، أو المعارضين السياسيين.

«وماذا يمكن أن يكون أكثر إذلالاً ومهانةً لأي رجل عربي من أن تُنشر على الملأ قصة أنه عمل قواداً وديوثاً على زوجته؟» سأله سليم لكنه لم ينتظر منه ردّاً، ونهض وودّع حميد بضغطة خفيفة على يده.

«لقد دمّرت عشيرة قباني أبي أيضاً لأنه وثق بأفرادها ولم يشكّ فيهم قط. إنهم حلفاء الشيطان، أم أنك تظن أن ما فعله نصري، ذلك التيس الهائج الذي يمتلك نصف البنايات في حيّ أبو رمانة دون أن يحرّك ويتعب إصبعه الصغير، مجرد صدفة؟»

كان من الممكن أن يصرخ حميد بغضب. فقد كان الرجل يقول ما يقوله لنفسه تماماً وهو أن نصري قباني أفعى. وفهم الآن لماذا لم يحضر حفل افتتاح مدرسة الخطّ.

لكي يتغلب على نصري، ذلك المجرم الماكر، ويضع حداً لتكاليف أعماله، قرر حميد في شهر تموز أن يغلق المحترف. ذكّره صمد عبثاً بأنه توجد أعمال كبيرة يجب تسليمها في الخريف، لكنه ظلّ متشبثاً برأيه.

في اليوم الذي انتشرت فيه الشائعات في دمشق، ظهرت أغنية أخرى عن نورا، مثل جوقة تديرها يد غير مرئية، تقول إن أحدهم رآها على متن سفينة ركاب بريطانية متجهة من ميناء بيروت إلى دول الخليج.

في نوبة غضب شديد، طرد حميد جميع العاملين في المحترف، بدءاً من صمد حتى الأجير حسن. وقبل أن يغادروا المحترف أفصح لهم عن رأيه بهم طوال السنوات التي عملوا فيها معه، وقال إنهم حرفيون غير أكفاء، أشخاص ميؤوس منهم في تعلّم فنّ الخط وإجادته. وقال لصمد بازدراء من الأفضل له هو والأجير حسن أن يبحثا عن عمل في أقرب ورشة لإصلاح السيارات كي يصبحا مفيدين لإخوانهم البشر.

لم يوجّه الإهانة إلى مساعده صمد فقط، وإنما وجّهها إلى جميع الذين عملوا معه الذين قالوا لا بدّ أن معلّمهم أصيب بلوثة في عقله، ولم يبد الحد الأدنى من المجاملة والشعور بالامتنان. الصبي النحيف

حسن الوحيد الذي سمع نصيحة معلّمه وبحث عن ورشة لإصلاح السيارات. وقال هذا الفتى الصغير نصف الجائع لصاحب الورشة بجرأة إن أحد أساطين فنّ الخط في البلد تنبأ بأنه سيكون ميكانيكي سيارات ماهراً، فضحك صاحب الورشة الملطخ بالزيت والشحم، مظهراً أسنانه الصفراء، وقال: «إن الخطاطين يقولون هراء كثيراً، لكن من يهتم بما يقولونه؟ إننا بحاجة إلى صبي يؤدي الأعمال الصغيرة. هل تستطيع أن تعدّ شاياً جيداً؟»

فقال الصبي بافتخار، «أفضل شاي يمكنك أن تشربه في حياتك كلها يا سيدي».

فقال له صاحب ورشة تصليح السيارات، «إذاً ادخل. ليرة في الأسبوع، بعدها سنرى».

38

في ١٣ نيسان ١٩٥٧، بعد مضي تسعة أيام على هروب نورا، اقتحم عشرة رجال ملتحون مدرسة الخطّ في وقت متأخر من الصباح. أغلقوا الباب من الداخل، ونزعوا سلك الهاتف من الحائط، وحطّموا جميع قطع الأثاث. حدث ذلك في يوم الجمعة، وكانت السكرتيرة قد جاءت إلى المدرسة لتُنهي بعض المعاملات التي تراكمت خلال الأسبوع. صُدمت صدمة حياتها. بدا الرجال كأنهم خرجوا من فيلم سيء عن العرب. صرخ أحدهم فيها: «كيف تجرئين على العمل يوم الجمعة، أيتها الكافرة»، وضربها أحدهم وألقاها أرضاً. جذب رجل آخر سترتها من المشجب وألقاها فوق رأسها، وصاح، «غطي رأسك أيتها العاهرة». لم تستطع حتى أن تصرخ. فقد كمموا فمها وقيدوها بكرسي مكتبها. ثم عاث الرجال فساداً في المبنى، وسمعت صوت تهشم وتحطم قطع الأثاث والمرايا والطاولات الزجاجية وخزائن الكتب. عندما عادوا إلى مكتبها، أخذوا فرشاة عريضة وكتبوا عبارات شنيعة وتهديدات على الجدران باللون الأحمر، ثم انتهت حفلة الرعب.

في بداية شهر أيار، أُغلقت المدرسة من أجل حماية طلابها. تأكد حميد الآن من أن نصري قباني هو أحد أولئك المتآمرين السرّيين لإغلاق مدرسة الخطّ.

39

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال بعضهم إنه في بيروت، وزعم آخرون أنهم رأوه في إسطنبول، بينما قال آخرون إنه ذهب إلى البرازيل ليلتحق بصديقه العقيد شيشكلي، رئيس الجمهورية السابق.

لكن لم يكن هناك أحد على استعداد ليراهن حتى بليرة واحدة على أن نصري قباني لا يزال في دمشق.

كان نصري يحبّ مدينته التي ولد ونشأ فيها كما يحبّ النساء: مدمن في حبّها إلى أقصى درجة. كان دمشقياً حقيقياً يرى أن هذه المدينة هي الجنة بعينها. ويقال عن هذه المدينة: من يسكن في دمشق أكثر من سبع سنوات، تسكن فيه، وكلما اضطر إلى مغادرة دمشق، انتابه شعور كأنه نوع من التعذيب، وكان واثقاً من أن رحلته ستنتهي في الظلام والبرد - وحياة من الكدّ والمشقة. لم يكن باستطاعة نصري أن يتحمّل ذلك.

نصحه مدير أعماله توفيق بأن يأخذ الإهانة التي لحقت بالخطّاط على محمل الجد، وقال له توفيق إنه صدّقه بأنه لم يلمس المرأة، لكن هذا ليس مهماً. في المدينة، ادَّعى الجميع، كما لو أنهم رأوا بأمّ أعينهم، أن الخطّاط كتب رسائل غرامية لزير النساء الشهير نصري لقاء مبلغ من المال لكي يغري بها نورا. إن هروب زوجة حميد فارسي لم يكن كافياً لتحطيم حميد، ولم يتحقق حلمه الكبير في

إنشاء مدرسة الخطّ في النهاية أيضاً. ونتيجة لذلك، فإن الزوج أصبح أعمى من الغضب واليأس لا يرى شيئاً أمامه سوى الطريق الصحيح لانتقام مريع من نصري، ولا يمكن معرفة ما الذي يمكن أن يفعله وهو في سورة غضبه، وأضاف توفيق: «لا يهمني أن أعرف إن كنت أولجت قضيبك في المرأة أم في عش دبابير، أريد أن أتأكد من أن هذا المجنون لن يغرز شيئاً حاداً في جسمك».

ما هذه النبرة التي يتحدّث فيها مدير أعماله معه. لأول مرة شعر نصري أنه كان يقلل من قدر توفيق خلال تلك الفترة، فهو أكثر من مجرد عقل مالي يشقّ طريقه بشكل أعمى في حياته يحسب الأرباح فحسب، وإنما رجل متمرس يتمتع بأعصاب قوية. منذ رأى نصري أن من الحكمة أن يتوارى عن عينَي حميد، لاحظ تغيراً في سلوك مدير أعماله، فقد ظلّ مهذباً كعهده، لكنه أصبح أكثر توتراً وعصبية، ولم يصبح صوته أعلى وإنما أصبح أكثر تسلطاً، وأصبح صوته يشبه صوت والد نصري إلى درجة كبيرة.

«إنها مسألة حياة أو موت»، قال توفيق مؤكداً أنه يتوقع أن تُنفذ أوامره، لكن بالدماثة التي يطلق عليها جميع الدمشقيين اقتراحات، ورغماً عنه، كان على نصري أن يطيعه ويمتثل لما يقوله له.

كانت الأسابيع الستة الأولى من حياته وهو مختف شديدة الصعوبة. فقد تعيّن عليه أن يتعلّم كلّ شيء من جديد. كيف تظل مستيقظاً بينما جميع الآخرين نائمين، وكيف يمضي ساعات طويلة وأياماً في غرف مغلقة لكي لا يعرف أحد أنه جالس في الغرفة المجاورة، وكيف عليه ألا يقول كلمة واحدة لساعات طويلة، أو حتى لأيام متتالية. كانت هذه أول تجربة لنصري يتصرف فيها بهذه الطريقة. فقد ملأت عزلته وقته بالأشواك اللاذعة التي أصبحت

أدوات تعذيب يومية. كان طوال حياته يتصفّح الصحف بسرعة، أما الآن، فقد أصبح يقرأ كل شيء في الصحيفة حتى الإعلانات وصفحة الوفيات، ولا يزال لديه وقت طويل.

بدأ يفكّر في أشياء لم تخطر بباله من قبل، وحقق رؤى لم يخمّنها قبل الآن.

من ساعة إلى أخرى، كان عذابه يزداد. بدأت عيناه تؤلمانه كلّما نظر إلى أي شيء، وأذناه تؤلمانه كلّما سمع شيئاً، ويشعر بأن قلبه سيتوقف، وفي اللحظة التالية، سينفجر. وبدأ ينتابه صداع شديد كما لو أن دماغه صغير لا يتسع لجميع أفكاره. وفجأة بدأت الكلمات تنمو في داخله كما تنمو للجنين يدان وقدمان، وصار يلقي لسانه الكلمات على الجدار أو على النافذة، وإذا كان مستلقياً على ظهره، فإنه يلقي بها إلى السقف. فيهدأ قلبه ويتلاشى صداعه. قال لنفسه لا بدّ أن الأمر كان كذلك عند فجر البشرية، فقد جعلت عزلة الرجال والنساء اللغة تنمو فيهم كي لا تنفجر قلوبهم أو تموت عقولهم من الحزن.

أي مصادفة غير متوقعة له في الشارع قد تكلفه حياته. لا يمكنه أن يجازف بأي عمل طائش، مهما كان صغيراً. عليه أن يكون دائماً أسرع من أي شخص قد يشي به، وأذكى من ذلك الخطاط الذكي اللعين.

بدأ الأشخاص القلائل الذين لا يزال يراهم يتصرفون تجاهه بصورة مختلفة. فقد رفض صديق طفولته أن يلتقي به، ولم يعد ضابط رفيع المستوى يأتي إليه زاحفاً عندما كان الرئيس شيشكلي لا يزال يتبوأ سدّة الحكم، حتى لم يعد يردّ على الهاتف، وقال ضابط شاب لنصري على الهاتف عندما حاول مراراً الاتصال مع الضابط الكبير إن قائده لا يعرف أحداً يُدعى نصري قباني. تجمدت يد نصري على سماعة الهاتف.

لم يعد يغمض له جفن لساعات طويلة، وهو يفكّر. حتى أنه لم يشعر بالمرارة من موقف أولئك الأصدقاء الذين لم يصادقوه لشخصه، وإنما لهالته التي كانوا يأملون أن تضيء ظلام حياتهم قليلاً.

خلال فترة اختبائه ومطاردته، ظلّ يتذكّر عمّه الأكبر أحمد أبا خليل قباني، شقيق جدّه، الذي هرب أيضاً من الأشخاص الذين كانوا يطاردونه، والذي كان مغرماً بالمسرح منذ طفولته. فقد رفع أبو خليل قباني مستوى الفنّ المتدني الذي كان يُؤدّى في المقاهي وفي قاعات الرقص لترفيه الزبائن، ليصبح فنّاً درامياً عظيماً، فأنشأ فرقة مسرحية وقدّم المسرحيات التي كان يكتبها بالإضافة إلى مسرحيات عديدة أخرى مترجمة عن اللغة الفرنسية. ولأنه أول من أنشأ مسرحاً حديثاً في سوريا، أُحرق مسرحه ونال ما ناله من إهانات وتهديد بالقتل والاضطهاد، واستثمر كلّ ما يملك في المسرح الذي يعشقه، لكن الرعاع أحرقوا المسرح بتحريض من رجال دين متعصبين. ظلّ المسرح محرّماً لثلاثين سنة لاحقة، وحتى عام ١٩٣٠ حرّم مفتي دمشق أن يمثّل رجل أو امرأة على خشبة المسرح، لذلك كان المغنون والممثلون القليلون الذين ظهروا في تلك الفترة من المسيحيين واليهود.

اضطر أحمد أبو خليل قباني إلى التواري عن الأنظار حتى هرب أخيراً مع فرقته إلى القاهرة حيث أسس مسرحاً آخر ودرّب جيلاً من الممثلين المصريين والسوريين واللبنانيين، لكن في القاهرة أيضاً، أضرم بعض المتشددين النار في مسرحه عام ١٩٠٠، فعاد إلى دمشق تملأه المرارة، وتوفي عام ١٩٠٣ كسير القلب.

بكى نصري المختبئ أيضاً عندما تذكّر صورة شقيق جدّ جدّه التي كانت معلقة على الجدار في صالون منزل والده بالإضافة إلى صور

عديدة أخرى. لقد انتقل الحزن اللامتناهي الذي كان بادياً في عينيه إلى قلب نصري.

خلال الأسبوعين الأولين من اختبائه، عاش نصري مع زوجته الأولى لمياء، لكن عندما انتشرت الشائعات الأولى عن مكان وجوده في ذلك الشطر من المدينة، نصحتها جارات لمياء بأن تطرده كي لا يعرّض سلوكه المشين أطفالها للخطر أيضاً.

كانت لمياء شاحبة الوجه، تبكي في أحيان كثيرة في الليل، وتثب مذعورة عندما تسمع أدنى صوت. كان ذلك الجحيم بعينه، لكنه لم يذهب من البيت إلّا بعد أن بدأ أطفاله يرددون في صوت واحد والدموع تسيل من عيونهم، الطلب الذي تعلّموه عن ظهر قلب، بأن يرحل لينقذهم. فلعن لمياء ولعن أباه الذي أجبره على الزواج منها، وتسلل ليلاً إلى بيت زوجته الثالثة نسيمة، لأنه علم أن بيت زوجته الثانية سعيدة مليء بالضيوف. فقد جاء لزيارتها كلّ أفراد عائلتها من المنطقة الجنوبية الذين كانوا في غاية السعادة لرؤيتها، ومن شدّة حبّهم لها، مكث الجميع عندها.

أما نسيمة، زوجته الثالثة، التي كان لسانها الذي يقطر عسلاً يجعله ينسى بشاعتها لبضع دقائق، فقد استغلت الآن فرصة زيارته لها لمحاسبته. وراحت تلومه كلّ يوم لأنه أفسد حياتها، ولم يجعلها تكمل دراستها في الهندسة المعمارية التي تحبها، وعدم بناء المنزل الذي كانت تحلم ببنائه. بعد سبعة أيام، لم يعد يتحمّلها وضربها، فأخذت تولول حتى هرع الجيران الذين ظنوا أن أحداً اقتحم بيتها، فأعادتهم إلى بيوتهم ولم تخبرهم شيئاً عن نصري، لكنها طلبت منه أن يغادر منزلها على الفور. أراد نصري أن يعتذر لزوجته ويشكرها على شجاعتها لأنه سمع من مخبئه كل شيء، لكن نسيمة لم تدع له

أي خيار، وصاحت وهي تبكي: «إما أن تغادر بيتي خلال ثلاث ساعات وإما أن أخبر عن مكان وجودك»، لأن في عائلتها كلها، كما كانت تردد بفخر دائماً، لم يرفع رجل يده على امرأة قط.

بعد أن غادر أفراد عائلة سعيدة، زوجته الثانية، اتصل بها وقالت له إنها سعيدة لأنه سيأتي ويمكث عندها، وعبّرت له عن اشتياقها له.

استقبلته سعيدة بأن فرشت له مائدة مليئة بالمأكولات توّجتها بليلة حبّ طويلة، وقالت له بمقت شديد إنها تعرف دائماً أن نسيمة ليست امرأة وإنما رجل، لأن الرجال وحدهم يهتمون بأوهام مثل بناء بيوت، وأن لمياء امرأة مجنونة مصابة بالهستيريا على الدوام، وقالت إن باستطاعته أن يبقى معها طوال الوقت وتستمتع بصحبته كلّ ليلة. لم تكن خائفة. لأول مرة في حياته أُعجب نصري بها، وبدأ يراها تزداد جاذبية يوماً بعد يوم.

وبما أن البيت يقع في حيّ الصالحية، فقد كان بإمكانه أن يذهب إلى النوادي الليلية عندما تكون سعيدة نائمة.

سارت الأمور على هذا المنوال بضعة أسابيع. لكنه سرعان ما أدرك أن سعيدة لم تكن شجاعة، كما خيّل إليه، إنما لم تأخذ مسألة الخطر الذي يشكله لها نصري على محمل الجد، فأخبرت جميع الناس بأنه يختبئ في بيتها، فبدأ أصدقاؤها وأقاربها يأتون لزيارته، وسرعان ما رأى نصري أنهم يفغرون أفواههم أمامه كما لو كان قرداً معروضاً في قفص.

بات كلّ شيء مزعجاً بالنسبة له.

لكن الشيء الذي جعله يغادر البيت بسرعة حتى من دون أن يودّعها، مكالمة هاتفية من توفيق الذي سمع عندما كان جالساً في المقهى المكان الذي يختبئ فيه نصري. «يجب أن تغادر المنزل فوراً، ولا تذهب إلى أي بيت من بيوت زوجاتك الأخريات، لأن

حميد يرصد البيوت الأربعة كلها الآن. خذ سيارة أجرة وتعال إلى بيتي. سأعود إلى البيت في الحال، ويمكننا أن نناقش الأمر».

تصرُّفُ نصري السريع أنقذ حياته، لأنه بعد ساعة من خروجه من البيت، اقتحم حميد فارسي المنزل الكبير مشهراً سكيناً، ودفع سعيدة التي راحت تصرخ عن طريقه وفتّش غرف المنزل. كان حميد يرتجف عندما غادر بعد أن خاب أمله. «إذاً أفلت مني هذه المرة، لكنّي سأعثر عليه وأقتله»، قال لاهثاً وهو يغلق الباب وراءه.

أعدّت زوجة توفيق مائدة مليئة بأنواع الطعام، لكنها سرعان ما انسحبت لتبقى مع أطفالها. وكما لو أن شيئاً لم يحدث، قدّم توفيق وصفاً مقتضباً عن الأعمال التي نفّذها بنجاح لصالح نصري، بينما كان يصبّ الشاي عندما أنهى طعامه. كلّها أخبار ممتازة! ابتلع نصري الملاحظات اللاذعة التي كانت على طرف لسانه بجرعة كبيرة من الشاي.

تعليق واحد أفلت من فمه، «لن تُجدي كلّ هذه الصفقات نفعاً لو تمكن حميد من النيل مني».

رأى توفيق أنه يجب على نصري أن يغادر المدينة في الحال، وعندما لم يتمكن من إقناع نصري، حاول توفيق أن يفكّر في أكثر الأماكن أماناً له في دمشق والمناطق المحيطة بها، ووجد أن أفضل حلّ هو أن يذهب ويقيم مع عمّ نصري، بدر الدين الذي يملك فيلا تشبه القلعة في إحدى القرى القريبة من دمشق.

وافق نصري الذي لم يكن أمامه أي خيار آخر. فعندما ذهب في ذلك اليوم إلى مقهى هافانا في وضح النهار لأنه اشتاق إلى صخب المدينة، كادت الأمور تسير كما لا يشتهي، فعندما كان يشرب فنجان

قهوته تستمتع عيناه وأذناه بالحياة الصاخبة في دمشق، رأى حميد فارسي على الرصيف المقابل من الشارع. بدا كما لو أن حميد يراقب المقهى، ولو لم يصل الترام في تلك اللحظة ويسدّ الطريق ويحجب رؤيته للمقهى، لوقع نصري بين يديه. فتسلل نصري من الباب الخلفي، وقفز في أول سيارة أجرة وهرب إلى دمّر. لقد تحوّل الخطّاط إلى نوع من الأخطبوط الأسطوري العملاق الذي يقال عنه إن أذرعه الثمانية تصل بمصاصاتها الى أي مكان.

كان العم بدر الدين مزارعاً تقليدياً غنياً يرى أن سكان المدينة يستحقون الشفقة. وحتى عندما كان طفلاً، كان نصري يرى أن عمّه رجل محدود الذكاء في نظرته إلى الأمور. فعندما زارهم في دمشق وأحضر لهم سلة مليئة بالتفاح، بدأ يتفلسف حول العصر الحديث ولماذا أصبحوا سيئين إلى هذه الدرجة - «لقد نسي الناس أمّهم الأرض»، على حدّ قوله - وعندما انتقل الحديث إلى الطريقة التي يتصرف فيها الشباب، وطيش الأزواج، والمصانع الحديثة، أو الحروب المندلعة في أنحاء العالم، اعترى الجميع الملل. كان بإمكان نصري أن يتحمّل ذلك لمدة عشر دقائق على الأكثر، فلم يكن بمقدور عمّه أن يحكي قصة، وإنما كان يلقي موعظة مملة عن تدهور الأخلاق.

أصبح الآن في السبعين من عمره تقريباً، وبالإضافة إلى عقله المحدود، بدأ خوفه من يوم القيامة يزداد (الذي يتوقع أن يأتي في أي يوم). فقد كان يعتبر أي شيء يحدث في الطبيعة: عاصفة أو حرب أو جائحة، دليلاً مؤكداً، على أن نهاية العالم باتت وشيكة.

لم يعد الاقتراب منه أسهل لسماعه، وبما أنه لم يبق سن واحد في فمه، أصبح من الصعب أن يفهم الشخص الذي يستمع إليه شيئاً من حديثه، ويمتلئ وجهه برذاذ بصاقه.

«النهاية وشيكة، وسيسقط العالم في أتون الشمس ويحترق مثل قطعة ورق في النار»، قال ذات مساء. بعد هذه التوقعات المروعة، بدأ نصري يجد صعوبة كبيرة في النوم، وبدأت جميع الأفكار تتصارع في رأسه وبدأ يستيقظ في الليل وهو يتصبب عرقاً.

بعد فترة قصيرة لم يعد يعرف كم سيمضي من الوقت في بيت عمّه الذي أرهقه بكرم ضيافته الريفية. «لماذا تنتقي طعامك بخوف مثل تلميذ مدرسة خجول؟ كلّ... لدينا طعام كثير هنا، لا نريد أن ينام الضيف وهو جائع، لسنا مثل المضيفين الآخرين في هذه الأيام. كلّ ما تحبّه، إننا لا نراقبك»، وكان نصري متيقناً من أن عمّه يحصي عليه كلّ لقمة يتناولها.

نادراً ما كان نصري يتناول حلوى بعد الطعام، وكان يعتبر أن الفاكهة جُعلت للأطفال والمعوقين، وكان كل ما يحتاج إليه فنجان قهوة لذيذة وقوية مع حب الهال، لكن عمّه يرى أن القهوة سامة، وبما أنه لا يأكل ويشرب إلّا ما يأتي من الحقول السورية، فإن القهوة لا تساوي شيئاً بالنسبة له ولا تدخل بيته.

ولم يعد باستطاعة نصري أن يدخّن، وبدأ يضطر لأن يشرب العرق خفية من القنينة مباشرة، من دون ماء أو مكعبات ثلج. ذكّره ذلك بمتسول سكير يجوب الشوارع بثيابه المهترئة الوسخة حاملاً قنينة عرق في يده. كان الوضع كله مزرياً.

فقدت الأيام والأسابيع أي سمات مميّزة. جاء يوم استيقظ فيه نصري من كابوس وخرج إلى الليل الهادئ البارد. أخذ يجري كما لو كان عمّه يجري وراءه. لم يخفف من سرعته إلّا عندما أصبح على الطريق الرئيسي ورأى أضواء حافلة متجهة إلى دمشق. عندما لوّح نصري للحافلة، توقفت، وصعد إليها وجلس. كادت الحافلة تكون

فارغة. بضعة مزارعين ذاهبين إلى السوق في دمشق وقد حمّلوا منتجاتهم من الخضراوات والدجاج.

سرعان ما غطّ نصري في النوم، ولم يستيقظ إلّا عندما توقفت الحافلة فجأة في ضواحي المدينة حتى يجتاز قطيع صغير من الأغنام الطريق. صاح الراعي غاضباً على الكبش الذي توقف في منتصف الطريق وراح يثغو على المدينة عندما استيقظت من النوم.

قال نصري للشخص الجالس بجانبه: «حتى الكبش المخصي يحبّ دمشق. بعد ثلاثة أيام في المدينة»، قال نصري إن تلك الأغنام ستلعب طاولة الزهر وتشرب العرق، «لذلك فهي تساق إلى الذبح بسرعة»، أجاب الرجل بجانبه في الحافلة عندما هوت عصا الراعي على جمجمة الكبش.

كانت السماء فوق دمشق قد بدأت تضيء.

تسلل نصري إلى مكتبه وتلفن لتوفيق. «إلى أين ستذهب الآن؟» سأله كاتم أسراره الذي بدا صوته متعباً.

فقال نصري: «لأرى عاهرتي. لن يخطر لأحد أن يبحث عني هناك».

في طريقه إلى بيت أسمهان تساءل لماذا يرى كلّ زوجاته قبيحات. كان متأكداً من أن لكلّ واحدة منهن جمالها الخاص، لكن ليس له، أو ليس الآن. لماذا يصبح الناس قبيحين عندما لا نعود نحبّهم؟ في نظره، فإن أسمهان جميلة وجذابة، لكن مدير أعماله يراها امرأة شنيعة. قبل أن يصل إلى شارعها بقليل قال نصري لنفسه إنه يحبّ أسمهان. ربما لأنها ليست ملكاً له، وإنما مثل قطعة حلوى يقضم منها الجميع. من الرصيف المقابل للبيت الصغير، رأى زبوناً مسناً أنيقاً يغادر بيتها. اجتاز الطريق بسرعة وضغط على جرس الباب.

40

كانت أسمهان قد سمعت عن هروب زوجة الخطّاط الجميلة. وبدأت معرفة دور نصري فيها تزداد صعوبة أسبوعاً بعد أسبوع، لكنه اختفى، وها هو يظهر فجأة أمامها. لا بدّ أنه كان يراقب المنزل منذ فترة لأنه رنّ جرس الباب بعد لحظة واحدة من إغلاق حبيب، الصائغ العجوز، الباب وراءه. ظنّت أن الرجل العجوز نسي أقراص دواء أو نظارته أو عكازه لأن من عادته أن ينسى شيئاً، وكانت تشكّ في أنه يتعمّد أن يفعل ذلك حتى يضمّها ويعانقها مرة أخرى من دون مقابل، لأنه كان بخيلاً. عندما فتحت الباب وهي تضحك، رأت نصري واقفاً أمامها شاحب الوجه.

«أرجو أن تدعيني أدخل، هناك رجل مجنون يحاول أن يقتلني»، قال لاهثاً. دعته يدخل، وللحظة، أشفقت عليه قليلاً. حكى لها نصري عن مشكلته على الفور، وقال لها إنه يريد أن يختبئ في الطابق الأول من منزلها لفترة من الوقت حيث لا يُسمح لأحد من زبائنها أن يصعد إليه، وأضاف نصري أن الخطّاط استأجر مجرمين ليقتلوه.

فقالت له أسمهان: «وإذا وجدوك عندي فإنهم سيقتلونني معك أيضاً. على الأقل أريد أن أعرف ما هو السبب. هل هو نفس الخطاط الذي كان يكتب لك الرسائل الغرامية التي قدمتها لي أيضاً؟

ألم يمكنك أن تجد كلمة واحدة تقولها لي؟ هل دفعت له مبلغاً ليعبّر لك عن حبك؟»

في سورة غضبها هذه، جلبت قصاصة ورق ووضعتها أمامه بحركة مسرحية، وقالت: «اكتب لي في هذه الورقة رسالة قصيرة». استشاط نصري غضباً وراح يزأر، لكن عبثاً. تأكدت الآن أنه كان يكذب عليها، وتحوّل شعورها بالشفقة إلى شعور بالاحتقار.

ثم رنّ جرس الباب. ابتسمت أسمهان لأنها عرفت كيف تتخلّص منه إلى الأبد. قصة قديمة كانت قد حكتها لها إحدى صديقاتها في المدرسة ذات يوم، وشرحت لها كيف تهين الرجال المغرورين التافهين.

«يجب أن تختبئ بسرعة»، قالت ودفعته إلى داخل خزانة صغيرة حيث يمكنه أن يجلس على كرسي محشور بين الدلاء والمكانس. أي حياة هذه؟ منذ فترة قصيرة كان من أكثر سكان دمشق احتراماً وتقديراً، وأصبح عليه الآن أن يختبئ من العالم كله بين كلّ هذه النفايات.

بينما كان يفكّر في قدره الحزين سمع أسمهان تضحك. فلم يكن يفصل خزانة أدوات التنظيف عن غرفة نومها سوى حاجز خشبي رقيق. سمع صوت شهقات أسمهان وتنهداتها مع ذلك الرجل المجهول الذي يضاجعها بمتعة كبيرة. عندما همدت أصواتهما أخيراً، سمعهما يتكلمان عنه. سمع الرجل يحكي لأسمهان بتفصيل شديد عن الشائعات التي تدور حول نصري ونورا. كاد نصري ينفجر، وامتلأ قلبه بالخجل وأحسّ أن صدره سينفجر لأنه ضاق بما فيه. قال الرجل: «كان هذا اللقيط يدفع ثمن الرسائل لكي يغوي النساء، بينما يقوم أحد جيران زوجاته بإغواء كل واحدة منهن كلّ يوم من دون رسائل».

«هل هذا صحيح؟» سألته أسمهان، «وهل كنتَ تغويهن أيضاً؟»

فقال الرجل الجالس على سريرها: «لا، لكن أحد أصدقائي أغوى زوجات نصري الأربع».

كاد نصري ينفجر غضباً. أراد أن يلوي رقبة أسمهان، لكن ما سمعه أصابه بالذهول. لأنه بدأ يدرك أن زبون أسمهان، ضابط برتبة عالية في جهاز المباحث، ومثل جميع الرجال مثله، يحب أن يتبجح، لكن لا بدّ أنه يعرف ما الذي يجري جيداً.

ثم أضاف، «الآن، حتى رجالي صاروا يبحثون عن نصري».

«لماذا؟ هل كان يضاجع زوجاتهم أيضاً؟»

فضحك الرجل، وقال: «لا، ليس الأمر كذلك، لكن الخطاط يطارده. وبما أنه لا توجد لدى جهاز المباحث سلطة كبيرة في ظل الحكم الديمقراطي، فإنهم يرغبون في أن يحصلوا على عمل إضافي بالإضافة إلى عملهم الرئيسي. فإذا لم أوسخ يدي لن أكسب سوى القليل. حسناً، ماذا يمكن للمرء أن يفعل؟ كم أتوق إلى أيام الحكومة السابقة القوية التي يفترون الآن ويقولون إنها حكومة دكتاتورية. كان رجالي يعملون أكثر من طاقتهم في ذلك الوقت».

«هل يبحثون الآن عن نصري قباني لقتله؟» سألته أسمهان.

«لا، إنهم يبحثون عنه فقط ليسلموه لحميد فارسي. فالخطاط يريد أن يستمتع بقتله بنفسه. فقد مرّغ شرفه في الوحل. يستطيع رجالي أن يفعلوا ما يشاؤون، لكن لديهم أوامر بألّا يقبضوا عليه، وإذا تجاوز أحدهم ما سمحت له به، فإنه سيطرد من الخدمة على الفور. توجد في أدراج مكتبي أسباب كافية تمكنني من طرد الجيش بكامله». قهقه الرجل على النكتة التي قالها حتى بدأت أذنا نصري تؤلمانه.

«وعلامَ يحصل الشخص الذي يشي بمكان اختباء نصري؟»

«سيحصل على مبلغ يتراوح بين عشرين ألف وخمسة وعشرين ألف ليرة. الخطّاط في عجلة من أمره، وهو رجل غني جداً».

لقد وقع نصري في فخ. وكلما طالت فترة استماعه لهما ازداد خوفاً. كيف يمكن لهذا الخطاط الغاضب الذي دعم مدرسته أن يسعى إلى قتله؟ وكيف حدث أن أصبحت لأسمهان فجأة اليد العليا، وبإمكانها الآن أن تصبح أغنى بكثير بمجرد أن تقول كلمة واحدة؟ ما الذي حدث لحياته؟

بعد قليل، ساد سكون في الغرفة الملاصقة للخزانة التي توجد فيها أدوات التنظيف، وما بدا أنه دهر آخر، فتحت أسمهان باب الخزانة. الدموع تسيل على خدّيها وثملة. وقالت له: «اخرج من هنا الآن قبل أن أضعف وأتصل بالخطاط».

كان نصري على وشك أن يبكي، وقال متوسلاً: «دعيني أشرح لك الأمر»، فصاحت به، «اذهب إلى الجحيم»، وأشارت إلى باب المنزل.

خرج نصري من منزل أسمهان وتوجّه مباشرة إلى فندق الأمير القريب وتلفن لتوفيق وأخبره بما جرى. ناقشا ما الذي يجب أن يفعله الآن. حثّه توفيق على أن يسافر إلى بيروت، لكن نصري يكره بيروت، ولا يحتمل البحر أو أسلوب الحياة اللبنانية.

«إذاً لم يبق أمامنا سوى شقة أختي المرحومة»، قال توفيق الذي سمع من بعض البوابين في البنايات التي يملكها نصري أن بعض الغرباء يعطونهم نقوداً ويسألون إن كان صاحب المبنى يختبئ في إحدى شققه الفارغة، وأضاف، «إنه مكان متواضع، لكنه مؤثث بشكل مريح»، وأردف توفيق، «إنها معروضة للبيع، لكن بيعها يمكن أن ينتظر بضعة أشهر حتى ننتهي من هذه الأزمة، ومكانها غير

معروف أيضاً في بناية حديثة مؤلفة من أربعة طوابق فيها ست عشرة شقّة، كلّها متشابهة إلى درجة كبيرة، والمستأجرون أو أصحابها يتغيرون باستمرار. بالإضافة إلى ذلك»، قال توفيق وهو ينهض واقفاً، «للمبنى منفذان يمكن الخروج منهما إلى شارعين مختلفين. سأحضر السيارة»، قال وتوجه إلى الباب، ثم التفت، وقال بنبرة أبوية حنونة: «انتبه لنفسك»، وذهب. بعد ربع ساعة، نظر نصري من النافذة ورأى توفيق يركن سيارته السيتروين خارج مدخل الفندق. دفع نصري إيجار الغرفة، متخفياً بنظارة شمسية، وتسلل إلى السيارة.

تقع الشقّة في الطابق الثالث في بناية حديثة بالقرب من سفح جبل قاسيون. عندما نظر نصري من الشرفة، رأى ساحة صغيرة متربة وشارع الحيّ الرئيسي ينحدر إلى وسط المدينة، يطلّ على مدينة دمشق.

«يمكنني أن أبقى هنا إلى الأبد»، قال لتوفيق قبل أن يغادر الشقة. شعر نصري بامتنان شديد له. من الواضح أن توفيق قد نظّف الشقة في ذلك اليوم وملأ الثلاجة بمأكولات لذيذة. ووجد نصري أيضا السكّر والبن وحب الهال والشاي ومقبلات متنوعة أخرى في المطبخ، ورسالة كتب فيها: «اتصل بي إذا احتجت إلى أي شيء».

اتصل به نصري بعد ساعتين وشكره وسأله إن كان بإمكانه أن يُحضر الصيدلي إلياس أشقر معه إلى الشقّة لأنه اشتاق إليه، وقال إنه صديق كتوم يمكن الاعتماد عليه ورجل متحضر.

لم يكن توفيق متحمساً لهذه الفكرة، وقال: «لكنه مسيحي».

«وماذا في ذلك؟» قال نصري وغضب فجأة من الرجل الذي يملي عليه عدداً كبيراً من الأسباب ليكون ممتناً له، «وماذا يهمني، حتى لو كان يهودياً أو يعبد النار. إنه رجل محترم مثلك ومثلي»، ظاناً أن توفيق المتدين لا يحبّ هذه المقارنة كثيراً.

«كما تشاء». قال توفيق، «سأحضره ليراك غداً مساء». كانت كلماته تشي بتهذيب وندم على ما قاله.

«وقل له أن يجلب معه زجاجة حليب السباع»، أضاف نصري، وهو يعرف أن توفيق المطيع سيرفض، لأنه مسلم متدين، حتى أن يشتري قنينة عرق الذي يطلق عليه في دمشق اسم *حليب السباع*.

جاء الزائران في مساء ذلك اليوم. لكن توفيق الذي بدا متوتراً غادر بسرعة وعاد إلى منزله. شعر إلياس أشقر بالفخر لأنه يزور صديقه الحميم منذ سنوات، والمتواري عن الأنظار الآن، وعانق نصري ودمعت عيناه، «لقد اشتقت إليك وإلى قهوتنا الصباحية معاً»، قال وهو في غاية التأثر.

لم يستطع إلياس إلّا أن يؤكد ما يعرفه نصري منذ فترة طويلة، وهو أن الخطّاط لا يدّخر جهداً أو مالاً للعثور عليه. «لماذا لا تستأجر أحداً يقتله؟ يوجد مجرمون عاطلون عن العمل مستعدون لقتل أي شخص لقاء مئة ليرة، ثم تعيش في هدوء وسلام»، قال إلياس عندما سكرا وكادت قنينة العرق تصبح فارغة.

«لا، لا يفعل المرء ذلك. فقد هربت زوجته، وأصبحت مدرسة الخطّ في مهب الريح، وأُغلق محترفه - وعليه فوق كل هذه المصائب أيضاً أن يموت؟» هزّ نصري رأسه مؤكداً بذلك رفضه، وأضاف، «إنه شيطان مسكين، وسرعان ما سيكتشف أن لا علاقة لي بكلّ ذلك. سيراه توفيق غداً ويحاول أن يعيده إلى صوابه. صائغ الذهب نجيب ريحان يرتب هذا اللقاء».

كان نصري لا يزال يشعر بقدر من الامتنان تجاه الخطاط، وعندما أزال العرق الخوف المتبقي لديه حكى للصيدلي عن التأثير الذي أحدثته رسائل حميد على كل من العاهرات والرؤساء.

عندما استأذن الصيدلي ليذهب إلى الحمّام، نظر نصري إلى

الصحيفة التي أحضرها له صديقه. رأى إعلاناً: «عرض أزياء. تعرض عارضات أزياء باريس المجموعة الشتوية «٥٦/ ٥٧» لدار أزياء كارفن الباريسي في فندق سميراميس». ابتسم عندما تذكّر عرض الأزياء الذي أقيم السنة الماضية في نفس الفندق والذي نظمته دار أزياء كارفن نفسها. بدا له كما لو أن الجريدة قد مضى عليها سنة.

غادر الصيدلي في وقت متأخر. نظر وهو واقف في المدخل المظلم طويلاً قبل أن يخرج إلى الشارع المنار بمصباح الشارع.

بعد ثلاثة أيام، جاء توفيق يحمل خبراً مفاده أن الخطاط فقد صوابه تماماً، وأنه أصيب بجنون الاضطهاد. فمع أنه رفض العرض بأن يكون الصائغ وسيطاً بينه وبين نصري، ذهب توفيق بنفسه وقابل حميد فارسي الذي قال له بجدية تامة إن نصري يحيك خيوط مؤامرة تهدف إلى فضحه وهتك عرضه على الملأ لأنه هو، حميد فارسي، يريد أن يدخل إصلاحات ثورية على الخطّ العربي، وأن الأمر لا يتعلق بنورا وإنما يتعلق بإهانته وإذلاله، لذلك فهو عازم على قتله.

غضب نصري، وقال إن الصيدلاني محقّ، فالخطاط كارثة يجب التخلص منها. يجب أن يُقتل حتى لا يقتله.

لم يجب توفيق على ما قاله نصري غاضباً. وعندما صمت ليستعيد أنفاسه، نهض توفيق واقفاً وقال: «يجب أن أعود إلى المكتب الآن. لدينا صفقة كبيرة يجب أن نعقدها مع اليابانيين اليوم»، قال وغادر. غضب نصري من مدير أعماله ولعنه ولعن جميع اليابانيين.

عندما نظر من النافذة، تخثّر الدم في عروقه من شدة الخوف. فعلى الجانب الآخر من الشارع، ليس أكثر من عشرة أمتار، رأى حميد فارسي واقفاً، مستنداً إلى جذع شجرة حور، يراقب البناية. خرج توفيق من البناية وتوجّه إلى سيارته السيتروين. انتظر حميد فترة

أطول قليلاً حتى حجبت حافلة المكان الذي يكمن فيه، وسار في الطريق المؤدي إلى البناية برشاقة مثل حيوان ابن عرس.

تسمّر نصري في مكانه. إنه يعرف أنه لا توجد على باب شقته أو على أبواب معظم الشقق الأخرى لوحات بأسماء قاطنيها. لكن قد يكتشف الخطاط الشقّة التي يختبئ فيها. توجه نصري إلى المطبخ وبحث عن سكين كبيرة، لكنه وجد أن كلّ السكاكين الموجودة صغيرة وقديمة، مقابضها الخشبية مهترئة، ثم رأى سيخ كباب طويلاً وحاداً. «فقط تعال إلى هنا، سأدخل هذا السيخ في بطنك»، همس لنفسه وارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة للفكرة التي خطرت له بأن يضع الخطاط في سيخ مع البصل والفليفلة ويشويه على النار كما يُشوى الكباب. أمسك السيخ بيده اليمنى، واقترب من باب الشقّة، وراح يتنصّت على أي صوت يمكن أن ينبعث في بئر الدرج. في الشقّة على يمينه، سمع صوت فتاة تبكي بصوت مرتفع، وفي الشقّة على يساره، سقط غطاء مقلاة على الأرض وأحدث صوت ارتطام قوياً. وفي الشقة التي تحته، سمع امرأة تشتم. خيّل إليه أنه سمع وقع خطوات أقدام، ثم خطر له أن الصمت المطبق في شقته سيبدو مريباً لحميد. دخل إلى غرفة الجلوس، وفتح المذياع. عندما وجد أغنية حزينة، قال لنفسه، إن ربات البيوت يحببن هذه الأغاني. عاد إلى المطبخ وجرع كأساً من الماء، وضرب على لوح بملعقة طبخ، وألقى كأس الماء فوق وعاء معدني.

أدرك أنه يتصرف بسخافة، وكاد يبكي لو لم يزل الخوف الشعور بالشفقة منه. تسلل إلى النافذة ونظر إلى الشارع. رأى حميد فارسي يخرج من البناية ويعود إلى نقطة المراقبة وراء شجرة الحور.

اتصل نصري بتوفيق الذي لم يقل شيئاً، كأنه خمّن أشياء كثيرة،

ثم قال: «لديّ خبر لك. شيء يدعو للغرابة، ويمكنك وحدك أن تقرر إن كان خبراً جيداً لك أم سيئاً». حتى قبل أن يسأل نصري ما هو ذلك الخبر، سمع توفيق يقول: «جاءت زوجتك ألماز إلى هنا. إنها تريدك. قالت إن عليك أن تذهب إلى بيتها وتراقب حميد فارسي من منزلها».

فكّر نصري في الأمر.

ثم قال: «ليست فكرة سيئة. قل لها إنني سأكون عندها غداً في منتصف الليل».

تذكّر القصص الكثيرة عن النساء الذكيات التي كان يسمعها عندما كان طفلاً. ابتسم وهزّ رأسه وهو يتخيّل عبثية مراقبة حميد فارسي الذي يطارده طوال الليل.

لا يمكن أن يفكّر في حيلة كهذه إلّا امرأة.

مساء اليوم التالي، ظلّ نصري يراقب الرجل الذي يتعقبه القابع بجانب شجرة الحور القديمة حتى وقت متأخر من الليل.

قبل منتصف الليل بقليل، غادر نصري البناية من المدخل الخلفي، واستقلّ سيارة أجرة وسار في المدينة في منتصف تلك الليلة الصيفية. فكّر ملياً في حياته، بينما هدّأت أنوار مدينته التي يحبّها روحه، تساءل إن كان الوقت قد حان ليبدأ حياة جديدة. قال إن الخطوة الأولى في حياته الجديدة تكمن في أن يطلّق كلّ زوجاته. لن يكون الأمر سهلاً وسيكون مكلفاً جداً بالنسبة له أيضاً، لكنه لم يشأ أن يمضي ما تبقى من حياته مع زوجات لا يحبّهن.

صمّم نصري كما لم يصمّم من قبل أن ينفّذ هذه الخطة.

لكن لم يعرف في تلك الليلة أنه لم يتبق لديه وقت كاف ليفعل ذلك.

41

كان حميد فارسي يبحث باستماتة عن نصري قباني. في نهاية شهر تموز، كان متيقناً من أن عدوه لا يزال موجوداً في المدينة، لأن ثلاثة محققين واثنين من رجال المخابرات رأوه، كلّ على حدة، في مقهى الهافانا في شارع بورسعيد بالقرب من بناية قباني.

كمن بالقرب من *«المكتبة العالمية»* قبالة المقهى. في عصر أحد الأيام، رآه فجأة جالساً من واجهة المقهى. لكن حميد لم يكن ماهراً بما يكفي، فقد رآه قباني وهرب من الباب الخلفي.

وكَّل حميد وكالة تحرٍّ لمراقبة منازل زوجات نصري. كلّفه ذلك مبالغ كثيرة، وحدثت إنذارات خاطئة مرات عديدة. ففي إحدى المرات، اتصل به أحد أولئك المحققين وقال له إنه متيقن من أن نصري يقيم حالياً مع زوجته الثانية في حيّ الصالحية. فهرع حميد إليه وقرع باب البيت بقوة ودخل إليه عنوة. وقعت المرأة على الأرض. أشفق عليها، لكنه لم يجد نصري.

لم يحالفه الحظ مع الزوجة الثالثة في حيّ الميدان أيضاً، أما الزوجة الرابعة، فلم تنصت إليه ولم تدعه يدخل إلى المنزل. وقفت أمامه، عريضة الجسم، وشتمته، وشتمت زوجها، ثم أغلقت الباب في وجهه، وسمعها تقول بصوت مرتفع من وراء الباب المغلق، «قواد».

أثار ذلك حنقه كثيراً.

لم يأت نصري إلى مكتبه أيضاً. فقد حذّر مدير أعمال نصري حميد بأنه إذا رآه يتسكع خارج المكتب مرة أخرى، فإنه سيستدعي الشرطة.

لم يخش حميد الشرطة، وإنما كان يخشى أن تحبط خطته للانتقام. ومنذ ذلك اليوم، بدأ يتجنب السير في شارع بورسعيد.

لم يبتعد حميد عن توفيق، وظل يتبعه في كل مكان. كانت تلك النصيحة التي أسداها له رجل قديم في جهاز المباحث. وفي أحد الأيام، قاد توفيق سيارته السيتروين القديمة إلى إحدى البنايات عند سفح جبل قاسيون. كان حميد متيقناً من أن الرجل سيقوده، من دون قصد، إلى مكان معلّمه، لكنه لم يجد أثراً لنصري في أي مكان. أمضى يومين وليلة طويلة وهو يراقب البناية، لكن الحظ لم يسعفه.

بعد أسبوع، اتصل به كرم، صاحب المقهى، وقال له إن لديه أخباراً تهمه.

انطلق حميد على الفور إلى المقهى حيث أخبره كرم بأن نصري قباني مختبئ في بيت زوجته الرابعة ألماز منذ عدة أيام.

«وكيف عرفت ذلك؟» سأله حميد بارتياب. فقد كان يخشى أن يخدعه صاحب المقهى هذا. ففي الأسابيع القليلة الماضية، زاد محققون فاشلون وأشخاص حاقدون أعصابه توتراً. فقد اتصل به بعضهم في الليل وأعطوه عناوين زعموا أن نصري موجود فيها. في إحدى المرات، كان العنوان عنوان بيت دعارة، وفي مرتين أعطوه عناوين نواد ليلية معروفة، وفي الحالات الثلاث، صار حميد مضحكة لرواد هذه الملاهي.

قال له كرم، «اسمع: ابنة عمي ألماز هي زوجة نصري الرابعة. إنها منزعجة من الطريقة التي لم يترك فيها ذلك التيس الهائج عاهرة

في المدينة وشأنها، والآن صار يبيع نساء دمشقيات لشيوخ البترول في السعودية والخليج».

وأضاف، «إنك تعرف بيتها جيداً في شارع الدقاق. أخبرتني ابنة عمي ألماز أنك ذهبت إلى هناك ذات مرة. البنايات التي في شارعها تلتصق بالبنايات التي في شارعك».

دُهش حميد. نعم، فقد صادف ذات يوم تلك المرأة البدينة السليطة اللسان، لكن لم يخطر بباله قط أن حائط المنزل في شارع الدقاق يلاصق جدار منزله.

وأضاف كرم، «لقد عاش نصري مع ابنة عمي في شارع بغداد في البداية، نفس المنزل الذي أصبح لفترة مدرستك للخط، لكن ابنة عمي سرعان ما اكتشفت أن زوجها ينام مع جارتين في البناية، فأحست ألماز بمهانة كبيرة، ولم تعد تريد أن تمضي يوماً آخر في هذا المنزل، فانتقلت إلى المدينة القديمة، لكن ألماز هدأت بعد فترة قصيرة، حتى اكتشف نصري زوجتك».

«لكن كيف رأى زوجتي؟» سأله حميد وقد جفّ حلقه.

«توجد في منزله عليّة تطلّ على فناء بيتك».

«عليّة؟ أي عليّة؟ بيتنا هو الأعلى من ثلاث جهات، ولا يوجد فوقه سوى السماء، وعلى الجانب الرابع، لا يوجد سوى جدار مرتفع من طوب القرميد لا توجد فيه نوافذ. لم أر قط أحداً هناك»، قال حميد، وبدأ يشعر بسخافة هذه المحادثة، ولم يتخيل أن نصري الذي يلاحقه مختبئ في مكان قريب جداً من منزله.

«إنك لم تدرك ذلك لأنك رجل محترم. بعكس نصري. فأنت تُبقي عينيك مطرقتين لأنك تعتبر زوجات الرجال الآخرين محرّمات عليك، حتى أنك لا تعرف كم عدد النساء الموجودات في تلك البيوت التي تطلّ عليها من شرفتك، أما نصري فإنه يستخدم كوة

صغيرة كأنها ثقب بين حجري جدار. عندما تعود إلى بيتك اليوم، انظر إليها جيداً»، قال له كرم ونهض واقفاً لأن أحد العاملين معه أشار إلى أن أحداً يريد أن يكلمه على الهاتف.

نهض حميد أيضاً وشكر كرم وعاد الى بيته مباشرة. عندما وصل، رأى بالفعل النافذة الصغيرة التي لا تكاد تكون مرئية في الجدار. لا بدّ أن العليّة تقع فوق بيته. كان الجدار مهترئاً بفعل الطقس فلا يكاد المرء يرى فرقاً بين الجصّ ونصفَي إطار النافذة الخشبي وهما مغلقان. كانا مفتوحين في تلك اللحظة. خُيّل لحميد أن امرأة تلوّح له بيدها. لكنه لم يردّ.

اعترف حميد أنه لم يلاحظ هذا المنزل أو المنازل المجاورة الأخرى قبل الآن، وأدرك أنه لم يغادر الطابق الأرضي قط، ولم يصعد إلى الغرف في الطابق الأعلى أو إلى السطح حيث تنشر زوجته الغسيل، ولم ينظر قط إلى باحات البيوت الأخرى، لم يفعل ذلك طوال حياته لأن جدّه ووالده كانا يقولان له دائماً إن لمنازل الجيران حرمة خاصة.

وقف حميد تحت النافذة ورفع عينيه. قال لنفسه إن أي قطعة ورقة مثقلة بحصاة صغيرة يمكن أن تهبط هنا.

عاد إلى كرسيه بجانب بركة الماء ونظر إلى الأعلى مرة أخرى. أُغلقت النافذة الآن، ولم يكد يراها بسهولة. في صباح اليوم التالي، خرج مبكراً ولم يعد حتى المساء. هل من الممكن أن هذا اللقيط كان يغوي نورا في الصباح دائماً؟ تذكّر كيف أن قباني قد أخبره ذات يوم بأنه لا يستيقظ قبل الساعة التاسعة لأنه يمضي معظم لياليه خارج البيت، ويتناول عشاءه في وقت مبكر مع الزوجة التي يكون دورها الليلة.

لكن لو كان الأمر يتعلق بأساليب ذلك التيس الهائج الخليعة،

لعرف نصري منذ أول لقاء لهما، على أبعد تقدير، بأن نورا هي زوجة حميد، وتوقف عن الطلب من زوجها أن يكتب له رسائل على الفور، أم أن كلّ ذلك كان مخططاً له سلفاً؟ وتساءل هل كان نصري يلاحق نورا منذ البداية ليمرّغ وجهه في التراب؟ غمره شعور بكراهية شديدة تجاه ناكر الجميل نصري قباني الذي لم يمنحه إلّا الأشياء الجميلة، والذي وجّه ضربة قاضية لسمعته. وفجأة، بدا له التبرع السخي الذي قدّمه قباني لمدرسة الخطّ جزءاً من خطة شيطانية حتى يجعل حلمه ينهار كما ينهار بيت واهٍ. لأن نصري ليس عدواً غبياً مثل تلك الزمرة الملتحية. لا، وإنما كان رجلاً يبتسم في وجهه لكنه ينتظر اللحظة المناسبة ليغمد سكيناً حادة في جسده.

في صباح اليوم التالي تلفن حميد لكرم عدة مرات، لكن من دون جدوى. توجّه إلى المدينة القديمة، وشعر للمرة الأولى بنظرات الآخرين تحرق جلده. لم يطق ذلك، عاد إلى البيت وصفق الباب خلفه، وانسلّ إلى غرفة النوم المظلمة.

فجأة سمع رنين الهاتف.

عاد إلى الصالون حيث يوجد الهاتف. أرادت ليلى بكري، صديقة زوجته منذ أيام المدرسة، أن تسأل هل عادت إلى البيت.

أغمض عينيه ورأى شرارات من النار أمام سماء مظلمة، «ما يعنيكِ أنتِ أيتها القحبة الغبية؟» صاح في الهاتف وأغلق السماعة.

42

بعد مضي خمسة أشهر على اختفاء زوجته، طعن حميد فارسي نصري قباني بسكين حادة عندما كان هذا خارجاً من حمّام نور الدين في سوق البزورية، في وقت متأخر من الليل وهو يسير في الشارع المظلم إلى بيت زوجته الرابعة، ألماز.

مات نصري دون أن يعرف أن زوجته ألماز هي التي وشت به بمساعدة كرم، فقد أحسّت بخيبة أمل شديدة من علاقاته بالقحبات. فبعد أن دخل حياتها في لحظة ضعف، ترك لها خياراً واحداً فقط بعد أن حبّلها - إلا إذا أرادت أن تموت - وهو أن يتزوجها. ثم بدأ يخونها كلّما أتيحت له الفرصة.

بعد العرس أحبّت نصري بشغف. كان كرمه لها سبباً كافياً جعلها تحبّه. لكن كلما ازداد حبّها له، ازداد برودة نحوها، وعندما قالت له ذات يوم بعد أن أنجبت ناريمان إنها تحبّه كثيراً، أجابها باستخفاف، «حسناً، حسناً، ستتجاوزين هذه المشاعر بعد فترة قصيرة. فهي كالحمّى، لا تكون عادة ضارة. وبدلاً من كلّ ذلك، يجب أن تضعي عقلك في رأسك وتُنقصي وزنك عشرين كيلو».

منذ ذلك اليوم، تبخّر حبّها له.

عندما زارها كرم ذات يوم، أخبرها أن زوجها نصري يزور عاهرة من الطبقة الراقية تدعى أسمهان كلّ يوم منذ عدة سنوات، ومن

الواضح أنها أُغرمت به، وعندما لم يبادلها الحب، لم تعد ترغب في رؤيته كزبون، ثم جاءت فضيحة زوجة الخطاط. راودتها شكوك لفترة من الوقت بأن صعود نصري إلى العليّة بدأ يزداد، وشعرت بجرح أعمق من ذلك الذي سببتها العاهرة أسمهان، لأن نصري بدأ يخطط لإغواء امرأة الآن من بيتها وحوّل لذتها بهذا البيت الجميل الى جحيم من الخوف مما هو آتٍ.

أرادت أن تلقّنه درساً بسيطاً عندما حطمت العمود الخشبي المهترئ، السند الوحيد للدرج الخشبي، بضربة مطرقة واحدة وأوقعته من فوق السلّم، لكن نصري نسي ذلك حتى قبل أن يُزال الجصّ عن ساقه، ثم ركّب درجاً حلزونياً من الحديد يصل إلى العليّة، لأن دوافع خفية كانت تجول في رأسه.

اتصلت بابن عمّها كرم الذي جاء على الفور كدأبه عندما تحتاج إليه. لم يكن ابن عمّها مباشرة، وإنما ابن عم بعيد من طرف أبيها، لكنه كان لطيفاً معها إلى درجة كبيرة، يساعدها كلما احتاجت إلى مساعدة، لا يطلب منها شيئاً لقاء ذلك. كانت تحبّ صوته العميق، ويقدّم لها نصائح مفيدة، بشرط ألّا تخبر زوجها بذلك لأنه لم يرتح إليه أبداً.

بينما كان والداها يحاولان تهدئتها، كان كرم يقف إلى جانبها بحزم وعناد لا يرضى بالمساومات والمغفرة، وألمح لها بأن لفضيحة زوجة الخطاط علاقة بالديانة، وأن زوجها متورط فيها، لكنه نصحها بألّا تبدي لنصري أنها مرتابة من أي شيء لأنه قد يطردها من البيت، عندها ستعيش فقيرة مع ابنتها ناريمان لأن جميع القضاة في المدينة مرتشون ويساندون عائلة قباني.

وأخبرها كرم أن نصري سيموت بعد فترة قصيرة، لذلك من الأفضل لها أن تعبّر له عن مدى إخلاصها، وأن تقترح أن يأتي

ويختبئ في بيتها بعد أن أظهرت زوجاته الأخريات جبنهن، عندها ستتمكن من أن تحصل على ميراث جيد لها ولابنتها.

«أقول لك بصراحة، سينال حميد منه. إنها مسألة أيام أو أسابيع فقط. لم يفلت نصري من يد حميد في اللحظة الأخيرة إلّا ثلاث مرات، لكن قبل أن يموت، يجب أن تحرصي على أن تضمني كلّ شيء لنفسك».

اتصلت ألماز بتوفيق على الفور وأخبرته بإيجاز شديد بأنها ستأتي لتراه في المكتب بعد نصف ساعة، وقالت له إنها تريد أن تكلّمه على انفراد، وأن لديها فكرة لا تريد أن تناقشها على الهاتف.

ابتسم كرم وعانق ألماز وغادر.

مُباغتاً ضحيته، طعنه حميد اثنتي عشرة طعنة في منطقة القلب. كانت كلّ طعنة بسكّينه الحادة مثل شفرة حلاقة، ستؤدي إلى موت نصري كما أكد الطبيب الشرعي بعد تشريح الجثة. لم يتمكن نصري قباني حتى من أن يخرج مسدسه من جيبه، وحتى لو فعل ذلك، فإنه لا يعرف كيف يستخدمه لأنه لم يطلق رصاصة واحدة طوال حياته.

لسنوات عديدة، ظل حميد يفكّر في الدقائق الأخيرة في حياة نصري قباني. «حميد، إنك رجل مجنون»، شهق الرجل الذي بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة، «إنك تقتلني وأنا لم أؤذك قط».

فصاح حميد، «وماذا عن زوجتي أيها الوغد؟» رفع قباني يده، وهو ممدد في وسط بركة من الدم، مثل رجل يغرق. ارتعدت شفتاه في ضوء مصابيح الشارع.

لم يجد رشيد صابوني، أحد أشهر المحامين في دمشق، صعوبة في إقناع القاضي وهيئة المحلفين بأن السجن المؤبد لارتكاب جريمة

القتل الوحشية هذه مع سبق الإصرار والترصد، هي الحد الأدنى للعقوبة التي تطلبها العدالة.

بالإضافة إلى عدد الطعنات، كانت جميع الأدلة الأخرى ضد حميد فارسي. وقد وجّه كرم ميداني، صاحب المقهى، إصبع الاتهام إلى حميد أيضاً، وقال إنه التقى به مرات عديدة، ومنذ اختفاء زوجته، لم يكن يدور في خلد حميد فارسي إلّا فكرة واحدة وهي أن يقتل قباني. هزّ حميد رأسه، مذعوراً، وقال لنفسه لا بد أن هذا الرجل فقد صوابه، واتهم الشاهد كرم بأنه عضو في جماعة «*الأنقياء*» السرية، وأنه لوطي معروف بسمعته السيئة في أنحاء المدينة، وأضاف أن كرم شجعه على مطاردة نصري وعرض أن يعطيه مسدساً. استشاط حميد أثناء شرحه غضباً وحاول أن يهاجم الشاهد جسدياً، فأخرجه شرطيان بالقوة من قاعة المحكمة.

بسبب عدم احترامه للقاضي طوال فترة المحاكمة، وعدم إبداء أي شعور بالندم، حُكم عليه بالسجن المؤبد.

أمضى حميد أقل من سنتين في سجن القلعة بدمشق، وأُعطي منذ البداية على الرغم من غضب عائلة قباني، إحدى أفضل ثلاث زنازين يُطلق عليها النزلاء اسم «*الفيلا*». دُلِّل حميد وعومل معاملة جيدة، وسُمح له أن يكتب لوحات خط لمدير السجن. لم تُجدِ الاحتجاجات نفعاً، لأن عشيرة العظم التي ينتمي إليها مدير السجن أقوى من عشيرة قباني.

استخدم شقيق نصري الأصغر محمد الذي شعر بحزن وغضب كبيرين، علاقاته مع العالم السري واستأجر قاتلاً مسجوناً في نفس السجن الذي يوجد فيه حميد فارسي ليقتله، لكن الحارس المسؤول عن تلك الزنازين الثلاث تغلّب عليه، وبعد ثلاث لكمات قوية على

وجهه، ترنح المجرم المتقدم في العمر، وارتجف من الخوف واعترف باسم الرجل الذي استأجره ليقتل حميد.

وجِّهت تهمة التحريض على القتل ضد آل قباني الذين كانوا سعداء بأن القضية أُنهيت بالتوقيع على تعهّد. وفي اليوم التالي شرح لهم محاميهم تفاصيل التعهد الذي وقّعوا عليه خوفاً من العقاب والفضيحة. لم تكن لرعبهم حدود. فقد ورد في التعهد: نحن الموقعين أدناه، نتحمل كامل المسؤولية إذا وقع أي مكروه لحميد فارسي، قاتل شقيقهم.

النواة الثانية للحقيقة

يقرأ آخرون ليدرسوا، وأما نحن فعلينا
أن ندرس حتى نستطيع أن نقرأ.

طه حسين (١٨٦٢-١٩٧٣)
كاتب مصري

الحقيقة جوهرة تجعل حياة صاحبها غنية
لكنها خطيرة.

يوسف س. فاضلي (١٨٠٣-١٨٣٠)
كيميائي سوري

1

عندما أصبح سجيناً، بدأ حميد فارسي يفكّر بجدية في حياته التي بدت له الآن غريبة وبعيدة. شعر بالارتياح لوجوده في هذه الزنزانة، لكن هذا الشعور بالذات أرّقه، وظل يكرر «الحكم بالسجن المؤبد»، ليضفي على الكارثة التي حلّت به أكبر قدر ممكن من المأساوية، لكنه لم يجد أي شيء مأساوي فيها.

عندما استلقى على سريره، ذُهل عندما أدرك السرعة التي هُدم فيها كلّ ما بناه طوال حياته، ودُمِّرت سُمعته كرجل وشهرته كخطاط ويقينه ومتعته بالحياة كما لو أن كل ذلك لم يكن، حتى عهد قريب، حصناً منيعاً.

عندما كان يشرب الشاي مع مدير السجن، العظم، قال عَرَضاً كما لو أنه يكلّم نفسه: «ما الحياة إلّا صراع ضد التدهور والانحلال، وفي النهاية نخسر دائماً».

كان هروب نورا بداية سقوطه، وعدم هروبها مع نصري لغزاً بالنسبة له، لكنها تركت له ذلك التيس الفاسق ليتصرّف معه، كما لو أنها أرادت أن يقتل نصري، وكما لو أنه تحتم على نصري أن يسدّد ثمن شيء. ربما لم يذكر لها نصري قط أنه متزوج وأن لديه أربع زوجات، إلى أن نام معها، وفوجئت بهذه المعلومات غير السارة.

هل أرادت أن تلقّن نصري درساً؟ هل قللت من شأن حميد؟ هل

ظنت أنه سيصفع نصري قليلاً حتى يبدو سخيفاً؟ أم أنها أرادت أن يقتله نصري؟ لم يفهم حميد النساء قط. في أحد الأيام، نظر جدّه إلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم فوق دمشق وقال له إنه عندما يستطيع أن يحصي عدد النجوم في السماء سيصبح قادراً على فهم عقل المرأة.

يشغل سجن القلعة حيزاً كبيراً في أقصى شمال المدينة القديمة. وقد دُمِّرت القلعة وأعيد بناؤها عدة مرات منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، وخلال الأربعمئة سنة من حكم العثمانيين لم تكن القلعة تحت السلطة المباشرة لوالي دمشق، وإنما كانت تتبع مباشرة للسلطان العثماني في إسطنبول بالإضافة إلى حاميتها. فقد كان السلاطين العثمانيون يعرفون أنه يصعب حكم مدينة دمشق التي تسود فيها القلاقل من دون القلعة القوية ولم تكن لديهم ثقة بالولاة في دمشق. وكان جنود السلطان العثماني يخرجون من القلعة لقمع أي اضطراب يندلع في المدينة، وعندما جاء الفرنسيون تمركزت حاميتهم العسكرية في القلعة واستخدموها طوال خمسة وعشرين عاماً سجناً للثوار السوريين. ومنذ الاستقلال، أصبحت القلعة السجن المركزي لعدّة عقود، وبدافع الكسل أطلق الدمشقيون على السجن اسم «القلعة» فقط، وتبين أن ذلك كان شيئاً مفيداً، وجُدِّد المبنى بعد حصول سوريا على الاستقلال بخمسين سنة وأعيد البناء الى أصله التاريخي، وأطلق عليه مرة أخرى «القلعة»، ونُقل السجن إلى مكان آخر.

تعتبر القلعة في دمشق إحدى القلاع القليلة في الشرق التي لم تُبن فوق هضبة، وإنما بنيت على مستوى المدينة. عندما كانت سجناً، كانت محاطة بأسلاك شائكة صدئة وقضبان لا شكل لها توفر الحماية لأسوار القلعة وتحجب المبنى عن الرؤيا.

تقع زنزانة حميد في الطابق الثاني من الجناح الشمالي، ويعتبر ذلك ميّزة لأن هذا الجانب من القلعة لا يتأثر بحرارة شمس الصيف اللاهبة، ومن وراء الشباك قبالة باب زنزانته، يستطيع أن يرى الباحة الداخلية للقلعة وأسطح بيوت المدينة القديمة وشوارعها. في مكان ما بين تلك الأسطح، يقع بيته الجميل. كانت النافذة الصغيرة ذات القضبان المواجهة للباب تُظهر له قسماً من أسطح البيوت في حيّ سوق ساروجة حيث يقع محترفه الذي كان يعمل فيه ذات يوم. ومن بين الثمانمئة سجين، كان حميد واحداً من ثلاثة مساجين يتمتعون بامتيازات خاصة. ففي الزنزانة المجاورة لزنزانته، جلس ابن تاجر دمشقي ثري ارتكب سبع جرائم قتل. كان رجلاً هادئاً ذا بشرة شاحبة على نحو يثير الشفقة، ذبح أفراد عائلة زوجته أثناء شجار نشب بينهم ببربرية قاتل محترف. أما الزنزانة الثالثة والأكبر قليلاً، فكان فيها ابن أمير لا يعرفه حميد حُكم عليه بالسجن المؤبد لأنه قتل ابن عمه بطريقة وحشية، وأكد أنه لو لم يكن القتيل صهر الرئيس، لما قضى يوماً واحداً في السجن. كان ثرثاراً بشكل مزعج، سليط اللسان، متبجّحاً، وفظاً. وحرص حميد على تجنبه.

كانت زنزانة حميد واسعة، ولولا القضبان الحديدية على الباب والنافذة لظنها الناظر أنها غرفة علية في بيت جميل. سُمح لحميد أن يحصل على أدوات ومعدات الخطّ لأن مدير السجن، من أقارب رئيس الوزراء خالد العظم، يقدّر فنّه كثيراً. وقد أخبره عندما كانا يشربان الشاي في أول يوم له في السجن أنه يتأسف كثيراً لأن يراه في السجن بسبب امرأة، فهو لديه أربع زوجات بشكل رسمي وخمس زوجات بشكل غير رسمي، ولا يحلم أبداً بأن يتشاجر مع رجل آخر من أجل إحداهن.

وقال له إنه حزين لأنه لا يستطيع أن يطلق سراحه، لكن طالما

أنه مدير هذا السجن، فإنه سيُعامَل معاملة النبلاء، لأن الخطاطين هم أمراء الثقافة العربية الحقيقيون. وأضاف بشيء من الخجل، «من أنا، مع شهادتي في الحقوق من جامعة السوربون، لأقارن بك؟»

لم يكن حميد في مزاج يمكّنه من الاستماع إلى الخطب الرنانة، ولم يتوقف الرجل عن الكلام مثل رجل سكير مهذار، لكن حميد سرعان ما اكتشف أن مدير السجن «العظم» رجل طيب مثل الكلام الذي يقوله. وكان جميع الحراس والسجناء الأكبر سناً، الرجال الذين يديرون السجن فعلياً، يعاملونه باحترام. ولم يُفرض عليه القيام بأعمال وضيعة أو الوقوف في طابور للحصول على أي شيء. كان حارس يطرق باب زنزانته مرتين في اليوم ويسأله بصوت خنوع، ولو بلمسة سخرية، إن كان يريد شيئاً غير حرّيته.

بعد فترة قصيرة، جُلبت أصص ياسمين وورود، الأزهار التي يحبّها، لتزيين الممر المكشوف الذي يفصل زنزانته عن الدرابزين حول الباحة الداخلية، وكان يحصل أيضاً على أفضل أنواع الحبر والورق.

لم يمض أسبوع على دخوله السجن، حتى كُلِّف بعمل لوحة لمدير السجن الذي طلب منه أن يكتب له آية قرآنية بالخطّ الكوفي الذي لا يحبّه حميد كثيراً، وأضاف الحارس، «إنه يريدها بسرعة»، مثل جميع لوحات الخط الأخرى التي يهديها مدير السجن إلى أصدقائه المميّزين داخل البلد وخارجه.

خلال استكشافه الأول والوحيد للطوابق السفلية في السجن التي سُمح له بزيارتها برفقة أحد الحراس، أدرك حميد مدى الرفاهية التي يتمتع بها هو وسليلان من العشائر القوية في القلعة. أما الآخرون جميعاً، فكانوا يعيشون في حالة من البؤس والرطوبة والظلام ورائحة العفن النتنة.

ما نوع هؤلاء الرجال؟ كان من بين السجناء أساتذة جامعيون وكتّاب ومحامون وأطباء لم يكن بوسعهم أن يتحدّثوا طوال ساعة كاملة عن الشعر والفلسفة العربية فحسب، وإنما يحبّون كذلك الأدب الفرنسي والإنكليزي واليوناني، أما هنا فهم مستعدون لأن يقتلوا رجلاً بوحشية من أجل الحصول على سيجارة أو زبدية حساء أو حتى من دون أي سبب على الإطلاق. يبدو أنهم خلعوا قشرة الحضارة كما يخلعون معطفاً رقيقاً واقياً من المطر في اللحظة التي دخلوا فيها إلى السجن.

لم يرغب حميد قط بأن يذهب إلى تلك الطوابق في الأسفل مرة أخرى.

بالإضافة إلى أهم أدوات الكتابة التي حصل عليها والشهادة التي تشهد على إتقانه فنّ الخطّ، لديه وثيقة فريدة تعود إلى القرن الثالث عشر يبلغ حجمها حجم اليد، وعدة كتب عن الكتابات النظرية والسرّية المتعلقة بفنّ الخطّ، وثلاثة كتب نادرة عن الخطّ من القرن الثامن عشر كان قد أعطاها له معلّمه، ولديه أيضاً صورة فوتوغرافية كبيرة من الأيام الماضية جُلبت إليه من محترفه كانت معلقة دائماً فوق طاولة مكتبه، لكن الزمن والرطوبة تركت بقعاً على الصورة، وحال لونها الأسود إلى بني داكن. علّقها على الحائط بجانب نافذة زنزانته.

كانت الصورة قد التُقطت بعد حفلة أقيمت في بيت جدّه عندما كان طفلاً صغيراً. لم تكن أخته سهام ولا شقيقه الأصغر فهمي قد ولدا بعد. لم ينظر إلى الصورة فيما مضى كثيراً كما أصبح ينظر إليها الآن.

2

يجلس جدّه في الصف الأمامي على كرسي كبير كأنه عرش، ويجلس حميد، حفيده الأثير لديه في حضنه، ينظران كلاهما إلى الكاميرا تكسو وجهيهما قسمات تشي بالانتصار، وتجلس الجدّة فريدة، بجانبها بعض الأزهار، على مقعد صغير على مسافة منهما كما لو أن لا علاقة لها بزوجها، ووراء جدّته، في وسط الصورة، يقف عمّه الأصغر عباس، وإلى يساره يقف العمّ بشير، ويقف والد حميد، الابن البكر، وحده على اليسار. وبدلاً من أن يرث مهنة والده، كما جرت العادة بالنسبة للابن البكر، فقد قرر أن يتخذ الخطّ مهنة له، لكنه ظل طوال حياته مجرد حرفي عادي، كست عينيه نظرة كئيبة. وبعيداً عنه قليلاً، كما لو أرادت أن تُظهر المسافة التي احتفظت بها عن هذه الأسرة، تقف أمّ حميد، ترتسم على وجهها تعابير قاتمة وهي تحدّق بعيداً.

وعلى اليمين في الوسط، تقف وراء جدّه العمّة ميادة بجانب زوجها صبحي الضابط في القوات الجوية الفرنسية ببدلته العسكرية. وبما أنه كان طياراً متمرساً فقد التحق، بعد رحيل الفرنسيين عن سوريا، بالجيش السعودي الحديث النشأة لقاء راتب جيد وإمكانية منحه الجنسية السعودية. فهاجر إلى السعودية، لكن العمّة ميادة رأت أن الحياة في ذاك البلد مملة ولم تتحمّل الحرّ والعزلة فيها، فكانت

تأتي كلّ سنة مع أطفالها إلى دمشق، وقد أنجبت تسعة أطفال مكثوا كلهم في دمشق لفترات طويلة. وبعد فترة، انتشرت شائعات بأن زوجها تزوج أميرة سعودية. كانت العائلة الملكية تقدّر صبحي كثيراً، وقد شغل منصباً رفيعاً في وزارة الدفاع.

عندما بدأت العمّة ميادة تتقدّم في العمر، عادت إلى دمشق وحدها، وبقي أبناؤها وبناتها مع والدهم أو مع أسرهم، وشيئاً فشيئاً، أدرك حميد أن عمته تعيش وحدها. كان زوجها يرسل لها مبلغاً كبيراً، لكنه لم يزرها ولم يعد إلى مسقط رأسه.

أحبّت ميادة حميد، لكنه لم يتواصل معها كثيراً لأن والديه كانا يكرهانها، وكلما احتاج حميد إلى شيء، هبّت العمّة إلى مساعدته على الفور، وأكبر مثال على ذلك، أنها هي التي رتبت زواجه الثاني.

«كان الجدّ محقّاً، فالعمّة ميادة تجلب دائماً النكد. فكل شيء تلمسه، يتحول إلى نحس»، همس حميد لنفسه. عاد ينظر إلى الصورة. يقف بين عمّته وزوجها ابنهما البكر رشدي الذي يكبر حميد بثلاث سنوات ويعاني من حَوَلٍ شديد في عينيه. في ذلك الوقت، كان حميد يظن أن رشدي يمزح ويحول عينيه ليُضحك الآخرين، لكن عندما كان الصبي يشدّ أذنيه ويستمر الحول الشديد في عينيه، أدرك حميد أنه لم يمزح قط. بنات العمة، أخوات رشدي الأربع، كنّ حينذاك في زيارة بيت جدهن لأبيهن الذي كان يحبّ الفتيات ويعاملهن بلطف وكرم، بخلاف جدهن لأمهن، لذلك لم يظهرن في الصورة.

إلى يمين الصهر صبحي، تقف العمّة سعدية وخطيبها حليم في وضعية كأنهما سيظهران في الجريدة. كان حليم مطرباً شعبياً مشهوراً حينذاك، وكانت جميع الشابات في دمشق يُغرمن به. لكنه أعاد عمّة

حميد إلى والديها بعد ثلاث سنوات من الزواج، وكانت لا تزال عذراء لم يمسها بشر، كما قالت النساء وهنّ ينحين باللائمة عليه. فقد طلّقها وهرب إلى خارج البلد مع عشيقه المثلي وهو دبلوماسي كندي. كانت العمّة سعدية جميلة جداً، وسرعان ما تزوجت من مخرج سينمائي شاب، هاجرت معه إلى الولايات المتحدة، ولم تسمع العائلة شيئاً عنهما بعد ذلك.

أمام حليم المغني، تقف العمّة بسمة التي لم تتجاوز آنذاك الثانية عشرة من عمرها. فقد أنجبتها جدّة حميد وهي في الأربعين من عمرها ولم تحبّها على الإطلاق. كانت بسمة الشخص المنبوذ في العائلة. حتى في الصورة، بإمكان حميد أن يرى أنها لم تكن سعيدة بهذه المناسبة، تحدّق بالمصور بسخط كما لو أنها تريد أن يفسّر لها لماذا تفعل العائلة ذلك في هذا اليوم.

أحبّت بسمة طبيباً يهودياً في منتصف ثلاثينات القرن العشرين، وهاجرت معه إلى فلسطين التي كانت آنذاك تحت الاحتلال البريطاني. اعتبر الجدّ ذلك إهانة شخصية له وحرمها من الميراث على الملأ، وأعلن ذلك أمام رجال أعمال وشيوخ محترمين ليشهدوا على ذلك، كي يستردّ ما يمكنه من شرفه الديني المهدور.

بما أن الجدّة تؤمن بالخرافات وتعتبر الرقم ١٣ رقم شؤم، وهو عدد أفراد العائلة كما ادّعت فقد طلبت من الطاهية العجوز وداد أن تقف بجانب العمّة بسمة. تذكّرها حميد جيداً. كانت ترتدي في المطبخ دائماً مريولاً تتناثر حول خصرها بقع من الدهن، أما في الصورة، فقد ظهرت بثوب أسود أنيق.

بالنسبة لحميد، فإن الصورة تشهد الآن على عالم آخر، مثل صور زعماء الهنود الحمر الأمريكيين القديمة، أو النساء في الحرملك، أو الفتيات الراقصات من هاواي. اختفى ذلك العالم إلى

الأبد بعد فترة قصيرة من التقاطها. لقد التُقطت هذه الصورة في لحظة سعادة. كانت إحدى المرات القليلة في فترة طفولة حميد وشبابه التي ذاق فيها طعم فرح لامتناهٍ. كان جدّه يحبّه كثيراً ويقول للجميع إنه عندما يبلغ حميد الخامسة عشرة، فإنه سيورّثه العمل في تجارة السجّاد، لأنه بخلاف أبنائه، ورث حفيده عنه حدة الذكاء وسرعة البديهة، ولم يسمح لأحد أن يعامل الصبي بقسوة. كان يدلّل حميد كثيراً ويلعب معه كما لو كان صديقه، وهو الذي شجع حميد على دراسة ألغاز الرياضيات. تلك الساعات المليئة بالحسابات الغريبة جعلته يحبّ الأرقام طوال حياته، وإذا لم يفهم حميد شيئاً وسأل جدّه، كان يشرح له بأناة كما لو كان يملك كلّ الوقت في العالم.

أراد حميد أن يمكث مع جدّه طوال العمر، لذلك كان ذلك يسبّب مشكلة في نهاية كلّ زيارة لأنه لم يكن يريد أن يعود إلى بيت والديه البارد كالقبر الذي تفوح فيه رائحة كريهة، بينما تعبق في بيت جدّه رائحة الياسمين والورد.

حماه جدّه، حميد فارسي، حتى يوم وفاته، وكان ذلك يثير حنق أمّه التي كانت تكره والد زوجها. في الصورة كانت تقف بعيدة عنه بقدر ما تستطيع، زامّة شفتيها بقوة كما لو أنها هي التي صُفعت وليس حميد منذ قليل. لا يمكن للناظر إليه في الصورة، لكن إحدى أذنيه كانت تحترق كالنار، وقد ساعده انتصاره على أمّه أن ينسى الألم.

في ذلك اليوم، بينما كانت جدّته تحتفل بعيد ميلادها، بدت أمّه للجميع معكرة المزاج، وبينما كان المصور يحضّر في فناء البيت لالتقاط الصورة الرئيسية، أخذته أمّه إلى إحدى الغرف الصغيرة التي لا توجد فيها نوافذ في ذلك البيت الكبير وصفعته لأنه لم يشأ أن يقف بينها وبين أبيه، وعلى الرغم من ذلك، فقد أصرّ على أن يجلس في حضن جدّه.

عندما سمعته الطاهية يصرخ، فتحت الباب وطلبت من أمّه أن تتوقف عن ضربه فوراً، وإلّا فإنها ستُخبر حميد بك، سيد المنزل، بأنها تعذب حفيده المحبوب.

عندما خرجت أمّه محتدمة، غسلت الطاهية وجهه، ومشّطت شعره بعناية، وهمست له مشجعة بأن جدّه يحبّه كثيراً، ثم أعطته حبة كراميل.

كان في الرابعة أو الخامسة من عمره في ذلك الوقت، وكان في سن تجعله يدرك ما الذي يجري من حوله.

3

بما أنه الابن البكر، حمل حميد اسم جدّه، وهي عادة متوارثة منذ العصور الوسطى. لم يخطر بباله قط أن اسمه سيحكم مصيره.

بعد سنة على التقاط تلك الصورة العائلية، وُلد شقيقه فهمي الذي كان يشبه والدتهما كثيراً، أشقر الشعر، بعينين زرقاوين مدورتين، بينما ورث حميد بشرة جدّه وعينيه وشعره الداكن.

كان فهمي حبيب أمّه، ولم يبق مكان في قلبها لأيّ شخص آخر. عندما كان في الثانية من عمره، ظلّ غير قادر على أن يتكلم، يكاد يمشي بصعوبة، فبدأت أمّه تأخذه من طبيب إلى طبيب - وبما أن عدد الأطباء الحقيقيين في دمشق كان قليلاً جداً في ذلك الوقت، فهذا يعني أنها كانت تنتقل من دجال إلى دجال.

لكن لم يفده أحد منهم، وتبين في وقت لاحق أن فهمي مصاب بمرض دماغي عضال. كان جميلاً مثل دمية، وتركت أمّه شعره المجعد يطول حتى أصبح يشبه فتاة جميلة. دفعت مبالغَ كبيرة لكي تصوّره كلّ أسبوع تقريباً، وتزيّن الصور بأغصان زيتون، حتى أنها كانت تشعل أحياناً شمعة أمام تلك الصور وتحرق البخور في طبق صغير كأنها في معبد.

حتى أن سهام التي ولدت بعد فهمي بسنة لم تحظ بحبّ أمّها. وكانت ستُهمل لو لم تتدخل أرملة تعيش في المنزل المجاور وتعامل

سهام كأنها ابنتها. في بعض الأحيان، كانت أمّها تنسى أن تعيدها إلى البيت فتمضي الليلة مع الأرملة التي تمنّت دائماً أن تلد طفلاً، لكنها لم تنجب على الإطلاق.

ثم جاء اليوم الذي قلب حياة الأسرة كلّها رأساً على عقب. فبينما كانت أمّ حميد منهمكة في حديث ودي مع جارتها الأرملة، انسلّ حميد إلى غرفة نوم والديه حيث كان شقيقه يغطّ في النوم على السرير الكبير. أراد أن يلاعبه. هزّ حميد شقيقه الصغير، لكنه لم يستيقظ. عندما ضربه بقوة، بدأ فهمي يصرخ بصوت مرتفع فخاف حميد وأغلق فم أخيه، فأخذ الطفل يتلوى وحاول أن يقاوم. لا يمكن تفسير ما حدث تماماً حينذاك، ولم يخبر حميد أحداً بذلك، لكن شقيقه سقط على رأسه على بلاط أرضية الغرفة، واستلقى هامداً لا يأتي بحركة. فجرى حميد الذي تملّكه ذعر شديد إلى غرفته وتظاهر بأنه يلعب بالدُّحل. ثم سمع أمّه تصرخ صرخة تسللت إلى نخاع عظامه. صرخت بصوت عالٍ ولفترة طويلة حتى هرع الحيّ كله إلى البيت، ولم يعر أحد اهتماماً بحميد.

أثّر موت فهمي على والديه كثيراً، وأنحى أبوه باللائمة على أمّه وقال لها إنه لم يمت من تلك السقطة وإنما قتلته كلّ تلك الحبوب التي وصفها له الأطباء الدجالون. وصرخ: «كان سيعاني أقل مما عانى لو تركتِه لإرادة اللّه»، وقال إن يد ملاك هي التي أوقعته على الأرض لتخلّص الطفل من مزيد من العذاب. عندما سمع حميد ذلك، خيّل إليه لوهلة أنه أحسّ بيد ملاك قوية غير مرئية في ذلك اليوم، لكنه لم يخبر أحداً بذلك، لأنه خاف من بأس أبيه. ظلت والدته غارقة في حزنها تبكي وتنتحب وتلوم نفسها، لأنها كانت تشرب القهوة مع جارتها الأرملة عندما مات فهمي، فلعنت القهوة ولم تلمسها مرة أخرى حتى موتها المأساوي.

أصبح فهمي المسكين المنكود الحظ قديساً تصلّي أمّه من أجله ليل نهار، ووصل تبجيلها الحزين له إلى درجة أنها كلفت صائغاً بطبع صورته على ميدالية ذهبية وضعتها في سلسال حول رقبتها. رأى والد حميد أن هذه عادة مسيحية سخيفة.

عندما كانت سهام في السادسة من عمرها، صارت فتاة ناضجة، قوية الإرادة ولم تعد تبدي اهتماماً بوالديها أو بأخيها، وشعرت بالنفور من هوس أمّها الديني الذي بدأ شيئاً فشيئاً يصيب والدها بالعدوى على الرغم من مقاومته في البداية. بعد فترة قصيرة، بدآ يصلّيان ويحرقان الشموع والبخور، ولم يعودا يتحدّثان عن شيء إلّا عن الملائكة والشياطين.

ضحكت سهام بازدراء عندما خرج هوس والديها عن السيطرة، ومع أنها تلقت صفعات كثيرة، لم تصمت. مع مرور السنين، أصبح قلبها أبرد من قالب الثلج الذي كانوا يستخدمونه لحفظ الخضراوات واللحوم طازجة في غرفة المؤن.

كبرت الفتاة الصغيرة النحيفة وأصبحت امرأة ممشوقة القوام، بالغة الأنوثة، تُلفت رؤوس جميع الرجال. خاف والداها من أن تجلب ابنتهما العار على الأسرة، ووافقا على الفور عندما طلب مصوّر متواضع يد سهام للزواج وهي لم تتجاوز السادسة عشرة. بعد عدة سنوات، قالت لحميد إن المصوّر أصبح كالخاتم في إصبعها منذ أن رآها لأول مرة، وقالت له: «أردت أن أبتعد عن ذلك القبر اللعين»، واعتقد زوجها الذي لم يكن على درجة عالية من الذكاء بأن هذه الفتاة الجميلة التي سمحت له أن يصورها في جميع الأوضاع التي تتخذها النجمات في الأفلام الأمريكية، قد أُغرمت به مع أنها كانت تعامله مثل كلب. بذل حميد جهداً كبيراً لئلا يذهب إلى بيتها، لأنه لم يكن يحتمل برودة أخته أو خضوع زوجها لها.

تركتها الكارثة التي حلّت به باردة أيضاً. وكان جلّ همّها أن تأخذ كلّ ما يمكنها أن تأخذه من ممتلكاته، فراحت تتملّقه باحترام وخنوع شديدين عندما كان في أوج شهرته، وظلت تأتي إلى محترفه تطلب منه نقوداً لقاء أمور تافهة. وكان يلعن دائماً قلبه الرقيق عندما تقهقه بوقاحة، وتضع النقود في محفظتها بانتصار، وتخرج من محترفة وهي تهز ردفيها وتمضغ العلكة.

بعد أن دخل السجن، بدأت تشعر، كما قالت له، بحرج شديد من زيارتها له، لكنها لم تشعر بأي مانع أخلاقي لتأخذ كلّ ما استطاعت أن تستولي عليه من نقوده وبيع أدواته.

ولكي يبدد هذه الأفكار السوداوية عن أخته، تفحص حميد وجه أبيه في الصورة بدقة باستخدام عدسة صغيرة مكبّرة.

هل يستطيع أحد أن يعرف من الصورة أنه كان يعاني من ضائقة مالية كبيرة في ذلك الوقت؟ فقد توقف آنذاك عن التتلمذ على يد الخطاط الشهير «الشريف» منذ سنة، بسبب تقاعسه، وبدأ عمله بمفرده. لم يكن يعرف آنذاك بعد مدى صعوبة الحصول على أعمال كخطاط مستقل في دمشق إذا لم يحصل على شهادة من أحد أساتذة الخط المعروفين. وبدافع التباهي، استأجر محترفاً في حيّ البحصة، حيّ الخطاطين في المدينة في ذلك الوقت، لكنه اضطر إلى تركه مرة أخرى بسبب الفيضان الذي غمر المنطقة. وبدأ يعمل منذ ذلك الحين في البيت. وهناك في الغرفة، التي أطلق عليها اسم محترفه، نافذة تطل على باحة البيت، ونافذة أخرى بينه وبين غرفة الأطفال. كان حميد يرى والده منها وهو يعمل لساعات طويلة دون أن يراه.

ظلت أمّه في تلك المرحلة غائبة الوعي عما يحيط بها، لأنها كانت مهووسة بشقيقه فهمي. ولم تكن تتحدّث في ذلك الوقت عن شيء إلّا عن حبيبها المتوفى، وحاولت أن تتواصل معه بواسطة

جلسات استحضار الأرواح الباهظة التكاليف مع وسطاء دجالين. لم يلاحظ والداه أن البيت كان على وشك الانهيار. وبما أن والد حميد كان رجلاً ضعيف الشخصية، لم يطلّق زوجته، وإنما ازداد تشبّثاً بها عندما بدأت تفقد صوابها، وأصبح يعيل الأسرة بصعوبة من الأعمال الصغيرة التي تأتيه.

بعد قرابة سنة على وفاة فهمي، وقعت أمّ حميد ضحية جنون تام، ثم لحق بها أبوه بعد فترة قصيرة. كان على حميد أن يصمت، لأنه لو أعرب عن أدنى شك، فإن أمه تستشيط غضباً وتنفجر في الصراخ. ضربته ذات مرة على أذنه اليمنى وسال منها الدم بغزارة ولم يعد يسمع بها لعدة أسابيع. حتى بعد سنوات، ظلت قدرته على السمع في تلك الأذن ضعيفة.

تساءل لماذا لم يبك في جنازة والديه. لم يكن ذلك بسبب البقايا القليلة السوداء التي سُلِّمت له بعد موتهما في حادث بالحافلة، أو بسبب الكلمات المليئة بالنفاق عن أبيه التي قالها الشيخ الذي حصل على مبلغ كبير من المال ليفعل ذلك، لكن السبب الحقيقي الذي خطر له الآن في السجن، هو لأنهما جعلاه أثناء حياتهما يبكي كثيراً حتى لم تبق عنده دموع يذرفها عليهما.

4

كان صوت الرعد يهدر من بعيد، وكان صدغا حميد يخفقان كعادتهما عندما تنذر عاصفة بأنها ستهبّ. بدأ الرعد والبرق يقتربان، وعندما أصبحت العاصفة فوق سماء دمشق، تلاشى صداعه. انقطع التيار الكهربائي، وغرقت المدينة كلها في ظلام دامس، وسمع في زنزانته اللعنات التي يطلقها سكان دمشق في الشوارع المجاورة والمحلات والمقاهي التي تحيط بالقلعة.

أشعل حميد شمعة لينظر عن كثب إلى الوجوه التي في الصورة مرة أخرى، وتساءل إن كان ما يعرفه عن عائلته نابع من خياله أم من ذاكرته. لم يكن متأكداً.

سرعان ما عادت الكهرباء، لكن في مبنى المكاتب والزنازين الثلاث المميّزة فقط. أما في الطوابق السفلى فقد ظلت غارقة في ظلام دامس، بدأت تنبعث منها صرخات بدت له مثل صرخات الملعونين الذين يتعذبون في نار جهنم. صوت واحد جعل دمه يتجمد في عروقه. صوت رجل يطلب الرحمة. كان صوته مرعوباً ويائساً مثل خوار عجل صغير قبل أن يُجرَّ إلى الذبح. كانت ضحكات السجناء الآخرين تغطي على صراخه. كان الرجل يتوسل إلى الحراس لحمايته، لكن توسلاته ذهبت سدى.

عاد حميد إلى الصورة المعلّقة على الجدار برفقة تفكيره

المضطرب وراح يتفحّصها من جديد. كانت هيئة جدّه حميد فارسي، تشهد على شعوره بالفخر وحبّه للحياة، وعلى حزنه وألمه أيضاً. بدا أنه فخور بأصوله النبيلة وإنجازاته. تذكّر حميد أن جدّه، الذي لم يكن متديناً، حكى له كثيراً عن صوفي قديم كبير يُدعى الحلاج الذي قال إن اللّه والإنسان متحدان وإن اتحادهما جعلهما كياناً واحداً لا ينفصل. وقد صُلب هذا العالم الصوفي في بغداد بسبب آرائه عام ٩٢٢.

وهو، حميد؟ ما الذنب الذي اقترفه؟ ألم يبدأ سقوطه منذ قرر أن يصلح الخطّ العربي؟

إن إصلاح الخطّ نعمة على البشرية. لماذا واجه معارضة شديدة، وعناداً قوياً كما لو كان يكره الإسلام؟ هو الذي عاش دائماً حياة مستقيمة وورعة، متديناً جداً إلى درجة أن جدّه نصحه ذات مرة بألّا يقسو على نفسه كثيراً؟ وقال له جدّه إن البشر هم الذين اخترعوا الجنة وجهنم وحقوقهما على الأرض.

نظر حميد حوله. ألم يوضع في جهنم هنا، بينما زوجته الزانية تستمتع في مكان ما في هذا العالم الواسع؟

كان جدّه رجلاً يتبع شهواته، رجلاً ذا مظاهر متعددة، ومع أنه كان من أكثر الرجال نجاحاً في دمشق، فقد كان يشعر في الوقت نفسه بخيبة أمل شديدة من أبنائه، لذلك قال لحميد إن كل ما يتمناه هو أن يكبر حميد بسرعة وينقذ متجره الكبير، وإلّا فإن كلّ ما شيّده سيذهب هباء منثوراً.

لم يبلغ عمر حميد آنذاك السابعة، لكنه قرر أن يأكل ضعف ما اعتاد أن يتناوله من طعام ليكبر بسرعة.

ثم اكتشف حميد أن جدّته لم تكن تحبّه لأنها لم تحتمل الأشياء التي يحبّها زوجها ويستمتع بها: الحفلات، النساء، الضحك. قال

له جدّه ذات مرة، «إذا لم أُبدِ اهتماماً بإحداهن، فإنها تصبح صديقة حميمة لها في اليوم التالي».

قرّب حميد العدسة المكبّرة من وجه جدّه. رأى ألماً في زوايا عينيه وفمه. كان عليه أن يتحمّل آلاماً ثقيلة تنوء بها الجبال. فهو من أصل فارسي هرب مع أبيه من إيران إلى دمشق عندما كان طفلاً في الرابعة من عمره عندما رأى متطرفين يقتلون أخته وأمّه لأن أحدهم وشى بأن أباه يتعاطف مع طائفة صوفية متمردة.

كما لو بمعجزة، هرب أحمد وابنه حميد إلى دمشق وأفلتا من قبضة الأشرار الذين يطاردونهما. في ذلك الوقت، استقبلت دمشق الكثير من اللاجئين، بمن فيهم والده، بحفاوة. كان أحمد فارسي، تاجر السجّاد، غنياً جداً حينذاك. وبالدنانير الذهبية التي جلبها معه، اشترى بيتاً جميلاً بالقرب من الجامع الأموي، ومحلاً كبيراً في سوق الحميدية، وظل جدّه حميد فارسي يدير المحل بنجاح بعد وفاة أبيه.

بعد فترة قصيرة، أصبح أحمد وابنه سوريين. كان أحمد يكره المتعصبين الدينيين من جميع الطوائف أكثر مما يكره الشيطان، وكان يقول: «لأن الشيطان أمير من أصل نبيل، وليس هو الذي قتل ابنتي وزوجتي، وإنما خنقهما أحد الجيران المتعصبين بيديه».

ولم يصلّ قط. كذلك ابنه، جدّ حميد، الذي لم يذهب إلى مسجد إلّا ليقابل فيه أحد رجال الأعمال الأكثر تديناً، وقد أبقى باب بيته مفتوحاً للجميع، وكان يدعو اليهود والمسيحيين إلى مائدته كما لو كانوا أفراداً من أسرته.

كان جدّه في الصورة يرتدي صدرية وربطة عنق، ورأى السلسة الذهبية التي ترتبط بالساعة الذهبية في جيب صدره، عندما التُقطت الصورة، كان حميد فارسي أشهر تاجر سجّاد في المدينة. وعندما مات مشى حفيده حميد وراء التابوت مذهولاً. كان في الحادية عشرة

أو الثانية عشرة من عمره، وكان قد تدرب للتو على يد الخطاط العظيم سيراني. لم يستطع أن يدرك حقيقة أن الموت نهائي، أو يفهم لماذا يأخذ الذين تحبّهم كثيراً بسرعة. كان من الممكن أن يأخذ عدداً من الجيران الأشرار في الحيّ بدلاً منه.

لم يدرك إلا بعد فترة طويلة أنه دفن سعادته في ذلك اليوم، ورقدت هناك غير مرئية في تابوت جدّه. لم يشعر بعد ذلك بتلك الدغدغة التي كانت تملأ قلبه أثناء طفولته ما إن ترى عيناه جدّه. بالطبع، حقق في حياته أشياء كثيرة، وحسده الكثير من الخطاطين الأقل موهبة، لكن لم يعرف أحد أن حميد فارسي الشهير رجل تعيس.

بعد وفاة جدّه، تشاجر أبناؤه الثلاثة. ولم يورّث الجدّ والد حميد إلّا خمسة سجاجيد، وورّث ابنه الأوسط البيت، وورّث أصغر أبنائه المحل في سوق الحميدية. إما أن الجدّ تجاهل ابنه البكر، والد حميد، أو أنه لم يغفر له قط لأنه سلك طريقه الخاص، ولم يعمل في تجارة العائلة بالسجاد.

كان والد حميد طفلاً متديناً، فتنته النصوص القرآنية وتلك المكتوبة على جدران المساجد قبل أن يتمكن من قراءتها بفترة طويلة. منذ البداية، أراد أن يصبح خطاطاً، وحقق ما يريد في نهاية المطاف، لكن في كلّ ما فعله، لم يكن أكثر من مقلّد دؤوب، متوسط الموهبة.

وزعمت أمّ حميد أن الجدّ حرم زوجها من الميراث لأنه يكرهها وكان يفضّل أن يزوّج ابنه لابنة عمه، وهذا ما ثبّت في رأي أمّه أن كلّ أفراد عائلة زوجها - ما عداه - أشرار ومجرمون. وكانت سهام، أخت حميد، ترى أن والدهما حُرم من الميراث لأنه أرغم حميد الصغير، قبل وفاة الجدّ بفترة قصيرة، على أن يتدرب على يد خطاط

بدلاً من أن يرسله ليعمل مع العائلة. ويبدو أنه قال: «لقد حطّم أحمد عديم الفائدة قلبي ثلاث مرات: فقد تزوج ضد إرادتي، ورفض أن يعمل معي، ولم يدع حفيدي الذكي الذي أحبّه كثيراً يعمل في تجارة السجّاد أيضاً. هذا يكفي».

مهما كان السبب الحقيقي، فقد خرج والد حميد خالي الوفاض. ومع ذلك، لم يشأ أن تفقد عائلة فارسي ماء وجهها، فلم يحتج، وراح يراقب بارتياح كيف أن شقيقيه لم يحققا نجاحاً في عملهما وانتهى بهما الأمر إلى الخراب. فشعر بتفوق وسرور لأنه لم ينتقم بنفسه وإنما انتقم اللّه له.

بعد فترة قصيرة من وفاة جدّه، أصيب بشير، أكبر عمَّي حميد، بمرض ضمور العضلات، ولم يعد قادراً على المشي، وكان يشتم زوجته ليل نهار لأنها تعذّبه. رفض والد حميد أن يذهب ويزور شقيقه المصاب بمرض عضال، مع أن بيته لم يبعد أكثر من مئة متر من الشارع الذي يقيم فيه.

كانت هيئة العم بشير تدعو إلى الحزن وهو جالس على مرتبة رثة تحيط به القمامة، والبيت في حالة قميئة، وكانت زوجته إما خارج البيت، أو أنها تهمّ بالخروج عندما يأتي حميد لزيارة عمه. لم تكن زوجة عمه جميلة، لكنها تتجمّل كثيراً، وتفوح من جسدها الغض دائماً رائحة عطر غريب يدعى *Soir de Paris*. في إحدى المرات، سرق حميد إحدى تلك القناني الزرقاء الصغيرة من تحت المرآة الكبيرة في الحمّام، وكلما شمّها، تذكّر زوجة عمّه.

ظل حميد يزور عمّه بشير سراً من دون معرفة والديه. لم يكن يزوره بدافع الشفقة كما أكّد لأخته، وإنما لأن عمّه كان يبهره. فمن المكان الذي يجلس فيه، كان يتتبع بعينيه المغمضتين زوجته وهي تسير في الشوارع وتدخل إلى بيوت غريبة وتمنح نفسها لجميع أنواع

الرجال حتى تتمكن من شراء ملابس ومجوهرات وعطور غالية الثمن.

وكانت الحكايات التي يرويها العمّ بشير مثيرة جنسياً. لكنه كان يحكيها كما لو أن زوجة عمّة حميد ليست زوجته وإنما بطلة قصة أو فيلم ما. يروي مغامراتها بحيوية شديدة، وكان يشعر بقلق شديد إذا تعرضت في القصة لخطر الاختطاف، أو هددها عاشق غيور بطعنها بالسكين.

«ما إن تخرج من باب البيت، حتى تصبح بطلة قصتي»، قال عمّه عندما سأله حميد ذات يوم لماذا يشعر بسعادة كبيرة عندما تضاجع زوجته، في حكاياته، رجالاً غرباء وتشرب النبيذ، بينما يوبخها في الحياة الحقيقية لأنها لا تريد أن تطبخ له وجبة ساخنة.

«في القصص هي البطلة الشجاعة المغامرة، أما هنا فهي زوجتي التي تحوّل حياتي الى جحيم».

لم يكرر قصة قط، وإذا لاحظ أن كلماته أدهشت حميد، يتوقف في منتصف القصة، ويقول: «حسناً، يكفي هذا لليوم. لا نريد أن نجعلك تُثار جنسياً من زوجة عمك. اذهب إلى البيت، ولا تعد حتى تنساها».

بالطبع، كان حميد يعود في اليوم التالي، ويتقمص براءة حمل وديع مخصي، ليسمع المزيد عن مغامراتها.

قرّب وجهه من الصورة أكثر. نظر بإمعان إلى العمّ بشير الواقف وراء جدّة حميد صدره بارز إلى الأمام، يبتسم مثل بطل ويضحك بثقة جريئة. كم نحن البشر ضعفاء. فيروس صغير، وصلة صغيرة في أعصاب الدماغ - ويصبح الشخص الذي كان بطلاً بالأمس صورة للبؤس اليوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

نقل حميد عينيه إلى جدّته التي لم تكن جالسة، كعادتها في ذلك الوقت، على كرسي بجانب زوجها، وإنما كانت جالسة على مقعد خشبي وحدها وبجانبها باقة أزهار كأنها تشير إلى أنها لا تريد أن يجلس أحد بجانبها. كان عيد ميلادها. إنها تنتمي إلى عائلة «العابد» الدمشقية العريقة، وهي تحبّ الزهور والشعر. كان أبوها، أحمد عزت باشا العابد، صديق السلطان العثماني الدموي عبد الحميد ومستشاراً له.

كانت الجدّة تبجّل طوال حياتها السلطان العثماني وتكره كل شيء جمهوري. لذلك، لم تكن على وفاق مع شقيقها الذي عُيِّن سفيراً للسلطان في الولايات المتحدة، ثمّ غيّر مواقفه بين عشية وضحاها، وأصبح جمهورياً متحمساً. وأصبح أول رئيس للدولة السورية.

كان أحمد عزت غنياً جداً، لديه منزل جميل بناه له مهندس معماري إسباني في ساحة الشهداء في وسط المدينة. نشأت الجدّة فريدة هناك محاطة بعدد كبير من الخدم، ومثل أبيها، كانت تتحدّث أربع لغات: العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية، وكانت أول امرأة مسلمة تنضم إلى نادي المرأة السورية الأدبي الذي أسسته نساء مسيحيات من عائلات غنية عام ١٩٢٢. وفي عهد رئيسته الأولى،

مدام مشاقة، دعمت افتتاح قاعات قراءة مخصصة للنساء في المكتبات العامة الذي كان مجالاً ذكورياً بحتاً في ذلك الوقت. وسرعان ما أصبحت فريدة مسؤولة عن المراسلات وتنظيم جلسات قراءة، ودعت كاتبات من جميع أنحاء العالم لزيارة دمشق، وكانت تُري بفخر أي زائرة الرسائل التي أرسلتها الكاتبة الإنكليزية أغاثا كريستي التي زارت دمشق ذات يوم وحضرت صالون الجدّة.

كانت فخورة جداً بأبيها المستنير الذي تهيمن صورته في صالونها على جميع الصور الأخرى، تقف غالباً أمامها، ساهمة، يبدو أنها تدير حديثاً مع أبيها المتوفى، وهو رجل نحيف ملتح له عينان صغيرتان ذكيتان وأنف كبير، يرتدي في الصورة بدلة رسمية، ويعتمر طربوشاً أحمر، كما كان سائداً في ذلك الوقت. صدره مغطى، من الكتفين حتى الحزام، بنجوم كبيرة ذات ثمانية رؤوس، وصلبان مختلفة، وميداليات تتدلّى من شرائط ملونة. بدا لحميد شخصاً مرحاً، بعيداً كل البعد عن كونه مهيباً بالرغم من كلّ تلك النياشين، لولا خوف حميد من جدّته لأخبرها برأيه: «قرد في بدلة رسمية»، همس حميد، ملاحظة احتفظ بها لنفسه لسنوات طويلة.

كانت الجدّة فريدة تُشعِر الزائرين بأنها تمنحهم فقط فترة قصيرة للقائها لكثرة أشغالها. كانت جميلة لكن تبدو كما لو أنها تعيش دائماً تحت ضغط كبير يجعلها تبدو أكبر مما هي عليه في الحقيقة، تتكلّم دائماً بطريقة متكلفة ومعقدة حتى عن أبسط الأمور. لم يتذكّر حميد جواباً عادياً واحداً على أسئلته الكثيرة عندما كان طفلاً. فعلى سبيل المثال، عندما طلب منها قبل وفاتها كأس ماء، أجابته وهي تنظر بعيداً: «الماء في عينَي الحبيب، تأتي من غيوم قلبه».

احترم الجدّ حميد زوجته فريدة، وبقدر ما كان يحبّ الفرح والبهجة، ظل وفياً لها طوال حياته وتحمّل كل أهوائها ونزواتها.

وعندما كان يقبّلها، مرة في السنة، تكلّمه بغضب باللغة الفرنسية، وتمسح البقعة التي قبّلها فيها بطريقة مسرحية كما لو أنها أرادت مسح آثار الدهن عن وجهها وتعدّل ثوبها. وكأن الجد فعل شيئاً غير لائق.

عندما التُقطت الصورة، كانت جدّته تحبّ فقط عباس، ابنها الأصغر، أما الآخرون، جميعاً، فقد كانوا يؤدون أدواراً صغيرة في مسرحية تؤدي فيها هي وعباس الأدوار الرئيسية. بذلت كل ما في وسعها لتبدو امرأة شابة، لكن ذلك كان يعطي نتائج عكسية. ففي معظم الأحيان، كانت السيدة العجوز تبالغ في محاولاتها اليائسة لأن تبدو امرأة شابة جذابة، وتكسو وجهها بمكياج كثيف، لكنها لم تستطع إخفاء التجاعيد التي حفرها الزمن، وكانت تضيف أحمر الخدود والشفاه بيد مرتجفة فتظهر خطوط غير متناسقة، فتبدو فريدة مثل مهرج عجوز. أما عباس، فقد عرف، كانتهازي خبير، كيف يستغلّ حبّ أمّه له، يؤيد كلّ ما تفعله حتى يوم وفاتها، كما لو أنه لم تكن لديه عينان أو أذنان.

«عباس، هذا الطاووس المختال»، همس حميد ونظر من خلال العدسة المكبّرة إلى الشاب الضاحك، الرجل الوحيد في الصورة الذي لا يرتدي بدلة رسمية، وإنما سترة بيضاء أنيقة وقميص غامق مفتوح العنق، يضع يده على كتف أمه التي تنظر إليه كأنه عريسها.

قبل سنة من وفاة الجدّ، ارتفعت درجة حرارة فريدة وماتت فجأة.

لم تمض ثلاث سنوات على وفاة الجدّ، حتى دمّر العمّ عباس عمل العائلة. فبدأ يشرب كثيراً ويهرب من دائنيه في دمشق، ومات شحاذاً في بيروت حيث دُفن في مكان غير معروف لأن أحداً لم يشأ أن ينقل جثمانه إلى دمشق.

كان والد حميد على قناعة راسخة بأن اللّه يدمر كلّ أعدائه. في

ذلك الحين، وقع تحت سحر زوجته، وغلّفت دماغه سحابة من البخور والخرافات.

قال حميد لنفسه من الغريب أن عائلته بدأت تنهار في الجيل الثالث، إذ إن آخر شخص من عائلة فارسي في دمشق سيموت معه، وأين سيموت؟ في السجن. قال له أحد الحراس إنه هو أيضاً من الجيل الثالث لعائلة كانت مرموقة ذات يوم، وأين حلّ به المآل؟ في السجن أيضاً. قال الرجل وهو يسعل إنها قاعدة أبدية: الجيل الأول يبني ثروات العائلة، والجيل الثاني يقويها ويدعمها، ويأتي الجيل الثالث ليقضي عليها ويدمرها.

جالت عينا حميد في الصورة مرة أخرى. ماذا حلّ بعمّتيه؟ لا يعرف. لم يحبّ جدّه أياً منهما، وابتعدتا عن العائلة بعد الخلاف حول الميراث، ولم تسفر محاولة أمّه عن لمّ شملهما وجمعهما حولها والطعن في الوصية في المحكمة عن شيء.

التُقطت الصورة بجانب بركة الماء الكبيرة التي كان الجد يحبّها كثيراً. تذكّر حميد الأسماك الحمراء التي كانت تسبح في البركة والتي رآها لأول مرة في حياته.

كان البيت لا يزال قائماً. عندما ذهب حميد ليراه مرة أخرى قبل أن تحلّ هذه المصائب عليه بثلاث سنوات، بدا له أن باحة البيت قد تقلّصت بالمقارنة مع ما يتذكره عنها. دعاه صاحب البيت الحالي، رجل لطيف، لتناول القهوة عندما سأله حميد إن كان بإمكانه أن يلقي نظرة على البيت الذي أمضى فيه أيام طفولته.

لم يعرف صاحب البيت الحالي، وهو شرطي في الجمارك شيئاً عن عائلة فارسي. فقد اشترى المنزل بواسطة وكيل عقارات لم يشأ أن يتحدّث عن أصحاب البيت السابقين المثقلين بالديون، وقال إن

البيت جلب له أيضاً سوء الحظ. فقد اختنق أحد أبنائه بالصدفة عندما تسلق شجرة البرتقال وربط حبلاً صغيراً على أحد أغصانها ثم سقط ولم يعرف أحد كيف التفّ الحبل بشدة حول رقبته وخنقه، فاقتلع جميع الأشجار من باحة البيت، ويريد الآن أن يبيع البيت وينتقل إلى شقة واسعة في شطر المدينة الحديث مع زوجته وأبنائه الخمسة الآخرين، وسأل إن كان حميد مهتماً بشراء البيت؟

لا، لم يعد يرغب في رؤية هذا المكان مرة أخرى.

6

بدأ الرعد يبتعد عن المدينة ويتجه جنوباً، وبدأ المطر يهطل بغزارة. عندما لمع الضوء، نهض حميد، وأضاء الشمعة مرة أخرى فشعر بدفء وأمان.

تفحّص وجه والده الجامد والخالي من أي تعبير. هكذا بدا وجهه في جنازات جدّ وجدّة حميد، وفي حفل زفاف حميد الأول، وكأن والده يرتدي قناعاً من الجلد المدبوغ. هذه القسمات التي تشبه القناع كانت ترتسم على وجهه دائماً، سواء أكان يكتب لوحة خط أم يعقد رباط حذائه.

تذكّر حميد اللحظة التي أرى فيها أبيه أول لوحة خط كتبها وهو في التاسعة أو العاشرة من عمره، بعد أن تدرّب على ممارسة الخطّ سرّاً لعدّة سنوات. كان ينسى أحياناً أن يلعب وحتى أن يأكل، لكنه لم يمض يوماً واحداً من دون أن يتدرّب على الخطّ.

استشاط أبوه غضباً وتملكه شعور بالحسد عندما رأى خط الثلث الجميل الذي كتب به ابنه قصيدة شعر. لم يدرِ حميد آنذاك أنه اختار أكثر الخطوط أناقة وصعوبة الذي لا يكتب به إلّا كبار الخطاطين، ولم يستطع أبوه طوال حياته أن يكتب بهذا الخط.

«لقد نسختها من مكان ما»، قال والده رافضاً ما فعله، وعاد إلى عمله على ملصق سينمائي كبير لفيلم هندي.

فقال له حميد: «لا، كتبتها كلّها بنفسي». فقد تعلّم هذه القصيدة في المدرسة، وأراد أن يهديها إلى أبيه.

فقال أبوه: «كذاب، لقد نسختها فقط»، ووضع الفرشاة التي كان يملأ بها الأحرف الكبيرة على الملصق بعد أن يرسم إطار الحروف بالحبر أولاً. نهض واقفاً ببطء، وتوجّه نحو حميد. في تلك اللحظة، أدرك الصبي أنه سيضربه. حاول أن يحمي رأسه. «كذّاب»، صاح والده وهو يهوي بقبضته عليه. لكن حميد قرر ألّا يكذب ويوافق أبيه ليتفادى مزيد من الضربات.

«أقسم باللّه أنني أنا الذي كتبها»، قال يسترحمه، ثم نادى أمّه التي جاءت ووقفت عند الباب لفترة قصيرة، ثم هزّت رأسها وعادت من دون أن تقول شيئاً.

«لا يمكنك أن تفعل ذلك وحدك»، قال أبوه، «قل لي من أين نسخت هذه القصيدة؟» ولم يتوقف عن ضرب الصبي بلا رحمة.

أصابت ضربة عينه اليمنى. ظن آنذاك أنه فقدها، وخيّم الظلام على كلّ شيء.

هزّ حميد رأسه وهو يحدّق في وجه أبيه وهمس «وجه من دون قسمات وقلب مات»، ثم رأى نفسه بعد أن عاد من غيبوبته آنذاك وقد حبسه أبوه من دون أي رحمة في الغرفة الصغيرة المعتمة التي يضعون فيها معدات التنظيف، خوفه من الجرذان جعله ينسى ألمه. لم يأتِ أحد ليهدّئ من روعه، أو يجلب له قطعة خبز أو قليلاً من الماء. مدّ فأر صغير رأسه من فتحة للحظة، أصدر صريراً، ونظر إليه بعينين حزينتين، وعاد واختفى.

لم يغمض له جفن في تلك الليلة لأن أمّه قالت له إن الجرذان تقضم أنوف وآذان الأطفال الذين يكذبون.

«لم أكذب»، همس بنبرة خفيفة متوسلة، آملاً أن تفهمه الجرذان.

لم يغمض له جفن حتى طلوع الفجر، ثم حلم بأنه يمشي في غابة الأشجار والشجيرات فيها ليست سوى حروف كبيرة بألوان زاهية مختلفة الأحجام. وكانت كل زهرة مصنوعة بشكل فني متقن من حروف الأبجدية. وغالباً ما كان يحكي للناس عن هذا الحلم، لا لأنه كان يتنبأ بحياة جديدة بالنسبة له فحسب، وإنما لأنه بدأ أيضاً، منذ ذلك اليوم، يكره الكلمات الكبيرة الملونة، وأصبح يحبّ الحبر الأسود فقط. استمر الحلم. وسمع في ذلك الحلم صوتاً من مكان خلفه، سمع أحداً يناديه باسمه. التفت حميد لبرهة وظل يمشي. لم يلاحظ جذور شجرة بارزة من الأرض فتعثّر واستيقظ.

رأى أبوه واقفاً أمام باب الغرفة الصغيرة.

تحسس حميد أنفه وأذنيه، وتنفّس الصعداء عندما عرف أن الجرذان صدّقته.

قال له: «اخرج واكتب تلك القصيدة مرة أخرى». عرف حميد لاحقاً السبب الذي غيّر موقف أبيه. فقد قال له صاحب السينما والمسرح الثري الذي يصمّم له أبوه ملصقات الأفلام أن بعض الناس يمتلكون مواهب لا يفهمها أحد. فقد استمع البارحة في السينما إلى صبي في الثامنة من عمره يستطيع أن يغني الأغاني القديمة ويعزف على العود أفضل بكثير من معظم أولئك الحمير الذين يرتدون بدلات سوداء ويطلقون على أنفسهم اسم عازفين.

بدأت عين حميد اليمنى تؤلمه كثيراً، وضحكت سهام من هيئته، وقالت تستفزه، «أصبحت تشبه جارنا محمود» الذي يظل سكراناً طوال الوقت ويتشاجر مع الناس تترك آثار عليه دائماً، وراحت تصيح في باحة البيت، «محمود، محمود»، حتى صفعها على وجهها. فراحت تجأر وعادت إلى غرفة نومها.

أعطاه والده قطعة من الورق الفاخر وقلم قصب، وقال له: «اجلس هنا واكتب» عندما راح حميد يداعب الورقة، كان قلم القصب الجديد أفضل من قلمه بكثير الذي قطعه من قصبة بسكين مطبخ. قبع براحة في يده، وأصبح طرفه حاداً كالسكين.

المشكلة الوحيدة هي أن والده وقف بجانبه مباشرة. قال له من دون أن يرفع عينيه، «أبي، أرجوك أن تبتعد بضع خطوات». قال ذلك بنبرة رسمية لم يستخدمها مع أبيه من قبل ولم يستخدمها مرة أخرى. بعد سنوات عديدة، أدرك أن مستقبله كخطاط كان قد تقرر في تلك اللحظة القصيرة. وبينما كان يتكلّم، نظر إلى سكين الإسكافي الحادة التي كان أبوه يقطع بها قلم القصب. كانت ملقاة على الطاولة بجانب المحبرة.

قال لنفسه إذا ضربه أبوه الآن ضرباً مبرحاً مرة أخرى، فإنه سيغرز تلك السكين في بطنه.

كما لو أنه قرأ ما يدور في رأس ابنه وخاف، رجع أبوه خطوتين إلى الوراء، وكتب حميد القصيدة بسرعة. كان يراقب والده لسنوات وهو يكتب الخط، ولم يفهم قط السبب الذي كان يجعله، في جميع أعماله، يتردد، ويرتكب أخطاء، ويضطر إلى مسح بقع الحبر، ويزيل آخر بقاياها بسكين، ثم يبلل المكان وينعّمه بقطعة رخام صغيرة، ويتركها حتى تجف ثم يعود ويفركها حتى تصبح ملساء.

نظر حميد إلى القصيدة مرة أخيرة، وقد ضيّق عينيه. كانت تلك الطريقة الوحيدة التي يمكنه أن يقيّم من خلالها نسب الأبيض والأسود بدقة من دون التوقف عند أي حرف. تنفّس الصعداء. كان الإيقاع صحيحاً، وحتى أن النتيجة النهائية كانت أفضل من المرة الأولى.

قال لأبيه: «ها هي القصيدة». لم تكن هناك نبرة كبرياء في

صوته، وإنما نبرة تحدٍّ فقط. تسمّر والده في مكانه. لم يكن بإمكانه أن يكتب شيئاً جميلاً مثل هذا الخط. كان في النص شيء يبحث عنه دائماً ولم يجده قط. موسيقى. يبدو أن أشكال الحروف تتبع لحناً.

«لقد أحسنت كتابتها بمحض الصدفة»، قال له عندما تمالك نفسه، وأضاف، «اكتب الآن: يجب أن تكرّم والديك وتخدمهما، بالخط الديواني إذا استطعت».

«نعم، لكن ابتعد عن الطاولة»، قال له حميد عندما رأى والده يقترب مرة أخرى.

«كما تشاء، لكن اكتب ما أمليته عليك».

تناول حميد ورقة جديدة وغطّ القلم في المحبرة الفضية. كانت تفوح من حبر والده رائحة عفنة. تذكّر أنه طوال حياته كان يطلب من المبتدئين أن يخضّوا جميع المحابر في محترفه كلّ يوم. فإذا لم تُخضّ المحبرة، فإن الحبر يتعفن، عندها لا يمكن استخدامه. وكان يضيف دائماً قطرة من محلول الكافور إلى محبرته لتصبح رائحة الحبر منعشة، ويعطّر بعض الخطاطين حبرهم بعطر الياسمين أو الورد أو زهر البرتقال.

تحت نظرات أبيه الصارمة، فكّر لحظة ثم أغمض عينيه حتى وجد الشكل الذي يناسب الكلمات على نحو أفضل: موجة البحر.

ثم كتب القول المأثور، وشكلت الحروف صورة رائعة لموجة تتكسر.

عندها صاح أبوه، «يجب أن أريها للمعلّم سيراني». كانت تلك أول مرة يسمع فيها حميد اسم أعظم خطاط سوري في عصره.

فجأة عانقه أبوه، وقبّله، وبكى، وقال له: «لقد وهبك اللّه كلّ

ما كنت أتمناه لنفسي. هو وحده يعلم السبب، لكنّي فخور بك. فأنت ابني».

ثم جاء أخيراً اليوم العظيم عندما استقبلهم سيراني. ارتدى حميد بدلة لأول مرة في حياته. كانت بدلة صيفية خفيفة اشتراها له والده من أفضل محلات الملابس في سوق الحميدية، أو بالأحرى قايض بها، فلم يدفع ثمنها نقوداً وإنما عقد صفقة مع صاحب المحل: أن يكتب له لافتة جديدة لمحله مقابل ثمن البدلة. فقد مضى على اللافتة القديمة خمسون سنة، وبدأت تتقشّر وتتساقط الحروف هنا وهناك ولم يعد باستطاعة أحد أن يقرأها.

«كم يستغرق العمل عليها لتسديد ثمنها؟» سأل حميد والده وهما عائدان إلى البيت.

فقال أبوه: «أسبوع». ألقى حميد نظرة إلى اللافتة، ثم إلى البدلة في الكيس الكبير الذي يحمله، وهزّ رأسه. قرر أنه عندما يصبح في عمر أبيه، فإنه لن يُمضي ولا حتى يوماً واحداً في العمل لكي يحصل على بدلة جديدة.

كان لدى الخطاط العظيم سيراني محترف كبير بالقرب من الجامع الأموي يعمل فيه ثلاثة خطاطين، وخمسة مساعدين، وصبيّان أجيران. أدرك حميد في ذلك اليوم مقدار ضآلة والده. فقد توقف مرتين خارج محترف الخطاط المعلّم سيراني، ولم يجرؤ على الدخول في كلتا المرتين وكان يعود، يداه تتعرّقان، وفي المحاولة الثالثة فقط، تجرأ وفتح الباب وألقى السلام بتواضع على المعلّم.

ثم وقف محنيّ الرأس أمام الخطّاط العظيم متوَّجاً على كرسيه الكبير. كان سيراني رجلاً ضئيل الجسم، يمشّط شعره الخفيف بعناية، ويضفي شاربه الرفيع المستقيم مسحة من الكآبة على وجهه، أما عيناه فكانتا براقتين مفعمتين بالحيوية. لا يمتلك أي شخص آخر

عينين كهاتين العينين، يمتزج فيهما الحزن وعقل متوقد الذكاء والقلق. أكد المستقبل لحميد في أحيان كثيرة هذا الانطباع. لم يضحك المعلّم سيراني إلّا نادراً. كان متديناً جداً، دمث الأخلاق لطيفاً، متحفظاً، وعندما يقول شيئاً، تستحق كلماته أن تكون كلمات نطقها فيلسوف.

تفصيل واحد في مظهره الخارجي بدا مضحكاً بالنسبة لحميد. فقد كان حجم أذنه اليمنى البارزة ضعف حجم أذنه اليسرى تقريباً. بدا له كما لو أن أحداً كان يجرّ المعلّم سيراني في طفولته من أذنه ويدور به.

«ما الذي جاء بك إليَّ يا أحمد؟» سأله سيراني، بعد أن رد باقتضاب على تحية أبيه. كان صوته لطيفاً وهادئاً، لكنه مُصمّم ليبدو غير ودي وسلبياً. كان المعلّم سيراني ووالده ذات يوم من تلاميذ الخطّاط الشهير ممدوح الشريف، ولم يتفقا قط، وسرعان ما ترك والد حميد المحترف لأنه أراد أن يكسب نقوداً بسرعة، واكتفى بممارسة الخطّ التجاري الذي يعتمد في تأثيره على الشكل الملوّن أكثر منه على الفن، أما سيراني فكان أفضل تلميذ بين جميع تلاميذ ممدوح الشريف، وظل معه لأكثر من عقد من الزمن حتى أتقن كلّ ألغاز التخطيط وأسراره. وفي منتصف عشرينيات القرن الماضي، وصلت شهرته إلى إسطنبول والقاهرة وكُلِّف فيهما بأعمال كبيرة لترميم النقوش الفنية التاريخية والمساجد والقصور.

فقال والده: «يتعلق الأمر بابني حميد».

نظر المعلّم سيراني إلى الصبي الصغير النحيف طويلاً. لم يخف حميد من نظرة السيّد الغير ودية، وبادله النظرة بجسارة مصحوبة باحترام. كان ذلك بمثابة اختبار، وقد اجتازه حميد بنجاح وأقنع المعلّم سيراني. فأصبح ينظر إليه باعتدال أكثر، ورفرفت مسحة

ابتسامة على وجه الرجل الشهير اللطيف النحيف، الذي لم يتجاوز عمره ستة وثلاثين عاماً في ذلك الحين، لكن بدا كما لو كان في الخمسين من عمره. «إذاً أرني ما الذي يمكنك أن تفعله يا بني»، قال بصوت رقيق ونهض واقفاً وتناول قلماً من القصب من الخزانة.

عندما سأله سيراني، «ما نوع الخطّ الذي تفضّله؟» أجاب حميد بهدوء: «خطّ الثلث يا سيدي».

فقال له سيراني: «إذاً اكتب لي الجملة التي يبدأ بها كل شيء». الجملة الأكثر تكراراً في اللغة العربية التي يعيد الخطاطون كتابتها مراراً وتكراراً والتي تبدأ بها كلّ الصلوات والكتب والرسائل والخطب وكتب القانون وكتابات المسلمين، سواء أكانت عربية أم لا: بسم *الله الرحمن الرحيم*.

أغمض حميد عينيه. مرت في ذاكرته مئات الأشكال المختلفة لهذه العبارة، لكنه لم يعجبه شيئاً منها. لم يعرف كم مضى من الوقت وهو يفكّر عندما سمع صوت والده الخفيض: «هيا اكتب، لا يستطيع السيّد أن ينتظرك طوال. . .» لكن لا بدّ أن المعلّم نظر إليه بغضب، لأنه صمت على الفور. بعد سنة تقريباً، غمرت حميد السعادة عندما سمع المعلّم يقول إنه عندما يظهر شكل الخطّ في رأسك كصورة واضحة فقط، تستطيع أن تكتبه يدك.

أخيراً، وجد حميد الشكل ليعبّر عن الصوت الموسيقي للصلاة الورعة. كما لو كان يعزف على أكورديون، خرجت الكلمات ممدودة ومضغوطة من حيث النغم. فتح عينيه وبدأ يكتب. كتب كلّ كلمة من دون أن يرفع قلمه، ثم غمسه في المحبرة وتابع الكتابة. كانت للحبر رائحة زهر الليمون اللطيفة. أُعجب سيراني بتلك البراعم الصغيرة التي تُقطَّر في دمشق.

عندما أنهى حميد الكتابة، التقط المعلّم الورقة وتفحّصها بعناية

ثم أعادها إلى الصبي. كان يتساءل كيف يمكن لشوكة مثل أحمد أن يجلب مثل هذه الزهرة إلى العالم، واقتنع مرة أخرى أن مشيئة اللّه عميقة الأغوار لا يمكن فهمها.

«اكتب اسمك في الزاوية اليسرى في الأسفل، والتاريخ وفق التقويم الإسلامي، وبعد سنة، سنرى التقدّم الذي ستحرزه».

قُبِل في المحترف، وذرف أبوه دموع الفرح. اعتبر حميد أن ذلك رحمة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، لأنه اعتباراً من تلك اللحظة، ازداد أبوه لطفاً وحدباً عليه. ومنذ اليوم الأول مع المعلّم، لم يكن عليه أن يتعلّم تقنيات الخطّ ووصفات تركيب الحبر فحسب، وإنما كذلك كيفية قص أقلام القصب، ودراسة الهندسة والتناسق، والضوء والظل، ومبدأ التناغم، وغيرها من الأمور والمتطلبات الأساسية للفنّ، والأهم من كلّ ذلك، إجراء دراسة شاملة لتاريخ الخطّ وجميع أنماط الخط العربي وأشكاله. وإذا حصل على استراحة قصيرة من العمل، كان المعلّم يعطيه القرآن أو مجموعة من القصائد العربية ويقول له: «يمكنك أن تكتشف هنا الثمار السرّية للغتنا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

7

اشتُهِر سيراني في عالم الخطاطين بأنه لا يمتدح أحداً قط، وكان أكثر الرجال لطفاً ودماثة على وجه الأرض. وصار محترفه مع مر الزمن أشبه بخلية نحل. فبالإضافة إلى الحرفيين والمساعدين والزبائن، كان يزور محترفه كل يوم اثنان أو ثلاثة من أبناء العائلات الغنية ليتعلّموا فنّ الخط ولو بشكل سطحي الذي كان يُعتبر حينذاك جزءاً من التعليم الجيد للصبية، لا للتعرف على أصوله فحسب، وإنما لإتقان الكتابة بالخطّ العربي وتهذيب أخلاق الشبان ليتعلموا الدقة والصبر واحترام ما ينجزه الآخرون.

تعلّم حميد بحماسة وشغف شديدين، وتساهل سيراني تجاه الأخطاء الظاهرة، لكنه لم يتساهل أبداً إذا رأى عملاً أُجري على عجل من دون إتقان، وكان يكره خدش أخطاء الحروف كثيراً، فقد أكد دائماً: «إذا كان هناك خطأ لا يمكن إزالته باللعق باللسان، يجب إعادة كل العمل من جديد». لم يخدش سيراني قط أي خطأ بسكين حاد، لكنه كان يلعق الحبر الجديد من الورقة بسرعة البرق إذا لاحظ خطأً ما. في البداية، صُدم حميد وشعر بالاشمئزاز عندما لم ير معلّمه يفعل ذلك فقط، وإنما كان جميع الحرفيين في محترفه يلعقون حبر الأخطاء التي يرتكبونها، لكنه سرعان ما تعلّم أنها أفضل وأسرع وسيلة لتصحيح الأخطاء. ثم اكتشف أن جميع الخطاطين يفعلون

ذلك، ويقولون مازحين إنه لا يمكن اعتبار أي خطاط خبيراً حقاً إلّا إذا لعق دواة حبر كاملة على مدار السنين.

أما الخطاط الذي يحذف بالخدش كثيراً، فهو خطاط غير واثق من نفسه. كان والد حميد يستخدم الخدش في كل لوحة خطّ يكتبها.

لم يحسب المعلم سيراني قط الفترة الزمنية التي يحتاج إليها هو أو أحد مساعديه لإنجاز لوحة خطّ، لكنه كان يكرر دائماً، «دع الوقت يسكن في عملك». بموقف كهذا، لم يصبح سيراني غنياً قط، لكن خطوطه زيّنت المساجد الرئيسية والوزارات والقصور في المدينة.

لم يزر حميد معلّمه في بيته قط، وحتى بعد سنوات طويلة لم يعرف أين يقع بيته، مع أن سيراني عامله منذ البداية مثل تلميذ شخصي له. فقد كان أفضل تلاميذه، وهو أرفع من أن يؤدي المهام الصغيرة التي كان يقوم إسماعيل، صبي المهمات.

أما إسماعيل الذي كان يذهب إلى بيت معلّمهما عدّة مرات في اليوم، ليشتري المواد التي تحتاج إليها زوجة سيراني، وليجلب له وجبة الغداء الساخنة في مطبقية، فقد حكى لحميد عن الحياة البسيطة التي يحياها هذا العبقري.

كانت معايير سيراني صارمة جداً إلى درجة أنه لا يُمنح أي شخص الوثيقة المنشودة التي تثبت أنه أنهى تدريبه والتي يعتبرها الخطاطون شهادة أستاذ قبل مضي عشر سنوات، وقد غادر عدد كبير من الحرفيين محترفه تتملكهم المرارة وهجروا هذه المهنة، وأقام آخرون عندما أدركوا أنهم لن يحصلوا على ختم الموافقة منه، محترفات خاصة بهم، وحققوا درجات متفاوتة من النجاح.

لم يسمح المعلم سيراني لحميد أن يتجاوز أي مرحلة تعليمية

رغم تفوّقه، وأصرّ على أن يتعلّم كل شيء بدقة حتى لو كان من البديهيات. وبالإضافة إلى تدريباته الخاصة على الخط، ساعد في الأعمال اليومية الأخرى في الورشة، لأن سيراني يعتبر الخط العربي فناً جماعياً، وكان يقول دائماً إن الأوروبي يمارس فنّه وحده لأنه يظن بأنه كون كامل في حد ذاته، لكن هذا هو المفهوم المتعجرف الذي يؤمن به الكفار، أما الشخص المؤمن فهو يعرف أنه جزء من الكون، لذلك يجب على جميع مساعديه أن يشاركوا في العمل الذي يجري تنفيذه حالياً.

لم تتصف المهام بصعوبة كبيرة، لكنها تطلبت الصبر والقدرة على التحمّل، وكان حميد يمتلك كلتا الفضيلتين. ومع أنه كان يرتمي على السرير منهكاً في آخر النهار، فقد كان ينعم بالعمل في محترف كبير الخطاطين سيراني كأنه جنة بالمقارنة مع المدرسة. فهنا يتكلّم الجميع بصوت خافت، وقلما يتعرض المتدرب للضرب أو التوبيخ. تلقّى حميد صفعة مرة واحدة من حسن، أقدم الحرفيين في المحترف، عندما رمى المرطبان الكبير الذي ملأه حسن بحبر طازج، لكن حسن كان رجلاً محترماً. ففي سورة غضبه أفلتت يده من سيطرته وأنزلت صفعة على وجه حميد لكنه لم يشكُه لمعلّمهما. ثم غلى حسن مزيجاً من الصمغ العربي والسخام وبتلات ورد متفحمة مرة أخرى بالماء لعدة ساعات، باتباع الوصفة القديمة التي وضعها خيميائي في القرن العاشر، ثم نخله، وجعله غليظ القوام، حتى أصبح المحلول عجينة طرية، ثم حلّ كلّ شيء بماء، وغلاه ونخله وجعله ثخيناً مرة أخرى حتى أصبح الحبر سلساً أسود كالليل. فعل الحرفي المتمرّس كل ذلك سرّاً كي لا يعرف معلمهما شيئاً عن الخطأ الذي ارتكبه حميد. وعندما أرسل سيراني في طلبه بعد ثلاثة أيام، كان الحبر جاهزاً وحتى معطراً بزهر الليمون.

ولم يضمر الآخرون حقداً تجاه حميد عندما أتلف قصبة ذات مرة، وقطعها حتى أصبحت صغيرة جداً. فلم يكن يعرف أن القصبة التي تبدو رخيصة، قد عولجت طوال ثلاث سنوات في إيران قبل أن تباع في السوق. وقد اعتاد المعلّم سيراني على شراء أغلى الأدوات والمعدات لمحترفه. «الخطاط الذي يبخل عند شراء أدواته، سيندم بعد فوات الأوان».

كان عَالَماً آخر، وشعر حميد بالامتنان كثيراً عندما سمع عن المعاملة القاسية التي يعاني منها الصبية الآخرون عندما يتعلّمون أي حرفة أخرى. وشعر وكأنه أمير.

في صباح كل يوم، يراه تلاميذ المدرسة في الشارع الذي يقيم فيه عندما يغادر المنزل، ويبتسم بسعادة لأنه لم يعد مضطراً للذهاب إلى جحيم المدرسة. فقد كان المعلمون في المدرسة الابتدائية التي كرهها يطلقون خيزراناتهم مصفّرة في الهواء طوال اليوم فوق رؤوس التلاميذ. كانوا يتصرفون بوحشية كأنهم عمالقة، والتلاميذ الذين يقعون تحت رحمتهم، أقزاماً.

كان حميد يحبّ دروس التاريخ ويجد متعة كبيرة عندما يستمع إلى قصص من العصور السالفة كما كان يجد متعة بتلاوة القرآن، وتفوّق على أترابه في مادة الحساب، لكن لم يمرّ يوم واحد من دون أن يضربه أحد المعلمين أو صبي أكبر منه سناً وجسماً. كان حميد قصيراً ونحيفاً، ودأب فتى أكبر منه سناً على مضايقته أثناء كلّ استراحة، لُقب هذا الوحش باسم حسون، مع أنه لم يشبه قط هذا الطائر الصغير الرقيق. فقد كان عملاقاً يرمق حميد وثلاثة صبية آخرين باحتقار ويأخذ سندويشاتهم صباح كلّ يوم، وإذا قاوموه ولم ينفّذوا ما يطلبه منهم، يجرّهم الواحد تلو الآخر إلى زاوية معتمة لا يستطيع مشرف المدرسة أن يراه فيها، ويضغط بيده الضخمة على

خصياتهم حتى يكاد يُغمى عليهم من شدة الألم. وكان حميد يفكّر في كل ليلة كيف سيضرب وجه ذلك الفتى القبيح في اليوم التالي، لكن ما إن يرن الجرس معلناً الخروج إلى الباحة، حتى يشعر كيف ستؤلمه خصيتاه، فيتخلّى عن سندويشته من تلقاء نفسه.

وعلى الرغم من جميع عيوبها، فقد كانت المدرسة تتمتع بسمعة طيبة، وهذا يعني أنه لم يتمكن قط من إقناع والديه بأنها جحيم لا يطاق. كان أبوه متيقناً من أنها مصنع رجال الغد. وقد أصاب والده فعلاً من دون أن يقصد، فقد أنتجت تلك المدارس جيشاً جراراً من الأغبياء الساديين وجيشاً أضخم من الأذلاء.

نظر حميد إلى أبيه في الصورة العائلية. «مصنع الرجال»، همس بمرارة وهو يهزّ رأسه بسخرية من هذا الأب الغبي. راح يسير جيئة وذهاباً في زنزانته، ينظر قليلاً إلى السماء المظلمة من النافذة ذات القضبان. لماذا يجلس هو الآن سجيناً هنا وراء القضبان؟ إنها معركة عادلة، فقد دافع عن نفسه ضد نصري قباني القوي الذي كان يحصل دائماً على ما يريد دون أن يبالي إن كان يدمّر بذلك حياة الآخرين. لم يتصرف بحقد كما قال محامي عائلة قباني البائس.

أخبره كرم، صاحب المقهى، أن زير النساء نصري قباني مختبئ في بيت زوجته ألماز، وأنه يذهب إلى حمّام نور الدين مساء كل يوم ثلاثاء.

عندما التقى حميد وكرم في مقهى الهافانا، حذّره كرم من أن نصري يحمل سلاحاً ونصحه بأن يأخذ معه مسدساً، حتى أنه عرض عليه أن يجلب له مسدساً. لكن حميد لم يشأ ذلك، لأنه يؤمن بأن المسدسات ليست للرجال، إذ يستطيع أي طفل أن يُردي بطلاً قتيلاً من بعيد بمسدس. ولن يعيد شيء شرفه إلّا السكين. لكن كرم هذا أدلى بشهادته ضد حميد أمام القاضي مما جعل حكمه أشدّ. إنه رجل

سيء الأخلاق، لا يعرف أحد تماماً ما الدور الذي قام به في هذه القصة.

لقد واجه حميد نصري وقال له إنه سيقتله لأنه طعن شرفه، وبدلاً من أن يعتذر، سأله نصري منذ متى كان للفئران مثل حميد فارسي شرف؟ حتى أنه ليس عربياً، وإنما فارسي هجين، لاجئ. وبينما كان يقول ذلك، وضع يده في جيب سترته، لكن المسدس علق في جيبه. هل كان ينبغي له أن ينتظر ذلك الوغد حتى يثقب جسده بالرصاص؟ لا - فقد هاجمه بالسكين.

هل يعتبر ذلك جريمة قتل بدم بارد؟

ابتسم حميد بمرارة. إنها مسألة حياة أو موت. فقد قتل نصري في منازلة متساوية وليس غدراً، فلماذا لا يُسمَح له أن ينتصر؟ رداً على هذا السؤال، لم يهزّ القضاة والمحامون رؤوسهم فحسب، وإنما هزّ السيّد سيراني رأسه أيضاً عندما زاره في السجن الذي قال له بهدوء: «لقد وقعت في الفخ». فقد رأى أنه توجد مؤامرة وراء كلّ ذلك. فقد سمع أن صاحب المقهى هو الذي أعطى المسدس للسيد قباني مع أن هذا الأخير لم يشأ أن يأخذ مسدساً، لأنه لم يحمل مسدساً طوال حياته، وكان ثملاً جداً مساء ذلك اليوم، كما أظهر تشريح الجثة.

يعتقد معلّم حميد أن نصري قباني بريء، وأن كرم وجماعة «الأنقياء» وراء كلّ ما حدث. لم يكن ذلك مهماً لو كان معلّمه وسيّده مخطئاً بشأن قباني، لكنه طلب كذلك من حميد أن يعيد شهادة رئيس جمعية الحكماء ليتمكنوا من اختيار خليفة له وذلك لتفادي إمكانية حصول انقسام في الجمعية. فقد كان نصف الخطاطين معجبين بحميد وتركوا له مسألة اختيار خليفته، وأراد النصف الآخر طرده من

الجمعية، لكنهم مستعدون لأن يتخلوا عن ذلك إذا أعاد الشهادة من تلقاء نفسه.

قال له حميد: «قل لهم إنني وجدت من يخلفني وإنني سأمنحه الشهادة».

غادر سيراني محني الظهر من الحزن واليأس. التفت للمرة الأخيرة ليلوّح بيده آملاً أن يغير حميد رأيه ويناديه، لكن تلميذه السابق وقف هناك مثل تمثال، متجمّداً لا يتحرك.

مهتاجاً، راح حميد يسير في زنزانته جيئة وذهاباً. تذكّر أن رائحة خمر قوية كانت تفوح من فم نصري، وكان يثرثر بدلاً من أن يتكلم. ثمة لغز في دور كرم في كل ذلك. هل استدرجه إلى فخ أم أن كرم نفسه قد جرى ابتزازه وأُرغم على الإدلاء بشهادته؟ ربما دفعوا له مبلغاً من المال لكي يفعل ذلك؟ لقد دفعه كرم لأن يهاجم قباني لأنه زعم أن نصري قباني اغتصب ابنة عم كرم ألماز. وقد تنفّست أسرتها الصعداء عندما تزوج الرجل ابنتهم الحامل تعويضاً عما ارتكبه. وكان كرم قد سمع من ألماز هذه، زوجة قباني الرابعة، متى وأين يمكنه أن يجد زير النساء ذاك، لكن كرم أنكر كلّ ذلك في المحكمة، وادّعت الأرملة على منصة الشاهد بنفاق لا مثيل له أنها تحبّ زوجها وأشادت بإخلاص زوجها المرحوم فابتسم القاضي بخبث وأعادها إلى بيتها. لأنه هو نفسه، كما همس محامي حميد له، رافق نصري إلى بيوت الدعارة في أحيان كثيرة.

«وإلا كيف لي أن أعرف مكان اختباء ذلك الديك المتبختر نصري قباني لو لم يخبرني كرم به؟» صاح حميد، لكن بدا أن القاضي لم يسمع شيئاً اسمه المنطق، وقال إنه يتمسك بالوقائع التي تقول إن الجميع يعرفون أن حميد كان يبحث عن نصري منذ شهور،

وسأل عنه رجالاً ونساء كثيرين كما كلّف وكالة تحرٍّ بالبحث عنه. كانت هذه أهم حجة لإدانته، ودعمت الحكم بالقتل العمد مع سبق الإصرار.

ضرب حميد الحائط بقبضة يده وقال: «عدالة لعينة. إنها عاهرة أيضاً، تسير وعيناها معصوبتان يقودها قواد».

جلس على طرف سريره، انحنى، وسحب صندوقاً خشبياً طويلاً وضخماً. فتحه وأخرج الورقة التي خططها عندما زار محترف معلّمه أول مرة.

لا يزال صدى الكلمات التي قالها معلّمه لأبيه في ذلك الوقت تتردد في أذنيه، وهما يغادران، «أحمد، إن اللّه يمنح الموهبة للنخبة الذين يختارهم، لا نستطيع أن نفهم ذلك، ولا نحتاج إلى معرفة السبب، وهذه الهبة، صدقني، ليست سبباً للبهجة، وإنما واجب ثقيل. إن ما أقوله يقترب من الكفر، ومع ذلك فإني أقوله لك. إنها هدية وتكليف في الوقت نفسه. عد إلى بيتك وكن سعيداً لأنك لا تملكها، واعتنِ بالصبي. لا أريد أن أسمع أنك أسأت معاملته. هل تفهم ما أقوله؟»

هزّ والده رأسه ولم ينبس ببنت شفة.

لم يشأ المعلّم سيراني أن يشرف أحد غيره على حميد. فجعله تلميذه الشخصي، وكان راضياً تماماً عن التقدم الذي يحرزه. كان ذلك قبل أن يبدأ الدمشقيون يتحدّثون عن «طفل الخطّ المعجزة ذاك» بخمس سنوات، التي ظن حميد أن هذا المديح ذهب شأواً بعيداً. لم يستطع أن يحمل شمعة لمعلّمه، ومع ذلك، فقد قال الناس لم يعد بالإمكان التمييز بين خطّ المعلّم وتلميذه.

بدأ معلّمه يكلّفه بمزيد من الأعمال الهامة. وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، أصبح مسؤولاً عن العمل في المحترف في غياب

سيراني، هذا الغياب احتل نصف الوقت تقريباً. كان يعمل في ذلك الوقت في المحترف أكثر من خطاط بعمر والد حميد، لكن سيراني لم يكترث لذلك، لكن اختيار الشاب حميد لهذه المهمة دون الآخرين جعله شخصاً غير محبوب عند زملائه، بالإضافة إلى أن نزوعه للوصول إلى درجة الكمال الذي منعه من التغاضي عن أخطاء أو إهمال من جانب الحرفيين، ولم ينتقد بدماثة أخلاق معلّمه سيراني، بل بطريقة فجة ما زادهم كراهية له.

عرف سيراني أن مساعديه لم يكونوا سعداء بذلك، لكن بدا كما لو أن تلميذه قد سحره، وكان يردد دائماً، «حميد نائبي، وأي شخص لا ينفّذ ما يقوله يمكنه أن يغادر محترفي».

أعاد حميد الورقة التي كتب فيها الخطّ لأول مرة إلى الصندوق الخشبي، وكان على وشك أن يدفعه إلى أسفل السرير عندما رأى دفتراً سميكاً بغلاف أسود دوّن فيه أفكاره وأسراره، عبارة عن يوميات عن عمله ومذكرات شخصية معاً، وبناءً على نصيحة معلّمه لم يضع له عنواناً، كي لا يثير الكثير من الفضول.

كان سيراني قد اشترى له حينذاك دفتراً ضخماً وسميكاً من مُجلِّد الكتب الشهير سليم بقلان الذي كانت ورشته تنتج أغلفة فنية لأغلى نسخ القرآن المطبوعة. قال له سيراني: «إن الكتاب الذي يجلِّده بقلان لا يُتلف أبداً».

لكن الغلاف كُسر من وسطه عندما ضُغطت الصفحات بشدّة. عندما حدث ذلك، ألقى مساعده صمد اللوم على سلمان، لكن صمد الذي عرف كرم وأراد تلبية طلبه بتوظيف سلمان لدى حميد هو من شجعه على قبوله.

هزّ حميد رأسه بقوة ليبدّد أفكاره حول الدوافع المشبوهة

لصاحب المقهى ولسلمان وعاد إلى دفتر الملاحظات الذي كان يدوّن فيه تمارينه ومشاعره مساء كلّ يوم، ثم بدأ يفضي إلى مفكّرته عن أفكاره حول الخطوط وخططه السرية. كان باستطاعته أن يكتب بصراحة لأن لديه دُرجاً خاصاً في خزانة كبيرة في المحترف، ويضع مفتاح الخزانة في سلسال حول رقبته، وحتى لو نسي الدرج مفتوحاً أحياناً، لم يلمس أحد شيئاً فيه.

لم يكن باستطاعته أن يحتفظ بأي شيء في البيت لأنه خشي أن يقع شيء منها في يد شقيقته سهام، ولا يمكن لأي قفل أن يصمد أمام فضولها أكثر من ثلاثة أيام.

عندما استقلّ في عمله وأنشأ محترفاً خاصاً به، احتفظ بالدفتر الذي يعتبر أغلى ما يملكه في الخزانة وراء طاولة مكتبه. فهو لا يضم جميع أفكاره وآرائه وخططه المتعلقة بإصلاح الخطّ فحسب، وإنما يضم كذلك أسماء وآراء أصدقائه في جمعية الحكماء السرّية. احتفظ به في مكان أمين وأخفاه بين الدفاتر العديدة الأخرى وأعمال الزخرفة والخطّ، لأن هذه الخزانة تظل مقفلة باستمرار لأنها تحتوي أيضاً على أوراق ذهبية وأدوات كتابة باهظة الثمن.

لم يلمس أي من مساعديه الخزانة. إنه متأكد من ذلك. لفترة من الوقت، كان يترك علامات سرية تُظهر له إذا فتح أحد بابها. لكن لم يبدُ أن أحداً آخر اهتمّ بمحتوياته.

اتهم صمد سلمان الصغير بأنه فضولي. فقد كان يستوعب كل ملاحظة تتعلق بالخطّ ويحرص على تدوين ملاحظات على قصاصات من الورق، لكن غير ذلك، فإن مواهبه متوسطة، وبعد أن أحاطت به الشبهات وطُرد من المحترف، قيل إنه ذهب وبدأ يعمل في مطعم. لو كان يبحث عن أسرار فن الخطّ، لما أصبح طاهياً في مطعم. وهذا ما دفعه الآن لاحتقار صمد وتشكيكه في سلمان المسكين.

أما الآخرون الذين يعملون في المحترف، فهم أشخاص طيبون، ثلاثة منهم حرفيون جيدون، لكن لا يستحق أي واحد منهم أن يُدعى خطاطاً حقيقياً.

«القلم هو لسان اليد»، قرأ بصوت عالٍ العبارة التي كتبها المعلّم سيراني، بناءً على طلبه، في الصفحة الأولى من دفتر الملاحظات.

إن فن الخط، كتب هو نفسه بحماسة، هو فن استخدام اللون الأسود لإضفاء بهجة خالصة على صحراء الورقة البيضاء. يمنحها شكلاً وقيمة.

قلّب بضع صفحات من التعليقات الفنية حول النسب الصحيحة للحروف، ثم رأى قصة كانت قد أثارت إعجابه في ذلك الحين، فدوّنها كلمة بكلمة. كان المعلّم سيراني قد قال له: «لقد عظَّم الرسول الكلمات التي كتب بها اللّه القرآن. وكانت أول الكلمات التي سمعها النبي محمد:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ،
خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ،
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ،
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ،
عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

وبعد أن انتصر في معركة بدر، عرض النبي على كل أسير أن يطلق سراحه إذا استطاع أن يعلّم عشرة مسلمين القراءة والكتابة».

تصفّح حميد بضع صفحات عن صناعة أدوات الكتابة والعناية بها. إنه يتذكّر تلك الفترة من حياته جيداً. بعد حوالي سنة من الدراسة الجادة أرى معلّمه عبارة كان قد كتبها الليلة الماضية بناءً على طلب أحد الزبائن، أشاد سيراني بعمله. زميل يكبره سناً كان

يحسده ويُسمعه ملاحظات جارحة طوال الصباح، حتى أخذه سيراني جانباً وأنّبه بشدة وطلب منه أن يكفّ عن ذلك. كان حميد واقفاً على الجانب الآخر من الستارة وسمع كلّ شيء.

عندما كان جالساً على سريره في الزنزانة والدفتر بين يديه، تذكّر كلمات سيراني لذلك الحرفي كما لو أنه قالها الآن. «إنك مجتهد، لكنه موهوب. مثل النحل الذي لا يعرف من قاده إلى صنع خلايا العسل ذات الأشكال السداسية الرائعة، لا يعرف حميد من الذي يجعل قلمه يتبع تلك الخطوط والأشكال غير المرئية. لذلك لا تكن حسوداً. فهو بريء لا يمكنه أن يفعل شيئاً حيال هذه الموهبة».

في ذلك الوقت، خطرت لحميد فكرة. كان مستلقياً على السرير في وقت مبكر من الصباح. وقد سُمِحَ له أن يفعل ما يشاء، لأن والديه لم يعيراه اهتماماً كبيراً. كانت أمّه تستيقظ دائماً عند الفجر، لكنها لم توقظه، ويظل أبوه يشخر في السرير حتى الساعة العاشرة، تعلّم حميد أن يستيقظ باكراً ويذهب إلى المخبز ويجلب خبزاً طازجاً ساخناً، ويدهن رغيفين بالزعتر وزيت الزيتون، يتناول واحداً في المطبخ، ويلفّ الآخر في كيس ورقي ليأكله لاحقاً، ثم يستحمّ، ويتعطّر بقطرة من زيت زهر الليمون، ويذهب إلى محترف معلّمه وهو يصفّر. كان يحبّ الذهاب إلى العمل ويعود إلى البيت في المساء.

حكى للمعلّم سيراني عن مفكّرته، وعندما أعجبته، هزّ رأسه، وكتب حميد حينذاك هذه العبارة: «الحروف ترقص، وتصبح السطور موسيقى للعين». صحح المعلّم سيراني كلمة واحدة فقط: «ليس للعين، وإنما موسيقى للروح». قال حميد لنفسه إن هذه الجملة التي كتبها جميلة وأكثر دقة ولم يغيّرها في دفتره رغم احترامه لمعلمه.

ابتسم عند تذكّر ذلك.

ملأ ثلاث صفحات بتأملات عن درجة صعوبة الحروف

المختلفة. صعب عليه جداً أن يتحكم في كتابة الحرف **هاء**. لكن المعلّم سيراني خفف من حزنه وقال له إن أي شخص يستطيع أن يكتب الحرف **واو** مثله بشكل أنيق يجب ألّا يخاف من أي حرف آخر، وذكر في دفتره أن الخطاط حسن يرى أن حرف **الراء** يسبّب له متاعب كثيرة، لأن كتابته تبدو سهلة، لكن أناقة هذا الحرف هي التي تحدّد شكل الكلمة بأكملها.

قال حميد لنفسه الآن، المسكين حسن الذي مات عندما انطلق حصان هائج وركله في صدغه في إسطبل والديه. راح يقلّب الصفحات بسرعة حتى وجد الصورة التي ألصقها في منتصف إحدى الصفحات: المعلّم سيراني ومساعدوه في نزهة على ضفاف نهر بردى. حسن يرفع بيده سيخ لحمة أمام المصور كأنه سيف. يا للأسف، كان شخصاً في غاية الطيبة، ولا يستحق أن يموت كما مات في الإسطبل.

عاد حميد إلى صفحاته التي تتحدث عن درجات الصعوبة. بعد صفحتين وجد رؤوس أقلام من حديث وجدال دار بين سيراني وخطاطَّين شهيرَيْن. كان حميد على وشك أن ينسحب إلى الغرفة الخلفية في الورشة بعد أن أعدّ الفتى الأجير قهوة للضيفين، لكن السيّد أصرّ على أن يبقى أفضل تلميذ لديه ليسمع المناقشة، فجلس في ركن الغرفة الواسعة واستمع إلى حديثهما.

لكن ما كتبه يُظهر أن عقله لم يكن مركّزاً على الحديث الذي كان يدور بينهما. جذاذات قليلة من الحديث، وبعض الأقوال المدهشة علقت في غربال انتباهه الخشن. رُصفت جنباً إلى جنب بشكل فضفاض كالحصى. في تلك الأيام، عشق حميد فتاة مسيحية جميلة تعمل خادمة في منزل كبير، في منتصف الطريق بين منزله ومحترف معلّمه، تكبر حميد بخمس أو ست سنوات، وكانت تتحلى

بالشجاعة. كان قد قبّلها عدة مرات، كانت تنتظره دائماً أمام نافذتها حتى يمرّ، لكن قبل ذلك الجدل بين معلمه مع ضيفيه المذكور في الدفتر بأسبوع، اختفت فجأة. كان كلّ ما يعرفه عنها أن اسمها: روزا.

سجّل حميد آنذاك: «القرآن الكريم كُتِبَ ليس مصادفةً بالعربية»، وبعدها بين قوسين: الشيخ مصطفى.

«أُنزل القرآن في مكة والمدينة، ودُوِّن في بغداد، وتُلي في مصر، لكن أفضل كتابة له كُتبت في إسطنبول»، قال المعلّم سيراني.

لم يستطع أحد أن يفهم الأفكار المتناثرة التي دوّنها حميد وهو غارق في بحر حزنه على روزا. لقد كتبها حينذاك تحسّباً من أن يسأله معلّمه بعد ذلك، لكنه لم يسأله.

اكتشف لاحقاً أنه على الرغم من أن العرب والفرس ساهموا في تطوير الخطّ، فإن العثمانيين هم أكثر من ساهم في تطوير الخطّ العربي. فقد ارتقى الخطاطون العثمانيون بالحرف العربي إلى درجة الكمال الفني، واستنبطوا أنماطاً جديدة عديدة مثل الخطّ *الديواني والديواني غالي والطغرى والرقعي والسنبلي*.

في منتصف صفحة كان من المفروض أن تكون فارغة، وجد حميد هذه العبارة التي وضع تحتها خطاً أحمر: «سأبتكر نمطاً جديداً»، ثم أرى هذه الملاحظة بافتخار لمعلّمه الذي هزّ رأسه ولم يقل شيئاً، ثم قال بلطف، «هذه قفزات مهر متحمس. تعلّم أولاً أن تتنفّس بصورة صحيحة عندما تكتب. إنك شديد الحماسة إلى درجة أنك تلهث أثناء التخطيط مثل جرو يركض تحت الشمس الحارقة».

«إن القرب الشديد يضاعف أحياناً حجم الأحداث العرضية ويجعلنا نغفل عما هو ضروري»، كتب بعد بضع صفحات، مقتبساً كلام الحرفي حسن، «لذلك، لا عجب أن الأنبياء والكتّاب

والرسامين والموسيقيين والخطاطين المبدعين عانوا أكثر من غيرهم من محيطهم الغافل».

كم كان الرجل المسن محقاً. لا بدّ أن حسن كان يعرف أكثر مما يُظهر. ابن مزارع بسيط ذو عقل وقاد لكنه لم يكن محظوظاً. ظل عازباً لأنه كان يعرج في مشيته. فقد كُسرت ساقه اليمنى عندما كان طفلاً ووضع أحدهم جبيرة بطريقة سيئة، فلم تلتئم العظام معاً بشكل صحيح.

كان حميد في الثانية عشرة من عمره عندما طلب منه سيراني أن يساعد حسن على زخرفة لوحة معقدة. في صباح ذلك اليوم، سمعا جدالاً صاخباً بين صديقين من أصدقاء معلّمهما حول الخط العربي، ووقف سيراني على الحياد بينهما، يوافق بأدب أحدهما تارة، ويوافق الآخر تارة أخرى، وكان بإمكانهما أن يدركا من صوته وملاحظاته أنه كان يريد أن يوقف الجدال بينهما.

وقف حسن إلى جانب الضيف الذي كان ضد من يعتبرون أن اللغة وكلماتها مقدّسة في حدّ ذاتها، وقال: «يمكنك أن تستخدم نفس الحروف لكتابة أفضل الكلمات وأسوأها»، وأضاف، «ولا يمكن أن يكون اللّه هو الذي وضع الحروف العربية لأن فيها عيوباً كثيرة».

كتب حميد ذلك أيضاً في صفحة فارغة، ووضع تحتها خطاً أحمر، كما لو أنه خمّن فعلاً أن بذور الشك هي التي ستغيّر حياته.

8

قرأ حميد كتباً كثيرة عن أشكال الخطّ وأنواعه المختلفة التي تصف وتسرد كلّ الأصوات والكلمات التي يمكن التعبير عنها بشكل ضعيف في الكتابة العربية مبيّنة نقاط ضعف الخط واللغة العربية، وفيها مقترحات قدّمها مصلحون على مدى قرون عديدة.

نظر إلى عنوان كان قد كتبه بعناية بالخط النسخي: «إصلاح *الخطّ العربي، بحث بقلم العبد للّه حميد فارسي*». كان قد تعلّم عبارة «العبد للّه» من معلّمه في ذلك الوقت، عندما كان في السادسة عشرة من عمره، واستخدمها حتى استقلّ بنفسه، وقرّر أنها ليست سوى تواضع يشي بالنفاق.

أعاد قراءة الخطط التي وضعها عدة مرات طوال سنتين، وكتبها على أوراق سائبة قبل أن ينقلها إلى الدفتر، وكان فخوراً بنهجها الجديد ودقتها. نقل مقترحاته حول الإصلاح من الأوراق بشكل نظيف الى الدفتر في خمسين صفحة، بخط صغير لكن مقروء، مرسياً المبادئ الأساسية لثلاثة أنماط جديدة.

لم يتطوّر الخط العربي مجدداً منذ أكثر من ألف سنة، ولم يتغيّر الخطّ منذ مئة وخمسين سنة. ولم يُعترف إلّا ببعض التحسينات التي أدخلها معلّمه، وصُمّم خط مصري قبيح استنبطه محمد محفوظ للملك فؤاد الأول بروح انتهازية تامة، مقلّداً الأوروبيين، واقترح

إدخال حروف كبيرة وحروف صغيرة، وأراد أيضاً أن يعيد تشكيل كلّ حرف لكي يمثّل تاجاً. نتيجة لذلك، أطلق على ابتكاره هذا الذي بذل فيه جهداً كبيراً «حرف التاج». وخُيّل إليه أن أحداً لن يلاحظ هذه الخطوة إلى الوراء التي أقدم عليها بانتهازية مخجلة.

أبرز حميد في دفتره نقطتيْ ضعف كبيرتين في الخطّ العربي لا يستطيع أن يحلّهما إلّا خطاط قدير: فقد كتب، «تُكتب الحروف العربية بأربع طرق مختلفة، وذلك بحسب موضعها: في بداية الكلمة أو في وسطها أو في نهايتها، أو إذا كُتبت بمفردها»، وهذا يعني أن الطالب يجب أن يتعلّم أكثر من مئة شكل مختلف من الحروف. وتابع، «تشبه الكثير من الحروف العربية بعضها، ولا يمكن تمييزها إلا بإضافة نقطة أو نقطتين أو ثلاث نقاط. يجب استنباط نوع جديد يُكتب فيه كلّ حرف بطريقة واحدة فقط، ولا يمكن الخلط بينه وبين أي حرف آخر».

في سياق عمله، أدرك نقطة الضعف الثالثة في الخطّ العربي، وقال: «إن بعض الحروف زائدة عن الحاجة، وبعضها الآخر ناقص»، وأطلق على مقترحاته اسم: «*الأبجدية الفعالة*».

لأيام وليال لا تعدّ ولا تُحصى، اختبر وتعلّم العديد من الحروف الهجائية وفحص أبجديات عديدة. كان قد بلغ الآن التاسعة عشرة من عمره، وراح ينتظر فرصة ليقدّم مقترحاته المتعلقة بالإصلاح إلى معلّمه. شعر بالثقة في نفسه، لكنه رأى تعابير الشكّ على وجه سيراني الذي كان محافظاً جداً، وكان من الصعب أن يحصل على موافقته على أي شيء يبتكره. فقد رفض بشدة فكرة فصل الحروف في الكتابة التي تناولتها ومدحتها كثير من الصحف في ذلك الوقت، وقال إنها ليست سوى محاولة رخيصة لكسب ودّ الأوروبيين، وفنّ الخط للسياح الذين لا يستطيعون قراءة اللغة العربية، والأميين.

«لا، يتكوّن الفن العربي من إعطاء شكل لكلمات كاملة، وليس لحروف منفصلة، فإذا قام رجل فرنسي بدمج كلمة صينية في صورة سريالية، فهل نسمّيها الخط الصيني؟» سأله بسخرية.

هناك خطاطون كثيرون يكرههم حميد يبيعون بأسعار هائلة لوحات لشيوخ النفط. لوحات زيتية ضخمة فيها سلطة من الحروف المتشابكة تمثل بدقة صحاري وواحات، أو جمال وقوافل، طيور ووجوه بشرية، وهو أمر يحرّمه الإسلام، سمح بهذه التركيبات بعض الأئمة لأنها خط وليست رسماً للمخلوقات وهذا وفّر على شيوخ البترول المنافقين أي تأنيب، يعلّقون هذه اللوحات في قصورهم ويتبجحون بغلاء ثمنها.

لم يرفض المعلّم سيراني هذه العادة السيئة فحسب، وإنما رفض أيضاً تقليد الخط الياباني وكتابة الخطّ على نطاق واسع باستخدام الفرشاة كبيرة وحواف عشوائية للحروف والذي أصبح شائعاً في ذلك الوقت.

«كما لو أن حماراً قد غمس ذيله في حبر ولطخه على ورقة»، قال بازدراء عندما أراه حسن لوحة نفّذها زميل له بهذه الطريقة.

لذلك أعدّ حميد نفسه لمواجهة صعبة مع معلّمه. كان سيراني يمثّل دائماً شخصية الأب التي يحلم بها حميد، ولم يعد يرغب في أن يبقي الموضوع الذي استحوذ على قلبه وعقله مخفياً عنه. واستعدّ نفسياً لتقبل عدم الموافقة أو الرفض، وحتى الطرد.

لكن الأمور لم تسر كما كان يُخيّل إليه.

في هذه المرحلة، شعر حميد كأنه خيمة نُصبت في وسط عاصفة. كان يتصرّف بنفاد صبر وغضب من نكات المتدربين وأخطائهم. في إحدى الليالي، جافاه النوم، ودفعه شعوره بالقلق إلى

أن يغادر الفراش، وقرر أن يذهب إلى المحترف. كان الشخص الوحيد، بالإضافة إلى المعلّم سيراني، الذي يحمل مفتاح المُحترف.

في تلك الساعة، بدأت بوادر الفجر تظهر في الشوارع المظلمة. فوجئ عندما رأى ضوءاً في المحترف من بعيد، وخشي أن يكون أحد الحرفيين قد نسي النور مضاءً طوال الليل.

لدهشته الكبيرة، رأى السيد سيراني جالساً إلى طاولة مكتبه، يقرأ دفتر حميد.

قال له: «كنتَ جريئاً جداً وجنيتَ محصولاً جيداً. قرأت مقترحاتك المتعلقة بإدخال تحسينات بتمعّن شديد مرتين. لقد رأيت الدفتر على طاولتي. لو كنت مكانك لما تركته مرمياً في أي مكان، فهو يضم جواهر للعارفين وفي الوقت نفسه فهو سكين بيد الجاهلين».

فجأة، اعترت حميد قشعريرة. صبّ لنفسه كأساً من الشاي الساخن الذي أعدّه معلّمه منذ قليل، وجلس قبالته على كرسي صغير.

«كما لو أن يد الملاك قد قادتك إليّ»، قال سيراني وهو يتمعّن وجه حميد، «إنه شيء لا يصدّق. استيقظت بعد أن نمت ساعتين واعتراني شعور بأنني يجب أن آتي إلى هنا. يكون هذا الشعور أحياناً بمثابة نذير حدوث كارثة. عندما جئت، رأيت دفترك على طاولة مكتبي. فتحته وماذا رأيت؟ تماماً ما كنت قد كتبته أنا سرّاً منذ عشرين سنة. قرأت خمسين صفحة من دفترك مرتين، وقارنتها بما قلته أنا. هذا هو دفتر ملاحظاتي. إذا أحببت أن تقرأه، لأنك لم تعد تلميذي وإنما زميلي الشاب»، وأخرج من درج مكتبه دفتراً كبيراً، لكنه أرقّ قليلاً، كلّ صفحة فيه مسطّرة بخط اليد مكتوب فيها بخط جميل. تصفّحه حميد. كان متحمساً إلى درجة أنه لم يكد يستطيع أن يقرأ شيئاً.

«يتطابق دفتر كلّ منا من حيث النقاط الجيدة والسيئة. لقد وجدت نفس الأخطاء التي ارتكبتها أنا في دفترك أيضاً».

«ما نوع الأخطاء؟» سأله حميد وقد جفّ حلقه.

«الرغبة في تقليص عدد حروف الأبجدية - ما أسميته أنا الأبجدية النقية وما أسميته أنت الأبجدية الفعالة. أردت أنت أن تزيل اثنَي عشر حرفاً، وكنت أريد أن أزيل أربعة عشر حرفاً. أرى اليوم - لعل تقدّمي في السن هو الذي يتكلم - أن هذا ليس تطويراً وإنما عمل تخريبي».

«تخريبي؟» استيقظ حميد تماماً الآن، «وماذا عن كلّ ازدواجية بعض الحروف، والحرف الزائد **لا** المكوّن من حرفين منفصلين الموجودين في الأبجدية المكتوبة معاً على أنهما علامة واحدة؟»

«لا أريد أن أحبطك. فقد أضاف الرسول الحرف **لا** إلى الأبجدية، لذلك فإنه سيبقى حتى نهاية العالم. إذا قبلت نصيحتي، فلا تنبذ حرفاً واحداً، لأنك لو فعلت ذلك، لوقف العالم الإسلامي كلّه ضدك لأن هذه الحروف موجودة في القرآن. في اللغة العربية تسعة وعشرون حرفاً فقط، وإذا أزلت منها بعض الحروف، فإن اللغة ستصبح مبهمة وغير دقيقة. لكن لا يوجد شيء يمكنك أن تخجل منه. هذا هو الاقتراح الثالث الذي دوّنته في دفتري. في ذلك الوقت، كنت متشدداً أكثر منك. كنت أراهن على أنه يمكن جعل اللغة العربية خمسة عشر حرفاً فقط، لكنّي أضحك على هذه الفكرة الآن. هل تعرف شيئاً باللغة الإنكليزية؟»

هزّ حميد رأسه نافياً. فقد كانت اللغة الأوروبية الوحيدة التي تعلّمها في المدرسة هي قليل من اللغة الفرنسية.

«تحتوي اللغة الإنكليزية على حروف عديدة تظهر في كلمة

مكتوبة لكنها لا تُلفظ. وتختفي حروف أخرى من الفم عندما يلتقي حرفان منهما في كلمة، مثل gh في كلمة night (ليل) و light (نور). شيء مبهج، ألا تظن ذلك؟ حرفان يقبعان بجانب بعضهما بهدوء ويراقبان الحروف الأخرى. يُلبس بعضها الآخر أحياناً قناع حروف أخرى، إما منفردة أو مزدوجة. ففي غالب الأحيان، يحبّ حرف الـ O أن يموّه نفسه ويختفي حلف حرف U. بالصدفة، أحصى صديق لي أكثر من سبعين طريقة مختلفة في كتابة الحروف التي تعطيك حرف U بالإنكليزية. ولا يفتقر حرف I إلى أشكال مختلفة. وهناك أيضاً حروف مثل C وH التي عندما تُدمج مع بعضها فإنها تنتج حرفاً جديداً غير موجود في الأبجدية الإنكليزية يلفظ كحرف ش العربي. هذا يغني اللغة. اللغة الإنكليزية الذكية لا ترمي أبداً أي حرف، وإنما تجمع أحياناً بين عدة حروف لتشكل حرفاً جديداً. إنها تحتفظ بكل شيء حتى تتمكن من قراءة نصوص من الماضي أو في المستقبل. إن الرغبة في التخلّص من الحروف أيضاً هي من الخطايا التي ارتكبتها في شبابي...»

ابتسم سيراني محرجاً، ولوّح بيده كأنه يريد طرد أخطائه كذبابة مزعجة ويبعدها عنه. صبّ مزيداً من الشاي.

«يخفي الفرنسيون الحروف الثلاثة A و U و X عندما تلتقي وتلفظ كأنها حرف O»، قال حميد، باحثاً عن معرفته الضئيلة لمجاراة معلّمه.

قلّب سيراني دفتر حميد لفترة طويلة، وشرب كأس الشاي، ولم يقل شيئاً كأنه لم يسمعه.

«تماماً. لا يزيل أحد حرفاً أبداً»، قال أخيراً ، كما لو أنه يبحث عن حجة قاطعة طوال الوقت، «الذي تشكّل عبر آلاف السنين، لكن حتى أنه ليس لدى الفرنسيين والإنكليز قرآن يمنعهم، ما دمت تسمّي

نفسك مسلماً، فالقرآن كلام اللّه. لذلك، كن حذراً يا بني، لأن الأمور تصبح في هذه النقطة خطيرة. لقد فعلوا ذلك في الماضي، ويفعلونه الآن. يجب أن يكون المرء حذراً من المتشددين. لم يعانِ منه فقط معلمنا الكبير ابن مقلة، بل مئات العباقرة. لقد دفع أحد زملائي حياته ثمناً لذلك عندما أراد أن يقلّد الأتراك واقترح إلغاء الحروف العربية وإدخال الأبجدية اللاتينية محلها. لم ينصت إلى ما قلته له». ارتسمت مسحة حزن على وجه سيراني، وأضاف بهدوء، «لا، يجب إعداد مثل هذا الشيء سرّاً لفترة طويلة، ويجب أن يكسب المرء إلى جانبه عدداً كبيراً من العلماء ورجال الدين الذين يمكنهم أن يدافعوا لاحقاً عن الإصلاح الحذر علناً بكل قوة سلطتهم. لا يمكن عمل شيء من دونهم».

فأجابه حميد، «لكنهم لن يوافقوا أبداً على ثورة كهذه».

«ومن يتحدّث عن ثورة؟ لن يتم قلب أي شيء. كل ما في الأمر أن الأبجدية ستتوسع لتصبح اللغة العربية أكثر اللغات جمالاً وكفاءة في العالم. لذلك، فإني أستحسن اقتراحك الثاني: فقد كتبت أن أبجديتنا تحتاج إلى أربعة - وأنا أقول إلى ستة - حروف جديدة لكي تستطيع أن تعطي تعبيراً مثالياً للغات التركية والفارسية واليابانية والصينية وجميع اللغات المكتوبة بالأبجدية اللاتينية. لن يلمس أحد القرآن ولغته فهما قدس الأقداس، لكن كتابة لغة حديثة تزداد أهمية لتكفي أسلوب ومتطلبات حياتنا الحديثة من علوم واقتصاد وفلسفة وعلم نفس. لذلك فأنت تسير على الطريق الصحيح، وستكون فكرة ابتكار أشكال جديدة للحروف جيدة كي لا يحدث أي تشويش بعد الآن، لكن لا يمكن عمل ذلك في يوم واحد. يحتاج الأمر إلى قرن من الدراسة المتأنية حتى يتبلور أفضل شكل للحروف».

«لنفترض أن رجال الدين قالوا إن هذا يتعارض مع الإسلام لأن

اللغة العربية مقدسة ولا يمكنها أن تحتوي على حروف غير موجودة في القرآن؟»

«سيقولون ذلك في جميع الأحوال، لكن يمكنك أن تُسكتهم بتذكيرهم بأنه أُدخلت إصلاحات على اللغة العربية مرتين أو ثلاث مرات. فالحروف والكلمات المستخدمة في كتابة النسخ الأولى من القرآن مختلفة عنها حالياً. مثلاً لم تكن منقّطة، وجرى إصلاحها عدة مرات على مدى ألف سنة قبل أن تتخذ الشكل الذي نراه اليوم. ويمكنك أيضاً أن تشير إلى أن اللغة الفارسية مكتوبة بأحرف أبجدية عربية مكوّنة من اثنين وثلاثين حرفاً، واسألهم إن كان ذلك قد جعل الإيرانيين أقل تديّناً من المسلمين الآخرين وأسوأ منهم».

نهض سيراني وتوجّه إلى النافذة. راح يراقب عمال النظافة وهم ينظفون الشوارع في هذه الساعة المبكرة لفترة من الوقت، ثم قال: «لعل ما سأقوله سوف يسيء إليك، لذلك عدني بألّا تقول شيئاً طوال يوم قبل أن تجيبني. أعرف مقدار المتاعب التي تواجهها، وأنت أقرب إليّ من ابني الوحيد الذي لا يريد أن يعرف شيئاً عن الخط. لكنك تمتلك شيئاً لم أمتلكه من قبل. إن موهبتك الإلهية جعلتك فخوراً بنفسك. إن كبرياءك سيقودك إلى الغطرسة. لكن الخط فن التواضع. الرجل ذو القلب المتواضع وحده يستطيع أن يفتح آخر أبواب أسراره. الغطرسة صفة خبيثة، لا تلاحظ تأثيرها، لكنها ستقودك إلى أزقة مسدودة».

التقط حميد أنفاسه. كان على وشك أن يبكي. فجأة أحسّ بيد سيراني الصغيرة على كتفه. أجفل لأنه لم يسمع وقع خطوات معلّمه تقترب.

«خذ دفتري هذا واقرأه اليوم. أعطيك إجازة من العمل اليوم. اقرأه. سترى أنني أمضيت أكثر من عشرين عاماً وأنا أحاول أن أبتكر

أسلوباً جديداً واحداً فقط، لكني لم أنجح، لا لأنني لا أمتلك مخيّلة، وإنما لأن العثمانيين القدامى لم يتركوا لنا شيئاً. وماذا عنك؟ كتبت أنك استنبطت سبعة أنماط جديدة طوّرت ثلاثة منها بالكامل. لكن دعنا ننظر إليها عن كثب. يبدو النمط الذي تسميه *مرجانة* كأنه نسخة سكرانة من خط *الثلث*. إن شكل *الهرم* الذي رسمته يختزل بالقوة جميع الحروف ويجعلها في شكل مثلث. لا يوجد لنمط *مخيّلة* هيكل، وما تسمّيه أسلوب حديث رقم ١ يشبه حبلاً قُطِّع إلى قطع صغيرة. لا توجد موسيقى داخلية في الحروف. أسلوب *سليم* ليس أنيقاً. وأخيراً، الأسلوب الذي منحته اسمي بدافع صداقتك لي، يبدو غريباً عليَّ. يجب على الخطاط ألّا يستنبط أشياء كثيرة حديثة. وإذا ركّزت على ابتكار واحد، بأسلوب واحد، فإنك ستدرك مدى صعوبة الابتكار الأصلي، وإذا نجحت في ذلك، فإنه سيخلّدك».

بدأ حميد يبكي بصمت. بدأ يبكي لأنه كان غاضباً من نفسه وخاب أمله في معلّمه. كانت هناك أشياء كثيرة يريد أن يقولها، لكنه أمسك لسانه طوال اليوم. بعد ذلك أدرك أن معلّمه محقّ، وشعر بالامتنان له على نصيحته له بأن يصمت ليوم واحد، لأنه سيفقد معلّمه سيراني إلى الأبد لو أفضى له بما يفكّر فيه على الفور.

بعد شهر، بينما كان حميد على وشك أن يغادر، طلب منه سيراني أن يبقى قليلاً. أغلق باب المحترف وأعدّ الشاي وجلس.

لم يقل شيئاً لفترة طويلة.

ثم قال: «منذ اللحظة الأولى، كما قلت لك سابقاً، كنتَ الابن الذي طالما رغبته. فقد أتيت إليّ قبل تسع سنوات، وأصبحت اليوم رئيس الورشة ويدي اليمنى، لا بل أكثر من ذلك. الحرفيون الآخرون زملاء جيدون ومساعدون مجتهدون، لكن النار لم تشتعل في قلوبهم.

أريد أن أمنحك اليوم لقب معلّم. لقد جرت العادة أن يكتب الرجل المختار لهذا التميّز شهادته الخاصة، كآخر عمل له لمعلّمه، إذا جاز التعبير. الجزء المعتمد الوحيد فيها هو هذا النص الرسمي الذي يجب أن يكون في الوسط تقريباً، وإلا فأنت حرّ في تصميمها واختيار الصيغة التي تريد. يمكنك اقتباس شيءٍ من أحاديث الرسول، أو آيات قرآنية، أو كلمات تعبّر عن حكمة تهمك وتُدمجها كلها في الشهادة. ألقِ نظرة على مجموعة الشهادات الموجودة في هذا المجلد قبل أن تصمم شهادتك».

أعطاه سيراني قطعة ورق صغيرة كُتب فيها أن المعلّم سيراني منح حميد فارسي هذه الشهادة لأنه يلبي جميع المتطلبات اللازمة للحصول على شهادة معلّم في الخط. «جهّز الشهادة على مهل، وأحضِرها لي كي أوقّع عليها في بداية الشهر القادم. وعندما أوقّعها، خذها معك إلى البيت، فأنت لا تزال صغيراً جداً، وقد يؤذيك حسد الآخرين. لذلك، لتكن سرّاً بيننا».

شعر حميد في تلك اللحظة أنه أسعد رجل على وجه الأرض. أخذ يد معلّمه وقبّلها.

«بحق السماء، ما الذي جرى لك؟» تعجّب المعلّم من تصرّف تلميذه المفضّل وقال له مازحاً، «حتى عندما كنت صبياً صغيراً لم تقبّل يدي قط».

فقال له حميد وبدأت دموع الفرح تسيل على خدّيه فجأة: «لأنني كنت غبياً ولم أفهم حقيقة من أنت».

عندما أنهى كتابة الشهادة بعد شهر، أحضرها إلى المحترف ملفوفة في وشاح كبير، وأخفاها في درج طاولته إلى أن انصرف جميع المساعدين إلى بيوتهم.

«يمكنك أن تعدّ الشاي اليوم»، قال سيراني وواصل عمله حتى أحضر له حميد الشاي السيلاني المعطّر.

ثم تفحّص الشهادة بارتياح واضح، وقال مازحاً: «يا إلهي، هل يمكنك أن تصمم لي شهادة مثلها أيضاً؟»

«شهادتك جوهرة سماوية»، أجاب حميد، «هذه مقارنة بها ليست إلّا ذرة تراب».

«أنا أحد مخلوقات الأرض، لذلك أحب التراب. الغريب في الأمر أن جميع الأقوال التي اخترتها تتعلق بالتغيير. أثناء وقت فراغي، كما يمكنك أن تقرأ في شهادتي، لم أكتب سوى شكر ومزيد من الشكر. كنت ساذجاً بعض الشيء في ذلك الوقت، ولم أفكّر في شيء إلّا بشعوري بالامتنان».

وقّع سيراني الشهادة وكتب الكلمات التالية: «سالم سيراني، العبد الفقير للّه، يمنح ويؤكد لقب معلّم».

ثم قال: «الآن، اجلس معي اليوم باعتبارك كبير الخطاطين لأول مرة. يوجد شيء شديد الأهمية يجب أن أثقل كاهلك به».

وبدأ معلّمه يحدّثه عن جمعية الحكماء السرية، وفردوس الجهل، ومطهر لأشباه الحكماء، وجحيم الحكماء.

بعد أسبوع قُبل رسمياً في الجمعية.

تصفّح دفتره ووجد الصفحات التي كتبها، مثل جميع أعضاء الجمعية، بخطّ «السياقت» أو «السِياقة» السري الذي استنبطه خطاطون عثمانيون.

تذكّر حميد الاجتماعات الأولى التي حضرها. فُتن بالمعرفة الموسوعية لدى الرجال الذين التقى بهم، لكنهم بدوا له غير مبالين بعض الشيء وكان معظمهم متقدمين في السن. كرروا دائماً العبارات

العاطفية التي سمعها من معلمه سيراني: «هذا العالم جحيم للحكماء، ومطهر لأشباه الحكماء، وفردوس للجهلاء». عندما سألهم حميد عن مصدر هذه الجملة ادعوا أن ابن مقلة هو الذي قالها. هنا في مجلس الحكماء، لجنة الجمعية، لم يلاحظ شيئاً يذكّر بالجحيم، فقد كان جميع السادة ميسوري الحال، وكثير منهم متزوجون من زوجات أصغر منهم سنّاً، يلقون ظلالاً مستديرة محترمة لجسدهم المنعم برفاهية الوجبات الدسمة الدمشقية.

فهم سبب التعهد بالصمت، لأنه منذ تأسيس الجمعية، كان الخطر القاتل ينتظر جميع أعضائها، لذلك كان عليهم أن يبذلوا كلّ ما في وسعهم لحماية أنفسهم من أن يُقتلوا.

كانت تحيتهم تتألف من رمز يساعدهم على التعرّف على الخطاطين الأجانب. كان هذا طقساً من الماضي، ولم يعد له أهمية الآن في الحياة المعاصرة، لأن فروع الجمعية محصورة دائماً في بلد واحد، وعدد الأعضاء محدود. لذلك كانوا جميعاً يعرفون بعضهم، وكانوا على تواصل مع الأعضاء في المدن أخرى، قدموا دائماً رسائل توصية للخطاطين عندما أرادوا زيارة مدينة أخرى.

عندما علم حميد بخط *السياقت* السري الذي طوّره الخطاطون للسلطان العثماني، كان مفتوناً جداً به إلى درجة أنه كتب صفحات في مذكراته به عنه. في عهد السلاطين، بدا خطّ *السياقت* أشبه بسلسلة من الحروف العربية المختصرة، وكانت شديدة التعقيد بالنسبة لتلك الفترة. وقد دُوّنت جميع تقارير السلطان الهامة، خاصة المالية، إذ استبدلت الأرقام بحروف (مثلاً ١=ل، ٤=عر، ٩=لعا)، بهذا الخطّ تأملوا حمايتها من أعين الفضوليين، لكن كان بإمكان أي خطاط موهوب أن يرفع عنها حجاب السرية.

بعد أربع سنين وافق مجلس الحكماء على اقتراح حميد بالتخلّي

عن خطّ السياقت لأن هذا الخط السري زاد التواصل بين الأصدقاء صعوبة وتعقيداً لا لزوم له لكن ذلك لم يمنع من قدرة بعض الأعداء المحتملين المتمرسين على فك طلاسم هذا الخطّ.

في ذلك الوقت، شعر بالارتياح من موجة الحماسة التي وجدها، وأدرك أنه في وضع يمكّنه من إدخال تغييرات عديدة. لكنه سرعان ما شعر برياح باردة تهبّ. فقد رُفض اقتراحه لاستغلال الإحساس العام بأن البلد كان قد بدأ بداية جديدة لجعل الإصلاح الجذري للخط موضوعاً للنقاش العام. وقال آخرون إن الوقت لم يحن بعد وقد يعرّض الجمعية للخطر.

عندما أجرى وزير الثقافة بعض الإصلاحات الجذرية في وقت لاحق، ابتهج أعضاء الجمعية السرية، لكن لم يتذكّر أحد أن حميد فارسي هو الذي قدّم هذه الاقتراحات قبل أن يقترحها الوزير بفترة طويلة. ولم يقل له أي منهم كلمة اعتذار واحدة.

قرأ الآن ما كان قد كتبه آنذاك بغضب، «لا يسمح نظام العشيرة العربية لأحد أن يعترف بأخطائه، لكن الحضارة ليست أكثر من مجموع كلّ الأخطاء التي صُححت».

هزّ رأسه وقال هامساً: «إن مجلسهم ليس مجلس الحكماء، وإنما مجلس قطيع غنم». وعارضوا كذلك كل اقتراحاته التالية، حتى أنه لم يُتخذ قرار واحد لصالح أفكاره خلال عشر سنوات ما عدا إنشاء مدرسة الخطّ.

«كلّهم يشعرون بالحسد»، همس حاقداً وأغلق الدفتر السميك في زنزانته. راوده في تلك الثانية حسد لا مثيل له وهو يتصور أعضاء الرابطة وهم يتمتعون بالأكل والشرب والجنس مع زوجاتهم.

في الجمعية كانوا يبتسمون فقط بشفقة على نمطَي الخطّ الذي طوّره على مرّ السنين. ودافع حميد عن ابتكاراته وكتب رسالة مشتركة

لجميع الأعضاء وقدّم النمطين الجديدين. كان الخطّ *الدمشقي*، أنيقاً جداً، مفتوحاً لكن له علاقة كبيرة بهندسة الدائرة. أما الخط *الشاب* فكان رفيعاً جداً وسلساً وخالياً من أي تنميق يتحرك بحيوية وحدة مليئاً بالطاقة. كان يفضّل الخطوط المائلة على الخطوط العمودية. طلب منهم أن ينتقدوه آملاً أن يحظى بالتشجيع والثناء، لكنه لم يتلق رداً واحداً على رسالته.

في الأيام التي تلت، بدأ طعم عزلته يزداد مرارة.

9

أغلق حميد دفتر الملاحظات وأعاده إلى الصندوق ودفعه تحت سريره. نهض واقفاً، وتوجه إلى الجدار المقابل، وراح يتأمل لوحة الخطّ المعلقة عليه. جملة «*إن اللّه جميل ويحبّ الجمال*» مكتوبة بخط الثلث بلون ذهبي على خلفية زرقاء داكنة، ومؤرخة في عام ١٢٦٧. لم يكن حجم اللوحة يزيد على حجم كفّ يده، لكنها فريدة من نوعها ولا تقدّر قيمتها بثمن. كان قد أرسل أحداً، خفية، ليحضر هذه الدرّة الثمينة مع سبع لوحات خط أخرى من محترفه إلى السجن. لم يعلم أحد أن هذه اللوحة الصغيرة تخفي وراءها سراً: وثيقة تثبت عضويته في جمعية الحكماء السرّية وتعيينه رئيساً لها بعد ذلك بعامين، منحها له معلّمه في حفل سرّي أقامته الجمعية. في أيامه، تلقى سيراني هذه الوثيقة من معلّمه الشريف الذي تلقاها بدوره من معلّمه السباعي، وقد أُخفيت قائمة الأشخاص الذين تبوّأوا رئاسة الجمعية في إطار الصورة التي تعود إلى عام ١٢٦٧ وهي دليل على أن الجمعية موجودة منذ أيام المعلّم الكبير ياقوت المستعصمي الذي أسس جمعية الخطاطين السرّية والذي يصف نفسه في الوثيقة بأنه تلميذ متواضع لأستاذ جميع الأساتذة، ابن مقلة.

كانت الجمعية السرية في القرن العشرين لا تزال تهدف إلى أن تظلّ وفية لأفكار مؤسسها. في ذلك الوقت، أُرسل اثنا عشر طالباً

من أفضل طلابه وأنصاره المخلصين له إلى اثنتي عشرة منطقة كانت تُعرف في ذلك الحين بالإمبراطورية العربية العظيمة التي تمتد من الصين إلى إسبانيا. وكان مقر أستاذ جميع الأساتذة آنذاك في بغداد، ثم نُقل إلى إسطنبول وظلّ فيها مدة أربعمئة سنة. وبعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، والقرار الذي اتخذه مؤسس جمهورية تركيا الحديثة، مصطفى كمال أتاتورك، بكتابة اللغة التركية بالأبجدية اللاتينية بعد عام ١٩٢٨، اندلع شجار مرير بين الأساتذة في دمشق وبغداد والقاهرة، إذ أراد كلّ منهم أن يكون مقر الجمعية في مدينته، ولم يحسم الأمر حتى نصف قرن آخر، لكن مبادئ المنظمة ظلت كما هي. ففي كلّ بلد عربي، بحسب حجمه، انتُخب أستاذ أعظم في مجلس الحكماء وثلاثة أو ستة أو اثنا عشر معلّماً آخر، يترأسون دوائر صغيرة من الخطاطين يُعرفون باسم «المبادرون». وعلى كلّ واحد منهم أن يمارس تأثيره على دائرة من الأشخاص الآخرين الذين يعرفون في الجمعية باسم «أنصاف حكماء».

لم يُعلن أو تعمل الجمعية بشكل علني، وإنما كانت تعمل سرّاً من خلال دائرة المبادرين وشبه الحكماء لإزالة نقاط الضعف في اللغة العربية وحروفها حتى تصبح جديرة بأن تُسمّى لغة مقدسة ذات يوم. وقد فقد عدد من المعلّمين حياتهم بسبب الخيانة، ووضعت كلمة «شهيد» بجانب اسم كلّ واحد منهم.

تذكّر حميد اللحظة التي ركع فيها أمام معلّمه. وقف سيراني أمامه، ووضع يده اليسرى على رأسه. ووضع سبابة يده اليمنى بشكل عمودي على شفتيْ حميد، وقال: «أنا معلّمك وحاميك، آمرك بأن تكرر في قلبك أنك ستمضي حياتك في خدمة الحرف، ولن تشي بالسرّ أبداً».

مذهولاً، هزّ حميد رأسه.

كان عليه هو ومعلّمه أن يصلّيا معاً صلاة الشكر، ثم قاده سيراني إلى طاولة عليها رغيف خبز صغير وطبق فيه ملح. تناول الأستاذ العظيم معه الخبز والملح. ثم أخرج الخاتم الذهبي الصغير ووضعه في إصبع يد حميد اليسرى، وقال له بصوت خفيض: «أربط قلبك بهذا الخاتم بهدفنا الذي منحنا إياه المعلم العظيم ابن مقلة»، ثم التفت سيراني إلى مجلس الحكماء واستأذنهم مودعاً، واعداً إياهم بأن يلتزم دائماً بأهداف الجمعية وأن يقف إلى جانب حميد الأستاذ العظيم الجديد.

اقترب السادة الاثنا عشر من حميد، وقبّلوا الخاتم وعانقوه، وهمس كلّ منهم، «معلمي العظيم».

بعد بضعة أيام، قال له سيراني عندما غادر الجميع المحترف، «أنا رجل عجوز ومرهق، وسعيد لأنني وجدتك لترأس الجمعية. إنه أعظم إنجاز حققته في حياتي. كنت أشعر بنفس اللهب في قلبي الذي شعرت به مثلك عندما كنت شاباً، لكنّي بدأت أشعر على نحو متزايد برماد السنوات يخنق جمراته. لم يبق في جعبتي الكثير. لعل أهم شيء هو أنني أدخلت بعض التحسينات الصغيرة على أسلوب خط *التعليق*، لكن خلال ثلاثين سنة ضاعفتُ دائرة المبادرين في هذا البلد، وضاعفت دائرة نصف الحكماء ثلاث مرات، والآن يجب أن تثقّف وتشجّع وترشد هاتين الدرجتين بين الأساتذة والعدد الكبير من الجهلة، وترسل المبادرين مراراً وتكراراً ليتمكّنوا من تنوير الناس والدفاع عن قضية الخطّ العربي ضد أبناء الظلام الذين يطلقون على أنفسهم اسم *الأنقياء*.

لقد أصبحت المعلم الأكبر الآن، وقد منحك اللّه ثروة من الموهبة لتشغل هذا المنصب. إن مركزك يحتّم عليك، وأنت في سن الشباب، أن تحبّ الأساتذة الاثني عشر وتحميهم كأنهم أطفالك.

يجب أن تحافظ دائماً على التوازن بين أمن الصمت وضرورة الحركة. يجب ألّا تتدخل عندما يقوم واحد من أنصاف الحكماء بتنوير الجهلة ليكسب واحداً منهم ويضمّه إلى عضوية دائرته، لأنهم لا يعرفون ما الذي يمكن أن يضرّ الجمعية، ويمكن استبعادهم بسهولة مرة أخرى إذا أساءوا إلى مبادئنا. لكن عليك أن تحكم فيما إذا كان من الممكن ترقية نصف حكيم إلى مرتبة مبادر أم لا. ويجب أن تكون أكثر حرصاً عند اختيار خليفة في مجلس الحكماء لعضو سلبه الموت منا. لا تدع شهرة الأستاذ تُبهرك عندما تتخذ قرارك، فأنت رئيس الجمعية، وستؤدي في نهاية الأمر قسم الولاء للمبادرين والمعلمين، وبذلك تعرّض نفسك للخطر.

يمكنك أن تحصل على مشورتي في السنوات الخمس القادمة، فأنا أعرف كلّ الأساتذة وجميع المبادرين شخصياً، ثم ستعرفهم أنت.

لقد تعبت. بدأت ألاحظ ذلك منذ فترة، لكن كبريائي لم يسمح لي بأن أقرّ بذلك. لكن عندما أراك، أعرف ماذا تعني النار والشغف. لذلك، فإني أسلمك الراية عن طيب خاطر. ومن الآن فصاعداً، فأنا لست سوى أسد عجوز بلا أسنان».

لم يكن سيراني قد بلغ الخمسين من عمره بعد، لكنه بدا مرهقاً كأنه خارج لتوّه من معركة.

في تلك الليلة جلسا معاً لمدة طويلة. عندما ودّع أحدهما الآخر، قال له المعلّم سيراني مبتسماً، «اعتباراً من صباح الغد، يجب أن تبدأ تبحث عن تلميذ معلّم. عليك أن تبدأ ذلك في وقت مبكر جداً فقد تحتاج إلى وقت طويل حتى تعثر عليه. لقد استغرقتُ عشرين سنة حتى وجدتك، وهل تعرف ما هو العامل الحاسم؟ أسئلتك، شكوكك. لا يمكن لأحد أن يتعلّم أكثر من الأسئلة التي

سألتني إياها. فقد كانت الحروف ولا تزال متاحة لجميع الطلاب، لكن أنت الوحيد الذي طرح أسئلة عن محتواها»، وقال بقوة، «لا تبحث بين تلاميذك عن الشخص الذي تحبّه كثيراً كرفيق لك للطفه وكرمه وجماله، وإنما ابحث عن الشخص الذي يتأهل للقيام بدور المعلّم الحقيقي، مهما كنت تكرهه، لأنك لن تتزوجه، فقط أكّد قبوله في جمعيتنا».

فسأله حميد، «أيها المعلّم، كيف يمكنني أن أعرف من الذي سيكون أفضل خليفة لي إذا لم تكن لدى العديد من الرجال نار في قلوبهم فحسب، وإنما يتمتعون أيضاً بنفس القدر من الكفاءة في فن الخط؟»

فأجابه سيراني بابتسامة لطيفة: «سيكون هو الشخص الذي ستبدأ في حسده، الشخص الذي ترى أنه أفضل منك في سريرتك».

«تقصد أنني. . . لا، لا». لم يجرؤ حميد على أن يكمل هذه الجملة حتى نهايتها.

«نعم، نعم، أنت أفضل مني»، قال سيراني وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة لطيفة، «الحِرَفي محمود هو أكثر الأشخاص الذي يمكن أن يُحبّ بمئة مرة أكثر منك، وحسن بعشر مرات، لكنك تعرفهما. حسن لا يجيد الكتابة بالخط الديواني، ومحمود لا يجيد الكتابة بخط الثلث، ولا يطيق أي منهما الهندسة. كما لو أن عالم رياضيات يدعي أنه لا يحب الجبر»، وأضاف، «وماذا عنك؟ إنك تكتب الحروف متبعاً قطراً غير مرئي لدائرة حتى أقرب مِليمتر. في إحدى المرات، أعطيت كلاً من محمود وحسن مسطرة وطلبت منهما أن يرياني حرفاً واحداً في قصيدة كتبتها أنت بالخط الديواني انحرفت أكثر من ملليمتر واحد عن خطها. كانا يعرفان جيداً كما أعرف أنك لا تستخدم مسطرة، ولا ترسم الدوائر بقلم رصاص قبل أن تثبت فيها

الحروف. عادا إليّ بعد ساعة وقد شحب وجهاهما، عيونهما مطرقة إلى الأرض».

ضمّت قائمة الخطاطين المخفيّة وراء الصورة أسماء أساطين الخط العرب والفرس، ومن القرن السادس عشر فصاعداً، قبل كل شيء، أسماء الأساتذة العثمانيين الذين أوصلوا الخط العربي إلى أرقى مستوياته. وحميد هو ثالث معلّم سوري منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية.

أمضى حميد عقداً من الزمن وهو يبحث عن خليفة له، لكن لم يجد بين زملائه أو الحرفيين أكثر من خطاطين عاديين.

لكن قبل أن تهرب زوجته بشهر واحد، لفت معلّم عجوز انتباهه إلى علي بركة، الخطاط البارع من مدينة حلب الذي يتمتع بيد جريئة وكتابة مفعمة بموسيقى رائعة. أرسل حميد يطلب صوراً لخطّه، وعندما تفحّصها بدقة تيقّن أن علي بركة هو الرجل الذي سيخلفه، إذا كان لديه قلب معلّم يضاهي إنجازه الفني في التخطيط.

عندما تعرضت الجمعية لأزمة بعد تأسيس المدرسة، وقف علي بركة وراءه كالصخرة. وهذا دفع حميد لاتخاذ قراره لجعل الخطاط الشاب خليفته.

لكن الأحداث المأساوية التي جرت له منعته من أن يخبر بركة بذلك في الوقت المناسب. انتظر حميد في السجن حتى بداية كانون الثاني، عندما قال له مدير السجن إنه يريد أن ينفّذ له لوحة خط ضخمة ستُرسل هدية إلى مسجد جديد كبير في السعودية في الصيف من عائلة العظم، وأتاح له مدير السجن ورشة النجارة الكبيرة ليعمل فيها لتنفيذ اللوحة التي يبلغ طولها ثمانية أمتار، وأُحضر من لبنان

خشب الأرز الناعم والمتين الذي سيُكتب عليه. عمل ثلاثة نجارين معلمين تحت إشراف حميد وصنعوا سطحاً ضخماً، أملس مثل مرآة، مع إطار منحوت بشكل متقن.

تمنّى حميد أن يساعده هذا الخطاط الحلبي الذي نفّذ أعمالاً رائعة في مساجد عديدة في مدينته، وأرى مدير السجن بعض الصور عن أعماله، فتحمس مدير السجن، العظم، كثيراً.

كتب حميد رسالة إلى المعلّم بركة عليها ترويسة في شكل زخرفة معقدة لا يستطيع أن يقرأها إلّا معلّم. كان محتوى الرسالة دعوة رسمية مهذبة، لكن الزخرفة أخفت الرسالة السرّية التي تقول لبركة إن حميد فارسي يريد أن يمنحه الوثيقة ليصبح رئيس جمعية الحكماء السرية للخطاطين.

أرسل علي بركة رسالة ودية إلى مدير السجن، قال فيها إنه يشعر بالفخر ليخطط أقوالاً دينية مأثورة من أجل المسجد في ديار الإسلام المقدسة، وهو شرف لن يطلب لقاءه أجراً، وإنه يريد فقط مكاناً متواضعاً يمضي فيه الليل ووجبة طعام واحدة في اليوم أثناء عمله.

وكتب أنه يأمل بأن يتفهم مدير السجن أنه لن يكون باستطاعته بدء العمل حتى شهر نيسان لأنه منهمك حالياً في العمل في مسجد في حلب سيفتتحه رئيس الجمهورية في نهاية آذار، وأنه يعمل حالياً من ١٢ إلى ١٤ ساعة يومياً، لكنه سيكرس شهر نيسان لهذه المهمة العظيمة في سجن دمشق.

سُرَّ مدير السجن، وطلب حميد إلى مكتبه وأطلعه على الرسالة. في الزخرفة المحيطة بها كإطار زخرفي، لا يستطيع أن يفك طلاسمها أي إنسان عادي، كتب المعلّم الحلبي إنه يتشرف بأن يحصل على أعظم جائزة في حياته، مع أنه بالمقارنة به، المعلّم الكبير حميد، لا يساوي شيئاً.

عندما تأكد حميد أن خليفته سيأتي إلى دمشق، أرسل الحارس إلى أخته سهام وطلب منها أن تأتي لزيارته على الفور. فوجئت سهام عندما وجدت حميد لا يزال يتمتع بسلطة حتى وهو خلف قضبان السجن.

شرح حميد طلبه على الفور، وقال: «إذا كان حسابي صحيحاً، فقد استوليتِ على مليون ليرة من ممتلكاتي. أحضري لي خمسين ألفاً منها إلى هنا، وسأسامحك على كلّ شيء، ولا تبيعي بيتي لأنني سأعيش فيه عندما أخرج من هنا. يمكنك أن تؤجريه، وسأكون سعيداً بذلك، لكن أحضري لي النقود. إني بحاجة إليها من أجل هدف نبيل. إذا لم أحصل على المبلغ خلال أسبوع، فإني سأطلب من محاميَّ استعادة كل ما أخذتِه مني. وتذكّري أنني سأخرج بعد فترة قصيرة. مدير السجن يقول بأنه سيصدر عفو عني بعد أن أمضي سبع سنوات. هل سمعت ما قلته لك؟ وما هي سبع سنوات؟ أحضري لي خمسين ألف ليرة وسأعتبر أننا متخالصان».

فقالت له سهام أخيراً بشكل مراوغ: «سأبذل كلّ ما بوسعي»، وغادرت.

بعد عشرة أيام، استدعى مدير السجن حميد إلى مكتبه مرة أخرى، وأعطاه كيساً كبيراً مليئاً بالخيزران والقصب الذين يحتاج إليهما كل خطاط لصنع أقلام للتخطيط.

كافأ حميد الحارس، وعندما أصبح وحده شقّ قعر الكيس وابتسم. «ابنة إبليس»، قال ضاحكاً. فقد أرسلت له سهام النقود، لكنها أرسلت أربعين ألف ليرة فقط. في جميع الأحوال، حتى هذا المبلغ كان يعتبر ثروة في ذلك الوقت.

وضع حميد خطة لكي يشكّل خليفته علي بركة فرقة عقاب سرّية ضد جماعة «الأنقياء»، ألدّ أعداء الجمعية، ومحاربتهم حتى الموت،

وقال هامساً: «ليس من الصواب أن ننتظر مثل خراف مطيعة حتى يقضوا علينا. يجب أن يتعلّموا أنه إزاء كل شخص يموت من بيننا، سيكون هناك قتيل بالمقابل في صفوفهم».

وأضاف في اليوم التالي اسمه وتاريخ ميلاده ١٩٢٩ إلى القائمة السرية لرؤساء الجمعية تحت اسم سيراني وأعادها الى مخبئها خلف اللوحة الصغيرة وقرر أن يسلمها لعلي بركة، وصار الآن أكثر ثقة بأن خطته ستثمر على يد خلفه.

لكن الرياح تجري أحياناً بما لا تشتهي السفن.

10

أرسل العظم، مدير السجن، حارساً ليُحضر حميد إلى مكتبه. استقبل حميد بمنتهى اللطف مثل جميع رجال الطبقة العليا الذين لم يستطع حميد أن يحلّ لغزهم قط. فقد كانوا يبتسمون طوال الوقت كالصينيين، حتى عندما يغرزون سكيناً في بطن عدوّهم أو عندما يضطرون إلى ابتلاع خيبة أمل مريرة. لم يكن بوسع حميد أن يفعل ذلك. وحذّره المعلّم سيراني في أحيان كثيرة بأنه يمكن قراءة أفكاره من مجرد النظر إلى وجهه كما لو كان كتاباً مكتوباً بأحرف بارزة.

التقى مراراً بأعضاء الدوائر الاجتماعية المرموقين باعتبارهم زبائن فقط. كان يعرف أن أولئك الرجال، سواء أكانوا يحملون لقب باشا أم لقب بيك، فإنهم لا يُبدون اهتماماً به، وإنما بفنّه فقط. يُبدون إعجابهم بالفن وليس بالفنان.

عندما كان حميد يلتقي بهم، لم يتصرف نحوهم باحترام وتواضع، وإنما كان فخوراً إلى درجة الكبرياء ليُظهر لهؤلاء الأشخاص الذين يرتدون الحرير أنه وصل إلى ما وصل إليه بجهده وليس مثلهم بالثروة التي ورثوها، وإذا لم يقبلوه واحداً منهم، فعليهم، على الأقل، أن يُظهروا له الحد الأدنى من الاحترام. وكان يعرف أن زعماء عشيرة العظم وهم من أفضل زبائنه، متحالفون منذ قرون مع حكام سوريا سواء أكانوا عثمانيين أم فرنسيين أم سوريين

ضد الناس العاديين، وليست العشائر الأخرى أفضل منهم. لذلك كانت ردة فعله في بعض الأحيان عدوانية عندما يبدي أحد هؤلاء الجهلاء الأغنياء ملاحظة عن عمله، ويقول له إنه يمتلك موهبة عظيمة، ويشعر بأن هذا ليس مديحاً إنما ثرثرة جاهل تحطّ من قدر عمله. فأن يُوصَف بأنه موهوب، فإن ذلك مديح يطري آذان الأطفال والهواة، وليس لأفضل خطاط في دمشق.

كالعادة، نهض مدير السجن، العظم، ودار حول مكتبه ليرحّب به.

«لوحة خطّ صغيرة لكنها جميلة أرجوها منك»، قال لحميد عندما أحضر أحد الحراس الشاي، «إذا أمكن باللونين الأخضر والذهبي. اللونان اللذان يحبّهما ابن عمي. علي بك من كبار المعجبين بفنك، إنه رئيس البرلمان، وسيخرج من المستشفى بعد بضعة أيام. إنه مصاب بقرحة في المعدة، أو يمكنك أن تسمّي مرضه سياسة. أنا أكره السياسة، لكنه أراد دائماً أن يصبح سياسياً. كنا نلعب عندما كنا أطفالاً دائماً معاً، خمّن ما الدور الذي كان يريد أن يقوم به دائماً؟»

هزّ حميد رأسه نافياً، لم تكن لديه فكرة عما يتحدّث عنه مدير السجن.

«طالما كان يرغب في أن يصبح رئيساً، لكن لا تكترث لكل ذلك الآن - إنه خبير كبير في فن الخطّ، ويتأسف دائماً لأنه لا يتوفر لديه الوقت ليرسم ويلوّن. إنه معجب بك كثيراً، ويرى، كما أرى، أن أكبر جريمة هي أن تبقى في السجن. كما قلت لك مؤخراً، فهو يزمع أن يحصل لك على عفو بعد سبع سنوات. كما تعلم فهو صهر الرئيس. لم يكن من المفترض أن أخبرك عن موضوع العفو. . .

الآن، أين كنت؟ أوه، نعم، إذا أمكن اكتب شيئاً يشبه صقراً أو نسراً لأن ابن عمي مغرم بالصيد بالباز».

زاغت عينا حميد. فهو يكره أسلوب الكتابة التي تشبه الأعشاب أو الحيوانات عندما تتحوّل الحروف إلى أشجار ومناظر طبيعية وأسود وطيور جارحة. كان يرى أن من السخف تشويه الحروف لتصبح صورة. يستطيع أي رسام أو مصوّر مبتدئ أن يصوّر صورة أفضل منها.

عندما لاحظ العظم تردد حميد، قال: «إنها مجرد فكرة، فأنا لا أفهم كثيراً في هذه الأمور. اكتب كما يحلو لك». تردد مدير السجن قليلاً وصبّ الشاي لحميد، وأضاف بهدوء، «وهناك شيء صغير آخر، عمتي، أمّ ابن عمي علي بك وشقيقة رئيس الوزراء العظم، تبرعت بمبلغ من المال لترميم مسجد عمر الصغير - هل حدّثتك عن عمّتي تلك؟»

لم يعرف حميد لماذا يحكي له مدير السجن كلّ هذه القصص، وهزّ رأسه.

«إنها تبلغ من العمر مئة وعشرة أعوام، ولا تزال تذهب إلى السوق كلّ يوم، تأخذ قيلولتها، وتشرب لتراً من النبيذ الأحمر مساء كلّ يوم، وقبل ستة أشهر، نمت لديها مجموعة ثانية من الأسنان اللبنية. لو لم أرها بنفسي لما صدّقت. أسنان صغيرة ناصعة البياض نمت في لثتها. لكن مهما كان الأمر - تقول الأسطورة إن صوفياً كبيراً حلم بأن عمر، الخليفة الثالث، أراد بناء مسجد في تلك الساحة الصغيرة بالقرب من شارع الحرير. في ذلك الوقت، في القرن الثامن عشر، كانت المنطقة «جِحر دعارة»»، ضحك مدير السجن وأخذ جرعة من الشاي، «ستوضع لوحة رخامية عند المدخل تخليداً لذكرى تبرّعها السخي، وستتشرف عائلتي لو قمت أنت

بتصميمها على الورق. لديَّ ثلاثة نحاتين هنا يمكنهم أن يحفروا الكلمات التي تكتبها على الرخام، يقضي اثنان منهم عقوبة السجن المؤبد، والثالث خمس سنوات».

عندما عاد إلى زنزانته، حكى له الحارس قبل وصوله للزنزانة أن لدى شقيقه ابناً يبلغ من العمر سبع سنوات، عندما وُلد كان الشعر يكسو جسمه وكان ناضجاً جنسياً. شعر حميد أنه في مستشفى مجانين. هزّ رأسه بينما كان الحارس يغلق باب زنزانته ثم ذهب وهو يسعل. استغرق حميد قليلاً من الوقت لينفض عن دماغه كلّ تلك الأوساخ.

عادت إليه الذكريات. كان في التاسعة والعشرين من عمره، في أوج شهرته ومكانته. كان يقيم في مكان غير بعيد عن محترفه الوزير هاشم عفري، صناعي ثري ومن كبار محبي فن الخطّ، في أحد أرقى المنازل في حيّ سوق ساروجة. كان يطلب في أحيان كثيرة من حميد لوحات، كبيرة وصغيرة.

في عام ١٩٤٩، أخذ الوزير عفري هدية إلى الملك فاروق، ملك مصر، لوحة بخطّ حميد فارسي عندما كان في زيارة رسمية إلى مصر. بعد شهر، جاء السفير المصري إلى محترف حميد وقال له، بتهذيب شديد، إن الملك لم يتحمس قط لعمل فني في الخط كما هو متحمس الآن - ما عدا، بطبيعة الحال، الأعمال التي نفّذها أساطين الخطّ العثمانيين القدامى، لكنهم بالطبع ماتوا، وهم يخططون الآن لربّ الأرباب.

«قد تُفاجأ عندما تسمع أن ملكنا خطاط شغوف، مثل أبيه وجدّه قبله، وهو يريد أن يشتري الأقلام التي قمت بتخطيط هذا العمل المبهر بها».

جفّت كلّ الألوان من وجه حميد. أصبح وجهه شاحباً من الغضب، لكنه سرعان ما تمالك نفسه.

«إذا كان جلالته خطاطاً، فهو يعرف أن الأقلام والسكاكين صغيرة لكنها أشياء مقدسة وليست للبيع».

فقال له السفير، «لا يوجد شيء لا يباع، خصوصاً لصاحب الجلالة. لا تجعلني أنا وأنت في وضع غير سعيد».

خطر لحميد فجأة أن ملك مصر صديق مقرّب جداً من الديكتاتور حسني هبلان الذي تسلّم السلطة في سوريا في شهر آذار بعد أول انقلاب في تاريخ البلاد العربية، والذي كان مقامراً وأمياً بدائياً لن يتورع عن أن يفكك محترفه كله ويشحنه إلى ملك مصر ليُسدي له معروفاً.

ما يثير الدهشة أن التهديد المبطّن لتصريحات السفير لم يكن أفضل بكثير من أسوأ مخاوف الخطاط. «إنها ليست للبيع، لكنّي سأهديها لجلالة الملك»، قال حميد يائساً، ونهض واقفاً وفتح الخزانة خلفه. جمع كل الأشياء ولفّها بقطعة قماش من اللباد الأحمر وأعطاها للرجل القصير الذي تحيط بعض الشعرات السوداء بصلعته الكبيرة. ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه السفير. وأُعجب من معرفة صديقه في وزارة الخارجية السورية الذي أشاد بقدرة حميد فارسي غير العادية على إعمال عقله.

وقال له: «سأُبلغ جلالة الملك شخصياً عن كرمك، لأنه بدافع الاحترام تجاهك أمرني أن أُحضر هذه الأدوات الخاصة بمهنة الخطاط التي لا تقدر بثمن إلى القاهرة بنفسي وسأستقل طائرة خاصة اليوم».

لم يحزن حميد فارسي على خسارته لمدة طويلة. فقد أمضى

يومين في قطع وتقسيم وشحذ مجموعة جديدة من أقلام القصب حتى أصبح راضياً عنها.

بعد شهر عاد السفير ليسلّم حميد رسالة شخصية من الملك، تضم أكبر عمل عُهد به إلى حميد فارسي مع سؤال: «لماذا لا تكتب هذه الأقلام خطاً جميلاً مثل خطك؟»

أمضى حميد فارسي أكثر من ثلاثة أشهر في العمل الذي عُهد إليه والذي منحه الملك لقاء ذلك مبلغاً مجزياً. كان ذلك لقاء لوحات ضخمة بخط الثلث لجدران القصر، وعندما أنهى عمله، كتب رسالة طويلة مرافقة تتضمن نصائح لخطاط مبتدئ قال في نهايتها: «جلالة الملك، كما تعلم أنت وسفيرك سعادة محمود سعدي بك، فقد أرسلت لك أفضل أقلامي، لكنّي لم أستطع ولا أستطيع أن أرسل لك اليد التي كتبَتْ بها».

يبدو أن الملك فاروق أعجب بهذه الرسالة أكثر من إعجابه بالخطّ الذي زيّن غرفة نومه. وكتب في مذكراته أنه لم يتمكن أحد قبل الآن من معرفة نوع القلم الذي كان يستخدمه من بعيد إلّا هذا السوري الذي نصحه بألّا يكتب بالأقلام الفولاذية التي أرسلت إليه من أوروبا.

لم يكتب حميد فارسي بقلم معدني إلّا نادراً. فقد كان يفضّل القصب أو الخيزران، ويقطع أقلام القصب ليستخدمها في كتابة كل لوحة مهما كان رفيعاً. توجد طرائق سرّية جداً لتحديد الفترة التي يُحصد فيها القصب، ومدة إبقائه مدفوناً في روث الخيل وبعض المكونات السرّية الأخرى لكي تحصل على أداة كتابة جيدة. كانت أفضل أنواع القصب تأتي من إيران.

«إن أقلام الفولاذ مصنوعة من معدن خام ميت، تكتب بشكل

جيد، لكن بطريقة خشنة وباردة»، كان المعلم سيراني يقول دائماً، «أما القصب فهو صلب ومرن مثل الحياة».

إن قصّ وتقسيم أقلامه من أكثر الأسرار التي يحتفظ بها جميع الخطاطين، ودأب حميد على القول: «إن الخطاط الذي يقطع القصبة بطريقة سيئة لا يمكنه أن يكتب خطاً جيداً». وعندما يقطع قصبته، يجب ألّا يكون هناك أحد قريباً منه، لا الحرفيون الذين يعملون معه، ولا الصبية الأجراء. فقد كان يدخل إلى حجرة صغيرة ويغلق على نفسه الباب، ويشعل الضوء، ويعمل بلا توقف حتى يقصّ أقلامه وينظّفها ويقسّمها.

خبأ سكينه في الخزانة مع الأقلام والدفاتر التي توّج فيها وصفاته لصنع الحبر، ولم يُسمح لأحد أن يلمسها، حتى لو تُركت ملقاة خارج الخزانة.

11

أُعجب مدير السجن، العظم، بالعبارة المكتوبة في اللوحة المعلّقة على جدار زنزانة حميد وقال إنه يريد أن يحصل عليها، فقال له حميد إنه يرغب في أن يحتفظ بهذه اللوحة التي أعطاها له معلّمه وسيّده المحبوب، وقال للعظم إنه سيكتب له لوحة مثلها، فقال له العظم: «إذاً اجعل حجمها ضعف حجم هذه اللوحة»، وابتسم وهو عائد إلى مكتبه لأنه لم تخطر بباله عبارة يمكن أن يهديها لعشيقته الشابة أجمل من «*إن اللّه جميل ويحبُ الجمال*». فقد كانت تسأله دائماً، «لماذا أحببتني من بين كلّ النساء؟» وقد وجد العبارة المناسبة الآن. وفي جميع الأحوال، فإن اللوحة المعلّقة على جدار زنزانة حميد مكسوة بالغبار وحوافها ممزقة، لذلك، يمكنه أن يقدم لها هذه العبارة في لوحة جديدة، ودخل إلى مكتبه مسروراً وفخوراً بذكائه ومكره.

أما حميد فقد انزعج كثيراً من طلب مدير السجن. فقد عقدت فكرة أن يتخلّى عن هذه اللوحة بالذات لسانه، وبعد فترة قصيرة كتب لوحة جديدة للعظم. لم يعرف حميد الخوف أمام ورقة بيضاء الذي يحكي عنه زملاؤه كثيراً، بل على العكس، تملكه دائماً قبل البداية شعور بالقوة والشجاعة. وكان هذا الشعور يهيئ له عادة أفضل لحظة للعمل، أول لمسة حبر أسود على سطح أبيض عديم الملامح. تجربة

كيف يعطي اللون الأسود شكلاً على اللون الأبيض. وهذه السعادة لا تشبه النشوة التي قد تنتاب من يسمع موسيقى أو يدخّن الأفيون، فذلك يُشعر المرء بأنه يحلّق في السماء ويحلم، وعلى العكس من ذلك، فإن نشوة الخط متعة خالصة وهو يقظ، يتدفق الجمال من يده إلى الورقة التي يضفي عليها حياة وشكلاً وموسيقى. عندما أنهى كتابة الكلمات، شعر بالإرهاق، ثم جاء العمل الشاق المتعلق بتظليل الحروف وخطوط الزخرفة، وإضافة الحركات تحت الحروف وفوقها لجعل قراءتها أسهل، وأخيراً زخرفة السطح المحيط باللوحة. كان كلّ ذلك يتطلب مهارة وصبراً كبيرين.

غمس قلمه في الحبر وكتب بحركة واحدة في أعلى الورقة، كلمة «اللّه». فلا يمكن أن تعلو أي كلمة في لوحاته على اسم اللّه.

عندما أنهى اللوحة بعد يومين، توجّه إلى الجدار ومسّد اللوحة القديمة، وهمس: «لقد أُنقذتِ».

«*إن اللّه جميل ويحبّ الجمال*»، قرأ حميد اللوحة وتراءت الصور أمام عينه. كانت زوجته الأولى مها جميلة، لكنها مريضة، مصابة بداء الغباء. هل أحبّها اللّه؟

تذكّر كيف بدأ كلّ شيء. فقد نصحه سيراني، من دون لفّ ودوران، وإنما بخجل شديد، أن يتزوج، لأنه لاحظ أن حميد تزوغ عيناه كلما سمع وقع خطوات امرأة. لم يفكّر حميد كثيراً في الزواج في ذلك الوقت، وإنما أحب أن يعيش حياة مستقلة، يرتاد المبغى مرة في الأسبوع، ويتناول طعامه غالباً في المطاعم، تُغسل ثيابه وتُكوى وتُصلح لقاء بضعة قروش في مغسلة عبد الرحمن القريبة من بيته. كل ذلك أتاح له أن يتفرّغ لعمله.

بعد مرور يوم على هذا الحديث الهام، وكما لو أن سوء الحظ قد أرسلها، جاءت عمّته ميادة إلى دمشق هرباً من قيظ الصيف

والعزلة التي تعيشها في السعودية. وقالت له على الفور إنها تعرف جوهرة بين النساء، فتاة خُلقت لتكون زوجة له. تساءل حميد كيف يمكن لامرأة تمضي تسعة شهور من السنة في صحراء السعودية أن تعرف الفتاة التي تناسبه وهذه تعيش في دمشق. وازدادت دهشته عندما ذكرت له اسم المرأة: مها، ابنة معلّمه سيراني الجميلة. لم يعرفها حميد آنذاك، لكن حماسة عمّته انتقلت إليه بالعدوى. فقد أُخذت ميادة بجمال مها الهادئ، ورتبت كلّ شيء بنفسها لأن والديه كانا قد فقدا اتصالهما بالجانب الدنيوي من الحياة.

كانت مها ابنة معلّمه سيراني الوحيدة، وبالطبع قال حميد في نفسه إن ذلك سيكون اختياراً رائعاً له. ومع أن معلّمه حثّه على الزواج، فقد اتسم جوابه الإيجابي بالتحفظ، لكن هذا هو أسلوبه. واكتشف حميد، بعد فوات الأوان، أن سيراني لا يعرف ابنته حق المعرفة، وإلّا لعرف أنها بعيدة تماماً عن حبّه وخطّه، فقد حكمت عليه حكماً قاسياً كما عرف حميد بعد زمن بأنها ترى أن والدها حليم حكيم في الشارع، وسمج ومستبد في البيت.

هل كان معلمه الحساس والمؤدب سيئاً إلى الدرجة التي صوّرته فيها؟ جميع القصص التي حكتها مها عنه ليست سوى قصص رعب. «كنت أحبُّ أن أكون قصبة تخطيط، لأن أبي كان يداعب أقلام القصب التي يكتب بها بحنان ويعتني بها كلّ يوم، لكنه لم يضمّني إلى صدره قط».

وعندما بدأ الشبه بين زوجها وأبيها يزداد وضوحاً، لم تعد تريد أن تعيش مع حميد أيضاً.

أصبح الآن كبير الخطاطين في محترف معلّمه، وأول خطاط منذ عقد من الزمن يحصل على شهادته من يد سيراني شخصياً. وقد آن الأوان الآن ليفتح محترفاً خاصاً به. لكنه لم يجرؤ على أن يخبر

معلّمه بذلك، خصوصاً بعد أن بدأ سيراني - الذي أصبح حماه الآن - يتحدث بصراحة عن اليوم الذي سيسلّمه المحترف ويتقاعد. وأضاف بابتسامة ساخرة، «عندما تبدأ يدي ترتعش، لنقل بعد عشرين أو ثلاثين سنة». كان هناك بالفعل خطاطون كبار لا يزالون يكتبون بخط دقيق وأنيق وقد بلغوا الخامسة والسبعين من عمرهم.

لذلك كان على حميد أن ينتظر بصبر حتى تحين فرصة جيدة ليُجرع معلّمه تلك الحبّة المرّة.

حان الوقت ليبحث عن الحبر الأسود المطلق. بعد زواجه مباشرة، بدأ يجرّب في مقصورة صغيرة في الجزء الخلفي من الورشة باستخدام جميع أنواع المواد. أحرقها وأذاب البقايا المتفحمة في الماء، ثم أضاف إليها أملاحاً مختلفة، ومعادن في شكل مسحوق وراتنجات، لكنه لم يتوصل قط إلى صنع حبر أسود أغمق من الحبر الذي يُستخدم حالياً.

كان سيراني قد أضاع عشر سنوات من عمره في البحث عن حبر أسود نقي. لم يشأ حميد أن يتفوق على معلّمه، وإنما أراد فقط أن يحلّ سر اللون الأسود ويجد أنقى شكل له. وامتناناً لمعلّمه، أراد أن يسمّي اللون «أسود سيراني». لكن على الرغم من جهوده الدؤوبة، كان يسأل الكميائيين والصيادلة وبائعي البهارات والتوابل والصيادلة والسحرة، لكن لم يتمكن أحد منهم من إعطائه الوصفة السرّية.

لم يتمكن من تقييم مدى قوته التي أهدرها في البحث عن اللون الأسود النقي إلّا عندما أصبح في السجن. كان هناك فصل كامل في دفتر ملاحظاته بعنوان «حبر»، وكتب تحته فيما بعد: «حبري أسود، لذلك لا تطلب مني قوس قزح».

«إن اللون الأسود هو أقوى لون. فهو يُطفئ جميع الألوان

الأخرى ويقتل الضوء. اللون الأسود شجاع كالعقل وبارد كالمنطق»، كتب بثقة وحماسة عندما أمضى شهوراً في قراءة كلّ ما يجب أن يعرفه عن صناعة الأحبار. لاحظ المعلّم سيراني شغفه ذاك بإعجاب شديد، ونظر الى تلميذه المفضل بدهشة عندما كان حميد في طريقه إلى بيته بعد العمل ووجهه ملطخ ببقع سوداء وكأنه عامل منجم فحم.

بحث بإصرار عن اللون الداكن للمخمل الأسود، وكان يحلم بالأسود المطلق للكون، فهناك، على مسافة بعيدة، توجد أكثر الظلال سواداً. اكتشف فجأة حبّه لليل، وتساءل لماذا تتملكه الشهوة للمرأة دائماً في الظلام. عندما قال لمعلمه إنه يظن أن هناك علاقة بين الليل وإله الحبّ (إيروس)، قال له سيراني من الأفضل أن يظل يفكّر ويعمل على حبره.

بدأ يجرّب أساليب معروفة، يضع بقايا عصير العنب وخشب البلوط وعظام وعاج ونوى الزيتون وأوراق السماق التي يستخدمها الدباغون وفحم الأنيلين في أوان مغلقة، ثم يقطعها إلى أجزاء صغيرة ويغليها بأملاح الحديد ونترات النحاس أو الفضة... لكنه لم يجد ما يصبو إليه. حاول أيضاً أن يستخرج درجات أخرى من اللون الأسود باستخدام الكحول والخل، لكن كلّ محاولاته أدت إلى بعض التحسينات الطفيفة، لكنه لم يحقق تقدّماً ملموساً.

وجد وصفات قديمة من اليونان وتركيا. إذ يمكن استخدام شمع العسل المتفحّم والسخام المنبعث من المصابيح والنفط في صنع الحبر، ومزجه براتينج مطحون، وغليه، وتركه منقوعاً لمدة أسبوع، ثم نخله وتكثيفه. اتبع حميد كل خطوة بدقة، وفي النهاية حصل على لون أسود غامق، لكن ليس اللون الذي يريد أن يتوصل إليه.

في أحد الأيام، في مقهى بالقرب من محترفه، صادف خيميائياً مغربياً. بينما كان حميد يشرب الشاي، راح ينصت إلى ما يقوله

الخيميائي ويوصي مستمعيه بما يجب أن يفعلوه للحفاظ على رغبتهم الجنسية. كان للرجل ذي الثوب الأبيض وجه ذكي، ويبدو أنه شعر بالملل من الرجال الذين يلحّون عليه بأسئلتهم ويشترون المساحيق التي يبيعها. فجأة نظر إلى حميد نظرة لم يستطع هذا الأخير أن ينساها حتى بعد عشرات السنين. لم يشح بنظره عن الرجل، وابتسم له ابتسامة تحكي مجلدات. ثم نهض الرجل واقفاً، وأخذ كأس الشاي التي يشربها، وجاء وجلس إلى طاولة حميد في ركن المقهى.

«يبدو أن السيد مشغول بالتفكير في أشياء أخرى غير إغواء النساء أو وضع السمّ لهن. لعله يبحث عن سرّ صنع الذهب؟»

ضحك حميد وقال: «لا أظن أن بإمكاننا أن نعقد صفقة بيننا. فأنا لست مهتماً لا بالذهب ولا بالنساء».

فقال الرجل من دون تردد، «لكن يوجد شيء مظلم وثقيل يثقل على قلبك».

«صحيح»، هربت الكلمات من فم حميد، «إني أبحث عن اللون الأسود المطلق».

«آه، إذن فأنت خطاط»، قال الغريب باقتضاب، «الأرض محدودة، لماذا تريد المطلق؟ فهذا لا يوجد إلّا في السماء». وأضاف، «لكن من بين كل الألوان الأرضية، فإن اللون الأسود الذي لديّ هو أكثرها غمقاً».

ابتسم له حميد ابتسامة تشي بالاستياء والسخرية.

«سأعطيك وصفة، وإذا توصلت إلى نتائج مرضية، يمكنك أن ترسل لي على عنواني في بيروت مئة لوحة خطّ صغيرة فيها اقتباسات من القرآن أو الأحاديث النبوية، ويجب ألّا يزيد حجم قطعة الورق على حجم كفّ يدك، ويجب أن تكون كلها مكتوبة بكلمات معكوسة. موافق؟»

«لماذا بيروت؟» سأله حميد مبتهجاً.

«يجب أن أغادر دمشق غداً. سأقيم في بيروت لمدة شهر، وإذا لم ترسل لي أجرتي، فإني سألعنك، وستُبتلى بالمصائب. اكتب ما سأقوله لك الآن»، قال الرجل لحميد بجدية.

أخرج حميد دفتر الملاحظات الصغير الذي يحمله معه دائماً ليدوّن الأفكار التي تخطر بباله، ويسجّل أي شيء يثير فضوله. كان يفعل ذلك بناء على نصيحة معلّمه سيراني الذي لم يغادر منزله قط من دون أن يكون معه دفتر ملاحظات وقلم رصاص.

بدا أن الخيميائي يعرف الوصفة عن ظهر قلب. أملاها على حميد وهو ينظر بعيداً، مقادير المكونات، وطريقة عملها والوقت الذي تستغرقه، كما لو كان يقرأ من كتاب غير مرئي.

لم ينتج عن الوصفة اللون الأسود المطلق، لكن لم يتمكن أحد في دمشق حتى الآن من جعل اللون الأسود أكثر سواداً. وجلب هذا الحبر الشهرة لحميد والثروة فيما بعد، لكنه جلب له أيضاً ليالي لم يغمض له فيها جفن، لأنه نسي الخيميائي لفترة من الوقت، وعندما أرسل له الأجر المتفق عليه إلى بيروت، عاد سائق التاكسي مباشرة وقال له إن المغربي غادر المدينة منذ فترة.

هل لعنة الخيميائي هي التي جلبت له سوء الحظ هذا؟

بغية تحضير الحبر، أخرج حميد الصوف من بطن شاة سوداء، وسفعها بالنار ثم طحنها، وخلطها بالراتينج والصمغ العربي وأحماض الدباغة، ثم أذاب المزيج في الماء، وتركه يتركز فوق نار هادئة، ثم عجن الناتج الذي أصبح في شكل عجينة، وأضاف أكسيداً معدنياً وأذابها وجعلها سميكة مرة أخرى، فحصل على عجينة جفّت وأصبحت كتلة سوداء كالغراب عندما بردت. وعندما أذاب قطعة منها في الماء نجم حبر أسود رائع.

سرعان ما انتشر الخبر حول جودة حبره العالية، وطلب منه جميع كبار الخطاطين الذين يقدّرون سمعتهم كمية منه. لكن المعلّم سيراني لم يعجبه ذلك، وتمتم قائلاً: «سنتحوّل إلى مصنع حبر».

عندما أصبح لدى حميد محترفه الخاص به، بدأ ينتج الحبر الأسود الناعم بكميات كبيرة.

كان صنع هذا الحبر مكلفاً جداً، لكن بعكس الألوان السّامة، لم يكن ضاراً. فقد مات العديد من الخطاطين في سنّ مبكرة، ولم يخطر لهم قط أنهم سمّموا أنفسهم بأملاح المعادن التي يصنعون منها الألوان. تذكّر حميد مساعده راضي الذي لم يأخذ تحذيراته على محمل الجد، ودفع حياته ثمناً لذلك.

عندما كانت زوجته الأولى مها لا تزال على قيد الحياة، كان يعود إلى البيت في معظم الأحيان نصف ميت من الإرهاق تفوح منه رائحة كريهة ووجهه ملطخ بالسخام. كرهت زوجته تلك الرائحة التي يأتي بها إلى البيت، وبدأت تبحث عن سبب لتهرب من النوم معه.

حتى عندما استقلّ حميد في عمله، واستطاع أن يشتري البيت الجميل الذي كان يملكه اليهودي الثري، إيهود ملكي، بعد أن كلّفته الكنيسة الأرثوذكسية بأعمال كثيرة، لم يتحسن مزاج زوجته، ولم تمتدح البيت الواسع بكلمة واحدة.

من أجلها أيضاً لم يفتح محترفه في حيّ الخطاطين في البحصة، وإنما في أرقى شارع في حيّ سوق ساروجة حيث يعيش الأثرياء التي أطلق عليه الدمشقيون اسم إسطنبول الصغرى، وعلى الرغم من ذلك، لم تشأ مها أن ترى المحترف، ولم تزره قط.

ومن أجلها أيضاً، لم يعد يجرّب الألوان، وأصبح يعود إلى

البيت في المساء كما خرج في الصباح بثيابه الأنيقة المعطّرة. لكن كلّ ذلك، لم يُجدِ نفعاً معها أيضاً. وازدادت زوجته كآبة وبدأت تنسحب من العالم أكثر فأكثر. تحمّل عنادها طوال سنة، وعندما رفضت مرة أخرى أن تؤدي واجبها - كما سمّى مضاجعة امرأته - معه في السرير، ضربها.

بعد حوالي سنتين من زواجهما، أصيبت بمرض شديد، وفقدت وزنها بسرعة، وانتشر طفح جلدي في جسدها، وبدأ الجيران يتهامسون بأن زوجة حميد أصيبت بمرض من السمّ في الأحبار الملونة التي يحتفظ بها حميد في علب سوداء في القبو.

تحوّلت الحياة في بيته إلى جحيم. وبدأ يخشى أن تدسّ له السمّ، لكنها لم ترغب أن يموت، لأنها لم تحسد الأحياء. وعندما كانت على فراش الموت همست بصوتٍ مرتعش أجش أن انتقامها منه أنها تتمنى أن يعيش عمراً مديداً.

في البداية شعر بالذنب، لكنه بدأ بعد ذلك يستمتع بحريته والهدوء التام في بيته.

هل حزن عليها؟ تملكه الرعب عندما سمع صوته وهو مستلق على سريره في السجن، يقول: «ولا للحظة واحدة».

منذ ذلك الحين، عاش وحيداً في بيته الجميل وقرر ألّا يتزوج مرة أخرى، ولم يُبدِ أدنى اهتمام بزبوناته أو جاراته الوحيدات اللاتي كن يخترعن دائماً عذراً ليطرقن باب بيته. كان يعرف سبب ذلك، ويطردهن بفظاظة.

لكن، في أحد الأيام، جاء أحد أغنى زبائنه، منير العظم الذي قال إنه سمع من أخته أن ابنة رجل الدين رامي عربي، العائلة المشهورة ، أعجوبة بين النساء، وهي تجيد القراءة والكتابة أفضل

من رجال كثيرين، وهي جميلة جداً وكريمة الأصل، وأضاف أنه أراد أن يجعلها زوجته الخامسة، لكن والدها رفض وقال له إن ابنته تريد أن تملك قلب زوجها وحدها.

قلما رفع حميد فارسي رأسه عن العمل الذي يقوم به. «سأضطر لأن أنتظر شهراً إلى أن تأتي عمتي من السعودية لتراها، ثم سنرى ما الذي يمكن أن يحدث»، قال مازحاً.

«لماذا لا تأتي وتزورنا؟ سأطلب من أختي أن تُحضر الفتاة معها»، اقترح الرجل الودود، فهزّ حميد رأسه، فقد كانت لديه أشياء أخرى عليه أن يقوم بها.

بعد فترة قصيرة، أصيب حميد بنزلة برد شديدة، وارتفعت حرارته، وأصبح يتحرك بصعوبة، وتمنى أن يكون عنده أحد يساعده، فاضطر إلى أن يطلب من جارته المسنّة أن تأتي وتطبخ وتغسل له وتعتني بالزهور.

بدأ حميد يشعر بوحدة شديدة في الليل، وأصبح البيت الفارغ يثير فزعه، وتفاقمت وحدته عندما لم يعد يسمع سوى صدى خطواته، وأرغمته شهوته للنساء على أن يحصل على متعته من عاهرة، لكنه شعر بالاشمئزاز منها عندما رأى الزبون الذي غادرها للتو. رجل طويل، وسخ، سوقي، التفت إلى العاهرة عندما رأى حميد وقال لها، «يستطيع مرآبك أن يتعافى من شاحنتي الثقيلة بمثل هذه الدراجة الهوائية الصغيرة». عندما سمع حميد العاهرة السكرانة تضحك، غادر على الفور.

بدأ يتوق لرؤية عمّته التي كانت تريد أن تعوض له عن محاولتها الأولى المؤسفة في إيجاد زوجة مناسبة له. وما إن ذكر لها اسم

الفتاة، حتى وجدت في متاهة علاقاتها المتشابكة، صديقة لها من أيام المدرسة، بديعة، تقيم في الشارع الذي تقيم فيه أسرة الفتاة. ورأت بديعة أن نورا هي الزوجة المثالية لحميد.

هل هي كذلك حقاً؟ كان مستعداً لأن يعطي كل شيء مقابل ذلك. ورغم نحول جسدها، كان وجهها يتميّز بجمال لا يقاوم. لم يعجبه حديثها كثيراً. في الظاهر، بدا أنها مهذبة، حسنة التربية، لكنها لم تتعلّم كيف تُبقي فمها مغلقاً. فعندما كان يريد مثلاً أن يخبرها شيئاً، تلتقط خيط الحديث، تقاطعه وتبدأ بحديث لا نهاية له حتى أنه كان ينسى ما سيقوله أحياناً. لقد تربّت مثل رجل، وتظن أنها تستطيع أن تتحدّث عن كل شيء كالرجال. في البداية، ظن أن ذلك شيءٌ مسلٍّ، لكنها سرعان ما فقدت سحرها الأنثوي في نظره. ولم يجد متعة معها في السرير، لأن نهديها صغيران وعظام صدرها بارزة عندما تستلقي على ظهرها وكأنها رجل نحيف. وحتى بعد شهر من زواجهما، ظلّت تقصّ شعرها قصيراً مثل صبي، لكن ما أدهشه دائماً أن جسدها بعث دائماً رائحة عطرة، لذلك فضّل أن يضاجعها في الظلام، أعجبته أناقتها في كل ما تفعله. لكنه كره بكاءها، لكن كما قال له جدّه ذات يوم، «المرأة مخلوق بحري، تمتلك نبعاً لا ينضب من الماء المالح»، لذلك قرر ألّا يولي اهتماماً لدموع زوجته لأن ذلك لن يوصله إلى نتيجة.

أمل كثيراً بأن تحبل. سمع كثيراً أن طبقة كبيرة من اللحم تتشكل على صدور نساء مثلها وبطونهن وأردافهن أثناء فترة الحمل. حاول أن ينام معها كثيراً ويكلّمها بأقل قدر ممكن، وعندما تكلّمه، كان يتصرّف كما لو أنه لا يسمعها، لكن بدلاً من أن تحبل أو تزداد أنوثة، ازدادت عناداً. كان يظن أحياناً أنها امرأة معتوهة، فقد كانت تضحك فجأة أثناء المضاجعة، ولم يستطع أن يتخلّص من فكرة أنها

تسخر منه. وعندما كان يعود أحياناً إلى البيت متعباً وجائعاً، يكتشف أنها لم تطبخ شيئاً، وتقول إنها أمضت اليوم كلّه في القراءة والتفكير. شكّ في أن لديها عشيقاً أو أنها تمضي أوقاتاً مع جاراتها اللاتي منعها من زيارتهن وصار يعود إلى البيت فجأة لكي يفاجئها لكنه كان يفشل دائماً، وأدركت نورا ما يدور في خلده، وأكدت له مراراً أنها لا تزور أحداً ولا تزورها أي من جاراتها. كررت ذلك له وعلى وجهها ابتسامة باردة. في بعض الأحيان، يرنّ الهاتف، وعندما يرفع السماعة يغلق المتصل الخط على الفور.

تأكد شكّه بأن في عقلها لوثة عندما جاء ذات يوم فجأة بعد الظهر ورآها تلعب وحدها بالدُّحل في باحة البيت. عندما رأته غاضباً، لم تفعل شيئاً سوى أن ابتسمت. صُدم، وقال لنفسه إن عليه أن يستشير طبيباً، ولام نفسه لأنه لم يفعل ذلك قبل أن يتزوجها، لكنه كان يعتقد أن النساء يفهمن عقول النساء الأخريات أفضل من أي طبيب، فحكى لعمّته ميادة أنه رأى نورا تلعب الدحل وحدها.

وماذا قالت له عمّته اللعينة ميادة؟ «لا تفعل النساء ذلك إلا عندما يكنّ غير راضيات، فيكرهن أزواجهن. يجب أن تنام معها أكثر وتكسر إرادتها. هناك نساء لا يعرفن سبيل العقل ولا يتصرفن بطريقة أنثوية إلى أن يحدث ذلك. إذا حطّمت إرادتها، ستكون خصيتاك هما الشيء الوحيد الذي ستأخذهما في يدها وتلعب بهما».

بدأ ينام مع نورا كلّ يوم، وعندما ضحكت ذات مرة، ضربها فبكت لأيام عديدة وبدأ يشعر بالقلق. لم تعد تتكلم كثيراً، وازداد شحوبها. زاره والدها ثلاث مرات وطلب منه أن يعتني بنورا، وقال له إنه لم يرها حزينة هكذا من قبل. وقال رامي عربي لزوج ابنته إن عليه ألا يشغل وقته كلّه في عمله، فقد وجدت الكتب والمخطوطات لإسعاد البشر، لكن السعادة وإكرام الضيف والزواج ليست موجودة

في قاموس حميد إلّا كتضحيات على مذبح الخط. وسأل حميد صراحة متى استقبل ضيفاً آخر مرة في بيته.

لم يعرف حميد ماذا يقول. لأنه لم يستضف أحداً في بيته. حاول أن يدلل نورا لكنها لم تعد تريد ذلك. بنت جداراً من أعمال المنزل والصداع أمام محاولاته لاقتحام حصن وحدتها.

في أحد الأيام، زارت أمّها حميد في محترفه، وتصرّفت معه كما لو كانت مغرمة به. أخذها إلى مقهى عائلي قريب، كي لا يسمع صمد كل كلمة يقولانها. في المقهى، اعترفت له أمّ نورا بأنها تتمنى أن تأتي إليه في محترفه حتى من دون أي سبب لتراه، لكنها اليوم جاءت لسبب آخر، وقد أرسلها زوجها وطلب منها أن تخبر حميد بأنه يجب ألّا ينشغل في عمله كثيراً، وأنه عليه أن يعتني بزوجته أكثر، لكنها لا تشارك زوجها بنصيحته لأنها تعرف أن ابنتها نورا لا تستطيع أن تميّز بين الرجال جيداً. فهي غير ناضجة، لأن المرأة الناضجة تتمنى زوجاً مثل حميد، وأضافت أن نورا ورثت خصائص كثيرة من أبيها، بما في ذلك أجوبتها الجاهزة على رأس لسانها. وبما أنها أمّ نورا، فإنها تأسف على ذلك كثيراً، وقالت له أخيراً وهي تربت على يده خلسة إنهما سيعلّمان تلك الطفلة معاً كيف تصبح زوجة صالحة له.

عندما ودّعها، قبّلته بحرارة، ونقل جسدها إلى جسده رعشة لم يشعر بها في زوجته قط.

لم يستطع أن ينفّذ شيئاً مما نصحه به والد زوجته، وأبعدته عن زوجته مشاعر حماته اللاهبة التي زادت زيارتها له لتحدّثه عن نورا، وفي زيارتها الرابعة أو الخامسة إلى محترفه طلب منها ألّا تأتي وحدها بعد الآن، لأن مساعديه وجيرانه بدأوا يتهامسون. لم يكن ذلك صحيحاً، لكن كلما لمسته هذه المرأة، اعتراه شعور جسدي

لاهب تجاهها. ومع أنها تكبره بثلاث سنوات، فقد كانت تبدو له أصغر من ابنتها، ومثيرة أكثر منها.

عندما رأت عمّته ميادة الأمّ معه في أحد الأيام، قالت له بعجرفة، إنه يمكنها أن تقوم بدور الخطّابة الآن أيضاً، وأن تتوسط له ليأخذ الأم بدلاً من ابنتها.

همس حميد قائلاً: «إنكِ تجلبين الحظ السيء»، موجهاً نظرته من سرير السجن حيث يرقد إلى الصورة الصغيرة وافترض أنها تُظهر العمّة ميادة في نصفها الأيمن.

12

بدأ حميد يذرع زنزانته جيئة وذهاباً، يعتصره القلق. كان صاحياً تماماً، كما لو أنه نام عشر ساعات كاملة. لم يعرف مثل هذه الليالي منذ مدة طويلة. قبل أن ينفصل عن معلّمه بفترة قصيرة، انتابه قلق يشابه قلقه الآن. لم يغفُ وقتها أكثر من ثلاث ساعات كلّ ليلة، ولم تجد تحضيراته نفعاً. قبل أن يخبر معلّمه بقراره بعدة أسابيع، بدا سيراني رجلاً متقدماً في السن ومريضاً وحزيناً ومنبوذاً كما لو أنه تنبأ باقتراب قطع حبله السري من حميد.

عندما ودّع أحدهما الآخر، تمنّى له سيراني النجاح والتوفيق في عمله، لكنه أطلق على هذا الفراق بعد يومين اسم خيانة. حتى بعد سنوات عديدة، تساءل حميد عن السبب الذي جعل معلّمه يتحدّث عن الخيانة لأن حميد قَبِل عرض الكنيسة الأرثوذكسية لتزيين الكنيسة بالخطوط العربية ما دام سيراني رفضها بفظاظة؟ أين تكمن الخيانة في ذلك؟ كان حميد يأمل من خلال هذا العمل تمويل الخطوة التي أزمع اتخاذها بأن يستقلّ في محترف خاص به وبعمله. كان سيراني قد رفض قبل ذلك بشهر عرضين للعمل لبعض الكنائس الكاثوليكية، مع أنهما كانا عملين صغيرين، فقد كان الأجر مجزياً، لكن سيراني لم يهتم بالمال طوال عمره. فقد رفض تنفيذ لوحات خطّ للمسيحيين تحت ضغط أفكاره الدينية المتعصبة، لأنه يعتبر الخطّ العربي واللغة

العربية مقدّسين، ويرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالقرآن، لذلك لم يبع لوحاته للكفار قط، وقد لامه عدد كبير من زملائه على ذلك، وقالوا له إن دمشق كانت دائماً مدينة منفتحة على الجميع، حيث عمل المهندسون المعماريون المسيحيون واليهود والمسلمون والبناؤون طوال التاريخ معاً لتجديد وترميم مساجد، وأمضى حميد أياماً وهو يحاول إقناع سيراني لأن يغيّر رأيه، لكن من دون جدوى.

في أحد الأيام، أرسل ألكسندروس الثالث، بطريرك الكنيسة الدمشقية الأرثوذكسية الذي كان معجباً جداً بالخط العربي، مبعوثاً إلى المعلّم سيراني يطلب منه تزيين كنيسة القديسة مريم التي رممت حديثاً بالخطّ العربي والأرابيسك، وقال إن باستطاعته أن يحدد المبلغ الذي يريده لهذا العمل الضخم، لكن سيراني رفض العرض بفظاظة، وقال إنه لا يكتب لوحات بالكلمات العربية المقدسة للكفار. وكان سيراني يعتقد أن الخطّ يجعل من المسجد كتاباً دينياً عظيماً للحكماء، بينما تحوّل الصور الكثيرة كنائس الكفار إلى كتب مصورّة لأرواح بدائية أمية بسيطة.

وقف مبعوث البطريرك، ألكسيس دحدوح، في مكانه لا يتحرك مصعوقاً من ردة فعل رجل قيل عنه إنه مؤدب ومسالم، وخجل حميد، للمرة الأولى، بالنيابة عن معلّمه. ورافق الرجل الأنيق إلى الخارج وطلب منه وهو يودّعه، ألّا يذكر شيئاً لغبطة البطريرك عن رفض سيراني الفظ، وأضاف أنه، حميد، سيزوره في مكتبه في الأيام القليلة القادمة، ويبحث معه الأمر كله مرة أخرى.

بعد أسبوع، عندما وقّع حميد العقد مع البطريرك وقبض أول سلفة، عاد إلى المحترف وأخذ معداته القليلة، وودّع معلّمه سيراني بتهذيب شديد وقال له إنه سيبدأ عمله الخاص به. كان سيراني جالساً محنيّ الظهر في كرسيه، دمدم كلمات لم تكد تُسمع، «أعرف،

أعرف. بصفتي والد زوجتك، فإني أتمنّى لك التوفيق، وبصفتي معلّمك، فإني أباركك وأرجو لك نعمة اللّه». أراد حميد أن يذرف دموع الحزن ويعانق معلّمه، لكنه ابتعد من دون أن ينبس ببنت شفة، وغادر المحترف.

أصبح حميد مستقلاً في عمله، ينفّذ الأعمال التي تدرّ أفضل أجر في حياته للكنيسة الأرثوذكسية. فصمّم العبارات التي طلبها المهندسون وكبار قساوسة الكنيسة، ولم يشكّ للحظة في أن المسيحيين أغبياء لأنهم يؤمنون بربّ أرسل ابنه إلى الأرض وتركه يتعذب على يد حفنة من اليهود الهزيلين، ثم حكم عليه الرومان بالإعدام. أي ربّ هذا؟ لو كان في مكانه، لضغط حميد بإبهامه على فلسطين والإمبراطورية الرومانية كلها وجعلها تغوص في أعمق نقطة في البحر الأبيض المتوسط.

شعر كبار قساوسة الكنيسة بالامتنان له وقبلوا شرطه بأن يعمل في الكنيسة لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع فقط، ثم يرسل الحرفيين والمساعدين لديه لتركيب الكتابات والزخارف والأرابيسك التي صمّمها مسبقاً على الرخام والحجر والخشب. وفي الأيام الأخرى، سيجهّز محترفه الجديد ويبحث عن زبائنه القدامى.

استغرق العمل في الكنيسة سنتين، وكان مجلس إدارة كنيسة القديسة مريم سخياً معه، فاشترى حميد منزله وأثّث محترفه بالنقود التي كسبها. أصبح حميد الخطاط الوحيد في هذا الحيّ الغني، وسرعان ما أكد له زبائنه ذوو النفوذ أنه لن يفتح خطاط آخر محترفاً في هذا الشارع لمنافسته.

قاطعه معلّمه سيراني، وبعد وفاة ابنته مها، تحاشى لقاء تلميذه السابق بقدر ما استطاع. وقال كثيرون إن مقاطعته له هو لأن حميد لا يحترم النص ويجلّه ولا يرى أنه مقدس، وأنه لم يعمل مع المسيحيين

واليهود فقط، وإنما كتب أيضاً رسائل مزخرفة ونعوات الموتى وحتى لافتات الحمّامات لقاء مبالغ محددة، وبدأت المدينة كلّها تتحدّث عن القصائد الغزلية التي يكتبها في لوحات كبيرة لرئيس الوزراء الذي تزوج وهو في السبعين من عمره امرأة لا تتجاوز العشرين من عمرها لأنها تحبّ قصائد العالم الصوفي الأكبر ابن عربي والذي أطلق عليه الدمشقيون «*فيلسوف الحبّ*».

بدأت الأعمال تتدفق على حميد من البرلمان ومختلف الوزارات، وقال البعض إن المعلّم سيراني يرى أن حميد عبقري لكن أخلاقه سيئة، مستعد لأن يعمل مع أي شخص لقاء مبلغ معيّن من المال، وقيل أيضاً إن سيراني بدأ يتحاشى حميد لأنه آمن في سريرته أن صهره سبب موت ابنته.

لم يعرف حميد السبب الحقيقي إلّا عندما زاره معلّمه في السجن بعد أن اشتدّ عليه المرض. فقد أصيب سيراني بالسرطان، وجاء ليودّع حميد ويقنعه بأن يتخلّى عن لقب الخطاط الأعظم، ويفسح المجال لخطاط آخر يخلفه.

زيارة معلّمه هزّت كيانه، لا لأن سيراني طلب منه أن يستعيد الشهادة لنقل لقب الخطاط الأعظم إلى خطاط آخر فحسب، وإنما لأن الرجل العجوز شرح له بصراحة سبب عدم رغبته في الاتصال به قبل الآن، وقال إن السبب هو الخوف.

وقال لأن حميد أخطأ عندما أذاع خطته على الملأ وعرف الجميع بها. وقد أحدث بذلك ضجة كبيرة، ولفت الانتباه كثيراً إلى مسألة إصلاح الخطّ العربي وبذلك حرض كلاب المتشددين.

«ولم يكن المحافظون ضدك فقط، وإنما جميع المتشددين أيضاً، وهذا ما أثار الذعر في نفسي». قال له معلّمه، «يمكنك أن تجادل المحافظين أو التقدميين، أما المتشددون فإنهم لا يتكلمون،

وإنما يقتلون خصومهم ببرودة ومن دون أي وخز ضمير لأنهم لا يملكون أساساً أي ضمير».

«هل عرفت أن مجرمين يكمنون لي؟» سأله حميد بشيء من السخط.

«لا، لم أعرف شيئاً. لا أنا ولا غيري عرفنا شيئاً. إن أعداء المتشددين لا يعرفون ما يُخطط ضدهم إلّا بعد فوات الأوان. هناك أربع أو خمس جماعات دينية متعصبة، ولديهم قوائم لقتل خطاطين وفلاسفة وسياسيين ليبراليين. ولا يهتم هؤلاء الأغبياء بقتل قواداً واحداً».

«يا معلمي، هؤلاء مجانين...»، بدأ حميد يرفض ما قاله معلّمه. نظر إليه سيراني يائساً، وقاطعه: «إنهم ليسوا مجانين. هكذا هم منذ بدء التاريخ... كانت الأمور وستبقى هكذا دائماً. وهذا فقط يخجلني، لأنني أدركت أن جمعيتنا لا تسير في الطريق الصحيح. كان ينبغي لي ألّا أورطك في كلّ ذلك، وكان يجب أن أحرق الوثائق وأواصل تشجيعك كخطاط محترف ومعلم ممتاز. لقد سحبتك إلى تلك الجمعية، وأطلب منك أن تسامحني».

فقال حميد: «أوه»، رافضاً ما سمعه، لأنه لم يفهم لماذا يشعر معلّمه بالذنب، «إنهم بضعة أرواح مجنونة، وسترى، سوف...»

«مجانين، مجانين، توقف عن ذلك»، قاطعه معلّمه بغضب، «إنهم منتشرون في كل مكان، يتربصون بنا. إنهم يتربصون بكل من يحيد عن مسارهم خطوة واحدة، وفجأة يجد سكيناً بين ضلوعه، أو تجد عدوهم مخدراً وسكراناً مع عاهرة مع أنه لم يلمس قطرة كحول في حياته ولم يلمس عاهرة. انتقام لن أنساه حدث قبل عشرين سنة في حلب عندما استأجروا صبياً عديم الأخلاق وأدخلوه إلى سرير خطاط عظيم خدروه قبلها ثم أرسلوا الشرطة وضبط رجالها الأغبياء

الخطاط العبقري بالجرم المشهود ولم يذكر تقريرهم أي كلمة عن حالة المسكين المخدر والغائب عن الوعي والذي كاد يموت رعباً عندما استيقظ في زنزانة البوليس، وأقسم الصبي للقاضي أن المعلّم مصطفى أغراه لقاء مبلغ من المال. كلها أكاذيب، لكن القاضي أدان أن أحد أكبر الخطاطين لدينا وحَكَم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. أي أدلة تريد أكثر من ذلك لكي تفتح عينيك؟ لقد شيّد ابن مقلة عالماً من الفلسفة والموسيقى والهندسة المعمارية للأحرف العربية لتحسين الخطّ. إذا كان النبي قد جاء إلى هذا العالم لينشر الأخلاق الحميدة، فإن ابن مقلة نبي جاء ليجعل الخط فناً وعلماً على حد سواء. بالنسبة للخط العربي، فهو مثل ليوناردو دافنشي بالنسبة لفن الرسم في أوروبا. وكيف كوفئ على ما فعله؟ لقد انتهى به الأمر أنه عاش في نهاية حياته أسوأ من كلب ذليل، وبُترت يده وقُطع لسانه.

كلنا محكومون بالسقوط.

انظر إلى العثمانيين، هل هم مسلمون أسوأ منا؟ أبداً.

فقد بجّل سلاطينهم الخطاطين وأكرموهم كأنهم قدّيسون. أثناء الحروب، كان الكثير من السلاطين يخبئون الخطاطين كما لو كانوا يخبئون كنزاً من كنوز الدولة، وعندما استولى السلطان سليم الأول على تبريز، ترك الأطباء وعلماء الفلك والمهندسين المعماريين وراءه، وأخذ معه جميع الخطاطين الستين لزخرفة إسطنبول.

وقد أمسك السلطان مصطفى خان المحبرة للخطاط الشهير حافظ عثماني، وطلب من المعلّم أن يقبله كطالب ويعلّمه أسرار الخط. هل ذكرت لك ذات يوم ماذا كانت أمنيته الأخيرة؟» سأل سيراني مبتسماً كأنه يريد أن يسعد تلميذه بقصّة. هزّ حميد رأسه نافياً.

«عندما توفي حافظ عثماني في سنة ١١١٠، نفّذ تلاميذه أمنيته

الأخيرة. فقد جمع طوال حياته قُشَارَة الخشب التي تسقط من أقلام الخيزران والقصب عندما كان يقطعها ويشذبها ويجعلها مدببة. كان هناك عشرة أكياس خيش كبيرة مليئة بها. كان على تلاميذه أن يغلوا تلك القُشَارَة ويستخدموا الماء الناجم عنها لغسل جثمانه».

نظر سيراني بحزن إلى تلميذه الأثير لديه. قال له مبتسماً: «كما تعرف، عندما كنت في العشرين من عمري كنت أريد أن أغيّر العالم وأبتكر أبجدية جديدة يستطيع الجميع استخدامها. وعندما بلغت الثلاثين، أردت أن أُنقذ دمشق وأُجري إصلاحاً جذرياً على الأبجدية العربية، وعندما بلغت الأربعين، شعرت أنني كنت سأكون سعيداً لو أنني تمكنت من إنقاذ شارعنا في المدينة القديمة وأُجري بعض الإصلاحات السريعة على الخطّ العربي، لقد أعطيتك كلّ ما بوسعي أن أعطيك إياه، كما تعرف. وعندما بلغتُ الستين، لا أزال آمل أن أتمكن من إنقاذ عائلتي».

بكى سيراني عندما ودّع حميد في غرفة الزوار، وطلب من تلميذه السابق مرة أخرى أن يسامحه، وأكد له حميد بمحبة أنه لا يكنّ له كراهية على الإطلاق، وأن قلبه مفعم بالامتنان لمعلّمه.

منحنياً، يجرّ خطواته، خرج المعلّم العجوز يرافقه الحارس. التفت ولوّح بيده، لكن لم يمتلك حميد القوة ليلوّح له بل وقف مجهشاً ببكاء مرير مثل طفل فقد والديه.

أحسّ بالتعاسة لأنه عرف الآن أن معلّمه لم يبالغ، وبدأت تتضح بعض الأشياء التي بدت له عصية على التفسير أو سخيفة.

لكنه تساءل، متى حدثت نقطة التحول في حياته التي عرضته للخطر؟ لم يبحث عن الإجابة لفترة طويلة. فقد كان الشهر الذي سبق افتتاح مدرسة الخطّ مفعماً بالنشاط، سافر خلاله كثيراً، وكتب مقالات للصحف عن المدرسة، وكان شديد الحذر. طبعاً أشار مراراً

إلى ضرورة الإصلاح، لكنه أكد دائماً، من أجل سلامته وراحة باله، على أن القرآن يجب أن يظلّ مصاناً، مقدّساً لا تلمسه أي إصلاحات. دفع مراسل صحيفة لبنانية صغيرة من أشدّ المعجبين بحميد، لأن يقول أكثر مما أراد أن يقوله. ففي تلك المقابلة، سأله الصحفي مباشرة عن ضرورة إصلاح الخط العربي، فأجابه حميد أن هناك نقاط ضعف في الأبجدية، وأنه يجب توسيعها لخلق لغة عصرية أكثر مرونة في الاستخدام اليومي. وكخطوة ثانية - «لا تحتاج أن يتخذها أبناؤنا وأحفادنا لخمسين أو مئة سنة تقريباً» - يمكن إزالة الأحرف الزائدة عن الحاجة وتحسين شكل الحروف حتى تقلّ إمكانية الخلط بينها. ومن دون أن يسأل حميد، قطع الصحفي الجزء المتعلق بالأطفال والأحفاد والفترة الزمنية الطويلة، وأضاف بمبادرة منه أن الأبجدية يجب أن تصبح شبيهة بالأبجدية الفارسية.

هذه الكلمات عرّضت حميد للإساءة وتلقّى ثلاث مكالمات هاتفية مزعجة، لكن الأمور هدأت بعد فترة. لكن الانتقادات التي وجّهها إليه زملاؤه في المهنة كانت أقسى بكثير. فلم يشأ الخطاطون من الطائفة السنّية أن تكون لهم أي علاقة مع إيران الشيعية. لكنه طمأنهم، وهو يعرف طوال الوقت أنه يكذب عليهم، لأنه كان يزمع حقاً أن يوسّع حروف الأبجدية ويجعلها أقرب إلى النموذج الفارسي.

ابتسم حميد بمرارة. ما دامت فكرة إصلاح الخطّ العربي بشكل جذري مجرد أمنيات أحلام تُناقش في الجمعية، ظل كل شيء يسير على ما يرام، لكن عندما خرجت تلك الأمنية إلى العلن، انقسمت الجمعية إلى مجموعات. وفجأة، لم يعد هو على رأس الجمعية، كما نصت القواعد التي أُرسيت منذ مئات السنين. وبدلاً من ذلك، خرجت هيدرا ذات الرؤوس المتعددة. حدث كلّ ذلك خلال فترة إنشاء المدرسة، عندما كان بحاجة إلى كلّ القوة والتضامن الذي

يمكن الحصول عليه. فقد رأى كثيرون ممن يحسدونه أن هذه هي اللحظة المناسبة للتخلّص منه ككبير الخطاطين، ورأى البعض أن أفكار الإصلاح التي ينادي بها مملة جداً وتافهة، وأراد البعض الآخر إدخال أبجدية جديدة عندما تُفتح المدرسة، أبجدية تتخلّص من جميع نقاط الضعف في الكتابة العربية، وأرادت مجموعة ثالثة فجأة عدم إجراء أي تغيير له علاقة ببلاد فارس، لكنهم ظلوا يتذمرون من أن الأبجدية العربية قاصرة.

طلب حميد النظام والطاعة، وكان عليه أن يضع سمعته العالية على المحك ليحقق الوحدة. والغريب في الأمر أن كبار الخطاطين في حلب دعموه، أما ممثّلا الجمعية في مدينة دمشق فقد غادرا التنظيم.

ثم سادت فترة من الهدوء. وبدا أن افتتاح المدرسة أظهر أن الاضطرابات التي حدثت داخل الجمعية لم تكن سوى زوبعة في فنجان، وسُرَّت النخبة في البلد لاتخاذ هذه الخطوة.

لكن حميد سرعان ما أدرك أنه كان مخطئاً. عندما حطّم البلطجية مدرسته وشوّهوا سمعتها، خاصة عندما أيدهم شيخ الجامع الأموي، وحُرِّف كلام حميد عمداً في إحدى المقابلات. ثم شُجب واعتُبر مرتداً لأول مرة. فحظرت الحكومة الديمقراطية المزعومة المتحضّرة مدرسته، بدلاً من أن تعلن أن جماعة «الأنقياء» هي عدو الدولة.

التزم خصومه في جميعة «الحكماء» الصمت، لكن عندما سُجن، بدأ معظم كبار الخطاطين في جنوب البلد يصرّون على ضرورة إجراء انتخابات ديمقراطية لاختيار كبير خطاطين جديد. دعم كبار الخطاطين في المنطقة الشمالية بقيادة علي بركة بقوة الأستاذ الأعظم حميد، وطلبوا منه أن يختار خليفته بنفسه.

لم يرفض أعضاء الجمعية حميد فقط. فمنذ بدأ يتخذ خطوات علنية للإعلان عن أفكاره حول الإصلاح الجذري، بدأ اثنان من الرعاة الدينين اللذين كانا يكلّفانه بمهام يتجنباه، وسحب مسجدان تكليفهما له على الفور. شعر الآن أن هذه الأحداث ترافقها دائماً أخبار سيئة.

واتضحت له الآن الأسباب التي جعلت سيراني يبتعد عنه ولا يتصل به، لأن سيراني خشي أن تُسحب منه الأعمال التي كُلّف بها، وخاف على حياته.

13

هل قلل حميد من خطر جماعة الأنقياء لأن أتباعها الملتحين ينتمون إلى أكثر الطبقات غباء في الجنس البشري؟ هل كان زعماء «الأنقياء» أذكياء مما جعلهم يخططون كلّ ذلك بحسابات دقيقة وبدم بارد لتدمير أعدائهم على عدة صُعُد في آن واحد؟ هل يريدون أكثر من موت خصومهم؟ هل تغلغل «الأنقياء» إلى صفوف جميعة الحكماء؟ كان قد لاحظ وجود تعاطف معيّن مع «الأنقياء» في آراء العديد من الخطاطين المتدينين والمحافظين في جمعية الحكماء وحتى في مجلسها، لكنه لم يستطع أن يحدّثهم صراحة في هذا الموضوع، لأن الخط الفاصل بين المحافظين المتدينين والمتدينين المتعصبين غير واضح. لعلهم تعاونوا في المقاومة ضده التي انطلقت في الجمعية في الوقت الذي كان فيه بأمسّ الحاجة إلى تضامن جميع أعضائها؟

هل اختُطفت نورا لتلويث شرفه؟ هل كان دور ذلك التيس قباني بتكليفه بكتابة رسائل سيقرأها لشخص آخر، كما لو كان يعمل قوّاداً على زوجته؟

هل قتل الرجل الخطأ؟

لماذا شهد صاحب المقهى كرم ضده؟ هل تم ابتزازه بالتهديد بوجود أدلة تدينه بأنه رجل شاذ يمكن أن تُدخله السجن؟ هل كان من الصعب أن يكتشف إخوة قباني ومحاموه أن لزوجته الرابعة ألماز

علاقة بجريمة القتل. لأن نصري قباني انتقل ليختبئ في بيتها لطلبها الملحّ والمشبوه أن يختبأ عندها.

لكن لماذا أبلغه كرم معلومات دقيقة عن الطريق الذي يسلكه نصري قباني؟ هل فعل ذلك من أجل ابنة عمه؟ لا يمكنه أن يصدّق ذلك. هل خُططت جريمة القتل كعقاب له على التبرعات السخية التي قدّمها نصري لمدرسة الخطّ، أم أن كرم أراد أن يموت قباني قبل أن يُخبر حميد عن حقيقة الرسائل الغرامية؟

ألم يزره فجأة جاره نجيب، صائغ الذهب الذي لم يزره في محترفه قط، وقال له إن شخصيات بارزة طلبت منه أن يأتي ويقول لحميد إن نصري ومدير أعماله توفيق مستعدان لمقابلته ليوضحا له حقيقة الأمر لأن نصري ليس له أي علاقة بنورا؟ فطرده حميد وطلب منه غاضباً ألّا تطأ قدمه محترفه، كما في السابق. ألم يتصرف بغباء لا مثيل له تجاه هذا العرض الذكي؟

كيف عرف كرم بمحاولة الوساطة تلك؟ فقد وجّه إليه تحذيراً مسبقاً عن هذا الصائغ، ونعته بأنه مسيحي ديوث. فقد تزوج نجيب ريحان هذا الذي قارب الستين من عمره امرأة في العشرين كانت تعمل مغنية من الدرجة الثالثة.

إذا لم يكن قباني عشيق زوجته فلماذا توجب عليه أن يموت؟ من قرر قتله بيد حميد؟

هل كان هو بذاته عبر هذه الأحداث المخططة بدقة أداة لتدمير الجمعية؟

تجمّد حميد عند هذه الفكرة، وهزّ رأسه بقوة لا إنكاراً، وإنما ليخلّص نفسه من هذه الفكرة الرهيبة.

لم يمتلك أي إجابة على أي من هذه الأسئلة.

14

كان حميد في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره عندما سمع لأول مرة بيت الشعر:

ذو العَقلِ يَشقَى في النّعيمِ بعَقْلِهِ
وَأخو الجَهالَةِ في الشّقاوَةِ يَنعَمُ

في ذلك الوقت، خُيّل إليه أنه مجرد تلاعب في الكلمات.

لكن لا، تكمن فيه حقيقة مريرة. إن معرفته بالحروف العربية ومواطن النقص في اللغة العربية أوصلته إلى الجحيم، إلى مجموعة من الجهلة الغارقين في خطاياهم، معظمهم أميون لا يعتبرون أن الكتابة أداة من أدوات العقل، وإنما ضريح مقدّس يجب عدم المساس به.

لو عاش في أوروبا، قال له وزير الثقافة آنذاك، لأقاموا له تمثالاً، أما هنا، فيجب أن يخاف على حياته. زمّ شفتيه على هذه الأفكار، ونظر إلى قدميه العاريتين في حذائه الرث الذي كان جميلاً وأنيقاً ذات يوم، وقد قصّه الآن من الخلف وجعله نعلاً.

تساءل ما الذي جرى لحياتي؟

15

لفترة طويلة ظنّ حميد فارسي أن مهاجمته بدأت في عام ١٩٥٦ تقريباً عندما أُعلن عن تأسيس مدرسة الخطّ.

لكنه وجد في صباح أحد الأيام، ملاحظة في مفكرته السرية أثارت فزعه. لا بدّ أنه لم ينتبه إليها كثيراً من قبل، عبارة من سطر صغير غير واضح: «مكالمة هاتفية مزعجة، رجل غاضب قال إنني عميل كافر»، بتاريخ ١١ تشرين الأول ١٩٥٣.

وقرأ في الصفحة التالية: «أُلغي عملان كبيران لترميم الجامع الأموي»، تبعتها علامة تعجب بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٥٣.

بالطبع لم ينتبه إلى كلّ تلك الأشياء في ذلك الوقت لأنه كان مشغولاً كثيراً، وحتى مساعدوه غرقوا في العمل حتى رؤوسهم.

كم مرة لم ينتبه إلى هذا التلميح؟ أدرك الآن، في زنزانته، أن أعداءه يتربصون به منذ زمن طويل أكثر مما كان يظن.

لم يكن ذلك التاريخ مجرد صدفة.

بعد أن تزوج نورا بفترة قصيرة، حاول مع عدد من الخطاطين الآخرين إقناع بعض المشايخ المعتدلين، والأساتذة والسياسيين المسلمين المحافظين بضرورة إصلاح الخط العربي. لكن محاولاتهم باءت بالفشل.

كان والد زوجته، رامي عربي ، الذي يُعد أحد أكثر أبطال

التحديث حماساً في البلد، متأكداً من أنه يجب إدخال تعديلات على اللغة العربية وحروفها، لكنه كان يرى أن مسلماً واحداً لا يجرؤ على أن يفعل ذلك، لأن الكثيرين يعتقدون، على نحو خاطئ، أن ذلك يخالف القرآن، لذلك لم يدعم حميد أيضاً.

عندما سأله حميد عن سبب عدم دعمه له، لكونه شيخاً وعالم دين، يتحدّث عن الإصلاح، خصوصاً أن اسمه يذكّر الناس بالشيخ الصوفي الكبير ابن عربي، لم يقل شيئاً وإنما ضحك عليه بصوت عال، وقال له إنه رجل ساذج. ألم يدرك كيف انتهى به الأمر، هو رامي عربي، في مسجد صغير بسبب خلافات صغيرة في الرأي مع كبار المشايخ؟ وأخبره أن شاباً متعصباً جاء إلى المسجد مؤخراً وسأله أسئلة استفزازية عن الخطّ وعن زوج ابنته، وخشي أن يعتدي عليه جسدياً أيضاً، لكن اللّه رأف به، وأضاف أنه حتى من دون سكين بين أضلاعه، فإن نفيه إلى ذلك المسجد الصغير أمر سيء في حد ذاته، وإن نفي رجل دين ليعظ مجموعة من الجهلة الأميين أسوأ من عقوبة الإعدام.

وسأل حميد ألم يفهم بعد أن الأمر لا يتعلق بالشجاعة أو بالجبن، وإنما بالقوة والسلطة في الدولة؟ إذ لا يمكن أن تُجرى تعديلات جذرية على اللغة والخط العربيين إلا بمرسوم تصدره الدولة. ولم تنشأ الدولة العربية قط نتيجة إرادة أو منطق الأغلبية، وإنما نتيجة انتصار عشيرة على عشيرة أخرى. لذلك لا يتوجب عليه أن يصر ليقف هو الضعيف إلى صفه، وإنما بحاجة إلى دعم عشرة رجال من أقوى العشائر في البلد، عندها ستقبل جماعة «الأنقياء» اقتراحاً، حتى لو كتب العرب لغتهم بحروف صينية.

كان حميد يعرف أن حماه على صواب، لكنه أصيب بخيبة أمل

منه: خيبته لا مبرر لها، قال والد ابنته عندما افترقا لأنه شعر بأن صهره غير راضٍ، فماذا يفعل شيخ مسجد مثله لو فُصل من عمله؟ فليس بإمكانه أن يتسول، ولا يتمتع بصوت جميل ليصبح مطرباً. ربّت على كتف حميد بمودة وقال إذا طردوه من الجامع فبإمكانه أن يغلي له الحبر ويكنس محترفه.

بعد أسبوع، صُدم حميد مرة أخرى عندما التقى بالشيخ محمد سباك الذي يُعدّ مصلحاً شجاعاً بين رجال الدين المسلمين وكتب أعمالاً جريئة واستفزازية حول تحرير المرأة والعدالة الاجتماعية، وانتشرت في دمشق نكتة تقول إن قدم الشيخ لا تستطيع أن تطأ نصف البلدان العربية بسبب أفكاره عن المرأة، ولا يستطيع أن يطأ نصفها الآخر لأنها تعتبره شيوعياً متخفياً.

أما في سوريا، فقد كان موضع احترام وتقدير، خصوصاً أنه كان والد زوجة وزير الدفاع. وفي حديث خاص دار بينهما، ذكر له حميد فكرته بضرورة إصلاح الحروف العربية، وطلب أن يدعمه. فوثب الشيخ المكتنز الجسم كما لو أن عقرباً لدغه في مؤخرته، ونظر إلى حميد بعينين واسعتين، وقال: «هل فقدت صوابك، أم أنك تدّعي ذلك؟ لديَّ زوجة وأطفال. من الذي سيطعمهم لو متُّ والعار يغمرني بأنني كافر؟»

في نهاية عام ١٩٥٢، أُخبر حميد أن رجال الدين في حلب كانوا يتحلّون بالشجاعة، لكن بعد زيارته لهم ولعدة أساتذة جامعيين هناك لم يجد منهم سوى الرفض.

عندما حكى لسيراني عن النكسة التي تعرض لها في حلب، لم يُبدِ معلّمه أي تأثر، ولم يُظهر أدنى درجة من التضامن معه، وعندما انفصل حميد عنه، قال معلمه له أثناء الوداع: «لا تحاول أن تسير

بسرعة كبيرة، فالناس يسيرون ببطء شديد، ولن يتمكنوا من اللحاق بك إذا سبقتهم كثيراً».

في ذلك الوقت، لم يفهم حميد أنه كان ينأى بنفسه عن مناصريه بسبب حماسته الشديدة التي كانت تدفعه قدماً باستمرار.

بدا اللقاء الذي جمعه مع وزير الثقافة في البداية منحة إلهية. لكنه كان في حقيقة الأمر فألاً سيئاً، كما أدرك الآن، بعد أن أصبح في السجن.

في منتصف شهر نيسان ١٩٥٣، تلقى رسالة من وزارة الثقافة المسؤولة عن توزيع جميع الكتب المدرسية في ذلك الحين. فقد أراد الوزير الجديد أن يعمل مع المؤلفين والمعلمين واللغويين والجغرافيين وعلماء الطبيعة والرسامين والخطاطين لجعل الكتب المدرسية تتلاءم مع أحدث المعارف ويمنحها تناسقاً ووحدة، بالإضافة إلى الدقة العلمية. كان هذا كلّ ما ورد في الدعوة.

كان على حميد أن يبدي رأيه الخبير حول جميع النصوص.

في صباح يوم الاجتماع ذاك، استيقظ حميد عند الرابعة صباحاً وفي ظنه أنه سيكون يوماً هاماً. عندما وصل إلى الوزارة، وجد حميد أنه لا يعرف إلّا رجلاً واحداً، وهو المفكّر ساطع الحصري الذي لم يتوقف عن الجدال علناً عن ضرورة إصلاح المجتمع، وكان يحظى باحترام كبير من قبل القوميين، ويرى أن لغة الأمة هي أهم ركن من أركانها.

جلس حميد في أقرب كرسي شاغر وفوجئ عندما رأى أنه توجد بطاقة كتب عليها اسم لا يعرفه. قال له الرجل الجالس بجانبه إن الوزير حدّد مسبقاً الأماكن التي يجلس فيها كل شخص، وأضاف ساخراً: «إنها عادة تعلّمها من الفرنسيين». وجد حميد الكرسي

المخصص له بين صاحبَي مطبعة صامتين. بعد قليل وصل جميع المشاركين ما عدا الوزير، وما أدهش حميد أنه لم يكن هناك رجل دين واحد بين هذه المجموعة المختارة.

ثم دخل الوزير القاعة الواسعة. كان بإمكان جميع الحاضرين أن يشعروا بهالة قوته حتى آخر شخص جالس إلى الطاولة البيضاوية الكبيرة. كان جورج منصور أديباً شاباً على درجة كبيرة من العلم عمل أستاذاً لفترة قصيرة في جامعة دمشق بعد أن أنهى دراسته في فرنسا حتى كلّفه الرئيس شيشكلي بإعادة تنظيم المدارس في نهاية عام ١٩٥٢.

لم يستطع حميد أن يفهم كيف عهد الرئيس مسألة تعليم الأطفال في بلد غالبية سكانه من المسلمين إلى شخص مسيحي. لكن بعد ساعة أُخذ بجاذبية الوزير حتى أنه لم يفهم لماذا شعر بالضيق منه في البداية.

«لم أدعُ أساتذة مادة الديانة إلى هذا الاجتماع لأننا يجب أن نناقش الإصلاحات التي لا تؤثر على الدين»، قال الوزير، «فقد دعوتهم إلى اجتماع منفصل غداً، وسيطرح عليهم الشيخ صباغ المبادئ التوجيهية الجديدة التي قررها رئيسنا وليس أنا.

وقد وجهت الدعوة اليوم إلى أفضل أصحاب مطبعتين في دمشق ليقدّما لنا المشورة - وينقذانا إذا أخذنا الحلم بعيداً، وبما أنهما خبيران بحبر آلات الطباعة، فإنهما يعرفان أن من المستحيل أن ندفع ثمن أحلامنا في بعض الأحيان».

عرف الوزير تماماً ما الذي يريده. كان جورج منصور متحدثاً مفوّهاً، يتقن اللغة العربية أكثر مما يتقنها كثير من رجال الدين. وفي كثير من الأحيان مزج في كلامه بمهارة اقتباسات وأبيات شعرية وحكايات من الأدب العربي.

«كانت دمشق دائماً قلب العروبة، وإذا مرض القلب فكيف يمكن للجسد أن يبقى سليماً؟» سأل في بداية كلمته.

مثل معظم الرجال الموجودين في القاعة، علّق حميد نظره على شفتَي الوزير الذي بدا أنه أعدّ كل شيء حتى أدق التفاصيل. بدأ كلمته بالقول إن الرئيس أعطاه الضوء الأخضر ليجري إصلاحاً جذرياً على نظام التعليم، وإنه ينوي فتح مجال واسع وسخي للعمل مع الخبراء، وإن عليهم أن يبذلوا كل ما بوسعهم لإفادة التلاميذ السوريين.

عندما بدأ حميد يرى إلى أين سيقودهم درب الوزير بدأ قلب حميد يخفق بسرعة. ولم يكن مخطئاً.

«إن الإصلاح الجذري الأول يتعلق باللغة» قال الوزير بهدوء، «فالبشر يعبّرون عن أفكارهم بواسطة اللغة. وليس سراً أن لغتنا جميلة، لكنها لغة قديمة من نواح عديدة. فهي تعاني من عدة نقاط ضعف لستُ بحاجة الآن إلى أن أذكرها هنا. أود أن أذكر واحدة منها فقط حتى تتمكنوا من رؤية مدى حساسية إصلاح ما أفسده الدهر. إن لغتنا مشحونة بالمرادفات. لا توجد لغة أخرى في العالم تشاركنا هذا الضعف الذي يتلألأ كما لو كان قوة، حتى أن هذا الشعور يملأ الكثير من العرب بالفخر. يجب أن نحرّر اللغة العربية من كلّ ثقلها ونجعلها أخفّ وزناً لتصبح أكثر وضوحاً. انظروا إلى الفرنسيين الذي أدخلوا إصلاحات جذرية على لغتهم عدة مرات، حتى أضحت لغة مناسبة للحياة الحديثة ومثالاً يحتذى من قبل أمم أخرى. وبتأثير من ماليرب، بدأ الفرنسيون يطهّرون لغتهم منذ عام ١٦٠٥. وتبع ذلك سلسلة من الإصلاحات الشجاعة. ويبدو أن جميع الخطوات التي اتخذت مستوحاة من حكمة الفيلسوف ديكارت الذي جعل الوضوح الشرط الأول للغة. وقد أعلن أنطوان كونت دي

ريفارول بجرأة في عام ١٧٨٤ : *Ce qui n'est pas clair n'est pas français*، الكلمات غير الواضحة ليست فرنسية.

ماذا يمكننا أن نقدم بالمقارنة مع ذلك؟ فالكلمة التي لا يوجد لها أكثر من خمسين مرادفاً ليست عربية؟»

ضحك الرجال في القاعة بتحفظ.

وتابع الوزير قائلاً: «في الحقيقة فإن اللغة الفرنسية لغة دقيقة، يوجد لكل كلمة معنى، لكنها قد تخضع كذلك إلى تنويعات شعرية. في جميع الأحوال، فإن اللغة تخضع دائماً للتجديد، ويتاح مكان للكلمات الحية الحديثة اللازمة لأغراض ثقافية. إن عملية التجديد الدائمة فقط هي التي تدفع اللغة قدماً وتجعلها تواكب الحضارة، بل تساعد على بنائها.

لغتنا جميلة لكنها لغة مستفيضة، مما يتيح للشعراء مجالاً واسعاً، لكنها تسبب بلبلة واضطراباً في مجالَي الفلسفة والعلوم. إنكم تعرفون أكثر مني أنه يوجد لدينا أكثر من مئتي مرادف لكلمة «أسد» - استناداً إلى ابن فارس، قرابة خمسمئة - ومئتا مرادف لكلمة الدّب، ومرادفات كثيرة لكلمة الخمر والإبل والسيف».

«لكن كلّ هذه الكلمات مدوّنة في القواميس. هل علينا أن نحذفها؟» سأله عالم لغة شاب.

ابتسم الوزير كأنه يعرف ما الذي سيأتي. رفع ساطع الحصري الذي يناهز السبعين من عمره يده، وقال بنبرة أبوية: «أيها الشاب، لا تحذفها، وإنما ضعها في المتحف وأصدر قواميس جديدة وحديثة. لقد أظهر الأوروبيون شجاعة كبيرة ودفنوا جثامين كلماتهم، كلمات لم يعد أحد يستخدمها لا تؤدي إلّا إلى الارتباك، أما هنا فلا تزال الجثث تتجول بيننا. يجب أن يكون القاموس بيت الكلمات الحية لا مقبرة الكلمات الميتة. فمن الذي يحتاج إلى أكثر من خمس

مفردات لكلمة الأسد؟ بالنسبة لي كلمة واحدة، وأنتم؟ كلمتان أو ثلاث كلمات للمرأة والخمرة تكفي. أي شيء آخر سيلوث اللغة. . . »

«أما القرآن - ماذا تريد أن تفعل بالمرادفات في القرآن؟» قاطعه رجل أشيب له شارب محفوف، مؤلف عدة كتب مدرسية.

«سترد كلّ كلمة واردة في القرآن في القواميس الجديدة. لن يلمسها أحد»، قال الحصري العجوز باستياء: «لكن القرآن أسمى بكثير من أن يمتلئ بمرادفات للأسد وغيره من المخلوقات».

واصل الوزير كلامه قائلاً: «ولم يذكر القرآن أنه ينبغي لنا أن نحتفظ بعبء لغتنا الثقيل. مثال واحد يكفي. تشير التقديرات إلى أن حوالي ستين ألف كلمة تُستخدم في الفيزياء الحديثة، ومئة ألف كلمة في الكيمياء، ومئتي ألف كلمة في الطب. أما في علم الحيوان، فيوجد أكثر من مليون نوع من الحيوانات، ويوجد في علم النبات أكثر من ثلاثمئة وخمسين ألف نوع من النباتات. سأكون سعيداً لو تمكنا من أخذ كلّ هذه الأنواع من أسمائها العلمية اللاتينية الأصلية ونترجمها إلى اللغة العربية، لكن تخيّلوا الكارثة بأن يكون لكل كلمة من هذه الكلمات مرادفات. لذلك يجب أن نتحلّى بالشجاعة لنخلّص لغتنا من هذه الأعباء حتى تستوعب كلّ هذه المصطلحات الجديدة التي ستفتح لنا الباب للدخول إلى الحضارة. عندها، ستكون لدينا قواميس واسعة النطاق، لأنها ستكون أيضاً مفعمة بالحياة. لذلك، فإني أطلب من أستاذي المبجل ساطع الحصري أن يترأس لجنة تدرس هذه المسألة الحساسة خلال السنوات العشر القادمة»، والتفت إلى الرجل العجوز، وأضاف، «أشكرك على شجاعتك».

أومأ ساطع الحصري برأسه، راضياً، وقال بفخر: «سأقدّم لكم القاموس الذي ستضعه لجنتي الجديدة خلال خمس سنوات».

يقال إنه في صيف عام ١٩٦٨، بعد مضي خمسة عشر عاماً على هذا الاجتماع، تذكّر ساطع الحصري هذا الاجتماع وهو على فراش الموت. كانت مباهاته تلك واحدة من بين أشياء كثيرة عاقبته الحياة من أجلها. فقد كان يُعتبر حينذاك، في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، الأب الروحي لجميع القوميين العرب. وعندما سمع تلاميذه بأنه مصاب بمرض شديد، جاءوا من جميع البلدان العربية لوداع معلّمهم وقدوتهم. كانوا اثنَي عشر رجلاً محنكاً بلغ مجموع السنوات التي أمضوها في السجن أكثر من قرن، وعلى الرغم من ذلك، فقد تبوّأوا جميعاً السلطة في بلدانهم - معظمهم عن طريق انقلابات، لكن ذلك لم يزعج الحصري العجوز. وكان من بين الاثني عشر رجلاً ثلاثة رؤساء وزارة، وزعيمان لحزبين سياسيين، ووزيرا دفاع، وثلاثة رؤساء أجهزة مخابرات، ورئيسا تحرير صحف حكومية.

تحلّقوا كلهم حوله في ذلك اليوم كما يتحلّق الأطفال حول أبيهم وهو على فراش الموت، وشكروه على كلّ ما فعله من أجلهم، وأشادوا بالعمل الذي فعله في حياته. ابتسم ساطع الحصري بمرارة لكلّ هذه الكلمات. فقد فشلت لجنة الإصلاح التي كان يترأسها، مثل أي شيء فعله. فلم يتمكن من حذف كلمة واحدة من القواميس العربية، وظلت اللغة العربية بكلّ عيوبها ونواقصها كما كانت منذ ألف سنة، وتعرضت فكرته عن أمة عربية واحدة إلى ألف هزيمة وهزيمة، ونشبت خلافات بين الدول العربية أكثر من أي وقت مضى، وبدلاً من أن تتوحد هذه الدول، واجهت صعوبات كبيرة بسبب انقسامها وتشرذمها، لكن أكبر هزيمة مُنِيَ بها كانت في صيف عام ١٩٦٧ عندما ألحقت إسرائيل هزيمة كبرى بالدول العربية مجتمعة. كان ذلك قبل سنة واحدة من وفاته، وكانت كلمات المديح المتملّقة

التي ألقاها تلاميذه أكثر مما استطاع أن يتحمله، فرفع يده المرهقة، وقال: «كفى من هذا النفاق. إنكم تشعرونني بالملل. إني أغادركم كرجل فاشل، لكني لستُ وحدي. ألم تكفيكم هزيمة إسرائيل المدمرة؟ ماذا فعلتم لمنع وقوعها؟ فبدلاً من أن تبحثوا عن الأخطاء، وجدتم أكثر من سبعين مرادفاً لكلمة «هزيمة» في المراجع العربية، وابتكرتم أسماء أخرى لها.

لعلكم لا تزالون أطفالاً صغار لا تفقهون شيئاً في السياسة وفي النظام العالمي. حسناً، أخبروني إذاً، أيها الأطفال الأعزاء»، قال ذلك بنبرة لطيفة مصطنعة، «ما تسمّون هذ القرقعة في بلدانكم؟»، ورفع ردفه الأيمن، وأطلق ضرطة قوية أيقظت زوجته النائمة في الغرفة المجاورة.

«حسناً، ما هي مرادفات هذه الضرطة؟» سأل الرجل العجوز وهو يبتسم. لم يستطع تلاميذه أن يتفقوا. أعطى كلّ واحد منهم عدة مرادفات عربية متداولة في بلده لكلمة «ضرطة».

«وتدّعون أنكم أمة واحدة؟» قاطع الحصري الشجار الذي نشب بينهم، وقال «حتى أنكم لا تتفقون على ضرطة»، وضحك بشدة حتى انفجر شريانه الأبهر وتوفي في تلك اللحظة.

عندما دخلت زوجته الغرفة، كان الرجال قد غادروا. يقال إن أول ملاحظة قالتها، «ما هذه الرائحة الكريهة هنا؟».

لكن لنعد إلى الاجتماع الذي حضره حميد الذي لم يكن وزير الثقافة مقتنعاً تماماً بأن معلّمه الحصري سيتمكن من إصدار القاموس الجديد خلال خمس سنوات، كما تبجّح. نظر حوله ورأى الرجال يهزّون رؤوسهم بإعجاب.

«إن الطريقة التي نتعلّم بها متخلّفة عن ركب الزمن أيضاً، فنحن

نضرب أطفالنا لكي يصبحوا ببغاوات يتعلّمون عن ظهر قلب. كان مبدأ التعلّم عن غيباً أو الخفظ الصم مفيداً في الصحراء، أما الآن، فلدينا كتب وموسوعات تضم معلومات ومعارف أكثر مما يمكن أن تستوعبه أي ذاكرة. إن التكرار كالببغاء يجعل الأطفال خاضعين ويكتم أسئلتهم، إذ يفتخرون أن بإمكانهم ترديد كتب كاملة وهم في العاشرة لكن دون أن يفهموا منها سطراً واحداً. يجب أن يكون باستطاعة أطفالنا أن يتعلّموا ليفهموا من خلال طرح الأسئلة، لا أن يتعلموا الحقائق غيباً، عن ظهر قلب. يجب أن يتوقف هذا الأسلوب في التعليم. واعتباراً من العام الدراسي القادم، أريد أن أُدخل طريقة رأيتها تُستخدم في فرنسا: تعليم الأبجدية للأطفال بواسطة كلمات لها معنى. يجب أن يتعلّم الأطفال من الطريقة التي نتحدّث بها والتي يطلق عليها اسم «*طريقة الكلمة الكاملة*»». صمت الوزير قليلاً، وجال بعينيه على ضيوفه بنظرة فاحصة، ثم تابع، «أما بشأن الأبجدية، فأنا لست مع الرأي، كما يقول بعض الإصلاحيين، القائل إن اللغة العربية ستحدّث نفسها إذا أنكرنا ثقافتنا وكتبنا اللغة العربية بحروف أبجدية لاتينية، وهو نهج فرضه مصطفى كمال على الأتراك. إن هذه المقترحات ليست جديدة أو مبتكرة، فقد بدأ العرب الذين بقوا في إسبانيا يكتبون اللغة العربية بحروف لاتينية بدافع الخوف والتمويه بعد هزيمتهم الأخيرة عام ١٤٩٢ بعد طرد العرب من البلد، وسُمّيت تلك الحروف باسمهم «المُدَجّنُون»، كما سميت مبان كثيرة تحمل اسمهم.

لكن في الماضي، سمح المستشرق الفرنسي ماسينيون، والشلبي العراقي، وفهمي المصري أيضاً لأنفسهم بمديح هذه السخرية السخيفة من اللغة العربية، ويأتي الآن سعيد عقيل من لبنان ويتصرّف كما لو أنه قسّم الذرة بزردية وقال إننا لو استخدمنا الحروف اللاتينية، لأصبحنا أناساً متحضرين. هذا سخافة كبيرة.

لا، إن الحروف اللاتينية لن تحلّ أي مشكلة من المشكلات التي تواجهها لغتنا» قال الوزير، «وإنما ستخلق مشكلات جديدة. إن بيت اللغة العربية مبجّل وقديم، وعلى المرء أن يبدأ بترميمه قبل أن ينهار. ولا تدعوا أحداً يخيفكم بحجة أن اللغة العربية لا تتغيّر. إن اللغات الميتة وحدها هي التي لا تحمل أثر الزمن.

أظن أن شرف اتخاذ أول خطوة جادة نحو الإصلاح يجب أن يبدأ من دمشق، واعتباراً من السنة الدراسية القادمة، يجب أن يتعلّم جميع التلاميذ السوريين ثمانية وعشرين حرفاً من حروف الأبجدية فقط. إن الحرف قبل الأخير في أبجديتنا «لا» ليس حرفاً. إنه كلمة. إنه خطأ يزيد عمره على ألف وثلاثمئة سنة. كان النبي محمد إنساناً، واللّه وحده هو الذي لا يُخطئ. لذلك لا داعي لأن نُجبر أطفالنا على تعلّم أبجدية فيها خطأ واضح وهم في سن مبكرة، وننكر المنطق ونعتبر أن الخطأ صحيح. فهذا ما لا يفعله أي شعب في العالم. الأبجدية تضم ثمانية وعشرين حرفاً. ما هذا إلّا تصحيح بسيط، لكنه خطوة في الاتجاه الصحيح». سرت همهمة بين الحاضرين. كان من الممكن أن يطير قلب حميد فرحاً. ابتسم ساطع الحصري ابتسامة رجل عارف. أعطى الوزير وقتاً للحاضرين، كما لو أنه فكّر في كلّ شيء، كمخرج مسرحي في مسرحية مدروسة، عندما أنهى حديثه، فُتح باب القاعة وجلب العاملون في الوزارة الشاي والبسكويت.

فهم جميع الحاضرين ما الذي كان الوزير يتحدّث عنه، وكان الشاي الشيء الوحيد الذي رطّب حلقوهم الجافة.

لقد تراكمت أساطير عديدة حول هذا الحرف «لا». استناداً إلى أشهر حكاية، سأل أحد الصحابة النبي كم حرفاً أعطى اللّه آدم، فأجابه النبي، «تسعة وعشرون». فصحّحه صاحبه بلطف وقال إنه لم يجد سوى ثمانية وعشرين حرفاً في اللغة العربية. لكن النبي كرر

تسعة وعشرون، فأحصاها صاحبه مرة أخرى وقال لا، لا يوجد سوى ثمانية وعشرين حرفاً فقط. فقال النبي لصاحبه وقد تملكه الغضب: «لقد أعطى اللّه آدم تسعة وعشرين حرفاً عربياً. ويشهد على ذلك سبعون ألف ملاك، والحرف التاسع والعشرون هو لا».

كان جميع أصحاب النبي يعرفون أنه كان مخطئاً، لأن لا كلمة وليست حرفاً، كلمة مكونة من حرفين وتعني «لا» ولها عكس كل الأحرف معنى وهو النفي، ولم يظل أصحابه فقط صامتين، وإنما آلاف علماء الدين والكثير ممن يجيدون القراءة حول هذا الموضوع لمدة ألف وثلاثمئة عام، يعلّمون أطفالهم أبجدية فيها حرفاً زائداً، وهو في الواقع حرفان مجتمعان معاً».

وتابع الوزير قائلاً: «إن هدفي هو تعليم الأطفال السوريين، وهم ليسوا بحاجة إلى تعلّم شيء لا يؤدي إلى الحقيقة. كان النبي نفسه قدوة حسنة الذي قال بحق: «اطلب العلم ولو في الصين»».

ثم التفت إلى حميد، وقال: «أتوقع منك أشياء عظيمة أيها الخطاط العظيم، حميد فارسي. إن فنّ الخط يخلق فناً فريداً ابتُكر لتكريم الكتابة وحروف اللغة على الورق مهمتها توضيح الأفكار وتثبيتها، ومع ذلك فهو يدمّر اللغة أحياناً ويجعلها عصية على القراءة. إن حروف الكتابة تفقد وظيفتها كدلالات تنقل الأفكار وتتحوّل إلى أدوات زخرفية محضة. ليس لديّ اعتراض على ذلك لو كان فنّ الخط عبارة عن إفريز أو أرابيسك يزيّن الجدران أو السجاجيد أو المزهريات فقط، لكن ليس هناك مكان لهذه الزخارف في الكتب، وأنا لا أحبّ الخط الكوفي».

كان من الممكن أن يقفز حميد فرحاً عندما سمع ذلك. لأنه يكره الخط الكوفي أيضاً. كان مأخوذاً بالمشاعر لدى هؤلاء الخبراء، وتأثر عندما أشار إليه الوزير خلال فترة الاستراحة.

«أتوقع أن أحصل على أقصى درجات الدعم منك. يجب أن تهتم بالكتب التي تعلّم اللغة. فالخطاطون هم أساتذة اللغة الحقيقيون، لذلك، ابتكر أو استنبط حروفاً تجعل القراءة أسهل بدلاً من أن تزيدها غموضاً وصعوبة، مثل بعض الخطوط التي ينتجها الخطاطون حتى الآن».

كان حميد قد استنبط عدة بدائل. وبعد فترة قصيرة، ذهب لمقابلة الوزير الذي بدا أن لديه وقتاً يخصصه له باستمرار، وشرب الشاي معه بينما أخذا يقارنان أشكال الحروف معاً ويقرآن نماذج الحروف بأحجام مختلفة. بعد أربع اجتماعات عقداها، اتفقا فيها على أنواع الخط التي يجب أن تُطبع فيها الكتب المدرسية.

كان الثناء الذي حصل عليه حميد على العمل الذي قام به مهماً بالنسبة له باعتباره الوسيلة التي يستطيع أن يرسي من خلالها حجر الإصلاح، الإصلاح الذي يجب أن يتجاوز ما قاله الوزير للمجتمعين.

ظلّ يتقلّب في فراشه لليال عديدة.

كانا يتحدثا في غالب الأحيان بصراحة. وعندما أعرب حميد عن دهشته بأن مسيحياً يولي كلّ هذا الاهتمام للغة العربية التي يعتبرها المسلمون مقدّسة، ضحك الوزير. وقال له: «عزيزي حميد، لا توجد لغة مقدّسة. فقد اخترع الرجال والنساء اللغة للتخفيف من حدّة وحدتهم. لذلك فإن اللغة مرآة تعكس طبقات الوجود البشري المتعددة. باللغة، يمكنك أن تقول الأشياء القبيحة والجميلة، وتعبّر عن أفكار القتل والحبّ، وإعلان الحرب وإقامة السلام. في طفولتي كنت أشعر بخوف كبير، خاصة عندما تنهال عليّ الصفعات من مدرس اللغة العربية لأنني كنت أصرّ على أن عدد حروف الأبجدية ثمانية وعشرون حرفاً فقط، وهذا جعلني أبحث عن حقيقة الأمر.

أردت أن أهزم معلّمي بالأدلة التي أتوصل إليها، لكن عندما أصبحت مستعداً للقيام بذلك، مات لسوء الحظ».

فقال حميد: «لكننا نحتاج أيضاً إلى حروف جديدة»، منتهزاً هذه الفرصة لتحقيق حلمه، «هناك أربعة حروف مفقودة، ويمكننا أن نتخلّص من حروف أخرى لإحلالها مكانها حتى تصبح في نهاية الأمر أبجدية حيوية تستطيع أن تستوعب جميع اللغات في العالم بدقة».

نظر الوزير إليه بدهشة، وقال: «لا أفهمك تماماً. هل تريد أن تغيّر حروف الأبجدية؟»

فأجابه حميد: «لتحريرها فقط من عبئها الثقيل وإضافة أربعة حروف جديدة. فإذا كانت حروفنا ضعيفة، فإن اللغة ستتعثر ولن تكون قادرة على مواكبة سرعة الحضارة السريعة»، صمت حميد قليلاً، ثم أضاف: «أجرّب منذ سنوات. يمكنني أن أشتقّ الحروف P و O و W و E من الحروف العربية الموجودة من دون صعوبة كبيرة، و . . .»

«أوه لا»، صاح الوزير غاضباً، «بعد كلّ هذا، فهمت الآن بماذا تفكّر»، وأضاف، «عزيزي حميد، سأكون سعيداً لو تمكنت من إجراء هذا الإصلاح المتواضع الذي خططت له وأتقاعد دون أن أتلقى سكيناً في ضلوعي. قد تكون اقتراحاتك رائعة، لكن يجب أن تحظى بموافقة الباحثين أولاً. باقتراحي التخلص من حرف لا وتعليم القراءة بطريقة الكلمة الكاملة، أكون قد بلغت أقصى حد ممكن بالفرص المتاحة لي».

نهض واقفاً ومدّ يده لحميد، وقال: «أظن أن فكرتك شجاعة، لكن لا يمكن تحقيقها حتى يتم فصل الدين عن الدولة، وسيحدث ذلك في المستقبل البعيد. أنا في عجلة من أمري، وأريد أن أغيّر شيئاً الآن، لكن»، قال الوزير وهو يمسك بيد حميد بشدة، «لماذا لا تؤسس مدرسة، أو مدرستين، أو ثلاث مدارس، أو عشر مدارس

لتعليم الخط في جميع أنحاء البلد؟ إننا بحاجة إلى عدد كبير من هذه المدارس من أجل أعمال الطباعة الجديدة والحافز الذي ستشعر به المطابع وتجارة الكتب. والأهم من كل ذلك، يجب أن تكسب إلى صفك حلفاء مثل الرجال الذين تدربهم، حلفاء يتفهمون أفكارك ويدافعون عنها. عندها ستكون أكثر فاعلية من عشر وزارات». وأخيراً، طلب منه أن يتوخى الحذر. حتى هنا وهو معه في وزارة الثقافة، عليهما أن يتحدثا بصوت خافت لأن المكان مليء بأعضاء الإخوان المسلمين. وأضاف الوزير أن معظمهم غير مؤذيين، لكن بعضهم شكّل جمعيات سرية تطلق على نفسها أسماء مثل «الأنقياء»، أو «أهل الجنة»، وهم متعصبون لا يرفّ لهم جفن إذا قتلوا أحداً ويكرهون الحياة ويحلمون بأن يموتوا شهداء ليسكنوا الجنة.

لم يشعر حميد آنذاك بأي خوف.

عندما غادر كان عقله مضطرباً. انتابه شعور مثل الصياد الذي شاهده في فيلم ذات يوم، جالساً في قارب صغير في وسط المحيط العاصف يركب بجرأة فوق قمم الأمواج لينزلق قاربه الى أعمق أعماق البحر الهائج حيث شعر حميد بضيق في تنفّسه آنذاك في السينما. لقد وضعه الوزير في حالة ارتباك تام بسبب رفضه فكرة الحروف الجديدة، ثم تشجيعه على إنشاء مدارس خطّ لتكون أساساً لجيش صغير من الخطاطين الذين سيحاربون الغباء بأقلامهم القصب وحبرهم.

لكنه لم يستطع الشعور بالسعادة بمشروع تأسيس مدارس للخط مهما حاول. إذ إن إنشاء مدارس خط يعني تأجيل ما يرمي إليه لسنوات أخرى. لكنه استعاد الأمل من جديد وهو متجه إلى محترفه، فإذا استطاع أن يقنع رجل دين إسلامي شهيراً ومؤثراً واحداً، فلا بدّ أنه سيتمكن من إقناع الوزير بأن يدعم خطوة إصلاحية صغيرة ثانية.

في المحترف، صُدم مساعدوه عندما رأوه شارد الذهن، ولم يرغب القيام بأي عمل. خرج وتمشّى لمسافة طويلة ولم يعد إلى البيت إلّا بعد منتصف الليل. سألته زوجته إن كان قد تعرّض لحادث لأنه بدا شاحباً مشتت الفكر. لم يجبها، وإنما هزّ رأسه وأوى إلى سريره، لكنه استيقظ بعد منتصف الليل بقليل وذهب إلى المطبخ بهدوء، وكتب أسماء بعض رجال الدين الذين قد يتفقون مع أفكاره.

بعد ذلك حاول حميد أن يستميل العلماء المسلمين المعروفين إلى جانبه، لكنهم كانوا عدوانيين تجاهه، ونصحه أحدهم بأن يذهب إلى مكة ويحجّ بنيّة الشفاء، ورفض آخر أن يصافحه عندما افترقا، ورفض ثلاثة آخرون أن يتكلّموا معه حتى قبل أن يخبرهم بما يريد.

هل يمكن أن يكون أحدهم قد وشى به إلى تلك الأوساط الشريرة؟

كلّ شيء يشير إلى أن أحداً قد فعل ذلك، لكنه لم يكن متأكداً من هو حتى الآن، بعد كلّ هذه السنوات.

كان الوزير محقاً، فما إن أعلن عن خطته للإصلاح في نهاية شهر أيلول، حتى قبل بدء العام الدراسي، حتى انطلقت موجة من السخط والاستياء في مساجد المدن الكبرى، وشجب المتعصبون وزير الثقافة ومساعديه ووصموهم بأنهم كفار، ودعا كثير من المشايخ إلى قتل هؤلاء المرتدين.

لكن رئيس الجمهورية تصرّف بحزم، وساند وزير الثقافة، واعتقل الخطباء المتعصبين واتهمهم بإثارة الاضطرابات والقلاقل الشعبية.

توقفت الخطب النارية، لكن ظل الكثير من الهمس، بعضه

موجّه له، فنصحه معلّمه سيراني حينذاك أن يذهب إلى المسجد الأموي، لا ليصلّي فحسب، وإنما ليبدّد المشاعر المتحيزة ضده ويتحدث إلى أكثر الأشخاص احتراماً في المدينة.

بدأت تتضح له الآن أشياء معينة في السجن. ففي ١٠ تشرين الأول ١٩٥٣، بعد أسبوع من إدخال الأبجدية الجديدة المكونة من ثمانية وعشرين حرفاً، ألغى أحد المساجد والإدارة المركزية للمقبرة الرئيسية الأعمال التي كلّفته بها، من دون أن تبدي أسباباً، فدوّن ذلك في مفكّرته في ذلك الوقت، لكنه لم يعلّق عليها أي أهمية لأنه كان غارقاً حتى أذنيه في العمل، ولم يتذكرها إلّا هنا في السجن.

كان هذا سبب مخاوفه.

بعد منتصف عام ١٩٥٣ على أبعد تقدير، لا في نهاية عام ١٩٥٦ أو بداية عام ١٩٥٧، وضعه المتعصّبون على قائمة المستهدفين لأن اسمه كخطاط يرد في جميع الكتب المدرسية. إن عدم قتلهم له كان جزءاً من خطتهم الخبيثة والمصممة بمهارة، فلم يرغبوا في أن يموت شهيداً، وإنما أرادوا تشويه سُمعته أولاً، ثم دفنه حياً، يتعذّب كلّ يوم حتى يشتهي الموت.

«لن تهزموني يا برابرة»، قال بصوت عالٍ، «ستفاجأون برؤية ما الذي يمكنني أن أفعله».

نهايةُ قصةٍ وبدايةُ إشاعة

في شتاء عام ١٩٥٧، بدأ النجارون ومساعدوهم في ورشة النجارة الكبيرة في السجن الاستعدادات لتنفيذ لوحة خطّ ضخمة. وفي نهاية شهر نيسان، كان من المقرر أن يصل الخطاط المعروف علي بركة من حلب ليشارك حميد في العمل على اللوحة العظيمة.

وافق بركة على هذه الترتيبات وقرر أن يبدأ بطلاء الإطار بالذهب بإشراف حميد في أيار ١٩٥٨ وينتهي العمل بها في منتصف حزيران.

فرح مدير السجن «العظم» أيّما فرح لأن التبرع بهذه اللوحة ستخلّد اسم عائلته في المسجد الجديد الذي يُبنى في السعودية. ومع أنه كان ملحداً، لم يعرف كبرياؤه وفخره حدوداً. لم يعبأ بجميع الأديان، إلّا أن شهرة اسم عائلته بعد هذا التبرع، والاحترام الذي أصبح أقاربه يدينون به له الآن حتى قبل إنجاز اللوحة لأنه أعلم القاصي والداني بخطته أصبح أهم نقطة في برنامجه الحياتي.

منذ تلك اللحظة، بدأ العظم يعامل حميد معاملة جيدة. وبدءاً من شهر كانون الثاني، بدأت تصل إلى الخطاط وجبة ساخنة كلّ يوم من مطعم «العشي» القريب، وبدأ حميد ينام نوماً هانئاً أكثر من السابق.

لكن ذلك لم يدم طويلاً.

ففي شهر شباط ١٩٥٨، أقامت سوريا وحدة مع مصر على عجل، وبدأت مرحلة مظلمة في تاريخ البلد. فقد حُلّت جميع الأحزاب السياسية بين عشية وضحاها، وحُظرت جميع الصحف، وأعقبت ذلك موجات متتابعة من الاعتقالات.

وفي نهاية آذار ١٩٥٨، عُزل العظم من منصبه مديراً للسجن وبعد فترة قصيرة أُلقي القبض عليه بتهمة الانتماء إلى منظمة تدعمها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية تدعو إلى الإطاحة بالنظام الجديد.

كان من المقرر أن يصل مدير جديد للسجن قريباً.

شعر حميد بأول درجة من درجات السلم تحت قدميه المؤدية للجحيم، ولم يعد قادراً على الحركة بسهولة.

لكن حميد صمد، ولم يتأثر بالضربة التي تلقاها لفترة طويلة كثيراً. فتغلب على صدمته وفكّر في أن يقدّم اقتراحاً لمدير السجن الجديد: أن يكتب عبارة وطنية على السطح الخشبي الكبير الذي أُعدّ للوحة الخطّ السابقة، ويقدّمها هدية من السجناء إلى رئيس سجنهم الجديد. فقد انتهى زمن العبارات الإسلامية. كان السعوديون يكرهون عبد الناصر الذي اضطهد الإسلاميين وسجنهم وعذّبهم وقتلهم بعد تعرّضه لمحاولة اغتيال فاشلة.

انتظر حميد مدير السجن الجديد بقلق شديد. انتابه شعور بالجحود لأنه نسي داعمه «العَظم» بهذه السرعة، لكن جمعيته السرية ومستقبله احتلا في نفسه وضميره المرتبة الأولى. وكان سعيداً بكل شيء يُسَهّل تسليم إدارة جمعية الحكماء السرية وقيادتها إلى الخطاط علي بركة.

لكن مدير السجن الجديد أصابه بخيبة أمل مريرة. فقد كان

ضابطاً من منبت فلاحي لا يستطيع أن يكتب شيئاً أكثر من اسمه، لا يخلع النظارة الشمسية التي يضعها، حتى لو كان في غرفة مغلقة كأنه يريد أن يخفي عينيه. كان جلفاً، ولم يُخفِ كراهيته للكتب والمتعلمين، ويعتبر فنّ الخط خدعة ماكرة تُكلّف كثيراً ولا تهدف إلّا لزيادة القراءة صعوبة، الساديون المتعجرفون هم الوحيدون الذين يتوقعون أن يحبّها الناس.

عندما سمع حميد عن مدير السجن الجديد، لم يغمض له جفن وتملكه القلق لمدة ثلاث ليالٍ، ولم يكن ذلك من دون سبب. ففي اليوم الخامس، جاء أسوأ سقوط له في حياته.

انفجر مدير السجن في الضحك عندما رأى حميد وعرض عليه فكرته. «ملايين وملايين من الناس الوطنيين يحبّون رئيسنا المفدى جمال عبد الناصر، فلماذا يتعين على سيادته أن يهتم ببعض الجرذان في السجن سواء أحبوه أم كرهوه؟» صاح وهو لا يزال يقهقه. طلب من الجنود أن يحطموا اللوحة الكبيرة إلى قطع صغيرة، وجعلها حطباً. لكن لم يكن هذا أسوأ ما فعله، فعندما أراد المدير الجديد أن يمنح الزنازين الثلاث المخصصة للسجناء المتميزين إلى السجناء الأثيرين لديه، أرسل نزلاء تلك الزنازين السابقين إلى جحيم الزنازين العادية، ورمى وألقى اللوحات التي كتبها حميد المعلّقة على جدران الزنزانة بالإضافة إلى صوره وكتبه ودفاتره وأدوات الخط الباهظة الثمن في مجمع النفايات، ومنع حيازة هذه الأشياء. وبما أن حميد سجين مُدان، فقد قال له حارسه الجديد ساخراً إن عليه أن يكون سعيداً لأنه يتناول الطعام على نفقة الدولة. هل يتوقع أن يمارس الفنّ في السجن أيضاً؟ «أين تظن أنك نعيش؟ في السويد أم في سويسرا؟» سأله الرجل ولم ينتظر منه رداً. حتى أنه لم يكن يعرف أين تقع السويد، لكنها عبارة تقال في دمشق، لأن كثيرين من العرب يعتبرون

أن السويد وسويسرا بلدان مثاليان تعيش شعوبهما حتى في السجون بسعادة مطلقة.

في ذلك اليوم، لم تأخذ عربة القمامة التي كانت لا تزال تجرها دابة ضامرة آنذاك القمامة من المطبخ والورش ومكتب السجن فحسب، وإنما أخذت أيضاً كنزاً من لوحات الخطّ وتحف لا تقدر بثمن، وأُلقي بها في نفايات النسيان.

لم يُعثر على أي أثر للأربعين ألف ليرة التي يملكها حميد. ولم يعد يملك شيئاً غير ثيابه، عندما نُقل إلى الزنزانة الجماعية.

في نهاية شهر نيسان، بعد رحلة مضنية بالباص قادماً من حلب، سأل رجل نحيف بتهذيب عند بوابة السجن عن حميد فارسي ومدير السجن «العظم»، وأبرز الدعوة المرسلة إليه. عندما رأى الضابط المناوب الرسالة، طرد الرجل بفظاظة وقال له من الأفضل أن يبتعد من هنا قبل أن يفقد صبره. حارس عجوز يوجد في كهف فمه المظلم سنّان صفراوان نصح الرجل الغريب الساخط بأن يبتعد بسرعة لأنه اكتُشف أن مدير السجن السابق «العظم» يعمل لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية وأنه كان يتجسس لصالح إسرائيل، وأن حميد فارسي مجرم خطير.

قال الناس إن علي بركة أكّد للرجل وهو يبكي أنه لا يعرف شيئاً عن العظم وعن وكالة الاستخبارات الأمريكية، لكنه واثق من أن حميد فارسي خطاط عظيم يجب احترامه وتقديره لا رميه في السجن. وقال إنه يعرف عدداً من الخطاطين الشباب في حلب المستعدين للتضحية بحياتهم من أجله.

هزّ الحارس رأسه لهذه العواطف الجياشة، ودفع الرجل النحيل الذي ملأت الدموع عينيه بعيداً، وقال له: «من الأفضل ألّا تذكر

على لسانك اسمَيْ هذين الرجلين. ابتعد من هنا الآن قبل أن آخذك وأجمعك مع صديقك في الزنزانة الكبيرة».

وصل حميد إلى القسم الذي يضم أسوأ المجرمين المحكوم عليهم بالسجن المؤبد، بائساً محطماً.

كان هذا جحيماً لا يطاق على الأرض بين الجرذان والقتلة الذين تآكلت أدمغتهم من شدة الرطوبة طوال تلك السنين. فقد ملأت الرطوبة جدران السجن بسبب قرب القلعة من نهر صغير. وعندما احتل الفرنسيون البلد، قال جراح بيطري في الجيش الفرنسي إن الطابق الأرضي في القلعة لا يصلح لأن يكون حتى إسطبلاً للخيول والبغال.

لم يُرعب كلّ هذا البؤس حميد فارسي كما أرعبته الحقيقة بأن سمعته السيئة سبقته. وعامله النزلاء الأربعة عشر في هذه الزنزانة المظلمة الكبيرة بازدراء، ولم يصدّق أحد منهم القصة التي حكاها لهم.

«لكنّي قتلته. طعنته بسكيني ١٢ طعنة»، قال محاولاً أن يكسب بعض الاحترام منهم. لم يحصِ حميد عدد الطعنات، لكن محامي عائلة قباني أكّد له أنها اثنتا عشرة طعنة.

«أنت لست مجرد أحمق وديوث، وإنما قتلت الرجل الخطأ»، قال فارس الذي يمضي أربعة أحكام بالسجن المؤبد، «لم يضاجع نصري زوجتك فقط، وإنما ضمّها مدير السجن «العظم» إلى حريمه، أم أنك تظن حقاً أنه وضعك هناك في الفيلا لأنك تجيد فن الخط؟»

صرخ حميد وبكى من شدة الغضب، أما بالنسبة للسجناء الذين يمضون حياتهم في السجن، فلم يفهموا بكاءه إلّا أنه اعتراف بالذنب.

بعد شهرين، أبلغ الحراس مدير السجن الجديد عن شيء يدعو إلى القلق، فنُقل حميد فارسي إلى «العصفورية»، مستشفى الأمراض العقلية في شمال مدينة دمشق.

ألقى نظرة أخيرة على الخطاط الذي امتلأ جسده بالكدمات والأوساخ. عندما صاح، «أنا نبي الخطّ وحفيد ابن مقلة. لماذا يعذّبني هؤلاء المجرمون كلّ ليلة؟» فانفجر السجناء الآخرون في الضحك، «أعطوني قطعة من الورق وسأريكم كيف يتدفق النص من أصابعي. لا يوجد أحد مثلي».

«لا يتوقف عن إحداث الجلبة نفسها كلّ يوم حتى نهشم وجهه، ثم يصرخ ويندب مثل امرأة»، قال سجين ضخم وجهه مليء بالندوب وعلى صدره وشم كبير على صورة امرأة تحمل مرساة سفينة.

«رشّوه بالماء واغسلوه مرتين بالصابون والكحول قبل أن يأتي رجال المستشفى»، قال مدير السجن، «لا أريد أن يتحدّثوا عنا بالسوء».

أُرسل حميد إلى المستشفى حيث أمضى بضعة أشهر، وعندما أبدى شيئاً من التحسن، نُقل إلى مؤسسة نفسية مغلقة، ثم ضاع أثره، لكن اسمه بقي حياً.

ورثت شقيقته سهام كل ممتلكات حميد، ثم باعت البيت بعد سنوات لضابط كبير في الجيش. حتى بعد مضي عشر سنوات، ظلّ الجيران يقولون عن البيت بأنه «بيت الخطاط المجنون». كان هذا أحد الأسباب التي دفعت الضابط الكبير إلى بيع البيت مرة أخرى، فاشتراه السفير الفنلندي الذي لم يكن لديه مانع من أن يعيش في بيت الخطاط المجنون الجميل. وفي جميع الأحوال، لم يكن يفهم اللغة العربية.

اشترى صمد، مساعد حميد، الذي أصبح رجل أعمال ناجحاً،

المحترف بسعر باهظ، وأبقى اسم حميد فارسي على اللافتة المعلّقة أعلى الباب، والأختام وجميع الأوراق الرسمية. وأصبح يوقّع اسمه على الأعمال التي ينجزها بحروف صغيرة يصعب فك رموزها. ووصلت شهرة الخطاط حميد فارسي إلى المغرب وإيران، وبدأت ترد أعمال كثيرة إلى المحترف من هناك.

كان صمد خطاطاً ماهراً، لكنه لم يصل قط إلى دقة معلّمه ورشاقته وكماله. رأى الخبراء ذلك على الفور، لكن بالنسبة لغالبية المواطنين الأغنياء ورجال الأعمال وأصحاب الشركات، كانت لوحات الخط تحظى بقيمة خاصة عندما تأتي من محترف حميد فارسي. كان صمد رجلاً متواضعاً لكنه ذكي، وإذا سأله أحد لماذا لا يصل خطّه الى درجة جودة وكمال خطّ معلّمه، كان يبتسم ويجيب، «حتى لا ينتهي بي الأمر كما انتهى به».

لكن كيف انتهى الأمر بحميد فارسي؟ هذه قصة لها استنتاجات متباينة لا حصر لها. فقد بدأت شائعة تدور على الألسنة بعد فترة قصيرة من نقله إلى مستشفى الأمراض النفسية، بأن حميد هرب من المستشفى بمساعدة مؤيديه وهو يعيش الآن حياة خطاط مرموق في إسطنبول.

كان هناك شهود مستعدين لدعم هذه القصة. وبعد عشر سنوات، قال حارس سابق في سجن القلعة لإحدى الصحف إنه عندما كان حميد في السجن تلقّى ثلاث رسائل من حلب تم فحصها بالطبع قبل أن تُعطى له. رسائل مكتوبة بخط جميل موشاة بزخارف عريضة. وقال إنه يتذكّر جيداً أنه بعد أن وصلت الرسالة الثالثة مباشرة، فقد حميد فارسي صوابه، أو هكذا بدا الأمر.

ورفض مستشفى الأمراض النفسية أن يدلي بأي تعليق. لا لأن

هرب مجنون لا يثير اهتمام أي شخص في دمشق، وإنما لأن اسمه حميد فارسي، وظن أعداؤه الألداء، وعلى رأسهم عائلة قباني، في أن هروبه كان مخططاً بذكاء.

بعد عشرين عاماً، وفي تقرير مثير، كشف صحفي إذاعي عن فضيحة وقال إن حميد هرب في ذلك الوقت، وظل الطبيب مدير المستشفى النفسي الذي خدم فيه فترة طويلة متكتماً على الأمر.

وقال المراسل إنه لم تكن لدى حميد أي فرصة للهرب من سجن القلعة، «ولم يكن يرغب في أن يمضي بقية حياته مسجوناً مع المجرمين، فتظاهر، بالاتفاق مع أصدقائه في حلب، بأنه فَقَد صوابه، ومن الواضح أنه نجح في ذلك. فهناك في العصفورية لا يوجد سوى سياج حديقة صغير يمكن تسلقه بسهولة. وبعد أن قُدِّمَت بعض الهدايا للمدير الطبيب، ازداد السياج انخفاضاً»، قال عندما سأل أحد المارة الذي أكّد للمستمعين أن أي شخص، حتى أصغر رياضي، يستطيع أن يخرج بسهولة من وراء سياج شبكي من الأسلاك غير المحمية، وقد أحدث بثّ هذه المقابلة ضجة كبيرة في دمشق، وتعزى إلى ذلك الوقت نكات كثيرة حول مبادلة السياسيين بالمجانين.

لكن لم يكن هدف المراسل تسلية المستمعين، وإنما لتصفية حسابات مع الطبيب مدير المستشفى الذي شغل هذا المنصب لمدة أربعين سنة، والذي كان المراسل يكرهه. وانتهى برنامجه ببيان قال فيه إن المدير كذب عندما قال إن حميد مات ودفن في مقبرة المستشفى. وأكدت شقيقة الخطاط بسخط أمام الميكروفون أنها كانت ستعرف إن كان شقيقها الحبيب قد مات أم لا، وأضافت غاضبة، «على العاملين في المستشفى أن يدلوني أنا والصحافة على قبر أخي حميد فارسي - إذا كان باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك».

وعلى الرغم من الفضيحة، لم يكن لدى الدكتور سلام مدير مستشفى الأمراض النفسية ما يدعو إلى الخوف على منصبه. فقد كان أخوه الأصغر ضابطاً كبيراً في القوات الجوية، لذلك لم يجهد نفسه بالرد على الإشاعات، لكن صاحب الكراج الثري حسن براك لم يُبقِ فمه مغلقاً، وأجرى مع الصحفي مقابلة أحدثت ضجة كبيرة في العاصمة.

فقد تحدّث حسن براك صراحة عن انحدار الثقافة العربية، وقال إن «حميد فارسي نبي. وكما ترى»، قال بصوت متهدج بانفعال، «نبي في دمشق ينتهي به الأمر كإشاعة. إننا أمة لعنها اللّه. إننا نهاجم أنبياءنا ونضطهدهم. ننفيهم أو نصلبهم أو نطلق عليهم النار أو نرسلهم إلى مصحات المجانين، بينما تبجلهم الدول المتحضرة الأخرى وتوقرهم. يعيش حميد فارسي في إسطنبول حتى يومنا هذا»، قال الرجل الذي كان يعمل أجيراً منذ أكثر من ثلاثين سنة والذي سمع نصيحة حميد فارسي بأن يدير ظهره للخط ويصبح ميكانيكي سيارات وقد أصبح الآن أشهر وأغنى صاحب كراج لتصليح السيارات في دمشق. لم يهدأ بسرعة، ومضى يقول لمستمعي المذياع المذهولين كيف أنه تعرف بالصدفة عندما كان يمضي عطلة في إسطنبول على لوحة خطّ بريشة حميد فارسي، ودفع مبلغاً كبيراً ليشتري تلك اللوحة الفريدة، ووصف صاحب المعرض الذي اشترى منه اللوحة الخطاط بدقة كبيرة. لكن عندما سأله حسن براك إن كان بإمكانه أن يرى معلّمه القديم، رفض صاحب المعرض الفكرة برمّتها، وقال وهو يضحك كما لو كان ما قاله مزحة، إن كبير الخطاطين لا يريد أن يرى أي شخص عربي أو يتحدّث إليه.

بعد ذلك بفترة قصيرة، قال الصحفي الإذاعي إن صاحب الكراج أراه هو والمراسلين الآخرين والزائرين لوحة الخطّ التي ذكرها. وأكّد

البروفسور بغدادي، الخبير في الخطوط، على أنها مكتوبة بقلم الرجل الذي وقّع عليها. وقال إن باستطاعته أيضاً أن يحلّ رموز التوقيع الذي في شكل وردة جورية وتُقرأ حميد *فارسي*.

على مسافة ثلاثمئة وستين كيلومتراً من مدينة دمشق، انتقل زوجان شابان إلى منزل صغير في شارع الأربعين في نيسان ١٩٥٧.

يقع الشارع في الحيّ المسيحي القديم في مدينة حلب، عاصمة شمال سورية، وسرعان ما افتتح الزوج محترفاً صغيراً للخطّ قبالة الكنيسة الكاثوليكية الأشورية. كان اسمه سمير ولم يولِ أحد اهتماماً لاسم عائلته حوراني. عُرف بطبيعته الودودة وأذنيه البارزتين. موهبته وبراعته متوسطة لكن كل من يراه ذاهباً الى محترفه يشعر أن هذا الرجل يعيش في سعادة.

قلما كلفته المساجد والمطابع الإسلامية بأي عمل، لكن بما أنه كان يطلب أجراً أقل من الخطاطين الآخرين، فقد كان يحصل على عمل كافٍ لإعداد اللافتات والملصقات من دور السينما والمطاعم والمطابع والناشرين المسيحيين. وقد كلّفه الأب يوسف جمال بتصميم جميع كتب دار النشر التي أسسها مؤخراً. ومقابل ذلك، كان سمير يبيع صور القديسين في محترفه بالإضافة إلى بطاقات بريد وحبر للخطاطين وقرطاسية. وبناء على اقتراح القس، اشترى الخطاط آلة صغيرة يستطيع أن يصنع بها أختاماً للمكاتب، والمدارس، والنوادي، والجمعيات.

بهذه الوسائل مجتمعة استطاع أن يكسب رزقه. وفي كل لحظة فراغ، كان يعمل على خطته السرية. فقد أراد أن يبتكر نوعاً جديداً من الخطّ بالحروف العربية. حروف واضحة تجعل القراءة أكثر

سهولة، وتُظهر أناقة الحرف، وقبل كل شيء تتنفس روح العصر الحديث الذي يحوم أمام عينيه.

كانت زوجته ليلى، كما اكتشفت جاراتها سريعاً، خيّاطة ممتازة وأول من حصلت على ماكينة خياطة «سنجر» كهربائية في الشارع. واشتهرت بسرعة في الحيّ المسيحي أكثر مما اشتُهر الخطاط الشاب، وبعد سنة، أصبح سمير يُعرف باسم «زوج الخيّاطة».

مثل غالبية الرجال العرب، كان سمير يتمنّى أن تنجب زوجته صبياً، لكن بعد عدة حالات إجهاض، أنجبت ليلى طفلته الوحيدة سارة، طفلة صغيرة جميلة تنعم بصحة جيدة.

ثم أصبحت خطاطة شهيرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الخط العربي موسيقى تُطرِبُ العيون

قصة جمال الخط العربي

بقلم: رفيق شامي

ترجمة: خالد الجبيلي

لوحات الخط بريشة الخطاط عصمت أميرالاي

ذاك نبيٌّ فيه،
أُفرغ الخطّ في يده
كما أُوحي إلى النحل في تسديس بيوته

أبو حيان التوحيدي
عالم موسوعي وصوفي في حديثه عن ابن مقلة

إذا كان بإمكان أحد أن يطلق لقب «ليوناردو دافنتشي الخطّ العربي» على أحد، فهو أبو علي محمد بن علي بن مقلة، المعروف باسم «ابن مقلة» الذي ولد في أحد أحياء بغداد الفقيرة سنة ٨٨٥ م (يثير اسمه «مقلة» الفضول، فهي كلمة شاعرية مرادفة «للعين» أطلقها جدّه على أمّه لولعه الشديد بابنته. وعندما تزوجت خطاطاً فقيراً، لم تحمل الأسرة اسمه أو اسم عشيرته، وإنما حمل اسمها، وهذا أمر قلّما يحدث في الثقافة العربية في ذلك العصر وحتى الآن). وكان والد ابن مقلة وجدّه وشقيقه، بالإضافة إلى أبنائه وأحفاده، خطاطين، لكن ابن مقلة كان أشهرهم جميعاً.

تعلّم ابن مقلة فن الخط عندما كان صغيراً. وفي السادسة عشرة من عمره، أصبح تلميذ أستاذه النجيب، الخطاط المعروف ابن الفرات الذي ارتقى إلى منصب الوزير الأول في الخلافة العباسية وأسند فيما بعد إلى تلميذه ابن مقلة وظيفة محصل ضرائب للخليفة، حقق منها الشاب ثروة كبيرة. ومع أن الدولة العباسية كانت أقوى حضارة في العالم في ذلك الوقت، فقد أصبح العصر الذهبي للخلفاء التسعة الأوائل من ضرب الماضي. خلال فترة حياة ابن مقلة، بلغت

الثقافة العربية التي امتدت منذ نهاية القرن التاسع وحتى بداية القرن العاشر، أوجها. وأنتجت بغداد حينذاك كميات من الورق والكتب أكثر مما تنتجه أوروبا مجتمعة. وكان عدد المكتبات في مدينة بغداد أكثر مما وُجد آنذاك في كل مدن العالم الأخرى. ومن الناحية السياسية، كان من الواضح أن الدولة العباسية قد بدأت تتفكك. ولم تكن المدن على الأطراف هي المناطق المتأثرة الوحيدة من هذا التراجع في هيبة الدولة المركزية، حيث كان الولاة المحليون (في دمشق وحلب والقاهرة والمغرب والأندلس وأماكن أخرى) مستقلين عن الدولة العباسية، فقد وصل المتمردون إلى مركز السلطة بغداد وهزّوا أركان الدولة. وكان معظم المتمردين الذين هاجموا بغداد ومكة من المسلمين الشيعة أو من الشعوب غير العربية، فأهانوا الخليفة السنّي المقتدر ودمّروا مدنه عدة مرات (مثال على ذلك، البصرة في العامين ٩١٢ و ٩٢٤، ومكة عام ٩٢٩ م).

وفي نفس الوقت اكتسب البيروقراطيون والحريم والأمراء الذين قادوا الجيش والشرطة مزيداً من القوة في بغداد على حساب الخليفة الذي كان يُعزل ويُعتقل في كثير من الأحيان، وتُحتجز ممتلكاته - ثم يحرره الجانب الآخر ويعيد تنصيبه كخليفة «جديد».

في هذه الأجواء المضطربة عاش وعمل ابن مقلة.

كان ابن مقلة أعظم خطاط عربي طوال العصور، مهندس الخطّ العربي. فلم يطوّر عدة أساليب ويحسنّها في الكتابة فحسب (من بينها خطّا الثلث والنُسخ)، وإنما كان كذلك أول من اقترح نظرية مقاييس الحروف وأبعادها، وضبطها وجعلها متناغمة ومتناسقة. ولا تزال قواعد نظام هندسته النسبية للخط معمولاً بها حتى يومنا هذا، وبتطبيقها يستطيع أي خطاط أن يتحقق بسهولة إن كانت نسب خطّه صحيحة أم لا.

إن أول حرف عربي «ألف» هو خط عمودي اختاره ابن مقلة ليكون مقياساً لجميع الحروف المكتوبة. ومنذ ذلك الحين، بدأ ابن مقلة وجميع الخطاطين يحدّدون طول حرف «الألف» في النص الذي يكتبونه، كمقياس لطول الحروف الأخرى بواسطة نقاط متتابعة ومرسومة بشكل عمودي، ويتوقف حجم النقطة على عرض الريشة المستخدمة عندما تُضغط على الورقة. وتُضبط جميع الحروف الأخرى، سواء أكانت أفقية أم عمودية بالأبعاد التي حددها ابن مقلة بعدد معيّن من النقاط. بالإضافة إلى ذلك، تكوّر بعض الحروف بتتبع دائرة يتوافق قطرها مع طول حرف الألف. ويشار إلى هذه التقنية أحياناً باسم «الخط المتناسب»، لأن جميع الحروف ترتبط بحجم حرف «ألف» وعرض الفرشاة (أي بالنقطة التي تصنعها).

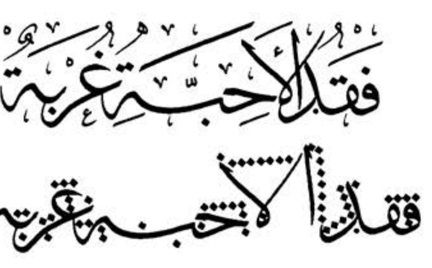

إن الالتزام بهذه المقاييس والنسب يشبه الإيقاع في معزوفة موسيقية، فهي تمنح تناسقاً للخط يصبح «موسيقى تطرب العين». وبعد سنوات من الممارسة، يفعل كلّ خطاط محترف ذلك تلقائياً، إلاّ أن النقاط تُظهر دائماً إن كانت المقاييس صحيحة أم لا.

كان ابن مقلة موهوباً في الرياضيات وضليعاً في مجال الخطّ، وعالم طبيعة، وشاعراً. وقد اطّلع أيضاً على ما كتبه اللاهوتيون والملحدون، مثل ابن الراوندي وابن المقفع والرازي والفارابي. وكان من أشدّ المعجبين بالكاتب الموسوعي الجاحظ. لكنه بخلاف الجاحظ الذي رفض مرافقة الحكام في عصره، إذ لم يحتمل الجاحظ البقاء في بلاط الخليفة المأمون، راعي العلوم والآداب، الذي حكم كخليفة من سنة ٨١٣ إلى ٨٣٣ م، لأكثر من ثلاثة أيام. والعجيب في أمر العبقري ابن مقلة إصراره رغم نكساته أن يظل في رفقة الخلفاء.

قد يكون هناك سر وراء هذا التزلّف غير العقلاني؟ ليس هناك جوابٌ واضحٌ لهذا السؤال بل مهاترات كثيرة وتُهم باطلة... لكن قد يكون أحد الأسباب هو عشقه للكتابة واستماتته في سبيل تطويرها كما سأبيّن فيما بعد. لكن حتى هذا التفسير القريب من نفسية هذا الخطاط العبقري قد يكون ممكناً أو لا لكنه على الأقل لا يهين عبقريّاً ندين له جميعاً بالفضل لما قدّمه لجمال خط لغتنا ورفعها بذلك إلى أرقى الفنون.

تبوّأ ابن مقلة منصب الوزير الأول - الذي يعادل منصب رئيس الوزراء في عصرنا الحالي - في بلاط الخليفة العباسي الثامن عشر (المقتدر بالله) ثم نفاه وصادر أمواله ولمّا آلت الخلافة إلى الخليفة العباسي التاسع عشر (القاهر بالله) تبوأ ابن مقلة مجدداً منصب الوزير إلى أن حرض أعداؤه الخليفة متّهمين ابن مقلة بالتآمر عليه فأرسل يطلبه. أدرك ابن مقلة الخطر وتوارى عن الأنظار حتى تولى الخليفة

لوحة «اختر الرفيق قبل الطريق»

العشرون (الراضي بالله) الحكم وكان هذا الخليفة تلميذ ابن مقلة في صغره فأرسل إليه وعيّنه وزيراً أوّلَ فعاد ابن مقلة ليخدم الخليفة. وهذا التقرب من هؤلاء الخلفاء جرّ عليه هلاكه في نهاية المطاف.

كانت مدينة بغداد في ذلك العصر عاصمة إمبراطورية ضخمة، ومركز قوة الإسلام الدينية والدنيوية. وكان المسلمون المحافظون يعارضون أي إصلاح مهما كان، ويعتبرون الحروف العربية مقدسة لأنها الحروف التي كُتب بها القرآن. لكن ابن مقلة أدرك أن الخط العربي ليس هبة إلهية. ومع أنه كان مأخوذاً بجمالها، فقد كان يدرك أيضاً نقاط ضعفها. (على سبيل المثال، انتقد العديد من الخطاطين والمترجمين في زمن ابن مقلة عدم وجود حروف في اللغة العربية تمكّنهم من التعبير عن ألفاظ من لغات أخرى كالفارسية). بدأ ابن مقلة في وقت مبكر يتساءل كيف يمكنه أن يُدخل بحذر شديد إصلاحات على الأبجدية، مصدر الحروف نفسها. فراح يجرّب ويدوّن ملاحظات بانتظار قدوم اللحظة المناسبة.

كان ابن مقلة يعرف أن عدّة إصلاحات قد أُدخلت على الخط العربي، أهمّها جرت في بغداد قبل مئة وخمسين سنة من ولادته. حتى ذلك الحين، لم تكن للحروف نقاط فوقها أو تحتها، وكان تشابه العديد من الحروف يؤدي إلى صعوبة قراءة بعض الكلمات وسوء فهمها وتفسيرها، حتى عندما كان رجال الدين يقرأون نصوصاً دينية بصوت عال كانوا يخطئون غالباً تصحيفاً ولحناً. وكانت قد أُجريت محاولات طفيفة عديدة تهدف إلى تحسين الخط العربي، رأى معظمها النور في مطلع القرن الثامن. وقد أُضيف لخمسة عشر حرفاً (أكثر من نصف حروف الأبجدية العربية)، نقطة أو نقطتان فوق الحرف المضافة إليه أو تحته أو ثلاث نقاط فوقه، فأزيل اللبس الذي كان من الممكن أن يحدث أثناء القراءة. كان الخليفة عبد الملك بن

مروان والحجاج، الحاكم الدموي في إقليمه الشرقي، قد أسكتا كلّ الأصوات المحافظة التي عارضت الإصلاح، وأعاد الخليفة كتابة القرآن بالخط المعدّل، فأصبح بإمكان أي شخص أن يقرأ القرآن من دون أي خطأ.

خط عربي قبل التنقيط

لم تكتسب النصوص الدينية وضوحاً فحسب، وإنما أصبحت لغة الشعر والعلوم والاستخدام اليومي للحروف العربية أكثر وضوحاً ودقة، لكن لولا يد الخليفة القوية ويد السفاح الحجاج بن يوسف الثقفي، لما كان بالإمكان اتخاذ خطوة كهذه. وقد عرف ابن مقلة ذلك، فشعر بالحاجة إلى دعم خليفة مستنير ذي بصيرة ثاقبة تساعده على المضي في عملية إصلاح ملحّة.

الصبر والمرح جملان تعبر بهما كل صحراء

كان ابن مقلة يحبّ الخطّ العربي كما يحبّ ابنه، فبذل كلّ ما بوسعه لخدمته، لكنه خسر كل شيء في نهاية الأمر. هل أراد أن يصل بتقرّبه من الخلفاء إلى السلطة كما زعم أعداؤه؟ من المؤكد أنهم ادّعوا زوراً أن لديه مخططات يتآمر فيها على الخليفة، وملأوا كتباً كاملة بهذه الدعاية الكاذبة. كان ابن مقلة قد حقق أشياء كثيرة قبل أن يقود الخطوات الجذرية التي كانت ستفضي إلى إصلاح الخط والتي أدت إلى دماره الشخصي.

علّم ابن مقلة الخليفة العباسي العشرين، الراضي باللّه، الفلسفة والرياضيات واللغة. وكان ابن مقلة بالنسبة للخليفة الراضي كما كان أرسطو بالنسبة للإسكندر الكبير، لكن الخليفة الراضي باللّه افتقر إلى الروح الشجاعة لذلك المحارب المقدوني العظيم الذي غزا العالم.

عندما كان ابن مقلة لا يزال يتربع على قمة سلطته، شيّد لنفسه قصراً في بغداد أحاطت به الأساطير. وقد حفر على أكبر حجر من أحجار السور الكبيرة عبارة: «*ما أصنعه سيبقى إلى الأبد*». وقد جرّت شهرته وثروته عليه الكثير من الحسد والعداء، ولم يكن ليكترث لذلك لو كان الخليفة الراضي يتمتع بشخصية قوية. وكان من الممكن أن ينجو ابن مقلة أيضاً لو لم ينقلب عليه رجال الدين المسلمون في زمنه، وأصدروا فتاوى لتبرير العقوبات التي لحقت به. وقد ازداد عداؤهم له على مرّ السنين، وكانوا يراقبون كلّ ما يفعله الوزير الأول بريبة.

كان ابن مقلة يحبّ الحيوانات، فحوّل حديقة قصره الضخمة إلى حديقة حيوانات تطوف فيها جميع أنواع الحيوانات بحرّية تامة في حظائر منفصلة. وكانت لديه شبكة مترامية الأطراف من المراسلين الذين يرسلون له الأخبار من أنحاء الدولة بواسطة حمام الزاجل. ولكي يمنح الطيور إحساساً بالحرية، بنى لها في سماء الحديقة شبكة

من الحرير، وكان فريق من الحراس والأطباء البيطريين يقومون على رعاية الحيوانات في حديقته. حاول ابن مقلة أن يفهم قصة الخلق بدراسة مملكة الحيوان، وأجرى فريقه تجارب على التهجين. صحيح أنهم حققوا نجاحاً طفيفاً في تهجين الطيور والكلاب والقطط والأغنام والماعز والحمير والخيول، إلاّ أن الكثير من تلك التجارب فشلت وأدت إلى ولادة مخلوقات مشوهة، وقد أثارت تلك التجارب اهتمام الكثيرين في بلاط الخليفة، لكنها أثارت ضده أيضاً كراهية وأحقاداً كثيرة. وظلت هذه المناقشات والتجارب بعيدة عن معرفة الناس العاديين، وبقيت حبيسة وراء جدران القصر السميكة في بغداد.

إن التقدّم الذي حققه ابن مقلة في مجال العلوم الطبيعية شجعه على أن يُقدِم على خطوة أخرى، الخطوة التي لو نجحت لجعلته مشهوراً في العالم، وهي التوسع باللغة العربية وحروفها بتهجينها مع لغات أخرى. كان ابن مقلة قد درس اللغات الفارسية والعربية والآرامية والتركية واليونانية، واطّلع على تطور الخط العربي منذ بداياته حتى العصر الذي يعيش فيه. وقد مكّنته الدراسات الدقيقة التي أجراها من ابتكار أبجدية عربية جديدة، شملت خمسة وعشرين حرفاً فقط، يمكن من خلالها نطق حروف وأصوات جميع اللغات المعروفة حينذاك.

كان الخليفة الراضي باللّه يحبّ معلّمه ووزيره الأول كثيراً، وظن ابن مقلة أن الخليفة سيدعمه في محاولاته الرامية إلى إصلاح الخط العربي. كان الخليفة حينذاك في الرابعة والعشرين من عمره، منفتحاً على العالم، يقرض الشعر، ويحبّ الخمر والنساء، لكنه، شأن جميع الخلفاء اللاحقين، بدأت سلطته تذوي ولم يعد له نفوذ قوي حتى في بلاطه، وعجّ قصره بالبيروقراطيين والأمراء وزوجات

الخليفة وأمراء الجيش الذين راحوا يحيكون المؤامرات والدسائس لفترة طويلة لإبعاد الإصلاحيين عن الخليفة.

كان ابن مقلة آنذاك في أواخر الأربعينات من عمره، وأدرك أن الخلافة آخذة في الانحطاط والتدهور، وخشي ألّا يتمكن من تنفيذ خططه الثورية. كانت بغداد تمور بالاضطرابات والمؤامرات. وكان ابن مقلة معتداً بنفسه كثيراً، حادّ الطبع، عنيفاً في حبّه وفي كراهيته يعامل موظفي البلاط بفظاظة، لذلك لم يكن محبوباً لدى المقربين من الخليفة. وعلى الرغم من جميع المؤامرات التي حيكت ضده، أصبح ابن مقلة الوزير الأول للخليفة الشاب الراضي، ما عزز إيمان ابن مقلة بسلطته وحجب النور عن عقله، وأصبح معزولاً في قصر الخليفة.

نصحه عدد من أصدقائه المخلصين الذين شعروا بالقلق عليه بأن يغادر القصر ويتمتع بشهرته كخطاط متألق، ويا ليته استمع لهم، لكن ابن مقلة أصرّ على المضي في تنفيذ خططه الطموحة لإصلاح الأبجدية العربية التي يتطلب تنفيذها دعم الخليفة لمواجهة السلطة الدينية. وأدرك أن مجرد فكرة إجراء أي تغيير على الحروف العربية يعتبر عند المتزمتين خطيئة لا تُغتَفَر. حوت قصور جميع الخلفاء في تلك الحقبات أكثر من أربعة آلاف جارية وخصي يقومون على خدمتهم وإمتاعهم، وكان معظم الخلفاء يحبّون الخمرة أكثر من الشريعة، لكنهم تصنّعوا ظاهرياً بالتقوى والإيمان الذي لا يعرف المهادنة ولم يتساهلوا علناً قط إذا كان الأمر يتعلق بمسائل دينية. فقد جُلد فلاسفة وشعراء مشهورون أو أُعدموا بوحشية لأنهم اقترحوا أدنى درجات إصلاح هيكل الحكومة أو أعربوا عن أدنى شك يمس القرآن.

ولم يتردد الخلفاء في اعتبار أنفسهم «ظلّ اللّه على الأرض»، وأن خلافتهم هي التعبير الكامل للحكم الإلهي. وكانوا هم

(وحاشيتهم إلى درجة كبيرة) متشددين إزاء أي تغيير يمكن أن يطرأ على الدين الإسلامي، مهما كان بسيطاً.

كانت إصلاحات ابن مقلة الثورية في الخط العربي ثنائية الوجه، الأول أنه أراد أن يجعل الحروف العربية واضحة ومباشرة لا لبس فيها، سهلة عند قراءتها. والثاني، وهو هدف طويل الأمد وأكثر أهمية، هو أن تضم حروف الأبجدية كل الأصوات في العالم. لم يدرك أنه بتحقيق هدفه الأول، يدعم طبقة الحكام السنّة في صراعهم مع الشيعة. فقد كانت عدة جماعات شيعية - من بينها الطائفة الإسماعيلية - ترى أن القرآن مكتوب على عدة مستويات يخفي في طياته تأويلات مختلفة. وذهبت بعض الفرق المغالية الأخرى شأواً أبعد من ذلك، وادّعت أن ما يفهمه عامة الناس من القرآن ما هو إلّا الظاهر، أي السطح، القشرة، ويخفي تحته لباً أكثر أهمية وتعقيداً في معاني الكلمات، الباطن (لذلك أُطلق عليها اسم الفرق الباطنية)، ووفق معتقدهم، فإنهم يرون أن لكل كلمة في القرآن معنى مزدوجاً، لكن أتباع المذهب السنّي رفضوا هذا رفضاً قاطعاً، وقالوا إنه لا توجد معان مزدوجة في كلمات اللّه.

كان الخليفة في بغداد ومستشاروه وجميع الفلاسفة ورجال الدين في البلاط ينتمون إلى الطائفة السنّية، يتسترون في قيادة الحرب ضد الشيعة وراء زعمهم بأن هذه الحرب هي معركة الخليفة التقي، الحاكم الذي اختاره اللّه للقضاء على المرتدين والكفار، لذلك، كانوا سعيدين جداً عندما وضع ابن مقلة نظاماً دقيقاً لأبعاد ومقاييس الحروف المكتوبة وخطوطاً بسيطة وجميلة ومرنة وهي الخط، *النُسخي*، الذي أصبح باستطاعة النسّاخ استخدامه في كتابة القرآن بسرعة وبوضوح شديد من دون تنميق. (كلمة «نُسخي» مشتقة من فعل «نَسَخَ» ويستخدم هذا الخطّ كثيراً في طباعة الكتب حتى يومنا هذا)

وأصبح ابن مقلة أفضل سلاح في حرب السنّة ضد المعارضة الشيعية. لكن الخليفة ورجال الدين لم يعلموا أن ابن مقلة كان يريد أن يُدخل إصلاحات جذرية أخرى على الأبجدية العربية.

أحبّ الخليفة الراضي ابن مقلة، وكان يثني عليه ويمتدحه على الملأ، لكن عندما أفضى له ابن مقلة بتفاصيل أسرار أبجديته الجديدة، صُدم الخليفة، وحذّر ابن مقلة من أن أعداءه يقفون له بالمرصاد، لكن ابن مقلة فسّر هذا التحذير بأنه تلميح من شخص يحرص على سلامته سيكون حليفاً له، وسوء التفاهم هذا سيجر كارثة على ابن مقلة. بدأ هذا العبقري بجمع عدد من الأشخاص الذين يوافقونه الرأي، فشاركه عدد من رجال الدين والمترجمين المعروفين في آرائه حول ضرورة إجراء إصلاح جذري على اللغة العربية وأبجديتها، لكنهم أدركوا أن دعمهم لهذه الفكرة سيشكل خطراً عليهم لأن المحافظين سيعتبرون ذلك اعتداء على القرآن نفسه، فتوقف معظم الإصلاحيين عن دعمه، لكن ابن مقلة لم يعبأ بالخطر الوشيك، لأنه كان واثقاً من تعاطف الخليفة الراضي ودعمه له.

عندما عرف أعداء ابن مقلة ما يزمع القيام به، أبلغوا الخليفة وربطوا ذلك مباشرة بالتجارب التي يجريها على تهجين الحيوانات، وقالوا إنهم يرون أن هدف ابن مقلة الوحيد يكمن في السخرية من الذات الإلهية وتنصيب نفسه خالقاً مكانه، وأنه يسعى إلى تغيير لغة القرآن. فأمره الخليفة الشاب بأن يتخلّى عن خططه هذه.

لكن ابن مقلة، الذي كان متديناً من أعماق قلبه، لم ير في إصلاحاته أي ابتعاد عن القرآن، وأكّد للخليفة أنه يتمنى أن يموت على أن يشكّك في كلمة واحدة واردة في القرآن، وأكّد له أن تبسيط الحروف العربية وتوسيع نطاقها سيساعدان على انتشار اللغة والقرآن بشكل أكبر.

عندما افترق الصديقان، اعتقد كلّ منهما على نحو خاطئ وخطير أنه تمكن من إقناع الآخر.

لم يقدّر ابن مقلة خطر أعدائه حق تقدير.

في البداية، لم يرفض الخليفة الراضي باللّه في حواره مع مفكري البلاط فكرة الإصلاح بحد ذاتها، لكن رجال الدين هددوا بالتمرد عليه بدعوى البقاء أوفياء للإسلام، إذا وافق على رؤية ابن مقلة وتقبّل أفكاره. كان الخليفة يعرف ما الذي يعنيه ذلك: فقد رأى كيف قُتل أبوه على يد الغوغاء، وشهد بأمّ عينه كيف أن عمه عُزل عن عرشه وأُلقي القبض عليه بسبب مؤامرة حيكت في القصر - ونجا هو أيضاً من محاولة اغتيال.

وحدثت الآن مؤامرة خبيثة تُظهِر الخطاط للخليفة الضعيف الشخصية في شكل مشبوه.

بينما كان ابن مقلة ذاهباً لمقابلة الخليفة، هاجم عبيد المظفر بن ياقوت وابن رائق الخطاط والوزير الأول ابن مقلة في أحد دهاليز القصر وأخذوه إلى مكان بعيد عن قصر الخلافة، عذّبوه، وأشاع أعداؤه بأنه يتآمر للإطاحة بالخليفة وقدّموا للخليفة براهين مختلقة، فأصدر الخليفة الغاضب أمراً باعتقاله من دون أن يحقق في الأمر، وبما أنه كانت تعوزه الشجاعة لمعاقبة معلّمه ووزيره الخطاط العظيم، بنفسه، أوكل هذه المهمة إلى أمرائه وحاشيته في البلاط الذين يثق بهم، لكنه لم يدرِ أنهم هم الذين يقودون المؤامرة على ابن مقلة. جُلد ابن مقلة، لكنه لم يخبرهم أين أخفى حروف أبجديته الجديدة بعد أن دوّنها، فقُطعت يده اليمنى، وهذا دليل قاطع على ما أقضّ مضجع أعدائه وهو خطه وخططه بشأن الحروف الأبجدية. وحُجزت ممتلكاته، وسرعان ما أُحرق قصره من الغوغاء. ويقال إن النيران

التهمت كل شيء فيه ما عدا الجدار الداخلي الذي كُتبت عليه كلمة «*الزمن*». وما لم تلتهمه النيران، سرقه الجياع في بغداد.

أعلن المتآمرون علناً أن ابن مقلة يتآمر على الخليفة. وخشي أصدقاؤه الوقوف إلى جانبه، وإظهار أي دعم له، ولم يبذلوا أي محاولة لمساعدته. لكن أحد مؤرخي القصر دحض الكذبة بأنه كان يتآمر ضد الخليفة، وكتب كبرهان على ذلك أن ابن مقلة لم يُعدم كما جرت العادة في مثل هذه الحالات، وإنما أرسل الخليفة طبيبه الشخصي أبا الحسن ثابت بن قرة لمعالجة جروح الخطاط العظيم، وكان يدخل يومياً على ابن مقلة لمعالجته: «كنت إذا دخلت عليه في تلك الحال يسألني عن أحوال ولده أبي الحسين فأعرّفه أحواله فتطيب نفسه ثم ينوح على يده ويبكي».

كتب ابن مقلة قصيدة عن خيبة أمله:

تحالف الناس والزمان
فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يوم
فانكشف الناس لي وبانوا
يا أيها المعرضون عني
عودوا فقد عاد لي الزمان.

ظل ابن مقلة طوال عمره يشكو تشوّه يده ويقول: «*يدي التي خدمت بها ثلاثة من الخلفاء وكتبت بها القرآن مرتين تُقطع كما تُقطع أيدي اللصوص*».

مع أنه بلغ الخمسين من العمر، لم يرض ابن مقلة أن يستسلم للأمر الواقع، فاستنبط رباطاً ثبّت فيه ريشته في معصمه المقطوع، وتمكّن بهذه الطريقة من أن يكتب من جديد، لكن خطّه فقد الكثير

من جماليته. أسّس ابن مقلة أول مدرسة عظيمة للخطّ ليهب علمه للآخرين، وشكّل مجموعة من الموهوبين الذين أدركوا أهمية خطة إصلاحاته وتذكّروها ونقلوها في حال حدث له أي مكروه. كان يأمل في أن يهزم الموت نفسه بغرس أسرار خطوطه في قلوب الخطاطين الشباب. فأين هذه النفس العظيمة الممتلئة حباً للخط من ادعاء المتآمرين أنه خطط لقلب الحكم؟

لكن ابن مقلة لم يبتعد عن قصر الخليفة ولم يدرك أنه كان يخطو خطوة أخرى إلى الفخ الذي نصبه له أعداؤه الذين حرَّفوا خططه المتعلقة بمدرسة الخط واعتبروها مؤامرة أخرى للإطاحة بالخليفة. غضب الخليفة السكير على ابن مقلة لأنه لم يستمع إلى نصائحه، وطلب من قاضيه ابن رائق أن يضع ابن مقلة تحت الإقامة الجبرية في منزل خارج المدينة، وأن يمنعه من أن يفضي بأسراره إلى أي شخص آخر. قطع ابن رائق عدو ابن مقلة الأول لسان ابن مقلة وألقى به في سجن على أطراف الصحراء حيث عاش في عزلة وبؤس شديدين لا يستحقهما مجرم سفاح.

لم تُجدِ احتجاجات الشعراء والعلماء نفعاً في ذلك الوقت. فقد سيطر ابن رائق على السلطة في القصر حتى أنه توصل إلى قرن اسمه مع الخليفة في الدعاء على المنابر.

توفي ابن مقلة في تموز (يوليو) ٩٤٠ م بينما كانت شهرته تطبق الآفاق في أرجاء العالم الإسلامي، ولا تزال حتى الآن.

ألقى أعظم شعراء عصره مثل ابن الرومي والصولي كلمات مؤثرة بجوار قبره. فلو كان ابن مقلة يتآمر حقاً على الخليفة أو على القرآن كما زعم أعداؤه، لما تجرأ أي شاعر على الثناء عليه والإشادة به، ناهيك عن إبداء حزنه عليه، لأن أولئك الشعراء والعلماء كانوا يعملون حينذاك في بلاط الخليفة، ويعيشون بنعمته وفضله.

«إن ما أصنعه سيبقى إلى الأبد»، أشهر عبارة قالها ابن مقلة، وحتى يومنا هذا فإنه يخبرنا عن رؤية رجل كان يعرف أن قواعد الخط العربي التي أرساها ستبقى طالما بقي الحرف نفسه.

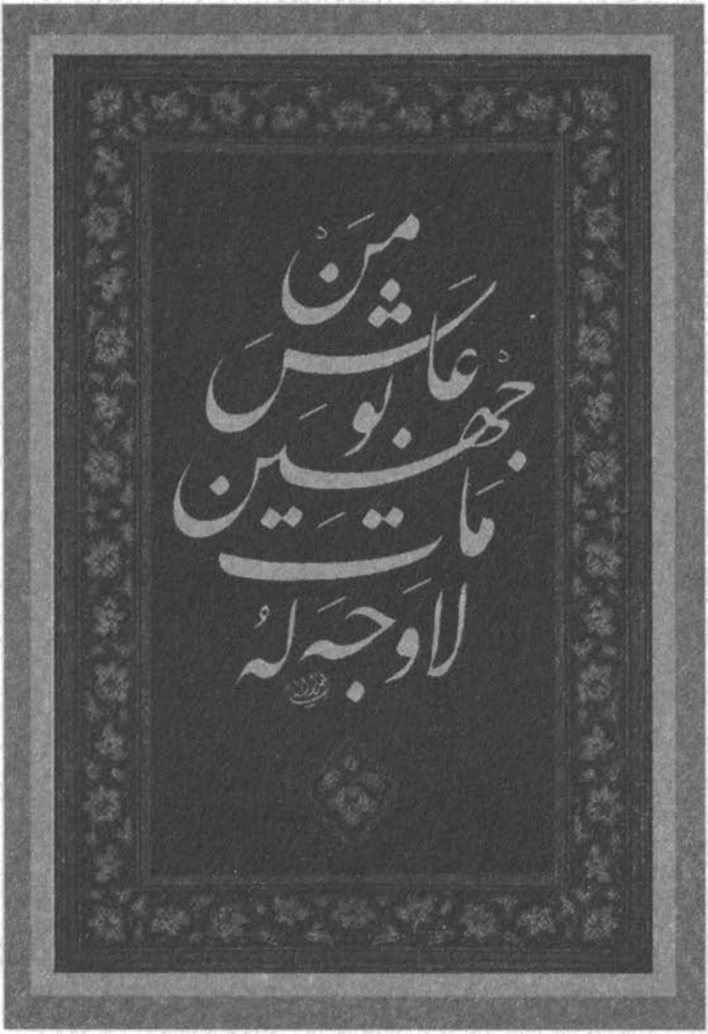

لوحة «من عاش بوجهين مات لا وجه له»

موسيقى تطرب العيون
مقدمة قصيرة عن الخطّ العربي

إن اللغة العربية هي اللغة الأمّ لأكثر من ٣٠٠ مليون عربي يستعملون الخط العربي في كتابتهم، وأكثر من مليارين مسلم يعيشون في البلاد العربية وباكستان وإيران وإندونيسيا وأفغانستان ودول أخرى.

لقد غيّر اختراع الأبجدية على يد الفينيقيين العالم تغييراً جذرياً. وشأن اختراع العجلة، فقد ساهم اختراع الأبجدية في تطوير الثقافة الإنسانية بسرعة كبيرة. ومن خلال اثنين وعشرين حرفاً، استطاع الفينيقيون إعادة إصدار الأصوات، أصوات كلام البشر. وبذلك أصبح بالإمكان التعبير عن البيانات الموضوعية والأفكار المجردة، وتسجيلها بسرعة ودقة أكبر بكثير من أي نوع آخر من الحروف المكتوبة.

هذه كانت إلى جانب اختراع الصفر أهم هدية للإنسانية قامت بها ثقافة ما. فمن الأبجدية الفينيقية، تطورت أبجديات عديدة كاليونانية والآرامية، وانتشرت الآرامية من شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط حتى وصلت إلى الهند. ومن الآرامية، تطورت كلّ من العبرية والعربية. ومن دون الصفر لم تتطور الرياضيات ولا أمكن اختراع الكومبيوتر.

تأكد اللغويون الآن من أن الخط العربي قد وصل إلى شكله النهائي من خلال مرحلة انتقالية، وهي اللغة النبطية العربية. إن الفتوحات العربية التي امتدت من القرن السابع إلى القرن الثاني عشر - في أقل من مئة سنة - أدت إلى توسّع الدولة الأموية من آسيا إلى الشرق الأوسط وأفريقيا حتى إسبانيا حيث انتشر الخطّ العربي على نطاق واسع أيضاً. وبما أنه لم يُسمح بترجمة القرآن، كان على المؤمنين أن يتعلموا اللغة العربية لأداء الفروض الدينية. وتأثرت اللغة الفارسية والتركية العثمانية والأردية بالخط العربي، كما حدث أحياناً في اللغات الإسبانية والبرتغالية والسواحيلية. لكن اللغة العربية نفسها انتشرت ببطء أكثر، واحتفظت كثير من المناطق بلغاتها كبلاد فارس ودياناتها كإسبانيا وجزيرة صقلية.

تُكتب اللغة العربية من اليمين إلى اليسار، وتتألف أبجديتها من خمسة وعشرين حرفاً ساكناً وثلاثة حروف علة طويلة (حروف المد واللين) وهي «الألف» و «الواو» و «الياء». في السابق، كانت حروف العلة القصيرة تُكتب أعلى وأسفل الحروف، الأمر الذي مكّن من قراءة النص بسهولة وبشكل صحيح، لكن الأبجدية الحديثة تخلت عن هذه الفروق الدقيقة.

تُكتب الكلمات العربية بوصل الحروف معاً، سواء أكانت مكتوبة باليد أم مطبوعة، ويُكتب معظم الحروف فيها بأربعة أشكال مختلفة، بحسب موقع الحرف في أول الكلمة أو في وسطها أو في نهايتها، أو منفصلة، وعلى سبيل المقارنة، فإن الأبجدية اللاتينية تُكتب في شكلين اثنين فقط، هما بالحرف الكبير والحرف الصغير. وثمة صعوبة أخرى في كتابة اللغة العربية تتمثل في إمكانية وصل كل حرف من الاثنين وعشرين حرفاً بحروف أخرى من كلا الجانبين، لكن هناك ستة أحرف (ا، ر، ز، د، ذ، و) لا يمكن وصلها بحروف

إن بيتاً يخلو من كتاب هو بيت بلا روح

تليها. وإذا جاء أحد هذه الحروف في منتصف الكلمة، فإنه يتوجب كتابة الحرف التالي يساراً كأنه يقع في بداية الكلمة. وعلى عكس الكتابة بالأحرف اللاتينية تؤدي الصلات التي تربط الحروف دوراً مهماً في تصميم الأبجدية العربية ورفع مستوى جماليتها.

لم يقدّم العرب قبل الإسلام الذين يعيشون في الصحراء فناً بصرياً يضاهي الرسم والنحت اليوناني أو الروماني، لكن طبيعة الصحراء تريح العين وتشجع اللسان على الحديث، وكان للعرب أحد أروع تقاليد الشعر في العالم. وقد رفع الإسلام من مكانة الكلمة وتعبيرها الجمالي بفن الخطّ الذي استُخدم في البداية لأغراض تجارية ودينية روحانية، ثم ما لبث أن دخل القصور وسُطِّرت به الأواني والحُلِيّ والكتب وغيرها من السلع الفاخرة. لكنه حافظ دائماً على مكانته العالية في نفوس العرب. فالمساجد تخلو من الصور والتماثيل، وزُينَت بالكتابات والخطوط الجميلة كأنها كتب ضخمة في حد ذاتها.

وهكذا أصبح الخط العربي الشكل الفني المرئي البارز في العالم الإسلامي، وكانت أهمية الخطاطين العثمانيين والفارسيين فيما بعد متميزة وساهمت أيضاً بدفعِ عجلة تقدم جمال الخط العربي إلى الأمام.

إن كان الخطّ قد استُخدم في البداية لأسباب دينية بحتة - لإضفاء شكل جمالي مقروء للنصوص المقدّسة، وتعميق الأجواء الروحية في أماكن العبادة من خلال الجمال والإيقاع والتأمل والتنوع الذي يظهره حتى في وحدته - فقد تجاوز الخط ذلك فيما بعد وأصبح شكلاً فنياً خاصاً ورائعاً، بغض النظر عن محتوى كلماته ومعناها.

حظي فن الخط بتشجيع كبير في بغداد. وأوصل ابن مقلة

وتلامذته الخط العربي على مدى ثلاثة قرون إلى درجة الكمال، ثم أخذ الخطاطون في إسطنبول على عاتقهم هذه المهمة، وطوّروا الخط العربي. والتزم جميع الخطاطين بقوانين الخط الصارمة التي أرساها ابن مقلة، لكن بوسع الخطاط أن يختار من بين أنماط عديدة من الخط، التي يتمتع كلّ نمط منها بفرص وإمكانيات لا حصر لها، كالانعكاسات والتكرار والربط بين الحروف، تيّسر للخطاط صياغتها وفق مُثُله الجمالية.

جمعت الطبيعة عبقرياتها فكانت الجمال

الثلثي

وكان أحسنه وأشرفه ما حلّ في الهيكل الآدمي وجاور العقل الشريف والنفس اللطيفة والحياة الشاعرة

النسخي

فالجمال البشري سيد الجمال كله

الفارسي

لا المثال البارع استطاع أن يخلعه على الدمى الحسان ولا النيرات الزهر في ليالي الصحراء ما له من لمحة وبهاء

الريحاني

ولا لبديع الزهر وغريبه في شباب الربيع ما له من بشاشة وطيب

الرقعي

وليس الجمال بلمحة العيون ولا ببريق الثغور ولا بهيف القدود ولا بأسالة الخدود

الديواني

ولا لؤلؤ الثنايا وعقيق الشفاه ولكن شعاع علوي ينبسط من البديع على بعض الهياكل البشرية

الديواني الجلي

يكسوها روعة ويجعلها سحرا وفتنة للناس

الكوفي

بيروت في ١٥ تموز ١٩٥٤

فؤاد نوفل صفا

تطورت أنماط مختلفة من الخط العربي على مدار قرون عديدة. ومع قدوم عصر الكمبيوتر، ظهرت مئات من أنماط الخطوط الأخرى، لكن إضافة هذا الكم الهائل إلى الخطوط الرئيسية القديمة لم يُحدث أي تطور من حيث الكم والكيف، ولا تزال أنماط الحروف الكلاسيكية الأساسية الستة التالية حتى الآن:

الخطّ الكوفي: وسُمّيَ كذلك نسبة إلى مدينة الكوفة في العراق، وقد بلغ درجة الكمال في النصف الثاني من القرن الثامن. ويضفي هذا النمط بحروفه العمودية التي تشبه المآذن نوعاً من القدسية عليه، لذلك كان يُستخدَم كثيراً في تزيين المساجد والقصور، وكذلك في تصميم الأواني اليومية. وأحد الأشكال الشائعة لهذا النمط هو الخط الكوفي «المزهر أو المورق»، حيث تنبثق منه النباتات والأزهار، وله تأثير زخرفي على الرغم من صعوبة قراءته. أما النمط الثاني، فهو الخط الكوفي «المضفر»، ولا يستطيع قراءته إلّا الخبراء في وسط كل تلك الزخرفة.

خط الثلث: (بالتركية السُّلس) وقد استمد اسمه من عرض رأس الريشة التي يُكتب بها، كانت أكبرها (الطومار) عرضها ٢٤ شعرة، ويُكتب خط الثلث بريشة عرضها ثماني شعرات فقط. وقد وصل هذا النمط إلى أوج كماله بين القرن السابع والقرن العاشر، وكان يُعتبر حجر الزاوية في فن أيّ خطاط. وأدى ذلك إلى تسميته «الخط المحقق».

كثيراً ما يُستخدَم خط الثلث في طباعة الكتب المميزة، والنصوص الدينية، وفي زخرفة المساجد والمباني الرسمية وتزيينها.

خط النسخ أو النسخي: ابتكره ابن مقلة (ويقال مع أخيه أبي عبد اللّه الحسن بن علي مقلة) في القرن العاشر لتسهيل عملية

النسخ، ولتسهيل قراءة النص بوضوح. تستخدم معظم الكتب المكتوبة باللغة العربية حالياً هذا الخط الأنيق والواضح.

الخط الرقعي: استُحدث هذا الخط من الخطوط العثمانية التي تهدف إلى تحقيق أقصى قدر من البساطة، وهو حرف صغير متلاصق من دون تشكيل أو زخرفة. انتشر بسرعة لأنه مناسب للكتابة باليد، ويُستخدم غالباً في طباعة عناوين الصحف العربية.

الخط الفارسي (ويُعرف أيضاً باسم التعليق أو النستعليق)، يمتاز بالرقة والديناميكية ويكون غالباً مائلاً. وتمتاز زواياه القليلة بأنها غالباً مستديرة. حروفه الأفقية سخية وتمتاز بامتداد عريض كأنه نوع من الموسيقى المرئية. وهو الخط السائد حالياً في إيران.

الخط الديواني: كان هذا الخط يُستخدم في الدوائر الرسمية في الدولة العثمانية، وهو خط مهيب، تأخذ حروفه في الغالب شكل دائرة قطرها يساوي ارتفاع حرف الألف.

خط الطغراء. انقرض هذا الخط الآن الذي يشبه بصمة الإصبع. وكان حكراً على السلاطين العثمانيين لأن تصميمه يضم اسم السلطان ولقبه السلطاني. واستُعمل هذا النمط لاحقاً في كتابة الأحاديث والأقوال الدينية، وأصبحت أيقونات. ولم تتبع الكتابة به القاعدة من اليمين إلى اليسار، لكن مساره يتبع متطلبات الشكل المطلوب. تروى قصة طريفة عن أصل هذا الحرف، فقد نشب خلاف بين زعيم الغزاة المغول في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، تيمورلنك، والسلطان بايزيد الأول. وبما أن تيمور لا يعرف الكتابة، فقد أملى الرسالة التي أرسلها إلى بايزيد على كاتبه ثم وثّقها ببصمة إبهامه، فردّ عليه السلطان العثماني بأسلوب معقد وكتب اسمه

بطريقة مزركشة - الطغراء - ليُظهر لعدوّه المستوى الرفيع الذي وصلت إليه الحضارة العثمانية.

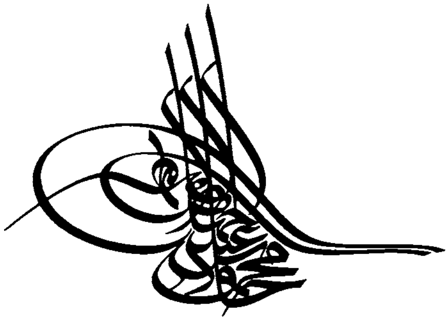

طغراء السلطان محمود الثاني

موسيقى تُطرب العيون

ثمة فروق كبيرة بين اللغة العربية واللغات المكتوبة الأخرى في العالم التي تستخدم اللغات اللاتينية والسريانية والعبرية واليونانية والكورية والصينية، وما إلى ذلك، التي يتألف الخط فيها، مثلاً، من وحدات مختلفة منفصلة بعضها عن بعض، وعلى الشخص الذي يكتب بها أن يضغط الريشة على الورقة ويرفعها باستمرار. لذلك تضطر العين عندما تقرأ إلى القفز من حرف إلى آخر ويقطع بذلك سيولة القراءة وسلاستها.

أما الحروف العربية فهي متصلة ومرتبطة ببعضها في الكتابة اليدوية وفي الطباعة. وتشكل الكلمات نهراً خطياً متدفقاً، وهذه الخاصية هي التي تميّز الخط العربي وتجعل منه وسطاً مثالياً قادراً على تلحين موسيقى تطرب العين. وكما تطرب الأذن بالموسيقى، فإن العين تستمتع برؤية الخط العربي، حتى لو لم تفهم النص المكتوب.

الخط الجميل حلية الكاتب

وبما أن الحروف العربية تُكتب متصلة بعضها ببعض، فإن مقدار مدّ الحروف يؤدي دوراً كبيراً في عملية التلحين البصري. إن مدّ الحروف أو تقصيرها بالنسبة للعين أشبه ما يكون إطالة أو تقصير النغمة الموسيقية للأذن. فيصبح حرف الألف بامتداده العمودي نوعاً من مقياس فاصل في الإيقاع الموسيقي. وبما أن أبعاد حرف الألف يحدّد أبعاد جميع الحروف الأخرى وفق مبدأ التناسب، فإنه يؤدي أيضاً دوراً بارزاً في ارتفاع وعمق «الموسيقى» التي تشكلها أفقياً الحروف في كل سطر. وتؤثر الموسيقى المرئية أيضاً على اختلاف العرض، من الرفيع جداً إلى السخي، سواء في الحروف نفسها، أو في الحروف المرتبطة في أعلى تلك الحروف أو أسفلها أو في منتصفها. إن مدّ الحروف الأفقية، والتناوب في انسياب الحروف المستديرة والزاويّة، وبين الخطوط الرأسية والأفقية لها كلها تأثير قوي على لحن الكلمات المرسومة، وتخلق لحناً خفيفاً ممتعاً ومبهجاً، أو حزيناً مؤثراً، أو ثقيلاً ومظلماً.

وإذا أراد الخطاط أن تكون موسيقاه سيمفونية رائعة، يجب أن يفهم معنى الفراغ بين الحروف والكلمات، الأمر الذي يتطلب مهارة كبيرة. إن الفراغات في لوحة الخط هي لحظات صمت. وكما هي الحال في الموسيقى العربية، فإن الخط يعتمد على إعادة بعض عناصره التي لا تُحدث منفصلة وقعاً وإنما يؤدي تكرارها ليس لطرب الجسد فحسب، وإنما تحلّق معه الروح إلى ما هو أبعد من العالم الحسي.

من الأوراق التي خلّفها لنا غوته، نستطيع أن نرى أن هذا العبقري العظيم كان يتدرب على كتابة الخط العربي مع أنه لم يكن يعرف قراءة اللغة، عندما كان يبدي اهتماماً بالشرق، وكتب أشعاره التي نُشرت في ديوانه (*الديوان الغربي - الشرقي*) ويحق لنا أن نتساءل لماذا كان يفعل ذلك؟

أدرك غوته أن شكل الخط العربي وسيلة رائعة لنقل طبيعة الثقافة العربية، حتى لو كان أولئك الذين لا يقرأون اللغة العربية ولا يفهمون فحوى النص. وفي رسالة كتبها إلى كريستيان شلوسر سنة ١٨١٥، ابن شقيق أحد أصدقائه المقربين، كتب أنه لا توجد لغة «تجمع بين الروح والكلمة والخط» أكثر من اللغة العربية. كان غوته يملأ ورقة تلو الورقة وهو يتدرب على الخط العربي، كما لو أنه كان يريد أن يكتشف من وراء «مجهوده الفني والفكري» هذا كيف يفكّر العرب وكيف يشعرون - كأنه كان يريد أن يصبح شرقياً. وكان في تلك التدريبات يرى بعينيه موسيقى النص ثم يخطّها بيده بخط جميل. لا بدّ أن غوته كان يسمع وقع النص العربي في قرارة نفسه.

أبجدية رائعة مع بعض الثغرات

إذا سألت شخصين عربيّين ما هو عدد حروف الأبجدية العربية، فربّما يجيبك أحدهم، بشيء من الحرج، «ثمانية وعشرون»، ويجيبك الآخر - بمزيد من الحرج - الذي من المحتمل أن يعارض هذه الإجابة ويقول: «لا، أنا متأكد من أنها تسعة وعشرون حرفاً». قد يبدو التضارب في هذا الرد وعدم دقته مفاجئاً، لأن السؤال ليس، مثلاً، عن عدد رموز اللغة الصينية التي يتعيّن على الشخص المتعلم الصيني أن يتقنها. حتى في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، يختلف هذان العددان في كتب تعلّم اللغة العربية أو الخط العربي، أو في منتديات النقاش على صفحات الإنترنت، وفي عقول وذاكرة العرب. لكن من أين جاء هذا الاختلاف في الرأي؟

يتألف الحرف التاسع والعشرون من حرفين في الأبجدية العربية وهما اللام (ل) والألف (ا)، لذلك فمجموعهما (لا) ليس حرفاً، وإنما أداة نفي تعني «لا».

الأبجدية العربية

لكن كيف تغاضى ملايين العرب - بمن فيهم أدباء وفلاسفة وعلماء لغة، سواء كانوا أحراراً أم متمرّدين، ومبدعين وأصوليين

تقليديين، الذين أمضى بعضهم شهوراً، لا بل سنوات في مناقشة أحد أشكال الشعر أو تصريف فعل من الأفعال، عن هذا النقص أو العيب في أبجديتهم التي يدّعون عشقها؟

تتعلق الإجابة على هذا السؤال بتاريخ هذا الحرف، وبتاريخ المجتمع العربي. فقد رُويت أساطير عديدة حول الحرف المزعوم «لا». واستناداً إلى أكثر الروايات شهرة في هذا السياق، فإن أحد الصحابة سأل النبي محمد كم حرفاً أنزل اللّه على آدم، فقال: تسعة وعشرون، فقال الصحابي: لقد عددتُ ثمانية وعشرين، فغضب رسول اللّه حتى احمرّت عيناه وقال: ما أنزل اللّه على آدم إلّا تسعة وعشرين حرفاً، وأضاف أن لام ألف هما حرف واحد أنزله على آدم في صحيفة واحدة ومعه سبعون ألف ملَاك، والحرف التاسع والعشرون هو «لا». إن هذا الحديث يخالف كل المعلومات الوثيقة عن النبي الكريم بتسامحه الكبير في مسائل اللغة. وظل آلاف العلماء والقرّاء صامتين حول ذلك طوال ١٣٠٠ سنة، وعلّموا أبناءهم أبجدية فيها حرف زائد وهو ليس حرفاً على الإطلاق. وبقيت اللغة العربية من دون إصلاح طوال هذه المدة. لكن الشجعان ما فتئوا يدعون إلى إجراء إصلاح، لكن دعواتهم ذهبت هباء منثوراً.

لكن الآن بدأ هذا الحرف المزعوم بالاختفاء وبصمت فالنقد الذاتي ليس من خواص مفكّري بلاط السلاطين العرب ولا من أسيادهم.

لا يمكن أن يُعزى جمود اللغة العربية وأبجديتها إلى الأصولية الدينية التي أضفت قدسية على اللغة واعتبرت أن أي تعديل فيها هو اعتداء على اللّه والقرآن، فحسب، بل هو متجذّر على نحو أعمق في النظام القبلي العشائري العربي نفسه، الذي كان وسيلة رائعة لمواجهة الظروف الحياة الصحراوية الصعبة، ومكّن العرب من البقاء لآلاف

السنين، لكنه لا يتحمّل أي تغيير، وثبت أنه يشكل عقبة كبيرة أمام المزيد من التطور.

كان الخليفة بمثابة رئيس قبيلة كبيرة، يعيش في العاصمة، ويُبقي الولاة والأمراء بقربه وتحت مراقبته المباشرة وقد سادت في العاصمة ثقافة عالية من مطلع القرن السابع وحتى نهاية القرن العاشر، بخلاف المدن الأوروبية في ذلك الوقت. لذلك لم تلعب المدينة العربية في التاريخ العربي (وفي التاريخ الآسيوي بشكل عام) دور مكان قيام البرجوازية بالتمرد والإصلاح ضد سلطة الإقطاع، وإنما كانت مكان إقامة الحاكم وأمراء الدولة وإقطاعيّي الأراضي والفلاسفة والشعراء والعلماء في الدين والتاريخ واللغة. ولم يكن بالإمكان القيام بعمل شيء هناك من دون موافقة الخليفة أو السلطان أو الملك. لكن كان هناك بالطبع متمرّدون يطالبون بإجراء إصلاحات، لكنهم كانوا يُنفون أو يضطهدون أو يعدمون في معظم الأحيان. إلّا أن بعض الحكام المستنيرين (كالمأمون) جعلوا قصورهم مراكز إشعاع للتقدم الثقافي ويجب أن نشكرهم على التطورات التي أحدثوها في مجالات الفلسفة وعلوم الطبيعة، فضلاً عن تشجيع أجمل الأشعار في العالم. لكن لم يكن هناك خليفة يمكنه أن يضمن ما الذي سيفعله الخليفة الذي سيعقبه فمن خليفة يدفع ذهباً ثمن كل ترجمة الى آخر عربيد يأمر بحرق الكتب. . .

كانت الدراسات الأدبية والفلسفية والرياضية والتأمل تجري في القصر أو في ظلّه، ولم يكن مصطلح «شاعر البلاط» آنذاك لقباً مذموماً أو مهيناً، وإنما يصف تقليداً راسخاً للشعر في شبه الجزيرة العربية لم يكد يتغيّر حتى عصرنا هذا. إذا نظرنا من بعيد، يبدو لنا أن شعراء البلاط المعاصرين هم أنماط معاصرة، يتخفّون تحت لغة إنكليزية جيدة إلى درجة معقولة، وهاتف خليوي وسيارة ليموزين،

وفي كثير من الأحيان يظن من يستمع إليهم وهم يناقشون أعمال ماركس وهايدغر وسارتر وعدد آخر من كبار مفكري التاريخ - أن موقف مفكري البلاط الجدد تقدمي، ليبرالي ومحدث وحتى «مابعد محدث» إذا لزم الأمر. لكن بإلقاء نظرة ثاقبة، نجد أنهم من أنصار نظام بلدهم الحاكم (يكملون بموقفهم عمل جلاديه) الذين تتمثل مهمتهم في الإشادة بالحاكم وتشويه سمعة أعدائه وتبرير الإجراءات الوحشية التي يتخذها ضدهم. كانت هذه هي الوسيلة المتبعة في الماضي، ولا تزال حتى يومنا هذا.

لكن منذ البداية، كان هناك تقليد آخر، وهو تمرد الفلاسفة والشعراء الذين يعيشون خارج القصور الذين محيت أو زُوّرت آثارهم إلى درجة كبيرة. ولا يزال هؤلاء الأشخاص مضطهدين، لكن بفضل تكنولوجيا الاتصالات العالمية لم يعد بالإمكان إسكات أصواتهم.

يُعدّ القرآن الكتاب المقدس لأكثر من ملياري شخص، ويجب ألّا يمسّه أحد. لكن اللغة العربية المستخدمة في الحياة اليومية والدراسة والشعر لا تزال بحاجة إلى إصلاح جذري. يجب أولاً إصلاح اللبنات الأساسية للغة وحروفها لكي نساهم لا كمستهلكين مفعول بهم بل كفَعَلَة. إذ تفتقر اللغة المكتوبة إلى حروف معيّنة مثل E و O و P و W التي تحتاج إليها بغية التواصل بسهولة مع اللغات الأخرى واعتماد عباراتها من دون الحاجة إلى كتابة الكلمات خطأً أو بالأبجدية اللاتينية. إن اللغة الفارسية التي يتحدّث بها الإيرانيون قادرة على استيعاب المصطلحات العربية والصينية، بالإضافة إلى كلمات في اللغات التي تستخدم الأبجدية اللاتينية من دون استخدام الأقواس للمساعدة. ولا تزال السطور والصفحات والكتب العربية متناغمة مع العين، وتتدفق القراءة بسلاسة من اليمين إلى اليسار، لكن الأمر ليس كذلك في الكتب العربية التي تتناول كل العلوم

الطبيعية وعلم النفس والفلسفة والاقتصاد والإلكترونيات والطب التي تتخللها تعابير لاتينية يجب قراءتها من اليسار إلى اليمين.

في العالم العربي، يُعدّ تطويع المصطلحات العلمية والفلسفية والتقنية والاجتماعية الحديثة باللغة العربية عملية يشوبها التردد وغير منسقة. لكن قطار الحداثة السريع يمضي بسرعة لا ترحم أحداً، الكلمات الجديدة التي تنتجها العقول المبدعة هي قضبان سكته. أحد الشباب العرب أبلغني بفخر أنه يعرف ثلاثين مرادفاً لكلمة «أسد»، وأعلن أحد اللغويين العرب بفخر أنه قرأ مئتي مرادف لكلمة «لحية» في كتاب ابن فارس.

كان هذا الأمر رائعاً بالنسبة للكتّاب في القرن الثامن، لكن ماذا عن الكلمات العربية المرادفة لكلمة «هيدروجين» أو «عجلة القيادة» أو «راديو» أو «أوكسيد» أو «كمبيوتر» أو «رقمي»؟ لا يوجد جواب. بالاعتماد على قوة الاستعمار السابق الذي كانوا يخضعون له ذات يوم - وحتى في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين - فإن بعض العرب يعتمدون المصطلحات الإنكليزية، في حين يعتمد البعض الآخر على المصطلحات الفرنسية حسب البلد الأوروبي الذي استعمر بلدانهم. وتشير التقديرات إلى أن حوالي ستين ألف كلمة تُستخدم في الفيزياء الحديثة، ومئة ألف كلمة في الكيمياء، ومئتي ألف كلمة في الطب، ويوجد في علم النبات أكثر من ثلاثمئة وخمسين ألف نوع من النباتات، ويوجد أكثر من مليون نوع من الحيوانات. يجب أن تستوعب اللغة العربية كلّ هذه الكلمات إذا قيّض لها أن تصبح لغة عالمية، لكنها تتردد، تشعر بحيرة أمام كلّ هذه الاختراعات والابتكارات والسرعة التي تأتي بها، وإذا لم تواكبها، فإنها ستصبح لغة عتيقة.

يدّعي الأنبياء المزيفون أن الحلّ السحري حتى لا تصبح اللغة

مستحاثة يكمن في أن يتخلّى العرب عن اللغة العربية الفصحى وأن تُكتب باللهجات المحلية. هذه الأفكار السخيفة تماثل امتداداً فكرياً للاستعمار في القرن التاسع عشر. أين هو الشعب الذي تمكن من التغلب على أزمة يواجهها بأن يهجر لغة ثقافته الرفيعة ويحلّ محلها لهجات محلية؟

أما الاتجاه الثاني فيتمثل في الدعوة إلى التخلّي عن الحروف العربية لتحل محلها الأبجدية اللاتينية، وهو تغيير نجح في فرضه مصطفى كمال أتاتورك على اللغة التركية عام ١٩٢٨. قد يبدو هذا الإصلاح الناتج عن استعباد عقول مقترحيه من قبل أوروبا منطقياً للبعض، وأخشى أن يتحقق إذا لم يستيقظ العرب ويُدخلوا إصلاحات على لغتهم وأبجديتهم، ويبذلوا جهداً لمواكبة الحضارة العالمية المتغيرة. لكن اقتراحاً سخيفاً كهذا لا يقبله أي عقل عربي منطقي لأن الأبجدية العربية حيوية وجميلة وإحدى ركائز مدنيتنا وثقافتنا العربية.

قُدِّم اقتراح شجاع لحل أزمة اللغة العربية في سبعينيات القرن العشرين، لإعطائه حقه، يجب التأكيد على المشكلة الأساسية في حروف الأبجدية العربية (التي كانت واضحة منذ البداية): إذ تشبه حروفها بعضها بعضاً إلى درجة كبيرة. في وقت سابق، قام العلماء بعدة محاولات إصلاحية لإزالة اللبس والقراءة بطريقة خاطئة (خصوصاً النصوص المقدسة). فقد اتُّخذت الخطوة الأكثر أهمية في القرن الثامن في ظل الدولة الأموية، عندما أُدخلت النقط على خمسة عشر حرفاً كما ذكرنا آنفاً فازدادت الحروف التي تُكتب بالطريقة نفسها وضوحاً ودقة.

فقد أعيدت كتابة القرآن بهذه الحروف المعدلة، وأصبح بإمكان أي طالب أن يقرأ النص بسهولة ومن دون أخطاء، بينما كان

الدارسون يجدون صعوبة قبل ذلك. إن هذه الحقيقة التاريخية تكذّب أي متعصب إسلاميّ يدّعي أن اللغة والحروف العربية مقدسة. فهي من أصل بشري، لذلك يجب أن تظل حيّة عن طريق الابتكار.

ثمة مشكلة أخرى أتينا على ذكرها سابقاً، وهي أن معظم الحروف العربية تُكتب بأربع طرائق مختلفة وذلك حسب موقعها في بداية الكلمة أو في منتصفها أو في نهايتها، أو إذا كانت قائمة بحد ذاتها. إن هذه القواعد تُجبر الطالب على تعلّم أكثر من ١٠٠ شكل من الحروف، بينما يتعلم الطفل الأوروبي قرابة خمسين شكلاً فقط. قال الكاتب المصري الكبير طه حسين (١٨٨٢-١٩٧٣) ذات مرة: «يقرأ آخرون ليدرسوا، أما نحن فعلينا أن ندرس حتى نستطيع أن نقرأ». إن شكواه أكثر من مبررة.

بعد سنوات من العمل الشاق، طوّر الشاعر والرسام والخطاط العراقي محمد سعيد الصكار ما أطلق عليه اسم «الأبجدية العربية المركزة» تضم خمسة عشر حرفاً فقط، ويُكتَب كلّ حرف في شكل واحد أينما وجد هذا الحرف في الكلمة. وأشار الصكار إلى ابتكاره الذي نال براءة اختراع عليه بأنه «يكسر قيود الحرف» ويسهّل القراءة والتعلم ويبسط العمل على الكمبيوتر والطباعة. في البداية، استقبل صدام حسين نظام الكتابة الجديد هذا في بغداد بحماسة شديدة، لأنه رغب في أن يقدّم هذا الابتكار باعتباره أحد إنجازات نظام البعث، لكنه سرعان ما أدرك القوة التفجيرية الكامنة في هذا الإصلاح التي قد تهدد حكمه فتراجع هذا الجبان عن إعجابه. ولذلك اتُّهِمَ الخطاط الفذ «بانتمائه إلى الماسونية» التي يكمن هدفها الوحيد في تدمير الثقافة العربية.

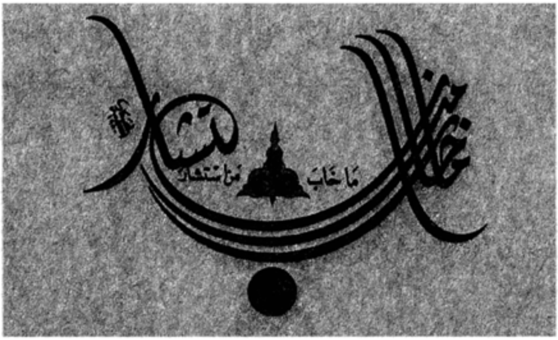

لوحة فنية للخطاط والشاعر الكبير محمد سعيد الصكار

كانت هذه الإدانة التي أعلنها خال صدام حسين، المجرم خير اللّه طلفاح، بمثابة حكم بالإعدام على الصكار الذي هرب من العراق عام ١٩٧٨، وعاش في المنفى في باريس ورفض كل دعوات نظام صدام حسين المتملقة له للعودة، لاستغلاله كورقة توت تستر عورته، كما فعل النظام السوري مع كثيرين من الفنانين والكتّاب المنفيين. وظل محمد سعيد الصكار في باريس، حيث احتفي به هناك، حتى وفاته في عام ٢٠١٤.

مع احترامي الكبير للجهود التي بذلها الصكار، لا بدّ من القول إن اختزال عدد حروف الأبجدية يؤدي إلى إفقار اللغة والتقليل من جماليتها وروعتها، وسيتعيّن عندها إعادة كتابة القرآن، وإحداث اضطراب في التعليم في العالم الإسلامي، وإحداث فوضى عارمة، لأنه ساعتها سيصبح لدينا أبجديتان متناقضتان، وفوضى غير معهودة.

يكمن الحل في زيادة حروف تساعد على إزالة اللبس. إن زيادة أربعة حروف مساعدة لن تؤثر على لغة القرآن الكريم، وإنما تزيد اللغة المستخدمة في الحياة اليومية والشعر والعلوم ثراء. لقد زاد الإيرانيون والباكستانيون والأفغان وغيرهم من الشعوب الإسلامية عدد الحروف منذ زمن، ولم يتأثر إيمانهم بذلك.

من المؤكد أنه لا يوجد نقص في الإمكانيات المالية في الدول العربية لدعم مثل هذا الإصلاح الجذري للغة وأبجديتها. إذ تكفي عائدات نفط ليوم واحد لدعم ترجمة أهم الكتب وتجديد المفردات العربية. غير أن اتخاذ خطوات كهذه يستلزم وحدة وديمقراطية وحرية في البلاد العربية - ولا يزال إصلاحٌ كهذا أملاً وحلماً قد يتحقق في المستقبل البعيد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الخطُّ يبقى زماناً بعد كاتبِهِ
وكاتبُ الخطِّ تحتَ الأرضِ مدفونُ

هذا الكتاب

كانت مدينة دمشق القديمة لا تزال ترقد تحت عباءة الشفق الرمادية قبل بزوغ الفجر، عندما بدأت إشاعة يصعب تصديقها تتسلل إلى طاولات مطاعم الوجبات الخفيفة الصغيرة، وتلوكها ألسنة الزبائن الذين وصلوا إلى المخابز في وقت مبكر. فقد بدأ يتردد على تلك الألسنة أن نورا الجميلة، زوجة الخطاط المشهور والغني الذي يحظى باحترام كبير، حميد فارسي، قد هربت...

في نيسان ١٩٥٦، كانت قصة حبّ لاهبة قد بدأت منذ سنة. فقد وصلت نورا آنذاك إلى نهاية زقاق مسدود، وفجأة اخترق الحبّ الجدران الشاهقة أمامها وكشف لها مفترق طريق الحظ، وكان على نورا أن تتصرّف.

لكن بما أن الحقيقة ليست بسيطة مثل ثمرة مشمش، ففيها نواة ثانية، لم يعرف أحد، حتى نورا، شيئاً عنها، والنواة الثانية لهذه القصّة هي *سرّ الخطاط الدفين*.

تصميم الغلاف: مكتبة ملوّن
رسمة الغلاف: روت ليب

مكتبة
t.me/soramnqraa